

الهيئة العامة للكتاب - مكتبة الأهرام - مكتبة

رقم التسجيل 291

رقم التسجيل ٢/٢٠٦٥٦

الكويتي

مشروع رؤية جديدة للفكر العربي
منذ بداياته حتى المرحلة المعاصرة
في ١٢ جزءاً

من يومه إلى الله

الجزء الثالث

المجلد الثاني



Digitalized by the Alexandria Library (GOAL)
مكتبة الإسكندرية



جميع الحقوق محفوظة لدار دمشق

الطبعة الاولى

٨٥ - ٨٦

دمشق - شارع بوردجيس - هاتف ٢١١٠٤٨ - ٢١١٠٢٢
بيروت - الحمراء - شارع المقدسي - بناء بونس - ص ١٤٥٢٩٩



هذا «المجلد الثاني» من «يهوه إلى الله»

الانتقال من اليهودية إلى المسيحية مثل ، في تاريخ البشرية عموماً وتاريخ الشرق العربي على نحو الخصوص ، أمراً عملاقاً ترتب عن تحولات نوعية كبرى على صعيد هذا الأخير ، كما ترتب عليه هو نفسه نشوء احتمالات وآفاق جديدة في الحقل الأيديولوجي والثقافي العام . هذه العملية المزدوجة المركبة والمتراكبة جدلياً تضامياً هي ما نصبو إلى إعمال مبضعنا فيه بحثاً وتقصيماً .

والمجلد الثاني هذا من كتاب «من يهوه إلى الله» يشكل مع نظيره الأول وحدة متكاملة بالاعتبارين النظري والمنهجي . وإذا كنا غوليين بالأعلان عن أن أحد الأهداف المحركة لنا في هذا الكتاب يقوم على ملاحقة واكتشاف القانونية الاجتماعية التاريخية والتراثية التي اخترقت الوجود اليهودي والمسيحي ، فإننا نتحفظ شديد التحفظ حيال ما يقوم به البعض من جهود باتجاه البحث عن غائية قبلية تحكم مسار ذلك الوجود . ذلك لأن مثل هذه الجهود تقود إلى الاطاحة بالسياق الاجتماعي والتاريخي والتراثي للوجود المعني . وإذا كان لنا أن نحتفظ بمفهوم «الغائية» في البحث الذي بين أيدينا (وفي أي بحث آخر) ، فإننا - آنثر - لا بد أن نفهم هذه الغائية على أنها وجه من أوجه ذلك السياق .

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك ما سوف نعمل على معالجته على صعيد الدين الشرقي (العربي) الثالث ، الاسلام . وبطبيعة الحال ، فإن ذلك التعميم المنهجي لمسألة «الغائية» لا يتعرض ، بحال من الاحوال ، لمصادقية الخصوصية النسبية التي تحوز عليها هذه المسألة نفسها على صعيد حالات متعددة ومتباينة . فحيث لا يوجد مطلق إطلاقاً - وهذا ما نواجهه في كل مستويات

الوجود - ، فإن هذا الأخير نفسه يكتسب أشكالاً مشخصة تنطوي على كثير أو قليل من الخصوصية .

إن «يسوع» ، الذي واجهناه فيما قبل ، «يشوعاً» ، هو ما سنواجهه على المستوى الأول وللوهلة الأولى . ومن أجل إحاطة معمقة بذلك ، سوف نجد أنفسنا أمام مجموعة المسائل الكبرى والصغرى وما بينهما ، تلك المسائل التي علينا أن نحل مغاليتها . وهذا ، بدوره ، يشير إلى أننا مدعوون إلى الإحاطة المنهجية بـ «مادة بحث» لا بد من أجل اقرارها أن تُطرح هي نفسها على بساط البحث . وإذا كان الأمر كذلك ، أصبح متعيناً علينا أن نضع بالحسبان أننا - في بحثنا الذي نقوم به - أمام قضية تستأهل نظراً منهجياً معمقاً ونفساً طويلاً لا يعرف الكلل .

وإذن سيكون موقفنا هكذا في المجلد الحالي .

القسم الأول

المسيحية (اليسوعية)

في بنيتها العقيدية وسياقها التاريخي والاجتماعي

الفصل الأول

من اليهودية إلى المسيحية ، ومن «الغويم» إلى «الأمم» : يسوع الفادي و«يوم الدينونة»

١

المسيحية بدون «مسيح تاريخي»

كتب الطبيب المفكر Albert Schweizer منذ ما يزيد على ثلاثين عاماً فكرته الشهيرة التالية : «على المسيحية الحديثة مسبقاً ودائماً أن تحسب حساب امكانية تحلٍ محتمل عن تاريخية يسوع»^(١) . وقد سبق شفايتزر ولحقه جمع من الباحثين والمفكرين إلى طرح هذه الفكرة المثيرة الانعطافية في سياق مجموعة من الأبحاث والدراسات ، وكذلك في أطر ومستويات بحثية مختلفة ومتعددة .

ومن طرفنا ، فإننا ننتبين في تلك الفكرة وجهين اثنين ، كلاهما هام بل خطير الأهمية على الصعيد المنهجي النظري وما يتصل به من آفاق البحث في المسيحية . الوجه الأول يتمثل باتجاه الإطاحة بتاريخية وواقعية «يسوع المسيح» ، تلك التاريخية وهذه الواقعية التي ينشبت بهما الانجيليون ورهط من الباحثين انطلاقاً من الاعتقاد بأنها تجسدان حجر الزاوية في المنظومة العقيدية المسيحية . أما الوجه الثاني من الفكرة المعنية فيعبر عن نقطة قوة كبرى في البنيان العقيدي المسيحي ، قد يرى البعض أنها - على العكس من ذلك - موطىء ضعف أو إنهاك أو تصفية لهذا البنيان . فلقد بدا أن التضحية بيسوع المسيح ، بمثابة شخصاً واقعياً تاريخياً ،

1) Albert Schweizer: Geschichte der Leben- Jesu- Forschung- Tuebingen 1951, S. 512.

ارتدت على المسيحية ، كمنظومة عقيدية ، بمزيد من الأهمية الاجتماعية المشخصة ومن الخصوبة التاريخية والذاتية . إذ في هذه الحال المحددة ، برزت تلك من حيث هي حركة اجتماعية كبرى ، أسهم في بنائها وصوغها وبلورتها عمقاً وسطحاً عدد ضخم من الناس والمجموعات الانسانية بكفاءاتها وقدراتها القيادية والتأهيلية والتنفيذية ، ولكن كذلك وربما بالدرجة الأولى الايديولوجية والعاطفية الإنسانية . وهذا يعني أن المسألة المطروحة تكمن في النظر إلى الدين الجديد بمثابة فعلاً جمعياً جماعياً وليس نخبويّاً ذاتياً .

وإذا كان الموقف على ذلك النحو ، فعلينا - في درسنا وتقصينا للمسيحية اليسوعية - أن نتوقع وجود «مسحاء» كثر هم الذين منحوها طابعهم الجماعي ونزوعهم الكوني الشمولي ، كما هم الذين جعلوا منها ، بنشاطهم الكبير المتعدد الأنحاء والصيغ ، بديلاً ضخماً عما سبقها من ذهنيات سحرية وأسطورية ودينية . وإذا كان هذا القول فيه الكثير من التعميم ، فلعلنا نخصصه باتجاه أحد المواقع ، الذي برزت فيه العقيدة الدينية الجديدة ؛ ذلك هو موقع البنية والوظيفة . وبذلك ، يغدو الحديث عن «البديل» المشار إليه حديثاً في البنية النوعية الجديدة ، وكذلك في الوظيفة أو الوظائف النوعية الجديدة .

لقد كمنت القوة العظمى للمسيحية - في ارهاصاتها الأولى الباكورة - في قدرتها الخلاصية النافذة والمتأسكة على تحريك الطبقات والفئات الاجتماعية الدنيا ، وما حولها وما بينها من شرائح وأنساق اجتماعية منبوذة ودون حد البؤس الاجتماعي أو حوله ، باتجاه «مثل عليا» جديدة أخذت تنافح عنها بكل الوسائل الاجتماعية والقسالية والسياسية ، وكذلك «السلبية» . ذلك لأنها رأت فيها الصيغة المثلى والقصوى لتحقيق مطامعها في «الخلاص» من عالم أصبح ، فعلاً ، مسرحاً ضخماً لـ «الجهنم والظلم والبؤس» . أما الركيزة العقيدية المحورية ، التي عملت على التمكين لتلك المثل في الأوساط الاجتماعية المنوه بها ، فقد برزت - من حيث الأساس العام - في أنسنة الإله من طرف ، وفي تأليه الانسان من طرف آخر وبأن واحد ، وذلك بحيث وجدت تلك الأوساط نفسها وقد امتلكت - وإن عن طريق الوهم والتوهم - قدرة هائلة لتحقيق خلاصها من طغاة الثروة والسلطة السياسية .

ولقد كان من شأن ذلك أن جعل الأوساط المعنية ترى في تلك المثل أمراً ممكناً ومشروعاً في الحقل العقيدي الديني ؛ ومن ثم ، غدا واجباً عقيدياً مُلزمًا بالنسبة إليها أن تكافح من أجل تحقيقها . وعبر هذا وذاك ، تبلورت الفكرة بأن من حقها ، أيضاً ، أن تصونها (المثل) وتعمل على أن تحققها وفق مصالحها ومطامعها ، وانطلاقاً من توجهاتها الذهنية التأويلية .

ذلك أولاً ، من طرف آخر مقابل ، لابد من الإشارة إلى أن المثل العليا الجديدة استمدت قوتها - في السياق المسيحي العقيدي - كذلك من المعطى التالي ، وهو أن عملية الأنسنة والتأليه المأتي على ذكرها لم يُنظر إليها من موقع «المخلص المسيح» وفي حدوده فحسب ؛ بل إنها (العملية) امتدت ، كذلك وعلى طريقة التضمين والتوسيط والترميز ، إلى المخلصين أنفسهم . أي إننا ، هنا ، نكاد نقول ، ان هؤلاء تحولوا - ضمن الرؤية إياها وبدرجة متواترة بين القوة والضعف وفق مسار التفسير والتأويل والاجتهاد - إلى مخلصين . وبذلك ، فقد ظهرت المسيحية اليسوعية ، حقاً ، بمثابتها حركة جمهور منسج ومتعاطس من العبيد والفلاحين الفقراء والفلاحين المعدمين . أما تحولها إلى تيار أممي (بتعبيرها) فقد كان قد تحقق مع دخولها العالم الهليني ، حيث استطاعت هنا أن تستقطب جموع المعدمين المدينيين والعبيد ، على نحو خاص^(١) . وهنا ، في هذا المقعد الخطير والطريف للمسألة ، نطرح السؤال التالي فقط على سبيل التفكير في دلالات «المسيح» من حيث هو صفة لـ «المسيحيين المخلصين» ، وليس بمثابته اسم علم : هل متاح لنا أن نتحدث عما لا يخص من المسيحيين في الحركة المسيحية ؟

بيد أن يسوع المسيح وإن برز مخلصاً يضحّي بنفسه فداءً من أجل الآخرين (وقد أتينا فيما سبق على نصوص انجيلية تبرز يسوع المسيح من حيث هو حمل مذبوح من بداية العالم ليبقى هكذا حتى نهاية العالم وحدث الدينونة) ، فإنه كان يفعل ذلك بمشاركة نشطة مباشرة من قبل «المؤمنين الشهداء» . إن هؤلاء يشتركون في

(١) أنظر : Mayers Neues Lexikon- Band 2, VEB Bibliographisches Institut, Leipzig 1962, Stichwort :

Christentum, S. 299

إنجاز ذلك «الفعل الكوني العظيم» من حيث هم وجه من أوجه العذاب الذي يعم الكون ، بمن في ذلك ، أو في مقدمة ذلك يسوع المسيح ، المخلص نفسه (وسوف نجد أن مقولات الحب والعذاب والخلاص والاله الكامل واله العذاب الخ . . . تشغل حيزاً رئيسياً في البناء الديني الجديد) .

تلك علامات عامة وكبرى جسدت التحولات الملحوظة ، التي طرأت باتجاه المسيحية ومن موقعها . بيد أن الشخصية الغنية المتميزة لهذه الأخيرة كانت قد انطلقت ، في أساس الأمر وعموميته ، من الوضعية الاجتماعية التاريخية المشخصة ، وتبلورت ضمنها وفي الاحتمالات والآفاق التي أثارته . فاستداد الآفاق أمام هذه الوضعية أولاً ، واستنفاد كل مامن شأنه أن يؤدي إلى تحسين أوضاع الجمهور المضطهد والمقهور في اطار الطبقات والفئات الدنيا ثانياً ، كان قد صاغ الحوافز والمطامح الموضوعية الضرورية والذاتية ، ضمناً وعلانية ، التي كمننت وراء اعلان البديل الجديد عن نفسه .

ونواجه لدى لودفيج فويرباخ مجموعة من الموضوعات الجديدة بأن نوليها اهتماماً منهجياً خاصاً على صعيد ما نحن في سبيل تفصيله . من ذلك ما يكتبه الفيلسوف المذكور حول العلاقة بين «الاله» و«المسيح» و«الانسان» : «كل الأفكار والأحاسيس التي تقتزن بالمسيح ، تتمركز في مفهوم العذاب . والاله كإله هو المفهوم الجوهرى للكمال الانساني ؛ في حين أن الإله كمسيح هو المفهوم الجوهرى لكل عذاب انساني»⁽¹⁾ . ويخترق فويرباخ المسألة من جانب آخر ، مُعنيًا إياها على نحو عميق حقاً : «كلما كانت الحياة أكثر فراغاً ، كان الاله أكثر امتلاءً وأكثر تعييناً (تشخيصاً) . إن إفراغ العالم الواقعي وإملاء الألوهية ، هما عملية واحدة . والانسان الفقير هو وحده يمتلك الها غنياً . ومن ثم ، فالاله ينبعث من الشعور بنقص ما»⁽²⁾ .

ان ذلك من شأنه أن يلقي ضوءاً على عملية التواتر الوظيفي القائمة في العلاقة بين المفاهيم الثلاثة المذكورة آنفاً . فالاله ، بما هو إله ، لا بد وأن يكون في قمة

1) Ludwig Feuerbach- Das Wesen des Christentums, a.a.O., S. 116.

2) Ebenda- S. 136.

الكمال الذي أفاضه الإنسان عليه ، بحيث يخلق «الناقص» كماله فيما ليس فيه ، أي في جوهر علوي . ولكن هذا الاله الكامل الذي تناط به مهمة «التخليص» ، تخليص ذلك الانسان ، لا بد وأن يطرأ عليه تغير وتحول ، بحيث يؤدي ذلك إلى تحوله إلى إله «أقل كمالاً» ، أي إلى جوهر لصيق بالانسانية «الناقصة» . وهنا ، يبرز المسيح من حيث هو الاله المعذب . ولما كان الكمال الالهي منوطاً بما ينبعث من المصدر الانساني غير الكامل ، فإن الإله المسيحي غدا إله المقهورين المضطهدين ، الذين يفتقدون العناصر الأولى لـ «الكمال» في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية (الروحية) .

من هنا وعلى هذا النحو الفكري الفويرباخي المجرد ، ولكن الصحيح في أساس الموقف ، تبين اللوحة الاجتماعية الاقتصادية والروحية (الثقافية) ، التي بلغت حد الاستنفاد القطعي في المرحلة الانتقالية مما قبل الميلاد إلى ما بعده : إله كلي الكمال والمحبة والقدرة على انجاز الخلاص ، وجماهير من المقهورين الجياع الذين وصل الأمر بهم إلى ما تحت حد البؤس وينخرطون ، بسبب ذلك ومن موقعه ، في عملية احتجاج عفوية عليه «وبمعمونة ذلك الاله»^(١) .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلعله يغدو الأكثر رجحاناً أن يكون الحديث نافلاً عن أهمية «استثنائية وخاصة» لوجود شخص بعينه ، يدعى يسوع المسيح ، قاد الحركة المسيحية الناهضة ، بمقتضى ذلك ، إلى الظفر . بل ربما اكتسبت المسألة ،

(١) يكتب مؤلفو كتاب (Geschichte der Philosophie- a.a.O., 143- 144) مايلي حول الية «الفعول المسيحي» ضد وضعية البؤس الكبير ، التي طبعت المرحلة تلك : لقد تبلورت المسيحية ، خصوصاً مع تحولها إلى ظاهرة أكثر من فلسطينية ، «كنبير عن الاحتجاج السلبي العفوي الذي أبداه الجمهور المديني المضطهد والفلاحون والعبيد ، الذين لم تعد حالتهم الصعبة تطاق ، ضد الاضطهاد الاجتماعي والقومي (اللاتني) الذي مارسه حياهم سادة العبيد في الامبراطورية الرومانية . في ظل هذه الشروط (تحديداً من خلال استياء الفئات الشعبية الدنيا التي كانت إضافة إلى ذلك ضعيفة وغير منظمة وواقعة تحت تأثير هزيمة الانتفاضات العبيدية) نشأت لدى الناس تصورات معينة ، مثل عجز الطبيعة الانسانية وخطيئتها الفطرية ، كما نشأ الأمل بمساعدة ماورائية من فوق ، وتوقع مجيء قريب لمخلص سماوي (المسيح) ، يعاقب المضطهدين ، ويدمر الشر في العالم ، ويقيم فيه مملكة الخير والسعادة والعدالة» .

في هذه الحال المحددة ، الصيغة المفتوحة التالية : لِمَ لا يكون قد وجد ، حقاً ، شخص تاريخي واقعي تحت ذلك الاسم ؟ ليس هنالك ، من الناحيتين التاريخية والايديولوجية الدينية ، ما يدعوا إلى رفض هذا الاحتمال أو التشكيك في صحته ، بقدر ما هو ، أيضاً ، ممكنُ الأخذ بالاحتمال الأول . ان كلا الاحتمالين ليس لهما دور مبدئي في تحديد المشكلات الكبرى التي طرحتها المسيحية في بواكيرها ، وكذلك في لواحقها . فهي ، هنا ، حركة مسيحية نهضت بغاية مسح الشر عامةً من هذا العالم ^(١) . ومع ذلك ، تبقى مسألة الإقرار بالوجود التاريخي الواقعي لـ «يسوع المسيح» أو نفيه ذات دلالة بالنسبة إلى الجهد النظري الخاص ، الذي يتجه صوب تفصي واكتشاف التضامن الاجتماعي والديني الذي ظهر بين المسيحيين الأوائل في سياق الحركة المسيحية الواقعية ومن موقع تصورات وهمية أو حقيقية تمحورت حول «يسوع المسيح» . فهذه التصورات بكلا توجهيهما ، الوهمي والحقيقي ، مارست وظيفة أدت إلى تكوين الجهاز المسيحي الكبير ، الشعبي العضوي أولاً والكنسي الرسمي لاحقاً . وبمزيد من التدقيق الدلالي التاريخي يمكن القول ، ان وهمية أو حقيقية «يسوع المسيح» انطلقتا من همٍّ اجتماعي وديني مركزي تمثل باسقاط العالم القديم وخلق العالم الجديد ، بغض النظر عن النتائج والأدوات الدينية التنظيمية والسياسية والعسكرية ، الدفاعية أو الهجومية ، التي قادت إليها .

١) من أجل ضبط هذه المسألة المتسمة بأهمية كبرى على الصعيد المنهجي التاريخي وبما يتصل بولادة المسيحية ، نسوق المقارنة العامة التي ضبطها فريدريك انجلز فيما بين الحركة المسيحية الباكورة من جهة ، وبين الحركة الاشتراكية الحديثة تحديداً من جهة أخرى : «كلتا الحركتين الكبيرتين لم تُصنعا من قادة وأنبياء ، مع أنه ظهر فيهما معاً ما يكفي من الأنبياء . إنهما حركتان جماهيريتان . والحركات الجماهيرية هي ، في البداية والضرورة ، مشوشة ، مشوشة لأن التفكير الجماهيري يتحرك أولاً ضمن تناقضات وغموضات وافتقار للعلاقات Zusammenhanglosigkeit وهي مشوشة ، كذلك ، بسبب الدور الذي يبقى على الأنبياء أن يمارسوه في البدء . إن هذا التشوش يفصح عن نفسه في تشكيل فرق عديدة تكافح ضد بعضها بنفس الدرجة ، على الأقل ، التي تكافح بها في الخارج العدو المشترك» (F. Engels- Zur Geschichte des Christentums, a.a.O., S. 266). ان هذا من شأنه ألا يجعل من «شخص المسيح» مشكلة أولية في حقل البحث في مسيحية الحركة المسيحية : كما يمكنه أن يضيء الكثير من عملية التواصل التراثي المسيحي بين هذه الحركة وما سبقها من مواقف واتجاهات مسيحية جزئية كثيراً أو قليلاً .

وضروري ، مع ذلك ، أن نتيين العناصر والمعطيات التاريخية الوثيقية المتصلة بالمسألة المعنية ؛ فقد نتمكن من وضع أيدينا على المفصل الرئيسي فيها ، بالرغم من الالتباسات والصعوبات الكبرى والجزئية ، التي ما تزال - حتى المرحلة الراهنة - تثير قلق واهتمام المؤرخين والايديولوجيين والكثير من المؤمنين ^(١) .

ان ما يتحدث عنه Eusebius من أنه تم تبادل رسائل بين شخص باسم يسوع وبين الملك Abgar V. Ukkama von Edessa ، تلك الرسائل التي يعلن أنه يقدمها بنصها الأصلي الكامل ، إن هذا الأمر لا يمكنه أن يمثل - بحسب الدراسات الاستقصائية التي أنجزها علماء مؤرخون - إلا زعماً يفتقد المصدقية التاريخية .

فلقد تبين أن مؤرخي تلك المرحلة والمتحذرين منها ، في نفس الوقت ، لا يجربون عن شخص عيني باسم «يسوع المسيح» كمؤسس دين . ذلك يتضح لنا في «العاديات اليهودية» لفلافيوس يوسفوس ، الذي ولد في القدس (اورشليم) عام ٣٧م ومات في عام ١٠٠ . فلقد وردت في هذا المؤلف ملاحظة يتحدث فيها عن وجود «يسوع» قائلاً عنه بأنه «صانع المعجزات ومعلم كل الناس ، . . إنه المسيح» . بيد أن هذه الملاحظة نفسها أضيفت إلى المؤلف المذكور في مرحلة لاحقة ومن قبل كتاب أو كاتب مسيحي . ذلك لأن يوسفوس لا يمكن أن يكون هو نفسه واضع تلك الملاحظة بسبب من أنه كان يهودياً بالمعنى العقيدي الصارم ؛ لقد كان فريسياً منظراً ، أي واحداً من أولئك الذين حولوا التصور المسياني (الخلاصي) إلى هيكل عظمي أعجف . وهناك موضع آخر من «العاديات اليهودية» يقدم فيه يوسفوس على أنه المتحدث عن «أخ ليسوع يسمى المسيح» . فهذه الإشارة ، التي أضيفت بعد Origenes الذي لم يكن يعرفها ، وقبل Eusebius الذي ينقلها لنا في صيغتها المعروفة ، أقحمت في المؤلف المذكور على يدي مؤمن أو فقيه مسيحي ، طمح إلى تدعيم عقيدته الدينية عبر التأكيد على تاريخية وواقعية مؤسس شخصي لها .

بل إن الكاتبين اليهوديين الشهيرين فيلو (أو فيلون) الاسكندراني وجوستوس Justus التيرري ، اللذين عاشا في بداية مرحلة الانتقال مما قبل الميلاد إلى ما بعده ،

(١) انظر في ذلك : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S. 21-23.

لا يجبرانا شيئاً عن شخص باسم «يسوع المسيح» ، أو عن حركة مادية أو سياسية حملت هذا الاسم وعرفت به . والذي يحدث - وينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار - أن الإشارة إلى وجود مثل هذه الشخصية ترد في مؤلفات مؤرخين وكتاب رومانيين ، مثل Sueton و Cornelius Tacitus . غير أن الأمر يتصل ، في هذه الحال ، بشخصية «يسوع» من نمط تحدد في روما الهلينية وضمن ذلك النمط من التقاليد المسيحية ، التي كانت قد تكونت حتى ذلك الحين وشغلت حيزاً لا يستهان به في أوساط متعددة من الطبقات والفئات الاجتماعية ضمن المجتمع الامبراطوري ، وخصوصاً الدنيا والوسطى منها . ومن ثم - وهذا أمر على غاية الأهمية على صعيد مسألتنا - فإننا نفتقد في تلك الشخصية سمات ووقوع الأحداث والوقائع الفلسطينية في الحقول الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية ، ويغيب عنا - بالتالي - عقب الكفاحات المبكرة التي دارت بين المسيحيين الأوائل وخصومهم في فلسطين ، بصورة خاصة .

ذلك ما يتصل بالمصادر غير المسيحية ، التي يندرج فيها من يمكن اعتباره خصماً للمسيحية أو مزوراً لها ، وكذلك من كان - على الأقل - غير متم اليها . أما إذا تفحصنا الأخرى من المصادر التي نتحدث عن «يسوع المسيح» من موقعه ، أي من موقع مسيحي عقيدي ، وجدنا أن كثيراً من الشك والغموض يحيط بها ويخترقها ، وذلك الى درجة أنه لا يصح الأخذ بها ، عموماً وخصوصاً ، بمشابتها «مصادر» بالمعنى التاريخي المخصص . فإذا أقررنا بما تنقله من أن «يسوعها» ، أي «يسوع الأناجيل» ، قد صُلب في عام ٣٠ م ، فإن تحرير أول الأناجيل ، الذي هو انجيل مرقس ، كان في عام ٧٠ م ، أي بعد «حدوث الحدث» بأربعين عاماً . نضيف إلى ذلك أن السنوات التي امتدت من عام ٧٠ إلى عام ١١٠ تقريباً ، كانت ، من حيث الأساس ، المرحلة التي أنجزت فيها الأناجيل الأربعة الأساسية (مرقس ، ومتى ، ولوقا ، ويوحنا) ^(١) . وهذا ، من طرفه ، يشير - ضمناً وإفصاحاً - إلى أن المرحلة التي انصرمت بعد «صلب يسوع» والتي انقضت بين

(١) انظر حول ذلك وما سبقه : Ebenda - a.a.O., S.22, ٤

وكذلك : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٣ .

الصّلب من جهة والبدء بتحرير الأناجيل من جهة أخرى ، من شأنها أن تثير شكاً وتشكيكاً في دقة وصدق ما حرر في هذه الأخيرة وما أدخل عليها تصحيحاً أو تزويراً أو تعديلاً الخ

ان الشك والتشكيك المنوه بهما يتصلان ، تحديداً ، بالبنية الداخلية التي تنهض عليها الأناجيل الأربعة ، تلك البنية التي صيغت بمصطلح مختلف ومشكلات متميزة كثيراً أو قليلاً عن المصطلح الديني والمشكلات الدينية التي كانت سائدة أو أكثر حضوراً في مرحلة الحدث المفترض أنه تمّ في عام ٣٠ ؛ كما يتصلان (الشك والتشكيك) بالوظيفة التي نيطت بنصوص الأناجيل المعنية . وهنا ، يبرز السؤال التالي : ألا يعبر النص الديني ، تخصيصاً ، عن دلالات على المرحلة التي حرّر فيها ، بمعنى أنه ينطوي على «توجّه وروحيّة» المشكلات التي تحيط بأبناء هذه المرحلة والتي تملي عليهم نسقاً وظيفياً معيناً (هو الاستلهام التراثي) في الكتابة عن حدث منصرم ؟ على الأقل من هذا الموقع ، يمكننا القول بأن الأناجيل الأربعة (القانونية) هي ، بالدرجة الأولى والرئيسية ، شهادات بالمرحلة التي كتبت فيها . وهذا ما أشرنا إليه في موضع سابق وما سنعالجه بمزيد من التدقيق في مواضع لاحقة .

كتب القديس جوستين في منتصف القرن الثاني الميلادي بأن الأناجيل هي ، في حقيقة الأمر ، «مذكرات رسل»^(١) ، معلنا - بذلك - أنها مثلت نصوصاً نشأت في سياق نفس الأحداث ، التي لحقت بـ «يسوع المسيح» أثناء وجوده المباشر وتحت تأثيره الشخصي . ولكن تبين أن هذا ليس إلا زعماً ايديولوجياً يدخل - بأحسن الأحوال - في نطاق التصورات والأفكار والملاحظات التي انشأها جمع من الكتاب الانجيليين في مراحل لاحقة ، على النحو الذي عرضنا له أخيراً ، أي في ضوء التأخر الزمني الذي يصل الى ٤٠ عاماً . ولابد من إضافة عامل آخر الى ذلك ، هو ، بدوره ، هام على صعيد المسألة ؛ نعني بهذا أن مؤلفي وكتاب الأناجيل المسيحية اليسوعية ، على تنوع مصادرهم الفكرية وتباين مواقعهم الايديولوجية

(١) انظر : نفس المرجع السابق الأخير ومعطياته - ص ٧٣ .

واختلاف مراحلهم الزمنية التاريخية ، لم يكونوا مؤرخين لا بالمعنى الروائي العام للكلمة ، ولا بمعناها الاختصاصي الضيق . وهذا بعينه ما حدا بالباحث R. Blummann أن يقرر الأمر الخطير التالي ، الذي لا بد وأن يحسب حسابه في حال التصدي لمهمات التأريخ للمسيحية : «ان المسيح ، الذي يعلن عنه ، ليس هو يسوع التاريخي ، وإنما هو مسيح الاعتقاد والعبادة»^(١) الانجيليين .

إن تاريخية «يسوع المسيح» وواقعيته يمكن أن تتحولاً - في منظور تلك المعطيات التاريخية - إلى مسألة جدية حقاً بالمعنى التاريخي ، فقط حين تُخرجان من دائرة «النصوص الانجيلية المقدسة» ؛ أي اننا ، هنا وعلى هذا المستوى ، لا نجد ما يحول دون الإقرار بوجود شخص تاريخي تحت اسم «يسوع المسيح» . ولكن إذ ذاك نجد أنفسنا ، ثانية ، أمام ما حدده R. Blummann باسم «مسيح الاعتقاد والعبادة» الانجيليين . وضمن هذا الفهم المنهجي التاريخي لما نحن في صددده ، نستعيد الواقعة ذات الدلالة التاريخية والدينية البليغة والتي أتينا على ذكرها فيما سبق من أن «المسحاء» كانوا كثيراً على امتداد مراحل عديدة مما قبل الميلاد إلى ما بعده . وقد أتى فلافيوس يوسفوس في تاريخه للحروب اليهودية على ذكر اثني عشر شخصاً ظهروا جميعاً تحت اسم «مسيح» . وهذا من شأنه أن يظهر أمامنا ، وعلى نحو واضح بين ، الحصلة التي تخترق المشكلة بكاملها عمقاً وسطحاً ؛ تلك هي : إن «الواقع المسيحي الموضوعي» مغاير لـ «يسوع المسيح الانجيلي» ومواز له ، في الوقت نفسه . وفي هذه الوضعية المشخصة ، بالذات ، وفي الاقرار بها والانطلاق منها ،

1) R. Blummann: Die Geschichte der synoptischen Tradition- Berlin 1961, S. 396.

في هذا السياق الانعطافي من المسألة ، يعلن الأب R. P. Kannengieser أنه من المستحيل «أن يعطي أي كاتب من كتاب الأناجيل لنفسه صفة الشاهد العيان» . (ضمن : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٦٨) . بل نلاحظ أن المدرسة التيبنغرية الألمانية Tuebinger Schule كانت قد أعلنت ، بلسان ممثليها الذين منهم داود فريدريك شتراوس ، أن «الأناجيل الأربعة ليست تقارير مكتوبة من قبل شاهدي عيان ، وإنما هي تعديلات متأخرة لكتابات ضائعة ، وبأن الرسائل المنسوبة إلى بولس يوجد منها في الحد الأقصى أربعة فقط أصلية» . (انظر ذلك في :

F. Engels- Zur Geschichte des Urchristentums, a.a. O., S.261).

يغدو ممكناً ووارداً أن تُقبل على اكتشاف وتقصي الدلالة التاريخية والتراثية للنصوص الدينية الانجيلية ، وللشخصيات التي ترد فيها بجل الصيغ الايجابية والسلبية ، بما فيها شخصية يسوع نفسه . على ذلك النحو من اختراق المشكلة المطروحة ، يكون قد ضُحّي بيسوع الحقيقي التاريخي المشخص لصالح يسوع انجيلي ، ثم كنسيّ متقطع الجذور والعلاقات الواقعية المباشرة بِسْمِيّه ذاك . وهذا الموقف ، بدوره ، ينطوي على نتيجة أخرى لا تقل أهمية وإثارة عن تلك ، وهي أن يسوع الحقيقي أو اليسوعيين الحقيقيين ، الذين عاشوا عيشة كدح من أجل الخبز والحرية وكفاح ضد الصادوقيين والفريسيين ومنْ تخلق أو تمحور حولهم ، لم يكتب تاريخهم ، وإنما كتب تاريخ من حصد ثمارهم ، وركب موجتهم ، وامتطى صهونهم ^(١) . وحيث ندقق في هذا الموقف عبر استنطاقه واستقصائه من موقع واقعية الحدث التاريخي وامتداده تراثياً وبصيغ متعددة ، فإننا نلاحظ أنه في كلتا الحالتين كمن فقداناً لعناصر كثيرة أو ضئيلة من حياتهم الواقعية يمكنها ، لو بقيت موروثة في أيدي الباحثين ، أن تغني - بما لا يقاس - تاريخية الموقف وتراثيته المشخصة . وبتعبير آخر أكثر بساطة و«سداجة» يمكن القول ، إن مادة البحث نفسها أصبحت مغيبة أكثر مما هي في متناول اليد الفاحصة الباحثة .

وقد وصل Prosper Alfari إلى حصيلة دقيقة وواضحة وحاسمة ، حيث أعلم ماييلي : «على المرء إذن أن يعقد عزمه على ايضاح أصل المسيحية دون أن يقحم في ذلك شخص المسيح . وماذا يتبقى بعدئذ ؟ التصور الخاص بالمسيح ، كما وردنا عن اليهود القدامى» ^(٢) . ولكن هذا التصور اليهودي نفسه عن المسيح ما كان بإمكانه بعد إذ اخترقته الأحداث الكبرى المستجدة ، أن يبقى محافظاً على صيغته اليهودية . لقد كان عليه أن يستجيب لـ «الجديد» في شكل «المسيح الانجيلي» ^(٣) .

(١) انظر مع المقارنة : عصام الدين حفني ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ص ٢٠-١٩ .

2) Prosper Alfari: Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a.O., S.385.

(٣) إذا وضعنا هذه النتيجة الكبرى في اعتبارنا ، واستعدنا - كذلك - ما أثبتناه في بداية هذه الفقرة عن A.Schweizer حول امكانية التخلي عن تاريخية يسوع ، أصبحنا في الموقع الذي يسمع لنا بأن نصور المسألة على النحو التالي : لا مسيحية بمسيح واقعي تاريخي ، بل مسيحية بمسيح انجيلي =

ولعله من قبيل التعميق للمسألة المطروحة هنا أن نعرض لما قدمه أحد المعاصرين من رجال اللاهوت المسيحي كمحاولة لتقصي علاقة السلب التي تقوم بين «المسيح التاريخي» و «المسيح الحقيقي». هاهنا ، يبرز المطران جريجوار حداد باجتهاداته اللاهوتية ذات البعد السياسي المشخص . فالملاحظ أن المطران المذكور يميز بين كلا المسيحيين المأثي عليهما ليس بالمعنى الذي استخدمناه نحن هنا . يكتب المطران حداد محدداً المسألة على النحو التالي : «لابد من تحرير المسيح ذاته ، المسيح الحقيقي ، مسيح الحاضر ، عن المسيح التاريخي ، مسيح الماضي ، الذي وإن كان قد عاش إلا أنه اليوم لم يعد يحيا» (١) . ويتابع حداد الموقف تعميقاً حيث يعلن : «إن أخطر ما حدث للمسيح في التاريخ ، لاسيما بعدما أصبحت المسيحية دين الدولة في عهد الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع ، هو أن المسيح أصبح تابعاً للدين المسيحي ولكنيسة - المؤسسة ، بل متلاصقاً وملتحمياً بها التحاماً وثيقاً» (٢) .

فكما هو بين ، يرفض المطران حداد ما يسميه «المسيح التاريخي» لصالح «المسيح الحقيقي» ؛ أما الخصوصية الكبرى للأول فتكمن في أنه «نسبي» ، في حين أن خصوصية الثاني الكبرى تقوم على «مطلقيته» (٣) ، لأنه «هو المطلق ، القيمة المطلقة ، والمقياس المطلق . (هو الأول والآخر)» (٤) . ومن ثم ، فالقضية تكمن في ضرورة «فك الاشتباك بين المطلق والنسبي حتى يظل المطلق محتفظاً

= عقيدتي غدا شيئاً فشيئاً «المسيح الكنسي الواحد» .

وإذا كان الأمر على هذا النحو المحدد والمضبوط ، فإن ما يعلنه لا هونبون مسيحيون على صعيد المسألة المعنية أصبح غير ذي معنى ، ويدخل - من ثم - في حقل ذلك «المسيح الانجيلي العقيدي» . فمن أولئك اللاهوتيين الأب اسبيروجبور ، الذي يصوغ المسيحية العقيدية الانجيلية على الشكل التالي : «المسيح هو عماد المسيحية وشخصية فريدة كلياً . لا مسيحية بدون المسيح . هو الكل في الكل» . (اسبيروجبور : رد على أبحاث حول العلاقة القائمة بين المسيحية - واليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٤) .

(١) غالي شكري : تيار جديد في الفكر المسيحي العربي (حوار مع جريجوار حداد) - ضمن مجلة : قضايا عربية ، بيروت ص ٩٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ١٠٢ .

(٣) نفس المرجع السابق ومعطياته .

(٤) نفس المرجع السابق ومعطياته .

بمطلقيته»^(١) . ولكن كيف يتم هذا الأمر وصعوبة مبدئية كبرى تقف دونه ؟ ان اكتشاف «المسيح الحقيقي في «ركام المسيح التاريخي - الكنسي» مسألة على غاية الصعوبة والاشكالية ؛ ذلك أن ما وصلنا عن المسيح عبر الأناجيل «لا يمكن إلا أن يكون ناقصاً كمياً ونوعياً» . فكتاب الأناجيل لم ينقلوا إلينا «كل» ما قاله وفعله المسيح ، وما نقلوه يعبر فقط عما «فهموه» و«عاشوه»^(٢) . ومن ثم ، فنحن لسنا ملزمين بمنح هذه النصوص المصدقية التي تزعم أنها (أي النصوص) تملكها .

هكذا نواجه «فهماً» آخر للأناجيل وللمسيح ، ولكن هذا الفهم ينطلق من مسلمات عقيدية لاهوتية وميتافيزيقية ، أهمها التمييز المطلق بين المطلق والنسبي ، والواقعي والتاريخي . ومن هذه المسلمات يشتق المطران حداد تصوري «المسيح المطلق» ، أي «المسيح الحقيقي» ، و«المسيح التاريخي» ، أي المسيح الكنسي «اللاحقيقي» . والسؤال الذي يدور في الذهن ، الآن ، لابد وأن يأخذ الصيغة التالية : كيف يخول نفسه بالتحديث عن «مسيح مطلق» ، في الوقت الذي يشكك فيه بالمصادر «المسيحية» ، إذ يحيلها إلى ما نطلق عليه «موقفاً استلهامياً تراثياً» ، تكون النصوص الانجيلية بمقتضاه مواقف لبعض الكتاب الذين استلهموا نصوصاً ما «لأنعرفها» ؟ ففي مثل هذه الحال ، يبدو أمراً ضرورياً حينما نتابع السؤال قائلين : إذا كان الأمر كذلك ، فمن أين استقى المطران حداد «مصادره» ؟

بالطبع ، نحن هنا لا نرغب في مناقشة النتائج الاجتماعية والسياسية والعقيدية الدينية ، التي يود حداد الخلوص إليها ؛ إنما نريد التأكيد - عبر رأيه نفسه - على ما أتينا عليه في موضع سابق من أن نصوص الأناجيل لا يصح النظر إليها ، وفق ظن القديس جوستين ، على أنها «مذكرات رسل» . بل يمكن القول بتحديد أكثر ، ان مقولة المطران حداد لا تخرج - بالمعنى النظري التاريخي والتراثي - عن أن تكون هي نفسها ، أيضاً ، شكلاً من أشكال ذلك الموقف الاستلهامي التراثي ، الذي يراد له أن يغطي جملة من الاحتياجات الموضوعية والذاتية في الواقع المشخص (العربي) . وعلى ذلك ، فـ «المسيح الحقيقي» ، بالمعنى الذي يطلقه حداد ، هو الذي غُيب

(١) نفس المرجع السابق ومعطياته .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته ص ٩٨ - ٩٩ .

تحت وطأة ما أصبح «مسيحاً حقيقياً» على أيدي المؤسسة الكنسية والسلطوية السياسية .

وجدير بالقول أن المسألة المتمثلة بالوهمية والايهامية المقترنتين بالأناجيل والكتابات المسيحية الأولى ، تتضح بمزيد من الدقة الوثائقية ، حالما نضع في حسابنا أنه لا يوجد شيء من الكتابات الانجيلية محافظاً على شكله الأولي الأصلي . فما تبقى من النصوص الدينية الأكثر قدماً على هذا الصعيد والتي سجلت على أوراق البردي ، يتحدر ، أساساً ، من النصف الأول للقرن الثاني الميلادي . وهذا يعني ، ضمن ما يعنيه ، أن ما يمكن أن يمثل شهادات صحيحة على وجود كتابات انجيلية يرتد إلى مرحلة متأخرة ، في الاعتبار الانجيلي نفسه ؛ إنها المرحلة التي جرى تحديدها وضبطها بعام ١٤٠ . (١)

هل لنا ، إذن والحال كذلك ، أن نعتبر الكتابات الانجيلية نصوصاً ايديولوجية دينية أمثلتها مواقف اجتماعية وطبقية وسياسية متعددة لفرقاء متعددين ؟ يبدو أنه لا مناص من الاقرار بذلك ضمناً وافصاحاً ، بالرغم من ضرورة النظر إلى المسألة على أنها - في المدى البحثي المضطرب - مفتوحة أمام ما قد يجد على هذا الصعيد . وقد كان R.P.Kannengiesser في غاية الدقة الاصطلاحية البنيوية والوظيفية التاريخية ، حين وصف الكتابات الانجيلية بأنها «كتابات ظرفية خصامية» (٢) . ولا بد - في ضوء ذلك وانطلاقاً من اعتباراته - من الإضافة الهامة التالية ، وهي أن الطوائف والاتجاهات والفرق ، التي انجزت تلك الكتابات ، انحصرت - في مرحلة تبلور المسيحية اليسوعية واستكمال معالمها ورموزها الأساسية - في فريقين اثنين كبيرين تبلورا في عملية التخاصم والصراع فيما بينهما وبتأثير عوامل أخرى عديدة ؛ ونقصد بهما اليهودية المسيحية والمسيحية البولسية (وهي تلك التي تمثلت ببولس ، ويطلق عليها كذلك المسيحية الأممية أو الوثنية) .

(١) راجع بهذا الخصوص : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٥ وغيرها ، وكذلك

Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S. 23.

(٢) انظر : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

ان المصائر التاريخية والتراثية ليهود المسيحي اليسوعي سوف يتاح لها ان تنجلي لاحقاً ، وذلك في سياق الصراع الذي التهب بين اليهود الذين تمسحوا من طرف ، والمسيحيين من مصادر غير يهودية من طرف آخر . فلقد اختُرقت العزلة اليهودية ، بشريعتها العقيدية وطقسيتها التطبيقية ، من قبل التيار العالمي (الأممي) الجديد ، الطامح إلى إقامة مثل عليا جديدة أريد منها أن تقدم نهجاً للمهمات المثارة في اطار عملية التهشّم التي لحقت بالامبراطورية الرومانية ، وهي «تحرير المضطهدين» المنتشرين في أرجاء هذه الأخيرة عموماً ، وفي منطقة فلسطين منها على نحو خاص . فلسطين ، التي استعرت فيها اشكالية التغيير وإعادة البناء بسبب وجود مكثف لعامل داخلي وراء ذلك تمثل باستنفاد اليهودية اليهوية وما كمن خلفها من وضعيات اجتماعية واقتصادية وسياسية مطابقة ، وعامل خارجي غذا - بمعنى ما - داخلياً ، وهو الصراع الذي تولد عن إلحاق فلسطين بالامبراطورية المعنية ، ان فلسطين هذه هي التي كانت نقطة الانطلاق الأولى الباكرة للمسيحية إياها . «ونقطة الانطلاق» لأمر ما تظل ، بمعنى ما ودرجة ما ، ماثلة في «نقطة الانتهاء» ، وتحديدًا بالمعنيين البنيوي والوظيفي .

وقمين بنا أن نذكر أن التقاليد المسيانية (الخلاصية) العريقة (المتقدمة) ، التي نمت وتطورت طوال قرون عديدة على أرض فلسطين ، على الأقل بدءاً من المرحلة الكنعانية وانتهاءً بمرحلة الانتقال المعنية هنا والتي جسدت الأزمة العظمى للمجتمع العبودي الروماني المتسع الأطراف ، أرست قاعدة عريضة ومتينة لتكون المسيحية الأولى الباكرة في المقاطعة الرومانية ، في ذلك الحين ، أي فلسطين . وهذا ، من طرفه ، ينطوي على القول بأن المسيحية اليسوعية كموقف ديني واجتماعي مشخص - بمعنى ما - كانت قد أعلنت عن نفسها بمشابها حصيلة الوضعية التاريخية والتراثية في فلسطين ، أولاً ^(١) . وبعد أن يكون قد أقر بالأمر على هذا النحو ، يندو الانتقال الى وجهه الثاني ممكناً وضروريا ضرورة منطقية وتاريخية ، وهو أن

(١) في بحث حول علاقة المسيحية باليهودية ، أي - في السياق الذي نحن بصدده - باليهودية في فلسطين ، يكتب Alexandre Ganoczy مايلي : «ان دراسات انجيلية وردود فعل لاهوتية فادت مجدداً إلى اكتشاف الواقعة التالية ، وهي أن المسيحية لا يمكن التفكير بها بدون اليهودية . فالمسيحية تظل تاريخياً ولاهوتياً غير مفهومة إذا ما غُض المرء النظر عن اليهودية من حيث هي ذلك

المسيحية تمثل - ذهنياً دينياً - حصيلة الأزمة التي تولدت في مجتمع الامبراطورية ، على نحو العموم ، وصيغة البديل الخلاصي الديني عنها ، في آن واحد .

ونحن إذ نعتبر المسيحية (اليسوعية) ظاهرة فلسطينية في منشأها ، وعالمية - بمقاييس ذلك الحين - في تحولها وتطورها ، فإننا نكون ، بذلك ، قد أقررنا ضمناً وبصورة مبدئية أولية بأنها كانت ، كذلك ، وجهاً رئيسياً من أوجه الايديولوجيا الدينية الشرقية . فإذا ما تفحصنا المصادر الكبرى التي كونت وبلورت الظاهرة المعنية ، في بواكيرها الأولى ، فإننا لا بد واجدون المصدرين السوري والمصري ، إلى جانب الفلسطيني ، في طليعة مكوناتها العقيدية . وفي مرحلة متأخرة نسبياً ، نلاحظ أن التأثيرين اليوناني والروماني يبرزان بأهمية خاصة في البناء المسيحي الديني . والحق ، اننا في سبيل ايضاح أهمية الأصول الشرقية للمسيحية ، يكفي ، الآن ، أن نقول بأنها تولدت - في صيغتها الإجمالية العامة وعلى نحو أميل إلى أن يكون مباشراً ، من عالم اليهودية وضده ، في حين واحد ، ذلك العالم الذي يرتد ، هو بدوره وعلى انحاء متعددة ، إلى قواعد الفكر الشرقي (بابل وكنعان ومصر ، خصوصاً) ^(١) .

وجدير بالذكر أن Bruno Bauer أسهم في ايضاح هذه المسألة بقدر رئيسي وفي بعض مفاصلها الكبرى العامة ، وذلك في دراساته حول المسيحية الباكورة . فهو الذي تمكن من إجلاء الأمرين التاليين لأول مرة في تاريخ البحث في الأديان ، أو

الدين غير المسيحي الذي يتصل بجوهر الدين المسيحي ، ذلك الدين الذي نما تاريخياً .

(Glaube in Geschichte - Autorenkollektiv, Theologisches Jahrbuch 1979, St Benno - Verlag GMBH Leipzig, S. 347).

(١) إذا لاحظنا المسألة على هذا النسق من التمهيد التاريخي البنيوي ، فإن الصيغة التي يقدمها برتراندرسل حول العلاقة بين المسيحية واليهودية والفكر الشرقي عمومًا ، تغدو مشوشة وضحلة . فهو يعلن في كتابه (حكمة الغرب - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٣٧) مايلي : «ان المسيحية ، التي أصبحت لها السيطرة في الغرب ، منشقة من عقيدة اليهود ، مع بعض العناصر اليونانية والشرقية» . ذلك أن تأثير المسيحية بما سبقها وفي مرحلة «انبثاقها من اليهودية» بالذات ، لم يقتصر على «بعض العناصر» الشرقية ، بقدر ما مثلت هي نفسها ، وبمعنى أساسي ، امتداداً نوعياً للفكر الشرقي .

على الأقل بشكل أكثر دقة وضبطاً ووضوحاً . الأمر الأول يتمثل في أن المسيحية اليسوعية ليست وليدة العقيدة الدينية اليهودية فحسب ، وإن كانت هذه الأخيرة قد شغلت - بترجيح كبير - المكان الأوسع في هذا السياق . فلقد كان هنالك ، إلى جانب ذلك وبالتداخل فيه وبالتلاحم معه ، تأثيران آخران هاما ن خصوصاً على صعيد المراحل اللاحقة من التطور في العقيدة المسيحية . التأثير الأول انطلق من الذهنية العقيدية اليهودية الموشومة بالفكر الهليني والتي مثلت حصيلة الصراعات التي دارت بين مجموعة من قادة اليهود وتياراتهم من جهة (وبصورة خاصة التيار السيلوتي) ، وروما وحلفائها ضمن الأوساط اليهودية من جهة أخرى . وكان على رأس ذلك التأثير فيلوي اليهودي ، الذي كان قد بلغ من العمر عتياً في عام ٤٠م (أو أنه ربما مات في هذا العام - وكان قد ولد في عام ٢٥ قبل الميلاد) ، حين ظهر وبرز من حيث هو «أبو» المسيحية ^(١) . أما التأثير الثاني فقد انحدر من الفلسفة الرواقية ذات الأصول الفلسفية اليونانية الرومانية ، والتي كان على رأسها سنيكا الروماني ، الذي يعتبر - في هذا السياق - «جذ» المسيحية . وهذا يشير إلى أن الرواقية أثرت في المسيحية على نحوين أو عبر قناتين ، تمثلت الأولى منهما بالطريق المباشر الفيلوني (نسبة إلى فيلون) ، في حين أن الثانية - وهي غير المباشرة - انطلقت من الرواقية نفسها . وبهذا المعنى يغدو القول ممكناً بأن للمسيحية «جداً» منحدرًا من الرواقية وممثلاً بسنيكا نفسه ، و«أباً» تجسد بفيلون اليهودي الافلاطوني الرواقي ^(٢) .

(١) على الصعيد النظري الفلسفي ، يعتبر فيلون الممثل الرئيسي للتيار الصوفي الفلسفي الاسكندراني ، الذي مارس تأثيراً عميقاً على اللاهوت المسيحي . وقد تركزت جهوده النظرية في محاولة التوحيد بين اللاهوت من طرف ، والفلسفة المثالية الافلاطونية والفلسفة الرواقية من طرف آخر . أما الهدف الأسمى والأقصى للحياة البشرية فقد رآه متجسداً في تحقيق «الوجد الصوفي» ، الذي من شأنه أن يجعل من الانسان قريباً للرب الاله أو مشابهاً له .

(٢) نستطيع أن نتبين التأثير الرواقي بمزيد من التخصيص عبر «سفر الحكمة» من العهد العتيق . فهذا السفر الذي كتبه يهودي اسكندراني في القرن الأخير مما قبل الميلاد ، يقدم لنا تدليلاً على ذلك . إن «الحكمة» ، هنا ، ليست جوهرًا شخصيًا ، بل هي - أساساً - نفس عالمي كوني يتجلى الإله فيه تاريخياً ؛ أي عبره يظهر الله في التاريخ ، وخصوصاً في التاريخ اليهودي . وهي ، الحكمة ، تماثل - على هذا الصعيد - ما يدعوه افلاطون «روح أو نفس العالم» ؛ وتستطيع أن توجد كل «الفضائل» ، التي يتمتع بها الناس الفضلاء . وهنا نلاحظ أن هذه الفضائل هي التي

ذلك ما يتصل بالأمر الأول الذي يبرز في الاسهام المبدئي المنهجي ، الذي قدمه برونو باورر على صعيد المسألة المطروحة . أما الأمر الثاني فيتعلق بمنهج النظر إلى العلاقة بين المسيحية من طرف والعالم الروماني الامبراطوري من طرف آخر . هاهنا ، يرى باورر أن المسيحية لم تُقحم في ذلك العالم إقحاماً من خارجه وعلى نحو قسري ، أي من موقع اليهودية في فلسطين ، وإنما هي مثلت - على الأقل في صيغتها العالمية اللاحقة - النتائج الخاص لمشكلاته الداخلية المباشرة ، المتفاعلة - بطبيعة الحال - مع الأحداث والتأثيرات الخارجية المحيطة بالامبراطورية (١) .

لاشك أن الفيلسوف الألماني برونو باورر تمكن ، والحال على النحو المأني عليه ، من الإحاطة المعمقة باثنتين من كبريات المسائل في حقل عملية الانتقال من اليهودية إلى المسيحية . لكن نقطة في المسألة الثانية لعلها تحتاج إلى بعض التدقيق ، الذي لا نظن أن باورر قد انجزه بصيغته الأولية الضرورية ، نعني بذلك جدلية العلاقة بين العام (ويمثل العالم الروماني) ، والخاص (متمثلاً بفلسطين) . فنحن نلاحظ بعض الميل لدى باورر لضبط المسألة من موقع تلك الجدلية ، ولكن ذلك يظل غير مفصح عنه بالصورة الضرورية . ففلسطين وإن خضعت ، في حينه ، لذلك

= واجهناها لدى الرواقية ، وعددها أربع : الاعتدال والعدالة والذكاء والشجاعة . إضافة إلى ذلك ، لا تظهر «الحكمة» بجوهر روحي فقط ، بل لها كذلك تظاهراتها المادي الشبهي . وهنا ، تلتقي «الحكمة» هذه بالمفهوم الرواقي «الروح الإلهية الكلية أو العقل Logos» . وإذا ما وضعنا في الاعتبار أن فيلون تبنى تلك «الحكمة» ممثلة بـ «الروح الإلهية الكلية» تلك ، انضح أن التأثير الرواقي في المسيحية كان من الظهور بحيث لا يمكن إلا الإقرار به . (راجع حول ذلك :

Arthur Drews- Geschichte des Monismus im Altertum, a.a.O., S. 361- 379).

(١) نظر حول ذلك : F. Engels- Zur Geschichte des Urchristentums, a.a.O., S. 263.

في نفس هذا المؤلف الأخير (١٥٧ - ١٥٨) ، يكتب فريدريك انجلز في معرض مناقشته لأراء برونو باورر ، محدداً المحور الأساسي الذي برز في عملية الانتقال من اليهودية إلى المسيحية : «لقد ظهرت اليهودية ، المبسطة بصورة متسقة والمتبلورة ، عبر الاختلاط والتعامل مع الأغراب وأنصاف اليهود ، على طريق التخلي عن الطقوس الشريعة ، وتحول الإله اليهودي القبلي (الأقوامي) السابق يهوه إلى الإله الحقيقي الوحيد ، خالق السماوات والأرضين ، وكذلك قبول تصور خلود الروح الذي كان غريباً على اليهودية الأصلية» .

العالم الامبراطوري واعتبرت أحد أقاليمه ، إلا أنها ، رغم ذلك ، ظلت تمتلك حداً من الخصوصية الناتجة عن تاريخها المديد ، وعن بنيتها الداخلية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والذهنية . إنها خضعت ، فعلاً ، لتأثيرات رومانية بالغة الأهمية ، خصوصاً في المراحل التي تحولت فيها المسيحية إلى دين عالمي ، أي إلى الدين الذي سيكون تحقيقاً لمطامح بولس والكنيسة والدولة الرومانية نفسها .

ولكن فلسطين ، من حيث هي البلد الذي رأت المسيحية فيه النور ، لم تكن قد تحولت إلى امتداد مباشر للعالم الروماني ، ولم تصبح كذلك ، أيضاً ، في مراحل لاحقة . ولعلنا نضيف أنه من المشروع والضروري ، من الزاويتين البنيوية والوظيفية ، أن نتحدث عن «مسيحية» مثلت النتاج الخاص للعالم الجديد . وهذه المسيحية وإن بقيت حائزة على جسور واسعة ونقاط هامة مشتركة بينها وبين ما نطلق عليه «المسيحية الأولى الباكورة» ، فإنها جسدت ، بالدرجة الأولى ومن موقع تبنك الزاويتين ، الوضعية الرومانية في الدولة الرومانية العبيدية ، قبل أن تكون قد مثلت الوضعية الدينية في الامبراطورية الرومانية عامة وفي اتساعها وشمولها الجغرافي والسكاني (الديموغرافي) .

ان تلك النقطة النقدية ، التي يمكن توجيهها الى موقف برونوباور من المسألة التي نعالجها هنا ، تكتسب أهمية منهجية عظيمة خصوصاً حين نستعيد ما كنا أقررناه ، في موضع سابق ، من أن هنالك تعارضاً بين «المسيح الواقعي» الذي لم يكتب تاريخه ولم تُصنع مواقفه بمختلف أوجهها من كفاح وهزيمة ومأساة وظفر مرحلي من طرف ، وبين «المسيح الانجيلي» الذي نشأ في أوساط المثقفين اللاهوتيين وخصوماتهم ، أي في نطاق ما جرى تحديده بـ «كتابات ظرفية خصامية» من طرف آخر . ولاشك أن مثل هذا المسيح الانجيلي وما يسوغه من الكتابات الانجيلية «الظرفية الخصامية» قد كان ، بمعنى أولي ، وليد الوضعية الرومانية في الدولة الرومانية ، تلك الدولة التي تبقى - بطبيعة الحال - منظوراً إليها في سياق علاقتها بالامبراطورية الرومانية الكبرى . وبذلك ، تتضح اللوحة المسيحية المطروحة وقد أفصحنا عن تعدد في ألوانها وأنساقها ، بحيث أن اسهام برونوباور يغدو غير كاف لتغطيتها والاحاطة بها .

ولابد من التعقيب على ذلك التمييز الذي أوردناه بين «مسيح واقعي» و

«مسيح انجيلي» . فهنا ينبغي القول ، بكثير من الثقة ، بأن هذا التمييز يتصل بالحقول الشخصي ، دون الحقول الاجتماعي . ذلك لأن «المسيح الانجيلي» نفسه تحول على أيدي صانعيه من اللاهوتيين والسياسيين إلى المسيح الأكثر واقعية وحضوراً وفاعلية . ندرك ذلك ، حين نضعه في سياقه الذي اكتسبه على الأصعدة المؤسسية السلطوية (الدولة) والتنظيمية الدينية (الكنيسة) والاقتصادية والاجتماعية . وهنا ، ينبغي القول بأن «المسيح الواقعي الأصلي» مات أو أميت ، لترك أخلافه وقد أخذوا في بناء عالم آخر لهم محتفظين فيه من ذلك «الميت» فقط باسمه أو بصفته ؛ لأن من شأن هذا الأمر الأخير أن يضيفي على ذلك العالم كثيراً أو قليلاً من «المصداقية العقيدية والتاريخية» . ومن ثم ، فقد كان على حلقة الوصل بين هذا الأخير وأخلافه أن تضع وأن تضيّع ، على حد سواء ،

أما الشق الآخر من التعقيب على ذلك التمييز فيتحدد بالاشارة إلى أن هذا الأخير (التمييز بين المسيحيين) يستمد مصداقيته من أن «المسيح الانجيلي» أكسب بنية عقيدية وإن كانت تلتقي مع البنية العقيدية لـ «المسيح الواقعي» فإنها أثبتت أنها يجب أن تكون غير تلك في نقاط جوهرية ، وذلك استجابة لواقع الحال الجديد (الكنيسة والدولة) وتكريسهما مؤسسياً واجتماعياً واقتصادياً ، وكذلك وبطبيعة الحال دينياً ايديولوجياً . وعلى هذا ، فالاعتبار الأول للقول بذلك التمييز ذو بعد بنيوي ؛ أما الاعتبار الثاني فينطلق من الوظيفة التي نيطت بالمسيح المعني (الانجيلي) ، وهي تلك التي تمثلت بعملية التكريس المشار إليها توأ (تكريس الكنيسة والدولة وما يكمن وراءهما من علاقات اجتماعية مشخصة) . وعلى هذا ، فإننا نكف عن اطلاق تعبير «المسيح الانجيلي» ، بعد أن رأيناه (هذا المسيح) قد تحول إلى «النص الديني» التاريخي الواقعي المهيمن والفاعل في مجتمع العبودية المترامي الأطراف والواقع في أزمة تاريخية لا تسمح له بالعودة إلى وراء ولا بالتقدم إلى أمام ، وإنما تقوده إلى المنحدر ^(١) * *

(١) ها هنا ، نجد أنفسنا ثانية أمام ما اعتبره المطران جريجوار حداد «مسيحاً تاريخياً غير حقيقي» وقد تحول إلى المسيح «الأكثر واقعية وحضوراً وفاعلية» . ولابد من الاضافة بأن تجاوز هذا المسيح الكنسي (التاريخي بتعبير حداد) يتم باقتراح مسيح «آخر حقيقي فعلاً» ، هو وجه من أوجه الأنشطة الخلاصية التي تزدهر في مراحل التأزم الاجتماعي البشري ، كما هو الحال في الوضعية العربية الراهنة .

وجدير بنا أن نتقصى البعد الدلالي اللغوي التاريخي للمسألة المطروحة ،
مسألة الأصول اللغوية لـ «المسيح» ، بعد أن لاحقناها في تاريخيتها بنيوياً ووظيفياً .
وقد كنا أتينا ، في مواضع مختلفة من هذا الكتاب ، على الحديث عن هذا البعد ،
ولكن على نحو متناثر وضمن أسئلة مختلفة .

ان الكلمة المركزية الكبرى في هذا الحقل المركزي الكبير (المسيحية اليسوعية)
هي «المسيح Christ» . وقد تحدثت ، في الأساس اللغوي التاريخي ، من الكلمة
اليونانية Christos . لكنها ، في أصلها البعيد ، تمثل ترجمة للكلمة العبرية «مسيح
mashiach» وتعني بالضبط «مسوح» (١) .

ومن الضروري أن ننوه بأن المسح بـ «الزيت المقدس» يعتبر ، في هذه
الأحوال ، من التقاليد البعيدة الأساسية ، التي حرص على المحافظة عليها رؤساء
اليهود وقادتهم السياسيون والدينيون ، الذين كانوا في جل المواقف متداخلين
بعضهم بعضاً ، من حيث الوظيفة المشخصة . وكان هذا التقليد يبرز خصوصاً
 ويفرض نفسه حين كان أولئك يتسلمون السلطة السياسية أو الدينية أو القضائية ،
أو هذه جميعاً . وكان ذلك مظهراً من مظاهر «التعميد» ، الذي اتسع اللجوء إليه
وتعاضد دوره كثيراً من قبل المسيحيين . وفي مراحل لاحقة ، نلاحظ أنه تحول إلى
واحدة من الشعائر الطقسية الرئيسية وأحد المكونات الأولية لبنية الدين الجديد ،
بحيث لا يمكن التفكير بهذا الأخير بدونونه وبمعزل عنه (٢) .

ان تلك الوضعية التاريخية التراثية تجعلنا نقر بأن المسيح أو المسحاء أقدم
تاريخاً من «يسوع الواقعي» ومن «يسوع الانجيلي النصي» كليهما ، على حد

(١) انظر : Mayers Neues Lexikon - a.a.O., fünfter Band, S. 752 وفيما يتصل بالعلاقة بين كلمتي
«يسوع» و«المسيح - المسيح» ، نلاحظ أن التحول الذي طرأ على اليهودية باتجاه المسيحية جعل من
«يسوع» سابقة على «المسيح - المسيح» أو لاحقة عليه ، بحيث غدونا نقول : يسوع المسيح
(يسوع المسيح) ، والمسيح يسوع (المسيح يسوع) . وقد تحقق روبرتسن من أن «كلمة يسوع
(Jesus) هي الصيغة اليونانية للاسم العبري يشوع (Yehoshua) ، ومعناه (ياه مخلص - أو يخلص
أو يساعد : ط . تيزيني -) أي (يهوه مخلص)» . (ضمن : عصام الدين حفني ناصف - المسيح
في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٣) .

(٢) انظر في ذلك : Prosper Alfariis- Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a.O., S. 384.

سواء ^(١) . وذلك «المسيح» أو أولئك «المسحاء» كان الناس يتوقعون قدومهم ليس فقط في فلسطين - وإن كان هذا البلد قد مثل أحد المعازل الكبرى على الصعيد المعني - وإنما كذلك في سورية وآسيا الصغرى ومصر واليونان وروما . وهذا ما يضع أيدينا على حركة ملحوظة في التاريخ البشري على نحو العموم ، وهي الحركة «الخلاصية» ، التي اقترنت بتصاعد الاستغلال الاجتماعي وبغيباب وعي هذا الاستغلال الإيجابي .

وهناك بعض الباحثين الذين يعقدون مقارنة تاريخية وذاتية بين يسوع المسيحي الجديد من جهة والمسحاء الفراعنة في التاريخ المصري القديم من جهة أخرى . وكما يبدو ، فإن مثل هذا التوجه يجد مسوغاته في المعطيات والوقائع التي أصبحت في حوزة البحث التاريخي . فمن أجل استحداث صلة بين المسيح الفرعوني وبين الإله أو الآلهة ، كان لابد من اللجوء إلى فعل إعجازي من شأنه أن يوطد الاعتقاد بقدرته على الاتصال بالإله ، ويكون - من ثم - في الموقع الذي يتيح له أن يمارس دوره المسيحي الكوني (الخلاصي) . من هنا ، نشأ تصور «الولادة بدون دنس» ، أي بدون فعل جنسي بين رجل وامرأة . ونلاحظ أن لهذا التصور عدى تلك الوظيفة الكونية (أي الاتصال الذاتي المباشر بالإله بصفته أباً) ، وظيفة أخرى ، هي التركيز على فعل الإعجاز نفسه بمثابة تدليلاً قطعياً وفاعلاً على القدرة على تحقيق «الخلاص» لبشر ليس بإمكانهم ، من حيث هم بشر ، أن ينجزوا ذلك بأنفسهم . وهكذا يغدو القول وارداً بأن «يسوع ، مثل الفراعنة ، لم يكن له أب إنسان ، بل ولد لأمه من إله . وفي حالة يسوع لم يكن الإله رع (المصري) بل الله . (وكان واسطة الله وروحه . . .)» ^(٢) .

(١) ان المنطلق العقدي الوثوقي الذي يلح عليه اسبيروجبور في تأملاته حول العلاقة بين اليهودية والمسيحية ، جعله يفرط بالسياق التاريخي والاجتماعي للتكون المسيحي اليسوعي ، واصل إلى الاعتقاد بأن هذا الأخير هو نسيج ذاته ووليد شخصه . وفي هذه الحال ، يغدو ضرورياً أن تقطع العلاقات التي تربط عملية التكون المسيحي بما سبقها من عقائد دينية واسطورية وسحرية ونظريات فلسفية وغيرها . فعلى صعيد الارتباط بين المسيحية والتراث السوري القديم ، نجد الأب اسبيروجبور يعلن ، دون تهييب ، أن هذا الارتباط . . . مفقود . (اسبيروجبور : رد على أبحاث حول العلاقة القائمة بين المسيحية - واليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٤) .

(٢) ارنولد توينبي : تاريخ البشرية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٨٩ .

وفي سبيل التدليل على الأسبقية التاريخية لـ «المسيح أو المسحاء» على «المسيحية اليسوعية» ، يمكننا أن نقول ، إضافة إلى ما أتينا عليه فوق ، بأن «مسيحاً أو مسحاء» آخرين يمكن أن يظهرنا مجدداً ووفق الحالات المشخصة ، التي تفرض على هذه الطبقة الاجتماعية أو تلك في مجتمع ما . والمهم في ذلك ، أن شروط الحدث يمكن أن توجد مجدداً وإن بصيغ نوعية جديدة . بيد أن الصعوبة الجدية التي يمكن أن تنشأ في وجه هؤلاء لعلها تكمن في أن المسيحية كدين نشأت قبلهم وثبتت أقدامها ؛ ومن ثم وفي هذه الحال ، لا بد هؤلاء أن يستمدوا مشروعيتهم أو بعضاً منها مما سبقهم ، أي من المسيحية نفسها ، لكي لا يملوا على طريق التشهير والإدانة والزندقة ^(١) . أما قبل المسيحية فقد كان ظهور مسحاء أكثر سهولة وطواعية وقبولاً في الأوساط الشعبية عموماً ، لأن الاتجاه اليهودي والاتجاه الشعبي العام في فلسطين ومعظم الولايات التابعة للإمبراطورية الرومانية آنذاك كانا مهئين بصورة متصلة ، تقريباً ، لظهورهم ^(٢) ؛ فـ «الأحلام والآمال في عالم آخر» كانت في درجات قصوى من التوتر والصعود والاضطراب . إضافة إلى ذلك ، أصبح لـ «المسيحية» سيطرة عاطفية ودينية على المؤمنين تعيق من احتمالات التفكير بـ «مخلص - مسيح» جديد بدلاً من «يسوع المسيح» .

وإذا كان الأمر كذلك ، أفلم يكن الناس ، إذن ، أو بعضهم في تلك الأمصار التي أتينا على ذكرها «مسيحيين» ؟ هذا التساؤل الهام والجاد ، الذي

(١) انظر مثلاً على أسلوب ممارسة التشهير والإدانة والزندقة ذاك من قبل «الآباء» ضد من يعمل من المسيحيين ، مفكرين ومؤمنين ، على تفسير «العهد الجديد» بنحو يخالف لأرائهم ، مقالة للأب جورج فاخوري بعنوان (طرائف أخرى وأخيرة من جعبة الاستاذ نعيمه - مجلة المسرة ، يديرها الآباء البولسيون ، بيروت آذار ١٩٧٥ ، خصوصاً ص ٢١٢ منه) .

(٢) إذا استعدنا ما قلناه عن العلاقة بين المسيح - المسيح و «يسوع - يشوع» ، أدركنا المغزى التاريخي والتراثي للاكتشاف الذي حققه المنقبون حيث عثروا على ورقة من نوع «البردي يعود تاريخها إلى القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد» ، ومكتوب عليها القسم السحري التالي : أقسمت عليك باله العبرانيين يسوع (أي يشوع) . (انظر : عصام الدين حفني ناصف - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٤٢) .

نواجهه لدى فريق من الباحثين المؤرخين للمسيحية^(١) ، من شأنه إن أجيب عليه بالاجاب - وهو كذلك حقاً - أن يحدث تحولاً عميقاً وحاسماً في الفهم التاريخي للمسيحية «الجديدة» ، «مسيحية يسوع» ، التي ولدت في المرحلة الانتقالية مما قبل الميلاد إلى ما بعده^(٢) . وإذا كنا ، في مواضع سابقة ، قد أعلننا أن إحدى نقاط الاختلاف الأولية بين «المسيح اليهودي» و«المسيح اليسوعي» قامت على اعتبار الأول مشروع فعل تاريخي كان عليه أن ينتظر طويلاً وطويلاً لكي يتسنى له الظهور ، دون أن تتاح له ، في واقع الأمر ، الامكانية التاريخية لتحقيق ذلك ، وعلى اعتبار الثاني فعلاً أصبح ناجزاً وقادراً على التأثير في جمهور واسع متعدد الأنحاء والاتجاهات ، فإن المهمة الآن تنهض على استنباط الشخصية العينية لهذا الفعل الناجز ، أي الذي خضع لحملة كبيرة من التأثيرات وردود الفعل ، بحيث كان عليه أن يعيد النظر في بعض صيغه وأشكاله ، وفق الأحوال المشخصة التي أحاطت به ونفذت إليه وطبعته بميسمها .

هاهنا ، نكون قد بلغنا «الوعد اليهودي» ، «الوعد الحق» ، الذي دخل طور

(١) هذه المسألة يعالجها على نحو عميق P. Alfaro في كتابه Die sozialen Urspruenge des Christentums- a. a. O., S. 384.

وانظر حول ذلك ، أيضاً وعلى نحو ضمني : عصام الدين حفني ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٣ .

(٢) على صعيد هذا الموقف التاريخي التراثي ، يبرز السؤال التالي الذي يطرحه Hans Staffner في بحث له بعنوان «على الطريق إلى مسيحية آسيوية» (ضمن Glaube in Geschichte- a.a.O., S. 343) : «بأي معنى يمكن لكونفوشيوس أن يبقى كونفوشيوسياً ، إذا أصبح مسيحياً ؟ بأي قدر يستطيع بوذي ، وهندوسي أن يحافظ على تراثه الديني ، إذا تبنى الاعتقاد المسيحي ؟ وحتى وقت متأخر ، ظهر أنه مفهوم بذاته أن ينعين على أولئك (التنكر لأديانهم الزائفة) ، إذا أرادوا اعلان انتمائهم للمسيح . أمام اليوم ، فقد سطعت المعرفة التالية ، وهي أن الكثير من تلك السبل الدينية للحياة ليست ادياناً بالمعنى الذي يظهر فيه الاعتقاد المسيحي بصفته ديناً» .

ان ذلك السؤال الذي يصوغه الباحث بدقة ، يجيب عنه على نحو يسقط فيه الموروث التاريخي ليسوع «المسيحي» ، أي بصورة تقتضي ضمنها تلك الأطروحة التي أثبتناها فوق ، وهي أن المسيح أو المسحاء في الشرق القديم ، عموماً ، هم أقدم من يسوع المسيح «الواقعي التاريخي» ويسوع المسيح «الانجيلي النصي» كليهما .

الفعل الأعظم : ان يسوع (=يهوه يساعد) أخذ يقرع الأبواب «الكونية الكبرى» ،
أبواب «الخلاص» والتخليص (المساعدة) ، معلناً أن نهاية «الدجال الأعظم» قد
أوشكت ، وأن بداية عصر «المسيح الحقيقي» قد اقتربت اقتراب السواد من
البياض . وهذا يشير إلى أننا قد دخلنا في عالم يوحنا الرؤياوي ، الذي حمل
«البشارة» في رؤياه ، محدداً في نفس الوقت مجريات «الأمر التي ستحدث» على
طريق «الحدث الأعظم» ، «يوم الدينونة» . وإذن ، من دواعي التحقق من هذا
الأمر لابد من العودة ، ثانية ، إلى «الفاتحة المسيحية» ، إلى الرؤيا اليوحناوية .



«رؤيا يوحنا» المشروع الأولي للمسيحية

كانت الانطلاقة المسيحية الأولى الباكورة قد تبلورت ، بما قدمته من وضعية خلاصية ناضجة في حدودها العليا حتى حينه ، في النص الخلاصي الذي أصبح مقطوعاً في أنه الأقدم بالنسبة إلى «المسيحية» ؛ ذلك هو «رؤيا يوحنا»^(١) . فهو ، بمقتضى ذلك ، ليس فقط الكتاب الوحيد من «العهد الجديد» المعروف تاريخه بثقة تامة تقريباً ؛ بل إنه ، كذلك ، الأقدم ضمن كتب هذا «العهد» . لقد كتب في فترة زمنية يقوم حول تحديدها خلاف زمني ضئيل . فكتابته ، وفق أدق التقديرات ، أنجزت إما في شهر نيسان من عام ٦٨ ، أو في شهر كانون الثاني من عام ٧٩ ، أو في شهر حزيران من عام ٦٧ ، أي في مرحلة زمنية ضئيلة سابقة على بداية كتابة أول الأناجيل الأربعة عام ٧٠ ، وهو انجيل مرقس .

وإذا كان التنسيق النصي لـ «العهد الجديد» قد تم في ضوء اعتبارات لاهوتية كنسية ، بحيث تقع «رؤيا يوحنا» في آخره ، فإنها - أي الرؤيا - بالمقاييس التاريخي والديني التاريخي النصي نفسه ، ينبغي أن تكون فاتحته . أما السبب الرئيسي الكامن وراء ذلك فهو أن «الرؤيا» هي ، بالضبط ، المسيحية في بواكيرها وحوافزها وآفاقها الأولى ، التي جرى تحريرها ، كما أشرنا فوق ، قبل تحرير الأناجيل «القانونية» . ومن هنا ، كانت الأهمية الخاصة والكبيرة بها وللبحث فيها عبر تفصي الظروف التي أحاطت بولادتها وتبلورها ، بالتأثيرات «المسيانية» التي مارستها في

(١) لأهمية تاريخ هذه «الرؤيا» ، نحيل ، ثانية ، إلى المرجعين التاليين :

Prosper Alfaris- Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a.O., S. 3.

Friedrich Engels- Das Buch der Offenbarung, a.a.O., S. 165; Zur Geschichte des Urchristentums- a.a.O., S. 262.

أوساط «الظالمين إلى المحبة والخير» المفتقرين . إذ أن من شأن مثل هذا البحث أن يميّط اللثام عن عملية تكون المسيحية المعنية ذاتها ، وعن آفاقها وتوجهاتها واحتمالاتها اللاحقة ، التي أثارت ، بدورها ، موجة كبرى من التفسير والتأويل والاجتهاد للنصوص الدينية ما قبل الرؤياوية اليوحناوية وما عاصرها منها .

ولابد أن نشير ، في هذا السياق من المعاينة للمسألة ، إلى ضرورة التمييز بين الأشخاص الثلاثة الذين يحملون كلهم اسم «يوحنا» مقترناً بسابقة ملازمة له : رؤيا يوحنا ، وانجيل يوحنا ، ورسائل يوحنا ؛ أو على الأقل ، يهمننا من ذلك وفي هذا السياق أن نتبين اختلاف صاحب «الرؤيا» عن سميّه الآخرين ؛ لأن من مقتضيات ذلك الاسهام في لقاء ضوء على ما نحن بصدد البحث فيه ، ونعني به البواكير الأولى للمسيحية اليسوعية . ففي «رؤياه» إياها ، يبرز يوحنا وكأنه «جبل السرة السري» ، الذي يربط بين اليهودية والمسيحية ، أو ، بالأحرى ، يقدم شخصه فيها (الرؤيا) بمثابة ذلك اليهودي الذي انخلع من يهوديته باتجاه المسيحية ، ولكن دون أن يتجاوزها نهائياً وقطعاً .

إذا كان «يوحنا الرؤياوي» ذا أصول يهودية أو تتصل باليهودية بكثير أو قليل من الوشائج الإثنية والعقيدية ، فإن «يوحنا الانجيلي» يمتح من أصول أخرى ، هي الأصول الجديدة ، المسيحية اليسوعية . وبصيغة أخرى نقول : إن هذا الأخير نسب إليه «انجيله» ونسب هو إلى «انجيله» ، بعد أن غدت المسيحية واقعاً ذا حضور كثيف على الأصعدة الاجتماعية والذهنية الدينية والتنظيمية العقيدية . إضافة إلى ذلك ، لا يجوز أن يخفى ما للحالة الأولى المتمثلة بـ «يوحنا الرؤياوي» من أهمية خاصة في سبيل تفسير وضبط ما أطلق عليه لاحقاً «المسيحية اليهودية» ، التي قوبلت بـ «المسيحية الوثنية - البولسية» والتي نواجهها ، بنحو أو بآخر ، أيضاً لدى «يوحنا الانجيلي» ، وكذلك لدى لوقا في «انجيله» . ولعله من الحق أن نقول بأن رؤيا يوحنا تمثل - بالاعتبار التاريخي الزمني ، الكرونولوجي - الامتداد الشرعي والوريث الشرعي للتقاليد الرؤياوية اليهودية في «العهد العتيق» ، بدءاً من «نبوءة أشعيا» وانتهاء بـ «نبوءة ملاخي» .^(١) ومن هذا الموقع العقدي الانتقالي ، ظلت تحمل

(١) انظر مع المقارنة : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس =

وشم اليهودي اليهودي ، معلنة أن المسيح يسوع المخلص سيأتي إذ يحل «يوم الساعة» لينجز ، أخيراً وبعد صبر طويل مديد ، مهمة تحرير «الأخيار المصطفين» .

ان القول بأن «رؤيا يوحنا» تمثل المسيحية في أبسط أشكالها وتعبيراتها ، يقوم على أنها - بالقياس إلى المسيحية «التأخرة» أو «المتبلورة الناضجة» - ظلت حائزة على بعض الجسور مع اليهودية أولاً ؛ كما تقوم - ثانياً - على أنها لم تعرف مجموعة من التصورات والأفكار الرئيسية التي ستبرز في إطار تلك ، المسيحية «الناضجة المتبلورة» . وهذا وذاك يضبطان نمط العلاقة بين كلا الدينين وحدودها التاريخية والعقيدية . أما الحصيلة التي يغدو بمتسحنا استنباطها - بثقة لعلها تامة - من هذه الوضعية المركبة ، فهي أن «المسيحية اليوحناوية» تقدم ، في شخصها التاريخي والديني العقيدي ، السمات الشرقية الفلسطينية من المسيحية ، التي تنبىء عن أصولها ، وتشير إليها ، بصيغ أولية «رؤياوية» ، يمكنها ، إذا ضبطت - أن تسهم في صوغ خطّي التواصل والتفاصيل بين السابق واللاحق من التيارات الدينية آنذاك .

ان التصور المركزي الأول ، الذي يبرز واضحاً في «الرؤيا» تأكيداً على فكرة التضحية والفداء ، كنا قد واجهناه ، بصور متنوعة ومتميزة في الفكر الشرقي القديم ، كما في نصوص «العهد العتيق» . ولكننا نلاحظ أنه (أي ذلك التصور) يمثل - في خصوصيته النسبية الجديدة - الدفقة العارمة الضرورية والشعبية ، التي اقتضتها عملية ولادة المسيحية الأولى . ف «التضحية والفداء» كانا يمثلان وجهاً خطيراً بأهميته من أوجه ذلك الفكر ، بما فيه «العهد العتيق» . بيد أنهما ، هنا ، برزا بمشابتهما وضعية عامة وشاملة ؛ بمعنى أنه أريد لهما أن يجسدا وجوداً يمثل له الكل ، كما يندغم هو نفسه في هذا الكل . وهذا يظهر التضاييف الوظيفي بين العام والخاص ، بين الجمعي والفردى ، أي بين الفادي والمفتدى وبين المفتدى والفادي . وعلى ذلك وانطلاقاً منه ، كان على الجميع أن يضحوا ويفتدوا ، أن يقدموا الأضحية والنداء ، في آن واحد ، إن بالدم أو بالجنس أو بالغلات من

≡ المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٠-٩٢ ؛ وكذلك : F. Engels- Das Buch der Offenbarung, a.a.O.,

النبات والحيوان الخ بتعبير آخر أكثر حصرأ - بالمعنى المنطقي الحدّي - يمكن القول ، ان التضحية والفداء مثلاً ، في هذه الحال المحددة ، واجب عين ، وليس واجب كفاية ، حسب التعبير الاسلامي الفقهي اللاحق . ف «الواحد يقوم مقام الجمع» ، دون أن يكون في ذلك غضاضة بالنسبة الى هذا الأخير .

ان ذلك القول الأخير يبقى صحيحاً وضرورياً ، حتى إذا استعدنا بأذهاننا ما كان يتم في إطار تقديم الأضحيات ، وتوحيماً له وتكريساً . فلقد كان هنالك «الفادي المخلص» ، وهو أحد الآلهة الذي كان عليه هو نفسه أن ينجز الفعل الخلاصي في حدّه النهائي الأقصى . يكفي التذكير بـ «أدونيس» الكنعاني الفينيقي ، الذي كان بدمه الأحمر القاني يحقق فعل التضحية والفداء ، بحيث كانت النتيجة (الخاتمة السعيدة) لابد وأن تعني ازدهار الحقول بدمه المنساح والحامل لثمار الخصب والإخصاب ، وازدهار الأجساد البشرية بالخصب الجنسي بمثابته استجابة وتحقيقاً لذلك الفعل وتعبيراً عنه .

ان طبيعة التضحية والفداء تمثلت ، والحال كذلك ، في الأفعال الفردية العينية ، التي تجلّت - في نهاية المطاف - بالفعل الأعظم ، الإلهي . وهذا ، بالضبط ، ما نفتقده في رؤيا يوحنا . فهاننا ، نواجه التضحية والفداء وقد غدوا المهمة الأكثر راهنية وخصوصية بالفادي الأوحد والأعظم ، الذي يقدم نفسه حملاً مذبحاً «من بداية العالم» إلى أن «تقوم الساعة» ، حيث يمتلك زمام الكون كله ، محققاً بذلك وعن طريقه فقط - العدل والمحبة . وإذا عبرنا عن الموقف بالصيغة المقابلة لصيغة الموقف الذي واجهناه في الفكر الشرقي المعني هنا ، امكننا القول بأن الفداء هنا هو واجب كفاية ، وليس واجب عين :

« . . . مستحق أنت أن تأخذ الكتاب وتفض ختومه لأنك ذبحت وافتديتنا الله بدمك . . . مستحق الحمل المذبح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة»^(١) ؛

«وسيسجد له جميع سكان الأرض الذين لم تكتب أسماؤهم في سفر الحياة

(١) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ٥/٩ ، ١٢ .

للحمل المذبح منذ انشاء العالم»^(١) .
على ذلك وانطلاقاً منه ، غذا الواحد كلاً ، الواحد الفادي ، والكل
المفتدى . وإذا شئنا اختراق الموقف من زاوية أخرى ، أمكننا القول بأن الفادي -
يسوع المسيح - يُسبغ ، بفعل فدائه للخطاة ، طابعاً كونياً كلياً على هؤلاء
أنفسهم . فهم إذ يُفتدون في هذه الحال ، فإنهم يغدون في عداد العالم الرباني
الأبدي ، حيث

ولا يكون بعد موت ولا نوح ولا صراخ ولا وجع لأن ما كان سابقاً قد
مضى ،^(٢) .

كان ذلك الفداء (المسيحي اليوحناوي) ضرورياً لتكوين اللوحة الدينية
الجديدة كي تقنع الجميع وتأخذ عليهم أفئدتهم وعقولهم . إذ أن يسوع الفادي لم
يظهر فادياً لشعب دون شعب ، وإنما لكل الشعوب والأمم . في هذه النقطة
بالذات ، لقيت اليهودية والعقائد الدينية الشرقية السابقة مصرعها ، وغدت
متجاوزة بالحدود الكبرى الأساسية . نقول هذا ونحن نعلم أن هنالك من
الاعتراض ما قد يؤدي إلى إضعاف تلك النتيجة . أما ذلك الاعتراض المحتمل
فينطلق من أن كلا الدينين ، اليهودي اليهودي والمسيحي اليسوعي ، وليس الأول
منهما فحسب وبمفرده ، أخذاً بالتصور المنطلق من أن الرب الاله اصطفي واختار
من البشرية أناساً معينين كشعب خاص به ، بيد أن هذا الاعتراض يسقط ، أو -
بالحد الأدنى - يفقد جل مقوماته ومسوغاته حالما نتقصى ما يكمن وراء «الاصطفاء
والاختيار» في كلا الدينين المذكورين ، أي في كل منهما على حدة .^(٣)

فنحن نلاحظ أن تلك المسألة تأخذ ، في الحالة الأولى (اليهودية) ، بعداً إتيائياً
عرقياً قبل أن تكون ذات بعد ديني عقيدي . وربما قلنا ، هنا ، ان هذا البعد

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٨ / ١٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ٤ / ٢١ .

(٣) يكتب برتراند رسل في كتابه (حكمة الغرب - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٣٨)
مايلي ، محدداً بدقة ، ولكن بدون تفصيل ، الفرق في النظر إلى تصور الاصطفاء والاختيار في
كلا الدينين : «فالمسيحية تشترك مع اليهودية في الرأي القائل إن الله بصطفي أناساً معينين ، وإن
كان نوع الناس المختارين يختلف بالطبع في الحالتين» .

الأخير هو نفسه يشتق من البعد الأول . ولكن إذا فهمنا اللحظة الدينية العقيدية في اليهودية بمثابة تجسيدا وتظهراً للحظة الثانية العرقية في نفس الدين ، كان بإمكاننا القول بأن البعد الاتني العرقي يشتق ، هو كذلك وبدوره ، من البعد الديني العقيدي ، بحيث يغدو البعدان المذكوران وجهين لموقف واحد ، هو الوهم بالتفوق والتفرد والتميز ، على النحو الذي فصلنا الحديث فيه ضمن أطروحة «المركز - الهامش» . فالمسألة ، هنا ، لاثير أدنى التباس في طبيعة الاصطفاء والاختيار ؛ لأن هذه الأطروحة الأخيرة الأساسية ، التي صاغها الكهنوت اليهودي الارستوقراطي ، لا تخفي شخصيتها وعناصرها وآلية التوجه الديني العقيدي والاتني العرقي فيها . فهناك «الشعب المصطفى المختار» من طرف ، وهناك «الغرباء - الغوييم» من طرف آخر ، ولا ثالث بينهما . ولعلنا نقول ، ان صيغة الحسم هذه في الأطروحة المعنية كانت من العوامل الخفية والهامية ، التي أسهمت في صوغ الأطروحة البديل على أيدي المسيحيين الأوائل أو الكتاب المسيحيين المذنبين صاغوا المسيحية الباكورة ، وفي مقدمتهم - كما لاحظنا - يوحنا الرؤياوي نفسه .

ففي حالة الدين المسيحي ، نلاحظ أن تصور الاصطفاء والاختيار أبعد ما يكون عن ذلك الفهم اليهودي اليهودي للمسألة . ها هنا ، تصدعت الأطروحة السابقة الذكر تحت قبضة الأحلام القوية الجديدة ، وأعيد ترتيب الموقف بنوياً ووظيفياً ، أي بعيداً عن تصور تقاطب اتني عرقي وديني عقيدي بين طرفين اثنين لا يلتقيان لا في القبل ولا في الآن ولا في البعد : ليس هنالك ، من حيث البدء والفطرة ، ما يميز الشعوب والأمم عن بعضهم بعضاً ، ومن ثم ، ليس هنالك «شعب مصطفى مختار» بذاته ، وعلى نحو غير مشروط .

ان تصور الاصطفاء والاختيار ، هنا ، يتقوم بعنصري التقوى والمحبة ، تقوى الرب ، ومحبة مع الانسان . وهذان العنصران لا يُضبطان بحدود أقوامية إثنية ، ولا يتحددان بها ، ولا يقفان عندها ، بقدر ما يتصلان بطبيعة العلاقة «الحميمية» ، التي أقامتھا المسيحية اليسوعية بين الرب ورعيته من الناس . وقد كان أمام هذا الدين الخلاصي طريق لا بد من سلوكه ، وهو طريق أنسنة الاله وتأليه الانسان عبر «الروح القدس» ، بحيث يغدو الحديث وارداً وضرورياً عن «عائلة كونية انسانية» مؤلفة من الأب والابن وما يوحد بينهما (الروح القدس) . هذه

العملية كان من شأنها تمزيق الحدود الإثنية الأقوامية بين الشعوب (الأمم) ، ومن ثم تعبيد الطريق أمام طلائع المسيحيين (اليسوعيين) . وجددير بالقول أن الإقرار بوجود خلاف مبدئي بين كلا الدينين المعنيين يصبح أكثر وضوحاً وتماسكاً وبروزاً مع دخول المسيحية مرحلة متقدمة في تطورها ، أي مع خروجها عن الوضعية البكرة التي قامت على وجود ما يمكن أن يطلق عليه «المسيحية البدائية» ، تلك المسيحية التي ألفتها - في إطار اليهودية نفسها - الجماعات اليهودية المنشقة عن الدين اليهودي (اليهوي) بشقيه الكهنوتي الأعلى والشعبي ، على حد سواء .

ومع متابعتنا المسألة المطروحة ، نستطيع أن نصل إلى نتيجة مثأثلة مع تلك ، وإن على نحو جزئي ، حيث يغدو الحديث متصلاً بالعلاقة بين العقائد الدينية الشرقية القديمة من طرف والمسيحية (الجديدة) من طرف آخر . فتلك العقائد السابقة على اليهودية وإن كانت قائمة ، في حالات عديدة ، على درجة ما من «التسامح» وعلى ما يمكن تسميته ، تجوّزاً ، «ديموقراطية» المشاعيات القروية الزراعية ، إلا أنها - وهنا التقت بمعنى ما مع اليهودية التوراتية - طرحت نفسها بمثابته عقيدة شعب أو آخر وليس عقيدة كل الشعوب . وهذا ، بدوره وعلى صعيده ، يُظهر الأفق التاريخي الشعبي والشعوبي (الأممي) المتصاعد ، الذي مثلته المسيحية الصاعدة ، ونافحت عنه في مراحلها الأولى من حيث هو «الموجه السياسي الانساني» لسلوكها وتحركها ضمن أوساط الطبقات الدنيا والوسطى وما حولها من أنساق وفئات وجماعات اجتماعية .

إن رؤيا يوحنا ، هنا ، تفصح عن الموقف على نحو لا لبس فيه ولا ضعف ، حيث تعلن على رؤوس الأشهاد :

«لأنك دُبِحت وافتديتنا بدمك من بين كل قبيلة ولسان وشعب وأمة» (١) .
على هذه الطريق الحازمة والواضحة ، كان لابد وأن يطاح بالترسانة الطقوسية المعهودة في البناء اليهودي ولدى غيرهم ممن سبقهم ، وذلك لصالح حدٍّ ضروري وأساسي من الحرية السلوكية . لم لا ، والأمر قد ضُبط وحسم بطقس كوني واحد أحد يبرز بتجليات متعددة ومتكاملة ، في آن واحد ؛ ذلك هو عملية

(١) الكتاب المقدس - رؤيا يوحنا ٥/٩ .

الصلب والبعث والقيامة والخلاص ، مجسدة ومحقة في شخص الفادي الوحيد وحده . لقد كتب حول ذلك فريدريك انجلز ، في حينه ، معلناً أن التحرر من النزعة الطقسية (الطقوسية) كان قد مثل شرطاً أولياً ضرورياً للانتقال إلى مرحلة تكوين دين عالمي . فعن طريق فداء يسوع المسيح للعالم ، تكون قد وسقطت ضرورة الأضحيات . . . وكذلك قاعدة كمية أخرى من الطقوس الدينية . فالتحرر من الطقوس ، التي صحت التعامل مع المؤمنين من ذوي العقائد الأخرى أو حرمة ، كان أول شرط لدين عالمي» (١) .

وجدير بالاهتمام أننا نواجه هذا الموقف من الطقوس في رؤيا يوحنا بأشكال مضمنة مرمزة ، دون أن نلقاها على نحو مباشر . نلاحظ ذلك في الآيات التالية ، التي تستدعي الدخول في عالمها البيوي وسياقها من الوضعية الاجتماعية المشخصة ، في حينه :

«هؤلاء هم الذين أتوا من الضيق الشديد وقد غسلوا حللهم وبيضوها بدم الحمل . . . لأن الحمل الذي في وسط العرش يرعاهم ويرشدهم إلى ينابيع ماء الحياة . . .» (٢) .

ولحظة التضمين والترميز ، التي تقود إلى رفض الطقوس (أي الفعل الخارجي الجسمي) ، نبيينها خصوصاً في القول التالي ، الذي علينا أن نفهمه في علاقته مع «ماء الحياة» الوارد الذكر فوق :

«وبما أنك تقول أنا غني وقد استغنيت ولا حاجة بي إلى شيء ولست تعلم أنك شقي وبائس ومسكين وأعمى وعريان . فانا أشير عليك أن تشتري مني ذهباً مصفى بالنار حتى تستغني وثياباً بيضاء حتى تلبس ولا يظهر خزي عريتك وذرواً تكحل به عينيك حتى تبصر» (٣) .

ان رفض «الخارجي» من موقع «الداخلي» يمثل ، هنا ، مقدمة كبرى للمقولة التي سنواجهها لاحقاً تحت عبارة (استبدال ختان اللحم بختان القلب) . وهذا ما نجد

1) Friedrich Engels: Zur Geschichte des Urchristentums- a.a.O., S. 265.

(٢) الكتاب المقدس - رؤيا يوحنا ٧/١٤، ١٧ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطياته ٣/١٧-١٨ .

تمهيداً آخر له وتعميقاً باتجاه «الداخل» ، حيث يطالعنا يوحنا ، في مواضع متعددة ، برفضه لـ «الذبيحة» ، سواء كانت للأوثان أو للآلهة . ان هذا الأمر يمكن أن يفصح عن نفسه عبر «الوعد العظيم» ، الذي يقطعه الرب للشعوب والأمم الصالحة ليعيشوا خالدين سعداء ، حيث لا ذبح ولا ختان ولا ألم ولا شبع . . . وهنا ، يدور الحديث على «شجرة الحياة» التوراتية ، ولكن بعد أن يعاد النظر فيها بنيوياً ووظيفياً ، أي بعد تحويلها إلى رمز يمثل الخلود للصالحين إثر «يوم الحساب والدينونة» :

«من غلب فإني أؤتيه أن يأكل من شجرة الحياة في وسط فردوس إلهي»^(١)
إننا إذ نواجه هذا الموقف «الحياتي الخالد» ، نجد أنفسنا أمام معقدين اثنين من المسألة اليوحناوية المسيحية ، يجدر بنا أن نعالجها على نحو مفصل بسبب الأهمية التي يتمتعان بها على هذا الصعيد . المعقد الأول يتمثل في أن هذه الأخيرة تظل تستخدم المعجم الاصطلاحي التوراتي ، مع جدة نوعية رمزية تستجيب للمستوى الجديد . والحق أنه لم يكن لها إلا أن تلجأ إلى ذلك الاستخدام تدليلاً على الصلة التي تربط يوحنا باليهودية على نحو أميل إلى أن يكون مضمراً أولاً ، وعلى أن المسيحية نشأت - كما أشرنا من قبل - في صلب تلك وضدها ثانياً . ولكن الجدة النوعية الرمزية في الموقف تكاد تكون هي الأكثر حضوراً وظهوراً وفاعلية . أما هذه الجدة فتعلن عن نفسها من خلال تحويل «الحياة اليهودية الخارجية» إلى «الحياة المسيحية الداخلية - الجوانية» . فالأولى حين تتحقق لأبناء «الشعب المصطفى المختار» (وهي لا تتحقق أبداً) ، تجعل منهم خالدين خلود الرب نفسه . نعود إلى سفر التكوين لتبين الوضعية في مظانها :

«وقال الرب الإله هوذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر والآن لعنه يمدُّ يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا إلى الدهر . فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليحرث الأرض التي أخذ منها . فطرد آدم وأقام شرقي جنة عدن الكرويين وبريق سيفٍ متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة»^(٢)

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٧/٢ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر التكوين ٣/٢٢-٢٤ .

ان هذا النص التوراتي يضعنا أمام اللحظتين التاليتين من المسألة المطروحة :

١ - الوصول الى عالم الخلود (شجرة الحياة) أمر ممتنع على الانسان بكل الاتجاهات والاعتبارات ، وإن كان الوصول إلى عالم المعرفة (شجرة معرفة الخير والشر) أمراً ممكناً وتترتب عليه نتائج كبرى ، أهمها العقوبة ؛

٢ - إذا حدث على سبيل الافتراض - الذي يرد هنا بصيغة الحديث الرباني الذاتي ، أي بصيغة ما سيطلق عليه لاحقاً «الحديث القدسي» - أن أكل آدم (الانسان) من شجرة الحياة (الخلود) ، فإنه ، في هذه الحال ، يصير «كواحد منا» ، أي «كواحد من الآلهة» .

فعل صعيد اللحظة الأولى ، نواجه موقف الامتناع والاستحالة - بالمعنى المنطقي والوجودي - لأن يصبح الانسان خالداً ، لأن الخلود من سمات الرب وحده ، ولا يشاركه فيه أحد . وهذا ينطوي على الإقرار بوجود تمايز بنيوي بين الرب التوراتي والانسان التوراتي (اليهودي) ، من شأنه أن يكرس خلاصاً يبقى في حدود الانسانية ، أي في حدود الاحتفاظ ، بمعنى ما ، بوجود انساني ناقص بالقياس إلى الوجود الرباني الكامل . ويمكن الاعتراض على ذلك بأن يقال بأن عنصرَي التعالي والمفارقة سيفقدان من هيمنتها كثيراً وبصورة مضطربة ضمن الوجود الرباني اليهودي في المراحل الأخيرة مما قبل الميلاد ، وذلك باتجاه التواحد بين الرب والانسان . ويمكن أن يضاف إلى هذا أن تلك العملية المتمثلة بالفقدان المضطرب للهيمنة المذكورة تتسع لتأخذ صيغة المخلص والخلاص ، بحيث يقترب المخلص والمخلص من بعضهما بعضاً . بيد أن هذا «الاعتراض» يزول حين ننظر إلى العملية المنسوبة بها بمشابهتها مرحلة انتقالية من اليهودية اليهودية إلى المسيحية اليسوعية ، ومن ثم تمهيداً وتهيئة للتصور المسيحي المركزي «الرب الانسان والانسان الرب» .

أما على مستوى اللحظة الثانية ، فإننا نبتين حالة من التعددية الربانية ، التي تقوم - إذا سمح بها ، ولكن لم يسمح بها كما رأينا - على وجود أرباب متعددة ، أو على الأقل على ربين اثنين ، الرب الأصلي يهوه (رب الجنود) والانسان . وهذا ، من طرفه ، يشير إلى غياب «الوحدة الحميمة» في ذلك الوجود الرباني التعددي ،

وإلى سيادة وحدة تقوم على «المنافسة والتشارك والشك وافتقاد الثقة» . فلقد رأينا كيف لجأ الرب إلى الاسراع بطرد آدم من «جنة عدن» ، لكي لا تتاح له فرصة الاكل من شجرة الحياة - الخلود ؛ وكان ذلك الإجراء ضرورياً للحيلولة دون حدوث «الشرك» و«التشارك» بينهما .

ان ذينك الموقفين المجسدين باللحظتين المآتي عليهما هما اللذان عمل يوحنا الرؤياوي على تجاوزهما ، ممهداً - بذلك - لعالم المسيحية . وقد نهض هذا الأخير ، ضمن ما نهض عليه ، على تجاوز التمايز البنيوي بين الرب والانسان (الابن) أولاً بتأكيد على وحدة داخلية تجمع بينهما ، وعلى رفض تصور «المنافسة» بين الرب وابنه ثانياً ، وذلك عبر تكريسه لعلاقة بين الطرفين تتسم بـ «المحبة» و«الوصال» الذي يصل إلى درجة الانجذاب «بدون دنس - جنس» ، أي إلى المرحلة التي يتم فيها الاندماج «الجنسي» دون انثى (دون عنصر الخطيئة الأول) . وإذا أوغلنا في ملاحظة الدلالات المسيحية الخلاصية بين تينك اللحظتين ، اتضح أمامنا المفتاح الكبير الذي يقود إليها بكل كثافته وحضوره ، ذلك هو «الابن يسوع المسيح» ، ابن الرب وسليل الانسان .

ولقد كنا في مكان سابق قد أعلننا عن مدخل أساسي للرؤيا اليوحناوية رأيناه متمثلاً بتصور «الفداء» وغياب «الطقوسية» . وهذا لا يتعارض مع اعلاننا الآن عن المفتاح الكبير الذي يقود الى العالم المسيحي في الرؤيا ذاتها . ان حضور «الابن» و«الفداء» كليهما يمثلان وجهين لمسألة واحدة . اضافة إلى ذلك نقول ، ان «المدخل» الى العالم المسيحي اليسوعي تتسع باتساع المواقف التي اتخذها هذا الأخير من العالم اليهودي الجيتوي ، كما تضيق حين ينظر إليها من موقع مركزي . ولعلنا نقول ان هذا الموقع جسده تصور «الابن» في العالم الجديد . والجدير بالذكر ان يوحنا الرؤياوي يأتي على ذكر «ابن الله» مراراً وعلى نحو لا يتعارض مع الظن بأنه و«الأب» كيان واحد ؛ بل على العكس من ذلك ، نلاحظ أن الاثنين يتبادلان المواقع ، بحيث يبدو ان واحداً في اثنين (وهذا ما كنا واجهناه في الاسطورة الشرقية القديمة ، في مصر مثلاً ، حيث يظهر الأب أمّاً او ابنة أو ابناً ، ومن ثم كان الزواج المختلط الالهي تعبيراً عن ذلك) . يقول يوحنا مخبراً عما رآه في «الرؤيا» :

«من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس . من غلب فإني أوتيته المنّ الخفيّ وحصاة بيضاء مكتوباً عليها اسم جديد لا يعرفه أحدٌ ، إلا الآخذ . واكتب . . . هذا ما يقوله ابنُ الله الذي عيناه كلهيب نارٍ . . . تمسكوا بما هو عندكم إلى أن آتي . ومن غلب وحفظ أعماله إلى المنتهى فإني أوتيته سلطاناً على الأمم . . . مثلما أُوتيتُ أنا من عند أبي واعطيه كوكب الصبح»^(١) ؛

«من غلب فإني أوتيته أن يجلس معي على عرشي كما غلبتُ أنا وجلست مع أبي على عرشه . من له أذن فليسمع ما يقوله الروح القدس»^(٢) .

لنلاحظ ، هنا ، أن التمايز النبوي بين الله (الأب) والابن لا وجود له ، بنفس القدر الذي يغيب فيه التنافس بينهما والارتباب في بعضهما بعضاً . وعلى هذه الطريق ، يستطيع الانسان المؤمن أن يصل إلى «العرش» ، أي أن يتحد في الذي جالس عليه (الله) . وليس في ذلك ما يدعو إلى الدهشة ؛ لأن «الكلمة» مقررة منذ البدء ، والحمل مذبوح «منذ البداية» . وما على «الافكار» إلا أن تنفذ الكلمة الالهية الأمرة تنفيذاً قطعياً ولا عودة عنه .

وعلى ذلك ، فالأمر يبدو وكأنه انحصر في طرفين كبيرين غير متقاطعين ، الفاعل الذي يغدو مفعولاً والمفعول الذي يغدو فاعلاً . ان يوحنا يخبر عن ذلك ، حيث يتحدث عن «الألف والياء» ، من حيث هما الواحد باتجاه الاثنين والاثنين باتجاه الواحد :

«أنا الألف والياء البداية والنهاية الأول والآخر»^(٣) .

وعلى هذه الطريق بالذات ، تتضح الأبعاد «الحميمة» للعلاقة بين الطرفين ، تلك العلاقة التي تجعل من «الانسان» - ممثلاً بيسوع الخاص والعام - قادراً على أن يعيش خالداً (مع شجرة الحياة - الخلود) ، أن يعيش كالرب ، أو أن يصبح والرب صنوين . أما انجاز هذه العملية فمرتته بـ «الفداء» ، الذي يوحد بين الفادي والمفتدى عبر «الاغتسال بدم الحمل» ؛ فهذا الاغتسال يزيل عن النفس والجسد

(١) الكتاب المقدس - رؤيا يوحنا ٢/١٧-١٨ ، ٢٥-٢٦ ، ٢٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٣/٢١-٢٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ٣/١٣ .

ما علق بهما من مظاهر الخطيئة التي ابتدأت بها الانثى بغواية من الحية المحتالة :
«طوبى للذين يغسلون حللهم بدم الحمل ليكون لهم سلطان على شجرة الحياة
ويدخلوا المدينة من الأبواب»^(١) .

ولا بد ، هنا ، من توقف أمام مسألة شائكة حقاً وذات صلة وثيقة بالفقطين
المتضايقين (الأب والابن) ؛ نقصد بذلك «الثالث» الذي يقوم بينهما . إن هذا
«الثالث» هو ، هنا ، غير «الروح القدس» . إنه «الأم» . وجدير بنا أن نذكر أن
يوحنا لم يأت على هذه المسألة إفصاحاً ؛ بل إن «المستمع» للرؤيا هو الذي عليه أن
يدع الأحداث تتكشف له عن موقع «مريم - ماريّا» في سياقها ، ذلك الموقع الذي
سنجده إشكالياً ومثيراً «للشفقة» بسبب من تضييعه بين الأب والابن .

فهناك ثلاثة رموز تقودنا إلى «مريم» ، وإن على نحو يقوم على المناقضة
أولاً ، وعلى المواءمة ثانياً . إن الحديث عن الأب هو ، في نفس الحين ، حديث
عن الأم ، التي تمثل الوجه المتمم والنقيض الضروري لـ «الأب» ؛ وكذا الأمر فيما
يتصل بـ «الابن» . ولكن هذا الأخير يبرز في «مناقضته» باتجاهين اثنين ، اتجاه
الأب واتجاه الأم . فحيث يطلق اسم «ابن» ، لا بد وأن يكون بالضرورة منطقياً على
«أبيه» و «أمه» . وهذا يشير إلى أن الابن هو جماع أبيه وأمّه ، أي ما هو الأعظم
فيهما . فمن طرف أبيه ، يمتلك الذكورة (الهيمنة) ؛ ومن طرف أمّه ، يمتلك
الأنوثة (الخضوع) ؛ ورغم ذلك ، يظل (الابن) ابن الطرفين كليهما ، حتى وإن
قاد ذلك إلى اعتباره «نصف رجل ، نصف أنثى»^(٢) .

والمناصفة هذه من شأنها أن تقود إلى وحدة «العالي» بـ «الداني» ، وأن تطرح
مشروع «الخلاص والتخليص» بكل ما يمكن من القوى المعبأة في الاتجاهين
المذكورين . ذلك أنه حتى وإن كان «الابن» ، بمعنى ما ، خنثياً ، فإنه يظل يحصد
ثمار البعدين المذكورين ويوحد بينهما . ولكنه إذ ينجز ذلك ، فإنما انطلاقاً من
«الحب - المحبة» الذي تنثره «أمه» فيه وباتجاه «أبيه» . وهذا يشير إلى أن «الحب -

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٤/٣ .

(2) Ludwig Feuerbach: Das Wesen des Christentums - a.a.O., S. 133.

المحبة» يشغل حيزاً بسيطاً بين الأب والابن وعبر الأم ، ويبرز - من ثم - بصفته المقولة القصوى على صعيد العلاقة «الحميمة والودودة» بينهما .

إلا أن مشكلة تبرز ، هنا ، في نطاق العلاقة بين الطرفين الكبيرين ، الأب والابن . هاهنا ، نكون في نطاق الملامسة العميقة التي قدمها لودفيج فويرباخ باتجاه تلك المشكلة . ان الفيلسوف المذكور يتناول هذه الأخيرة من جهة «الأم - مريم» ، أي العنصر «الثالث» الذي يفقد «ثالثيته» هذه «بين حانا ومانا» ، أي بين طرفين يتصلان منه . وهذا ما يشير إليه فويرباخ حيث يعلن أنه «لا يمكن غض النظر عن أن الأم شيء لا مقدس . . . فماريا (مريم) تجد مكانها المناسب ضمن مقولة العلاقات الثلاثية ؛ ذلك أنها تحمل بالابن دون رجل ، اي الابن الذي ينتجه الأب دون انثى ، بحيث أن ماريا تكون تناقضاً ضرورياً ومحرضاً عليه من الداخل مع الأب والذي يبرز في حضن الثالوث»^(١) .

إنه لأمر بالغ الدقة وكذلك «الألم والأسى» حين نتبين غياب دور «الأم» في «رؤيا يوحنا» . وعندما يتحدث عن «الروح والعروس»^(٢) و «عرس الحمل» . . . وعروسه»^(٣) ، فهو إنما يتحدث عن «الروح القدس» ، الذي يجسده «يسوع المسيح» نفسه . ولا يغير في الأمر شيئاً أن نرى في ذلك «الروح القدس» تعبيراً عن علاقة «المحبة» بين يسوع وأبيه ، تلك العلاقة التي تفصح ، بمعنى ما ، عن دور خفي لـ «الأم مريم» . ان ذلك الذي أعلنه فويرباخ ينطبق على «الرؤيا اليوحناوية» بصيغة السلب ، أي بصيغة التكرار لدور «الأم» ، مع الملاحظة الأساسية بأن ذلك يصح في الحال الذي نضع فيه باعتبارنا هيمنة «الثالوث المقدس» . فالابن ، الذي يظهر أباً ، يفقد صلته بالأم ، وذلك بسبب من أن ذلك الأخير ينتزع هذه الصلة لصالحه . فعلى حد قول فويرباخ ، يظهر الابن بعيداً عن أمه ، التي يكون أبوه بالأصل قد رفضها : فهو (الأب) ينتج دون أم (انثى) ؛ وهذا الأب هو نفسه الذي يتجلى في الابن . وهنا ، نواجه علماً ذكرياً يقوم في «العالي» و«الداني» ، وكذلك في بقية الانحاء والاتجاهات .

1) Ebenda- a.a.O., S. 132- 133.

(٢) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ١٧/٢٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعانيه ٧/١٩ .

العلنا نستطيع أن نستنبط من ذلك مؤشرين ذوي أهمية خاصة على صعيد المسيحية اليوحناوية أولاً والمسيحية البولسية لاحقاً ؟ المؤشر الأول يتمثل بتصوير «الخلق الذاتي» ، أي بطريقة «الاستمناء الذاتي» ، دوغما حاجة إلى أنثى . وجدير بالتذكير أننا واجهنا هذا التصور واضحاً مفصلاً عنه في الفكر الشرقي القديم ، والمصري منه تحصيماً^(١) . وليس وجود «الأنثى» في هذا السياق إلا أمراً ثانوياً ، إضافياً ، ومنتماً . ولكن علينا أن نتابع الفكرة المطروحة ، حيث نقول بأن عملية الخلق تلك المسيحية هي عملية تتم منذ البدء . فالمسيح يسوع هو ، بحسب يوحنا : «رأس خلق الله»^(٢) ، أي الأول في عملية الخلق . بيد أن هذا لا يعني أنه لم يكن ، ثم كان . ذلك أنه يمثل الوجود ممثلاً في كل أنحائه وجهاته ، بحيث يظهر الكل في الأجزاء وتظهر الأجزاء في الكل . وتعبير يوحنا ، يعلن يسوع المسيح عن نفسه بأنه :

«الأول والآخر . والحى وقد كنت ميتاً وها أنا حي الى دهر الدهور»^(٣) ؛

«الألف والياء البداءة والنهاية الأول والآخر»^(٤) ؛

«وسيسجد له جميع سكان الأرض الذين لم تكتب اسمائهم في سفر الحياة للحمل المذبح منذ إنشاء العالم»^(٥) .

وبذلك ، نلاحظ أن «الأم - الأنثى» ليست ذات وجود إلا من حيث الابن . وهذا -

(١) في سبيل إيضاح ذلك ، يجدر بنا أن نشير إلى وجود نص . . أشد أرضية ، يجعل ظهور شو وتفنوت نتيجة لاستمناء آتوم . وفي هذا ولا ريب محاولة لحل مشكلة الميلاد من إله واحد لا قرينة له . . . وهكذا نجد في الاسرة الإلهية الحاكمة قصة ضمنية للخلقة . فان آتوم ، الفراغ المشحون ، انفصل إلى هواء ورطوبة . (جون . ا . ولسون : مصر - ضمن هـ ، فرانكفورت وآخرون : ماقبل الفلسفة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٩ ، ٧٠) .

وقد يكون بمستطاعنا القول بأن الخلق على ذلك النمط يحيلنا إلى القول بأنه (أي الخلق) لا يحدث من عدم مطلق ؛ وهذا من شأنه التأكيد على قدم العالم في الزمان والمكان . وفي الموقف المسيحي اليسوعي نلاحظ تلك الواقعة في صيغة خاصة من صيغ «وحدة الوجود» .

(٢) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ٣/١٤ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٧/١ - ١٨ .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٣/٢٢ .

(٥) نفس المصدر السابق ومعطيته ٨/١٣ .

من طرفه - يشير إلى أن الوجود الانثوي في التصورات المسيحية المتتالية كان يضعف أو يقوى وفق إضعاف «الثالوث المقدس» أو إبرازه . (وقد لاحظنا هذه العملية المتواترة على صعيد البروتستانتية والكاثوليكية ، حيث تدخل مريم لدى الأولى في حالة من الهزال ، في حين أنها تنشط وتزدهر على يدي الثانية) . وجدير بالقول أن العملية المتواترة تلك خضعت لمتطلبات كثيرة ، منها أو ربما في مقدمتها متطلبات الواقع المشخص في المرحلتين اللتين ظهرت فيهما المسيحية ، مرحلة البكرية ومرحلة النضج . ذلك أن وجود «الأم مريم» في الثالوث ينطوي على دلالة طريفة ، هي تلك التي استنبطها لودفيج فويرباخ وصاغها على النحو التالي : «بالطبع ، لم يكن لدى البروتستانتية حاجة لأنثى سماوية ، لأنها ضمّت الأنثى الأرضية بأذرع مفتوحة إلى قلبها . . . فقط مَنْ ليس له أبوان أرضيان ، هو الذي يحتاج إلى أبوين سماويين» ؛ ومن هنا ، فإن «الله الثالوثي هو إله الكاثوليكية»⁽¹⁾ . وهذا ما يجعلنا نلح على أن جماع القول النهائي في هذه المسألة يتحدر من البوصعية الاجتماعية المشخصة التي تحيط بمن كمن وراء تلك المواقف اللاهوتية ؛ إضافة إلى أن الوعي اللاهوتي إذ ينشأ ، فإنه يعمل على إعادة إنتاج نفسه عمقاً وسطحاً .

أما المؤشر الثاني فيفصح عن نفسه بالموقف الاخلاقي الذي اتخذته المسيحية اليوحناوية من المرأة . بالطبع ، لا ينبغي استباق الأمور بالقول بأن ذلك الموقف يقوم على تكريس الدونية فقط لأن «الرؤيا» لا تأتي على ذكر «مريم» . إن مثل هذا الاستنباط الدلالي غير وارد في النص المذكور . فالرؤيا مثلت تبشيراً بالخلاص للجميع على أيدي المخلص يسوع ، بمن في ذلك المرأة . ولكن من طرف آخر مقابل ، نستطيع أن نبني على تلك الواقعة (غياب الأم) نتيجة افتراضية أولية مفادها أن التحرير والتخليص هما من شأن الذكر دون المرأة ، أي من شأن من هو «قادر» على الخلق الجنسي «دون أنثى - دون جنس» ؛ وذلك هو الرب الابن أو الابن الرب وحده . وإذا كنا نفتقد «الأم» هنا ، مع الحفاظ على مساواتها العامة مع الذكور في العالم البشري ، فإننا سوف نواجه موقفاً آخر إزاء المرأة على يد بولس مختلفاً اختلافاً بيّناً عن ذلك ، يقوم على تكريس الدونية ليس فقط حيال (الأب والابن المقدسين) ،

1) Ludwig Feuerbach: Das Wesen des Christentums- a.a.O., S. 135, 136.

وانما كذلك بالقياس إلى نظراء المرأة - الانسان في العالم البشري . ولعلنا نستطيع تفسير ذلك ، جزئياً على الأقل ، بأن بولس هو النظري في العالم البشري الأكبر للمسيحية الكنسية ، أي مسيحية الدولة التي تقوم على واقع التناقض الاجتماعي والطبقي والسياسي والأخلاقي والثقافي ، وكذلك الجنسي .

المعقد الثاني من المسألة اليوحناوية المسيحية الذي نواجهه في الموقف «الحياتي الخالد» ، أي في تصور الخلود الانساني ، يبرز في العلاقة بين «الداخل» و «الخارج» ، «الروح» و «الجسد» . لنستعدّ الآية اليوحناوية التي بشرت بالخلود الانساني : «من غلبَ فإني أوتيهِ أن يأكل من شجرة الحياة في وسط فردوس الهي» . فلقد أشرنا ، في سياق الحديث ، إلى أن الخلود غداً ممكناً بالنسبة للانسان على يد المسيحية اليوحناوية ، بعد أن كان مقصوراً على الرب . ويظهر ذلك دلاليّاً في «شجرة الحياة» المذكورة على نحو مفصّل عنه . . ويهنا ، الآن ، أن ندقق في تعبير «الحياة» ، التي يعلمنا يوحنا بأنها ستكون في وسط الجنة . ومن أجل ذلك ، نلاحظ أن هذا التعبير يستثير نقضه ، كما تفهمه المسيحية الرؤياوية ، أي «الموت» . فهذان كلاهما ينفيان بعضهما بعضاً بعد إذ يكون «الخلاص» قد دخل محرابه الكبير ، أي بعد أن يكون الصّديقون قد «غلبوا» . بصيغة أخرى ، ان «الموت» يُغلب في نهاية المطاف لتبقى «الحياة» تعبيراً وحيداً عن الوجود العام ، بحيث تنتهي - بذلك - جدلية الحياة والموت .

ان مقابلة «الحياة» بـ «الموت» ، وكذلك العكس ، يمثل وجهاً واحداً من أوجه متعددة ، انها المقابلة بين «الروح» و «الجسد» ، و «القلب» و «الرأس» ، و «الختان بالقلب» و «الختان باللحم» الخ . . . وهذه المقابلة هي من النمط الذي يستدعي الاقرار بالتناقض والصراع ، حتى يتحقق النظر لـ «الحياة» . فوصول الكون إلى حالة الخلاص على يد يسوع ابن الله من شأنه أن يجسد الحياة والروح والقلب والختان القلبي ، ومن ثم ، ينتهي ، هنا ، التعارض والتناقض والصراع بين الخير والشر والمخلص والدجال ، وتتوقف عملية التوتر بين الطرفين المتنازعين وغير المتكافئين معظم الأحيان . ومن هنا ، يبرز الموقف الأخلاقي المسيحي اليوحناوي بمشابهة تأكيداً ذا بعد واحد على «الداخل» ، دون «الخارج» وضده . وإذا ما وضعنا هذا الموقف في لحظته التاريخية المشخصة ، استبان لنا أنه كان قد وُجه مباشرة

وتخصيصاً ضد الموقف الأخلاقي اليهودي ، الذي نهض على «الخارج» أولاً ، على الطقوس التي قيدت المؤمنين بعلاقة شكلوية مع الرب ، الذي طالبهم ، هو بدوره ، بهذا الموقف وحدده لهم في «الشريعة» .

ولا ريب أن الوصول إلى ذلك الموقف «الجواني» في رؤيا يوحنا كان من الشروط الأساسية لتجاوز اليهودية عمقاً وسطحاً : عمقاً باتجاه «الخلاص» ، وسطحاً باتجاه أوسع الأوساط البشرية من مختلف «الأمم» . وحققاً ، فإن هذه الأوساط الواسعة لم تقبل على الدين الجديد انطلاقاً من القوة الجاذبة لمثله الخلاصية العليا فحسب ؛ لقد فعلت ذلك أيضاً لسهولة المطالب المسلكية التي طرحها عليهم ، وبالتحديد لرفضه الطقوس اليهودية في الأكل والملبس والاعتزال والبيع والشراء الخ . . . وهذا ما انجزته الرؤيا اليوحناوية ^(١) ، بالرغم من الجسور التي ظلت تربطها بتلك على نحو أو آخر .

ذلك كان ، في حقيقته واتجاهاته العامة ، موقفاً تلفيقياً سمح بتحقيق النقلة إلى الدين الجديد ، ولكن دونما قطع نهائي لعلاقة القربى مع اليهودية . وبالرغم من تلفيقيته هذه ، فإنه (الموقف) جسّد خطوة خطيرة ومتميزة على طريق التكون الجديد . ذلك أنه استطاع أن يستقطب اللوحة الثقافية والدينية السائدة في حينه وأن يخاطب أصحابها على نحو استطاع فيه أن يخلق جبهة واسعة عريضة للتحالف فيما

(١) لودفيج فويرباخ يأتي على هذه المسألة ، حيث يشير إلى أن المسيحية هي ، بعكس اليهودية ، دين يقوم على الحرية والانتقادية . ذلك لأن اليهودي يفعل فقط ما يؤمر به من قبل الرب . وهذا الأمر ذو بعد شامل بحيث أنه ينسحب حتى على الكيفية التي على اليهودي أن يأكل وفقها ويلبس ويغتسل . ويخلص فويرباخ إلى القول بأن ما يلحقه اليهودي بالرب ، يلحقه المسيحي بالإنسان (انظر : Ludwig Feuerbach - Das Wesen des Christentums, a.a.O., S. 78) .

وجدير بالقول أن ما يعلنه فويرباخ على صعيد المسيحي هو صحيح فقط حيثما نضعه في سياقه من عملية التأسيس والتأليه ، التي أثبتنا على ذكرها في موضع سابق ؛ أي حين نرى في الإنسان وجهاً من أوجه الألوهية . ومع ذلك ، يمكن أن يبرز بعض التحفظ على استخدام فويرباخ تعبير «الحرية» كسلوك محدد للمسيحي إزاء ربه . إذ أن هذه «الحرية» ترتد ، في نهاية الموقف ، إلى «الفعل الرباني اليسوعي» الكامن في الأقدار الربانية ، أي - بحسب رؤيا يوحنا - الكامن في «الختم السابع» ، ختم يوم «الدينونة والخلاص» .

بينهما باتجاه إسقاط العالم القديم . وبطبيعة الحال ، كان على أولئك ألا يتجاوزوا حدود الطبقة الوسطى ، التي كانت - مع الطبقة الدنيا - تعاني من تسلط الأغلبين اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وروحياً . ولعلنا نتبين تلك العلاقة ببعض أشكائها التي ظهرت في «الرؤيا» .

فبعد تصور الفداء والتضحية المآتي عليه فوق والذي ظل يحمل وشماً يهودياً ، تأتي «التسيحة الموسوية» للرب ، التي يضعها يوحنا في الأهمية على قدم وساق مع «تسيحة الحمل» . وبتعبير آخر يمكن القول ، ان موسى يظهر ، هنا ، وكأنه معادل ومساو ليسوع ، بحيث أن هذا الأخير سيجد نفسه أمام ضرورة الانتظار حتى تنح له ، في أعقاب ذلك ، إمكانية تحقيق الهيمنة وحسم الموقف لصالحه مقابل موسى وغيره من الأنبياء والرسل والقديسين الكثر في مراحل ما قبل المسيحية (اليسوعية) .

ولعلنا نقول في هذا الفصل الرئيسي من المسألة ، ان يوحنا الرؤياوي يبرز ، هنا ، ليس فقط بصفته ذا أصول يهودية ، وإنما كذلك من حيث هو منافح عن يهوديته بقصد ووعي . بيد أن هذا وذاك ظلاً - في مجمل الموقف وعموميته - محكومين بالحركة الداخلية للتحويل المسيحي الجديد ، أي لعملية الانتقال من التشرذم في كيانات سياسية قبلية وأخرى قائمة على دول المدن ذات النمط المشاعي القروي ، إلى نظام اجتماعي عبودي يعيش أزمنة التاريخية الكبرى . ان يوحنا يخبرنا عما رأى من «أحداث ربانية عجيبة» ، يختلط فيها الفعل اليهودي بالفعل المسيحي ، ويتداخل فيها الفرح بالاضطراب ، والأمل الغامر بياس مروع ، أي بأفاق اليهودية المستقبلية المستفدة بالأفاق المسيحية المستقبلية الواعدة ، بحيث يقود ذلك إلى ما أطلق عليهم «اليهود المتمسحين» :

«ورأيت آية أخرى في السماء عظيمة عجيبة سبعة ملائكة معهم الضربات السبع الأخيرة لأنه بها تم غضب الله . ورأيت مثل بحر من زجاج مختلط بالنار والذين غلبوا الوحش وصورته وسمته وعدد اسمه واقفين على بحر من الزجاج ومعهم كئارات الله . وهم يسبحون تسيحة موسى عبد الله وتسيحة الحمل قائلين عظيمة وعجيبة اعمالك ايها الرب الاله القدير وطرقك ياملك الدهور

عدل وحق» (١) .

والآن وبعد ما أتينا على ما طرحته الرؤيا اليوحناوية من مواقف وآفاق ، فإنه يبدو أننا إذا ما انطلقنا من أن هذه الرؤيا خلقت من بعض السمات الكبرى ، التي تتميز فيها بعد المسيحية «الناضجة أو المكتملة» ، فإنه ، لذلك ، يغدو من الصواب الوصول إلى الرأي التالي : ان مسيحية يوحنا الرؤياوي لم تمثل أكثر من مشروع أولي للمسيحية ، ومن موقع عملي بالدرجة الأولى . وهذا ، من طرفه ، يشير إلى أنه لم يكن من اهتمامات يوحنا أن ينظر للموقف الجديد ، وأن يجعل منه بناء عقيدياً ناجزاً . فلقد غلب على تفكيره هاجس رؤياوي أقصى ، هو «يوم الدينونة» ، الذي أصبح وشيكاً ، والذي يقتضي - من ثم - الانتظار «والسهر والترقب» :

«فإن الزمان قريب» (٢) .

ويوم الدينونة هذا سيكون الحد النهائي لما قبل الخلاص ، ذلك الخلاص الذي يشغل في الرؤيا ، مع يوم الدينونة ، مكاناً مركزياً . ويخصص يوحنا الموقف ، حيث يُعلم عن «كيفية» حدوث الدينونة وعن زمانها والوجه الذي ستتخذه في البدء . وهذا ما جعل يوحنا يلجأ إلى تشبيهات سنجد أصداءها مستمرة في الكتابات الانجيلية اللاحقة (مثل حلول الدينونة كما يحل اللص في الليل دون استئذان ، ومن ثم ضرورة «السهر» توقعاً لما قد يحدث) :

«فاذكروا كيف نلتَ وسمعت واحفظ وتب وإن لم تسهر أتيتك كاللص ولا تعلم في أية ساعة أفدُ إليك» (٣) ،

«ها أنا آتي كاللص فطوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه فلا يمشي عُرياناً فينظروا سوءته» (٤) .

هكذا ، نفهم لماذا تغيب عن «رؤيا يوحنا» بعض تلك المسائل التكوينية الكبرى ، التي أصبحت المسيحية اليسوعية تعرف من خلالها (ومن خلال أخرى

(١) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ١٥/١-٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٢/١٠ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ٣/٣ .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٦/١٥ .

غيرها نواجهها أو نواجه بعضها في الرؤيا ، كما أتينا على ذلك في سياق المعالجة) .
ونعني بذلك ، هنا ، تخصيصاً مسألتَي «التعميد» و «العشاء الربّاني» (على الصعيد الطقوسي الذي لا نفتقده في المسيحية وإنْ بعد إعادة بنائه) ؛ ومسائل «التثليث» و الخطيئة الأصلية» و «دين المحبة» (ضمن المستوى اللاهوتي العقيدي) . إن غياب هذه المسائل عن الرؤيا اليوحناوية ليس بالمعنى القطعي الكامل . فنحن نلاحظ بعض ما يعلن عنها في الرؤيا المذكورة ، إعلاناً إرهابياً وعلى نحو ضمني . بالطبع ، نحن لا نود ، في ذلك الذي نأتي عليه ، القول بأن المسيحية اليسوعية وجدت هنا تعبيرها الأولي الشامل ؛ ولكننا نريد التأكيد على أن الرؤيا تجد مكانها الأبرز في دائرة المسيحية تلك . بل أكثر من ذلك ، يمكن القول بأنه حتى لو انطلقنا من أن تلك المسائل المذكورة غائبة عن الرؤيا اليوحناوية أو ذات وقع هزيل خفيض فيها ، فإن ذلك لا يدعو إلى وضع هذه الأخيرة خارج الدائرة المنوّه بها ؛ إضافة إلى أنه يضعنا أمام واقع تاريخي ذي دلالة خاصة بالنسبة إلى الأفاق المسيحية ومصائرنا التاريخية والتراثية ، تلك الأفاق والمصائر التي تولدت وتبلورت في إطار الخصومات والصراعات بين الفرق والتيارات الدينية والسياسية ، في حينه . أما الواقع التاريخي المعني هنا فيتمثل في أن الرؤيا اليوحناوية تقدم ، في شخصها البكرّي ، «المسيحية الباكّة» ، التي عبّرت ، بصيغة خلاصية رؤياوية ساذجة ، عن مطامح الطبقات والفئات والشرائط والأنساق الاجتماعية الفقيرة المعدّمة والمُفقرة من فلاحين وصيادين وحرفيين وعبيد ومنبوذين في الخلاص من قوى الاستغلال والقهر الداخلية ، المتواطئة قسراً أو طوعاً مع قوى الاحتلال الروماني الإمبراطوري .

ومن هنا ، ظهر تصور «الفادي المخلص» بمشابهة حجر الزاوية في الرؤيا اليوحناوية ؛ ذلك لأنه نيطت به ، ضمن هذه الوضعية المتصاعدة باتجاه التبلور والتأزم ، مهمة محددة مشخصة كمنّت في تحقيق الانعتاق من ذينك «القيديين» السياسيين والاقتصاديين ومما يغطيها ويسوغها من موقع نظري هليّني . وجددير بالانتباه أن العناصر اليهودية ، الكامنة في الرؤيا والتي تفصح عن نفسها بكثير أو قليل من المباشرة ، عبّئت هي نفسها باتجاه تكريس وظيفة الفداء والخلاص ، بحيث نتبين فيها (أي العناصر اليهودية) وفي العناصر الأخرى الجديدة ، المسيحية الخلاصية ، وحدة وظيفية أيديولوجية استجابت لمقتضيات مرحلة الانتقال العظمى

مما قبل الميلاد إلى ما بعده ، أي إلى المسيحية . وهذا ، بدوره ، من شأنه أن يقودنا إلى القول بأننا نواجه مثل هذه الوحدة الوظيفية المحددة حتى في نطاق العناصر اليهودية ، التي ربما بدت كما لو أنها بعيدة عن ذلك وغير منضبطة به ، ومن ثم لا تخضع لمقتضيات التحول النبوي والوظيفي التي عبّرت عن نفسها في مجمل «النصوص المقدسة» ، في مرحلة الانتقال مما قبل الميلاد إلى ما بعده ^(١) . ومن هنا ، كان لابد وأن نعيد النظر ، بنبويًا ووظيفيًا ، في النص الرؤيوي اليوحناوي ، لكي نتاح لنا امكانية تبين الاتجاهات الأساسية والثانوية فيه .

والطريف الدال ، في هذا المجال ، أن نشير إلى أن العناصر المومسية إليها بمشابتها أحجار الأساس في بناء «المسيحية الناضجة» ، أي المنظرة المنسقة ، كانت موجودة ، على نحو مبعثر وضمن صيغ فيها كثير أو قليل من الخصوصية ، في مجموعة من العقائد الدينية السابقة على المسيحية واليهودية عمومًا ؛ ورغم ذلك ، لم تظهر في الرؤيا اليوحناوية بصورة واضحة بيّنة ، لأن مرحلة الرؤيوي لم تكن قد تبلورت وحسمت على نحو يسمح بقيادة الموقف العقيدي إلى صيغ وظيفية متخصصة ومعقدة . فتصورات التعميد والتثليث والعشاء الرباني واجهناها ، بتوزع مختلف ودرجات متباينة ، لدى المصريين والكنعانيين والرافديين الخ . . . ^(٢) (ولعلها موجودة كذلك لدى شعوب أخرى في التاريخ القديم يأتي

(١) في معرض الحديث عن «دينونة الزانية العظيمة الجالسة على المياه العذبة» ، التي هي «بابل العظيمة أم زواني الأرض ورجاساتها» (نفس المصدر السابق ومعطياته ١٧/١ ، ٥) ، أي على صعيد الإشارة إلى الدياسبورا الأولى والثانية إلى آشور وبابل ، فلاحظ أن اتجاه التوظيف الديني الخلاصي لمثل هذه الوقائع يتم في إطار الخلاص المنتظر على أيدي «الحمل المذبح» . فعلى نقبض «أم الزواني» تلك ، تبرز «آية عظيمة ملتحفة بالشمس . . . وهي حبل . . . فولدت ولدًا ذكرًا هو مزعم أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد فاخترطف ولدها إلى الله وإلى عرشه» . (نفس المصدر السابق ومعطياته ١٢/١-٢ ، ٥) . ومن هنا ، «من له أذنان فليسمع . من ساق إلى السبي يساق ومن قتل بالسيف فبالسيف يقتل» . (نفس المصدر والمعطيات السابقة ١٣/١٠) .

(٢) انظر حول ذلك : طيب تيزيني - الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى ، القسم الثالث ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ؛ عصام الدين حنفي ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٥ - ١٢٩ .

الحديث عنها مطولاً في كتاب جيمس فريزر «الفولكلور في العهد القديم»^(١) .

ان تلك الوضعية التي نصوغها ، من حيث هي التباس تاريخي وتراثي وظيفي ، لم يكن من شأنها إضعاف البنية الايديولوجية لـ «رؤيا يوحنا» ، بقدر ما كانت تدعياً لهذه البنية وتعميقاً لها . فتلك الوضعية البسيطة والمبسطة والسادجة ، بالذات ، هي التي جعلت من «الرؤيا» عقيدة جماهيرية قصوى ، في حينه . ومن هذا الموقع ، استطاعت ، فعلاً ، ان تصوغ - بصور دينية رؤياوية - مطامع الطبقات والفئات والشطائر والانساق الاجتماعية المشار إليها من قبل ، وأن تعبئ هذه الأخيرة تعبئة دينية سياسية باتجاه يوم الخلاص (يوم الدينونة) ، الذي يعلو فيه صوتها على كل الأصوات ، وتغدو فيه سيادة الموقف العليا بلا منازع أو مناقس أو مناهض :

«الآن صار الخلاص والقوة والملك لإلهنا والسلطان لمسيحه لأن المشتكي على إخوتنا قد طُرح الذي يشتكي عليهم عند إلهنا نهراً وليلاً . وقد غلبوه بدم الحمل وبكلمة شهادتهم»^(٢) .

ولعلنا نتبين في النص الأخير عنصر الوحدة الوظيفية بين اليهودية ممثلاً بـ «إلهنا» من طرف ، وبين المسيحية ممثلة بـ «مسيحية» من طرف آخر . فكلما الوجهين ، الإلهي والبشري ، يتحايثان ، دون أن يتداخلوا بفعل ما من الواحد أو الآخر . ويبدو أن تلك الوحدة الوظيفية يمكن أن تقدم نفسها ، والحال على هذا النحو ، بمشابتها مساومة تاريخية تراثية بين كلتا العقيدتين ، تلك المساومة التي ستُحكم قبضتها على الارهاصات الأولى للمولود الجديد ، إلى أن يأتي ذلك الذي يبشر بـ «القادم المقرب» ، الذي يعلن - عبر تعميم الجميع بالماء المقدس - أن «الساعة قد أزفت» ، وأن يوم الحساب الكبير قد حل . ان هذا المبشر هو يوحنا المعمدان نفسه ، الرجل أو الاسطورة ، التي ستبدأ في فلّ نصل تلك المساومة بين اليهودية والمسيحية لصالح هذه الأخيرة ، ومن ثم لصالح المطامع الشعبية العامة التي وجدت فيها (أي في تلك الاسطورة - الرجل) غاية كفاحها . ومن هنا ، كان

(١) انظر هذا الكتاب في معطياته التي قدمناها في موضع سابق .

(٢) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ١٢/ ١٠-١١ .

لزاماً علينا أن نتقصى هذا الألق الجديد في عملية التكون المسيحي ؛ لأن من شأن ذلك أن يضع أيدينا ، على الأقل ، على بعض مكامن الموقف الديني الجديد ، الذي سيرز ، في حينه ، بمثابته «البديل» عن كل البدائل ، والحل الأقصى له «العالم المقجوع» . وسوف نلاحظ ، في سياق آخر ، أن يوحنا سيرز في شخصية «يحيى» ؛ ولكن هنا أيضاً بصفتة «مبشراً» ، «المبشر» بـ «غلام اسمه المسيح» . وهذا ما يدعونا إلى القول بأن تصور «البشارة» ، التي يراها البعض التعبير الأوفى عن «الانجيل»^(١) ، نواجهه بصيغته الدلالية لدى ذلك «المبشر بالبشارة» ، بحيث نغدو ، هنا حقاً ، في البيت المسيحي الأول بمطامحه المستقبلية الكبرى في أن يكون الأساس الخفي والمعلن للمسيحية في تجليها الأكثر وضوحاً حتى حينه ، أي في هيئتها البولسية .



١) يكتب اسبرو جبور (رد على أبحاث حول العلاقة القائمة بين المسيحية - واليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٢) حول هذه الكلمة بأنها «وردت في انجيل مرقس على لسان المسيح في بداية بشارته (١٥: ١) ونهايتها (١٥: ١٦)» . وتعني (البشارة السارة) لا البشارة فقط . ان ذلك - على صحته - لا يغير شيئاً في المسألة المطروحة . فإذا كان يوحنا الرؤياوي لم يستخدم هذه الكلمة ، فإنه قدمها في الدلالات الخلاصية التي تنطوي عليها نصوص «رؤياه» . وهذا ، من طرفه ، يضعنا ثانية أمام الفكرة التي أوردناها فوق ، وهي أن الرؤيا المذكورة ليست أكثر من المشروع الأولي ، أو إذا أردنا ، البواكير الأولى لهذا المشروع الأولي للدين العالمي الجديد ، المسيحية .

من يوحنا الرؤياوي إلى يوحنا المعمدان أو من الم شروع الأولي للمسيحية إلى تحقيقها

لعل شخصية يوحنا المعمدان تقدم لنا نموذجاً حياً وخصباً للمواقف الأولى في «المسيحية الناضجة» ، بحيث يمكن القول بأن هذه الشخصية كانت من الأهمية إلى درجة أنها طبعت المسيحية اليسوعية عموماً بطابعها ، وحددت ، بمعان كثيرة ، أفاقها ووتائر ثمرها . ولتبين ذلك من داخله ، نقرأ ما كتبه فلافيوس يوسفوس بهذا الخصوص : «بالمناسبة ، كان جمع من اليهود يرون أن علامة سقوط القوة المسلحة الخاضعة لهيرودوس تكمن فقط في غضب الرب الإله ، الذي اقتضى ذلك كعقاب عادل على قتل يوحنا المعمدان . وقد شق هيرودوس هذا الأخير ، مع أنه كان رجلاً نبيلاً طالب اليهود بأن يطمحوا نحو الكمال . أما هذا الأمر فقد فعله يوحنا المعمدان حيث نبههم إلى ممارسة العدالة فيما بينهم والتقوى حيال الرب . ذلك لأنهم استخدموا هذا الأخير لتقديس أجسادهم وليس للتوبة عن خطاياهم»^(١) .

إن يوحنا هذا استطاع أن يمارس تأثيراً كبيراً على اليهود ، حيث كان يحضرهم . دون وجل وتحفظ ، باتجاه «الخلاص» ، وذلك إلى درجة أنه أصبح ، في نظر السلطة السياسية والاقتصادية والدينية المهيمنة ، يشكل خطراً جدياً عليها وعلى من حولها من أعوان وحلفاء في الداخل والخارج . لقد دعا المعمدان إلى «المسيح» وأعلن عن تبشير قدومه ، الذي غدا قريباً ، «قريباً جداً» ، وإنه لسوف يأتي ممتطياً سحب السماء البيضاء ، ليقتصر بحزم وعدل ما بعدهما حزم وعدل من الظالمين الجاحدين القتلة ، ويقيم على انقاضهم «مملكة السماء» ، مملكة الرب الإله في أرضه . وجدير

1) Flavius Josephus: Juedische Altertuermer X V III, S. 2.

بالذكر أن يوحنا المعمدان ، بحسب الأنجيل ، كان قريباً جداً من الاسينيين .
وذلك بحيث يرجح أنه كان هو نفسه ، لمرحلة ما على الأقل ، واحداً منهم .
عن مواقفهم وآرائهم . وحيث يكون الأمر كذلك ، فإنه حاشد يغدو ، بالنسبة
إلينا ، ذا أهمية خاصة بالنسبة إلى التأثير الكبير الذي مارسه المعمدان على تراث
المسيحية في مراحلها الأولى والوسيلة .

وقد ظهر نشاط المعمدان المسياني (الخلاصي) في بواكير " رن " ول
الميلادي ، بحيث يمكن القول بأنه تزامن تاريخياً واجتماعياً مع النشاط المسيحي الذي
أوقدته «رؤيا يوحنا» ، وقاد - مع هذه الأخيرة - إلى وضعيّة مسيانية ملتزمة في
الأوساط الوسطى والدنيا من جمهور اليهود خصوصاً . ومن الضروري القول بأن
يوحنا المعمدان ركز نشاطه وكثفه باتجاه تصور أولي اعتبره الأقصى ؛ ذلك هو مواجهة
«القادم المقرب» بالتوبة عن أفعال الاثم والخطيئة ، التي اقترفها «الشعب المصطفى
المختار» طوال عهود مديدة بحق الرب الإله وأنبيائه ومبشريه وجنده . أما تحقيق هذه
«التوبة» فيمر عبر «التعميد» و «الاغتسال بالماء المقدس» ، وكذلك - «الزهد»
الكامل في ثروات العالم هذا ومسراته . ولقد أعلمنا الانجيليون عن اتساع وتعمق
هذا النشاط المحموم ، الذي قاده يوحنا إياه في الفترة المعنية هنا ، والتي كانت بصورة
عامة تغلب بالأفكار الخلاصية ، تلك الأفكار التي كلفته وكلفت الكثير من المبشرين
من أمثاله غالياً . ففي «انجيل متى» ، نقرأ مايلي :

«في تلك الأيام أقبل يوحنا المعمدان بكرز في برية اليهودية . ويقول توبوا فقد
اقرب ملكوت السماوات . فإن هذا هو المقول عنه بأشعيا النبي القائل
صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب واجعلوا سبله قويمه»^(١) .

وقد كان على يوحنا المعمدان أن يدفع ثمن «معموديته» بالمقياس الأقصى ، كان القتل
جزاءه على يدي هيرودوس الحاكم اليهودي المتحالف مع الرومان ، أي مع أولئك
الذين اعتبرهم المعمدان اخطر أعدائه الخارجيين والذين ينبغي الوقوف في وجههم .
ولكن ذلك الأخير أجج ، بفعلته تلك ، عواطف الناس واستفزها ، كما أسهم في
توجيهها صوب التصور المركزي ذي القوة الشعبية الجاذبة ، أي تصور «الخلاص» .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للمقدس متى ٣/٣ .

فدعوة اليهود جميعاً ، وليس أفراد المِلَّة أو الفرقة الدينية الواحدة فقط - كما كان الحال لدى الاسينيين - إلى التعمد بنماء المقدس والوصول ، عبر ذلك ، إلى السكّال لاستقبال المخلص القادم . كان قد حقق خطوة ضرورية وملحة على طريق تقويض الهيمنة الايديولوجية الدينية والسياسية للكهنة اليهودي المهيمين ، ومن ثم باتجاه حصر العلاقة بالرب الاله وحده دون غيره من ممثلي هذا الأخير . ولا يخفى كم كان الأمر خطيراً في حال كهذا ؛ لأن الوقوف في وجه الكهنة المعني كان يعني الوقوف في وجه «الرب يهوه» .

ولابد من الاضافة بأنه كان لتلك العملية بمحملها دلالتها السياسية المباشرة ليس على صعيد السلطة الكهنوتية في الداخل فحسب ، وإنما كذلك باتجاه العلاقة مع رومنا ، العدو الكبير والمتحالف مع تلك . وجدير بالذكر أن هجوم يوحنا المعمدان على الصادوقيين أولاً وعلى الفريسيين ثانياً ، لم يكن - في ضوء ذلك - أمراً غير ذي شأن . لقد نظر إليه على أنه ، بالضبط ، جزء من خطة الخلاص الجديد من «الضلال الأعظم» الذي عمّ العالم ، بما في ذلك أو في طليعته ضلال أولئك الصادوقيين والفريسيين . وهذا يشير إلى أحد أوجه المسألة المعنية الذي يطرح نفسه ، في الحال التي نحن فيها ، بقوة ووضوح ؛ ذلك هو ظهور الدين سياسةً وفعلاً اجتماعياً مباشراً . ان هذا يفصح عن نفسه حالما نأخذ باعتبارنا أن دينك الفريسيين - والأول منهما بصورة خاصة - كانا على رأس السلطة السياسية والاقتصادية ، وكذلك وبطبيعة الحال الايديولوجية الدينية ؛ أي ان التصدي لهما كان يعني الشيء الكثير بالنسبة إلى من يجرؤ على ذلك .

ولاريب أن التوقيت التاريخي ، الذي برزت فيه التصورات المسيانية التي طرحها المعمدان في إطار فاجعي من «يوم الدينونة» الوشيك الوقوع ، كان مناسباً تماماً ، بل كان هو المطلوب مداته . فلقد اعتبر الألف الرابع من العالم مكتملاً ، وفق الحسابات «الكونية الشوراتية» ؛ ومن ثم ، لم يعد من الوقت إلا قاب قوسين أو أدنى ، ويظهر اثر ذلك المخلص الأعظم ، الذي سيقدم نفسه فدية مباركة للبشرية جمعاء من خطيئة «أبي البشر آدم» ، تلك الخطيئة التي اغرقت البشر في ضلال مبین

وجعلت السيطرة لـإبليس على مدى قرون طويلة^(١) . وقد أتى نشاط المعمدان مثالا كبيراً على الإصرار على مجابهة «إبليس» ذلك ، وإن لم يكن ذلك جديداً على الحركة المسيانية . إلا أن ما أنجزه هذا «القديس» اتسم بدرجة كبرى من الحماسة الدافقة ، التي وصلت إلى حد الهوس والتضحية بكل شيء في سبيل الهدف الخلاصي .

إن الصورة المقدمة إلينا عن هذا الرجل ، بمثابته «شخصية واقعية تاريخية» ، تخبر عما يدعو إلى التفكير طويلاً في الدلالات المسيانية التي انطوت عليها هذه الشخصية . والأمر يغدو أكثر إثارة حين يجد المرء نفسه أمام التساؤل التالي : هل من المحتمل أن يكون أنصار يوحنا المعمدان قد نظروا إليه على أنه هو نفسه المسيح المنتظر ؟ إن هذا التساؤل لا ينبغي أن ينظر إليه على أنه نافل ، أو غير ذي أهمية . فلقد رأينا كيف تعاقب المسحاء في التاريخ اليهودي وفي مرحلة الانتقال مما قبل الميلاد إلى ما بعده ، بصورة أكثر بروزاً . إضافة إلى ذلك ، لاحظنا أنه كان من المحتمل أن يكون يوحنا الرؤياوي قد ظهر أيضاً مسيحاً . وكان أحد أوجه ترجيح مثل هذا الرأي قد كمن في الأصول اللغوية التي اشتق منها اسم «يوحنا» ، أولاً ، وفي بعض الدلالات التي تثيرها بعض «النصوص المقدسة» على هذا الصعيد ثانياً .

وبالنسبة إلى الحالة التي نحن بصدددها الآن ، لا بد - من أجل الاحاطة المعمقة الممكنة بما يمكن أن يشكل اجابة على التساؤل الكبير الذي طرحناه - من أخذ المعطى التالي بعين الاعتبار العميق : إن «يوحنا» المعني هنا سُمي ، في بعض النصوص الانجيلية ، باسم آخر هو «أشعيا النبي» ، كما مر معنا في سياق سابق . ولكن هذا الأخير كان يحوز على مكان بارز ، أيضاً في المنظومة الدينية الخاصة بالآسيين ، إضافة إلى أن هؤلاء كانوا يرون في التعميد بالماء أحد أركانهم الأساسية الذي إن سقط سقطت هذه جميعاً . فاذا نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية المحددة ، زاوية التشابه ، إن لم يكن التماثل ، بين الآسينيين من طرف و «يوحنا المعمدان» من طرف آخر في الأخذ بـ «أشعيا النبي» وبـ «التعميد بالماء» ، فإنها (أي المسألة) تكتسب إذ ذاك صيغة جديدة مثيرة ، هي اندغام شخصية يوحنا المعمدان بشخصية

(١) انظر مع المقارنة : عصام الدين حفي ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٥ - ٢٦ .

الاسينيين وظهوره ، من ثم ، من حيث هو واحد منهم ، أو قريب كل القرب منهم - في أضعف الأحوال - .

ذلك مايراه وما يأخذ به Prosper Alfariis ، الذي يعلن أن التشابه أو التماثل المنوه به بين الموقفين المعنيين يجد ايضاحاً له فقط إذا نظرنا إلى «يوحنا المعمدان» على أنه «تشخيص Personifikation للاسينيين»^(١) ، أي تجسيد لهم في شخصه ، وكذلك تجسيد له هو نفسه اسينياً .

ومن هذا الموقع البالغ الطرافة والحساسية ، فسر الباحث المذكور الحادثة التي تخبر عن «لقاء ما» تم في الأردن بين أحدهم ويدعى «يسوع» من ناحية وبين «يوحنا المعمدان» من ناحية أخرى ، على نحو يؤدي بنا إلى الأخذ بالرأي التالي ، وهو أن الاسينيين مثلوا ، في حينه ، مصدرأ تاريخياً من مصادر المسيحية اليسوعية . يقول Alfariis في معرض تفسيره للحادثة المذكورة^(٢) : «إن الخبر الصوفي عن ظهور يسوع يعمد من قبل يوحنا عند شواطئ الاردن ، يُرينا ، على نحو تصويري ، الجذور الاسينية للمسيحية»^(٣) .

وفي سياق الحديث عن العلاقة القائمة ، على نحو ما ظهر فوق ، بين يوحنا المعمدان والاسينيين ، لعل وجهاً آخر من المسألة ليس أقل أهمية يبرز أمامنا ، ليقدم ، من طرفه ، إضاءة أخرى حولها . إن يوحنا هذا ، الذي أطلق عليه اسم «أشعيا النبي» ، يمكن - على تلك الطريق اللغوية والدينية - أن يلتقي ، بمنحى

1) Prosper Alfariis: Die sozialen Urspruenge des Christentums- a.a.O., S. 75.

٢) الحادثة المعنية هنا تُروى في «انجيل متى» ، كما يلي :

«أنا أعمدكم بالماء للتوبة وأما الذي يأتي بعدي فهو أقوى مني وأنا لا أستحق أن أحمل حذاءه وهو يعمدكم بالروح القدس والنار . الذي بيده المذرى ينقي بيده ويجمع قمحه إلى الأهرام ، ويحرق التبن بنار لا تطفأ . حينئذ أتى يسوع قائلاً دع الآن فهكذا ينبغي لنا أن نتم كل بر . حينئذ تركه . فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء فانفتحت له السماوات ورأى روح الله نازلاً مثل حمامة وحالاً عليه . وإذا صوت من السماء قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» . (الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١١/٣-١٢) .

3) Prosper Alfariis: Die sozialen Urspruenge des Christentums- a.a.O., S. 75

محدد ، بـ «يشوع» أو «يسوع» . فهذان الاسمان كلاهما يشكلان ، مجتمعين ومع الاسم الآخر «يوحنا» حالة لغوية مشتقة من اسم الرب الاله (اسم الجلالة) ، مع شيء من التعديل والإضافة . فإذا وضعنا بالحسبان ما أعلنه ، في موضع سابق ، من أن «يوحنا» يعني «الله حنون أو رحيم» ومن أن «يسوع - يشوع» يعني «الله يساعد»^(١) ، أو «يهوه يساعد» ، أو «يهوه يخلص» ، أو «يهوه مخلص» ، كما مر معنا ، فإن العلاقة بين الاثنين تغدو ، والحال كذلك ، قائمة وبيّنة ولا سبيل إلى التشكيك فيها أو إضعافها . نضيف إلى هذا ما يراه البعض من أن الاسم «يوحنا Johannes» مشتق من اسم «Oannes» الذي اعتُبر الهاً للسمك لدى البابليين^(٢) ، وأن يعمل - على الأقل - على أحداث «يوم الدينونة» ، الذي تقتضي مواجهته أن يكون المرء «طاهراً» أي «معمداً بالماء المقدس» .

إن تلك المعطيات إذا أخذت مجتمعة وفي أسيرتها التاريخية ، فإنها تسمح بوضع الافتراض الكبير التالي على أساس ليس هشأً ، وهو أن يوحنا المعمدان ظهر أمام جماعته إلهاً مخلصاً (مسيحياً) ؛ ذلك لأنه - بصفته المعمدانية - يستطيع أن يحقق شروط هذا الظهور، أي أن يمنح «الطهر والبراءة» عبر التعميد. ولا بد من الإشارة الضرورية إلى أن نشوء مثل هذا الالتباس الديني الخصب في إثاراته اللغوية والعقيدية حول شخص المعمدان له بعد تاريخي وتراثي جدير بالتقصي ، في حال التاريخ لأحد أشكال الأيديولوجيا الدينية ، في بعدها وامتدادها الترائيين . إذ أنه من شأن ذلك أن يسهم في فضّ مغاليق الكثير من الحقائق النظرية والوقائع الميدانية المغلفة باقنعة الالتباس المذكور . وهذا يعني ، بالنسبة إلى الحالة التي نحن بصدد معالجتها ، أن «يوحنا المعمدان» مثل ، في «النص المقدس» ، شخصية تتصل ، بمعنى ما وبدرجة ما ، بـ «المسيح - ماسح الآلام والأحزان» .

ولعلنا نعر في «انجيل متى» على ما يشير إلى الاعتقاد بأن يوحنا المعمدان كان ينظر إليه من قبل أنصاره على أنه هو نفسه المسيح المخلص . ولم لا ، وأمثال هذا

(١) انظر مع المقارنة : دانيال روبس - يسوع في زمانه ، نقله إلى العربية الأب حبيب باشا

البولسي ، المنشورات العربية ، جوييه (لبنان) ١٩٦٩ ، ص ٥ ، ١٦ .

(٢) يشير إلى هذا الاشتاق عصام الدين حفني ناصف (المسيح في مفهوم معاصر - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٩) .

الآخر أكثر كثيرون ، كان منهم من وجد وعاش حقاً ، كما كان منهم من استُحدث وفق الحاجات المطروحة في مراحل زمنية متعددة وكثيرة ، يمكن أن تكون المرحلة التي عاش فيها يوحنا المعمدان واحدة منها ! ففي الانجيل المذكور (الانجيل متى) ، يظهر المعمدان العظيم هذا متساوياً مع يسوع ومساوياً له ، بالرغم من بروز بعض مواقف التواضع التي يظهرها يوحنا حيال «المعلم» ، تلك المواقف التي تضيف عليه مزيداً من «العظمة المسيانية» . فيوحنا هو الذي قال مخبراً أن «المسيح يسوع» عمّد على يديه ، وأن السماء انفتحت له (ليسوع) اثر ذلك :

«أنا أعمّدكم بالماء للتوبة وأما الذي يأتي بعدي فهو أقوى مني وأنا لا أستحق أن أحمل حذاءه وهو يعمّدكم بالروح القدس والنار . . . حينئذ أتى يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه . فكان يوحنا يمانعه قائلاً أنا المحتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي . . . فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء فانفتحت له السماوات ورأى روح الله نازلاً مثل حمامة وحالاً عليه . وإذا صوت من السماء قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت»^(١) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٣/١١ ، ١٣-١٤ ، ١٦-١٧ . حول هذا الاحتمال (تساوي يوحنا بيسوع المسيح واندغام الشخصيتين بواحدة هي يوحنا) ، انظر أيضاً : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S. 68; وكذلك : دانيال روبس - يسوع في زمانه ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً . ص ١٢ ، حيث يكتب المؤلف بأسلوبه اللاهوتي الانياني : «لقد أطلع الله عن صمته أخيراً ، وبات في امكان الشعب المختار أن يسمع من جديد أحد تلك الأصوات الأليفة الرهيبية ! ومن يدري ؟ لعل المعمدان هو المسيح بالذات !» . أما الانجيلي لوقا فيأتي على المسألة بمثابها التباساً :

«وإذا كان الشعب ينتظر والجسيع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله هو المسيح» .

(الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ٣/١٥) .

أخيراً ، يمكننا أن نضيف مسألة الحمل بيوحنا وولادته من «أم» - هي اليصابات - لانهمل به نتيجة مضاجعة جنسية مع زوجها زكريا وإنما بفعل «الروح القدس» الذي اتصل بها و«نفخ» في رحمها ، أي نحن هنا حيال «الحمل والولادة - المعجزة» التي تحدث كذلك مع «مريم» و«يوسف» أبروي يسوع المسيح . فهذه المسألة من شأنها أن تولد حوافز لقبول الافتراض بأن يوحنا كان قد نظر إليه على أنه المسيح أو على أنه مسيح . (وسنأتي على أمر الحمل والولادة لكلا المعنيين هنا ، يوحنا ويسوع ، في سياق آخر لاحق) .

وعلى كل حال ، يظل يوحنا المعمدان (المعمّد) يمثل - في كل الافتراضات أو بالأحرى في حالتنيّ الاندغام بالمسيح يسوع أو عدمه - حلقة كبرى في عملية مخاض المسيحية وولادتها ، وكذلك تبلور سماتها الأولى التي ستعرف بها حين تبلغ سن الرشد . فهو الذي جعل منها - بمعنى ما ودرجة ما - عقيدة دينية من سماتها العظمى أنها تقوم على «التعميد» بـ «الماء» وبـ «الروح القدس» . وبالرغم من أن التعميد هذا لم يجد التعبير الأول عنه في المسيحية اليسوعية^(١) ، فإنه أكسب - على يدها ومن مواقعها - دلالة متميزة ومخصصة على المستويين البنيوي والوظيفي . ونكاد نقول أننا نواجه هذه الوضعية ، في إرهاصها الأول ، لدى يوحنا المعمدان .

فلقد تحول «التعميد» ، هنا ، إلى الطريق الأساسي والجوهرى لتعميم «الخلاص» ، أي لخلق جسور من شأنها أن توحد بين الفرد الالهى والكل البشرى ، بين يسوع الاله المخلص من طرف والخطاة من «نسل آدم الخاطيء» من طرف آخر . بل لعلنا نقول مع ترجيح كبير ، إن «التعميد» بالماء ، تخصيصاً ، مارس دوراً عظيماً ، إن لم يكن الدور الأعظم ، في عملية الانتقال المعقدة من اليهودية اليهودية إلى المسيحية اليسوعية . ولقد تم ذلك من موقعين اثنين ؛ الموقع الأول نجسد بالتأكيد على الدلالة الكونية التطهيرية للتعميد ، بحيث أن هذا الأخير نفسه انطوى ، بدوره وكما هو واضح من واقع الحال ، على وجهين ، واحد انطولوجي (وجودي) ، وآخر

(١) «التعميد أقدم من المسيحية ، بل هو أقدم من اليهودية أيضاً ، وقد كان للهندوس والمصريين والاعريق والرومان مياههم المقدسة . كانت الشعوب القديمة كلها أو جلها تستخدم الماء في مناسكها الدينية ، إذ هو في وهمهم يجدد الأشياء أو - إن شئت - يعيد ولادتها ، ومن ثم جرت شعوب كثيرة كالغول وأهل التبت على تغطيس الطفل في الماء أو نضجه به وأهمين أن ذلك يجعله يولد ولادة جديدة يبرأ فيها من الخطيئة . وقد كان هذا (التعميد) منسكاً معروفاً في كثير من عبادات الوثنيين وكان أولئك الوثنيون يرجعون قدرة الماء الجاري على تطهير الأرواح إلى أن به من ديدنها أن تفعل ذلك» . (عصام الدين حفني ناصف : المسيح في مفهوم معاصر - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٥ - ١٢٦) .

ولتبيّن أهمية «الماء» عند الشعوب القديمة ، يحسن الرجوع إلى كتاب جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم بجزئيه الاثنين - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، خصوصاً الفصول التالية من الجزء الأول - الطوفان الكبير ، يعقوب عند البئر ، يعقوب عند مخاضة نهر اليبوق ، قدح يوسف .

اخلاقي تطهيري يكتسب لدى يوحنا المعمدان صيغة «التوبة - معمودية التوبة» ، أي عملية إزالة «الخطيئة» . أما الموقع الثاني فيظهر بمثابة موقفاً سياسياً واجتماعياً اقتصادياً منحازاً ، دونما لبس أو غمغمة ، إلى جانب الطبقات والفئات الفقيرة والعبودية . فأن يُعمد أفراد هذه الطبقات والفئات ، أو - في الحد الأدنى - أن تكون في قدرتهم جميعاً إمكانية التعمد ، ان هذا يعني أنهم اتصلوا ، على نحو روحي مجازي ، بالمخلص الاله أو ابن الاله ، وحققوا ، من ثم ، تواصلاً كونياً مع من ستناط به مصائر «ساعة الدينونة» ؛ كما يعني - من طرف آخر - ان أولئك الأفراد مُنحوا شرعية الكفاح من أجل عبور الطريق الى تلك «الساعة» ، وبالتالي الوصول إلى الهدف الأسمى والأكبر .

ولابد من التوقف عند النقطة الحدية التي تربط ما بين الموقعين سابقين الذكر . فكونية التعميد بمعنى أنه يشمل - في دلالاته - الوجود عامة ، تؤدي إلى جعل رقعة المدعوين إلى التعمد شاملة كلية ، دون استثناء في الوضع الاجتماعي والاقتصادي والاثني والجغرافي الخ . . . ، بحيث يغدو كل انسان مالكا للحق في أن ينجز «طهره ونقاؤه ونحرره» عبر ذلك ؛ خصوصاً وأن «الماء المقدس» ، ماء النهر المقدس ، يمكن أن يكون في متناول الجميع . إن التعمد مرة واحدة هو في أيدي الجميع ؛ ومن ثم ، فليس من عائق أمام خلاص «المحرورين غير المالكين»^(١) . ان ما يهمننا من هذه «اللوحة المعمدانية الكونية» يكمن في توجيه الأنظار إلى أن النقطة الحاسمة ، هنا ، ليست «الكل المطلق» ، وإنما هي «الكل النسبي والمخصص» . أما المقصود بذلك فهو أن خطاب المسيحية المعمدانية لم يكن موجهاً لـ «الجميع» من الطبقات والفئات والمجموعات الاجتماعية في فلسطين وفي مجتمع الامبراطورية الكبير ؛ لقد وجه إلى «الظالمين المحرورين والمغلوب على أمرهم» ، أي إلى «المتعبين والمثقلين» بأعباء الحياة . ومن هنا ، فإن «أهمية الخطاب المسيحي» ظلت - بمعنى ما واحداً ما - مشروطة بالوضع المخصص ، أو - بتعبير أدق - بالوضع المخصص . إن هذا الفهم للموقف المعمداني ينطلق من أنه (أي الموقف) ذو بعد خلاصي (مسياني) ، يمس أولئك

(١) على سبيل المقارنة التاريخية ، سيكون في متسع الاسلام لاحقاً أن يحدد قضية «الخلاص - التحرير» بأن يعلن المرء أنه مسلم ، ويطلق الشعار الاسلامي لفظاً : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

الذين يعيشون بصفتهم ضحايا «العُتاة والظلمة» ، ويطمحون - من ثم - إلى «الخلاص» على أيدي «المخلص» . وعلى هذا ، فإن لحظة من «الديموقراطية الخلاصية» تطبع أهمية ذلك الخطاب المسيحي بطابعها ، وتجعل هذا الأخير خاصاً بالطبقات والفئات الدنيا من المجتمع الفلسطيني والامبراطوري ، حتى في الحال الذي تجرد فيه هذه الطبقات والفئات وتدخل في عالم لا واقعي مفترض . وإذا كان الاحتمال كامناً في الخطاب المذكور لتجيير أهميته لصالح الجميع - دون استثناء - ، أي لصالح «الطّاعين والطّعين» ، على حد تعبير بودلير الشعري ، فإن ذلك قد أسهم في تعقيد الموقف وجعله مضطرباً غير حاسم ، بحيث استطيع ، لاحقاً ، تحويله - بصورة حاسمة ورئيسية - إلى أقية سلطة الدولة السياسية مباشرة ، أي إلى أقية «الطّاعن» .

وعلى ذلك ، فإذا كان الأمر على النحو المذكور ، فإن أهمية «التعميد» ، كما طرحه يوحنا المعمدان ، كانت خطيرة إلى درجة الحسم في التمييز العقيدي والاجتماعي بين المسيحية اليسوعية واليهودية . فهذه الأخيرة ظلت - في بنيتها العامة الإجمالية كما وردت في العهد العتيق - تمثل ايديولوجية تسلط اجتماعي اقتصادي وسياسي وديني في أيدي الكهنوت اليهودي ، ذلك الكهنوت الذي ظل مهيمناً طوال مراحل عديدة ، هي بصورة خاصة مراحل «القضاة» و«الأنبياء» و«الملوك» ؛ مع الإشارة إلى أن هذه المراحل كانت - بمعنى ما ودرجة ما - متداخلة فيما بينها ومختربة من قبل بعضها بعضاً . وبذلك فقد ظلت اليهودية - في توجهاتها التوراتية العامة - تجسد موقفاً لاشعبيّاً ولا ديموقراطيّاً ومناهضاً للأوساط الشعبية على نحو خاص ، في الداخل اليهودي وفي خارجه . ولا بد من الاضافة إلى ذلك بأنها (اليهودية كعقيدة) لم تخرج - في بنيتها الذهنية الكبرى - عن وهم «الشعب المصطفى المختار» المقترن ضرورة بموقف مناهض لـ «الغوييم» وحاقد عليهم . وقد ترتب على ذلك أن نشأ في الأوساط اليهودية العليا - ربما باستثناء بعض الحالات التي برزت مثلاً أثناء حكم الملك سليمان - حقد تاريخي على أولئك «الغوييم» ، بالتعبير اليهودي ، وعلى «الأمم» ، بالتعبير المسيحي ، بحيث مثل ذلك جميعاً سداً منيعاً في وجه تصورات «الخلاص الكوني» و«وحدة الأمم» و«وحدة المبهوظين المضطهدين» . وهذا الموقف يقدم نفسه ويفصح عنها بوضوح في الخط العام ، الذي يحكم نصوص «العهد العتيق» ، ناهيك

عن امتداده «التطبيقي» المتمثل بـ «التلمود»^(١) .

ولكي ندرك أهمية «التعميد» في الفعل المسيحي اليسوعي الجديد ، نُثبت بعض الآيات من «انجيل يوحنا» ، بحيث يتضح لنا الرأي العام السائد ، في حينه ، على صعيد ذلك . يقول يوحنا الانجيلي :

«وبعد هذا كان عيد اليهود فصعد يسوع إلى أورشليم . وإن في اورشليم عند باب الغنم بركة تسمى بالعبرانية بيت حسدا لها خمسة أروقة . وكان مضطجعا هناك جمهور كثير من المرضى وعُميان وعُرْج وبأسي الأعضاء ينتظرون تحريك الماء . وكان ملاك الرب ينزل أحيانا في البركة ويحرك الماء فالذي كان ينزل أولاً من بعد تمويج الماء كان يُبرأ من كل مرضٍ مسَّه . وكان هناك رجل سقيم منذ ثمان وثلاثين سنة . فلما نظر يسوع هذا ملقى وعلم أن له زمناً كثيراً قال له أتعب أن تُبرأ . فأجاب السقيم يارب ليس لي انسان إذا تموج الماء يلقيني في البركة بينما أكون متقدماً ينزل قبلي آخر»^(٢) .

(١) ان هذا «الخط العام» ، الذي يهيمن في النصوص المعنية ، يعمل البعض من الباحثين على التشكيك فيه ، وذلك باستبداله بـ «خط عام» آخر سمته الكبرى أنه «ثوري» . هذا ما نجده لدى أحد ممثلي «المدرسة القرائنكفورية» في دراسته لـ «العهد العتيق» ، وهو Erich Fromm . ففي كتابه (Ihr werdet sein wie Gott- Eine radikale Interpretation des Alten Testaments und seiner Tradition, uebersetzt vom Amerikanischen, sachbuch ro Reinbek bei Hamburg 1980, S. 9-

10).

يكتب مايلي : «إن العهد العتيق هو كتاب ثوري . فموضوعه هو تحرير الانسان من قيود الدم والأرض ، من الاخضاع للأصنام ، من العبودية والسادة الأقرباء ، وذلك باتجاه الحرية والفردية ، الوطن والانسانية كلها . (ولقد كان هذا الطابع الثوري للعهد العتيق هو الذي تحول إلى الخط الموجه للفرق المسيحية الثورية قبل الإصلاح وبعده)» .

إن الحديث عن «كتاب ثوري» أمر لا يحتمله هذا «الكتاب» ، الذي يعنيه المؤلف . ولعلنا نقول أنه في الحد الأعلى يمكن التحدث عن بعض توجهات إنسانية تقدمية بالمعنى التاريخي في ذلك الكتاب ، أي في «العهد العتيق» ، تلك التوجهات التي لم تتحول إلى الطابع الرئيسي لهذا الأخير . وقد كنا - في مواضع سابقة - قد أثينا على جوانب من هذه المسألة . وإذا كنا سنقول لاحقاً ، مع برونوباور وماركس ، أن المسيحية تتوج اليهودية ، فإن ذلك لا يتصل بالمعنى الذي يطرحه Fromm في كتابه المذكور فوق .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع للقديس يوحنا ٥ / ١-٧ .

من هنا ومن خلال وضع تلك النماذج البائسة الفقيرة من الناس ، الذين يحدث الانجيل اليوحناوي عنهم ، ندرك الأهمية الشعبية حقاً لل تعميد بـ «ماء القداسة» ، «ماء الشفاء» الموجود في بركة ماء مشاع بين الناس . وحين يأتي يوحنا المعمدان ويجعل من هذا الأمر (ال تعميد) مركز «الشفاء البشري» من البؤس والاضطهاد ، فإننا نستطيع أن نتصور رد الفعل الايجابي العميق والشامل الذي لقيه في تلك الأوساط البشرية . وإذا لاحظنا ما ترتب على ذلك من نتائج مباشرة في طبيعتها تصديق «الجيتو» اليهودي النخبوي ، تبينت لنا القوة العملاقة التي برزت فيها العقيدة الدينية الجديدة ، المسيحية ، كديانة جماهيرية كاسحة متصاعدة ؛ كما وضحت لنا أبعاد الهلع الكبير الذي أخذ يدب في حياة الكهنوت اليهودي النخبوي والطبقات الاجتماعية العليا في فلسطين وروما . ان ما أتى به المعمدان ، أحدث دويّاً في البنية العقيدية اليهودية ، التي وإن أخذت ببعض الطقوس كشكل من أشكال التعميد ، إلا أنها ظلت ترى في هذا الأخير ، أولاً ، أمراً خاصاً بـ «الشعب المصطفى المختار» ، وثانياً ، شيئاً لا يخرج عن فعل «خارجي»^(١) . وإذن ، لنا أن نجد فيما قدمه المعمدان «بدعة» خطيرة و«هرطقة» لم يكن السكوت عليها ممكناً . وهنا ، ندرك دلالة الثمن الذي كان على المعمدان أن يدفعه على يد هيرودوس اليهودي .

إن العنصرين المآتي عليهما في نطاق تصور «التعميد» والمحددّين للبديل الجديد ، لم تتح لهما إمكانية التحقق على نحو فجائي وبصيغة دفعة واحدة . لقد كانت هنالك مرحلة انتقالية من اليهودية إلى المسيحية تمثلت بـ «الاسينية» ، تلك الفرقة الدينية «الشيوعية» التي كنا قد تناولناها بحثاً وتقصيماً في مواضع سابقة متعددة . إن انتقالية الموقف المذكور ظهرت في أن التعميد الاسيني وإن استطاع أن

(١) يكتب دانيال روبس حول هذا النمط الخارجي من العباد قبل يوحنا المعمدان ، مايلي : «ولكن العباد ، قبل يوحنا ، لم يكن سوى لون من الشعائر الخارجية . ولا جرم أن غسل الجسد بالماء يوحى ، بطريقة عفوية ، بتطهر النفس من أوزارها . . . فالوضوء الموسوي لم يكن سوى اغتسال ضروري ، قبل القيام بعمل ديني . و (المعمودية) ، عند الاسينيين ، لم تكن سوى حفلة لقبول المرشد بعد سنة من التدريب ، ضمن الجماعة الرهبانية ، والترخيص له في ممارسة الوضوءات اليومية» . (دانيال روبس : يسوع في زمانه - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٤ - ١٥) .

ينجز مهمة الانسلاخ من دائرة الطقوس اليهودية الرسمية ، إلا أنه لم يخرج عن حدود أعضاء «الجماعة الاسينية» نفسها . وبتعبير آخر يمكن القول بأن التعميد الاسيني جسد رد فعل سلبي على الطقوسية اليهودية ؛ لأنه لم ينقل المسألة إلى الوجه الايجابي منها ، وهو تعميد ينظر صوب المجموع من «الأمم» .

إنه رد فعل انطلق من رفض «الكل العمومي» باتجاه «الجزء الخصوصي» المتفرد بتجربته الخاصة . وهذا ما يدعونا للقول بأن التعميد المذكور خُفَّت آفاقه الشعبية والأقوامية (الأممية) بسبب استمرار تصور «الشعب المصطفى المختار» في أوساط الاسينيين وغيرهم من الذين بحثوا عن طريق لـ «الخلاص» ؛ إضافة إلى ذلك ، يمكن القول بأن المعمودية الاسينية كانت ، من حيث الأساس وكما يرى روبس بحق ، احتفالاً طقوسياً يهيء المرید لدخول عالم الفرقة الصغير ، الاسيني .

إن يوحنا المعمدان هو الذي تمكن من اجتياز مرحلة الانتقال من اليهودية إلى المسيحية ، أو لنقل بمزيد من التدقيق ، من الاسينية ، التي حافظت على ارتباطها «الاتني» باليهودية وعلى صيغة التعميد فيه الكثير من الطقوسية الخارجية ، إلى المسيحية . فهو ، الاسيني الجذور ، انطلق «نبياً» يتنبأ لليهود بالخلاص ، أو يقدمه هو لهم . وكانت التصورات التي طرحت حول شخصيته والأحلام والآمال التي اقترنت باسمه ، واحداً من الأسباب الكبيرة ، التي اسهمت في التمكين له ضمن الأوساط الشعبية الفقيرة . من تلك التصورات والأحلام والآمال ما نقرأه في انجيل مرقس ، مثلاً :

«كان يوحنا يعمد في البرية ويكرز بمعمودية التوبة لغفران الخطايا . وكان يخرج إليه جميع أهل بلد اليهودية وأورشليم فيعتمدون منه في نهر الأردن معترفين بخطاياهم . وكان لباس يوحنا من وبر الإبل وعلى حقوئه منطقة من جلد وكان طعامه الجراد وعسل البر»^(١) .

إن شخصية من هذا النمط الذي يستجيب للأحلام الشعبية ويعزّيها ويعززها ويدغدغها ، كانت من القدرة بحيث تمكنت من إلهاب الرأي العام في تلك الأوساط تأملياً وتعزية وتشجيعاً ، وكذلك تحريضاً وتحفيزاً . ومن هنا ، نفهم لماذا يقدم إلينا

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس مرقس ١/٤-٦ .

المعمدان على أنه ضحية السلطة اليهودية الغاشمة المتواطئة مع العدو الخارجي ، روما ، حيث نُخبر بأن قتله تم على يد هيرودوس اليهودي صنيعة روما . وكانت الجموع من أولئك الفقراء العجزة والمرضى والمسلوبين والمقهورين تسأله : «(ماذا نصنع إذن ؟» ، فيجيبهم قائلاً : «من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام فليفعل كذلك» . وكان يقول للعشارين وسائر أضراسهم من الجباة : «لا تتقاضوا أكثر مما فرض لكم» ، وللجنود : «لا ترهقوا أحداً ولا تفتروا على أحد ، واقنعوا بمرتباتكم»^(١) .

هكذا ، كان وضع المعمدان من موقع «الظالمين الى العدالة» ، ومن موقع «مغتصبي العدالة» بمؤسساتهم المتعددة ، كالأدارة والجيش . وهنا ، بالضبط ، كان هذا النبي ، كذلك ، خياباً ، على حد تعبير دانيال روبس في نفس المكان السابق . لقد خيب آمال الأعلين من اليهود ومهووسهم الحالمين بـ «عودة مظفرة للمجد القديم» . فهو «لم يعلن ولا مرة واحدة ان ذاك المسيح الذي راح يعلن نفسه بشيراً به ، سوف يعيد الى اسرائيل سالف مجده وسطوته . وهو ، الى ذلك ، لم يمحصر تعليمه في العبرانيين الخُلص ، وأهل الفضيلة المواظبين على التأمل في الشريعة ، بل راح يقبل بين يديه أقواماً من العشارين الذين بات إثمهم في الناس أمراً مكشوفاً ، وجماعات من الجنود وحتى من الوثنيين»^(٢) .

ونلاحظ كيف قطع يوحنا المعمدان الصلة نهائياً مع وهم «الشعب المصطفى المختار» ، حين دعا الى «المعمودية بالتوبة» ، التي يمثل التعميد بالماء وجهها الآخر ، واصلاً - بذلك - الى «وحدة الأمم بالمخلص» . وهذا ما مثل ، في حينه ، فعلاً ، خطوة كبرى باتجاه عالمية الدين الجديد . ففي «انجيل لوقا» نقرأ بعض هذه المواقف على النحو التالي :

«وكان يقول للجموع الذين كانوا يأتون إليه ليعتمدوا منه يا أولاد الأفاعي من دلكم على الهرب من السُخْط الآتي . أثمروا ثمرأً يليق بالتوبة ولا تجعلوا تقولون ان اباؤنا ابراهيم لأنني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة

(١) دانيال روبس : يسوع في زمانه - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٣-١٤ .

أولاداً لابراهيم^(١)

ان هذا الموقف المعمودي ليوحنا واضح ، اذن ، في مسألتين اثنتين ، أولاهما أنه اختط طريقاً مختلفاً عن الموقف المعمودي اليهودي ومنافساً له ، وأخراهما أنه أدخلنا في العالم المسيحي المباشر . ويمكن صوغ هتين المسألتين في أن المعمدان هو - بغض النظر عن قضية شخصه الواقعي التاريخي وفيما إذا هو نفسه قد أعلن نفسه مسيحاً أو لم يفعل ذلك - عمود رئيسي في العقيدة المسيحية ، خصوصاً وبالضبط من موقع معموديته التي رأيناها مناوئة للإثنية اليهودية النخبوية ومؤدية إلى معنى المعمودية الروحية المائية . وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه لم يعد مقبولاً ما يعلنه دانيال روبس من أن معمودية يوحنا هذا هي «غير المعمودية المسيحية» . ولماذا ذلك ؟ نقرأ الجواب لدى الباحث : «الواقع أن السابق (أي يوحنا المعمدان) ، في ذلك أيضاً ، لم يخرج عن نطاق مهمته . فهو قد أرشد إلى الطريق ، ولكنه لم يجز فيها حتى النهاية . فمعموديته هي غير المعمودية المسيحية ، حيث الماء هو أكثر من رمز ، بل أكثر من عربون للتغير الباطن . فالماء ، في المعمودية المسيحية ، له قوة علوية فاعلة ، تحل في المعتمد التائب روح الله بالذات . وذلك الفرق الجوهرى قد أشار إليه المعمدان نفسه ، يوم صرح ، في تواضعه السامي . . .»^(٢)

ان القول بأن معمودية «المعمدان» هي غير تلك المسيحية ، لا يتطابق مع رأي آخر للباحث اللاهوتي نفسه على الصفحة نفسها ، وذلك حيث يعلن أن «معمودية يوحنا كانت تختلف عن ذلك (أي عن الشعائر الخارجية) اختلافاً كبيراً . وذلك أنها كانت (معمودية توبة) ، أي أنها كانت تدل ، بدلالة خارجية ، على الرغبة الصريحة في الإنابة إلى الله . . . (كما كانت) مشروطة بتبدل كامل في المسلك . فالدخول في الماء كان ، في نظر يوحنا ، دليل الإنابة إلى الله ، والتوبة عن المعاصي . ومن ثم فلم تكن تلك المعمودية ، لثمنح - على ما يبدو - إلا مرة في العمر ، كمستهل حياة جديدة»^(٣) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ٣ / ٨٧ .

(٢) دانيال روبس : يسوع في زمانه - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٥ .

(٣) نفس المرجع السابق ومعطياته .

إن «إخراج» يوحنا المعمدان من الدائرة المسيحية يتعارض ، على الأقل ، مع معطين اثنين كلاهما يقود مباشرة إلى هذه الدائرة . المعطى الأول يكمن في أن المعمدان قدم معموديته على أساس «أمني وشعبي» وباتجاه «الداخل» . ولقد كان ذلك شرطاً ضرورياً لتحقيق النقلة من النخبوية إلى الشعبية ، ومن الجيتوية إلى الانفتاحية ، وكذلك من الشكلية إلى الداخلية (الجوانية) . أما المعطى الثاني فيقوم على أن المعمدان إياه لم يبق - في معموديته - بعيداً عن «الروح القدس» ، الذي يوحد بين اللاهوت والناسوت ، بين يسوع الهاً ويسوع انساناً ، أي بين «الثابت» و «التواب» . وما علينا إلا أن نستعيد ما اثبتناه على لسان «متى الانجيلي» ، الذي حدثنا كيف «ظهر الروح القدس» حالما اعتمد يسوع على يد يوحنا المعمدان ، لكي نلاحظ الموقع الذي يحتله تأثير هذا الأخير في شخصية المسيح يسوع نفسه ، أي لكي نبين البعد الدلالي لاقتران «انفتاح السماوات ونزول الحمامة - الروح القدس» بتعميد المعمدان ليسوع المسيح ؛ مما يحيلنا ، ثانية وبقوة ، إلى تصور اندغام شخصيتي المعمد بالمعمد :

«فلما اعتمد يسوع (على يد المعمدان) صعد للوقت من الماء فانفتحت له السماوات ورأى روح الله نازلاً مثل حمامة وحالاً عليه . وإذا صوت من السماء قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» .

نستطيع القول ، والحال كذلك ، بأن «معمودية التوبة» لدى يوحنا المعمدان توصلنا إلى خط الانفصال عن الشريعة اليهودية في الاعتبارين اللذين أتينا على ذكرهما قبل قليل ، كما تدخلنا في العالم المسيحي الجديد ، عالم «الرحمة لا الذبيحة» وعالم «الكرامة الداخلية» . وقد كتب هيجل ، في حينه ، محمداً خط الانفصال ذاك من موقع يوحنا نفسه ، وبعده يسوع المسيح : «بين اليهود ، يوحنا هو الذي جعل البشر من جديد متبهرين إلى الكرامة التي هي كرامتهم ، الكرامة التي يجب أن لا يعتبروها آتية إليهم من الخارج ، بل عليهم أن يبحثوا عنها في أنفسهم ذاتهم ، في أناهم الحق . . . ان تطور العقل هو المصدر الوحيد للحقيقة وللتهدئة ، المصدر الذي لم يدع يوحنا أنه يمتلكه دون الآخرين أو كشيء نادر ، بل الذي يستطيع كل البشر أن يجعلوه يتدفق في أنفسهم . . .

ولما كانت أعياد الفصح تقترب من جديد ، ذهب يسوع هو أيضاً إلى اورشليم . أثناء مكوثه هناك ، اعتبر اليهود فضيحة كبيرة كونه ذات مرة اسدي خدمة لمريض فقير يوم السبت . رأوا في ذلك انتهاكاً لهذا اليوم المقدس وغروراً مدعياً بموجبه لا يعتبر صاحبه اجبارية وصية املاها الله نفسه . وبموجبه يأخذ لنفسه حقاً هو ملك لله وحده ويعتبر سلطته مساوية الإله . فاجابهم يسوع : (إذا كنتم تعتبرون انظمتكم الكنسية ووصاياكم الوضعية القانون الأسمى المعطى للانسان ، فأنتم بذلك تنكرون كرامة الانسان والسلطة التي فيه بأن يستخلص بنفسه مفهوم الالهية ومعرفة هذه الالهية . هذا الذي يدعوه الانسان أناه ، هذا الذي به هو فوق القبر والتفسخ ، وهذا الذي به سيعطي نفسه الثواب المستحق ، هو قادر على أن يحكم على نفسه . هذا الأنا ينكشف بوصفه العقل الذي تشريعه لا يتوقف على شيء ، الذي مامن سلطة في الأرض أو في السماء تستطيع أن تعين له مقياساً آخر للحكم . هذا الذي أعلمه ، لا أعلنه بوصفه فكرتي وملكتي ، لا أطلب من أحد أن يقبله استناداً إلى سلطتي إذ أنني لا أبحث عن مجدي . أضع وأخضع تعليمي لنقد العقل الكلي الكوني الذي سيقدر كل واحد على الإيمان به أولاً . . . لعلمكم تعتقدون أن الالهية القت في العالم بالجنس البشري ، تركته للطبيعة ، بدون أي قانون ، بدون أي وعي للهدف الأخير لوجوده ، بدون إمكانية أن يجد في نفسه كيف يستطيع أن يسرّ الالهية ؟ لعلمكم تعتقدون أنها مسألة حظ أن معرفة القوانين الأخلاقية التي تكون اعطيت لكم وحدكم ، لهذا الركن من الأرض ، لا يدري أحد لماذا ، وحدكم من بين جميع أمم الأرض ؟ ان ضيق رؤوسكم هو الذي يجعلكم تتخيلون ذلك . أنا أقف فقط مع صوت فؤادي ووعيي . من يصغي بانتباه إلى هذا الصوت الحق تنيره الحقيقة التي في هذا الصوت . الإصغاء إلى هذا الصوت هو الشيء الوحيد الذي أطلبه من اتباعي . هذا القانون الداخلي قانون للحرية ، القانون الذي يعطيه الانسان لنفسه ويخضع له بحرية . انه أزي . فيه عاطفة الخلود . . . (١) .

(١) هيجل : مختارات . لوفافر وغوترمان ، Idées ، جزءان ، الجزء ٢ ص ٢٧٧ - ٢٨١ (ضمن مقدمة كتاب : باور - ماركس ، حول المسألة اليهودية ، دار الحقيقة - بيروت ، ترجمة وتقديم الياس مرقص ، دون تاريخ النشر ، ص ٣٩ - ٤١) .

بيد أن المسألة وإن كانت في الخطوط العامة التي أوردناها ، ذات بعد واضح باتجاه التحول من النخبوية الإثنية إلى الشعبية الأمية ومن الخارج إلى الداخل ، إلا أن هنالك مواقف أخرى يثيرها بعض الباحثين لعلها تضيء نقاطاً أخرى من المسألة باتجاه ما يربط بين اليهودية والمسيحية . ان برونو باور يطرح من المشكلات المتصلة بمسألتنا ما يدعو حقاً إلى التأمل العميق . فعلى صعيد الجانب الأول (التحول من النخبوية الإثنية إلى الشعبية الأمية) . يكتب الفيلسوف المذكور مايلي : «اليهودية كفر يتوجه ضد كل الشعوب والعلاقات الشعبية . إنها بذلك غير منسجمة إذا كانت بعداً إيماناً بهذا الشعب الوحيد (أي اليهودي) وتحاول الاستناد إلى علاقات شعبية .

المسيحية تتخطى هذا التناقض مع الذات . تجعل كلياً الكفر بالشعوب ، لا تستثني هذا الشعب الوحيد من كفرها وتوجه ثورتها ضد جميع العلاقات الدولية والشعبية . باسم الانجيل يجب ترك (البيت ، الأخوة والأخوات ، الآباء ، المرأة والأولاد) من أجل كسب كل شيء من جديد مضرراً بمئة . ولكن الوطن والأهل والأشقاء والزوجة والأولاد التي تكسب مضاعفة مئة ضعف ليست ولم تعد وطنياً أرضياً واقعياً ، أشقاء واقعيين ، أباً وأماً واقعيين ، أبناء واقعيين ، الزوجة المكسوبة مضاعفة مئة ضعف ليست سوى ظاهر ما فقد وترك : انعكاسه السماوي . المسيحية فعلت ما لم تفعله اليهودية إلا بشكل ناقص وبلا منطق . طردت الإنسان من بيته ، من شرطه الدنيوي ، ومن علاقاته ، كما ومن علاقته إلى الدولة والشعب ، كي تعيد له كل ما خسرته باسم الانجيل تحت شكل عجيب رائع مدهش : وطن عجيب ، بيت عجيب . . . زوجة عجيبة»^(١) .

ويتابع باور فكرته المثيرة النافذة ، خالصاً إلى مزيد من تعميم الموقف وضبطه على صعيد التواصل والتفاصيل فيما بين الفريقين : «المسيحية تجاوزت الحواجز بين الشعوب وأسست الجماعة الكلية الكونية ، ولكنها اكملت اليهودية أيضاً في شكل كمال وتعميم الخصوصية والاستبعادية . اليهودية لم تفعل سوى طرد الشعوب الأخرى من الشعب الوحيد : بالمقابل الجماعة المسيحية تطرد كل طابع شعبي ، كل خصوصية قومية ، وتوجه حماسها ضد كل شعب يريد أن يعتقد بنفسه وأن يعطي

(١) برونو باور : المسألة اليهودية . ضمن : المرجع السابق ومعطياته ، ص ٩٩ .

نفسه قوانين من أجل ايمانه بنفسه وفي ثقته بتبريره . أخيراً ، المسيحية تطرد أولاً
ينتسب الى نفسه . . لا تريد أن تحوز الانسان الواقعي بل الانسان الذي يطرد من
انسانيته الحققة ، الانسان المولود من جديد ، الانسان الاعجوبة»^(١) .

ان ما يطرحه برونو باور ، هنا ، لا يتعارض - بمعنى أساسي - مع ما
أدرجناه في اطار التحول من النخبوية الاتنية اليهودية إلى الشعبية الأئمية ، ولا
ينقضه ، بقدر ما يسلط ضوءاً كثيفاً آخر عليه . والأمـر هذا يظل متصلاً ، بحدّ ما
ضروري ، ببوحنا المعمدان . فصحيح أن اليهودية لم تفعل سوى أنها شطرت
البشرية إلى «الأغيار - الغوييم» و«المصطفين المختارين» وجعلت من أولئك وعلى
هذه الطريق (أي بمقياس المصطفين المختارين هؤلاء) لا بشراً ، وأن المسيحية
أخرجت الجميع من دائرة «البشر المشخصين» ؛ بيد أنه في هذا الموقف المسيحي
بالذات كمنت لحظة عظمى من الشعبية الأئمية ذات التوجه الخلاصي . ولاشك أن
تجريد الشخص والانطلاق من هذا التجريد يضعف من هذا الأخير إن لم يكن
قادراً على شلّه . بيد أن عملية التجريد تلك إذ اقترنت بإدانة اجتماعية وأخلاقية
بذلك الشخص (الذي تمثل بالعلاقات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية التي كانت
في طور التآزم في حينه في فلسطين والمجتمع الروماني عامة) ، فإنها استطاعت - على
الأقل في مراحلها الباكرة - أن توجه إليها ضربات موجعة . فبالحد الأدنى ،
استطاعت المسيحية الباكرة المعمدانية أن تشكك في المثل العليا المهيمنة آنذاك . وفي
هذا إشعال للعواطف وتحريك للعقول - بصورة ما - باتجاه بديلٍ ما آخر غير الذي
قدمه اليهود يهودياً . وواضح أننا نشق ، هنا ، معنى الفعل الإيجابي بمثابته - في
أساس الأمر - فعلاً سلبياً . وهذا يدعونا إلى مواجهة برونو باور - في موقفه هنا -
بهيكل ، الذي رأى في «عماد التوبة» ليوحنا «عماداً للكرامة الداخلية» ؛ بغض
النظر عن أن الفيلسوفين كليهما أهملّا - على هذا الصعيد - اللحظة المشخصة

(١) نفس المرجع السابق ومعانيه - ص ١٠٠ . ويزيد برونو باور هذا الحكم تعميقاً إذ يطرحه
بالصيغة التالية : «سابقاً تصرف اليهود تصرفاً استبعادياً : ماعملوه للشعوب ، يرده المسيحيون
اليهم في قياسه الكامل . في سلوك المسيحيين ، يصاب اليهود باستبعاديتهم الخاصة التي عنهم
ورثها المسيحيون ولم يفعلوا سوى حملها إلى كمالها» . (نفس المرجع السابق ومعانيه - ص
١٠٧) .

التاريخية لمرحلة الانتقال الهامة والمعقدة مما قبل الميلاد إلى ما بعده .

ولابد ، في هذا المعقد من المسألة ، من الإلماع إلى أن عملية الانتقال تلك من الشخص إلى المجرد ضمن التعميد اليوحناوي ، والمسيحي عامة ، كانت مشروطة ببروز تصور «الأخرة أو العالم الآخر» بصفته «موطيء السلام والسعادة الأخير» . وهنا ، ينبغي التأكيد على أن هذا التصور السلمي في ذاته تحول - ضمن ظروف نشوئه وتبلوره آنذاك - إلى قوة كاسحة في أيدي الجمهور الواسع من الفقراء والمفقرين ، تلك القوة التي عملت على توجيه سهامها صوب المثل العليا للمجتمع العبودي الامبراطوري وجوانبه الأخرى ، بما في ذلك العلاقات المشاعية القروية في فلسطين . ولعلنا نقول - تعميقاً لهذه المسألة - ان عملية التجريد (تجريد الشخص) وتصور العالم الآخر انطويا على وظيفة سلبية ، هي وظيفة التهديم ، تهديم هذا العالم ، بما ينطوي عليه من الصليبان التي يُرفع عليها «المتعبون المثقلون» . وهذا يعني أن دينك العنصرين لم يكن بمتسعهما أن ينجزا وظيفة ايجابية (وظيفة البناء) إلا على سبيل الوهم . نعني بذلك : المسيحية لم تبني مجتمعاً جديداً ينسم بمثلها العليا التي وضعتها أمام أعينها ، مجتمعاً يقوم على «المحبة والعدالة والكرامة والتوبة الخ . . .» ؛ ذلك لأنها إذ رفضت ولفظت المجتمع القائم المتسم بـ «الكراهية والظلم والامتهان والمكابرة الخ . . .» ، فإنها لم تخرج عن نسيجه وعليه إلا في حدود المستحيل فعلاً والممكن وهماً . وهنا ، بالضبط ، في وهمية تمكين المستحيل ، كمنت القوة السلبية التهديمية للمسيحية ممثلة - في هذه الحال - بمعمدانية يوحنا . ومن ثم ، فنحن نواجه أمامنا الوهم وقد تحول إلى سعادة وعزاء ، لحين ما ، وإلى قوة تدميرية ، لحين آخر .

ولعلنا ثبت ما كتبه فريدرك انجلز بخصوص «المخرج الوهمي» الكبير ، الذي وجدته المسيحية الباكرة عموماً (وضمنها معمودية يوحنا) في تصور «خلود الروح أو النفس» ، أي «استمرارها بعد الموت» . كتب انجلز في «تاريخه للمسيحية الباكرة» مايلي : «إن هذا المخرج وجد نفسه ، ولكن ليس في هذا العالم . وكما كانت الأمور ، ماكان لهذا المخرج إلا أن يكون دينياً ؛ وهنا انفتح عالم آخر . ان استمرار وجود الروح (النفس) بعد موت الجسد ، كان قد أصبح شيئاً فشيئاً أداة اعتقاد معترفاً بها في كل انحاء العالم الروماني . كما أن نوعاً من

الإثابة والمعاقبة للأرواح الميتة على أعمالها التي اقترفتها على هذه الأرض غداً شيئاً
شيئاً مقبولاً . . . وفي الحقيقة ، لم يكن الاحتمال ممكناً لتحويل الرؤية الرواقية
النيلونية للعالم والتكشف إلى مبدأ أخلاقي أساسي لدين عالمي جديد يجتذب الجماهير
الشعبية المضطهدة ، إلا مع تكون الأفق لوجود إثابة على الأعمال تتم في العالم
الآخر^(١) .

وإذن ، فنحن نرى في عملية التشكيك الكبرى والعميقة التي قامت بها
المسيحية الباكورة (المعمدانية) بالعالم الذي أصبح ، في حينه ، في سقف أزمته
التاريخية . الوجه الأول الأساسي من المهمة التي انجزتها . أما الوجه الثاني فقد
اتضح من خلال البديل الوهمي الذي صنعه في ضوء الأداة الرواقية . ومن هنا ،
فإذا كانت اليهودية الإثنية النخبوية قد اسقطت رقعة كبرى من التاريخ الشخص
مثلاً بكل ما لا ينضوي من الشعوب تحت حدّ اليهودي ، فإن المسيحية بالحقاقها كل
التاريخ بيسوع ، تلغي كل التاريخ الشخص . ولكن اليهودية تلك بالغائها «العام
الأممي» ودمجه بـ «الخاص اليهودي» ، وجدت نفسها أمام خاص عديم العام أو عام
زائف عديم الخواص . وهذا ما جعلها بعيدة عن أن تكون مشتركة «مع مصالح
التاريخ»^(٢) ؛ في حين أن المسيحية - خصوصاً في طقس التعميد بالماء أو «بالروح
القدس» ألغت الخواص لصالح عام مجرد بعيد عن الشخص الانساني «الأممي» ،
الذي كان - بالأصل - من وراء نشوء المسيحية عموماً . وفي هذا وذاك ، ضحّت
المسيحية بـ «وفائها» للواقع الشخص المزري والمقعم بـ «الخطيئة» الذي كمن وراء
نشوئها وشعورها بالاستفزاز الكبير ، وذلك لصالح التأخي مع عالم ينكر إنكاراً تاماً
مطلقاً أن يكون له أصل ما في ذلك الواقع .

وجدير بالاهتمام العميق أن هذا العنصر اللاتاريخي المشترك في إطار الدينين
كليهما استطاع ، بأشكال ووتائر مختلفة ، أن «يحرّض التاريخ» ضدهما : ضد
اليهودية ، حيث نشأت المسيحية ؛ وضد المسيحية ، حيث أخفقت في تقديم
البديل وحيث نشأت الكنيسة السلطوية لتستوعبها كليهما ضمن قبضة واحدة .
وهذا يسمح لنا أن نخصص ، بتحديد أكثر ، الوظيفة التي مارسها «التعميد» على

1) Friedrich Engels: Zur Geschichte des Urchristentums- a.a.O., S. 270.

٢) برونوباور : المسألة اليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٦٠ .

يد المعمدان بمنحيين اثنين ؛ الأول منهما تمثل بتجريد اليهودية الحد النهائي من «التاريخية» ، التي تبقت بصورة هزيلة ضامرة تعبيراً عن الاعتراف بوجود شعب مختار واحد أحد ؛ أما المنحى الثاني فقد برز عبر الارتفاع من التاريخ إلى المعجزة (يسوع المسيح) . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الدينين اسهما - بالمعنى السلبي - في إثارة الموقف بإيصاله إلى حدوده القصوى . وهنا يصح أن نورد ما قاله برونو باور على هذا الصعيد وما أضافه ماركس على ذلك تعميقاً وتدقيقاً وإيضاحاً . كتب باور : «التاريخ يريد تطوراً ، مراحل جديدة ، تقدماً ، وتحولات . اليهود أرادوا دوماً أن يبقوا أنفسهم ، ناضلوا إذن ضد سنة التاريخ الأولى . ولكن ألم يولدوا إذن رد فعل بعد أن حركوا أقوى نابض في الوجود»^(١) . أما ماركس فيلاحق ذلك التحدي الذي أثارته اليهودية في الآخرين ، بحيث اوصلت القضية إلى نقطة الصفر أو المثة : «نتعرف إذن في اليهودية على عنصر مناهض للمجتمع عام وراهن عنصر دفع ، بالتطور التاريخي الذي شارك فيه اليهود تحت هذه العلاقة السيئة مشاركة نشيطة ، إلى ذروته في الزمن الحاضر ، إلى ارتفاع لا يستطيع فيه إلا أن يتفكك بالضرورة .

في دلالاته الأخيرة ، الانعتاق اليهودي هو عتق البشرية من اليهودية»^(٢) . هكذا إذن ، نكون - مع يوحنا المعمدان - قد وجدنا أنفسنا أمام بدء جديد عملاق ، وانتهاء لهذا الجديد ، في آن واحد . وسوف نلاحظ أن تصفية هذا «الجديد» ستبلغ ذروتها حين تنجز عملية استئصال تاريخية الشخص ، وذلك بأن يلحق التاريخ كله في «يسوع المسيح» ، الذي يقدم بدوره «تاريخاً» آخر في عالمه هو ، وحين يقود الانجيلي متى كلام يسوع إلى الحسم التالي ذي البعد النخبوي : «من ليس معي فهو علي»^(٣) .

(١) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٥٣ .

(٢) كارل ماركس : المسألة اليهودية (ضمن : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٢١٠) .

(٣) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس متى ١٢ / ٣٠ . وفي سياق مناقشة برونو باور لـ «فرنكل» حول ما يمكن أن نطلق عليه «لونا يهودياً» في المسيحية ، يكتب مايلي : «ولكن لماذا يجب أيضاً على الحب أن ينفي نفسه وعلى الانسان أن ينسحب وراء اليهودي ؟ (لأنه ، كنتيجة لازمة عن مذهب المسيح Christ - يجيب السيد فرنكل - لا يوجد أي خلاص للانسان

وإذا كانت هذه الآية اليسوعية تنطوي - في وضعيتها التاريخية - على دلالة انقسام العالم إلى فريقين كبيرين ، فريق «الأبالسة» وفريق «الشهداء» ، بحيث لا بد أن ينهزم الفريق الأول لإنهاء «عالم الأحزان» ، فإنها (أي الآية) امتلكت من عناصر التزمّت والنخبوية ما يكفي لإصاها إلى بعض مشارف اليهودية .

ويبقى أن نشير إلى أن المسيحية اليسوعية - في بنيتها الرئيسية وفي سياقها التاريخي والتراثي المشخص - مثلت تجاوزاً لليهودية ليس باتجاه الحل ، بقدر ما باتجاه قيادة «المأساة» إلى حدودها القصوى ، في حينه . وهذا ، من طرفه ، يجعلنا نأخذ بقولة برونوباور بأن «الدين المسيحي هو تجاوز اليهودية وبالتالي الاستبعادية اليهودية» . ولكنه ليس سوى هذا التجاوز وهو تحقيق اليهودية واستبعاديتها ؛ ولذا ، «فمن المنطقي والطبيعي أن نقوله أن المسيحية هي اليهودية الناجزة وإن اليهودية هي المسيحية الناقصة وغير الناجزة»^(١) .

= (خارج المسيح) . لأن المسيحي عنده هذا الخلاص في حياته ، لذا لزاماً عليه أن يعتبر كل الآخرين الذين ليس عندهم هذا الخلاص كائنات اجنبية . المحبة التي بوصفه مسيحياً وهبها للآخرين عليه أن يسترجمها بوصفه مسيحياً . هذا واجبه : إذ - يلاحظ السيد فرنكل - (أنانية العالم يجب أن تسلم وتسلم في الأخير أمام الجهود المسيحية نحو الوحدة) - أي أمام الإنسانية القدسية والمؤسسة وحدها حقاً وشرعاً . (برونوباور : المسألة اليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٠٤) .

ولما كانت المسيحية ، في هذا الموقع المحدد ، استمراراً وليس قطعاً لليهودية ، فإن هذه الأخيرة استمرت إلى جانب تلك «ليس فقط لأنها كانت تكون نقد المسيحية الديني وتشخص الشك بالنسبة لأصل المسيحية الديني ، بل أيضاً وبالقدر نفسه أو أكثر ، لأن الروح العملية اليهودية ، لأن اليهودية استمرت ودامت في المجتمع المسيحي بل ونالت فيه تطورها الأكثر رفعة» . (كارل ماركس : المسألة اليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٠٢) . وينابع ماركس على (ص ٢٠٥ من نفس المرجع الأخير) ، محدداً بالتعريف العلاقة بين الدينين : «المسيحية مشتقة من اليهودية . وقد انتهت إلى أن تعود إلى اليهودية . . . المسيحي كان اليهودي منظرًا . اليهودي هو ، بالتالي ، المسيحي العملي . والمسيحي العملي عاد يهودياً» .

(١) برونوباور : المسألة اليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٦٨ ، ٩٨ .

يبقى الوجه الأخير من «التعميد اليوحناوي» ، ذلك الوجه الذي يصح أن نضعه في مقدمة الحديث عن المعمدان . إنه «سبب الخلاص والمحرض عليه» ، أي «الخطيئة» . فلقد اعلنا الانجيليان مرقس ولوقا أن ظهور المعمدان كان ، بالأصل ، من أجل التعميد «لمغفرة الخطايا» . وهذا يشير إلى أن الأمرين كليهما يمثلان جانبين لموقف واحد . ان التعميد يتحول إلى طقس الطقوس ، أي إلى الطقس الأرحد لإزالة الخطيئة التي تمثل من الانسان مصيره حتى مجيء يسوع المسيح . يقول لوقا عن يوحنا المعمدان :

« . . . كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية . فجاء إلى بقعة الاردن كلها يكرز بعمودية التوبة لمغفرة الخطايا . كما هو مكتوب في سفر أقوال أشعيا النبي صوت صارخ في البرية . . . وكان يقول للجموع الذين كانوا يأتون إليه ليعتمدوا منه يا أولاد الأفاعي من دلّكم على الهرب من السُّخْط الآتي»^(١) .

فإذا كانت الخطيئة قائمة ، فإن الخلاص ات لإنائها . ولما كان هذا الخلاص «شاملاً وجذرياً» ، بالمعنى المسيحي الذي أتينا عليه ، فإن ما يتصدى لها - أي الخطيئة - لابد وأن يكون كذلك ، أي شاملاً وجذرياً ؛ يضاف إلى ذلك أن «جذريته» هذه تمتد إلى «الطبيعة الانسانية» ، من حيث هي . وهنا بالذات ، تكمن ضرورة التعميد ، الذي - هو بدوره - يحدث مرة واحدة يظهر فيها من الخطيئة الاصلية الكبرى . ولابد أن نذكر أن التعميد ، هنا ، أي بما هو فريد وحيد يتم لمرة واحدة ، ينطوي على رمزية تقود إلى «الفداء الوحيد» ، الذي يقدمه يسوع في شخصه . ان وحدانية التعميد هذه هي التعبير عن أن الوضعية الانسانية تنتقل من اللاتطهارة إطلاقاً إلى الطهارة إطلاقاً . وهذا ما يجعلنا أمام التصور المسيحي التالي ، وهو أن الاغتسال (أو الوضوء) يتم لمرة واحدة تُزال فيه لا طهارة الانسان . وإذا كان العماد بالماء المقدس على يدي يوحنا المعمدان هو الترميز للفداء الذي يبذله المخلص الوحيد ، يسوع المسيح ، فإن عملية الخروج من اللاتطهارة إلى الطهارة تغدو أمراً خارجاً عن فعل المسيحي المؤمن وخارجاً عن قدرته في الاختيار .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للمقدّس لوقا ٣/٢-٤، ٧ .

وبذلك ، تكون الحصىلة ان الوضعيتين النموذجيتين الكبيرين ، اللاطهارة (الخطيئة) والטהارة (العماد أو الفداء) ، تحدثان من خارج المؤمن المسيحي . وهذا يوصلنا إلى الإنابة الربانية اليسوعية في القبل والآن والبعد ، وفي الكل والجزء ، بحيث يرتد كل شيء وبكل اعتبار إلى «المحبة» الربانية - ولا نقول الارادة الربانية - ، تلك المحبة التي تحكم الكون وتقوده متجلية في «الكلمة» بمثابتها «اللوغوس» الرواقي الفيلوني لاحقاً ، وفي «اللوغوس» بمثابته «الكلمة» المنضبطة والكلية .

ذلك الموقف يصح التعبير عنه بما كتبه برونو باور حول ما سماه «العزلة السوداوية» التي يشعر بها «المؤمن المسيحي» بفعل «خطيئته الأصلية الشاملة» . يقول باور : «باسم هذه العزلة السوداوية ، إن شعب جماعة المختارين الرائع والمقدس هو أقل من الشعب اليهودي شعب واقعي . ليس شعباً هو نفسه ، ليس ايضاً شعباً بنفسه ، ليس شعباً من طرف إلى طرف ، ليس بالتمام شعباً . في نفسه هو لا شيء بالجوهر أو الأساس . ليس حاضراً مائلاً بالواقع إلا في كبير كهنته ، في الرأس الذي يفكر من أجله وبدلاً منه ، يقرر ويختتم في كل القضايا - المسيح»^(١) .

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى المسيحية ، فإن اليهودية تتخذ مسلكاً آخر فيه بعض التميز إزاء ذلك . فـ «الشعب المصطفى المختار» هو شعب يتمتع بعالم قدّمه إليه ربه الاله مكافأة له على تمسكه بـ «العهد» الذي يأخذه على نفسه ، وهو أن يكون شعبه ، شعب الرب . فـ «الخطيئة الأصلية» ، وإن تمت وحدثت ، فإن «الخلاص» منها ومن أوزارها ليس أمراً منوطاً بفعل كوني لاحق ، كما أنها لا تصيب هذا «الشعب» ، بعد أن تعهده الرب وجعله خاصاً به . ان الخطيئة ، هنا ، تتجسد في «الآخر» ، في «الغوييم» ، بكل ما ينطوي عليه هذا «الآخر» من تجليات بشرية وحيوانية ونباتية وطبيعية . فالرب يأمر شعبه بأن يبيد ليس فقط «الشعب العدو» ، بل كذلك «البهائم العدوّة» و «الأشجار العدوّة» و «الأبنية والطرق العدوّة» ، وبكلمة «المدن العدوّة برمتها» . وهذا يشير إلى أن العالم الذي يعيش فيه اليهودي التوراتي ينقسم إلى شطرين كبيرين انقساماً مطلقاً و كلياً في الجوهر ،

(١) برونو باور : المسألة اليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٠١ .

عالم اليهودي المقدس ، وعالم اللاهوتي النجس . ولنأخذ بعض الأمثلة التوراتية على ذلك الموقف المأني عليه : الخلاص من الخطيئة يتم هنا ، في هذا العالم ، ولكن فقط بالنسبة الى اليهود المصطفين المختارين من الرب :

«لأنك شعب مقدس للرب الهك وقد اصطفاك الرب لتكون له شعباً خاصاً على جميع الشعوب التي على وجه الأرض»^(١)

«وقال يعقوب ليوسف ان الله القدير تجلّى لي في لوز في أرض كنعان وباركني . وقال لي هاأنا أنميك واكثرك واجعلك جمهور شعوب واعطي نسلك هذه الأرض من بعدك ملكاً ابدياً»^(٢) ؛

«فاضرب أهل تلك المدينة بحدّ السيف وأبسلها بجميع ما فيها حتى بهائمها بحدّ السيف . وجميع سلبها اجمعها الى وسط ساحتها واحرق بالنار تلك المدينة وجميع سلبها جملة للرب إهلك فتكون ركاماً الى الدهر لا تبين من بعد . ولا يعلق بيدك شيء من المنسل . . .»^(٣) .

وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فإن «العالم المحيط» أصبح بالنسبة إلى اليهودي التوراتي بؤرة مليئة بـ «الفخاخ» ، على حدّ تعبير برونو باور^(٤) ، عليه أن يحذر منها ، وذلك بأن يميز بين «المقدس الطاهر» و«النجس» منها . ومن هنا ، ندرك وجود ذلك المعجم الضخم من ألفاظ النجاس والطواهر عند اليهودي المذكور وفي حياته اليومية . وبالمقابل ، تبين لنا تلك الحاجة الملحة التي تبرز عنده للقيام باغتسالات لا تنتهي في اليوم ، ظناً بأنه قد لوث بهذا أو ذاك من الأشياء المحيطة به ، بحيث ينشأ عنده وسواس مؤرق ، هو وسواس «الطهارة والنجاسة» . (ونستطيع أن نستبق الأمور فنقول ان الاسلام قد ورث بدرجة أو بأخرى هذا الموقف من الطاهر والنجس لدى اليهودية) .

أما الخطورة والأهمية التي انطوى عليها العباد اليوحناوي فقد تمثلتا في أنه

(١) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١٤/٢ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر التكوين ٤٨/٣-٤ .

(٣) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١٣/١٥-١٧ .

(٤) برونو باور : المسألة اليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٠٠ .

ستطاع أن يحل المسألة بطقس واحد وحيد للعمر كله ، يتمثل بالتمعمد بـ «الماء المقدس» ؛ فيغدو مهياً لأن يدخل عالم القداسة والطهارة . وإذا كانت اليهودية التوراتية قد ميزت في الطبيعة بين طاهر ونجس وأعلنت عزمها على تمثيل الطاهر ونقض النجس ، فإن المسيحية عامة ، ومن ضمنها المعمدانية اليوحناوية ، رأت أن الطبيعة بكاملها نجسة موبوءة بالخطيئة . وكان هذا بمثابة إقرار منها بالشرخ الكبير الذي يفصل هذه الطبيعة عن العالم الروحي الرباني . بصيغة أخرى ، المسيحية لم تتجاوز المسألة التي طرحتها اليهودية على نفسها وهي تقسيم العالم المحيط إلى طاهر ونجس ، بقدر ما منحتها اتجاهها آخر تجسد بالأخذ بوجود مثل ذلك التقسيم بين العالم المادي والعالم الروحي . وإدراك «هذا التقسيم» ، «هذه الوضعية» ، ينطلق من علم خاص به ، هو «علم الخلاص» . أما هذا الأخير فقد أعطيت أسرار له ليوحنا المعمدان ، كما نيطت مهمة التبشير الأولى به (بهذا الأخير) : «وأنت أيها الصبي نبي العلي تدعى لأنك تسبق أمام وجه الرب لتعدّ طرقه . وتعطي شعبه علم الخلاص لمعرفة خطاياهم»^(١)

وحيث يكون الأمر بهذه الألوان أو بالأحرى بهذين اللونين الوحيدين ، الأسود إطلافاً والأبيض إطلافاً ، فإن اللون الأسود الذي يقر به تعبيراً عن كلية الخطيئة وشموليتها في هذا العالم ، يوضع مقابل اللون الأبيض وبالتعارض معه ، تعبيراً عن أن الخلاص كلي الطابع وشامله . ولذلك ، «فالمسيحية تسمح بكل الأطعمة كما تنتجها الطبيعة ، ولكن هذا وحده يتيح اتمام التمييز بين أطعمة طاهرة وغير طاهرة : الطعام الطبيعي واليومي تعارضه بالطعام الوحيد ، الحق ، النظيف ، الطعام المغذي حقاً ، الطعام المقدس والعجيب الذي يقدم في المناولة»^(٢) . ومن هنا ، كانت «الأفخارستيا» ، أي تناول العشاء المقدس ، واحداً من الطقوس الكبرى في المسيحية ، الذي يرتد - في نهاية الأمر - إلى التعميد .

نخلص من ذلك إلى أن التعميد اليوحناوي كان فتحاً نوعياً على الصعيد المسيحي اليسوعي ، وليس فقط استمراراً لما سبقه من طقوس مشابهة أو مماثلة^(٣) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس لوقا ١/٧٦ - ٧٧ .

(٢) برونو باور : المسألة اليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٠٠ .

(٣) مثل هذا الرأي الأخير (المنطلق من ملاحظة «الامتداد الكمي المسيحي» لما سبقه من أديان دون

وهذا الرأي يفصح عن نفسه حين يؤخذ التعميد (وغيره من الطقوس المسيحية) في بعده البنيوي وسياقه الوظيفي . نضيف إلى ذلك أن التعميد اليوحناوي (والمسيحية عموماً) لا يمكن فهمه في بعده وسياقه المذكورين بعيداً عن تصور «الخطيئة» وعن «الخلاص اليسوعي» ، الذي يبرز هنا ، بمثابة كفارة المسيح مقابل تلك^(١) .
وجدير بالتنبه ما يطلقه يوحنا المعمدان أثناء مخاطبته الجموع من الناس ، الذين كانوا يأتون ليستمعوا إليه ويعتمدوا منه . فلقد كان يخاطبهم بـ «أولاد الأفاعي» :
«يا أولاد الأفاعي من دلکم على الهرب من السَّخَطِ الآتي»^(٢) .

فنحن نتبين في هذا التعبير دلالة هامة تقودنا إلى «الأفعى الأكبر» ، «الحية الألعن» ، التي أغصت حواء بأكل التفاحة من شجرة المعرفة . فأن يكون أولئك أولاد الأفاعي ، يشير إلى أنهم أبناء «الخطيئة الأصلية» ، التي غدت بؤرة العالم الخاطيء . ان المعمدان ، بذلك ، يهيء معموديته ، التي من شأنها أن تنقذ من «السخط الآتي» ، ذلك السخط الذي سيشمل الجميع باستثناء المخلص بصفته انساناً . وهي إذ تقوم بذلك الإنقاذ ، فلأنها «تتوكل على يسوع المسيح» ومنه تستمد القدرة على الإنقاذ . وكما سيقول بولس لاحقاً ، سيحيا الجميع في المسيح :
«... بما أن الموت بإنسان فبإنسان أيضاً قيامة الأموات . فكما في آدم يموت الجميع كذلك في المسيح سيحيا الجميع»^(٣) .

== ملاحظة نوعيته البنيوية والوظيفية) نواجهه ، مثلاً ، عند عصام الدين حفني ناصف ، الذي يكتب في بحثه (المسيح في مفهوم معاصر - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٥) : «رأينا أن سيرة يسوع خلو من كل شيء طريف مستحدث ، وسرى الآن أن ديانتها هي الأخرى لم تأت بشيء جديد لم يسبقها إليه غيرها من الديانات ، فتعاليمها تكرر لتعاليم أديان سابقة وشعائرها مخلفات من عقائد بائدة ... فالتعميد أقدم من المسيحية ، بل هو أقدم من اليهودية أيضاً ...» .

(١) انظر في ذلك : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٤٢ .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ٣/٧ .

(٣) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥/٢١-٢٢ .

«المسيح» بين البُنوة الانسانية والبُنوة الإلهية : الطريق سالكٌ إلى «المسيح البولُسي» بعد تصفية الخصوم

لم يكن أحد ، في مرحلة الانتقال المركبة والمعقدة مما قبل الميلاد إلى ما بعده ، يظن أن النشاط الديني الواسع والمحسوم ، آنذاك ، سوف يفضي - في نهاية المطاف - إلى تأسيس دين جديد . ان هذا الأمر يفصح عن نفسه خصوصاً وعلى نحو تاريخي مشخص ، حين نأخذ بعين الاعتبار أن ذلك النشاط كان - قيادةً واهدافاً - محدوداً في إطار اليهود المنشقين الأوائل ، الذين عاشوا مرحلة انسداد الآفاق المستقبلية حيال التجمع اليهودي الجيتوي . فهو لاء لم تدر في خلداهم فكرة نشر نشاطهم هذا عمقاً وسطحاً بحيث يخرجهم عن دائرة التجمع المسيحي اليهودي الباكر ، أي الذي انضوى حوله من كان في الطريق إلى التشكيك في جدوى الوحدة اليهودية العقيدية والاجتماعية .

هذا عموماً وإجمالاً ؛ ومن ناحية أخرى مخصصة ينبغي القول بأنه لم يكن أحد ، حتى حينه ، يلجأ إلى تقديم أو صوغ دين جديد باسم «يسوع»^(١) . إن ما وجد على الساحة الدينية والسياسية الدينية ، لم يخرج عن ذلك النشاط ، الذي كانت أمثاله معهودة ومعروفة كثيراً ، بل كثيراً جداً في مراحل التأزم والاضطراب الكبرى من التاريخ البشري ، على الأقل حتى بداية العصور الحديثة .

بيد أنه - بالرغم من ذلك - علينا أن نعترف بأن مرحلة التأزم الجديدة هذه مما قبل الميلاد إلى ما بعده لم تكن ببساطة ، والحق يقال ، كغيرها ، أو امتداداً كمياً

(١) انظر في ذلك : برتراند رسل - حكمة الغرب ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٤١ ، وكذلك : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S. 79.

ومباشراً لما سبقها . فلقد انطوت على جملة نوعية كبرى من المشكلات الايديولوجية الدينية وغيرها ، التي كانت مستعصية على مختلف الأصعدة وبمختلف التوجهات والتي - مع ذلك - غدا حلها ضرورياً ضرورة مرتبهة ببنية ايديولوجية دينية غير تلك المستنفدة تاريخياً وتراثياً ، أي البالغة «سقفها» من إشكالية التوجه إلى أمام . بتعبير آخر نقول ، إن البنية العقيدية والسياسية العقيدية أصبحت من العجز بحيث أنها لم تعد قادرة على امتصاص المظاهر العظمى للأزمات المتصاعدة ، من كل حذب وصوب ، والمطالبة بتقديم ما يدعو إلى حلها أو اللف عليها . بل إنها (اليهودية) غدت عبئاً ثقيلاً ليس بالنسبة إلى اليهود فحسب ، وإنما كذلك بالنسبة إلى شعوب المنطقة المتصلة ، بشكل أو بآخر ، بالمحيط اليهودي . لقد تحولت - في بنيتها الدينية والسياسية الجيتوية - إلى كايح لأفاق التغيير النسبي ، التي راحت تفصح عن نفسها وتشير إلى وجودها ، بدرجة أو بآخرى ، عبر مجموعة من الأفكار والتصورات والتحركات . ومن ثم ، كان قد أصبح بحكم المؤكد أن متابعة خط التطور البشري تشترط اختراق هذه الوضعية المتأزمة المأزومة على نحو ما ، حتى لو كان هذا الاختراق - بمعنى محدد - وهمياً ، فكان ، بذلك ، أن نشأت المسيحية اليسوعية ، بمشروعها الطموح في «الخلاص والتحرر» ، الحلمين الكبيرين المهيمنين في أوساط من سيعبر عنهم ، مسيحياً ، بـ «المتعيين الثقيلين» .

لقد أطلق اليسوعيون الأوائل (أنصار يسوع) على أنفسهم اسم «الفقراء» و «البؤساء» و «المؤمنين» . وكانوا - في انتاباتهم الاجتماعي الطبقي - متحدرين من أوساط اليهود الفقراء ، الذين وجدوا أنفسهم في قبضة الأثرياء المتنفذين من «اخوتهم» في الداخل ، ومن غرمائهم الرومان في الخارج . وقد برز واحد منهم في اورشليم (القدس) باسم «يعقوب» . وكان هذا رجلاً استطاع أن يكسب اهتمام واحترام أقرانه من «المؤمنين» ، النازعين منهم خصوصاً منزع التحرر من أعباء الأزمة المستحكمة . بيد أننا نستطيع أن نعمم الموقف أكثر إذ نشير إلى أن «مجموعة يسوع» الأولى تمثل - بحسب بعض الباحثين - استمراراً عقيدياً وتاريخياً لليوحناوية الرؤياوية ، مما يخلو بالقول بأن الفريقين نشأ وتبلورا على أرض اسينية خلاصية (مسيانية) ، أخذاً منها الكثير دون أن يتوقفا عند حدودها^(١) . وإذا ما أخذنا ذلك

(١) انظر نفس المرجع السابق الأخير ومعطياته - ص ٧٩ .

مجتمعاً ، امكنا القول بأن التطور اللاحق الذي سيجري على عملية النشوء والتبلور تلك ، سيرز تحت اسم «اليهود المسيحيين» ، أي أولئك الذين سيارسون - في حينه - دوراً فاعلاً في اختراق الجدار اليهودي ، عامة وبأفاق متعددة مخصصة ، فاتحين الطريق أمام بروز مضطرب ومعقد لإشكالية التطور العقيدي والاجتماعي والسياسي ، حتى حينه .

ولابد أن نعلن بأن «اليهود المسيحيين» تمكنوا من أن يمدوا تأثيرهم في أرجاء متعددة من العالم آنذاك . ذلك أن هذا التأثير وإن ظهر وبرز - في بدايات الأمر وبواكيره - في فلسطين تخصيصاً ، إلا أنه فيما بعد اتسع وتعاظم عمقاً وسطحاً ، بحيث أخذ يشمل الساحل السوري الفلسطيني من غزة إلى انطاكية ، وكذلك مناطق من آسيا الصغرى واليونان ، إضافة إلى روما ومناطق من إفريقيا . وسوف يتعين علينا لاحقاً أن نلاحق هذا الاتجاه الهجين (التلفيقي) في بنية الدين العالمي الثالث ، الاسلام ، الذي سنجدده - بمعنى ما وأفق ما - وريثاً شرعياً له . وهذا ما علينا أن نفهمه بمثابته خط تحول جديد في التاريخ البشري عامة ، بحيث لا نسمح لأنفسنا بالتوهم بأننا حيال تحول في الأدوار الدينية أوصلنا إلى «دين سماوي» جديد ، هكذا ببساطة وعلى نحو قطعي .

وقد اندلعت معركة واسعة ومديدة ومتشعبة ، حقاً ، استمرت أكثر من قرن بين أولئك اليهود المسيحيين من طرف ، وبين اتجاه ثان كان على رأسه بولس من طرف آخر ، أي بين مسيحية يهودية ومسيحية بولسية . وقد ترتب على هذه المعركة أن ظلت المسيحية اليهودية تمثل حتى عام ٧٠ م غالبية الكنيسة ؛ في حين أن سيادتها الايديولوجية الدينية استمرت قائمة إلى ما بعد ذلك ، إلى عام ١٤٠ م ، أي إلى حيث وقع آخر تمرد يهودي^(١) . وهذا يشير ، ضمناً وصراحة ، إلى أن الاتجاه المذكور كان له حضور كثيف وطويل بعد أن برز الاتجاه الآخر ، الذي حمل في طياته معالم الدين الجديد ، المسيحية . وجدير بالقول أن عملية استقطاب الموقف الرئيسي والأساسي من خلال ذينك الاتجاهين الكبيرين ، استغرقت زمناً طويلاً ، وكان عليها أن تتلون

(١) انظر : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٠ - ٧٣ .

بالوان المشكلات والوضعيات القائمة آنذاك ، من الدين إلى الاقتصاد والحرب . وهذا يعني أن حسمها تطلب صراعاً مريعاً بلغ أقصى أشكاله السياسية والدينية والعسكرية الحادة . فقد وقف اليهود في فلسطين ، في بادئ الأمر ، موقف الريبة والشك والحذر والرفض ، وكذلك الاحتقار الديني والإتني حيال من حوّلهم من «الغوييم» ، الذين أطلقوا عليهم لقب «الوثنيين» ، ذلك اللقب الذي ضمنوه كثيراً من معاني الإدانة والتشهير والقذح والتورية الامتهانية .

إن ذلك الموقف الأخير كان قد عنى مباشرة النظر إلى أن المسيحية اليسوعية إذ نشأت وطفقت تطرح نفسها على الناس ، فإنها انجزت ذلك - بصورة عامة إجمالية - ضمن توجهها إلى اليهود المقيمين هناك ، في حينه وحتى حينه . أما الآخرون من غير اليهود ، أي أولئك «الوثنيون» ، فقد تحاشاهم الدعاة المسيحيون الأوائل ربما لاعتبارين اثنين رئيسيين . الأول منها تمثل في أن هؤلاء كانوا - في بنيتهم العامة - من مصادر يهودية انطلقت من الاعتقاد بأن «المسيح القادم» أو «الذي وصل» هو استمرار مباشر للأنبياء والمخلصين والملوك اليهود ، ومن ثم ، فالأمر لا يعدو أن يكون حدثاً «داخلياً» اقتضته المسيانية اليهودية ذاتها . أما الاعتبار الثاني فيمكن أن نلاحظه في المخاوف التي تولدت لدى أولئك الدعاة من أن يجلب عليهم مثل ذلك النشاط (الدعوة في أوساط الوثنيين) نتائج مروعة أو متعبة على أيدي اليهود المحافظين بالحاح على انغلاقهم وشعورهم بالتميز والاصطفاء . ولكننا حين نأخذ بعين الاعتبار ما قام به الدعاة المعنيون من جهود ، فإننا سوف نلاحظ أن ذلك يلقي ضوءاً جديداً على الوضعية التي أتينا عليها في مكان سابق ، وهي تعاظم واتساع الاتجاه الخلاصي (المسياني) في الكتابات الأخيرة المتأخرة ، التي نحت نحواً يهودياً بصورة عامة ، وخصوصاً منها ما أنجزه الاسينيون ويوحنا الرؤياوي بالذات . (وقد أومأنا من قبل إلى أن هذا الأخير ربما كان واحداً من أولئك) . فلقد تمثلت دعوة الخلاص الجديدة ، على الصعيد الداخلي ، بالأصوات اليهودية التي رأت - بحكمة واستنارة مفعمتين بالشعور بالأزمة والمأساة المتولدة عنها - أن «الطريق اليهودي» المتبع حتى ذلك الحين ، أصبح مستنفداً ومسدود الأفاق ، بعد أن غدا مترعاً بـ «العذابات والآلام التي لا تنتهي» .

ومع تعمق الأزمة العامة لمجتمع الامبراطورية الرومانية وتعاظم علامات

الشيخوخة في العلاقات العبودية وفي النظام السياسي والبنى الدينية والثقافية العامة للمجتمع الروماني نفسه ، تحولت أفكار الخلاص والمخلص إلى العوامل الأكثر تحفيزاً وتحريضاً على نشوء منظومة دينية جديدة ، يكون بقدرتها الاحاطة بـ «الموقف المستجد» وقيادته إلى آفاق خلاصية أكثر رحابة وشمولاً وعلى نحو ما يقتضيه واقع الحال . وما يثير الانتباه أن طرح «البديل الجديد» كان قد تم ، كما أشرنا ، على أيدي العناصر اليهودية «الحكيمة المستنيرة» ، أي التي كانت أكثر احساساً من غيرها بإشكالية الموقف وبـ «البعد الانساني المفتوح» الذي تنطوي عليه ، بمعنى ما . أما ذلك البديل فقد ظهر في صيغة ما يمكن اعتباره شكلاً من الأشكال الإصلاحية الدينية في نطاق اليهودية نفسها ، أو محاولة لإعادة النظر في بنائها الداخلي من موقعها هي نفسها ، وباتجاه العمل على جعلها موائمة للمرحلة الجديدة الصعبة . بل لعلنا نقول ، ان تلك العناصر اليهودية طمحت إلى اختراق الدين اليهودي الهرم ، والمتمنع بأكثر من اعتبار على التجاوز الذاتي ، من داخله وباسمه . وقد تم ذلك بادخال توجهات جديدة فيه أو تنحو إلى أن تكون جديدة ، أريد لها أن تحول دون انهيار الهرم المتآكل عبر تجديد بعض مظاهره ، ولكن من خلال الاحتفاظ بتصوير «الشعب المصطفى المختار» ، بل ربما كذلك من أجل حمايته وترميمه على نحو لا يتساقط فيه كلياً .

كان بطرس هو الذي تزعم ذلك الموقف الاصلاحى الترميمي ، بعد أن كان هذا الأخير قد ظهر قبل بطرس وافصح عن شخصيته واتجاهاته المستقبلية المحتملة . وكان قد سبقه إلى شغل هذه الزعامة اليهودية المسيحية يعقوب ، الذي أتينا على ذكره . إلا أن يعقوب هذا لم يخرج - في نشاطه الديني والتنظيمي - عن حدود دائرة ضيقة في حجمها وساذجة ضحلة في آفاقها . وجدير بالذكر أن السابق واللاحق كليهما ، أي يعقوب وبطرس ، نشأ وترعرعا في وسط ديني متميز بمحافظته وحذره من التأويلات الدينية المتحررة بطلاقة ، أو المحرصة على طرح السؤال . فهو وسط ألح على «الشرعة الموسوية» الحاحاً مبدئياً مشدداً ، معتبراً إياها المدخل إلى العالم «المسيحي» الجديد والضامن لهذا الأخير من «التمحلات والانحراف» ، أي من آراء من سيسمون بـ «الأمميين الوثنيين» . وقد عبر عن ذلك متى الانجيلي ، حين أعلن بلسان «يسوع المسيح» قائلاً ، بوضوح وحزم :

«لاتظنوا أنني أتيت لأحلّ الناموس والأنبياء إني لم آت لأحلّ لكن لأتمم . الحق أقول لكم انه الى أن تزول السماء والأرض لا تزول ياء أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل . فكل من يحلّ واحدة من تلك الوصايا الصغار ويعلم الناس هكذا فإنه يدعى صغيراً في ملكوت السموات»^(١) .

وإنه ليّن ، كما نستطيع أن نلاحظ ذلك ، أن الانجيل المذكور (متى) ينحو - في صيغته الاجمالية العامة - نحواً يهودياً بأفق أو بهامش مسيحي يسوعي ، أي يعبر عما يقترب من الدائرة التي انطلق منها يعقوب وبطرس . (وسوف نأتي على ذلك ثانية في مكان لاحق) .

ولقد جسد ذلك النحو اليهودي ، ذا الأفق المسيحي اليسوعي ، أحد الأشكال الارهاصية الأولى ضمن العملية المعقدة والطويلة لنشوء المسيحية الجديدة ، ولنقل أنه كان هو نفسه هذه المسيحية في أشكالها الباكّة ، التي لم تكتسب وعيها الخاص بعد . وكان هذا الشكل قد برز - في حينه - بمثابة تحصيل حاصل من العلاقة العقيدية التاريخية بين «الابوينيين» من طرف و «الناصرين» من طرف آخر . فهذان الفريقان كلاهما انطلقا ، في فهمهما ليسوع المسيح والمسيحية عموماً ، من اليهودية (الشرعية) . وهناك بعض الباحثين يرجع اللفظة الثانية (أي الناصريين) الى الأصل Nozar ، الذي يعني «يحافظ على» أو «يستمسك بـ» . فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن المسيحية الباكّة نمت وترعرعت في أحضان الحركة الأبيونية ، أي حركة «الفقراء والمساكين» من اليهود الذين عرفوا بتمسكهم بالشرعية اليهودية ، اتضحّت العلاقة ، بحد ما وبدرجة ما ، بين الفريقين ، بحيث يمكن ردهما إلى فريق واحد وحركة واحدة . ذلك لأن الناصريين انشقوا ، من حيث الأساس ، عن الفريسيين وعليهم ، امعاناً منهم وإيغالاً في التأكيد على الاستمسك باليهودية في إطار المسيحية اليسوعية . ولهذا ، فإنه من المألوف أن يتحدث باحثون ومؤرخون عن الأبيونيين والناصرين من موقع الاعتبار بأنهم فريق واحد ، على الأقل في الحقل الايديولوجي الديني ، دون التنظيمي والسياسي^(٢) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٧/٥-١٩ .

(٢) انظر حول ذلك : عصام الدين حفني ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات

ولا بد أن نأخذ باعتبارنا أن وضعية أخرى محتملة كمننت وراء ذلك الموقف إياه ، الذي تبلور عن نشوء المسيحية المتهوذة أو اليهودية المتمسحة . فالأبيونيون ، الذين طبعوا بشخصيتهم الاجتماعية الطبقة المنوه بها هذه اليهودية المتمسحة ، لم يكونوا يمثلون القوة الاجتماعية والدينية الوحيدة التي أسهمت في ذلك . ومن هنا ، يأتي دور الوضعية الأخرى المحتملة ، التي يمكن تحديدها وضبطها بمحاولات الأريستوقراطية الكهنوتية اليهودية المحافظة على مصالحها المهددة على الصعيدين الاقتصادي الاجتماعي والديني الأيديولوجي . لذلك ، كان مفهوماً أن تلجأ إلى استيعاب الموقف عبر محاولة تحرير «القديم» في «الجديد» وبإسمه ، أو دمج هذا الأخير في ذاك ؛ فيكون بإمكانها ، على هذه الطريق ، أن تكسب «المسيح الجديد» من مواقعها وباتجاه بعض منازعها واتجاهاتها ، على الأقل .

إن تهويد الحركة المسيحية اليسوعية المتصاعدة كان عليه ، والحال كذلك ، أن يتم من خلال التأكيد على ضرورة المحافظة على «الشرعية الموسوية» ، بما تنطوي عليه من إصرار على وهم «الشعب المصطفى المختار» - وإن ببعض الإضعاف والتورية وربما كذلك التقية - أولاً ، وعبر الاعلان عن أن التضحية والفداء يمثلان واجباً مطروحاً على كل فرد من أفراد الاتجاه الديني التلفيقي الجديد حيال السياد (السادة) ، ثانياً . ولعلنا نواجه مثل هذا الموقف بصيغته الدينية الذهنية لدى متى الانجيلي . فهذا الأخير الذي أعلن بلسان يسوع ، كما مر معنا ، عن أن يسوع لم يأت برسالة تتجاوز الموسوية الشريعية (اليهودية) ، قال محدداً النمط الاجتماعي الانساني الذي اعطيت له «أسرار الرب العميقة» ، أي القادر - طبعاً وفطرة عقيدية - على «فهم» تلك الأسرار و«العمل» بمقتضاها :

«في ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس الى جانب البحر . فاجتمع إليه جموع كثيرة . . فكلّمهم بأمثال كثيرة . . فدنا إليه تلاميذه وقالوا له لماذا تكلمهم بأمثال . فاجاب وقال لهم انتم قد أعطيتكم معرفة أسرار ملكوت السماوات وأما أولئك فلم يعطوا . لأن من له يعطى ويزاد ومن ليس له فالذي له يؤخذ منه . فلهذا أكلمهم بأمثال لأنهم يبصرون ولا يبصرون ويسمعون

== المقدمة سابقاً ، ص ١١٥ - ١١٧ ؛ وكذلك : Prosper Alfarié - Die sozialen Urspruenge des

Christentums, a.a.O., S.288.

ولا يسمعون ولا يفهمون»^(١) .

إن لهذا الموقف من «أولئك» الذين لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفهمون ، أهمية خاصة ضمن مسألة «أساليب السيد في تعليمه» . فمن موقع هذه المسألة ، نتبين الدلالات المضمّنة والمرمّزة التي تقودنا إلى تأكيد ما اتينا عليه . وفي سبيل إيضاح ذلك ، نتفحص ما ينطوي عليه التصنيف المسيحي اللاهوتي للأناجيل الأربعة (القانونية) من مثل تلك الدلالات . فإذا تناولنا انجيل يوحنا ، وجدناه يمثل الانجيل الاورشليمي ، الذي يحتوي من تصاريح يسوع المسيح «مما لا يمكن أن يصدر بحرفه إلا عن المسيح نفسه» . أما الأناجيل الثلاثة الأخرى المتبقية والتي تسمى بـ «الأناجيل المؤتلفة» وتندرج تحت إطار ما يدعى «الانجيل الجليلي» ، فإنها - كما يقول الأب يوسف درّة الحداد - «لفظاً ومعنى من السيد المسيح» ؛ مع الإضافة الضرورية التالية ، وهي أن «يوحنا أعار تعبيره لتفكير معلمه ، وقد تملأ منه نحو سبعين عاماً قبل تدوينه» . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن أساليب «السيد» في تعليمه تنقسم إلى ثلاثة ، الأول «شعبي» ، والثاني «علمي رسمي» ، في حين أن الثالث «خاص» .

إن ما هو جدير بالاهتمام ، هنا ، ينهض على تحديد الأسلوبين الثاني والثالث ؛ لأن من شأن تفصي ذلك أن يضعنا وجهاً لوجه أمام الحيز الذي شغله كبار الكهنة الارستوقراطيين من اليهود في إطار المسيحية اليهودية . فالتعليم «العلمي الرسمي» يخاطب «السلطات والأحزاب الدينية اليهودية» (إضافة إلى علماء اسرائيل) في اورشليم ، في أروقة الهيكل ، بمناسبة مواسم الحج . أما «التعليم الخاص فللرسل والصحابة»^(٢) ، أي لأولئك الذين شكلوا «نخبة النخبة» . فهذه النخبة هي التي احتفظت بحق «تفسير الأسرار الملكوتية العميقة» ، التي على الآخرين أن يلتزموا بها من باب الامتثال والايمان لا الفهم والمحااجة . وهذا يتم بمقتضى القواعد والأعراف الناظمة والمعترف بها في الأوساط اليهودية العليا فيما سبق والآن ، أي مع تبلور الاتجاه المسيحي اليهودي وما قبله .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٣/١-٣ ، ١٠-١٣ .

(٢) الشواهد الواردة في نطاق المسألة المعنية ، هنا ، مأخوذة عن : الأب يوسف درّة الحداد - أساليب السيد في تعليمه . (ضمن مجلة : المسرة - يديرها الآباء البولسيون ، بيروت آذار ١٩٧٥ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨) .

وهكذا ، تتضح الفكرة الأساسية التي أردنا تبينها في المعطيات السابقة ، وهي أن الاتجاه المسيحي اليهودي لم يكن من وراء نشوئه وتبلوره أوساط يهودية فقيرة (أبيونية) فحسب ؛ لقد كان هنالك ، أيضاً ، ما يدعو إلى القول المرجح ، باعتباريات كثيرة ، بوجود أوساط أخرى من نسق اجتماعي آخر أسهمت في تلك العملية ؛ وهذا ما نراه مثلاً في الكهنوت اليهودي الاريستوقراطي ، تحديداً . ولكن في كلتا الحالتين ، يبقى التنويه ضرورياً بأن من وراء هؤلاء وأولئك كمنت الدعوة التاريخية الناهضة لتجاوز اليهودية الطقوسية الجيتوية وتدمير جذرائها الضيقة الخفيفة ، وذلك باتجاه تكوين دين جديد يحقق - وإن بطريقة إيهامية - خلاص «المثقلة أيديهم وقلوبهم بأعباء العالم القديم وشروره» .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن اليهودية المسيحية ظلت طوال سنوات عديدة مهيمنة سياسياً وثقافياً أولاً ، وثقافياً فقط ثانياً ولاحقاً . فهي قد استندت إلى الموروث اليهودي التقليدي الغزير ، الذي وجدت فيه ما يهيئها ، عقيدياً ، لأن تفتح أمامها آفاق أخرى من شأنها أن تقود إلى صيغة تجمع بينه وبين ما استجد من ظواهر دينية وغيرها على ساحة التحول الجديد . ذلك لأنها لم تجد غضاضة في الوصول إلى تلك الصيغة وفي تبنيها والمنافحة عنها ؛ بل هي رأت في المسيحية نفسها وجهاً من أوجه اليهودية ، دين «الأجداد والآباء» الذي لا يتجاوز بإطلاقه وعمومه . ولعلنا نضيف إلى ذلك - تعميقاً لما ذكرناه وأتينا عليه - جملة من العوامل والمؤثرات والخوافز التي أسهمت في ظهوره وفي قيادته إلى ما وصل إليه من مصائر . نشير ، هنا على نحو خاص ، إلى التحول الجذري الذي لحق بشخص «بولس» ، أي الرجل الذي بدأ به بنيوياً ووظيفياً «ما نسميه العهد الجديد»^(١) . فقد كان ، في أول أمره العقيدي ،

(١) يكتب حنا منصور في مقالة له بعنوان «رسائل بولس لم يمر عليها الزمن - مجلة المسرة - يديرها الآباء البولسيون ، بيروت حزيران ١٩٧٥ ، ص ٤٨٣ ، مايلي : «عاشت الكنيسة ولم تزل ، منذ عهدوها الأول ، تنهل المعرفة وتستوحي الهداية من تلك الرسائل القديمة الحديثة (أي رسائل بولس) ، فما نضب معينها الفياض . . . ولذا كان ظهورها من أعظم الأحداث أهمية في حياة المسيحية . . . ولما راح بولس ، وهو في كورنثس ، يخطب إلى أبنائه التسالونيكين . . . ما يجيش في نفسه من الخواطر والمشاعر ، عندئذ بدأ عندنا ما نسميه بالعهد الجديد» . في سياق ذلك ، ينبغي أن نشير إلى أن ما ينسب من رسائل لبولس - بحسب النصوص المقدسة - مشكوك في أكثره . =

فريسياً متعصباً ليهوديته ، بحيث أنه شهر كل الأسلحة ضد اليسوعية المسيحية الناهضة بغية تدميرها في المهد ، منطلقاً ، في تلك المهمة الخطيرة والصعبة ، من أنها مثلت الكفر بالعقيدة «الأصلية النقية» . وقد ظهر ذلك في موقفه من استفانوس «الشهيد» ، الذي شارك بولس في قتله ، «درءاً لتفشي الفتنة - الحركة الجديدة» ؛ مما يشير إلى أن هذا الأخير (بولس) كان - في مرحلته الدينية الأولى - يهودياً يهودياً متزمتاً ، لا يمتثل بحال موقفاً أو رأياً آخر^(١) . ولكنه لاحقاً ، في مرحلته الدينية الثانية والأخيرة ، يبرز بمثابته عمود المسيحية اليسوعية نفسها . فلقد وجد نفسه ، كما حدثت عن نفسه ، وهو في طريقه إلى دمشق بغية اعتقال مسيحييها ، وجهاً لوجه «إمام» المسيح نفسه ، بحيث قاده ذلك إلى أن يكون بصورة نهائية أسير المسيحية ، التي ظهرت له ، إذ ذاك ، على أنها الحقيقة المطلقة^(٢) .

== فالمدرسة التينغرية الألمانية ، التي أتينا على ذكرها في موضع سابق ، تعلن أن من الرسائل الأربع عشرة المنسوبة إلى بولس ، يوجد ، بالحد الأقصى ، أربعة فقط يمكن أن تكون نسبتها إليه واردة وصحيحة . (انظر ذلك في : Friedrich Engels- Zur Geschichte des Urchristentums, a.a.O., S. 261).

(١) انظر : Peosper Alfari- Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a.O., S. 289 . فهنا ، لدى Alfari ، يُخبر بأن بولس لم يكن يهودي الأصل ، فقد ولد في طرسوس من أبوين وثنيين . وحين أتى إلى القدس (أورشليم) أحب ابنة كبير الكهنة ورغب في زواجها . ولكن كان عليه ، في سبيل ذلك ، أن يُخْتَن . إلا أنه رفض من صفوف اليهود ، حيث حقد عليهم حقداً كبيراً ؛ فما كان منه - بحسب ذلك - إلا أن ركز هجومه على «الختان» و«السبت» ، ومجموع الشريعة اليهودية .

(٢) حول ذلك راجع : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٣ . في إطار هذه الوضعية المتميزة بأهمية بولس في بناء المسيحية ، يكتب نفس المؤلف (على نفس الصفحة) مايلي : «ومن المسموح به أن نتساءل ماكان يمكن للمسيحية أن تكون عليه دون بولس . . . ونستطيع في هذا المقام أن نقيم افتراضات كثيرة . ولكن ، فيما يخص الأناجيل ، فليس هناك مجازفة كبيرة في أنه لولا جو الصراع بين الطوائف التي ولدت بسبب انشقاق بولس ، لما حصلنا على الكتابات التي في حوزتنا اليوم» .

ويبدو أنه ذو أهمية خاصة أن يشار إلى أن انتقال بولس إلى صفوف المسيحيين ذوي الأصول «الوثنية» ، بحسب الاعتبارات الدينية القائمة في حينه ، كان قد جسد خطوة حاسمة في إضعاف اليهودية عامة واليهودية المسيحية بصورة خاصة ، ثم في تغليب المسيحية (البولسية) على هاتين ، على نحو قطعي ومن حيث الأساس والإجمال . وفي ضوء هذا ، يمكن القول بأن ذلك الانتقال الحاسم فتح الأبواب على مصاريعها أمام الصراع العقيدي المعقد والمرير ، الذي سيدوم فترة من الزمن بين بطرس وبولس ، أي بين ركني الاتجاهين المذكورين الكبيرين ، بمن كان إلى جانبهما من أنصار متعاطفي الأعداد خصوصاً بالنسبة إلى الثاني .

فلقد كان بطرس هو الرجل القادر على صوغ الموقف اليهودي المسيحي وعلى قيادته بيد نافذة حازمة . فهو الذي استطاع أن يختم أصوات الحواريين الانثني عشر ، ليجعل من صوته معبراً وحيداً وقوياً عنهم في الأوساط المتعددة ، اليهودية واليهودية المسيحية و«الوثنية» ؛ خصوصاً وأنه يعلن على الملأ بأنه أحق من الجميع باعتبارين ، الأول أنه يدافع عن «الطريق القويم» ، في حين أنه - بالاعتبار الثاني وهو الأخطر - الرسول الذي «عاش مع يسوع مباشرة» . وإذا كان يعقوب ، زعيم اليهود المسيحيين في القدس ، قد انطلق من أن «الانجيل» هو تحقيق الشريعة اليهودية ومن أنه ، رغم ذلك ، من الواجب الوقوف ضد طقس الأضحية وضد المعبد نفسه ، فإن بطرس هو الذي تمكن من تعميم هذه المطالب بين اليهود و«الوثنيين» في أصقاع عديدة وضمن أجواء محاطة بالمخاطر والعداء والتأزم الشديد .

وفي سبيل فرض الموقف المعني لصالح هيمنة الاتجاه البطرسي وبلورته عقيدياً وتنظيمياً ، كان بطرس يجد نفسه مدعواً إلى الكفاح على جبهات متعددة ، برز منها اثنتان . الأولى تمثلت بـ «سيمون الساحر» ؛ في حين أن الثانية تجسدت بـ «الرجل الخطير» بولس ، الذي كان على بطرس أن يحسب حسابه بهجد .

أما الأول فقد اعتبره ، ببساطة ، «ساحراً» و«دجالاً» مهووساً يزعم أنه قوة الله ؛ بينما نظر إلى الثاني على أنه الرجل الأكثر خطراً وإشكالية على اليهودية المسيحية . ولذلك ، فقد كان من «ضرورات» العقيدة إياها أن يكافح هذا الرجل بلا هوادة ، دون أن يقلل من خطورة ذاك (سيمون) . إن هذا الأخير يُبرز ، وفق

ذلك ، من حيث هو ساحر لبسه الشيطان وقاده إلى التهلكة ؛ أما الثاني ، بولس ، فيُظهر ذا شخصية «غريبة هجينة» تستمد مصادرها وسماتها وآفاقها ومصائرهما من الثقافة اليونانية الهلينية . لقد خاطب بطرس سيمون «الساحر» ، قائلاً بلغة القوي الوثائق :

«إنك أخذت على نفسك أن تعرف عن يسوع أكثر مما أعرف أنا ، لأنك قد تعلمت منه نفسه في رؤى رأيته . . . كيف يمكنه أن يظهر لك إذا تعارضت آراؤك مع آرائه ؟ وحتى لو كنت قد استمتعت بالقضاء ساعة معه وأصبحت حوارياً . توقف عند مكافحتي ، أنا الذي عشت معه . ذلك لأنك حولت نفسك ضدي»^(١) .

لقد تحول «سيمون الساحر» تحت تأثير الموقف البطرسى الحازم إلى أثر بعد عين ، وغداً طريق بطرس سالكاً جزئياً . فموقف هذا الأخير ضعفه في أعين معظم أنصاره . إذ لم يكن أخطر من أن يضعه في مصاف المخالفين ليسوع والمتناقضين معه في الرأي . ومن ثم وانطلاقاً من ذلك ، أصبح من الممكن أن يتفرغ بطرس لمصارعة عدوه الأكبر بولس . وهنا يظهر الموقف على غاية البساطة . بالرغم من خطورته . فلقد اعتُبر بولس من قبل غريمه خائناً ، غرر بالنعالم «الأصلية» إذ انتقل إلى «غيرها» ووقف ضدها ؛ معلناً ، بذلك ، انحيازه النهائي إلى المسيحية «الوثنية» ، أي إلى العقيدة المتحدر أنصارها من مصادر غير يهودية . فبولس يفصح عن نفسه ويعلن عن مقاصده ، دون غمغمة ، حيث يرفض الأمرين الأكثر حسماً وخطورة في الذهنية الدينية اليهودية . الأمر الأول هو تصور «الشعب المصطفى المختار» بالمعنى الأقوامي (اللاتني) ؛ أما الأمر الثاني فهو عقيدة التضحية والفداء العينيّين ، أي المتوجبين على كل فرد يهودي بذاته . وهو (بولس) إذ فعل ذلك وأعلن عنه ، فإنه يكون قد تبنى الدعوة الصريحة إلى الموقف الجديد ، متمثلاً بـ «الأمم» بدلاً عن «الشعب المصطفى المختار» وبـ «فداء الكفاية» المسيحية بدلاً عن «فداء العين» اليهودي . وهاهنا بالضبط ، معقد المسألة ذات الحساسية الكبرى والتي يثور

1) Die Pseudoklementinen, I: Homilien. Herausgegeben von Bernhard Rehm, Berlin- Leipzig

1955, s. 236- 237 (XVII, 14- 19).

بطرس من أجلها ، ويعلن ، بسببها ، اللعنة على بولس «الوثني» وعلى الاتجاه العقيدي الذي طفق يقترن باسمه ويبرز على الأفهام صراحاً .

وجدير بالتشديد ، هنا ، على أننا نواجه في ما سبق وضوحاً في كلا الموقفين يصل إلى حد الإفصاح والتميز والحسم ، ومن ثم إلى الخصومة والعداء والصدام . فإذا ما أعلن بولس أن

«الذي عمل في بطرس لرسالة الختان عمل في أيضاً للأمم» ، وأنا «نحن للأمم وهم للختان»^(١) ،

فإن بطرس ، من طرفه ، يقول عن أولئك الذين يقف بولس على رأسهم ويقودهم مايلي ، متهماً إياهم بـ «الانحراف» عن طريق الشريعة :

«ال بعض من هؤلاء المنحدرين من الوثنيين ضربوا عرض الحائط بالدعوة الشريعة التي وعظت بها ، وذلك حيث تبناوا التعليم اللاشريعي واللاأساسي عن الإنسان المعادي»^(٢) .

ولقد استطاع بولس أن يصيب عمق اليهودية واليهودية المسيحية (ورأسها بطرس حينذاك) ، حين أعلن قولته الشهيرة التالية ، التي تحولت إلى واحد من عناوين المسيحية الجديدة :

«الختان هو ختان القلب بالروح لا بالحرف»^(٣) .

وانطلاقاً من هذا المبدأ العام ، أخذ بولس بصدع البقية الباقية من «اليهودي المصطفى المختار» ، الذي وضعه الشريعيون عقيداً دينياً وإتياً فوق الجميع :

«فما فضل اليهودي إذن أو ما نفع الختان . . . إذن كيف . أعلنا نحن نفضلهم . كلا فإننا قد برهنا أن اليهود واليونانيين جميعاً هم تحت الخطيئة . . . فإين المفاخرة . إنها قد ألغيت . وبأي ناموس أبنا موس الأعمال . لا بل بناموس الايمان . لأننا نحسب أن الانسان إنما يتبرر بالايمان بدون أعمال

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية ٢ / ٨-٩ .

(2) Die Pseudoklementinen, S. 2; deutsch bei Edgar Hennecke, S. 154, Neutestamentliche Apokryphen, Tuebingen 1924.

(٣) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ٢ / ٢٩ .

الناموس . أعللَّ الله إلهَ لليهود فقط ليس للأمم أيضاً . بلى هو للأمم أيضاً .
فإن الله واحد ويبرّر الختانَ بالإيمان والعلفَ بالإيمان»^(١) .

لقد كان من شأن تلك المباحكات والمواقف الدينية الخصامية أن أسهمت ، بقوة وتماسك ، في بلورة الاتجاه اليهودي المسيحي والاتجاه المسيحي اليسوعي (الوثني) ، على حد سواء . ومن هنا ، كانت الكتابات والرسائل التي انجزها بطرس وبولس - بالرغم من الشكوك التي تبرز إزاء الكثير منها كما لاحظنا ذلك فيما يتصل برسائل بولس - حاسمة في صوغ الوضعية المستجدة وتضمينها الكثير من الاحتمالات والآفاق ، التي ستفصح عنها المواقف اللاحقة لكلا الفريقين . ذلك يضعنا أمام الحصيلة التالية ، وهي أن الكتابات اليهودية المسيحية نشأت وتنامت عبر طرح رأي اليهود المسيحيين في اليهودية عبر المسيح ، وفي المسيح عبر اليهودية ، بحيث ظلت اليهودية تمثل القاسم المشترك بين العمليتين والناظم المنهجي الرئيسي لهما ؛ وهذا ما عقد الموقف الانتقالي بالنسبة إلى البولسيين ، على الأقل في مراحله الأولى .

وينبغي التنويه بأن نشوء وتمحور الفريق ذاك (اليهودي المسيحي) تماماً في إطار النشاط الذي مارسه من سُمّوا بـ «الحواريين» . أما الكتابات نفسها التي دار النزاع حولها ونقلت لنا أشكال هذا الأخير نفسه ، فهي التالية : «انجيل العبريين» (الذي يعود إلى جماعة يهودية مسيحية مصرية) ومأثورات كليمنتس Hypotyposes de Clément والفضائل الكليمنتية Recommaissances clémentines ونهاية العالم الثانية لجاك - يعقوب Seconde Apocalypse de Jacques وانجيل توما Evangile de Thomas^(٢) . بيد أن المسألة إذا أخذت في خصوصياتها ودقائقها ، فإنها ، حالئذ ، تمتد إلى أوسع من تلك الكتابات المذكورة . إذ يبدو أنه «من الواجب أن نعزو إلى هؤلاء اليهود - المسيحيين أقدم مخطوطات الأدب المسيحي التي يشير إليها الكاردينال دانيلو بالتفصيل . يقول (لسم تكن اليهودية - المسيحية سائدة فقط بالقدس وفلسطين طيلة القرن الأول للكنيسة . فقد تطورت البعثة اليهودية -

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٣/١ ، ٩ ، ٢٧-٣٠ .

(٢) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٢ .

المسيحية ، فيما يبدو ، في كل مكان قبل البعثة البولسية . وذلك هو ما يوضح الإشارة الدائمة في رسائل بولس إلى صراع ما^(١) .

وجدير بالاهتمام أن نشير ، في هذا السياق من المسألة ، إلى أن العاملين الموسومين بـ «المأثورات الكليمنتية» و «الفضائل الكليمنتية» اكتسبا طابعيهما عبر الألفية التي انطلقت من كتابات بطرس الوعظية والخصامية . فحسب شهادة Epiphanius كان لدى «الناصريين» كتاب منتشر في أوساطهم ، يقدم وصفاً لـ «الرحلات» ، التي كان بطرس قد قام بها . بيد أن هذا الكتاب لم يصلنا بصورته الأصلية ، وإنما وصلت منه أجزاء بصيغة رواية لاهوتية تُعزى إلى كليمنت . وهذه الرواية نفسها جرى توارثها ضمن صيغتين متوازيتين ومختلفتين ، نوعاً ما . هاتان الصيغتان هما «مأثورات كليمنت» و «فضائل كليمنت» . أما بطرس نفسه فيظهر ، هنا ، من حيث هو شخصية شكلية طقوسية ، ومكتفية ذاتياً . فهو يقوم ، يومياً وبانتظام ، بطقوس الاغتسال الصارمة ، بغية إزالة القذارة التي تعلق بجسمه ، كما يرفض أكل اللحم وما يتصل به ، وذلك اعتقاداً بأنه فاسدٌ ويجلب الفساد ، منذ البداءة ومن حيث الأساس . وهذا يضعنا أمام إحدى الصيغ الطقوسية التي ظهرت فيها اليهودية المسيحية في مواجهة البولسية .

أما الأثر الكتابي الآخر ، الذي يشار إليه في أوساط «الناصريين» ، فيحمل عنوان «موعظة بطرس» . وهنا أيضاً ، نلاحظ أن أجزاء من هذه الأخيرة انتهت إلى «المأثورات الكليمنتية» و «الفضائل الكليمنتية» . ويعلمنا Prosper Alfariis أن بداية «الموعظة» المذكورة وصلتنا في نصها الأصلي . أما هذه البداية فتتمثل بـ «رسالة بطرس إلى يعقوب» . ويبدو أن هذه الأخيرة تحوز - في معرض الحديث عن الصراع بين اليهودية المسيحية والمسيحية الوثنية - على أهمية خاصة . فهي تخبرنا أن بطرس أرسل إلى يعقوب كتاباً طلب منه ألا يعلنه وألا يعممه إلا في أوساط المختونين من المسيحيين .

كما يوجد ضمن هذا النص مطلب يفترض أن يلتزم بتحقيقه هؤلاء الآخرون ، وهو التقيد التام بقواعد وطقوس وشروط العضوية في التجمع اليهودي المسيحي .

(١) نفس المرجع السابق ومعانيه .

من ذلك يبرز ، على سبيل المثال ، المرور بتجربة (امتحان) تستمر ست سنوات ، يعيشها العضو سراً ، أي في جوانبته . ولكن الأمر يقتضي أن يتم ذلك بعد الاغتسال بالماء المقدس ، «ماء الحياة» . وإذا كانت الوضعية على هذا النحو ، فإننا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام التقاليد الأولى الباكورة للجماعات الدينية ذات الطابع الاجتماعي المشاعي القروي ، والتي نمت وبرزت في الأردن^(١) ، وقادت لاحقاً إلى تبلور المسيحية اليسوعية ، في صيغتها التي أُلحِت على التقشف خصوصاً .

وينبغي أن يضاف إلى ذلك أن اليهود المسيحيين (أي ، هنا ، الناصريين - الابيونيين) كان يهتمون بـ «انجيل توما» ويبرزونه ، بصورة خاصة . ففي هذا الأخير ، نواجه المواقف الرؤياوية للمسيح ، التي يُعلن أنها حدثت في السنة الرابعة عشرة . وهم (الناصرية) حين يتحدثون عن المواقف الرؤياوية ليعقوب ، فإنهم يعنون بها تلك التي أخبر يعقوب ماريانا Marianne بها (وهذه الأخيرة هي أم يعقوب المذكور والذي يقال عنه بأنه أخو الرب المسيح) . وحين يكون الأمر متعلقاً بالروح ويتكوّن منها وبمصاصاتها ، فإن الناصريين يجدون مصدرهم لذلك متمثلاً بـ «الانجيل المصري» ، أي «الانجيل العبري» . وفي هذا الإطار من المسألة ، نلاحظ أن أولئك (الناصرية) كانوا يبدون اهتماماً أيضاً بـ «انجيل متى» و «انجيل يوحنا»^(٢) . ولكن بالنسبة إلى الانجيل الأول ، يرى باحثون أنه هو نفسه الانجيل العبري ذاك . (وسوف نأتي على بعض ذلك ثانية في مكان لاحق) . ويهمننا - بعد أن أثبتنا على المرجعية الدينية للتيار اليهودي المسيحي - أن نشير إلى أن هذا الأخير لم يكن يمثل ظاهرة طارئة وثانوية في مرحلة تكوين المسيحية اليسوعية ، وإنما كان موقفاً جاداً تعين على بولس وأشباعه أن يأخذوه على محمل الجدل ويحسبوا حسابه بالاعتبارات العقيدية والتنظيمية والسياسية .

(١) انظر حول ذلك :

Prosper Alfari- Die sozialen Ursprünge des Christentums, a.a.O., S. 290- 291.

(٢) انظر : نفس المرجع السابق ومعطياته .

برز اليهود المسيحيون كقوة جديدة فاعلة عملت على تلفيق (ايجاد) تركيب «جديد» من كلتا اليهودية والمسيحية ، أطلق عليه العبارة الدالة «الشعب الثالث»^(١) . ولعلنا ندرك أحد أوجه هذا المركب الملفت ، حين نأخذ بحسابنا ما يدعى عادة «عقيدة التثني» على صعيد ذلك الاتجاه الملفق . ونحن نتناول هذه العقيدة هنا بسبب من أنها شكلت نقطة خلاف مستعصية وكبرى بين الاتجاه المنوه به من طرف وبين خصمه ، المسيحية البولسية (الوثنية) ، من طرف آخر . فلقد رأى اليهود المسيحيون والأيبونيون (وهم متداخلون ومندغمون هؤلاء على نحو ما) أن يسوع الانسان أصبح «ابن الله» بعد أن عُمد بالماء ، وبعد أن بعث وقام من الموت^(٢) ؛ في حين أن المسيحيين البولسيين ، وخصوصاً في المرحلة التي حقق فيها هؤلاء نصجاً في البنية الدينية الذهنية لدينهم وتفوقاً في البنية التنظيمية ، نظروا إلى يسوع على أنه ذلك «الابن الالهي» في القبل وفي الآن وفي البعد ، أي في «السرمدية» وفي «الأبدية» ، وليس فقط في البعد (الأبدية) . إن بنوته الالهية تبرز - والحال كذلك - بمثابتها ذات طابع كلي ومطلق ، بحيث يغدو الابن - كما سنلاحظ ذلك بمزيد من التحديد لاحقاً - هو الأب ، كما يغدو الأب هو الابن^(٣) .

فنحن نتبين في ذينك الموقفين واحداً من أوجه الصراع الديني المتصاعد والمتسع بين الفريقين المتنازعين . فلقد كان على المسيح الجديد (يسوع) أن يصل إلى الحدود الدينية (الأخلاقية) القصوى في أعين «الخطاة المبهوطين» ، لكي يتمكن - بحق - من تصفية كل خصومه ، ومن ثم ليكون في الموقع الذي يتيح له أن يحقق «الوعد الحق» في انجاز «الخلاص» . من ناحية أخرى ، كان ذلك في غاية الضرورة - بالمعنى الايديولوجي الوظيفي - ، وذلك من أجل أن يُعبأ هؤلاء بالفكرة الجديدة «الأخاذة» في صيغتها الأكثر جذرية ، أي في صيغة «ابن الاله» ، الذي

(١) انظر : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٣ .

(٢) هذه المسألة وما يتصل بها نجد معالجة لها من موقع ديني لاهوتي ، ضمن :

Franz Joseph Schlerse- Biblische Theologie- Christologie. ST. Bemo- Verlag GMBH Leipzig,

1982, S. 104.

(٣) انظر : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٠٠ .

يغدو هو نفسه ، والحال كذلك ، إلهاً أو إلهياً . إذ أن من شأن هذه الفكرة أن تربط تصور الخلاص بالقوة الكونية القصوى المهيمنة في أوساط المحتاجين إليها ، وهي الاله الرب ، بحيث يغدو (أي الخلاص) أمراً مفروغاً منه وشيك الوقوع بعد أن استفحل الأمر بحدوده الكبرى .

وقد اتضح شيئاً فشيئاً وفي تيار الأحداث السياسية والدينية والاقتصادية المتصاعدة باتجاه مزيد من التآزم ، أن اليهودية واليهودية المسيحية كلتيهما لم تكونا - في أساسهما ، أي في وجهيهما البنيوي والوظيفي - قادرتين على مواجهة الأزمة الشاملة والعميقة للمجتمع العبودي في الامبراطورية الرومانية الكبرى ، تلك الأزمة التي اخترقت كل الطبقات والفئات الاجتماعية وجعلتها جميعاً تفكر في «الآتي» .

فتصوراهما عن «الخلاص» و «المخلص» كانا أضيق من أن يحيطا بشمولية ذلك الموقف المأزوم والمتزعزع بما لا يحصى من احتمالات العنف والصراع وعلى مراحل ليست قصيرة . فاليهودية ، على تشديدها الحاد على صلة «النبي» بـ «الرب» ، على نحو ما فصلنا فيه في القسم الأول من هذا الكتاب ، ظلت تضيق على ذاك الأول ، بحيث لم يكن بوسعها أن ينجز شيئاً إلا عبر الثاني ، أي الرب ، أي بحيث ظل فعل النبي مشروطاً على نحو قطعي بـ «الاتفاق» و «العهد» معه . وهذا يعني أن حملة هذا الدين التوراتيين لم يكن بحوزتهم ما يقدمونه لـ «الآخرين» غير ما يقدمه اليهم «ربهم» ، لأنهم لم يشكلوا ، من حيث هم كذلك ، إلا أفراداً مبعثرين تأتي إرادة الرب من خارج لتجمعهم^(١) ، هذا إذا وضعنا الافتراض بأنه وجد ضمن أولئك من تطلع إلى هذه المهمة (الجليلة) . وقد وجد حقاً مثل هؤلاء الذين تمثلوا باليهود المتمسحين (المسيحيين) ، على الرغم من محدودية هذا الذي عرضوه على بني قومهم والأقوام الأخرى (الأمم) . ولكن هؤلاء (اليهود المسيحيين) لم يعودوا يهوداً تماماً ؛

١) يتحدث برونو باور في المسألة اليهودية (نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٠١) عن أن «الشعب اليهودي لم يستطع أن ينتج أي قانون دولتي وشعبي واقعي ولم يكن سوى جمع من ذرات . هذا الانعزال مؤسس في جوهر اليهودية» ودون أن نأخذ بذلك الذي أعلنه باور على علته وعواهنه ، نرى أن فكرة «الشعب المكون من ذرات» تصح هنا ايضاحاً لما قلناه فوق من أن «الرب اليهودي» هو الجامع بارادته لما هو غير مجمع ذاتياً وباعتبار التوراتي العقيدي .

لقد خرجوا عن يهوديتهم إلى التاريخ ، ولو جزئياً ، أي اتجهوا صوب الكون ، دون أن يقتحموا أعماقه .

ان تلك الفكرة الأخيرة تجعلنا نتحفظ بعض الشيء حيال ما يعلنه برونو باور من أن «فكرة الكون univers مجهولة تماماً لليهودي»^(١) . أما وجه التحفظ فيمكن في أنه مع الارهاصات الأولى للمسيحية اليسوعية أصبح من الخطأ التاريخي والعقدي أن نتحدث عن «يهود» فقط ، على عواهنهم ؛ ذلك لأن عنصراً جديداً دخل التاريخ اليهودي تمثل بـ «اليهودي المسيحي» ، أي - إذا استخدمنا تعبير الاتهام الذي وجهه بطرس إلى بولس - بـ «الشخصية المهجنة» ، التي تغادر اليهودية وتدخل المسيحية بعين واحدة . إضافة إلى ذلك ، نلاحظ أن قوله باور تكسب مصداقيتها ليس عبر اليهودي المشخص ، وإنما من خلال «رأسه المستعار» ، أي رأس الكهنوت الحاخامي - الرابيني ؛ ونقص ذلك نصوص «العهد العتيق» و «التلمود» ، بصورة عامة اجمالية وليست كلية جزئية . ضمن هذه التحفظات والابصاحات ذات الأهمية المنهجية ، يغدو الرأي الباوري التالي ذا ثقل على صعيد ما نحن في سبيل معالجته . يقول باور (وقد كنا أشرنا إلى هذا الرأي فيما سبق) : «التاريخ يريد تطوراً ، مراحل جديدة ، تقدماً ، تحولات . اليهود أرادوا دوماً أن يبقوا أنفسهم . ناضلوا إذن ضد سنة التاريخ الأولى . ولكن ألم يولدوا إذن رد فعل بعد أن حركوا أقوى نابض في الوجود»^(٢) .

حقاً ، ان اليهودية اليهودية في ركائزها الكبرى - ولا نقول اليهود عامة - ظهرت خصوصاً في مرحلة الانتقال مما قبل الميلاد الى ما بعده ، أي إبان بروز «الحمل المسيحي» ، وقد تخلقت عن المهمات الجديدة المطروحة . لقد ظلت العلاقة بين دينك القطبين غير المتكافئين (النبي والرب) مهيمنة في الساحة اليهودية العقيدية . ولذلك كان نشوء الاتجاه التلفيقي الجديد ، اليهودية المسيحية ، على الأقل تعبيراً من الداخل عن آفاق تصدع في البناء الجيتوي العقدي . ومن ثم ، لم يكن لبطرس أن يقدم أكثر مما قدم . أما محاولته اسقاط بولس فلم تكن أكثر من نزوع

(١) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٤٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٥٣ .

«الروح الجيتوية» إلى الوقوف أمام العواصف الواعدة . وهو ، في هذا ، بمثابة أولئك الذين ولدوا رد فعل ، بعد أن «حركوا أقوى نابض في الوجود» . لقد دفع الاتجاه اليهودي ، أي الذي ظل مصرّاً على أن يبقى «ويعيش نفسه» ، التطور من وراء ظهره ، حيث حفز القوى المناوئة له واستفزها ؛ فكانت حصيلة ذلك «ولادة قيصرية» ، تمثلت بـ «اليهودية المسيحية» . ولكن مطالب التطور كانت أكبر من أن تكفي بهذا الوليد «القيصري - الهجين» والذي لم يكن بمتسع أن يحل مشكلاته حتى ضمن أنصاره ؛ فوجدنا المسيحية المسيحية وقد برزت حصداً خصباً - وإنْ وهمياً في بنيتها العقيدية - تجاوز الطقوسية الموسوية (التسوراتية) والتلفيقية البطرسيّة ، ومحققاً بعداً عقيدياً وشعبياً هائل التأثير في حينه .

ان التحرش بالتاريخ بفعل ايجابي نشط على أيدي رواد المسيحية الباكّة ، كان - على وهميته - بمثابة التشكيك في ما فعله التوراتيون على صعيد التاريخ ، أي حيث لم ينجزوا أكثر من «لَبَطُ وشَبَطُ تحت مهماز التطور»^(١) . وهنا ، نجد تعبير ماركس أكثر دقة وتشخيصاً من تعبير باور عن الفعل السلمي النقيض ، الذي قام به هؤلاء (التوراتيون) : «نتعرف اذن في اليهودية (لاحظ ا لم يقل ماركس : في اليهود - ط. تيزيني) على عنصر مناهض للمجتمع عام وراهن ، عنصر دُفع ، بالتطور التاريخي الذي شارك فيه اليهود تحت هذه العلاقة السيئة مشاركةً نشيطة ، إلى ذروته في الزمن الحاضر ، إلى ارتفاع لا يستطيع فيه إلا أن يتفكك بالضرورة»^(٢) .

ان تلك الوضعية المعقدة ، حقاً ، ليس من طرف اليهودية فحسب وإنما كذلك من جانب البديل الجديد المسيحي ، أدى إلى أنه أصبح من ضرورات الموقف العقيدي الناهض أن يرفض الألوهة اليهودية المتعالية وأن ينقضها ، ولعلنا نقول أيضاً أن ينقدها بالأدوات العقيدية الوهمية ولكن الشعبية النافذة نقداً يتجه إليها من حيث الأساس ؛ مطيحاً ، بذلك ، بثنائية الانسان - الرب ، ومُحلّاً محلها وحدة الانسان

(١) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٨٧ .

(٢) كارل ماركس ؛ المسألة اليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٠٠ . وقد سبق أن أتينا على هذا الشاهد ، في سياق آخر من هذا البحث .

بالرب (الاله) ، حيث يغدو الانسان الهياً والاله انساناً . وقد تم ذلك في شخص «بنوة الابن الالهي» و«أبوة الأب الالهي» . وكنا رأينا ، فيما سبق ، ما كمن وراء هذه الألوهة من أسيقة وظيفية على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، بحيث يمكن أن نقول ، أيضاً ومن طرف آخر ، بأن تلك «الألوهة» نفسها مثلت ، بمعنى دلالي وظيفي ، واحداً من تلك الأسيقة . وإذا كان الوضع على النحو المقدم ، فإن اختراق الألوهة المذكورة (اليهودية) لصالح مخلص إلهي جديد ، لم يكن ينطوي على آفاق مستقبلية هامة ومحتملة . وكذا الأمر فيما يتصل باليهودية المسيحية ، عقيدة «الشعب الثالث» ، أي عقيدة التلقيح والبين - بينية . فقد وجدنا أن هذه الأخيرة فهمت بنوة المسيح يسوع من حيث هي أمر ينتج عن فعلين اثنين لاحقين على وجوده ، وهما التعميد والبعث . بل يمكن القول ، كذلك ، بأنها طرحت ذلك التصور عن بنوة يسوع المسيح ، ومن ثم عن ألوهيته ، بصيغة مشروطة ، بحيث يفتقد هنا طابعه المطلق والكوني . فهو إذ يبرز هكذا ، إيناً لله ، فإنه يكون - شرطياً وقطعياً - قد مر بـ «طقسين» اثنين أساسيين ، مثله - في الأول منهما وهو التعميد - مثل غيره من المؤمنين أو الطامحين للوصول إلى الايمان ؛ لا استثناء له في ذلك ؛ لم يكن المطلوب مخلصاً انسانياً ، بل مخلصاً الهياً ؛ ذلك أن الشك والتشكيك اخترقا ، في حينه ، الانسان ، كل انسان . ولعلنا نستطيع أن نرى في قصة تعميد يوحنا المعمدان ليسوع المسيح ما يقود إلى ذلك أو يشير إليه ، بنحو أو آخر ؛ هذا ، بطبيعة الحال ، إذا انطلقنا من الاعتبار بأن المعمدان ذاك ظل ، بدرجة أو بأخرى ، يعكس بعض الأصداء اليهودية .

وما يغني الموقف الذي نحو بصدد ، أن نتجه إلى واحد من الأعمال الهامة على هذا الصعيد ؛ ذلك هو «جوهر المسيحية» للودفيج فويرباخ . فجدير بالقول أن بحثاً مدققاً في تصور «البنوة» المسيحي من شأنه أن يري الأهمية المركزية التي يحوز عليها هذا التصور في المسيحية ، بصورة عامة وخاصة . والأمر يبرز هنا بثابته موقفاً خاصاً من الابن ، بحيث يمكن القول إن هذا الأخير يجعل من المسيحية ماهي عليه . ولقد كشف لودفيج فويرباخ عن أمر على غاية الأهمية والخطورة والطرافة بالنسبة إلى الدين المسيحي خصوصاً وإلى بقية الأديان ، بنحو عام ؛ ذلك هو أن «الوسيط» يمثل القيمة الأهم وجودياً (انطولوجياً) وأخلاقياً على هذا الصعيد .

يكتب الفيلسوف المذكور حول ذلك مايلي : «ان اهتمام الإنسانية المسيحية الحار بالثالوث لم يكن بصورة رئيسية إلا الاهتمام بابن الله . . . ذلك أن موضوعها الجوهرى المميز هو ، بالضبط ، الشخص الثانى ؛ وماهو الموضوع الجوهرى للدين ما ، هو أيضاً إلهه الحقيقى الجوهرى . ان الاله الحقيقى الفعلى للدين ما هو ، أولاً وعموماً ، ما يدعى بالوسيط ، لأن هذا هو فقط الموضوع المباشر للدين»^(١) .

من هنا ، كان البروز الكبير للإبن ، ليسوع المسيح ، فى البناء المسيحى العقيدى . وذلك - من طرفه - يعنى ، بصيغة أخرى ممكنة ، أن المسيحية هي ، ضمن هذا المنظور العقيدى المسيحى ، المسيح نفسه . من هذا الموقف بالذات ، نلاحظ أن تفوق المسيحية على اليهودية واليهودية المسيحية تأتى من طرحها هذا الوليد الجديد «الإبن» بمثابة الفاعل والمفعول ، المخلص والمخلص . وتصور «الحمل المذبح منذ بدءا العالم» يؤدى إلى هذا الموقع ، ويدعمه ، وينشر حوله الكثير من «العبق الخلاصى» . وفى هذا السياق نفسه ، يبرز التصور المسيحى الآخر ، الذى يتم تصور البنوة ذاك ويغطيه فى العمق ، وهو «المحبة» . أما هذه الأخيرة فتفصح عن نفسها عبر ما يتم بين الأب والإبن من محبة ، وذلك من جهة أن الإبن هو التجسيد الحقيقى لها باتجاه الأعلى (الأب) وباتجاه الأدنى (المؤمنين) . وهذا ما يسمح بالنظر إلى المسيحية على أنها خلاصة الموقف من الإبن والمحبة والتجسد ، أي - بكلمة - الموقف مما يغطي الناسوت اللاهوتى أو اللاهوت الناسوتى . وهنا ، يصح أن نقول مع هيجل ، بأن قيمة المسيحية «العليا تنشأ عن فكرة التجسد ، إتحاد الإلهى والطبيعة البشرية المتحقق فى شخص المسيح»^(٢) . ولكن تلك «المحبة» ظلت ، حتى النهاية ، مقترنة بـ «الآيمان» ، بحيث يغدو الإبن المحب والمحب مؤمناً . وهذا ينزع عن المحبة هيمنتها ووظيفتها من حيث هي عنصر يقود إلى الجميع ، جميع الناس . وفى هذه الحال ، يتحول «يسوع الإبن» إلى حبيب المؤمنين به فقط ، ليس إلا .

1) Ludwig Feuerbach: Das Wesen des Christentums- a.a.O., S.137.

٢) رينيه سيرو : هيجل والهيغلية - ترجمة نهاد رضا ، دار الأنوار ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ النشر ، ص ٥٦ .

كان ذلك ، إذن ، ماحل «البشارة السارة» الجديدة ، التي أريد لها أن تصفّي الحساب مع «المأساة العريقة» اليهودية ، تلك التصفية التي عجزت عن القيام بها المحاولة اليهودية الانشقاقية الجديدة ، أي اليهودية المسيحية . فالعجز الذي أحاط بهذه الأخيرة وبطبيعة الحال أيضاً ، بتلك (اليهودية) ، نستطيع - إذا وضعنا ذلك كله باعتبارنا - أن نراه متمثلاً بغياب «الإبن العادي والمعجز» ، في آن واحد ، من الخط الديني و السياسي لهذين الاتجاهين . ذلك لأنه عبر التأكيد على التحام العادي بالمعجز ، نكون قد رفعنا «المأساة الانسانية» إلى مستوى الاعجاز وانزلنا المعجز إلى مستوى الإنسان ، وفي هذا وذاك ، تتكشف أمام الأخير (الإنسان) احتمالات التجاوز الذاتي عبر وعي يخلق التفاؤل والشعور بالقدرة والفعل : بكلمة ، إن يسوع المسيح هو - ضمن هذه الصيغة - الإنسان المأساوي الذي امتلك وعي مأساته بعيداً عنها ، أي عبر فعل اعجازي يطمح إليه ليحقق الخلاص . وبذلك ، فالكل بالكل يتحرك متواتراً بين العادي والمعجز . ولما كان المعجز - في هذه الحال - هو الأكثر حسماً وحضوراً وحميمية ، فقد تعين على العادي أن يُطاح به ليحقق «المؤمن» سعادته فوق عاديته^(١) .

كانت الأرض خصبة كل الحصب لكي ينشأ عليها ذلك التصور المسيحي بالتعارض مع جيتوية اليهود التوراتيين وتلفيقية اليهود البطرسيين (المسيحيين) :

(١) يكتب برونوباور عن هذه العلاقة المسيحية بين المحبة والايان الملاحظات التالية : «المسيحية تعتنق وتعلن قانون الحب ولكن يجب عليها ايضاً أن تحفظ وتطبق قانون الايمان . الحب المسيحي واسع ومولع ولكن وسعه والتهابه في صالح الايمان فقط . يستهدف العالم كافة ولكن فقط لإعطائه كنز الايمان . لا يستهدف الانسان كانسان بل الانسان بوصفه مؤمناً ، وكل إنسان بوصفه يستطيع أن يصير مؤمناً أو بالأحرى واجبه أن يصير مؤمناً ويجب أن يصير إذا كان لا يريد أن تصيبه لعنة ابدية . . . المحبة المسيحية كلية كونية لأنها لا تعترف بأي فرق بين الشعوب بل وتمنح كل الشعوب كنز الايمان . اذن هيّتها ايضاً كلية . لأن المحبة المسيحية تستبعد وتمنع كل ما يناقض ويعارض الايمان» . (برونوباور : المسألة اليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٦٧ - ٦٨) . وبغض النظر عن أن باور يقابل الانسان المسيحي الإيماني بـ «إنسان انساني مجرد» ، فإنه نفذ إلى فكرة أساسية ، هي مشروطية المحبة المسيحية ، ومن ثم مشروطية التحرير المسيحي .

فأن يكون المسيح موجوداً كل الوجود في القبل الكوني وفي الآن الكوني وفي البعد الكوني ، ذلك هو الشرط لأن يكون مخلصاً فاعلاً . والألوهة تغدو - والأمر كذلك - ذات وجهين ، فهي المحمولة منه (من يسوع) ، وهو المحمول منها . ومن كليهما ينشأ يسوع بمثابته الحمل والأسد ، أي ينشأ فعل الفداء المخلص .

والحق أنه - بسبب المكانة المركزية التي يشغلها تصور «الإبن» و «البنوة» - يتعين علينا التدقيق فيه تدقيقاً يلاحقه في عملية «نشوئه» التاريخي . فلقد كنا - في مواضع سابقة - أعلننا أن تصور «المسيح» ، من حيث هو ، ليس جديداً ، أي لم يتدعه المسيحيون الأوائل . فإذا ما أقررنا بوجوده التاريخي الواقعي ، نلاحظ أنه لم يكن الأول الذي حمل اسمه ونُظر إليه على أنه ابن الهي .

ان «بنوة» المسيح الالهية وجدناها قائمة في الذهنية الاسطورية والدينية لشعوب الشرق القديم ، ومن ضمن ذلك ، مثلاً أو على نحو التحديد ، مصر . فهنا ، كذلك ، أعلن الملوك والحكام الفراعنة أنهم أبناء الإله «آمون - رع» ، الذي يُخبر عنه بأنه اتصل بأمهاتهم اتصالاً جنسياً ، بحيث أدى ذلك إلى إنجابهم هم . ولابد من الإشارة إلى أن هذا التصور اقترن ، على نحو مباشر ، بمسألة السلطة السياسية والاقتصادية والدينية ، في حينه ، بحيث ظهرت هذه الأخيرة بمثابته أمراً ذا مصدر إلهي لا يُنس ؛ إذ لما كان الملك ابن الاله ، فإنه يحكم بصفته هذه الالهية . وعلى هذا ، فالولادة «الملوكية» هي ولادة «إلهية» ، تتنافى مع عملية الاتصال الجنسي الانساني فقط في أنها ذات مصدر إلهي ؛ نعني بذلك أن عملية انجاب «الإبن الالهي» لا تختلف - بحسب الذهنية الشرقية المعنية - عن مثيلتها «الانسانية» بآلياتها التي تحكمها ، أي آلية المضاجعة بين ذكر وأنثى^(١) . وإذا

(١) كان المصريون القدماء يزعمون أن الإله الأكبر حين ينشد النسل يتخذ شكل الملك الحي و يهب المنى الذي يصبح فيما بعد (ابن رع) . لقد كانت (حشيشوت) إينة تحتمس الأول ، إلا أن قصة ميلادها الالهي ، الذي أتاح لها أن تغدو فرعوناً لمصر ، تدل دلالة واضحة على حصول الاستبدال هنا ، وعلى أن الاله الأكبر ، آمون - رع ، هو أبوها الفعلي . فقد وقع اختيار الألهة على الملكة أمها ، وأوصوا آمون بزيارتها وفرعون (زوجها : ط. تيزيني) في أوج شبابه وعزيمته . ([واتخذ آمون] شكل جلالة زوجها هذا ، الملك (تحتمس الأول) . . . ثم ذهب إليها فوراً ؛ ثم ضاجعها . . . وفعل جلالة الاله هذا ماشاء له الفعل معها . وهذه الكلمات فاه بها أمامها

ما قرّرت نقطة الالتقاء هذه بين العمليتين ، برزت نقطة الاختلاف ، بحيث يغدو «الابن الالهي» ، هنا ، روح الله أو نفسه أو نفثه . وهذا كله من شأنه أن يبقى على العادي (الانساني) في علاقة مع المعجز (الالهي) ، مما يقود إلى وحدة الجزئي بالكلي والخصوصي بالعمومي ، ويسمح - بالتالي - بالوصول إلى تصور «الخلاص والمخلص» .

وجدير بالتنويه أن مثل هذه «الولادة الالهية» لم تتمثل - ضمن المسيحية - في يسوع المسيح أولاً . لقد شاهدناها تتم ، أيضاً ، مطبقة على سميّه أو المهدله ، يوحنا المعمدان . فكلا «الرجلين» ، هذا وذاك ، ولدا من إله ، وذلك عبر علاقة روحية مباشرة به تصل إلى حدود «المضاجعة الروحية» . ومن هنا ، كان «الروح القدس» ، الذي يحمل على الأنثى وفيها ، فتحمل منه ؛ لكن ذلك يتم ، هنا ، عبر الوسيط الملائكي جبرائيل . ولاشك أن ملاحظة هذه المسألة تشكل أهمية خاصة بالنسبة إلى نشوء المسيحية ، التي تمتلك - رغم التقائها في «الولادة الالهية» مع الدهنية الاسطورية في الشرق القديم - ملامحها وخصائصها ، النسبية على كل حال .

سنلاحق المسألة المنوه بها عبر «ولادتين» اثنتين تحدثنا النصوص الانجيلية عنهما بمشابهتهما تعبيراً عن «المعجز» في «العادي» ، أي عن التقاء السماء بالأرض ، والاله بالانسان . الولادة الأولى تمثلت بـ «المبشر» يوحنا المعمدان من أم مجازية وأب مجازي ، هما أليصابات وزكريا . أما الولادة الثانية فقد انتجت يسوع من أبوين مجازيين ، هما مريم ويوسف . لنقرأ النصوص الانجيلية التالية مع «الاستثناس» بما طالعنا في قصة «آمون وحشيشبوت» الفرعونية من «المضاجعة المباشرة» التي تمت بينهما :

«كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيّا وامرأته من

= آمون ، سيد عروش المصريين (مصر العليا ومصر السفلى) : ان اسم ابنتي التي وضعتها في جسدك هو خنيمت - آمون - حشيشبوت . . . ولتنقسم بمهام الملك الفاضلة في هذا البلد بأجمعه» . جون ١ . ولسن : مصر - ضمن : هـ . وهـ . ١ . فرانكفورت وآخرون - ما قبل الفلسفة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٠ .

بنات هرون اسمها اليصابات . وكانا كلاهما بارّين أمام الله سائرين في جميع وصايا الرب وأحكامه بغير لوم . ولم يكن لهما ولدٌ لأن اليصابات كانت عاقراً وكانا كلاهما قد تقدّما في أيامهما . وبينما كان يكهّن في نوبة فرقة أمام الله . أصابته القرعة على عادة الكهنوت أن يدخل هيكل الرب ويختر . وكان كل جمهور الشعب يصلي خارجاً في وقت التبخير . فتراءى له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور . فاضطرب زكريا حين رآه ووقع عليه خوف . فقال له الملاك لا تخف يا زكريا فإن طَلَبْتُكَ قد استُجِبت وامرأتك اليصابات ستلد ابناً فتسميه يوحنا . ويكون لك فرح وابتهاج ويفرح كثيرون بمولده . لأنه يكون عظيماً أمام الرب ولا يشرب خمراً ولا مسكراً . ويمتليء من الروح القدس وهو في بطن أمه . . . فقال زكريا للملاك بِمَ أعلمُ هذا فلاني أنا شيخ وامرأتي قد تقدمت في أيامها . فأجاب الملاك وقال له أنا جبرائيل الواقف أمام الله وقد أرسلتُ لأكلمك وأبشرك بهذا . . . ولما تمت أيام خدمته مضى إلى بيته . ومن بعد تلك الأيام حبلت اليصابات امرأته . فاخترت خمسة أشهر . . . أما اليصابات فلما تم زمان وضعها ولدت ابناً . . . ثم أومأوا إلى أبيه ماذا يريد أن يُسمّى . فطلب لوطاً وكتب فيه قائلاً اسمه يوحنا . . . وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم مباركاً الله^(١) .

ذلك ما يتصل بـ «اليصابات وزكريا ويوحنا» . أما ما يتعلق بـ «مريم ويوسف ويسوع» ، فنقرأ حوله النص التالي :

«وفي الشهر السادس أرسل الملاك جبرائيل من قبل الله إلى مدينة في الجليل تسمى ناصرة . إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف من بيت داود واسم العذراء مريم . فلما دخل إليها الملاك قال السلام عليك يا ممتلئة نعمة الرب معك مباركة أنت في النساء . فلما اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن يكون هذا السلام . فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم فإنك قد نلت نعمة عند الله . وها أنت تحبلين وتلدين ابناً اسمه وتسمينه يسوع . وهذا سيكون عظيماً

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس لوقا ١/٥ - ١٥ ، ١٨ - ١٩ ، ٢٣ - ٢٤ ، ٥٧ ، ٦٢ - ٦٤ .

وابن العلي يدعى . وسيعطيه الرب الإله عرش داود أبيه فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لا أعرف رجلاً . فأجاب الملاك وقال لها ان الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظلك ولذلك فالتقديس المولود منك يدعى ابن الله . وهان الیصابات نسيته قد حبلت هي أيضاً بابن في شيخوختها^(١) . «فولدت ابنها البكر فلفته واضجعت في مذود لأنه لم يكن لها موضع في المنزل وإذا بملاك الرب قد وقف بهم ومجد الله أشرق حولهم فخافوا خوفاً عظيماً . فقال لهم الملاك لا تخافوا فها أنذا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب . إنه قد ولد لكم اليوم مخلص وهو المسيح الرب في مدينة داود . وهذه علامة لكم . انكم تجدون طفلاً ملفوفاً مضجعا في مذود»^(٢) .

في تينك الحالتين النموذجيتين والمتشابهتين ربما إلى حد التماثل ، نتبين الدور الأعظم الذي يناط به «الابن الالهي» . فالوجود - بمظهره وأحداثه كلها - يشير إليه تأييداً وتأكيداً ، وكذلك إجلالاً وتعظيماً . ولا بد أن نلاحظ أن الحمل وإن تم بسبب مضاجعة بين «الروح القدس - روح الله» و «الأم» الیصابات أو مريم ، فإنه لم يحصل بالمعنى الجنسي المباشر . وهذا مفهوم بذاته في مرحلة غدا فيها تصور «الخطيئة الأصلية» محور تحقيق الخلاص : إن مريم (أو الیصابات) وإن «شرفت» بحملها بـ «ابن الله» ، إلا أنها تبقى مهمة من كلا الطرفين الذكريين ، الأب والابن . فإذا كانت نجسداً لـ «الخطيئة» و «الجنس» ، فإنها هي نفسها تصبح بحاجة إلى الخلاص . ان يسوع هو ابنها وليس ابنها ، في آن . فهو في بنوته لها ، انسان ، وفي بنوته للرب. الاله إله . ومن هنا ، لم تكن الأم أكثر من «وعاء» حملته (الابن) فيه . إنها «مناسبة عظيمة» أن ينظر الاله المخلص (الأب الابن) إلى مريم «الأمه الحقيرة» ؛ فهذه «المناسبة» هي التي جعلت منها شيئاً ، بعد أن كانت أمة حقيرة :

«فقالت مريم تعظم نفسي الرب . وتبتهج روحي بالله مخلصي . لأنه نظر إلى

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١/ ٢٦-٣٢ ، ٣٤-٣٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ٢/ ٧ ، ٩-١٢ .

تواضع^(١) أمته . فها منذ الآن تطوبني جميع الأجيال . لأن القدير صنع بي عظامي واسمه قدوس^(٢) .

ومن هذا الموقع ، فهم النص الانجيلي الذي يتنكر فيه يسوع لأمه ، من حيث هي ، أي انسان انثى ؛ بالرغم مما يمكن أن ينشأ من اختلافات في الرأي حول مثل هذا الموقف^(٣) .

ان انجاز الحمل والولادة بـ «الابن الإلهي» ، على النحو السابق (مصرياً اسطورياً ومسيحياً انجيلياً) ، تضمن الإشارة إلى أمرين رئيسيين يصنعان أوجه رئيسية في الاسطورة الشرقية القديمة وفي المسيحية (مع التنويه بوجود حد ما من الاختلاف البنيوي والوظيفي فيما بين الاثنتين) . الأمر الأول كمن في فعل «الإعجاز الأعظم» أو «المعجزة الكبرى» ، كما يسميها اللاهوتي دانيال روبس^(٤) ، تلك المعجزة التي عليها أن تكون بمثابة الدليل الأعظم على التميز الانطولوجي (الوجودي) والأخلاقي للمخلص الابن أو المخلص الأب . أما الأمر الثاني فينهمض على الإيماء إلى وجهين اثنين متضايفين وبالغني الحساسية والطرافة في العلاقة ببعضهما ؛ أولاهما يكمن في النظر إلى الجنس على أنه «دنس» ؛ في حين أن ثانيهما يقوم على النظر إليه بصفته «مقدساً» . أما أن يكون دنساً ، فتعبيراً عن التعالي الإلهي

(١) في نسخة أخرى نقراً : حقارة (انظر : دانيال روبس - يسوع في زمانه ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٧) .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ١/٤٦ - ٤٩ .

(٣) النص الذي نعينه ، هنا ، هو التالي :

«وفيما هو يتكلم مع الجموع إذا أمه واخوته قد وقفوا خارجاً يريدون أن يكلموك . فأجاب وقال للذي قال له مَنْ أُمِّي وَمَنْ إِخْوَتِي . ثم أومأ بيده إلى تلاميذه وقال هؤلاء هم أُمِّي وإخوتي . لأن كل من يعمل مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي» . (الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٢/٤٦ - ٥٠) .

وبالطبع وكما هو ملاحظ ، النص المذكور يقود إلى أكثر مما رمينا إليه هنا ، أي يقود إلى «الانسان الروحي المقدس» . ولكن في وضعية هذا الأخير تبرز عملية احتقار «الجنسي المحسوس» ، الذي يبقى - في كل الأحوال وكما أشرنا من قبل - وجهاً متضايفاً مع «اللاجنس» .

(٤) دانيال روبس : يسوع في زمانه - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٦ .

حيال الانسان (الأنثى) ؛ لكنه بمثابة مقدساً ، يُبرز المحايثة والتضاييف فيما بين الإله المذكر والانسان المذكر . ونستطيع أن نستبدل الأنثى بـ «الأم» ، لتصبح هذه الأخيرة بطناً يحمل ، كما هو الحال بالنسبة إلى الهيولى الجسدية الفيلونية التي تحمل الروح ؛ وأن نستبدل المذكر بـ «الابن» ، ليصبح هذا الأخير القداسة عبر الدناسة .

ان ذلك يدعونا للقول بأن «المقدس» - في هذه الحال - لا ينفي «الدنس» ، بقدر ما يتممه ويستوجب حضوره ، ضمن علاقة تضاييفية وظيفية تُنتج لنا «الخلاص» . ان «الدنس» هو - تعريفاً - ما هو عليه بصفته مفرداً ، عيناً ؛ ولكنه يتحول إلى «مقدس» ، حيث يغدو جمعاً مجرداً . وإذا كان «الخلاص» مرتهاً بكيان كوني ليس هو العيان فقط وليس هو المجرد فقط ، فقد نشأت ضرورة التوحيد بينهما بهدف تنفيذ فعلين اثنين كبيرين ، امتلاك القدرة الكلية الجامعة على تحقيق ذلك الخلاص ، وخلق جسر وطيد بين هذه القدرة الكلية المجردة المخلصة وبين المخلص المفرد العيني . وهنا ، ثانية ، توحيد اللاهوت بالناسوت لصالح الناسوت الذي يصبح إلهياً ، أي قادراً على انجاز ذلك الخلاص .

والآن ، إذا قررنا أن التصور الجديد عن المسيح (يسوع) يعود بجذوره إلى الذهنية الشرقية الاسطورية ، بحيث يمثل امتداداً جدلياً لها ، فإنه كان عليه (أي التصور المذكور) أن يكتسب شخصية نوعية إلى هذه الدرجة أو تلك ، لكي يتحول إلى مركز الدين الجديد ، المسيحية . ونحن نرى أن ذلك أصبح ممكناً حالما تحولت عقيدة التثليث إلى المعلم الأساسي في بنيان الدين المذكور أولاً ، وبعد أن استُبدل الفداء العيني بفداء الكفاية ثانياً ، بما في ذلك القطيعة مع الطقوسية الخارجية . نقول ذلك بالرغم من أننا نواجه في الشرق القديم - مصر ومابين النهرين الخ . . . - أشكالاً أولية من عقيدة التثليث تلك . ولكن الهام في اللحظة الجديدة (المسيحية) كمن في أن العقيدة المذكورة عملت - بجدية وقوة - على صوغ العلاقة بين الرب الإله من طرف والانسان من طرف آخر ضمن مستوى من التفقيه (ولا نقول التنظير) استطاع أن يقف ندأً جدياً لـ «تعالى» يهوه اليهودي و«مفارقته» . ففي هذه الحالة نواجه لحظتين اثنتين على غاية الأهمية بالنسبة إلى ادراك الدلالة المحورية للمسيحية البولسسية (التثليثية) . اللحظة الأولى تكمن في إعادة النظر بـ «تصور

الوسيط بين الاله والانسان . أما اللحظة الثانية فتبينها في القيمة السياسية الايديولوجية المباشرة التي انطوى عليها موقف «الانسان الالهي» ، أي الموقف الذي جعل من الانسان - بشخص يسوع في جانبه الإنساني - محور العملية المسماة (الخلاصية) .

على صعيد المسألة الأولى يواجهنا مستويان أو درجتان لـ «الوسيط» لابد من أخذهما بعين الاعتبار العميق في حال العمل على تفصي هذه المسألة الكبيرة الأهمية بالنسبة إلى بحثنا . فنحن نلاحظ ، هنا ، «الروح القدس» بمثابة الحلقة الموصلة من يسوع إلى الرب الاله . ومن ثم ، فهو - مسيحياً - ذاتٌ تتمتع بوجود رباني وبماهية ربانية . وهذا ما يجعل منه (الروح القدس) وجوداً ربانياً بالدرجة الأولى ، وليس «إشراقاً قلبياً»^(١) . بيد أن وساطة هذه الحلقة ما تفتأ أن تنقلب إلى وجه من أوجه النسيجين المتقابلين ، المسيح والرب ، وذلك حيث يبرز هذا التقابل بصفته نسبياً أشد النسبية . إذ هاهنا ، أي في حال قيادتنا لهذه النسبية إلى حدودها القصوى ، ينقشع التقابل المذكور إلى الحد الذي يصب فيه في وحدة متجانسة بين طرفيه ، يسوع والرب . فيغدو الأقصيان ، بمعنى الانساني والالهي ، أدنيين . وهذا ما يجعلنا ننظر إلى تصور «الوسيط» المسيحي البولسي على أنه - بأحد توجهاته الأساسية - قاسم مشترك بين ذينك الطرفين ، وذلك بقدر ما يمثل هذا الأخيران ، بالذات وبدورهما ، قاسماً مشتركاً مع هذا الوسيط ، أي «الروح القدس» .

ويمكننا أن نعبر عن تلك الوضعية بصيغة أخرى اذ نقول ، ان الأدوار التي تمارسها تلك الأطراف الثلاثة ذات طابع انتقالي تبادلي . وهي ، من ثم ، تنطوي على بعد رئيسي يحترقها ويوحد بينها ؛ ذلك هو بعد «التضاييف» . إن تلك الطبيعة (الطابع) المكونة لأطراف الثالوث ، الأب والابن والروح القدس ، وإن ظهرت عبر ثلاث أقنية هي هذه المذكورة تَوّاً ، إلا أنها تمثل - بوجه أساسي آخر لها - بنية

(١) نورد هذا الشاهد إشارة إلى ما كتبه ميخائيل نعيمة عن «الروح القدس» من أنه «انفتاح» ، أو إشراق في القلب» ، وإلى النقد الذي وجهه الأب جورج فانخوري إلى هذا الرأي . فالأب المذكور يعلن أن الروح القدس «هو في الذات الإلهية الواحدة واحد فيها مع الأب والابن» . (مجلة : المسرة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢١١) .

واحدة موحدة . فالواحد يتجلى كثيراً (أي عبر تلك الأطراف الثلاثة) ؛ كما أن الكثير يستمد وجوده ودلالته من كونه واحداً . ان الوحدة ، هنا ، لا تتنافى مع التعدد ؛ كما أن هذا لا يتنافى مع تلك ، بحيث نلاحظ أنها كليهما يمثلان وجهين لوضعية واحدة .

ولكننا ، في هذا المعقد من المسألة ، نواجه احتمالاً آخر قوياً لفهم هذه الأخيرة من موقع «الابن» ، أي «الشخص الثاني» في معادلة الثالوث . هذا الاحتمال يقدمه لودفيج فويرباخ . ان الفيلسوف المذكور يخترق المسألة من موقعين اثنين ، الأول باتجاه «الشخص الثالث» ، أي «الأب» ، في حين أن الموقع الثاني يتصل بـ «الشخص الثاني» ، أي «الابن» . وهو إذ يفعل ذلك ، فإنما يكون قد اطلع بـ «الشخص الأول» . لصالح الثاني .

يعلن فويرباخ ، بمقتضى ذلك ، أن «الروح القدس» - ويعبر عنه هنا بالشخص الثالث - ليس أكثر «من حب الشخصين الالهيين الاثنين لبعضهما بعضاً ، ووحدة الابن والأب ، أي هو مفهوم الجماعة» . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن «الشخص الثاني يغدو الاستجابة الذاتية للقلب الانساني كمبدأ للشائية ، للحياة الجماعية» . ومن ثم ، فإنه يتخلل ، في الشخص الثاني ، عن التحديد الجوهري للألوهة ، تحديد الكائن من حيث ذاته⁽¹⁾ . ان هذا الذي يطرحه فويرباخ يمكن أن نرده إلى موقع رئيسي واحد ، هو أن يسوع (الشخص الثاني) يمثل من الثالوث مركزه ومبتداه ومنتهاه ، أو هو أن «الانسان» يكمن وراء العملية كلها .

ان لودفيج فويرباخ ، في ذلك الموقف ، يلج على منطلقه الفلسفي المتمثل بـ «المادية الانتروبولوجية» ، ولكن لطبيح بجدليته ، أي بجدلية الثالوث . ان فعله تركّز في انتزاع الغطاء الديني اللاهوتي عن هذا الأخير ؛ وفي هذا استطاع أن يكشف الانساني في اللاهوتي ، وأن يقود إلى النتيجة الكبيرة ، وهي أن الانسان صانع الدين ، بما هو دين . إن يسوع المسيح إذ يكون مركز الأحداث ومبتدأها ومنتهاها ، فإنه يؤدي إلى النظر إليه - في نهاية المطاف - على أنه هو الإله ذاته ، الذي بقدرته أن ينجز فعل الخلاص . ولولا ذلك لما نيطت به هذه المهمة . وهذا ،

1) Ludwig Feuerbach: Das Wesen des Christentums- a. a. O., S. 129.

بدوره ، يحيلنا إلى ما كنا أتينا عليه من أن المعجز كان ضرورياً أن يبرز في سياق العادي ، لأنه - بهذه الطريقة - يكون تجاوز الخطيئة الكلية عبر استجوانها (من الجواني) في ذاته ، ومن خلال تقديم نفسه فداء وكفارة

وثمة ملاحظة تتصل بوحدة دينك الأقصيين (المعجز والعادي) ؛ تلك هي أن تحقيق الاهي في الانساني والانساني في الاهي هو بمثابة تحقيق السَّما في الدُّنى والأعلى بالأدنى ، بحيث تذوب الفروق بين الفريقين ذوباناً يتم لصالح السَّما والأعلى ، أي لصالح ما اعتبره برونوباور تجريد الشخص وإشغائه بإعادة النظر فيه من موقع المجرد وحده . وهنا ، لم يعد يصح القول : أبونا في السماوات العلى ، رغم أنه يقال في نصوص الأناجيل . ان ما يغدو مقولاً هو : أبونا ، يسوعنا في السماوات والأرضين . وهذا ما يجعلنا نقبل بتعليق مدرسة الكتاب المقدس بالقدس عام ١٩٧٢ على طبعة الأناجيل الأربعة (المتوافقة) المؤتلفة ، هاهنا ، نقرأ مايلي : «الواقع أنه لم يحدث صعود بالمعنى الفيزيقي نفسه ، فليس الله بأعلى أكثر مما هو بأسفل»^(١) . وموريس بوكاي ، الذي يورد هذا النص على نفس الصفحة ، يعترض عليه معتبراً إياه شديد الغرابة . ولكن مثل هذا الاعتراض لا معنى له ، حين ينظر إلى المسألة من موقع وحدة المعجز بالعادي (الاهي بالانساني) ، بحيث يغدو الاهي شاملاً كلياً يقود إلى ما تعرفنا عليه في إطار الحديث عن اللوغوس الرواقي الفيلوني .

وجدير بالقول أن تلك الوضعية (وحدة الواحد بالكثير والكثير بالواحد) كنا واجهناها في مجمل الذهنية الشرقية القديمة بكثير أو قليل من الخصوصية ، تلك الذهنية التي تقوم ، من حيث الأساس العام ، بنسيج اسطوري . ولعلنا نكتشف ، هنا بالذات ، أحد المصادر الكبرى غير المعلنة وغير المباشرة لانتشار المسيحية السوعية في أوساط «الأمم الوثنية» . بل نستطيع القول ان المسيحية المعنية ما كان لها أن تُحرَّض على النشوء وأن تستمر قوية نافذة لولا تلك الأوساط التي تبتتها ودعمتها وحمتها . فهذه الأخيرة ، التي ظهرت كما لو أنها كانت تأخذ بـ «التعدد

(١) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٤ .

الوثني ، لم تكن - في حقيقة أمرها البعيد - كذلك ، «وثنية» . لقد قبع وراء هذا التعدد حال من وحدة التصور الالهي الاسطوري ، الذي كنا واجهناه ممثلاً فيما لا يحصى من الآلهة الكبرى والوسطى والصغرى . وهذا الأمر لاحظناه ، في حينه ، ضمن صيغة من التحول في شخوص الآلهة ، ومن التناوب في الأدوار والوظائف والآفاق ، بحيث تظل اللوحة قائمة على أساس من التعدد الواحدى^(١) .

ولعلنا ، والحال كذلك ، ندرك الدلالة البعيدة لصيغة التحول تلك على صعيد الموقف التليثي الجديد (المسيحي) . فإذا كنا ، فيما قبل ، قد واجهنا الأب والابنة والزوجة يتبادلون الأدوار والوظائف فيما بينهم ، فأننا ، هنا ، نجد أنفسنا أمام وضعية تمثل امتداداً لذلك ، وإن كانت بصيغة جديدة وبآفاق جديدة ، أي وإن بموقف بنيوي ووظيفي جديد نسبياً . ونرى أنه من المقبول أن نرى هذه الصيغة بمثابة أحد أشكال التعبير عن هيمنة «الرجولة» ، ومن ورائها هيمنة العلاقات العبودية في روما ، أي في المحيط الذي تحولت المسيحية فيه إلى دين عالمي ؛ في حين أن الصيغة القديمة المتمثلة بعملية التحول المشار إليها نهضت على هيمنة جزئية متأرجحة ونسبية لعصر الأمومة ، ومن ورائه حضور العلاقات المشاعية القروية .

ونحن إذ نبحث - في هذا الحقل - في الدلالات والمؤشرات المعبرة والخاصة التي انطوت عليها عملية انتشار المسيحية البولسية ضمن أوساط واسعة من «الأمم الوثنية» ، لا يصح أن نقصر رؤيتنا لها (أي الدلالات والمؤشرات) في المواقف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية الدينية للطبقات والفئات والانساب الاجتماعية الأخرى للمجتمع الفلسطيني والمجتمع الامبراطوري الروماني ، بصورة عامة . فلقد كانت هنالك ، اضافة إلى ذلك ، الجسور التاريخية المراثية وغير المراثية التي ربطت بين الدين الجديد من طرف ، وبين الايديولوجيا الاسطورية لتلك «الأمم» من طرف آخر .

فاليهودية اليهودية ، التي عاشت - في معظم مواقفها الدينية - على إدانة تلك

(١) انظر حول «الثالوث» ، مثلاً ، في الفكر المصري الاسطوري القديم : صموئيل نوح كزيمر - أساطير العالم القديم ، ترجمة احمد عبد الحميد يوسف ، مراجعة عبد المنعم أبو بكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

الايدولوجيا وعلى رفضها بعنف وتعنت باسم ضرورات التماسك الذاتي الأقصى لـ «الشعب المصطفى المختار» وبدعوى اتقاء هجانة وفساد «الغوييم» ، كان عليها أن تلقى حتفها مع نشوء ذلك التحالف الجديد ، المدعم تاريخياً وعقيدياً قداسياً ، بين المسيحية المعنية و«الأمم الوثنية» .

ومن البين أننا لا نستطيع ادراك الدلالة النوعية التي انطوى عليها ذلك التحالف إذا أخذنا رأيي باور وماركس اللذين أتينا عليهما في موضع سابق ، على نحو مبسط وبعيد واحد . فأن تكون المسيحية هي اليهودية الناجزة ، لا يقود إلى التطويع بالخصوصية النوعية النسبية ، التي تضمنتها المسيحية الجديدة إزاء اليهودية . فلقد كان من شأن التحالف المنوه به أن أبرز إلى الوجود المباشر والفاعل قوى اجتماعية طبقية كان بعضها ذا حضور جزئي على الصعيد الذاتي والسياسي والايدولوجي (الفلاحين في فلسطين خصوصاً) ، وكان بعضها الآخر غائب الحضور في المجال المعني هنا (العبيد في معظم أقاليم الامبراطورية الرومانية) . وفي هذا السياق ، يبقى ملاحظاً أن العنصر البارز في هذه العملية يكمن في تحول تلك القوى إلى مواقع الأخذ بمبادرات جديدة للقيام بفعل اجتماعي واقتصادي وسياسي وايدولوجي تركزت جميعها أو معظمها في التصدي للعالم القديم ، بقواه الطبقية العليا وبتصوراته الايدولوجية المستنفدة والمتحولة إلى عبء على التقدم التاريخي .

ان ما بدا أنه تناقض بين ايدولوجيا «الأمم الوثنية» ، التي مثلت في نظر اليهودية التوراتية علقاً محترقاً ، من طرف ، وبين ايدولوجيا الدين الجديد ، المسيحية البولسية ، من طرف آخر ؛ انقشع شيئاً فشيئاً لصالح تعاظم وتعمق ذلك التحالف وبروز أبعاده واتجاهاته السياسية والاجتماعية ، على وجه الخصوص . وهنا ، نواجه اللحظة الثانية الكامنة في الدلالة المحورية للمسيحية المذكورة ، وهي تلك التي تجسدت في القيمة السياسية الايدولوجية المباشرة التي انطوى عليها موقف الانسان الالهي . فلقد انقشع ذلك التناقض تحت تأثيرين اثنين كبيرين . الأول منهما كمن في التحالف التاريخي المشار إليه بين القوى الاجتماعية المضطهدة في أوساط اليهود من طرف ، وبين مثلتها ضمن «الأمم» الأخرى ، أي «الوثنية» ، من طرف آخر . وكانت الكوامن الأساسية لهذا التحالف مسائل اجتماعية واقتصادية ، وسياسية إلى حد ما ، هدفت إلى مجابهة الأخرى المناهضة لها . وهذا

الأمم هام جداً على الصعيد المنهجي التاريخي ، وكذلك على صعيد المسألة الاندماجية . فمن الناحية الأولى ، نلاحظ أن التحالف المنوه به يقدم لنا تفسيراً مقبولاً لشوء «اليهودية المسيحية» . فهذه الأخيرة هي التعبير عن وضعية أولئك اليهود ، الذين أخذوا يشعرون بالتململ ، ويدعون إلى أحداث تغيير في الوضعية القائمة من موقع التصور الخلاصي المهيمن ، على كل حال ، آنذاك . ولا يسعنا أن ندرك آلية تلك الوضعية بعيداً عن الضغط الملحوظ ، الذي كان يأتي من طرف الشعوب الخاضعة بقسوة ، آنذاك ، للمركز الروماني .

وإذا كان التحالف الاجتماعي الطبقي غير المعلن بين تلك القوى اليهودية و«الأممية» قد قاد - على صعيد الواقع الميداني المشخص الذي نفتقر إلى معرفة الكثير من جوانبه المباشرة - إلى ما هو أوسع وأعمق من تلك الحصيلة التلقيفية (اليهودية المسيحية) ، فإنه ، في نفس الوقت وبشكل أو بآخر ، كمن أيضاً وراء هذه الأخيرة . أما على المسألة الاندماجية ، فنلاحظ أن اليهود ، المخيبي الآمال أبداً من «علية» قومهم المختارين ، وجدوا في الوضع الجديد فرصة سانحة لدخول عوالم «الآخرين» . لقد وجدوا ذلك على نحو يتيح لهم تحقيق حد من الاندماج الاجتماعي والاقتصادي والديني ، مما يسهم في تحقيق بعض مطامعهم في التحرر من قبضة «العلية» المذكورة . وفعلاً ، انتقلت جموع من أولئك اليهود ، أخيراً ، إلى الخط التاريخي البشري ، لتندمج به ، وتغدو وجهاً من أوجهه العامة .

ذلك ما يتصل بالتأثير الأول ، الذي اسهم في انقشاع التناقض بين ايدولوجيا «الأمم الوثنية» وايدولوجيا المسيحية البولسية . وإذا كان هذا التأثير قد استمد شروطه ، أيضاً ، من عوامل غير «أممية» ، أي «يهودية» ، فإن التأثير الثاني تبلور وأصبح عن نفسه في سياق ظهور أن الايدولوجيتين ، المسيحية الجديدة (التشليئية) و«الوثنية الأممية» ، ليستا متعارضتين ، على الأقل ليس بصورة كلية . فكلتاها تنطلق ، وإن من مستويين ذهنيين مختلفين عمقاً وشمولاً ، من وحدة تعددية أو تعددية واحدة (نشير هنا إلى أن واحدة الاسطورة الشرقية ، المعنية في هذا الاطار ، أقل تماسكاً من مثيلتها المسيحية البولسية ، إضافة إلى أنها ، كذلك ، أكثر ظهوراً باتجاه التعددية وأكثر ميلاً نحوها) .

من ذينك الموقعين أو اللحظتين ، تتضح السمات الديمقراطية الأولية الفاعلة في الدين الجديد ، وذلك بالقياس إلى ما كان عليه الأرستوقراطي والتزمت الطقوسي الحاد ، التي تطبع اليهودية اليهودية بسمها تضيماً وإفصاحاً . وهذا ، وغيره ، ما جعل ذلك الدين يظهر في أعين الثلاثة والعبيد ، خصوصاً ، بمظهر المحرر لهم من ربقة الاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والإنسي والعقدي . وجدير بالتنويه ذلك الموقف الذي يعمل أصحابه على أن يُرونا في الدين المعني ما يشكل نقيضاً لتلك السمات الديمقراطية ، بالمعنى وبالحدود التي أتينا عليها . نعني بذلك ما يقدمه بعض اللاهوتيين المسيحيين من تمييز نخبوي بين «انجيل يوحنا» من طرف ، وبين الاناجيل الثلاثة الأخرى (القانونية) من طرف آخر . فانجيل يوحنا ، بحسب ذلك وعلى رأي الأب يوسف درة الحداد ، «ينقل ... مراراً تركيز يسوع على عمل الروح القدس ... وهذه اشارة واضحة إلى أن يوحنا فهم أعمال يسوع وأقواله التي يوردها ، وكما يوردها على نور الروح القدس . فالانجيل بحسب يوحنا هو انجيل المسيح ، وانجيل الروح القدس أيضاً» . وذلك ينطوي على القول بأن انجيل يوحنا يقوم على «التصريح بالهية» المسيح ، هذا التصريح الذي «يقتضي كشفاً مباشراً»^(١) .

وإذا كان الأمر بالنسبة إلى انجيل يوحنا على ذلك النحو ، فإنه لابد وأن يعني أنه يخاطب خاصة المسيح ويتوجه إليهم ، أي «الخاصة من صحابته ، الثلاثة المقربين : بطرس ويعقوب ويوحنا أخيه ، ابني زبدي» ؛ بحيث يصح القول التالي والأخذ به - من الموقع النخبوي المقدم هنا - على صعيد التمييز بين الاناجيل القانونية ، وهو أن «انجيل يوحنا» هو انجيل الخاصة . وحيث يكون الموقف على هذا النحو ، فهل يغدو من الوارد أن نفهمه وكأنه يشير إلى أننا - أيضاً على صعيد المسيحية اليسوعية - نواجه عناصر من النزعة النخبوية ، وإن بمستوى آخر مختلف بنيوياً ووظيفياً عن الموقف النخبوي الأرستوقراطي الذي واجهناه لدى اليهودية المسيحية ، كما نتبينها ونعلم بها في انجيل متى ؟ لاشك أن ذلك التميز للخاصة كان يفترض وجود حالة مقابلة من «شعبية العامة» ، التي وجدت التعبير عنها في

(١) الأب يوسف درة الحداد : أساليب السيد في تعليمه - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

الإنجيل المؤلف الثلاثة ، متى ومرقس ولوقا . فهذه تقوم على «التصريح الخاص بمسيحية» المسيح ، الذي «لا يحتاج لإثبات إلا بالتصريح به وبالمعجزة التي تؤيده»^(١) .

ان هذا الأمر (نخبوية المسيحية بمعنى ما) يقتضي منا التمييز - ثانية - بين المسيح العقيدى الانجيلي والمسيحية العقيدية الانجيلية من طرف ، وبين المسيح والمسيحية كحركة اجتماعية طامحة إلى إنهاء «عالم الأحران» وخلق «عالم المحبة» من طرف آخر . ذلك لأن هذا التمييز يجعلنا قادرين على تقرير الوضعية التالية : ان حديثاً عن «نخبوية» ما وبدرجة ما في «المسيحية» يغدو حديثاً عن المسيحية العقيدية الانجيلية تلك . وفيما عدى هذا ، أي فيما يتصل بمسيحية الحركة الاجتماعية الأولى ، فإنه لا يصح مثل ذلك الحديث ؛ بل ، هنا ، نلاحظ أن ما أطلقنا عليه «شعبية العامة» هو الذي يحدد شخصيتها ويكمن وراءها ؛ كما كان هو نفسه الذي وضع الأهداف الخلاصية لها ، تلك الأهداف التي - على أهميتها وإيهايتها - التفت حولها جماهير الفقراء والمفقرين والعبيد في المدن والأرياف .

ويورد الأب الحداد أمثلة على ما يدعو «التعليم الخاص للرسول والصحابة» مقابل التعليم الشعبي العام . فنلاحظ أن نصاً لدى متى يتحدث بوضوح وافصاح عن ذلك التمييز ، الذي - بحسب ذلك - كان يسوع المسيح هو نفسه قد ألح عليه . يقول الانجيلي متى :

«في ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس إلى جانب البحر . فاجتمع إليه جموع كثيرة . . . فكلّمهم بأمثال . . . فدنا إليه تلاميذه وقالوا له لم تكلمهم بأمثال . فأجاب وقال لهم أنتم قد أعطيتهم معرفة أسرار ملكوت السماوات وأما أولئك فلم يُعطوا . لأن من له يُعطى ويُزاد ومن ليس له فالذي له يؤخذ منه . فلهذا أكلّمهم بأمثال لأنهم يبصرون ولا يبصرون ويسمعون ولا يسمعون ولا يفهمون . . . لأنه قد غلّظ قلب هذا الشعب وثقلت آذانهم عن السماع وأغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ولا يسمعوا بآذانهم ولا يفهموا . يقلوبهم ويرجعوا إلى فاشفيهم . أما أنتم فطوبى لعيونكم لأنها تنظر ولاذانكم

(١) نفس المرجع السابق ومعطيته - ص ٢٠٨ .

لأنها تسمع»^(١) .

إن مثل هذا الموقف لا يمكن الأخذ به إلا من مواقع الأنظمة المسيحية اللاهوتية ، التي تكونت في أعقاب الحركة المسيحية الباكورة وحصدت ثمارها ، بعد أن أعادت بناءها من الداخل ، أي في ضوء «مسيح انجيلي كنسي» يخلف وراءه «مسيح الآخرين» من «المتعيين الثقليين» . وهذا يشير إلى أنه يصح الحديث ، حقاً ، عن اتجاه نخبوي في نطاق المسيحية اللاحقة «الناضجة» ليس على صعيد «النص» فقط ، وإنما كذلك في حقل الممارسة الاجتماعية المباشرة ، بل بصورة خاصة في هذا الحقل الأخير .

نود أن نخلص من ذلك إلى فكرة نراها مركزية فيما نحن بصدد البحث فيه ؛ تلك هي أن المسيحية - في صيغتها المؤسسية الناضجة - أخفقت في تجاوز اليهودية باعتبارين اثنين . الاعتبار الأول من هذين الأخيرين تمثل في استبعادها كل الشعوب والأمم من وضعيتها المشخصة ورفعتها إلى عالم التجريد ، حيث يُعلن عن أن مشكلتها المشخصة لا تحل من موقعها وإنما من موقع ما يوازئها تجريداً وتعالياً . أما الاعتبار الثاني فقد برز من خلال ذلك الموقف النخبوي المباشر الذي ألحت عليه تلك المسيحية ضمن العالم المجرد ، أي العالم الذي رفعت إليه الوضعية المشخصة المنوه بها وأفقدت فيه وعبره ذاتها المحددة . ومن هنا ، لا يصح القول - على الأقل من باب إبراز الموقف عبر تضخيمه - بأن المسيحية لم تلغ معادلة «الأمة المختارة المصطفاة - والغوييم» ، بقدر ما احتفظت بها بعد إعادة بنائها بحيث تستجيب لمقتضيات المواقف المستجدة ؟

وعلى كل حال ، إذا صح ذلك القول ، فلنأخذ بدءاً من المراحل اللاحقة التي انطلقت منها المسيحية المؤسسية الناضجة ، وليس قبل ذلك .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٣/١-٣ ، ١٠-١٣ ، ١٥-١٦ .

إشكالية الأناجيل «القانونية» وعلاقتها باليهودية : انتقال من «أهمية» تحريضية تبشيرية إلى «أهمية» دولية تكريسية

نستطيع أن نعلن - بحسب الدراسات التي خلص اليها بعض الباحثين^(١) - أن النصوص المسيحية المدعوة بـ «القانونية» ، كانت قد اكتسبت صيغتها الرئيسية المتبلورة والناضجة مع الانتصار النهائي والحاسم للمسيحية البولسية . فلقد استبعد أنصار هذه النصوص كل نظائرها الانجيلية الأخرى ، التي رأوا فيها - في هذه الحال - مواقف متعارضة كثيراً أو قليلاً مع تلك . وكانت عملية الاستبعاد هذه قد تمت بأشكال مختلفة ومتعددة من العنف والصدامية . أما الذي قاد هذه الأخيرة ونظمها وأدجّلها فقد كان بولس نفسه ومن ساعده في ذلك من أنصاره الذين كانوا يتكاثرون ، بدرجة أو بأخرى ، حسب الشروط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية . وكانت حصيلة ذلك الكبرى قد تمثلت بنشوء تيار ذي حضور قوي لملاحقة تلك النصوص وإرغامها على الاختفاء تحت الأرض ، بعد أن كان بولس وأنصاره قد مرّوا بقسوة هذا الموقف . وتتوج الأمر بالنتيجة الأيديولوجية الدينية الحاسمة ، وهي أن النصوص المعنية أٌكسبت في أنظار الجمهور والأغلبين من المسيحيين صفة «المحظورة» ؛ ومن ثم ، غدا كل من يتحدث باسمها خارج الشرعية الدينية ، ويجري التصرف معه بمشابهة «خارجياً» . وهكذا انشق الموقف إلى

(١) مثل : موريس بوكاي في - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٣ - ٧٤ .

«شرعيين» و«خوارج» ، وانطلق خط جديد في التطور الديني^(١) .

ولعله من نافل القول أن المسيحية البولسية هذه إذ انتقلت إلى مرحلة الظفر على خصومها ، فإنها كانت - بذلك - قد لجأت إلى ما لجأت إليه اليهودية في حينه : لقد أعلنت بطلان ماعداها وكفرته ولاحقته . وقد ترتب على ذلك أن «النصوص المخفية» أو «النصوص المحظورة» أرغمت على التحول إلى وضعية النشاط المدمر «من الداخل ومن تحت» ، محتفظة لنفسها - على هذا الطريق - بقوة «باطنية» أصبحت شيئاً فشيئاً لا يستهان بها . ولعل «باطنيته» هذه هي التي أتاحت لها - يداً بيد مع عوامل أخرى - أن تغدو في مثل تلك القوة . وهذا ما حدا بالمؤسسات تلو المؤسسات وبالتجمعات تلو التجمعات ، على الصعيد الكنسي ، إلى إعلان زندقة تلك النصوص على رؤوس الأشهاد وإلى اتخاذ قرارات بتحريمها بعد إذ خرجت عن «الصراط المستقيم» وعليه^(٢) . نلاحظ ذلك في أحد أشكاله المعاصرة والأكثر وضوحاً في الوثيقة التاريخية الشهيرة التي صدرت عن أعمال المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني فيما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٥ . فقد جاء في هذه الوثيقة ما يلي : «لا يغفل على أي إنسان أن من بين الكتب المقدسة ، بل حتى كتب العهد الجديد كان هناك ما يتمتع عن حق بالامتياز مثل الأناجيل باعتبار أنها تكون شهادة حقيقية عن حياة ودرس الكلمة المجسدة ، أي منقذنا . فدائماً وفي كل مكان حفظت الكنيسة ومازالت الأصل الرسولي للأناجيل الأربعة . والواقع أن ذلك هو الذي دعا إليه الرسل بأمر المسيح . فقد نقلوا إلينا أنفسهم والناس الذين كانوا يحيطون بهم وبتأثير من الوحي الإلهي للروح ، كتابات هي أساس الإيمان ونعني الانجيل المربع حسب متى ومرقس ولوقا ويوحنا .

إن كنيسة الأم المقدسة قالت وتقول بحزم وثبات دائمين إن هذه الأناجيل الأربعة ؛ التي تؤكد تاريخيتها دون أي تردد ، تنقل بشكل أمين فعلاً أقوال وأفعال

(١) في ندوة تلمزيونية (حول وحدة الكنائس - مجلة «المسرة» ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٩٩) . يتحدث أنيس فريجه عن «فاتيكان» و«خوارج» ، معلناً عن أن الفاتيكان يتوق إلى «أن يعود الخوارج» .

(٢) انظر المرجع التالي الذي يقدم تعريفاً لهذه النصوص .

Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O.,S.236.

نسيح طينة حياته بين البشر لخلاصهم الأبدي وإلى أن رفع إلى السماء . . . ان الكتاب الدينيين إذ يؤلفون الأناجيل الأربعة بشكل يسمح باعطائنا دائماً عن المسيح أموراً حقيقية ومخلصة»^(١) .

ان ذلك الحسم القطعي ، الذي أعلنه المجمع المذكور ، لم يكن له أن يحوز على فاعليته التنفيذية أو على جزء كبير منها إلا عبر سلسلة متتابعة ومتعاضدة من الملاحظات والاضطهادات الدامية ، التي خضع لها ذوو الرأي الآخر . نضيف إلى ذلك أن الحسم القطعي المشار إليه ، بالرغم من صفته العالمية التي انتزعها لنفسه ، فإنه لم يكن في قدرته الحصول على إجماع المؤمنين والباحثين على صعيد الدين المسيحي نفسه . فلقد كانت ، وما تزال حتى الآن ، مواقف أخرى معارضة تطرح نفسها بين الحين والآخر تفصيلاً لتلك «الجماعية» المزعومة ، أي المصادر مسبقاً على مصداقيتها وبوسائل لا تتصل بـ «الموقف الديني اليماني» في شيء .

والحق ، إننا إذا دققنا في المسألة إيها ، اتضح لنا أن معارضة «النصوص المستقيمة» أو «القانونية» بـ «النصوص المنحرفة» ليست هي أحد أشكال الخصومة والصراع الديني بين الفريقين فحسب ؛ إنها أكثر من ذلك ؛ بل إنها وإن ظهرت بتلك الأشكال من الخصومة والصراع ، إلا أنها تقوم على عوامل خفية لم تبرز ذهنياً عقيدياً إلا لما لدى كلا الفريقين المذكورين ؛ لدى الأول (الرسمي) بسبب رغبة قصدية في ذلك ، أي في تغيبه والتعقيم عليه ، ولدى الثاني (الخارجي واللاقانوني) بفعل الضغوط الكبرى التي خضع لها من طرف الفريق المذكور . ويمكن القول أن تلك المعارضة مثلت ، في نهاية المطاف ، خصومة وصراعاً على مصالح اجتماعية واقتصادية وسياسية أخضعت لأنماط متميزة من التفسير والتأويل والاجتهاد . وإذا كان الحال كذلك ، فإنه يغدو من التبسيط التعسفي المجهض ومن التفسير الأحادي الجانب أن نحدد ظهور «الرأي الآخر» بكونه أحد أشكال «تسلل البدع الجديدة إلى صلب العقيدة الجديدة»^(٢) . ذلك لأن مثل هذا التحديد يستثير السؤال التالي

(١) ضمن ' موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٨ .

(٢) الأب الياس زحلاوي : حول الانجيل و«انجيل برنابا» - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٨ .

ويحرض على طرحه : هل كانت هذه «العقيدة الجديدة» يوماً ما واحدة موحدة ومتجانسة بنيوياً ووظيفياً ؟ ثم ، ان الانطلاق من هذا الرأي التحديدي التعريفي من شأنه أن ينتزع نصوص ذلك «الرأي الآخر» من سياقها التاريخي والتراشي ، ليجعل منها ظاهرة معيَّاة ، أو غير قابلة للبحث ، أو ليحيلها إلى «حيلة لا أخلاقية» تنسب إلى هذا أو ذاك من الذين «وسوس لهم الشيطان بها»^(١) .

ان إعادة النظر في تاريخ الأديان لا بد وأن تنطلق - ضمن ما تنطلق منه - من إعادة بناء الموقف من «النصوص المخفية أو المنحرفة أو اللاقانونية» ، وذلك في ضوء موقعين اثنين كبيرين . الأول من هذين يتصل بالبعد النظري المعرفي (الابستمولوجي) لموضوع البحث المعني (أي تلك النصوص) ؛ في حين أن الموقع الثاني يتمثل ببعده الايديولوجي . فبحسب ذلك ، تغدو الظواهر «الأخرى» ، التي عُيِّيت فيما وراء الظلال ، هي بالذات هدفاً رئيسياً - ضمن أهداف رئيسية أخرى - أمام عيني الباحث المدقق . نقول ذلك حتى وإن كانت هذه الأخيرة جزئية أو هامشية ، أو تبدو أنها هامشية في فاعليتها التاريخية والتراثية .

(١) هنالك بعض الباحثين الذين يقرون بوجود العوامل غير الدينية التي كمنّت - وتكمن - وراء التفسيرات والتأويلات المتباينة للنصوص «الدينية المقدسة» . ولكن بسبب من الموقف الديني الايديولوجي الذي يخترق شخصيات أولئك الباحثين ، نجدهم يعبرون عن رغبتهم في «الوحدة» أو «إعادة» الوحدة الكنسية الدينية . فأنيس فريجه الذي يعلن - في الندوة التلغرافية التي أتيينا على ذكرها حول وحدة الكنائس - أن «هذه الانقسامات ، كما نعلم تاريخياً ، انقسامات نجمت عن التأويل البشري ، عن التفسير البشري» ، يعود ليعلن أنه بصفته «علمانياً» يتوق «إلى الوحدة» . ويخصص الموقف ، حيث يعترف لـ «الأب بطرس المعلم البولسي» ، الذي أدار الندوة المذكورة ، قائلاً : «فكنت دائماً أتمنى أن يكون الحوار عند أقدام المسيح . إذا كانت الكنيسة حاجّة إلى اقدام المسيح ، فلا بد أن تعود إلى رسالة بولس الرسول» . (انظر المرجع المذكور ومعطياته المقدمة سابقاً ، ص ١٩٩) . وموقف أنيس فريجه ذاك من «الوحدة» يمثل خطوة متخلفة ليس بالنسبة إلى «المصلحين المسيحيين الكبار» ، من أمثال مارتن لوتر ، الذي عملوا على بناء كنيسة وطنية مقرّين بوجود التمايز الديني والكنسي ؛ بل انه ، كذلك ، متخلف بالقياس إلى ما يطرحه الآن بعض المطارنة ورجال الدين ، مثل المطران غريغوار حداد . ان ما أعلنته الكنيسة الأم من «وحدة المؤمنين» ليس إلا وهماً يراد له أن يكون طريقاً إلى اخفاء «الخاص» ، الخاص الاجتماعي والوطني المشخص لهؤلاء .

ولست أدري في معرض الحديث المتضمن لي عن تلك النصوص اللاقانونية أو «الباطنية» . إن ما أردنا قوله ، كما ، يتم على أن النصوص الأخرى ، القانونية أو «العانية» . لم تستطع أن تفرض «سيادتها» إلا عبر صعوبات وخصومات ومعارك عديدة ومتديدة . ومن ثم ، فنحن حين توليها أهمية خاصة في هذا البحث ، فإنما بسبب من أنها تمثل «النموذجي» و«العام» في تاريخ المسيحية . وهذا ، بدوره ، يدعونا إلى معالجة «الإنجيل المربع» ، أي الإنجيل القانوني الأربعة . وفق سياقه التاريخي الممكن والمحتمل ، ومن موقع بنيته ووظائفه الكبرى . إضافة إلى هذه الملاحظة حول النموذجي والعام في المسيحية المعنية ، يبدو أننا نواجه ، هنا ، ماواجهناه في موضع سابق في نطاق النقد الذي وجهه برونو باور إلى المسيحية . فنشوء فريقين من الإنجيل ، واحد قانوني رسمي يعيش فوق الأرض علناً ويصنع الحياة الدينية لأكثرية المؤمنين ويقود مواقفهم الأيديولوجية من المشكلات الكبرى والصغرى التي تواجههم على قدم وساق ، وآخر غير قانوني يعيش تحت الأرض سراً ويمثل هدفاً لضربات وملاحظات المتنفذين ضمن أولئك ويصنع الوعي الديني لفريق من المؤمنين كما يشكل الطموح الديني لـ «الصامتين» ضمن أولئك والخائفين غير المقتنعين منهم . إن هذا الأمر يطرح علينا مجدداً السؤال التالي الذي طرحناه من قبل في سياق آخر : ألا تمثل المسيحية اليسوعية الإنجيلية امتداداً تاريخياً وبنوياً ووظيفياً لليهودية ، على الأقل في حقل استبعاد وطرده وحرقان الرأي الآخر المعارض ؟ ألا نغدو ، هنا بالضبط ، على أرض «الامة أو الأمم المصطفاة المختارة» ؟

لاشك أن الإجابة عن دينك السؤالين لا يمكنها أن تخرج عن الاقرار بوجود الامتداد المذكور بين الدينين المعنيين . بيد أن وجهاً من أوجه الاختلاف يبرز بينهما ، ولاشك ، وهو ذلك الذي يقوم على أن الاصطفاء النخبوي في المسيحية لا يمتد إلى المواقع الإثنية ، بل يتوقف عند الحدود العقيدية الدينية ، ومن ورائها - بطبيعة الحال - اتجاهات التوزيع الاجتماعي الطبقي . وعلى ذلك ، فموقف الاستبعاد والحرقان يكتسب أبعاده وآفاقه في المسيحية اليسوعية ضمن «المؤمنين أنفسهم» . فإذا كان تصور «الشعب المصطفى المختار» لدى اليهودية اليهودية يلح على بنيته الإثنية انطلاقاً مما عالجناه في إطار العلاقة بين «المركز والهامش» ، فإن هذا

التصور يكتسب لدى الدين الجديد ، المسيحي ، طابعاً «أهمية» لا يستبعد من يستبعد بصفته الأهمية هذه ، بقدر ما يفعل ذلك ، تصوراً ، من موقع عقيدي ديني . وفي هذه الحال لا يكفي أن نقول مع برونو باور : «الجماعة المسيحية تطرد كل طابع شعبي ، كل خصوصية قومية ، وتوجه حماسها ضد كل شعب يريد أن يعتقد بنفسه وأن يعطي نفسه قوانين من أجل إيمانه بنفسه وفي ثقته بتبريره . أخيراً ، المسيحية تطرد أيّاً ينتسب إلى نفسه ، إلى الحقوق التي يملكها كإنسان ، إذن إلى حقوق الإنسانية . لا تريد أن تحوز الإنسان الواقعي بل الإنسان الذي يُطرد من إنسانية الحق ، الإنسان المولود من جديد ، الإنسان الأعجوبة»^(١) . ان هذا الذي يعلنه باور على أهميته الكبرى . يغفل ذلك الأمر المتمثل بسحب الاستبعاد إلى حدود الموقف الديني في اللوحة الدينية نفسها . وهنا ، يصح أن نقول بأن تعويم وتغييب الشخص يتم مرتين ، واحدة باتجاه العام وأخرى باتجاه الخاص ، وتكون الحصيلة - بالتالي - التطويع بـ «خلاص الأمم» أو ما يقترب من ذلك .

وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فإن تصوري «المحبة» و«التمديد» ، اللذين يقدمان في حالات انجيلية متعددة على أنها ذوا طابع عمومي (أممي) ، يتحولان - هما كذلك - إلى شكل من أشكال الوهم الناقص . فهما لا يقتصران على أنها محبة وتعميد بـ «المسيح وحده» ، أي على أنها محبة كل شيء ماعداً المحبوب المشخص وتعميد كل شيء ماعداً المعتمد المشخص ؛ بل انهما يتحولان على أيدي «العلنيين» و«الرسميين» و«المهيمنين» ، من سذنة النصوص الانجيلية ، إلى أداة قمع ضد الخصوم من «أبناء العقيدة الواحدة» . وسوف نلاحظ لاحقاً إلى أي درجة كبرى وحادة سوف تستخدم تلك الأداة في عملية تصفية الخصوم دون تسامح وبلا هوادة ، خصوصاً بعد أن تكون هذه الأخيرة (الأداة) قد تموضعت في صيغة المؤسسة الكنسية السلطوية ، أي مع تحول المسيحية البولسية إلى دين رسمي للدولة الرومانية . وإذا كنا قد أثّرنا مسألة الامتداد العقيدي بين اليهودية والمسيحية ، فإنما لنبين أن هذه الأخيرة إذ طرحت مشروعها «الخلاصي الكبير» والمحفوف بـ «الآمال الكبرى» ، كان عليها ، كمنظومة من العقائد الدينية ، أن تحقق لذينك الاعتبارين الاثنين

(١) برونو باور : المسألة اليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٠٠ .

بالذات : من الأرض ، «أرض الأحزان» إلى السماء ، «سمااء الفرح الأبدي» ؛
ومن الوحدة ، «وحدة الجماعة العقيدية» إلى التهشم ، «تهشم المثل العليا ضمن
هذه الجماعة» . لكن مع هذا وذاك ، يبقى الحديث وارداً ومشروعاً وضرورياً عن
لحظة نوعية في الدين الجديد . أما هذه اللحظة فقد منحته الشرعية ، في حينه ، في
أن يكون أكثر فاعلية وإنسانية وكفاحية وتحريضاً على التفكير في «البديل» مما كان
الحال عليه ضمن ما آلت إليه اليهودية اليهودية من تصلب وتزمت واضطراب .

إن ذلك كله يجعلنا نسعى إلى انجاز المهمة المركبة والمعقدة ، التي نضعها على
عاتقنا ، هنا ، في ضوء تعاظم عملية الانسلاخ من اليهودية العقيدية اللاتنية
والالتحاق بعالم المسيحية ، البولسية تحديداً ، والاندغام بها أولاً ؛ وكذلك من
موقع المعيار الرئيسي الذي تمليه البنية الداخلية للنص الانجيلي ثانياً ، هذه البنية التي
سنعمل على الإفصاح عنها في سياقها التاريخي والتراثي ، الذي عبرت هي عنه وعبر
هو عنها . وبالطبع ، لن يكون التوجه إلى تلك المسألة مستجيباً لمعطيات واقع الحال
إلا إذا أخذت المشكلات التاريخية والتراثية والنصية بعين الاعتبار ، تلك المشكلات
التي عبر عنها تطور النصوص الانجيلية نفسها .

في مقدمة الأناجيل الأربعة ، يبرز انجيل مرقس بالاعتبار التاريخي ، فهذا
الانجيل وإن كان الأقصر ضمن تلك ، إلا أنه أقدمها ^(١) . وحسب إ. كولمان ،
يمكننا أن نتبين فيه «كثيراً من تراكيب الجمل تدعم الغرض القائل إن مؤلف هذا
الانجيل يهودي الأصل» ^(٢) . ويضيف موريس بوكاي إلى ذلك ، قائلاً : «ولكن
وجود المناحي اللغوية اللاتينية قد يوحي بأنه قد كتب انجيله من روما . فهو
بالإضافة إلى هذا يتوجه بالخطاب إلى مسيحيين لا يعيشون بفلسطين ويعني بشرح
التعبيرات الآرامية التي يستخدمها في حديثه إليهم» ^(٣) .

(١) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة
سابقاً ، ص ٨٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته .

(٣) نفس المرجع السابق ومعطياته .

ولكننا إذا وضعنا المسألة في ضوء عملية التحول من اليهودية إلى المسيحية ، فانتا سوف نجد أنفسنا مدعوين إلى أن نعيد النظر في الموقف من التراتب الانجيلي المعهود ، أي المقدم في شكله الحالي . في هذه الحال ، يبرز «انجيل متى» في طليعة الاناجيل الأربعة «القانونية» . فهنا ، نلاحظ أن الانجيل المذكور ظل ، بنسبة كبيرة وواضحة ومتميزة ، محافظاً على «صلة الرحم» مع اليهودية . بل يمكن القول ، وفق ذلك وفي ضوءه ، انه - الانجيل المعني - يمثل ذلك النمط من الذهنية اليهودية اللاهوتية ، الذي وجد نفسه - ضمن تأثيرات مستجدة - أمام ضرورة ملحة للانفتاح والاستنارة وتجاوز بعض المواقع الخاصة ، بحيث أدى ذلك الى المسيحية اليسوعية ، دون أن يفقد «الرحم» اليهودي ، بطبيعة الحال . وهذا الموقف يمكن استخلاصه وتعميمه بحيث نواجهه مبشراً هنا وهناك في نصوص «العهد العتيق» ، بتوجهاته واحتمالاته وآفاقه المسيحية ، التي تفصح عن نفسها إرهابياً وعلى نحو بطيء وحذر . وهذا ما حدا بالكثير من الباحثين الى اعتباره (أي انجيل متى) ذا أصول متحدرة ، باكثر من اعتبار ، من الجماعة اليهودية المسيحية ، وإلى النظر إليه ، من ثم ، على أنه «انجيل طائفة يهودية - مسيحية بسبيل مخالفة اليهودية مع الاحتفاظ بخط العهد القديم»^(١) .

وجدير بأن نذكر ، هنا ، بما أشرنا إليه في موضع سابق من هذا المبحث ، من أن الناصريين - المفهومين بمثابتهم مندغمين بالأبيونيين - كانوا قد أبدوا اهتماماً خاصاً بانجيل متى . فهم وجدوا فيه شخصيتهم الدينية الخلاصية في اتجاهاتها الأولية والعامة ، وذلك بالرغم من احتوائه بعض الأصوات والأصداء القوية كثيراً أو قليلاً والتي تشير إلى معالم المسيحية البولسية الصاعدة .

ويبدو أن الانجيل المعني ، هنا ، قد شغل حيزاً كبيراً وهاماً من الدائرة الايديولوجية للمسيحية اليهودية . فعلى اعتبار بعض الباحثين ، يصح القول بأن ذلك الانجيل هو انجيل من رفضوا الانخراط ، بدون تحفظ ، في المسيحية اليسوعية ، كما طمحووا - في نفس الوقت - إلى أن يكونوا اكثر من يهود يهويين ، أي أن يكونوا أولئك الذين أطلق البعض عليهم تعبير «نصاري» . فهم ، والأمر

(١) نفس المرجع السابق ومعطياته .

كذلك ، جماعة رأوا أن «الخلاص» لم يعد ممكناً من الموقع النخبوي الجيتوي المعهود ؛ كما أنه (أي الخلاص) يتحول إلى مواقع (أهمية) غير مأمونة العواقب إن دخل المسيحية اليسوعية (الأهمية) بدون تحفظ . وفي هذه الحال ، يكون «النصارى من بني اسرائيل انجيل خاص بهم ، يسميه جيروم ، خاتمة المحققين : الانجيل العبراني ، بحسب حرفه ؛ أو الانجيل السرياني ، بحسب لغته ؛ أو الانجيل بحسب العبرانيين ، بحسب أهله . . . (و) النصارى لا يقبلون رسمياً إلا هذا الانجيل ؛ وينكرون ماعداه . فالانجيل واحد عندهم . يقول ابيفان فيهم : (يستعملون انجيلاً وحيداً ، هو الذي بحسب متى)»^(١)

و إذا ماعدنا إلى الابيونيين - الناصريين ، وجدنا أنهم تبنا ذلك الانجيل نفسه ، ولكن بعدما أسقطوا منه الفصلين الأولين اللذين يؤتى فيهما على قصة مولد المسيح المعجز ، أي بدون أب انساني وبدون أم جنسية . اضافة إلى ذلك ، يلاحظ أنهم لم يروا في المسيح يسوع أكثر من مصلح للموسوية ، بذل الذبائح والأضحيات بالعماد . كما كانوا ينظرون إليه من موقع أنه «حلّ على عيسى ابن مريم يوم عماده وفارقه قبل استشهاده وارتفع إلى السماء ، فلم يقتل اليهود سوى عيسى بن مريم لامسيح الله»^(٢) .

نستطيع ، بعد أن استعرضنا المعطيات السابقة ، أن نتبين فيها أمرين اثنين لها أهمية خاصة على صعيد المصائر التاريخية لليهودية المسيحية وللمسيحية اليسوعية أولاً ، وفي نطاق فهم البنية الدينية الداخلية لهذه الأخيرة ثانياً . الأمر الأول يتمثل بعملية التواصل التاريخي والتراثي بين ذينك النسقين الدينيين من طرف ، وبين اليهودية من طرف آخر . وتنضج عملية التواصل هذه من خلال القول بأن اليهودية التي كانت - في حينه وبشكل من الأشكال أهمها شكل السطو التاريخي والتراثي الذي فصلنا الحديث فيه سابقاً - وريثاً للفكر الشرقي السابق عليها والمعاصر لها ، ظلت تعلن عن وجودها ليس فقط في الذهنية الانتقالية التي قادت منها (من اليهودية) إلى المسيحية البولسية . لقد عبرت عن شخصها وافصحت عنه ، أيضاً وأحياناً

(١) الأستاذ الحداد : القرآن دعوة «نصرانية» - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٠٥ .

بقوة ، في هذه الأخيرة نفسها . ونضيف إلى ذلك ان اليهودية نفسها ، وفي سياقها التاريخي والتراثي المشار إليه آنفاً ، أسهمت حتى في صوغ ذلك الدين (الساوي) اللاحق ، الاسلام ، الذي بدا لأنصاره أنه البديل الأكثر نقاء وتماسكاً وشمولاً منها ومن اليهودية المسيحية والمسيحية اليسوعية ، على حد سواء وعلى نحو قطعي .

أما الأمر الثاني فيظهر من خلال تفحص وتدقيق البنى الدينية الداخلية للمسيحية اليسوعية (البولسية) ، تلك العملية التي يمكنها أن تؤدي إلى نتائج من شأنها أن تشكل للبعض من «الباحثين والمؤمنين المسيحيين» عنصر مفاجأة مهيّجاً ومثيراً للارتياح والتساؤل . من هذه النتائج يبرز ، على سبيل المثال ، رفض ما تلح عليه تلك المسيحية - في نصوص معينة لها - من القول بأن المسيح اليسوعي (البولسي) كان في الماضي وهو في الحاضر وسيكون في الآتي ، وبأنه - من ثم - هو «الآتي» ، الذي كان والذي هو كائن إطلاقاً . فمثل هذا القول يجعل من المسيحية المذكورة نسيج وحدها ، وحصيلة أبدية وأزلية لرب أبدي وأزلي ، هو المسيح ، ليس بحاجة إلى أن يكون خلفاً لسلف مهما كانت قيمته وتعاضمت قدراته .

وإذا وضعنا بحسباننا اضطراب نصوص الأنجيل وعدم اتساقها تاريخياً وبنوياً ووظيفياً ، وجدنا أن انجيل متى ، وغيره ، يلح على كون المسيحية تمثل وريثاً شرعياً «للتشريعة اليهودية» ، مطيحاً - على هذا النحو - بما يعلنه في موضع آخر من أن المسيح كان قبل اليهودية مندغمًا بالرب نفسه . وجدير بالتنويه اننا في هذه المسألة لا نناقش الوجه العقيدي الايماني منها ، وإنما نعمل على اكتشاف ما يخترقها من تناقض منطقي نصي . نقرأ على صعيد الموقف الأخير ما يقدمه متى الانجيلي على أنه «مُقرّ ومفهوم بذاته» :

«وفيما الفريسيون مجتمعون سألهم يسوع . قائلاً ماذا تظنون في المسيح ابن مَنْ هو . قالوا له ابن داود . فقال لهم فكيف يدعوه داود بالروح ربّه حيث يقول . قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك . فإن كان داود يدعوه ربّاً فكيف يكون هو ابنه . فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة»^(١) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٢٢ / ٤١ - ٤٦ .

فالمطلوب ، هاهنا ، النظر إلى «يسوع المسيح» على أنه هو نفسه ربّ (إله) . وبطبيعة الحال ومن أجل أن يستقيم الموقف ، علينا أن نضع «الرب» هذا في موضعه من العلاقة مع الثالوث الأعظم (الأب والابن والروح القدس) . إذ في هذه الحال ، يغدو اتجاه التحول من الواحد إلى الآخرين مفهوماً ومقتضياً به . وإذا كان هذا الموقف ينطلق من ديمومة مطلقة ليسوع المسيح في القبل والآن والبعد تتجلى - تحديداً - بحالتي الكمون والظهور ، فإنه (أي الموقف) يراد له حاشد أن يكون الإطار الواسع والشامل لتصور «المسيحية اليسوعية المتفردة» . وحيث يكون الأمر كذلك ، ماذا يصير لليهودية ؟ تتحول إلى أثر بعد عين بالاعتبار العقيدي الذاتي ، أي بمعنى افتقادها ما بمنحها شرعية الوجود كعقيدة دينية ، لها بنيانها الذاتي المستقل بدرجة أو بأخرى ؛ وبالأعتبار التاريخي ، أي بمعنى التشكيك في أنها جسدت ، يوماً ما ، وجوداً تاريخياً واقعياً .

ولكن الموقف المسيحي «الأخر» - وهو الأكثر استجابة لمقتضيات التواصل التاريخي والتراثي - يكاد يضعنا أمام ما يمكن أن يعتبره البعض مفارقة أو - ربما - «احتياطاً» قام به البعض لتبييض صفحة اليهودية عبر منحها إزاراً جديداً يتسم بكونه «مسيحياً» . بيد أن المسألة نجد ايضاحاً لها أو بعض ايضاح ، كما لاحظنا ، في أن اليهودية استمرت فاعلةً نشطة وحيوية - بمعنى ما - في المسيحية ، وإن بصيغة اليهودية المسيحية . وهنا ، لدى متى ثانية ، نقرأ ما يضيء هذا الموقف ويفتح آفاق فهم مواقف انجيلية أخرى . يخبر متى عن يسوع المسيح أنه قال :

«... لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من آل اسرائيل»^(١) ، وكذلك :

«هؤلاء الاثنا عشر ارسلهم يسوع وأمرهم قائلاً إلى طريق الأمم لا تتجهوا ومدن السامريين لا تدخلوا . بل انطلقوا بالحري إلى الخراف الضالة من آل اسرائيل»^(٢) .

هكذا إذن ، نجد أنفسنا أمام موقفين اثنين بارزين في انجيل متى ، موقف الانقطاع

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٤/١٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٦-٥/١٠ .

والنفرد ، والتميز والتمايز النوعيين المطلقين ، ومسوقف التواصل والاندغام والتشابك . ولكي نحافظ على حد ضروري من عقلانية المعالجة لهذه المسألة ، لا بد أن نعتذر عن قبول بعض ما يقدم من مسوغات لهذه البوضعية ؛ من ذلك ، مثلاً ، أنه لا يوجد - في تلك البوضعية - تناقض ، بقدر ما يكمن فيها من «حكمة» أرادها من أرادها . ولكي نفهم ذينك الموقفين ، لا بد أن نقر بعجزنا عن فهم «كنه» ذلك ، وأن نقبل به - من ثم - على عواهنه .

وإذا ما انتهينا من هذه المسألة الأولية والبسيطة إلى حد السذاجة ، نشير إلى أن الموقف الثاني هو الذي نلقاه مهيمناً في انجيل متى أولاً ، وفي انجيل مرقس بدرجة أقل ثانياً . ولعلنا نواجه ، في انجيل لوقا لأول مرة ، انحيازاً واضحاً وحاسماً ليسوع المسيح على حساب «الشريعة اليهودية» . وبالطبع ، لا ننسى أن هذا الانجيل أحد الأناجيل الأربعة «القانونية» .

إن تلك البوضعية الانجيلية ، بمنحيتها الاثنين المآتي عليهما ، لا يمكننا أن نردّها فقط أو بالدرجة الأولى إلى خصومات ذهنية عقيدية أو إلى اضطراب في نقل النصوص وفي تفسيرها . فهذه العوامل «الذاتية» ، على أهميتها وخطورتها أحياناً ، تبقى مستغلة مبهمّة إذا لم نضعها في إطارها الاجتماعي الشخص : لقد كان ذلك تعبيراً «انجيلياً» مركباً ومعقداً عن مصالح اجتماعية متباينة ومتناقضة ، وكذلك - في حالات معينة - متصارعة بين الفرقاء المتعددي الانتماءات المجتمعية والأقوامية والسياسية المؤسسية (الدولتية) . ومن تعقيدات هذا التعبير وطرائفه أن الكفاح ضد الاحتلال الروماني لفلسطين كان يولّد في الأوساط اليهودية ، إجمالاً ، اتجاهات تعصبية تزمّنية ، تلح - في لحظاتها الكبرى - على الشخصية الجيتوية المغلقة على ذاتها والمناهضة للأغيار (الغوييم) مناهضة ممتزجة بالحق واليأس والشعور بالدونية مرة وبالتميز النخبوي مرات أخرى . وما يلفت الانتباه أن هذه الاتجاهات كانت تظهر - في احتمالات أخرى لها - مكتسبة طابعاً وطنياً أولاً ، وطبقياً كفاحياً ثانياً ، مما جعلها تظهر في أعين مجموعات من أولئك ، يهوداً وغير يهود ، بصفتها ظاهرة مشروعة تستحق الدعم والتعاطف . وهذا - بدوره وبدرجة ما - برز من حيث هو حائل دون تبلور المسيحية البولسية واكتسابها شخصية مستقلة ، في المستويين العقيدي والعقيدي السياسي . فلقد كان من شأن ذلك أن أظهرها (المسيحية)

بمثابتها النزعة الدينية التي تمتع من مصادر الزندقة والهلوسة ، أو مما يقترب من ذلك . وهذا يفسر لنا - على الأقل جزئياً - العمليات الكبيرة والصغيرة التي انطلقت باتجاه محاصرة الدين الجديد وملاحقة أنصاره . ويكفي ، هنا ، أن نعيد إلى الأذهان ما كان يقدمه بطرس وأنصاره من اليهود المسيحيين من تهمة الخيانة والمروق لبولس . فهذا الأخير ، ذو الانتهاء اليهودي المشكوك فيه بالأصل ، اعتبر مارقاً وانتهازياً حين خرج عن اليهودية وعليها ، وحين وجه جهوده وكثفها كاملة صوب هدفه الكبير ، الذي تمثل بإقامة البنيان المسيحي اليسوعي الجديد^(١) . وإذا كان التركيز ، هنا ، على شخص بولس ، فإنما لأنه ذلك الرجل الذي استطاع أن يصوغ الموقف الجديد بكثير من الحزم في تعارضه مع اليهودية واليهودية المسيحية ، ولأنه - من ثم - قدم في عمله هذا اسهاماً حاسماً على صعيد نشوء المؤسسة المسيحية الكنسية والدولية .

إن إنجيل متى ، الذي نبحث فيه هنا ، ما كان ليقدم نفسه بصفته نصاً مسيحياً دون أن ينطوي على حدود أولى وارهاسات أولى تشير إلى الدين الجديد تسويغاً وتأيداً وتبشيراً . نخص بالذكر ، في هذا المجال ، النقطتين الاليتين الحاسمتين في صوغ ذلك الأخير . الأولى منهما تبلورت في التخلي عن تصور (وهم) الشعب المصطفى المختار ، بصيغته اليهودية المكثفة عقيدياً دينياً وإثنيّاً ، وفي الدعوة إلى دين (الأمم) كلها والمتساوية في الحقوق والواجبات ، وإن بالطريقة الايهامية التصعيدية (التجريدية) التي وضع برونو باور يده عليها . أما النقطة الثانية فقد برزت في رفض الأضححية العينية والفداء العيني ، وفي استبدالهما بالأضححية والفداء المعممين المتفردين في شخص يسوع المسيح ، أي المحددين على سبيل الكفاية . ونشير أننا نواجه هذا وذاك كليهما لدى متى في إنجيله ، وإن بصوغ طارئة متأرجحة غير محسومة مهيمنة ، بحيث يبدو لنا أنها ربما

(١) ان هذا الخلاف بين «الرسولين» بطرس وبولس يجري حله ونجاوزه على أيدي البعض من الكهنة والآباء والباحثين اللاهوتيين عن طريق «القلوب» . فالأب اسبيروجبور في رده (على أبحاث حول العلاقة القائمة بين المسيحية - واليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١١٩) ، يعلن بصدق ذلك مايلي : «أما خلاف بولس مع بطرس في انطاكية فحادثة طارئة لا تؤثر على وحدة القلوب» .

كانت - من الناحية العقيدية - مقخمة في النص ، لولا أننا ننتبه إلى أنها - من الناحية التاريخية والتراثية - تمثل ، حقاً ، موقعاً ضرورياً في هذا النص الانجيلي . وهذا يعزز ما أعلنه من أن الانجيل المذكور يمثل أحد الأشكال الأساسية لعملية الانتقال من اليهودية إلى المسيحية اليسوعية .

إن الدعوة الديمقراطية إلى سيادة «الأمم» تظهر ، هنا ، خفيرة تتلمس الظهور والافصح عن نفسها على نحو لا يسمح ، كما أعلننا آنفاً ، بالقول بأنها تخترق نسيج انجيل متى اختراقاً في العمق . لنقرأ النص التالي ، على سبيل المثال :

«هوذا فتاي الذي اخترته حبيبي الذي سرت به نفسي . أحلّ روحي عليه فيختر الأمم بالحكم . لا يماري ولا يصيح ولا يسمع أحد صوته في الشوارع ، قصة مرضوضة لا يكسر وكثاناً مدخناً لا يطفئ حتى يخرج الحكم إلى الغلبة . وعلى اسمه تتوكل الأمم»^(١) .

وفي موضع آخر ، هو آخر الانجيل ، يبرز الحديث عن «الأمم» بديلاً عن «المختارين المصطفين» من اليهود ، بعد أن يكون الحديث قد دار سابقاً وعلى نحو واسع ومكثف ، بالمعنى العقيدي الديني ، عن اليهود (الاسرائيليين) وتقاليدهم وشريعتهم ودورهم الكبير الديني وسواه :

«فدنا يسوع وكلمهم قائلاً اني قد أعطيت كل سلطان في السماء والأرض . اذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم معمدين إياهم باسم الأب والابن والروح القدس . وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به»^(٢) .

أما التعليم الثاني اليسوعي المسيحي ، الذي تنبئه في انجيل متى وهو رفض فداء العين والأخذ بفداء الكفاية ، أي بفداء يسوع ، فيظهر من خلال تصور «العذاب الكوني» ، بحيث أن يسوع إذ يقدم نفسه - بمقتضى ذلك - فادياً ، فإنما يكون ، بذلك ، قد خلص «الجميع» . وفي هذا - في حقيقة الأمر المسيحي اليسوعي - تلخيص لتصور «العذاب الكلي» من أجل «الخلاص الكلي» . نقرأ في الانجيل المذكور حول ذلك ما يلي بمثابة تحقيقاً لنبوءات أنبياء يهود سابقين :

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٢/١٨-٢١ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعانيه ٢٨/١٨-٢٠ .

«وكان يُخرج الأرواحَ بكلمته وأبرأ كل من كان به سوءٌ . لكي يتم ما قيل

باشعيا النبي القائل أنه أخذ أمراضنا وحمل أوجاعنا»^(١) .

ولذلك ، فهو يدعوهم للمجيء إليه وتحميله همومهم وأوزارهم وأثقالهم التي ناءت هاماتهم وأرواحهم بحملها (وفي هذا الموقف الانساني الرائع - على الطريقة المسيحية - نواجه اللحظة الخلاصية في حدود قصوى لها) :

«تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلين وأنا أريحكم . إحملوا نيري عليكم وتعلموا مني أنني وديعٌ ومتواضعٌ القلب فتجدوا راحةً لأنفسكم . لأن نيري لينٌ وحلي خفيف»^(٢) .

وإذا عدنا الآن إلى انجيل مرقس ، استباننا لنا العلاقة العقيدية بينه وبين انجيل متى . فمن موقع هذه العلاقة ، التي ترتد - في أحد معانيها الأساسية - إلى الاتفاق في ضرورة النظر إلى العهد العتيق على أنه خير سلف لخير خلف (المسيحية) ، نجد أن متى استخدم على نحو واسع ، وحر في نصي أحياناً ، انجيل مرقس^(٣) . فهذا الأخير ، مثله في ذلك مثل متى ، يوجه إنجيله في - أحد اصحاباته - إلى «اسرائيل» ، مغفلاً «الأمم» . لكن هذا الإغفال يعود عنه ، في مواضع أخرى ، ليتحدث عن «الأمم» . وهذا ما يلفت الانتباه ، دون أن يؤدي إلى الظن بأن الانجيلي المذكور تخلى عن خطه الأساسي العام والناظم لإنجيله . فحين يُسأل يسوع من أحد «الكتبة» عن الوصية الأولى ، التي تأتي في مقدمة الوصايا جميعاً ، يجيب على ذلك قائلاً :

«أن أول الوصايا كلها اسمع يا اسرائيل إن الرب الهنا واحد . فاحبب الرب الهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك وكل قدرتك . هذه هي الوصية الأولى»^(٤) .

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٦/٨ - ١٧ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ١١/٢٨ - ٣٠ .

(٣) انظر : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٨٢ .

(٤) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس مرقس ١٢/٢٩ - ٣٠ .

ودون أن نرى في انجيل مرقس نصاً يماثل في «يهوديته» انجيل متى في «يهوديته» أو يوازها في ثقلها وفي الأهمية العقيدية ، فإنه (الانجيل الأول) يشكل معه نسقاً من الانساق العقيدية للاتجاه اليهودي المسيحي . وهذه مسألة تنطوي على الكثير من الأهمية والدلالة التاريخيتين ليس فيما يتصل بمصائر العلاقة بين اليهودية والمسيحية فحسب ، وإنما ، كذلك ، بالنسبة إلى الدين الاسلامي لاحقاً^(١) . وإذا أثرنا هذه الملاحظة الأخيرة ، فليس لأن من قصدنا أن نبحت ، الآن ، في ذلك الدين (الاسلام) ؛ إنما رغبتنا - من ذلك - أن نلفت النظر إلى أن اليهودية في «عهدنا العتيق» ضبطت بشخصها وبصيغ مختلفة - تتراوح بين التبنّي التاريخي والاستلهاج التراثي والعزل التاريخي المفهوم في هذا السياق بمعنى السطو التاريخي - معظم مظاهر الموروث الشرقي السابق عليها ، والمعاصر لها . ومن هنا ، فإذا واجهنا في الإنجيليين الآخرين ، «انجيل لوقا» و«انجيل يوحنا» ، ما يخرج عن ذلك النسق من الذهنية اليهودية ، فإننا لا بد وأن نمنحه اهتماماً خاصاً . إذ إن من شأن ذلك أن يضع أيدينا - بكثير من الثقة الوثائقية - على حلقة أخرى من البناء المسيحي الأيديولوجي ، تلك الحلقة التي كان بوسعها أن تبلور أو أن تسهم ، بعمق ، في بلورة المصيغة النوعية لهذا البناء الجديد .

في تلك الوضعية المتراكبة المتشابكة ، تبرز المسيحية اليسوعية (الانجيلية) بسمتها الأكثر حضوراً وفاعلية وتأثيراً على الآفاق اللاحقة ، وهي تلفيقيتها^(٢) .

(١) يكتب البان ج . ويدجيري في كتابه (المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي - ترجمة ذوقان قرقوط ، دار القلم بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ ، ص ١٢٩) ، حول هذه المسألة مايلي : «المسيحية قد تطورت في قلب اليهودية ؛ كما أن محتوى القرآن يكشف إلى أي حد كان الاسلام قريباً من الدين اليهودي» .

(٢) إن المنطلق الايماني المسيحي يحدد آلية النظر إلى العلاقة بين الاناجيل الأربعة عموماً ، وبين انجيلي متى ومرقس من ضمن ذلك . فهي آلية الوحدة والتوحيد ونبذ التفريق والتمييز بين تلك الاناجيل تأكيداً على أنها إن وُجدوا وأقرّ بها ، فليس ذلك إلا من قبيل «العرض» دون «الجوهري» . وبذلك يُطَوَّح بخصوصيات الاناجيل لصالح موقف ايماني توحيدى . مثل هذا الموقف نلاحظه لدى الأب اسبيرو وجبور في رده (على ابحاث حول العلاقة القائمة بين المسيحية - واليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١١٩) .

فلئن ظلت اليهودية تمارس تأثيراً في المسيحية المذكورة بنيةً ووظائفً ، فإن هذه الأخيرة حاولت ، حثيثاً وفي حالات عديدة ، أن تحقق شخصية متزنة ومتوازنة ومستقلة ، على نحو أو آخر ، حيال سالفاتها ، اليهودية ؛ غير أنها - كما يبدو - لم تستطع أن تحقق ذلك بحدود كبرى . ولا نظن أن هذا الأمر يمكن استجلاؤه وفهمه فقط في ضوء العلاقة بين الماضي والحاضر ، أي في ضوء مسألة التراث . ان هنالك عنصراً آخر عمل على صوغ الأمر المعني هنا ؛ ذلك هو أن نشوء المسيحية ، وتبلورها وتطورها - على سعته وخطورته وتشعب مظاهره - لم يكن بوسعه أن يمثل بديلاً كاملاً عن اليهودية . فقد ظلت مشكلة اليهود قائمة ليس على المستوى الديني العقائدي فحسب ، بل كذلك وربما بالدرجة الأولى في الحقول الاجتماعية والسياسية والسيكولوجية . (ولنا أن نذكر - على هذا الصعيد - بالعنصرين اللذين سبق أن أتينا عليهما فيما يتصل بقصور المسيحية عن التجاوز الحاسم لليهودية ، وهما تجاوز الشخص عبر تجريده وهمياً إيهامياً ، والمحافظة على تصور «الأمة المصطفاة المختارة» عبر «المحبة المسيحية» و«الايمان المسيحي») .

فلقد ظل شطر كبير من أولئك (اليهود) يرفض النظر إلى الدين الجديد على أنه حل لمشكلاتهم ، مؤكدين - على العكس من ذلك - على أنه تحريف لهذا الحل وتزوير له ، وربما كذلك تلغيم له من الداخل . ومن هنا ، كانت ولادة حركة المعارضة والمقاومة له ، تلك الحركة التي تجلت - ضمن ما تجلت به - في اختراقه عمقاً وفي التمحور فيه وحوله . ولابد من القول ، في هذه النقطة الدقيقة من المسألة ، بأن الكهنوت اليهودي الارستوقراطي - بصورة مخصصة - كان من وراء تلك الحركة . وقد استطاع ان ينجز قسطاً غير ضئيل من مهمته هذه ، وظهر ذلك في اتجاهين كبيرين أو قناتين رئيسيتين : القناة التي عبر منها بطرس ، خصوصاً ، ووصل في نهايتها إلى مسيحيته اليهودية ؛ والقناة الأخرى ، التي كانت الأخطر لتحركها في داخل النصوص (الانجيلية القانونية) والتي اتضحت وافصححت عن شخصيتها على نحو بين في انجيل متى ومرقس ، أي في النصين اللذين يتمهان بهما بعضاً . ويبدو أنه علينا أن نأخذ بحسباننا ما يعلنه ممثلو «الرايينية» - الحاخامية - من أن «اليهودية» لا يمكن أن تذوب ، لا بصيغة دين جديد ولا بصيغة أقوام جديدة . فتدمير الجيتوية ، وليدة القرون الطويلة والجهود الحثيثة التي بذلها

هؤلاء وآخرون ، لم يكن أمراً سهلاً ، وخصوصاً حيث تأخذ بالاعتبار ما هدف إليه أولئك من دمج «الآتني» بـ «العقيدي» ، وجعل «الرب الاله» مباركاً لذلك وحامياً له . هكذا ومن هذا الموقع الآتني العقيدي ، كتب كلود مونتفيوري كتابه «عناصر اليهودية التحررية» عام ١٩١٢ ، وأعلن فيه أن «صيانة العرق اليهودي» لم تكن نتيجة الصدفة : «إنها لم تحصل خارجاً عن ارادة الله وبعيداً عن غرضه»^(١) .

وجدير بالاهتمام ان نشير ، هنا ، إلى أن القناة الأولى ، البطرسية ، كان عليها أن تتفكك وتتحلل ، لتفقد شيئاً فشيئاً وتحت ضربات البولسية شخصيتها المستقلة ، وتندغم - من ثم وبدرجات وصيغ متعددة - في طوائف وتجمعات دينية أخرى ، بحيث أصبحت الساحة خالية لخصوم بطرس ، وفي مقدمتهم بولس الظافر . وقد بحث الكاردينال دانييلو في هذه الوضعية التي وضعت اليهودية المسيحية أمام مصائر حاسمة ، فوصل إلى النتيجة التالية : «بانقطاع اليهود - المسيحيين عن الكنيسة الكبرى التي تحررت تدريجياً من روابطها اليهودية سرعان ما فنوا في الغرب . ولكن يمكن اقتفاء آثارهم من القرن الثالث إلى القرن الرابع بالشرق وخاصة في فلسطين والجزيرة العربية ما وراء الاردن وسوريا ومابين النهرين . وقد امتص الاسلام بعضهم ، وهو جزئياً وريث لهم . وتحالف البعض الآخر مع ارثوذكسية الكنيسة الكبرى مع الاحتفاظ بخلفية ثقافية سامية . وهناك شيء منهم مازال متشبهاً بالكنيستين الاثيوبي والكلدانية»^(٢) .

أما القناة الكبرى الأخرى ، التي تحققت عبرها مهمة الكهنوت اليهودي المشار إليها فوق ، فقد تمثلت بعملية التغلغل العقيدي اليهودي ، الظاهري والباطني ، باتجاه الموجة الجديدة ذاتها وفي عقر دارها ؛ نعني المسيحية . فلئن كان قد أعلن عن نشوء هذه الأخيرة بمبائتها ديناً كونياً شمولياً جديداً ، وفي سياق تيار سيمر من الخصومات والمعارك والصراعات مع العالم القديم ومظالمة

(١) ضمن (البان ج . ويدجيري : المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٩ - ١٣٠) .

(٢) انظر : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٤ .

الايديولوجية ، فقد ظلت إحدى تلك المظالم ، وهي اليهودية ، عنصراً فاعلاً محرضاً ، وإن بحفاء وتقية ، في بنية ذلك الدين . ولعلنا نقول ، بقدر كاف من الثقة والترجيح ، ان هذه القناة الثانية كانت أكثر نفاذاً وفاعلية من القناة الأولى (البطرسية) . ذلك أنها ، بحكم كونها لم تواجه المسيحية البولسية من الخارج وإنما من الداخل ، من داخلها نفسها ، فإنها استأثرت على أهمية خاصة في العالم المسيحي اليسوعي ذاته . إذ أنها - في هذه الحالة المركبة المشكلة - أصبحت قادرة على ضرب خصومها من «الأمميين - المسيحيين البولسيين» ، بسيف المسيحية نفسه . ومن هنا ، نتبين عن قرب وعلى نحو محدد الدلالة والموقع الخاصين ، اللذين يحوز عليهما انجيل متى ومرقس .

وإذا كان الأمر كذلك وعلى هذا النحو من الجلاء والحساسية ، أفلا يغدو وارداً أو ربما ضرورياً أن نوسّع من دائرة ما أطلق عليه المسيحيون البولسيون «الكتب المخفية أو المحظورة أو المحرفة» ؟! لا يسعنا أن نجيب على ذلك التساؤل إلا بالإيجاب ؛ ذلك أن المصطلح المتعارف عليه ، على هذا الصعيد ، والذي يشمل على كتابات اعتبرت خارج الاناجيل الأربعة المعروفة ، أصبح من السهل توسيعه باتجاه هذه الاناجيل نفسها ، وبصورة خاصة باتجاه الأولين منها (متى ومرقس) . وعلى ذلك ، فإن المصطلح المقابل لـ «الكتب المخفية أو المحظورة أو المحرفة» وهو «الكتب القانونية» ، يصبح غير دقيق وغير كاف ؛ ومن ثم ، فهو يغدو قاصراً عن الاستجابة للدقة التاريخية والنصية الوثائقية . ذلك لأننا - إذ ذاك - نواجه المصطلحين بمثابتهما تعبيراً عن بنيتين دينيتين مختزنتين من قبل بعضهما بعضاً . وهذا ، بدوره ومن طرفه ، يضعنا - بكثير من الالتحاح العلمي التاريخي - أمام المطلب المتولد عن الوضعية ايهاا ، وهو إعادة بناء الموقف المتعلق بدراسة ما يطلق عليه «يهودية» و «مسيحية» ، وذلك على نحو تاريخي تراثي أولاً ، وبنوي ووظيفي ثانياً ، أي على نحو تحدد فيه الخصوصية النوعية التي تمتلكها كلتا الظاهرتين من طرف ، والجسور التي تربط بينهما بكثير أو قليل من القوة من طرف آخر . وإذا ما غدونا أمام هذه الوضعية «المفاجئة» و «المحيرة» لبعض الأوساط المسيحية البولسية^(١) ، فإنه يصبح بمقدورنا أن نصل إلى فكرة نعتبرها ذات أهمية منهجية

(١) الحديث عن مسيحية «صافية» ، بروتقها وسموها وشمولها ، يظهر في مناح متعددة ، =

أولية بالنسبة إلى فهم العلاقة التاريخية والتراثية بين اليهودية والمسيحية . هذه الفكرة تقوم على أن المسيحية وإن انطوت على الميل لأن تكون ظاهرة دينية عالمية ، فإنها ظلت تتعثر إزاء تحقيق ذلك من موقعين اثنين ، واحد واقعي اجتماعي ، وآخر ذهني ديني . فعود الخلاص الكبرى و«المؤكد» ، التي قدمتها المسيحية - بثقة مابعداها ثقة - لجموع «المتعبين والمثقلين» من فلاحين وعبيد ومنبوذين بصورة خاصة ، ماقتشت أن تبعثرت وتهشمت تحت قبضتين اثنتين ثقيلتين ؛ قبضة الوجود الديني

= وباتجاهات متباينة تعدد وتمايز المواقع الاجتماعية المشخصة والتصورات الايديولوجية . من ذلك ، مثلاً ، ما يكتبه ندرة اليازجي بصفته مسيحياً ، في بحث له حول «أصول العلاقة القائمة بين المسيحية واليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً . فعلى الصفحة (٨) من هذا الأخير ، يعلن الباحث مايلي : «ولما كنت أتمياً ، فلأنني اترك التوراة جانباً لليهود أنفسهم ذلك لأنها لم تكن طريقاً إلى الإيمان والاعتقاد . وإذا كان لا بد من علاقة بين المسيحية واليهودية ، فلأنني اعتمد انجيل يوحنا كمسيحي واعد الأناجيل الثلاثة الأخرى حواراً بين المسيحية واليهودية . ولما كان الحوار هو المطلوب ، وليس الخضوع ، فإن التوراة تلغى وتظل الأناجيل الثلاثة الأولى بالإضافة إلى أقسام من رسائل بولس حواراً مع اليهود . ولا غرو ، ان هذا الحوار ، بأقسامه العديدة في العهد الجديد ، ينتهي بلفظ اليهودية والابقاء على المسيحية» . وكان الكاتب قد قدم لقوله هذا (على نفس الصفحة) بأنه ، من جانبه ، لا ينكر «وجود علاقة بين المسيحية واليهودية على مستوى الأناجيل الثلاثة : متى ومرقس ولوقا . ولكن المسيحية تبدو ، برونقها وسموها وشمولها في انجيل يوحنا» .

ان ما ذكره الباحث على أنه «حوار مع اليهود» ماكان إلا شكلاً من أشكال اصرار اليهودية الجنيوية على الاستمرار فيما لم تكن قادرة على مواجهته عيناً ؛ وبتعبير آخر ، لقد كان ذلك تعبيراً عن محاولة الوقوف في وجه نزعة «أهمية ديموقراطية» ، بمعنى ما من قبل يهودية تصر على الحفاظ على مصالحها ومشروعيتها التي غدت موضع شك وسؤال . نضيف إلى ذلك أن انجيل يوحنا نفسه لا يقدم مثل تلك «المسيحية» المتميزة برونقها وسموها وشمولها ، أي المتميزة بكونها احدثت قطيعة تامة مع اليهودية . لنقرأ ما جاء في هذا الانجيل بصدده ذلك :

«وفي الغد لما سمع الجمع الكثير الذين جاءوا الى العيد بأن يسوع ياتي الى اورشليم . أخذوا سَعَفَ النخل وخرجوا للقاءه وهم يصرخون قائلين هوشعنا مبارك الآتي باسم الرب ملك اسرائيل . وإن يسوع وجد جحشاً فركبه كما هو مكتوب . لا تخافي يا ابنة صهيون هاإن ملكك ياتيك راكباً على جحش ابن أتان» . (الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس يوحنا ١٢/١٢-١٥) .

اليهودي المتغلغل في «الإنجيل القانونية» ، ذلك الوجود الذي أصبح - بمقتضى ذلك - معترفاً به ، حتى لو كان هذا الاعتراف من موقع المسيحية ؛ وقبضة الدولة الرومانية الحديدية ، التي جعلت من هذه الأخيرة ديناً رسمياً خاصاً بها ، محولة إياه - في نهاية المطاف - إلى مواقع التكريس السلطوي لها ومواقع الردع والادانة لتلك الجموع .

ففي الحالة الأولى ، كانت «مسيحية يسوع» ، أي المسيحية الباكورة الناهضة المكافحة (مسيحية المتعيين والمثقلين) ، تجدد نفسها تقترب شيئاً فشيئاً من نقطة تلاشيها لصالح مسيحية يسوعية مؤسسية ، بحيث غدت الكنيسة المسيحية الانجيلية بديلاً عن «يسوع المسيح» ، أي يسوع «الإنجيلي» ، الذي «زرع» لا ليحصد هو ، بل لكي يحصد الآخرون «الإنجيليون» ، عقول السلطة «الزمنية» العليا . وهنا ، بالضبط ، يصبح القول ضرورياً بأن الكنيسة هذه غدت وريثاً شرعياً للتقاليد الدينية اليهودية الأساسية ، أي لركيزتيها الكبيرين ، «الامة المصطفاة المختارة»^(١) و «القيادة الكهنوتية النخبوية»^(٢) . أما تحقيق ذلك فقد تم عبر القبضة الثانية المنوه بها آنفاً ، قبضة المؤسسة السلطوية الرسمية ، تلك المؤسسة التي كان

(١) نسوق ماكتبه بولس المؤسس الأكبر للمسيحية الكنسية ، لتبين أن اليهودية ظلت تفرض ظلها أو وذكرها، حتى على من يعتبر ياني تلك المسيحية :

«الحق أقول في المسيح لا أكذب فإن ضميري شاهد لي بالروح القدس . إن لي غمّاً شديداً ووجعاً في قلبي لا ينقطع . ولقد وددت لو اكون أنا نفسي مُبْسَلاً عن المسيح من أجل إخوتي ذوي قرابتي بحسب الجسد . الذين هم اسراييليون ولهم التبتّي والمجد والعهود والاشترار والعبادة والمواعيد . ورؤساء الآباء ومنهم المسيح بحسب الجسد الذي هو على كل شيء إله مبارك مدى الدهور آمين» . (الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ٩/٥-٥) .

(٢) باسم «الايمان الأرثوذكسي القويم» ، يعلن الأب اسبير رجبور ، سائراً في ذلك على مثال الكثيرين من الآباء واللاهوتيين ، أن التبعية الكنسية المؤسسة لكل الكنائس لا تخرج عن أن تكون لروما ، بما في ذلك طبعاً الكنيسة الشرقية . وقد فعل ذلك حيث انتزع الكنائس في العالم من اسبققتها الاجتماعية والوطنية المشخصة ، ليلحقها بمؤسسة قائمة واحدة ؛ وحيث يكون الأمر على هذا النحو ، لا يفدو «الوهم الأيديولوجي» أعزل ، بل يتحول إلى قوة لا - وطنية خطيرة . ولا نذكر إلا بما فعل مارتن لوتر في القرن السادس عشر ، حين دعا إلى «كنيسة =

الامبراطور اوغسطين أول من منحها تعبيرها الواضح والتميز ، بالمعنى السياسي الوظيفي ، وأول من حولها إلى موقف مشخص وملزم ، وأول من رفعها إلى مستوى الأيديولوجيا الدولية المركزية . وفي هذا وذاك وذلك ، كمن الكثير من عناصر ضبطها وتقعيدها ، وبمعنى ما كذلك ، تعقيدها بحسب ما تقتضيه المؤسسة السلطوية المهيمنة^(١) .

لعلنا ، إذن ، في الموقع التعميمي الذي يسمح لنا بالوصول إلى فكرة توجيهنا في رؤية المسيحية بتاريخها الباكر وما بعده . تلك هي أنه من الوهم أن نتحدث عن وجود «مسيحية صافية نقية» ، سواء أكانت بولسية الشخصية أو غير بولسية . فلقد

«وطنية» . يقول جبور : «واستقلالية كنيسة انطاكية عن روما . . . نسيج خيال . الكنيسة جامعة» . (الأب اسبيرو جبور : رد على ابحاد حول العلاقة بين المسيحية - اليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٥) .

(١) ان نشوء المسيحية كمؤسسة كنسية جامعة ومنذ غمة بالسلطة السياسية وبايديولوجيا الدولة ، وجد تعبيره العام والحاسم في مجمع نيقية المسكوني عام ٣٢٥ . ففي هذا المجمع التاريخي التأسيسي ، أدينت التعاليم الهرطقية (الاحادية) لأريوس (مات عام ٣٣٦) ؛ كما ثبتت الأسس العقيدية الكبرى ؛ إضافة إلى الاتفاق العام حول الطرق التي تسلكها الكنيسة مع مؤسسة الدولة من أجل الوصول إلى أغراضها الدينية والتنظيمية المالية والسياسية . وقد كتب فريدريك انجلز في كتابه «حول تاريخ المسيحية الباكرة» ، مشيراً إلى أهمية ذلك المجمع في تاريخ المسيحية عامةً وجمالاً : «نحن نرى ، إذن ، ان المسيحية الباكرة ، التي لم تكن بعد قد وعت ذاتها ، كانت بعيدة عن الدين العالمي اللاحق والمثبت عقيدياً بعد السماء عن الأرض ، ذلك الدين الذي انطلق من المجمع النيقيني المسكوني . فالأولى لا يمكن التعرف عليها ثانية في الثاني (الدين العالمي) . إذ انه لا يوجد في تلك المسيحية لا المذهب العقيدي (العقيدية Dogmatik) ولا المذهب الاخلاقي لهذا الدين . لكن بدلاً من ذلك ، وجد فيها الشعور بأن المرء رابض في الكفاح ضد عالم بأكمله ، وبأن هذا الكفاح سوف ينتهي بالانتصار ؛ لقد وجد فيها ، بدلاً من ذلك ، نزوع كفاحي وثقة بالنصر» .

(Friedrich Engels: Zur Geschichte des Urchristentums- a.a.O.,S. 265- 266).

ويمكن أن نضيف إلى المذهبين العقيدي والاخلاقي ، اللذين ذكرهما انجلز بمشابتهما الحصيلية النوعية لمجمع نيقية آياه ، عنصراً آخر ذا أهمية بالنسبة إلى توطيد هذين المذهبين في التطورات اللاحقة ؛ ذلك هو تنظيم العنف والردع ضد المعارضة العلنة والسرية ، وجعله الاسلوب المفضل لتصفية الخصوم من قبل جهاز دولة متقدم .

ظلت اليهودية ، حتى النهاية ومنذ البداية ، تمارس دوراً في الوجهين البنيوي والوظيفي للأناجيل الأربعة (القانونية) ، بدرجات ومستويات متفاوتة بالنسبة إلى كل واحد منها . وهذا الحكم ينطبق - والحال كذلك - على انجيلي لوقا ويوحنا ، أيضاً . وإذا كنا ، في موضع سابق ، قد أشرنا إلى أن هذين الأخيرين وضعية متميزة ومستقلة ، بقدر ما ، عن الانجيليين الأولين ، فإن ذلك لا يعني إخراجهما من دائرة الموقف اليهودي أو اليهودي المسيحي . بل إن وجود تلك الوضعية من التميز والاستقلالية النسبية دليل على تعقيد الموقف المتمثل بعملية الانتقال من اليهودية إلى المسيحية اليسوعية ، أي على أن هذه العملية لم تكن أبداً ذات بعد واحد وأفق واحد . نقرأ في «انجيل لوقا» الموعظة التالية ، التي يصوغها لوقا أو من قُدم بهذا الاسم على نحو موسوي مختزل وواضح وحازم :

«وأن تزدل السماء والأرض أسهل من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس . . . إن لم يسمعوا من موسى والأنبياء فإنهم ولا إن قام واحد من الأموات يصدقونه»^(١) .

أما ما يتصل بـ «انجيل يوحنا» ، الذي يعتد به عادة على وجود «مسيحية نقية صافية» ، فنستطيع أن نتبين «حبل السرة» الذي يربط بينه وبين اليهودية فيما اثبتناه في موضع سابق من هذا الانجيل . لقد ظل الحديث قائماً هنا عن «الرب ملك اسرائيل» و «ابنة صهيون» التي يأتي «ملكها - يسوع» راكباً على جمحش ابن أتان . وفي نص آخر يرد في الانجيل ، يتحدث فيه يسوع عن «خرافه» . هاهنا نلاحظ أن يسوع وإن أكد على أن خرافه «ليست من هذه الخطيرة اليهودية» ، فإنه تحدث في نفس السياق عن «رعية واحدة وراع واحد» ، بحيث يتحول اليهود إلى هذه الرعية بصفاتهم «نائبين» . بالطبع ، هذا التفسير يغدو مقبولاً حين نستعيد الشاهد السابق ، الذي يجري الحديث فيه واضحاً عن «يسوع اليهودي» أو «يسوع الملك اليهودي»^(٢) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ١٦/١٧، ٣١ .

(٢) طريف في هذا السياق من البحث ، أن نشير إلى أن ندرة اليازجي الذي يرى في انجيل يوحنا «مسيحية صافية» ، كما أتينا على ذلك في حينه ، وجد نفسه مضطراً إلى أن ينفي وجود كلمة «يهود» فيه بغية المحافظة على التماسك المطلوب الذي صودر عليه مسبقاً . (انظر : ندرة اليازجي - أصول =

إن ذلك الذي أتينا عليه أمر ؛ ويغدو ، بطبيعة الحال ، أمراً آخر حالما نطيح بالحدود - النسبية على كل حال - التي ميزت الدين الجديد ، بصيغته الاجمالية والعمومية ، عن اليهودية (الماخوذة أيضاً بصيغتها الاجمالية والعمومية). وقد كنا - في مواضع سابقة متعددة - قد أتينا على المعلمين الحاسمين الكبارين ، اللذين انطلقت منهما طلائع الدين الجديد وبواكيره . إن هذين المعلمين هما اللذان سمحا لنا أن نتحدث عن سياق ديني جديد نوعياً ، أي عن وضعية تتسم بـ «العالمية الأتمية» وبـ «الفداء اليسوعي» . وكان ذلك ، في شقيه الاثنين هذين ، قد وُجه ، بدوره وعلى نحو مفصّل عنه ، ضد ركيزتي اليهودية المثلثتين بـ «الشعب المصطفى المختار» و «الفداء العيني» المباشر^(١) .

من هنا وبناءً على ذلك ، نغدو مخوّلين بالقول بأن النظر إلى أن كلاً من العهدين العتيق والجديد يجسد بنياناً واحداً ذا نسيج واحد ، يخرجهما عن سياقيهما النوعيين كما تكونا ضمن ظروف نوعية مشخصة ، ويحيلهما - من ثم - إلى «عالم الاعجاز» المعادل ، هنا ، لـ «العالم اللاتاريخي اللاترائي»^(٢) . إن هذه الحصلة

= العلاقة القائمة بين المسيحية واليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٤). وهذا ما أخذه الأب اسبيروجبور على الباحث ، حيث رأى فيه «التعصب القومي الأعمى» . (اسبيروجبور : رد على أبحاث حول العلاقة بين المسيحية - اليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٢ ، وكذلك ص ١٢٣) .

(١) هذا الموقف البين ، الذي يميز المسيحية اليسوعية عن اليهودية تمييزاً لا مجال للشك فيه ، نواجهه عند ذلك الرجل (القديس) ، الذي «وَدَّ لو يكون هو نفسه ميسلاً عن المسيح من أجل اخوته ذوي قرابته بحسب الجسد ، الذين هم اسراييليون» . بل لدى هذا الرجل نفسه ، وهو بولس ، نقرأ أكثر العبارات وضوحاً وحسماً وعنفاً حول ضرورة سحب خط تعارض بين الدينين المعنيين . ففي أماكن متعددة ، يدعو بولس اليهود كلاباً وقطعة لحم ، كما سيأتي معنا في سياق لاحق . ويكفي أن نورد الآن النص التالي له ، ليكون تحديداً أولياً لتصوير «فداء الكفاية» المسيحي ، الذي يطرحه هو مقابل «فداء العين» اليهودي :

«لا حاجة له أن يقرب كل يوم مثل الأحبار ذبائح عن خطاياهم أولاً ثم عن خطايا الشعب لأنه قضى هذا مرة واحدة حين قرب نفسه» . (الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى العبرانيين ٧/٢٧) .

(٢) الأب اسبيروجبور ، مثلاً ، ينطلق من أن هنالك نصاً مقدساً يشكل نسقاً واحداً =

التي غدت على صعيد البحث التاريخي في تاريخ الأديان مسألة أقل من أن تكون موضع بحث «جاد» ، يجري التشكيك فيها على قدم وساق من قبل الكثير من اللاهوتيين بمختلف مراتبهم اللاهوتية . ومن هنا ، نجد أن حركة التاريخ والبحث على صعيد «الكتاب المقدس» وإن حققت نتائج مرموقة أحياناً ، إلا أن صعوبات كبيرة ما تزال تقف دون ذلك . ولاشك أن هذا الأمر يمثل حافزاً لتحقيق مزيد من الانضباط في البحث التاريخي والتراثي لذلك «الكتاب» . وهذا ، بدوره ، يجعلنا ننظر إلى العلاقة بين اليهودية والمسيحية ، وإلى العلاقة بين «الأنجيل القانونية» من هذه و«أنجيلها المحظورة» على أنها مسألة على غاية الأهمية المنهجية بالنسبة إلى تفصي الخط الناظم لعملية الانتقال «من يهو إلى يسوع» .

وثمة نقطة تتصل باحتمالات العلاقة القائمة بين الأناجيل الأربعة (القانونية) . فإذا كنا ، فيما سبق ، قد عاجلنا قضية تصنيف الأناجيل القانونية انطلاقاً من الاتجاهات الدينية المهيمنة في بنيانها الأساسية ومن موقع الاعتبار التاريخي ، فإننا - الآن - نواجه غمطاً آخر من التصنيف الانجيلي . هذا التصنيف يطرح الأنجيل كمسألة لاهوتية تتصل بتحديد العلاقة بين معنى ولفظ تعاليم يسوع المسيح . ولعلنا نقول أن هذه المسألة ستشغل لاحقاً ، في التطور العقدي المسيحي ، حيزاً ملحوظاً في ما سيطلق عليه «اللاهوت المسيحي» أو «علم الكلام المسيحي» . والأمر ، هنا ، يقوم على التمييز بين فئتين رئيسيتين من الأناجيل القانونية . الفئة الأولى هي - بحسب ذلك - فئة الأناجيل «المؤلفة» ؛ في حين أن الفئة الثانية تتمثل بأنجيل التفرد في الموقف الخاص بتلك العلاقة (بين المعنى واللفظ) .

بنسج واحد يؤخذ كما هو ، وإن ظهر فيه ما يبدو أنه «تناقض» ، وذلك انطلاقاً من أن اللاحق يجيب عن السابق ويحل إشكالاته . فهو يقول (نفس المرجع السابق ومعانيه - ص ١١٩) أنه علينا أن «نأخذ الكتاب كله كتلة واحدة منطلقين من كون العهد الجديد هو مفتاح العهد القديم . فأي تناقض بين العهدين يتغلب فيه العهد الجديد . لأن العهد القديم موقت وعابر ، وعتبة للعهد الجديد» .

أما في الحالة الأولى ، فنجد أناجيل متى ومرقس ولوقا تشكل - وفق المنظور اللاهوتي المعنى - بنياناً موحداً على كلا الصعيدين المشار إليهما ، اللفظ والمعنى . أما في الحالة الثانية ، فالمسألة مختلفة ولها وضع خصوصي . وفي هذه النقطة التي تميز فيها الفئتان الانجيليتان ، تنشأ «الشبهة» . أما هذه الأخيرة فتحدد «بقولهم عادة أن تعليم المسيح في المؤتلفة هو لفظاً ومعنى من السيد المسيح ؛ بينما تعليم المسيح بحسب يوحنا هو معنى من المسيح ، ولفظاً من يوحنا ، أي أن يوحنا أعار تعبيره لتفكير معلمه»^(١) .

لعل المسألة المطروحة في إطار الفئتين الانجيليتين المذكورتين لا تخرج - كما تظهر لنا - عن أن تكون نمطاً من أنماط التنظير اللاهوتي العقيدي ، التي تفتقد الدلالة التاريخية المشخصة والموثقة . فالحديث عن أناجيل ثلاثة تتألف نصوصها من أقوال «يسوع المسيح» ، كما هي ، أمر وجدناه غير مقبول من وجهة نظر الدراسة التاريخية للنصوص الانجيلية . فقد كنا ، في حينه ، قد لاحظنا أن تحرير أول الأناجيل ، الذي هو إنجيل مرقس ، حدث عام ٧٠ م ، وأن المرحلة الممتدة من عام ٧٠ إلى عام ١١٠ تقريباً كانت مرحلة انجاز تحرير الأناجيل الأربعة «القانونية» . وإذا وضعنا في الاعتبار أن الصِّلب (إن أقر بحدوثه واقعياً تاريخياً) تمّ عام ٣٠ م ، فإن التساؤل التاريخي والتراثي التالي يغدو ضرورياً ووارداً : كيف استطاع أصحاب الأناجيل «المؤتلفة» تلك أن يحافظوا على المعنى واللفظ اللذين أطلقهما «يسوع المسيح» في حينه ، بعد انقضاء مجموعة من العقود الزمنية ؟ ونضيف إلى ذلك السؤال البنيوي التالي ، الذي يتمم ذاك ويشير إليه : كيف يمكن الحديث عن «أناجيل مؤتلفة» لفظاً ومعنى في الوقت الذي نفتقد فيه نجاس النصوص الانجيلية المعنية نفسها ، ناهيك عن وحدتها ؟ فإذا كان الأمر على هذا النحو ، أي إذا افتُقدت المصادقية التاريخية والبنيوية النصية للمسألة المعنية ، فإن تصور «الإتلاف الانجيلي» ، المقدم لاهوتياً ، يغدو غير مقبول بالاعتبار التاريخي التراثي والنصي البنيوي ، وإن بقي مقبولاً من وجهة نظر إيمانية عقيدية .

(١) الأب يوسف درة الحداد : اساليب السيد في تعليمه - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ،

ويتابع الأب الحداد موضحاً الأمر من موقع التنسيق بين «الإنجيل المؤلف» وإنجيل يوحنا : «نشير إلى أن في تصاريح المسيح بحسب يوحنا ، مالا يمكن أن يصدر بحرفه ، إلا عن السيد المسيح نفسه ، وإن لم يرد في المؤلف . وعدم وروده في المؤلف يرجع إلى قرار الرسل الصحابة بالاكتماء في دعوتهم الأولى بالإنجيل الجليلي ، مع الاشارات المتواترة في المؤلف إلى الإنجيل الاورشليمي»^(١) .

والملاحظ أن الأب الحداد ، في تنسيقه الإنجيلي هذا ، ينطلق من هم لاهوتي كبير ، هو محاولة إذابة المتناقضات والمفارقات النصية الإنجيلية عبر إعادة النظر في ترتيب النصوص وفي العلاقات القائمة بينها . بيد أننا إذا استعدنا ما أشرنا إليه حول المرحلة الزمنية الفاصلة بين الصلب المعتقد أن وقوعه تم عام ٣٠ وبداية كتابة أول إنجيل (عام ٧٠) ، وجدنا أن تلك المحاولة غير ذي جدوى . وفي هذا السياق ، علينا أن نذكر بالنتيجة التي وصلت إليها أبحاث المدرسة التينغرية الألمانية ، وهي أن الأنجيل الأربعة القانونية ليست - في حقيقة الأمر - تقارير كتبها شاهدو عيان ، بل هي تعديلات متأخرة لكتابات ضاعت أو ائلفت . وإذا كانت هذه النتيجة قد أتت في القرن التاسع عشر ، فإن صحتها ما تزال قائمة حتى عصرنا الراهن .

وإذا كان موريس بوكاي يؤكد على تلك النتيجة عبر ما توصل إليه هو نفسه وغيره من الباحثين ، فإنه - من طرف آخر - يضعفها بذيول يدخلها عليها ، ربما من موقع إيماني عقيدي أو انطلاقاً من صعوبات البحث . فهو يقول بافصاح وحسم : «لم يعد مفهوم المبشرين كشهود معانين قابلاً للدفاع وإن ظل حتى يوحنا هذا مفهوم كثير من المسيحيين . ان مؤلفات مدرسة الكتاب المقدس بالقدس (الأب بينوا والأب بومار) تثبت جيداً أن الأنجيل قد كتبت ونقحت وصححت أكثر من مرة»^(٢) . ولكنه بعد أن يكون قد قرر ذلك الموقف بالصفة الحاسمة التي جاء فيها ، يعود ليستدرك الأمر قائلاً : «لكن هذه العيوب لا تضع في موضع الشك وجود رسالة المسيح : فالشكوك تخيم فقط على الكيفية التي جرت بها»^(٣) . ففي هذه

(١) نفس المرجع السابق ومعطياته .

(٢) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٣) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٣١ .

الحال ، يصح أن نطرح التساؤل التالي : إذا كانت تلك النصوص هي المعتمدة في «الرسالة المسيحية» وهي التي لا تمثل نصوص شهود معانين ، فكيف نسوغ لأنفسنا الحديث عن صحة «الحديث نفسه دون الكيفية التي جرى بها» ؟ إذ من أين غنتح مصادرنا حول ذلك ، في هذه الحال ؟ هذا السؤال يبرز خصوصاً إذا وضعنا باعتبارنا أن المؤلف نفسه (بوكاي) يستشهد في كتابه المعني هنا أكثر من مرة بالنتيجة الدراسية التي قدمها الأب كانينجر (وقد أتينا عليها في مكان سابق) والقائلة بأن الأناجيل ليست إلا «كتابات ظرفية» أو «خصامية»^(١) .

إن ذلك كله ، مأخوذاً بصيغتيه القصوي والدنيا ، يضعنا أمام أسئلة ليس من الممكن أن نجيب عليها على نحو ما فعل موريس بوكاي ، وعلى نحو ما أراد الأب الحداد فعله من إثارة لمشكلات انجيلية لا يحتملها النص الانجيلي . ولعل هذه الوضعية المفتوحة وغير المحسومة بالنسبة إلى المسيحية كنيسة واتجاهات وأفراداً هي التي كمنت - مع غيرها بطبيعة الحال - وراء ما سيجد من أحداث جسام على صعيد الصراع المكشوف والخفي بين «الدواخل - ذوي الرأي المستقيم والرسمي» من طرف ، وبين «الخوارج - الهراطقة» الذين حملوا لواء المعارضة من طرف آخر .

ويبدو أنه من الضروري أن نورد بعض الوقائع والمعطيات التي من شأنها أن تقود إلى الاجتهاد على إشكالية «الأناجيل القانونية» ، التي تثيرها المواقف اللاهوتية الكنسية وتنمّيها على نحو يمنع هذه المواقف مصداقية «عقيدية ولاهوتية» . فعلى هذا الصعيد ، ينبغي القول بأن «الشهادات المتعلقة بوجود مجموعة من الكتابات الانجيلية تظهر فقط في منتصف القرن الثاني وبالتحديد بعد عام ١٤٠م»^(٢) . إن هذه الواقعة على غاية الأهمية التاريخية والمنهجية ؛ إذ مما يترتب على ذلك إسقاط الاعتقاد بأن النصوص الانجيلية تمثل شهادات مباشرة على أوضاع واقعية . فلقد جرى الكثير من التحوير والتبديل والتعديل على نصوص ما كتبت في مرحلة أو

(١) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٦٨ ، ١٣٠ .

(٢) انظر : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٧٥ .

مراحل سابقة . وليس يعني ذلك ، بالضرورة ، أنه كان هنالك «نص أصلي» منحت منه تلك النصوص ، مجتمعةً أو منفردة . أي انه ليس هنالك ما يدعو ، بالضرورة إلى القول بوجود نصٍّ أصلي تشترك فيه النصوص المعنية . إن هذا الرأي محمد دعماً له في اعتبارين اثنين ؛ الأول منهما يقوم - بالأساس - على عدم وجود مثل ذلك «الأصل» بين أيدينا^(١) ، بحيث يغدو القول وارداً بأن الحديث عنه بمائل الحديث عن «يسوع واقعي تاريخي» . فكلاهما يفتقد المصدقية التاريخية الوثائقية ؛ مما يجعلنا ننظر إلى النصوص الانجيلية من حيث هي مواقف ووجهات نظر دينية لجمع من الكتبة المؤمنين . أما الاعتبار الثاني فيكمن في الاختلاف النصي القائم بين النصوص الانجيلية نفسها . ومن شأن ذلك ، إذ يُقر به ، أن يجعل من فكرة «الأصل المشترك» لتلك الأخيرة أمراً لا يعدو أن يكون وهماً لاهوتياً .

وفي سبيل إبراز الدلالة الخاصة لعملية التحوير والتبديل والتعديل التي خضعت لها الأناجيل منذ نشوئها وحتى التوقف عند أربعة منها (هي القانونية) ، نشير إلى أن عدد الأناجيل التي حذفت ورفضت وأعلنت محظورة ، ربما كان قد وصل إلى المائة^(٢) . إن هذا الرقم يُظهر ، حقاً وعلى نحو ضمني ومباشر ومكثف ، كم من الصراعات والخصومات والمباحكات نشأت في إطار الحركة المسيحية أولاً ، وكم كان معقداً أن تصل الكنيسة - أخيراً - إلى الهيمنة والسيادة على كل التيارات والانساق والانشطارات الدينية ثانياً ؛ ثالثاً وإضافة إلى ذلك ، نلاحظ أن الرقم المذكور ينطوي على دلالة ذات أهمية عظمى فيما يتصل بمسألة المشروعية الاجتماعية والعقيدية ، التي كان على الجميع (الانجيليين) أن يستظلوا بظلها . لقد قدمت «المسيحية» تلك المشروعية لجميع من تحدث باسمها بصيغة أو بأخرى ، وكانت - من ثم - بمثابة الدريئة التي وجد فيها أولئك حماية أو بعض الحماية . لكن تطورات الأحداث والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية (وكذلك العسكرية) هي وحدها التي حسمت المواقف ، وجعلت من فريق دون آخر سيد الحلبة .

إن إشكالية «الأناجيل القانونية» - ومعها إشكالية «الأناجيل المحظورة» -

(١) انظر : نفس المرجع السابق ومعطيته - ص ١٠٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطيته - ص ٩٩ .

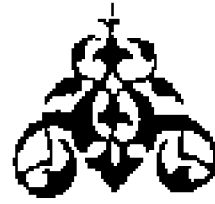
هي ، بهذا المعنى وهذا السياق ، الموقف الذي تبلور شيئاً فشيئاً لصالح الاتجاه البولسي الذي سيُكسب طابع العقيدة الرسمية الكنسية ، تلك العقيدة التي عملت - بدورها - على سحق ما عداها ، حيث ميزت بين «القانوني» و «الخارجي» ، بين «الصحيح» و «المنحرف» في إطار الأناجيل المسيحية الغزيرة والمتباينة على صعيد بنياتها العقيدية ووظائفها الاجتماعية . وعلى هذا النحو ، تبين هذه العقيدة وقد تحولت ، فعلاً ، إلى ايديولوجيا المهيمنين اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً . ويزيد الأمر وضوحاً ، حين نأخذ بعين الاعتبار أن كتابات بولس كانت الأولى التي غدت متداولة وسائدة . وفي سياق ذلك وضوئه ، اكتسبت الكتابات الانجيلية «القانونية» مهماتها ووظائفها . ان في هذا الأمر لحظة هامة من لحظات التطور في العقيدة المسيحية . فعلى صعيد الموقف التاريخي المنهجي ، نغدو مطالبين بالنظر إلى الأناجيل من منظور النص البولسي ، بحيث نصبح وجهاً لوجه أمام مسيحية بولسية نزاعة إلى أهمية نيظمت بها وظيفتان كبريان ، محاصرة الجيتوية اليهودية وتصفيتهما ، واسباغ الشرعية العقيدية لامبراطورية رومانية متسعة ومترامية الأطراف جغرافياً واثنياً (أعياً) . ومن هذا الموقع بالذات ، يتاح لنا أن نتعرف على الدوافع والخوافز العميقة التي كمننت وراء تحول أهمية المسيحية الباكرة من نزعة دينية أخلاقية شمولية وإنسانية ساذجة إلى تيار عقيدي دولتي قائم على التعدد الأعني (الآثني) . وفي سياق ذلك ، تم التحول من أهمية إنسانية تحريرية تبشيرية إلى أهمية دولية تكريسية .

وليس من الناقل الاشارة إلى أن الأناجيل الأربعة (القانونية) تكتسب بدءاً من عام ١٧٠ م تقريباً «صفة الأدب الكنسي» ، كما تحبر بذلك الترجمة المسكونية^(١) . لقد كان الأمر في مرحلة المخاض ؛ بالرغم من المحاولات العديدة والمتتابعة (على الأقل في البدايات وما قبل النهايات) لجعل تلك المرحلة ذات بعد آخر وأفق آخر ، أي لتحويل المخاض التام إلى مخاض «قيصري» منقوص . وإذا كانت القوى الاجتماعية ، التي قبعث وراء «الأناجيل القانونية» ، قد استطاعت فرض هذه الأخيرة واستبعاد الأخرى بوسائل العنف السياسي والعقيدي ، فإنها ظلت عاجزة

(١) انظر : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٧٦ .

عن أن تمنح أناجيلها المعنية قوة «النص التاريخي» الحائز على «الأسبقية اليسوعية» .
وكما كتب O.Culmann ، فإن تلك الأناجيل ، التي أطلق عليها «المتوافقة أو
المؤتلفة» ، ظلت أدبية الطابع دون أي بعد تاريخي ، بمعنى الأسبقية التاريخية
والتنسيق النبوي^(١) .

إن «يسوع المخلص» ، الذي يقدم بديلاً عن «يهوه» ، كان عليه - والحال
كذلك - أن يخضع لتلك التحولات النبوية والوظيفية التي نقلته من «الأمية
التحريضية التبشيرية» إلى «أمية دولية تكريسية» في حدود امبراطورية كبرى جغرافياً
واتنياً واجتماعياً طبقياً ، وتعيش أشكالاً عظمى من التأزم في الداخل والخارج .



(١) ضمن : نفس المرجع السابق ومعانيه - ص ٧٧ .

الفصل الثاني

البنية الداخلية للمسيحية من مواقع نصوصها «القانونية» وأبعادها الوظيفية

لعلنا أصبحنا ، بعد أن قمنا بما قمنا به من تدقيقات منهجية وتاريخية نصية أولية لنصوص الانجيليين ، أمام الشق الآخر من المسألة التي نحن بصدد البحث فيها ؛ ذلك هو محاولة دراسة البنية الداخلية للمسيحية اليسوعية ، أي الدين الجديد الذي حسم الموقف لصالحه عبر المعارك التي قادها بولس والبولسيون ضد اليهودية واليهودية المسيحية . وستنجز هذه المحاولة في ضوء تقصي النصوص التي تقدمها الأناجيل الأربعة (الانجيل المربع) ، وما يلحق بها من نصوص أخرى ترد بصيغة «رسائل بولس» خصوصاً ، أي غير النصوص التي أقرت بصفتها «قانونية» ملزمة دون غيرها من النصوص . وهذا يشير إلى أننا إذ نفعل ذلك ، فإننا نكون قد غرضنا النظر عن المصادقية التاريخية لتلك النصوص لصالح ما سندعوه تماسكها البنيوي والوظيفي العقيدي الداخلي . إضافة إلى ذلك ، نكون والحال كذلك ، قد تجاوزنا ما بحثنا فيه ضمن فصول سابقة وفي إطار مارأيناه تناقضاً بين «المسيح التاريخي الواقعي» و«المسيح النصي الانجيلي» ، لتعكف على دراسة هذا الأخير من حيث هو المسيحية اليسوعية الناجزة . وفي كلتا الحالتين ، نلاحظ أن الكثير من النصوص التي سندرسها بصفتها «رسائل بولس» ليست هي ، في حقيقة الأمر ، كذلك . فكما أشرنا في موضع سابق ، يمكننا أن ننظر فقط إلى أربع من تلك الرسائل البولسية (وعدها أربع عشرة) على أنها أصلية ، أي ترجع إلى بولس . وإذن ، فنحن نغض النظر عن كل هذه المشكلات النصية ، حين نشرع بدراسة تلك النصوص ضمن أليتها البنيوية الخاصة ، فنعمل على تبين المسائل الكبرى فيها التي تدخل في نطاق «المسيحية اليسوعية» .

في منطلق الأمر ، ينبغي القول بأن الدين الجديد ، المسيحي ، يجسد - في بنيته الاجمالية العامة - موقفاً جديداً يكمن أحد عناصر جدته في أنه تلفيقي . ومن هذا الموقع ، استطاع الدين المذكور أن يستقطب جموعاً كبيرة من الفقراء والمعدمين (عبيداً وفلاحين مدقعين ومنبوذين) في نطاق شعوب وأمم كثيرة ضمن الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف . وجدير بالقول أن تلفيقية الموقف الديني المذكور مثلت جانب قوة وتفوق في نطاق المسيحية ، لأنها استطاعت - على هذه الطريق - أن تخاطب بلغتها الدينية تلك الجموع الكبيرة ذات الانتماءات العقيدية المتعددة والمتباينة . وبذلك ، تمكنت المسيحية الجديدة من أن تتحول إلى رابطة دينية متينة بين هؤلاء في كفاحهم الصعب والمديد من أجل قدر ما من الحرية والخبز ، حريتهم الاجتماعية والشخصية وخبرهم المعتمد بالعرق ، وأحياناً بالدم .

ذلك أولاً ؛ من ناحية أخرى ، نستطيع تسجيل الملاحظة التالية التي نعتبرها ذات دلالة منهجية ونظرية كبرى بالنسبة إلى استيعاب البنية الدينية الايديولوجية للمسيحية ، وتشوّف آفاقها المستقبلية المحتملة وإشكالاتها الداخلية والخارجية التي ستفجر وفق المتغيرات التي ستحدث على صعيد الوضعية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الامبراطورية . اننا نعني بذلك ، ضمن ما نعنيه ، أن تلك البنية الدينية الايديولوجية (التلفيقية) احتوت - جنباً إلى جنب مع العناصر التي تبنتها الجموع الشعبية المذكورة آنفاً - عناصر ملحوظة الحضور وإن بقدر أقل فعلاً وحساً من تلك . هذه العناصر جعل منها دريعة سهلة الاختراق والنفوذ من قبل فئات وانساق الطبقات العليا في المجتمع الامبراطورية الواسع والمتنوع اجتماعياً وإثنيّاً ودينياً عقيدياً .

تلك الوضعية سمحت بالنظر إلى الوليد الجديد الناهض على أنه دين الجميع ، وعلى أنه - من ثم - قادر أو على الأقل مهياً لتسوية مواقف هؤلاء والدفاع عنها . ومن هنا ، نلاحظ أن الوضعية المذكورة تولدت وتبلورت ضمن سمة اعتبرت ، شيئاً فشيئاً ولكن بكثير من الثقة الذاتية ، أساسية وحاسمة في بنيتها الداخلية ؛ تلك هي الشمولية . فلقد عمل الجميع على أن يستقوا منها ما يتطابق ، بنحو أو بآخر ، مع احتياجاتهم ومطامعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية الايديولوجية . بصيغة أخرى أكثر تخصيصاً وتضييقاً ينبغي

القول ، ان معطيات النص الانجيلي قدمت نفسها ضمن امكانيات واحتمالات ثرة ومتواترة من التفسير والتأويل والاجتهاد ، مما عمل على تكوين وإرساء الأسس الأولى والرئيسية لـ «الكلام المسيحي» أو «اللاهوت المسيحي» . وما يجب أن نضيفه على هذا الصعيد هو أن سمة الشمولية تلك إذ نشأت من المواقع الاجتماعية المتباينة والمتصارعة ، فإنها استطاعت - على هذه الطريق - أن تتمم ما طرحته المسيحية اليسوعية على أنه تحديد أقوامي لشخصيتها ، وهو «أهميتها» . فهذه الأخيرة أريد منها أن تغطي واقع الحال الواسع الفصفاض ، الذي كونه شعوب الامبراطورية الرومانية بمجموعها وبرمتها ؛ وكان ذلك فعلاً حيث خاطبت الجميع ، رافضة الموقف اليهودي التخصيصي الإثني ، أي حيث قدمت «الايان» و «المحبة» بيسوع المسيح رابطاً بين أولئك ؛ هذا بغض النظر - الآن - عن التحفظات التي أظهرناها حيال عمومية دينك الايمان والمحبة . (وسنلاحظ لاحقاً ان هذا التحديد الأقوامي يتلاشى أمام تحديد عقيدي ايديولوجي ذي طابع عمومي مجرد) .

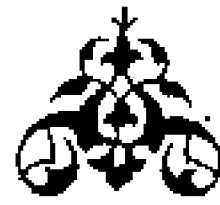
ان «الشمولية» و «الأمية» تمثلان - في المسيحية اليسوعية - وجهين لموقف واحد . فبدون الوجه الأمي القائم على تعدد بشري لإثني لم يكن لتلك الأخيرة أن تحقق تفوقها على غريماتها اليهودية . وهذا ما أتينا عليه في مواضع متعددة سابقة . بيد أن العنصر الذي يلفت الانتباه في هذا الحقل يكمن في أن الدين الجديد اخترق تلك «الأمية» بشمولية اجتماعية طبقية سمحت بتقديم نفسه على أنه للكل وبالكل ، للبؤساء في بؤسهم الموعودين بتجاوزه ، وللسعداء بانذارهم أن سعادتهم «الحقيقية» هي غير ما هم عليه . وإذا كان ذلك «البؤس» وتلك «السعادة» هما غير «البؤس الحقيقي» و «السعادة الحقيقية» ، فإنها يلتقيان في نقطة مركزية تجعل من المسيحية اليسوعية ماهي عليه ؛ تلك هي «الايان والمحبة» ، الايمان أولاً والمحبة ثانياً ، أي المحبة عبر الايمان . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الكثير من «البؤساء» ، في هذا العالم ، يمكن أن يكونوا - «في الحقيقة» - سعداء ؛ كما أن الكثير من «السعداء» ، في هذا العالم ، يمكن أن يكونوا - «في الحقيقة» - «بؤساء» . وبذلك ، فإن الدين الجديد أعاد النظر كلياً وقطعياً في البنية الاجتماعية الطبقية ، في التراتب الاجتماعي الطبقي ، بحيث جعل الجميع «اخوة» في الايمان والمحبة . ولكنه حيث أعلن ذلك ، فإنه ولد أمام أولئك جميعاً امكانية التحدث عن الأخوة والايمان

والمحبة من موقع وضعياتهم الشخصية ، بكل ما تنطوي عليه من تناقضات واختراقات اقتصادية وسياسية واجتماعية وأخلاقية وسيكولوجية وجمالية ، وربما كذلك إتنية .

وماذا بعد ؟ لقد «تخربطت» الرؤى والمواقع والوضعيات المتعارضة والمتناقضة ، والتقت في البؤرة السحرية الجديدة ، المسيحية اليسوعية . ولكن اذا كان ذلك قد تم مسيحياً ، فهل كان هنالك ما يوازيه واقعياً ؟ نستطيع أن نقول : لا ، بصورة عامة . فلقد ظلت المواقع والوضعيات الشخصية لـ «الآخوة المؤمنين» تُعَمِّلُ نفسها على ايمانهم ، بحيث نشأت أنماط متعددة متباينة من الايمان . ولكن ذلك التعدد وهذا التباين إذ اخترقا ايدولوجياً (دينيا) ، فلإنهما ارغما على ان يبحثا عن مسوغاتهما وآفاقهما في الدين الجديد ، أي في اللحظة الايدولوجية «التوحيدية الشمولية» . وعلى هذه الطريق ، اختلط الشخص بالمجرد ، والواقع بالايديولوجيا ، والحقيقة بالوهم ، والبؤس كما هو بالسعادة من حيث يسوع .

من هنا ، نلاحظ أن الأدوار والمواقف والاعتبارات توزعت واضطربت ؛ ودخلت حالة من القلق الهائل المشوب بالأمل الهائل ، بحيث لم يكن بوسع الانجيليين أن ينفلتوا منها في كتاباتهم وشروحهم ؛ فظهرت قلقة مضطربة ، وفي نفس الحين مفعمة بالأمل والطموح . وجدير بالقول أن هذه الوضعية تعززت وترسخت في عواطف (وعقول) الطبقات والفئات والانساق الاجتماعية المختلفة بسبب تأثير آخر انطوت عليه الايدولوجيا الجديدة (المسيحية) وأبرزته - في شخصها - على نحو واضح بين ؛ ذلك هو أن هذه الأخيرة بقدر ما كانت قد أحدثت من شرح عميق في عملية التواصل التاريخي التراثي بينها وبين الذهنيات (الايدولوجيات) السابقة عليها ، فلإنها ظلت تحافظ - بأشكال طريفة ومعقدة ، وساذجة كذلك - على جسور عريضة بينها من طرف وبين تلك الذهنيات من طرف آخر . فهي لم تلفظ اليهودية من عالمها الجديد الرحب ، ولم تشكر للموروث الشرقي (الرافدي والمصري والشامي على نحو خاص) ، بل حرصت على تمثله واعادة الاعتبار إليه ، وذلك ضمن صيغ مستحدثة على سبيل الإفصاح والتضمين ، في آن واحد .

ان ذلك كله ، مجتمعاً ومنفرداً ، لابد أن يكون قد ترك بصمات عميقة ، كثيراً أو قليلاً ، في البنيات الذاتية لنصوص الانجيل (القانونية) و رسائل الرسل والقديسين ، التي اعترف بها «قانونياً» . وما إيرادنا تلك الملاحظات الا لتبيان أن دراسة البنية الداخلية للمسيحية من مواقع نصوصها القانونية لم تعد أمراً متعلقاً بـ «المسيح الانجيلي النصي» فقط ، وإنما غدت تتصل بـ «المسيح الواقعي التاريخي» . ذلك لأن «النص» حيث يصاغ ، فانه لابد وأن يحمل في ثناياه على نحو متوسط وغير مباشر ، وجهاً من أوجه الواقع وشكلاً من أشكال التعبير عن نفسه و «البوح» عن آفاقه وتوجهاته واحتمالاته . وبذلك ، نكون قد حددنا دائرة النظر العامة ، التي سننطلق منها في تقصينا لبنية النصوص الانجيلية من داخلها وفي آلياتها الوظيفية المستنبطة من النص نفسه بعد تكونه في سياقه الشخص . ولكننا وإن فعلنا ذلك بالحدود المنطقية المنهجية ، فائتاسنواجه صعوبات جدية وكبيرة اثناء تطبيقه . أما هذه الصعوبات أو - على الأقل - شطر منها فيقوم على تداخل الشخص بالمجرد ، والحقيقي بالوهمي ، ومن ثم على ظهور المجرد مشخفاً والوهمي حقيقياً .



متى : يسوع المسيح بين مأساة «القادم المؤجل» والأمر الواقع الكنسي

إذا كنا قد انطلقنا من ان البحث في البنيات الداخلية للمسيحية ، عبر نصوصها القانونية المتواترة ، ينطوي على أكثر من وجه ، بما في ذلك تحميل تلك النصوص أدواراً ومواقف واعتبارات متعددة ومتشابكة ، ومتصلة ومتفاصلة ، فإن ذلك يجعل منه (من البحث) مهمة في غاية التعقيد والصعوبة والحساسية . وسوف نُقدم على دراسة نص انجيل متى في ضوء هذا الاعتبار الإشكالي ، ذلك النص الذي وجدناه مقدّمة عقيدية وتاريخية للنصوص الانجيلية الأخرى . نعني بذلك أننا ، هنا في هذا المنحى الدرسى الذي ننطلق منه ، نغض النظر عما اعتمدناه سابقاً من أن رسائل بولس كانت أول الكتابات المتداولة ، لنعلن أن انجيل متى يمثل - ضمن النصوص القانونية - الخطوات العقيدية الأولى على طريق المسيحية . فهو (الانجيل المذكور) بمحافظته ، بدرجة محددة أثينا عليها ، على العلاقة باليهودية ، مثل مقدمة الانسلاخ من هذه الأخيرة وم شروع الدخول في الدين الجديد .

في وسعنا أن نرى أحد المداخل الكبرى إلى انجيل متى مجسداً بالتمثيل الحكيمى التالي :

«أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فيها إذا يُمْلَح . انه لا يصلح لشيء إلا لأن يُطْرَحَ خارجاً وتُدوسه الناس»^(١) .
ويُتبع متى ذلك بالشرح التالى له :

«أنتم نور العالم . لا يمكن أن تخفى مدينة مبنية على جبل . ولا يوقد سراج

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٣/٥ .

ويوضع تحت المكياج لكن على المنارة لينير على كل من في البيت . هكذا فليضيء نوركم قدام الناس ليروا اعمالكم الصالحة ويمجدوا اباكم الذي في السموات»^(١) .

ان «ملح الأرض» يبرز ، هنا ، بمثابة منطلق الموقف الديني الجديد ، المسيحي . وهو ، بهذا الاعتبار التمثيلي ، يتمثل بـ «النور» الكوني ، الذي يتأصل في كل شيء ويغمر كل شيء . وإذا أعدنا ذلك إلى مقومات أكثر بدئية ، ظهر «ملح الأرض» و «النور» من حيث هما «الخصب الكوني» عامة . أما هذا فقد رأيناه أساساً ومنطلقاً وغاية للذهنية الاسطورية الشرقية القديمة (في الشرق الأدنى العربي) . فهو خصب الطبيعة الجنسي ، الذي يتماثل معه الخصب البشري والحيواني والنباتي الجنسي . وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فإن ما نقله الينا جوستين الشهيد - على صعيد هذه الزاوية العقدية من المسألة - ذو دلالة كبيرة وهامة . فلقد كتب محمداً مكان ولادة «يسوع المسيح» بشكل ملفت :

«ولد المسيح في اصطبل ثم لاذ بكهف»^(٢) .

وسوف نقرأ لدى لوقا الانجيلي ما يشي على ذلك ويفصّله . فبعد أن ولدته (يسوع) أمه مريم بفعل «الروح القدس» الذي نفخ في رحمها (أو الذي ضاجعها بحسب التعبير الوارد في الاسطورة المصرية) ، لفتته واضجعتة في مزود : «فولدت ابنها البكر فلفته واضجعتة في مذود لأنه لم يكن لهما موضع في المنزل . . . إنه قد ولد لكم اليوم مخلص وهو المسيح الرب في مدينة داود . وهذه علامة لكم . انكم تجدون طفلاً ملفوفاً مضجعا في مذود»^(٣) .

فإن يكون مكان ولادة الرب «اصطبلًا» وفي «مذود» ، يعني أن يكون قد اختير له المكان الأقدس أو الأنسب قداسة . ذلك أنه من الاصطبل ، وما يلحق به ويوجد فيه من مداود ، تنبثق الحياة بخصبها الوفير وآفاقها المستقبلية المطمئنة ، أي التي

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٤/٥ - ١٦ .

(٢) ضمن : عصام الدين حفني ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٣٢ .

(٣) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ٧/٢ ، ١١-١٢ .

تنطوي على «الخلاص» من قحط كوني . فهو (أي الاصطبل أو ، كذلك ، حظيرة الماشية)^(١) يمثل ، هنا ، البؤرة الجغرافية الطبيعية التي تحتضن - بعطف وطمأنينة - الحيوانات الأهلية المدججة المحضرة . ومن هنا - نتيين أحد الأبعاد الكبرى للتصور المسيحي للكون طبيعةً ونباتاً وحيواناً وإنساناً . ولا يخفى البعد الاسطوري الشرقي القديم في هذا التصور ؛ لكن ذلك البعد لم يحل دون حضور الخصوصية النوعية النسبية التي حملها الموقف المسيحي الجديد : إنه الخلاص الشامل الكلي بدلاً من خلاص (شرقي) محلي جزئي رغم ما يتلبسه من وهم الكونية الشمولية .

ولابد أننا نكتشف ما يغني ذلك التصور ويوسعه ويدل عليه بدلالات هامة حين نضعه ، مرة أخرى ، في علاقته مع «ملح الأرض» ، إضافة الى ما سيرد معنا عند منى في نطاق «الخراف والحمل» وغيرها من الحيوانات . فقد لاحظنا ، في موضع سابق من هذا الكتاب ، ان «يسوع نفسه» يظهر لنا - انجيلياً - بمثابة الحمل المذبوح من بداية العالم ، أي منذ حدوث «الخطيئة الأصلية» التي اقترن وجود هذا العالم بها بصفته الحصىلة التي ترتبت عليها . وقد كان من شأن تلك الخطيئة أن أحدث الرب «العمل» عقوبةً لنسل آدم وحواء على الفعلة التي قام بها هذان بغواية من أكثر الحيوانات احتيالاً ، وهو الحية . وهنا ، نلاحظ أن كفارة الخطيئة تتجسد مباشرة بعدها ، أي بعد هذا «الحدث المشؤم» بما يوازيها أهمية وخطورة ، وهو «ذبح الحمل» ، الذي علينا أن نفهمه ، هنا ، على أنه «الرب» نفسه . وإذن ، الرب يظهر - في هذا السياق - من حيث هو يسوع البدئي ، الذي استهدف به «الخطيئة» التي اقترفها الانسان ، أي الكائن الذي لم يكن منتمياً إلى مصاف الآلهة .

ان فهم «الخطيئة الأصلية» و«الحمل البدئي - سرمدي» و«ذبح الحمل منذ البدء» على ذلك النحو ، يضعنا أمام نقطتين تحددان النسق الرئيسي لتلك الأفكار الانجيلية . النقطة الأولى تكمن في أن حدوث «الخطيئة» كان بغاية إظهار «الكفارة» ، العظمى ، التي ينجزها يسوع الذبيح من أجل العالم . وهنا ، يبرز

(١) انظر : عصام الدين حنفي ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٣٢ .

اتجاه يسوع نحو العالم «الخطيئة» اتجاهاً يتمحور حول محبته له ؛ فكأنما الرب أمر ضمناً باحداث الخطيئة بغية إظهار محبته للخطاة ، وذلك عبر تقديمه نفسه كفارة لهم . وهنا ، تظهر المسيحية اليسوعية كلها وقد تمحورت حول الابن الذبيح^(١) ، الذي هو الأب المنتقم الجبار ، في آن واحد . وهذا ما يدعونا للإشارة إلى ما كنا أوردناه عن لودفيج هويرباخ من أن تصور «الابن» يندغم بتصور «الأب» ، ليصبح هو وحده (أي الابن) سيد الموقف . فهو ، من جهة «الأعلى» و«الأدنى» ، يظل السيد الأوحده ، مُلغياً الرب (والروح القدس أيضاً) ، حيث يوصلنا إلى «المحبة» التي تغمر الوجود بكامله . ان هذا الموقف المركب يبرز واضحاً في النص الانجيلي ، الذي نحن بصددده :

«تعالوا يامباركي أبي رثوا الملك المعد لكم منذ انشاء العالم . لأنني جُعت فاطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريباً فأويتموني»^(٢) .

(١) من الهام على الصعيد التاريخي المنهجي ، أن نشير إلى أن «ذبيح الابن» الأول كان قد شكل تقليداً رئيسياً في حياة الكنعانيين في فلسطين وشعوب أخرى . ولقد استند جيمس فريزر على مجموعة من نتائج الأبحاث الأثرية حين وصل إلى القول التالي : «فقد اكتشف الأستاذ (ستوارت ماكاليستر) في حفرياته في (جيزر) في فلسطين مكاناً للدفن . . . وقد عثر في أرض تلك الحجرة على خمسة عشر هيكلأ آدمياً ، أو بالأحرى أربعة عشر هيكلأ ونصف هيكل . . . وهذا الهيكل لفتاة تبلغ الرابعة عشرة من عمرها ، وقد قطع جسدها أونشر من الوسط . . . ان اصحاب هذه الهياكل كانوا ينتمون إلى عنصر سبق ظهور العبريين في فلسطين . . . فإذا كان الأمر كذلك ، فانه يحق لنا أن نفترض أن الهيكل النصفى للفتاة الذي عثر عليه في (جيزر) ، يعد أثراً باقياً لعادة التضحية بانسان ، تلك العادة التي لعبت دوراً بارزاً في الديانة الكنعانية . . . فقد اعتقد الباحثون ، أن هذه المخلقات تشهد على عادة التضحية بالابن الأول تكريماً للاله المحلي . . . لماذا شق جسد الفتاة أونشر على هذا النحو ؟ . . . ان شطر الفتاة الضحية الى شطرين ربما كان يقصد به الوقاية الجماعية او التصديق على عهد» . (جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم - الجزء الأول ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٥٠ - ٢٥٣) .

ويبقى أن نقول ان المسيحية ، التي تمثل وريثاً لذلك التقليد الكنعاني وغيره ، اختزلت الأبناء الأوائل بـ «الابن الأول الوحيد» ، الذي هو يسوع الذبيح أولاً ؛ واستبدلت الفداء الحيواني ، الذي وجد كذلك عند الكنعانيين وشعوب الشرق الأخرى وعند اليهود العبرانيين ، بالفداء البشري ممثلاً بذلك الابن «الذبيح منذ بداءة العالم» ثانياً .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس متى ٢٥ / ٣٤ - ٣٥ .

ان هذا «الملك المعد» لهم منذ انشاء العالم هو الكفارة عن الخطيئة التي احدثت ايضاً منذ إنشاء العالم . وهذا يشير إلى أن كل شيء يحدث وفق هذه الثنائية الجدلية حتى تُبلغ الغاية القصوى . ولاشك أن النص المتوي يضع في حسبانهِ قصور الخطيئة التوراتي على نحو سلبي ، حيث يجري تجاوز هذه الأخيرة من خلال «العهد» الكبير ، الذي يقطعهُ الرب على نفسه حيال مُصطَفِيهِ ومُختارِيهِ والذي يلتزم به هؤلاء التزاماً تاماً في حال بقائهم «الشعب المصطفى المختار» . بيد أن متى لا يتوقف عند ذلك «العهد» ، الذي يُحرق تباعاً ، وكأنما يمثل مصيدة لأولئك الذين يشعرون أكثر الأحيان بأن الرب سُمِّلهم أكثر من طاقتهم . انه (متى) يطرح المسألة من حيث «البدء» ؛ فإما هو مقدّر ، يتم تقديره من البدء . ومن ثم ، فإن تحقيق «الخلاص» لا يتم بجهد يبذل من المؤمنين ، بل عبر «محبة» الرب لهم أولاً وأخيراً . ولقد أشرنا ، في موضع سابق ، إلى أن المسيحية عموماً (والنص المتوي ضمن ذلك) انطلقت من شمولية الخطيئة واصليتها ؛ فهي شاملة لكل الناس ، وهي ذات وجوه كامنة في الطبيعة الانسانية . ولذلك ، محبة الرب لهم وحدها هي الكفيلة بخلاصهم من تلك الخطيئة ، وبدخولهم عالم القداسة .

وهذا الموقف برمته يظهر عبر النقطة الثانية للمسألة المطروحة ، وهي تلك التي تتمثل بأن تصور «الذبيح» للحمل يندغم - هنا - بتصور «الإعقام» الجنسي الطبيعي ؛ بحيث يتعين على الكون كله أن يعيش مرحلة من القلق والاضطراب والعقم قبل أن يحقق هدوءه واستقراره وخصبه . والنص الانجيلي يعلن أن الرب يسوع المخلص سيقدم لـ «المؤمنين الشهداء» الملك الذي أعده لهم مع أبيه مقابل ما فعلوه هم تجاهه حال هيمنة الشر والفظاعة . وهذا من شأنه أن يعلمنا أن هذه الهيمنة كانت مخترقة من قبل من وقف ضدها ، أي من قبل القلة القليلة من الذين ادركوا الرب قبل أن يروه ويسمعوا به ، من حيث هو . ولعلنا نتبين ، في هذه الوضعية ، ما يدعو للقول بأن هنالك خطأ ما من التاريخية في عملية الانتقال من الخطيئة إلى الفداء ، تلك التاريخية التي تفصح عن نفسها في شكل من أشكال المقاومة السلبية التي يبديها المؤمنون للعالم المحيط بهم . وهنا ، نكاد نلاحظ ونرى ونسمع ونتلمس القوى الاجتماعية المشخصة ، التي حملت أعباء التاريخ دون أن تقطف منه إلا الثمار العجفاء ، والتي - لذلك - ترنو إلى الحمل الأعظم الذي

يمنحها الرجاء والذي سيمنحها الخلاص قطعاً وحتماً
 وجدير بالذكر أن متى الانجيلي يتحدث عن «الخراف الضالة» ، بمثابتها
 الهدف الذي يتجه إلى المخلص . وهنا ، نواجه محدودية التصورين الرئيسيين
 المعنيين ، تصور «الجنس الكوني» و «الخلاص الكوني» . وكما هو واضح ، فإن
 هذه المحدودية تستمد شخصيتها من توجه متى اليهودي . فـ «الخراف الضالة»
 هي ، هنا ، اليهود الذين «انحرفوا» عن طريق الرب . أما التوجه إلى هؤلاء
 المنحرفين فقط فمن شأنه أن يحد من كونية الخطيئة و «الخلاص» ويضعفها . في
 هذه الحالة ، يمكن القول ان متى يقدم إلينا كونية يسوعية ناقصة ، بقطر ناقص ،
 ويحيل يسوع المسيح إلى مخلص جزئي . وحيث يكون الأمر كذلك ، يغدو ملاحظاً
 أننا - بهذا المعنى وبهذا القدر - حططنا على أرض يهودية ، حتى وإن سقط الحديث
 عن شعب متميز اتنياً ومختار من الرب ، على هذا الأساس^(١) .

ان النص الانجيلي المتوحي يقدم إلينا عقيدة الخطيئة والخلاص أو «الفضيلة»
 من موقع أن «الخراف الضالة» لا تبقى ضالة أبدياً وإطلاقاً . فهذا الضلال طارئ
 وعارض وغير متأصل . أما مرد ذلك فيعود إلى أن الخطيئة - وتعني هنا كما لاحظنا
 القحط والمحل - هي خطيئة بقدر ما تمثل الوجه الثاني الآخر من الكون . في
 حين أن الفضيلة (أو الخلاص) - وتعني في هذا السياق الخصب والثراء - هي الوجه
 الأول من ذلك الأخير ، أي الكون . وهي ، لهذا ، فضيلة بقدر ما تمثل وجهاً
 متضاداً مع الخطيئة .

(١) لننقل النص المتوحي ، لتبين إلى أي حد كان فيه انجيل متى قد ظل غارقاً في العالم اليهودي ،
 مع الإشارة إلى أن هذا الموقف لم يكن حاسماً بصورة تامة :

«ثم خرج يسوع من هناك واتى إلى تخوم صور وصيدا . وإذا بامرأة كنعانية قد خرجت من
 تلك التخوم تصيح وتقول ارحمني ايها الرب ابن داود فإن ابنتي بها شيطاناً يعذبها جداً .
 فلم يجبها بكلمة . فدنا تلاميذه وسأله قائلين إصرفها فإنها تصيح في إثرنا . فأجاب
 وقال لهم لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من آل اسرائيل . فأثت وسجدت له قائلة أغثنني
 يارب . فأجاب قائلاً ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويلقى للكلاب . فقالت نعم يارب
 فان الكلاب تأكل من الفتات التي يسقط من موائد أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها
 يا امرأة عظيم إيمانك فليكن لك كما أردت . فشفيت ابنتها من تلك الساعة» . (نفس
 المصدر السابق ومعطيته ٢٨-٢١/١٥) .

ان المسار الزمني الكوني يظهر أمامنا ، والأمر على النحو الذي واجهنا ،
ضمن سيرة دائرية ذات قطبين اثنين ، هما الخطيئة والفضيلة ، القطع
والخصب ، المأساة والغبطة . وإذا كان الكون يجسد مسرحاً لعملية التعاقب من
الخصب (الفضيلة ، الغبطة) إلى القحط (الخطيئة ، المأساة) ومن هذا إلى ذاك ، فإنه
من الخطأ والعيب أن يستمر هذا التعاقب بعد ظهور (قيامة ، بعث) يسوع
المخلص . نريد أن نشير ، من هذا الموضع ، إلى أن تصور «التاريخ» - في صيغته
المسيحية الباكورة والناضجة - لم يتماثل مع سميّه في الشرق القديم .

فاذا كان ذلك التصور في الشرق المعني قد قام ، بالضبط ، على التعاقب
الدائري والدوري بين القطبين المذكورين ، فإنه - في صيغته تلك (المسيحية) -
يسلك طريقاً معدلة بدرجة متميزة . فالتاريخ يبدأ - بحسب هذه الأخيرة - مع
سقوط آدم في الخطيئة . إذ انطلاقاً من هنا وفي اعقابه ، تنحو سيرة الكون نحواً
يتجاذبه حدّ يتجسد بخلاص جزئي وطارئ وعرضي ، وجذرٌ يتمثل بكوارث
وأزمات ومآسٍ تنتاب البشرية ، ومن ضمنها اليهود . وهنا ، نلاحظ وجود
استمرار عميق للأسطورة الشرقية في هذا التصور المسيحي . ان الخصب يستدعي
القحط ويشترطه ؛ والعكس وارد وصحيح وضروري . وفي هذه المرحلة من
«التاريخ» يتدخل اله الخير (الله) لتكريس الخصب والضياء والنور ، أي لاختصاب
الأرض بالماء والانتاج الزراعي ، ومن ثم لجعل أصحابها المندمجين بها «ملحها» و
«روحها» و «ذاتها» . كما يتدخل اله الشر (ابليس أو الشيطان) لمنع ذلك كله ،

= ان متى يقدم يسوع المسيح على أنه يهودي بالمعنى الاتني والعقيدي الديني ، الذي ينطوي على
تصور «الشعب المصطفى المختار» . وقد لاحظنا كيف يضع يسوع «البنين» مقابل «الكلاب» ،
بحيث يبرز اليهود هنا بمثابتهم «بني آدم» ، في حين يظهر الآخرون - بمن فيهم كما لاحظنا
الكنعانيون - بمثابتهم «كلاباً» . وبالطبع ، كان على هذا يسوع الانجيلي المتوي (اليهودي) أن
يسقط في أتون الصراع من أجل يسوع أمي يرتفع جميع الناس به وعلى يديه إلى مصاف الإنسانية
الموحدة ، وإن على نحو وهمي مجرد ، وجدير بالذكر أن النص المتوي يجعل يسوع ينظر إلى
الحواريين الاثني عشر بمثابتهم الوريثين الشرعيين لـ «اسباط اسرائيل الاثني عشر» ، بحيث
يغدو الموقف العقيدي الديني والسياسي في ايدي اليهود وحدهم ، وذلك حيث يحل يوم الدينونة و
«يجلس ابن البشر على كرسي مجده» . (انظر . نفس المصدر السابق ومعانيه ٢٨/١٩) .

وبالتالي للعمل على تسليط الفحط والظلام والخواء السديمي . وهنا ، تبرز «التجربة» التي كان على يسوع المسيح (مثلاً بالخصب) أن يمر بها لكي يظهر جديراً كل الجدارة بتسليم منصب المخلص ، حتى قبل حلول الخلاص^(١) .

ان «الملح» يمثل - هنا - موقفاً كونياً إخصابياً . فهو العنصر البدئي التكويني الذي يجسد نصف الكون . هذا النصف هو الخير الذي يبرز ويحكم ويهيمن ؛ حيث يكون النصف الآخر (الشر) مغلوباً ، منكسراً في «المعركة» . وبذلك ، فـ «الملح» لابد أن يكون «النور» ، الذي يجعل من العالم عالماً . إذ أن يضيء النور العالم ، يعني أن النور هو العالم الحق . ومن هنا ، قرأنا لدى متى : انتم نور العالم . وجدير بالذكر أن النص الانجيلي المتوي مليء بالمتعارضات ، التي تقوم - أساساً - على ثنائية الموقف التي تؤدي إلى البديل ، الثالث . فهذه المتعارضات هي التي منها يتكون التاريخ المسيحي (المتوي) ، الذي ينتهي حيث ينجز النصر :

«طوبى للجوع والعطاش إلى البر فإن لهم ملكوت السماوات»^(٢) ؛
أجل البر فإن لهم ملكوت السماوات»^(٣) ؛

«أكلهم بأمثال لأنهم يبصرون ولا يبصرون ويسمعون ولا يسمعون»^(٤) .
والمتعارضات تتحرك ضمن آلية مقدر لها قلياً أن تكون على ماهي عليه . أي إننا

(١) حول ذلك ، نجبرنا متى الانجيلي بتفصيلات طريقة تحمل سمات اسطورية ملحمة :
«حينئذ أخرج يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس . فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة وأخيراً جاع . فدنا إليه المجرب قائلاً إن كنت ابن الله فمُر أن تصير هذه الحجارة خبزاً . فأجاب قائلاً مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله . حينئذ أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأقامه على جناح الهيكل . وقال له ان كنت ابن الله فالتق بنفسك إلى أسفل لأنه مكتوب إنه يوصي ملائكته بك فتحملك على أيديها لئلا تصدم بحجر رجلك . فقال له يسوع مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك . فأخذه أيضاً إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها . وقال له اعطيك هذه كلها إن خررت ساجداً لي . حينئذ قال له يسوع اذهب يا شيطان فإنه قد كتب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد . حينئذ تركه إبليس وإذا ملائكة جاءت فصارت تخدمه» . (نفس المصدر السابق ومعطيانه ١١-٤/١) .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيانه ١٠،٦/٥ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيانه ١٣/١٣ .

نواجه غائية قبلية يتحرك «التاريخ» بمقتضاها ، حتى وإن ظهر في النص الانجيلي المعني هنا مايوحى بوجود احتمال الفعل البشري الذاتي . ذلك لأن ورود نصوص من هذا القبيل إنما يأتي لايضاح الموقف ولتقديم الامثلة ، كما هو الحال مثلاً في النص التالي :

«كل من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهمها يأتي الشرير ويخطئ ماقد زرع في قلبه . هذا الذي زرع على الطريق»^(١) .

فهنا ، لا نتيين وجود احتمال لفعل غير مقدر قبلاً ، بقدر مانواجه تأكيداً على أن الشرير إنما هو بالأصل شرير ، وعلى أن الخطيئة إنما هو بالأصل خاطيء ؛ ولذلك ، فإن هذا وذاك لا يخرجان عن كونهما من المقدرات الكونية القبلية . وبتعبير آخر ، يجري الحديث ، هنا ، عن «أصل» للشر وللخير . وثمة اضافة هامة تقوم على أن الحديث عن «متعارضات كونية» في النص المتوي هو حديث هن فعلين يتمان ضمن دورة كونية واحدة . نعني بذلك أن الكون إذ لا يكون خيراً ، يكون شريعاً . وهذا هو ما يحدد الهوية الكونية قبل قيامة يسوع وبعدها . فما دام هذا حملاً مذبوحاً منذ بداية العالم (أي منذ بداية التاريخ - الخطيئة) ، يبقى العالم غارقاً في الشر . وحتى «الشهداء» الذين يظهرون فيه ، يحملون الخطيئة . لأن قيامة يسوع وحدها - وبدءاً منها - هي التي تعني بداية انحسار عالم الخطيئة :

«والذي زرع على الأرض الحجرة هو الذي يسمع الكلمة ويقبلها من ساعته بفرح . ولكن ليس له فيه أصل وإنما هو إلى حين فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فلولوت يشك . والذي زرع في الشوك هو الذي يسمع الكلمة وهم هذا الدهر وخداع الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمرة . وأما الذي زرع في الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم فيعطي ثمرة الواحدة مئة والآخر ستين والآخر ثلاثين»^(٢) .

وقد أتى متى الانجيلي على ايضاح ذلك ، حين تحدث عن «مثل زؤان الحقل» . هاهنا ، نجبرنا عن «المعلم» وكيف دنا إليه «التلاميذ» يستوضحونه ذلك المثل الذي قدمه لـ «الجموع» :

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٩/١٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٣/٢٠-٢٣ .

«فأجاب وقال لهم الذي زرع الزرع الجيد هو ابنُ البشر . والحقل هو العالم . والزرع الجيد هو بنو الملكوت . والزرعان هو بنو الشرير . والعدو الذي زرعه هو ابليس . والحصاد هو منتهى الدهر . والحصادون هم الملائكة»^(١) .

في هذا الايضاح ، تبرز أمامنا مجموعة من التصورات الكونية والرؤى ياوية ، التي تلخص فهم الانجيل المشوي للخلاص والمخلص وما يقابلها ويناقضها . ويبدو ، هنا ، ابن البشر وابليس بصفتهما قطبي الرحى ؛ إذ حولهما تدور كل مظاهر الكون ، التي تلخص - بدورها - بالخير والشر . فإذا كان «الحصاد» هو «منتهى الدهر» ، فإن «الزرع» هو «مبتدى الدهر» . وكلا الأمرين يتصلان ببعضهما بعضاً على سبيل التضايف . فالواحد منهما يُعرف بالثاني ويعرف به . بيد أن مبتداهما ومنتهاهما متضمان ، أصلاً ، في «القدر المكتوب» ، في «الكلمة» ، التي إذ تُعلم عن ذلك في القبل ، فإنها تتجسد

«بالخفيات منذ انشاء العالم»^(٢) .

وإذن ، لابد وأن يوضع في الحسبان ما سيحل بالعالم من خراب ودمار ، حيث تحل «الساعة» ويحل «يوم الدينونة» ، الذي يهزم فيه «ابليس» ، ذلك العدو الذي زرع الزرع ، وحال - لمرحلة - دون طلوع الزرع الجيد^(٣) .

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٣٧/١٣-٣٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ٣٥/١٣ .

(٣) ان وجود «الشیطان» أو «ابليس» في المسيحية اليسوعية مثل أمراً موازياً ، في لزومه وضرورته ، لوجود «الرب الاله» . ذلك لأن من شأن لزومه وضرورته هذين أن يحافظ على تصور «الخطيئة الأصلية منذ انشاء العالم» ، التي يكفر يسوع المسيح عنها تكفيراً يتم بالصورة الأكثر جذرية ، وهي «الصليب» . فإبليس أو الشيطان هو الذي أغوى آدم على الخطيئة مع الرب ، بحيث ترتب على البشرية اللاحقة كلها أن تتحمل وزر ذلك ومسؤوليته . بيد أن «الفداء» إذ يتم ، فإنه يتم بشخص المخلص يسوع المسيح فقط . لأن ذلك يكتسب طابع واجب الكفاية ، كما اشرنا إلى ذلك مراراً . وهذا يدعو إلى النظر إلى الفداء على أنه نقيض الخطيئة ، بقدر ما مثلت هذه نقيض ذلك .

ومن هنا ، نفهم ما يكتبه سيغموند فرويد في هذا الصدد ، ولكن بعد منحه ذلك المنحى =

ويهمنا ، في هذا المتعطف من المسألة ، أن نشير إلى أن تلك المرحلة الجديدة والمنقمة بالآلام والأحزان والغوايات والمكابرة تجدد نهايتها مع ظهور يسوع المسيح (ولادته المعجزة وتبشيره وصلبه وقيامته ورفعته وبعثته) . إذ هاهنا ، يكف الكون عن الاستمرار ضمن النسق المعتاد ، ليسلك منحى جديداً كل الجدة . فهو ، بدءاً من هنا ، يختط طريقاً ذا بعد واحد وحيد ، طريقاً ذا بعد مستقيم أولاً وغائياً ثانياً ؛ فهو مستقيم بمعنى أنه لم يعد أمام ضرورة الالتفاف على نقطة الابتداء أو ما يوازيها ، وبمعنى أنه لم يعد هنالك أكثر من طرف واحد يجسد المطلق الأقصى بعيداً عن وجود ما عهدناه من قبل في نطاق التعارضات ؛ وهو غائي لأنه يرنو إلى تحقيق هدفه ذاك انطلق الأقصى والنهائي . وأتشد ، ينتهي «التاريخ» ، لبدء «يوم الرب» و«عالمه» ، اللذان هما التعبير الأوفى والأسمى عن الخلاص المطلق ، ومن ثم عن السعادة المطلقة . وحيث ينتهي «التاريخ» ، تكف المقاييس البشرية عن أن يكون معمولاً بها على صعيد الوجود . إن الخصب والفضيلة ، المحبة والرحمة تعمّر الكون بكامله ، حيث يتاح لهذا الأخير أن يكتشف اسمه الحقيقي الذي هو «الكون المسيحي» .

هكذا ، يكتسب «الخصب» دلالة كونية شمولية لا يفقدها بعد إذ يكون قد اكتسبها . إن يسوع المسيح يتجلى ، والحال كذلك ، في هذا الكون الخصيب . ويكون ذلك بعد أن

«تظهر علامة ابن البشر في السماء . . . ويرون ابن البشر آتياً على سحاب

= الشمولي الكوني . نقرأ لدى فرويد مايلي : «أما في نظر مسيحي القرون الماضية الورع فإن الإيمان بالشيطان كان واجباً لا يقل الزامية عن الإيمان بالله . فقد كان بحاجة إلى الشيطان كما يتمكن من مواجهة الله . ولما تناقص الإيمان في زمن لاحق ، ولأسباب شتى ، أصاب ما أصاب شخص الشيطان» . (سيغموند فرويد : إبليس في التحليل النفسي - ترجمة جورج طرابيشي ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٢ ، ص ٢٤) .

وجدير بالذكر أن المسيحية الأولى الباكّة تأثرت ، في تصورهما لإبليس أو الشيطان ، ليس باليهودية فقط ، حيث يبرز هذا ، هنا ، بمثابته الحيّة الخادعة ، وإنما كذلك بالزرادشتية الإيرانية ؛ وإن كان هذا التأثير قد تم من موقع إعادة ترتيب وظائف إله هذه العقيدة الأخيرة ، وهو «زر واستر» ، بما في ذلك أيضاً من الموقع الذي يتخذ هذا الإله من الشر والخير . (انظر حول ذلك : رنولد توينبي - تاريخ البشرية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٩١ - ٢٩٢) .

السماء وبقوة وجلال عظيمين»^(١) .

والوضع ذاته يبرز ، أيضاً ، على صعيد التجلي الكوني النباتي . فبحسب بعض الباحثين ، ومنهم Robertson ، نستطيع ان نرى في يسوع المسيح إله النباتات جرى صلبه حيث علق على شجرة مقدسة^(٢) . وهذا يشير إلى ان يسوع المسيح يظهر ، هنا ، وكأنه الروح الكونية المقدسة المنبئة في النبات بمثابة عنصر الخصب والإخصاب . ولعله من الوارد ان يقال ، في هذا السياق ، بأن ما أتى في «نبوءة أشعيا» من تمثيل ليسوع ، ذو دلالة خاصة بالنسبة إلى ما نحن في صدد البحث فيه . فقد جاء هناك مايلي :

«ويخرج قضيب من جذر يسي ويبنى فرع من أصوله . ويستقر عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح العلم وتقوى الرب»^(٣) .

ان «الفرع» أو «الفصن» هو تمثيل على يسوع المسيح ، الذي هو ، هنا ، بمثابة القوة المستقبلية الكبرى ، التي ستحقق غاياتها الكبرى متكئة على «الجذع» أو «الجذر» ، أي على الأصول اليهودية الربانية . ويمكن الاضافة بأن «القضيب» ، الذي هو تعبير تمثيلي عن يسوع المسيح ، يمكن النظر إليه على أنه ، هو كذلك ، الجذر نفسه ؛ هذا ، بالطبع ، اذا انطلقنا من تصور متى عن يسوع المسيح بما هو بدء العالم . اي اننا ، هنا ، ننظر إلى الأصل فرعاً وإلى الفرع أصلاً ، طالما أنها كليهما يغطيان الكون في القبل والبعد . واذا ما عدنا إلى مسألة «الخراف الضالة» ، التي قدمها متى الانجيلي ، لاحظنا أننا نوجد على أرض ما تزال تحتل منها الذهنية الاسطورية الشرقية القديمة واليهودية حيزاً ملحوظاً .

ان «الروح الحيوانية» هي ، مثلها مثل «الروح النباتية» ، التعبير الكوني الشمولي عن وجود يسوع المسيح . ولنلاحظ العلاقة الطريفة التالية بين هذا الأخير

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٢٤ / ٣٠ .

(٢) انظر : عصام الدين حفي ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٨٩ - ٩١ .

(٣) الكتاب المقدس - نبوءة أشعيا ١١ / ٢-١ .

بصفته «الحمل المذبح منذ بدء العالم» وبينه بمثابة المخلص الآتي ليخلص
«الخراف الضالة» ؛ فكأنما الأمر ، هنا ، يقوم على إله ينطلق من الطبيعة النباتية
لينتهي إليها وفيها . ان الأمر يغدو أكثر محسوسة وافصاحاً حين نأخذ باعتبارنا ورود
ذكر الحيوانات في انجيل متى (وغيره من الاناجيل) وما يدور حولها ويدخل في
نطاقها . فـ «الحمل المذبح منذ البدء» تتجه نظاره ، بالذات ، صوب الخراف
والإتان والجحاش ، أي صوب الحظائر والاصطبلات ، التي كان قد ولد فيها ،
كما مر معنا :

«انطلقوا إلى الخراف الضالة»^(١) ؛

«فأجاب وقال لهم لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة»^(٢) ؛

«ومتى جاء ابن البشر في مجده وجميع الملائكة معه فحينئذ يجلس على عرش
مجده . وتجمع لديه كل الأمم فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف
من الجداء . وسيقم الخراف عن يمينه والجداء عن يساره»^(٣)

ان «الخراف الضالة» نستطيع أن نفهمها ، أيضاً وعلى نحو تضايفي ، من حيث هي
الخراف المعجزة ، التي فقدت رءاءها وخصبها بعد أن ضلت وسقطت في
«الخطيئة» ، وغدت - من ثم - بحاجة إلى من يخصبها ويعيد لها رءاءها المفقود .
وهذا وحده هو الذي يتمثل بالمخلص يسوع المسيح ، أي يذاك الذي كان حملاً ذبيحاً
وبذرة خلاص ، منذ البدء . ولعلنا نقول أكثر من ذلك ، حيث نعلن أن
«عجف» الخراف هذا هو التجسيد لـ «ذبح» الحمل على أيدي «الخطاة» . وجدير
بالملاحظة ما كان يثبته لفظ «خراف» أو «جداء» أو «حملان» من شعور بضرورة
تقديم الأضحية كفارة عن الخطيئة ، التي قد يكون كل واحد من اليهود ارتكبها في
عمره . وإذا كان يسوع قد توجه إلى هذه «الحملان والخراف والجداء الضالة» ، فانه
في تقديمه نفسه كفارة وحيدة عما فعل أولئك من آثام ، يقود إلى ما يدعو على
«الغبطة» والسعادة (علماً ان يسوع المسيح يتوجه في آخر الانجيل المتوي إلى «الأمم
عموماً» ، وليس إلى تلك الخراف . . . فقط) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع للقديس متى ١٠/٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٥/٢٤ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٥/٣١-٣٣ .

ويتحدث اللاهوتي دانيال روبس عن ان «لفظة الحمل وحدها كانت تبحث في نفس كل يهودي صورة الضحية المبذولة كفارة عن المآثم ، والحمل الوديع الذي بات منذ الجلاء عن بلاد مصر ، ومنذ عهد موسى ، يفتدي اسرائيل بدمه . ولا شك ان بعض الذين طرقت آذانهم تلك الكلمات ، قد ذكروا النصوص النبوية المتضمنة في سفر اشعيا : (قَدَمٌ وهو خاضع ، ولم يفتح فاه . كشاة سيق إلى الذبح وكحمل صامت أمام الذين يجزونه ولم يفتح فاه) . . . ذكروا تلك النصوص التي أنبأ فيها الرائي العظيم ، بالمسيح المتعذب ، والضحية المبذولة فدية عن الناس»^(١) . أما هذه الفدية فهي الشرط الضروري والقطعي لحدوث «ميلاد جديد» للبشرية يتم بموجبه انتقال العالم من الخطيئة إلى «الفضيلة» ممثلة بـ «الجنة»^(٢) .

وإنما للوحة الخصب والإخصاب الكونية ، التي تطالعنا في انجيل متى التلفيقي ، نلاحظ دور الجحش والأتان بارزاً في حياة يسوع المسيح نفسه . فهذا الدور يظهر وكأنه مقترن باحدى سماته البارزة ، التي هي «الوداعة» والتي أريد لها أن تكون النقيض للقسوة والطغيان والجلافة ، تلك الصفات التي كانت غالبة في مرحلة الأزمة الكبرى للمجتمع الروماني . ان يسوع الوديع يدخل الى اورشليم

-
- ١) دانيال روبس : يسوع في زمانه - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٨ .
- ٢) نلاحظ في هذا المعقد للمسألة ، أن الحيوان يتداخل بالإنسان كما يتداخل هذا بذاك ، واصلين عبر ذلك إلى «القدبة» أو «الأضحية» . ويمكن أن نستعيد - في هذا السياق - قصة «العجل الذهبي» الذي عبده اليهود العبرانيون والذي أراد موسى أن يحظر عبادته ، كما يأتي في نصوص العهد العتيق ، لتبين أهمية ودلالة الحيوانات منذ المراحل السابقة على أولئك وحتى المسيحية وما بعدها . فإذا كان «الحمل» قد برز في المسيحية الباكرا ، فإن البقرة كانت قد احتلت مركزاً كبيراً فيما قبل . فلقد اعتبرت هذه الأخيرة تجسداً للفداء الذي يشمل كل أفراد القبيلة . ولما كان من الصعب ان يمتلك كل فرد «بقرة ذهبية» ، فقد تحول العُرف إلى بقرة عادية حية بمتسع معظم الافراد ان يملكوها ويفتدوا بها انفسهم . وقد علق على ذلك جيمس فريزر قائلاً : «وبذلك أصبح في استطاعة الفقير والوضيع ان يقوموا بهذه الشعائر ، وبذلك فتحت أبواب الجنة لحشد هائل من الناس ، ولولا ذلك لظلت مغلفة درنهم» . (جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم - الجزء الأول ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٢٣) .
- وكما لاحظنا فيما قبل ، فإن الفداء اليهودي كان فداء عين ، فداء مفروضاً على كل فرد ، في حين أنه مع المسيحية اختزل بفعل واحد يتمثل بـ «يسوع الفادي» .

راكباً على أذن وجحش ، ليحدث الأمر الجلل ، الذي هو تحديه « لقوى الطاغوت » في عقور دارها ، وكرزه بالبشارة العظمى . وهنا ، لابد أن نلاحظ أن المسألة تدور على موقف جد عصيب ومعقد : شجاعة القوة الغاشمة بـ « قوة الايمان » ، والخراب بأغصان الشجر . ولاشك أن في هذا المشهد لحظات من الحقيقة التاريخية المتمثلة بالمرحلة الصعبة والطويلة ، التي كان على المسيحية الباكورة أن تجتازها وهي عزلاء إلا من قوة الايمان بضرورة سقوط «عالم الخطيئة» ، الذي بلغ المنتهى في الفظاعة ، وبناء «عالم الملكوت» الذي يتعايش فيه «الحمل إلى جانب الأسد» :

«ولما قُربوا من اورشليم وجاءوا إلى بيت فاجي عند جبل الزيتون حينئذ ارسل يسوع تلميذين . وقال لهما اذهبا إلى القرية التي أمامكما وللوقت تجدان أتاناً مربوطاً وجحشاً معها فاحلاهما وأتياني بهما . فإن قال لكما شيئاً فقولوا الرب يحتاج إليهما فيرسلهما للوقت . . . قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً على أتانٍ وجحشٍ ابنِ أتانٍ . فذهب التلميذان وصنعا كما أمرهما يسوع . وأتيا بالأتان والجحش ووضعا ثيابهما عليهما وأركباه . وفرش الجمع الكثير ثيابهم في الطريق وآخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها على الطريق»^(١) .

وإذا كان يسوع المسيح مخلصاً بحق أو المخلص الحق ، فلا بد أن يكون شامل الكونية وكليتها . من هذا الموقع ، لا يصح أن يظهر متجلباً في الطبيعة المباشرة والنبات والحيوان فحسب ؛ ان كونه تلك تقتضي أن يكون ذلك المخلص الذي يحيط بكل شيء ، ويتجلى في كل شيء ، ويقدر على كل شيء . وهذا من سمات الآلهة ، أو البشر الآلهة . فالأزمة العظمى الواقعة لا يحلها إلا كائن أعظم ، أي كائن من ذلك الطراز الذي يخترق تلك الأزمة ، حيث يتجاوزها ويجردها و «يخترقها» وينتصر عليها بـ «قوة الملكوت الأعظم» . مثل هذا الكائن يقدمه متى باسم «ابن البشر»^(٢) و «ابن الله»^(٣) و «الرب»^(٤) في آن واحد^(٥) . فهو ، على هذا ،

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٢١/١-٣ ، ٨٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٢/٨ ؛ ١٦/١٣ .

(٣) لنلاحظ القوة التي يتمتع بها «ابن الله» في النص التالي :

«قال لهم يسوع وأنتم من تقولون إنني هو . أجاب سمعان بطرس قائلاً أنت المسيح ابن الله =

يلم بالكون من اطرافه جميعاً ومجتمعاً ، وباقتداره ان ينتصر على الجميع دون منازع . ونلاحظ ، هنا ، أن تصور «الابن» هو المركزي الرئيسي ، الذي من موقعه وعنده تتمحور تلك التصورات الثلاثة . وهذا يتضح من سؤال يسوع والاجابة التي يتلقاها على سؤاله :

« . . . سألت تلاميذه قائلاً من تقول الناس إن ابن البشر هو . فقالوا قوم يقولون إنه يوحنا المعمدان وآخرون إنه إيليا وآخرون إنه إرميا أو واحد من الأنبياء . قال لهم يسوع وأنتم من تقولون إنني هو . أجاب سيمعان بطرس قائلاً أنت المسيح ابن الله الحي»^(١) .

الحي . فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سيمعان بُن يونا فإنه ليس لحم ولا دم كشف لك هذا لكن أبي الذي في السماوات . وأنا أقول لك أنت الصِّفَاءُ وعلى هذه الصِّفَاءِ سأبني كنيسي وأبوابُ الجحيم لن تقوى عليها» . (نفس المصدر السابق ومعطياته ١٦/١٥-١٨) .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطياته ٢٥/١١ ؛ ٢٨/٦ .

(٥) ان وحدة الابن بالاب في شخص الرب نواجهها بصور اسطورية متميزة وواضحة في الاسطورة السومرية البابلية ، على نحو خاص . فشخصية جلجامش تبرز ، هنا ، بمثابتها الاكثر جلاء على هذا الصعيد . فهو يتمتع بالقدرة على الفعل الكوني من موقع كونه الهاً وبشراً ، بحيث لا يكون له منازع في المدينة التي يحكمها (أي في العالم الذي يدين له) . ومع الاحتفاظ بخصوصيات الموقف بنوياً ووظيفياً ، يمكن القول بأن يسوع المسيح يمثل ، هنا ، الوريث الديني لجلجامش الاسطوري .

تعلمنا اسطورة «جلجامش» عن هذا ما يلي :

«بعد أن خُلِقَ جلجامش ، وأحسن الاله العظيم خلقه

حياء (شمش) السماوي بالحسن ، وخصه (أدد) بالبطولة

جعل الآلهة العظام صورة جلجامش تامة كاملة

كان طوله أحد عشر ذراعاً وعرض صدره تسعة أشبار

ثلثان منه إله ، وثلثه الباقي بشر

وهيئة جسمه لا نظير لها» . (طه باقر : ملحمة كلكامش - دون ذكر لتاريخ النشر

ومكانه ، ص ٣٨) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٦/١٣-١٦ .

إن نص متى الانجيلي يقدم اللوحة الكونية الكبرى ، التي يشغلها المخلص يسوع المسيح ، من حيث هي لوحة تلتقي فيها كل الأوجه والآفاق والاحتمالات الكونية ، ولكن أولاً وأخيراً بمشابقتها (أي اللوحة) تواتراً بين الخصب والعقم ، الخير والشر ، المحبة والحقد . وهذا ينطوي على القول بأن شخص يسوع المسيح يقتضي - لكي يكون كذلك ، أي مسيحاً مخلصاً - الاعتراف بوجود العقم والشر والحقد ، مجسداً ذلك كله بـ «ابليس - الشيطان» . وقد لاحظنا ، فيما تقدم ضمن التصور المسيحي لـ «التاريخ» ، أن الكون في مرحلته الثانية ، أي المرحلة المسيحية اليمسوعية «الخالصة» ، يكف عن أن يكون موضوع تجاذب بين الخصب والعقم والخير والشر والمحبة والحقد ؛ ذلك لأنه ، هنا ، يغدو ذا بعد واحد وذا نسيج واحد ، هو الخصب المطلق والخير المطلق والمحبة المطلقة . وعلى ذلك ، فـ «التاريخ» الذي يظهر قبل تلك المرحلة الخالصة بصفته مساراً يتدخل الاله الرب فيه جزئياً ، يتحول ، مع دخول هذه المرحلة ، إلى مسار إلهي كلياً ، إلى «تاريخ» يتدخل فيه الرب كلياً . إن «العناية» الالهية تكتسب في هذا المعقد من «التاريخ المسيحي» بعداً كلياً في القبل والآن والبعء ، ومن ثم في الكليات والجزئيات .

ولعله من قبيل الدقة أن يُقال ، هاهنا ، إن الرب الاله يغدو - في هذه المرحلة من التحول الكوني - هو نفسه «التاريخ الجديد» ، بحيث يبرز هذا الأخير بمشابهة تجلياً للرب الاله نفسه . ومع هذه المرحلة وبدءاً بها ، يغدو كل شيء لهذا الأخير وباسمه ، ويتخذ «التاريخ» ، من ثم ، وضعية المقدس المطلق . وهذا من شأنه أن يعني أن «التاريخ» ، بما هو تاريخ ، يسقط ، ليفسح الطريق أمام الأبدى متداخلاً بالسرمدى وأمام السرمدى متداخلاً بالأبدى . ولاشك أن الحديث عن «تاريخ» في المرحلة الأولى أمر وارد في المنظور المتوي المسيحي اليهودي ؛ ولكن وروده ذو طابع جزئي . ذلك لأن الفعل المضاد للرب الاله ممثلاً بفعل «ابليس - الشيطان» يخرج - بمعنى ما وربما بمعرفة الرب الاله نفسه - عن حدود دائرته ونطاق تأثيره . وجدير بالذكر أن قداسة الوضعية الجديدة لا تنفي العنصر الانساني ، بقدر ما تشترط وجوده وتقتضيه ، ولكن بمشابهة مندرجاً في نطاق الالهى ، حيث يوحد بينهما الروح القدس المنبث فيهما كليهما ، على حد سواء وبشكل تضافي . ولا بد من القول بأن الوصول إلى هذه الوضعية الجديدة المتسعة بكونها تجلياً للآب (الله)

والابن (يسوع) ، إنما هو - في نهاية الموقف وعمقه - وصول إلى الابن ، «ابن البشر» أولاً وأخيراً . ومن شأن ذلك أن يسمح بالقول بأن الدخول في مرحلة المقدّس المطلق هو - على سبيل التورية - دخول في عالم الانسان المسيحي المنتصر ، وهما ، بإيمانه على وضعه الشخص . بتعبير آخر نقول ، في هذه الحالة تبلغ مرحلة التجريد والايهام مبلغها الأقصى ، وذلك حيث يُعلن عن الظفر المؤرّر للمسيح يسوع (الحقيقي) على المسيح الدجال . ومن ثم ، بوسعنا القول أننا مع الاعلان عن «الانتصار النهائي الأقصى» ، نكون قد غدونا وجهاً لوجه أمام «الإخفاق النهائي الأقصى» للمؤمن المسيحي ، ذلك الإخفاق الذي يتجسد بلحظة الرفض الأخيرة للعالم الشخص ، العالم الذي يقوم على الإشكال والأحزان والآلام الحقيقية والمحيط بحياة المؤمن المذكور وبحياة زوجته واطفاله وأبناء طبقتة وفئته .

من موقع ذلك «الانتصار الأقصى - الإخفاق الأقصى» ، ننبين دلالة ما يعلنه متى الانجيلي بلسان يسوع المسيح :

«تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم منذ انشاء العالم»^(١) .

ان وراثة الملك الجديد بالنسبة إلى المؤمنين هي تعبير عن القطيعة المطلقة بهذا العالم المباشر . وبمزيد من التحليل النصّي التاريخي والتراثي لبنية ووظيفة هذه «الوراثة» الجديدة ، يتضح أن عملية استبدال جديدة تتم بين المواقع : فأُن يرث «مباركو الاب» ذلك الملك ، يعني أن يورثوا - إلى الأبد - العالم المباشر الشخص لـ «مُلعوني الرب» . ولاشك أننا إذ نواجه هذا الموقف ، فأننا نكون أمام ما سيتحول لاحقاً إلى الواقع الأكثر كثافة وحضوراً على الصعيد المسيحي ، وهو أن السلطة السياسية الامبراطورية سوف تعتبر نفسها الوريث الشرعي لهذا العالم و«لذلك العالم» على حد سواء . نعني بذلك ان النص المسيحي الانجيلي (وضمنه المتوي) بعد أن يتحول على أيدي السلطة السياسية إلى موقف وظيفي شخص ، يغدو في الحال الذي يتيح له أن يملك «مباركي الرب» ذلك «الملك المعد لهم منذ انشاء العالم» ، ولكن عبر الملك الذي بيدهم ، وهو ثروات المجتمع المادية التي يتجها متجون لا يستهلكونها ويستهلكها مستهلكون لا يتجونها .

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٣٤ / ٢٥ .

وإذا ما أوغلنا في تفحص النص الانجيلي المتوحي المثبت أعلاه ، استطعنا الوصول إلى فكرة أخرى من شأنها تدعيم الموقف التجريدي الإيهامي الذي تجسده مرحلة «المقدس المطلق» ، فإذا ما كنا قد تحدثنا عن مرحلة أولى يظهر فيها الأفق التاريخي المسيحي ظهوراً جزئياً ، وذلك حيث يدور الأمر على صراع إبليس مع المؤمنين الشهداء ، فإننا في النص الانجيلي المذكور نواجه نفيًا لهذا الأفق التاريخي . والأمر المعني يتمثل بالمفارقة الانجيلية (ومنها التوبة) الشهيرة القائمة على تصور «العالم القادم والمنتشأ - رغم ذلك - منذ بدء العالم» . فكيف يكون هذا «المعدُّ» منذ انشاء العالم مشروعاً ينبثق عن المستقبل ، وينطلق منه ؟ متى يعطينا الجواب ، حيث يشير إلى أن ذلك «المعدُّ» يظهر بشكل علامات وإشارات توحى به ، وتدل عليه ، وتقود إليه . وبهذا ، يكون العالم قد دخل «المعدُّ الوشيك الوقوع» ، أي «يوم الدينونة» . وهذا ما أتى على لسان يسوع ، بحسب متى ، حين أجاب عن السؤال التالي :

«... قلُّ لنا متى يكون هذا وما علامة مجيئك ومنتهى الدهر . فأجاب يسوع وقال لهم احذروا أن يضلَّكم أحد . لأن كثيرين سيأتون باسمي قائلين أنا المسيح ويضلُّون كثيرين . وستسمعون بحروب وبأخبار حروب . انظروا لا تقلقوا فإنه لا بد أن يكون هذا كله ولكن لا يكون المنتهى إذ ذاك . . . ومن يصبر إلى المنتهى يخلص» . . . الويل للحبالي والمرضعات في تلك الأيام . صلُّوا لئلا يكون هروبكم في شتاء أو سبت . لأنه سيكون حينئذ ضيق شديد لم يكن مثله منذ أول العالم إلى الآن ولن يكون . . . وحينئذ تظهر علامة ابن البشر في السماء وتنوح حينئذ جميع قبائل الأرض ويرون ابنَ البشر آتياً على سحب السماء بقوة وجلال عظيمين . . . فأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمها أحد ولا ملائكة السماوات إلا الأب وحده . وكما كانت أيام نوح كذلك يكون مجيءُ ابن البشر . لأنه كما كانوا قبل أيام الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى يوم دخل نوحُ التابوت»^(١) .

وينتهي يسوع خطابه إلى مباركيه من الصَّديقين بالأمر القطعي التالي الذي يمكن النظر

(١) نفس المصدر السابق ومعانيه ٢٤/٣-٦ ، ١٣ ، ١٩-٢١ ، ٣٠ ، ٣٦-٣٨ .

إليه على أنه وجه من أوجه الطقوسية الايمانية (الداخلية) للمسيحية الجديدة :

«فاسهروا إذن لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي الرب . واعلموا هذا أنه لو علم رب البيت في أية ساعة يأتي السارق لسهر ولم يدع بيته ينقب . فلذلك كونوا أنتم مستعدين لأنه يأتي ابن البشر في ساعة لا تعلمونها»^(١) .

ان وجه المفارقة يكمن في إشكالية العلاقة بين ماهو موجود منذ الأزل من طرف ، وبين ماهو . في نفس الحين - حصيلة الفعل المضاد لـ «الخطيئة والعقم والقحط» الكوني من طرف آخر . وقد حل يسوع هذه الإشكالية على نحو تقتضيه الرؤية اللاهوتية المسيحية ، وذلك حيث يرى في «التاريخ» تجسيدا لقوة إلهية غائية قبلية ، مستخدماً في هذا الحقل تصورات «الخطيئة» و«الخير» و«الشر» و«التجربة الابليسية» و«الصلاة» و«السهر» . لكن ما إن تتواري هذه المرحلة الأولى من «التاريخ» ، حتى نواجه تلك القوة الإلهية الغائية القبلية وقد أقصت ذلك الجناح إقصاء تاماً - ومعه «التجربة» و«الامتحان» - ، محققة بذلك الهيمنة المطلقة لـ «الابن» ، أي لصاحب «الملك المعد منذ انشاء العالم» . وهنا ، في «يوم» القيامة والدينونة ، يعيش المؤمنون عيشة مسيحية ربانية كاملة ، لأنهم كذا وكذا ، ولأنهم حالئذ أي

«في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون ولكن يكونون كملائكة الله في السماوات»^(٢) .

وجدير بالذكر ما يرد في نص متى من اشارات إلى «اليوم» و«الساعة» . فهذه الساعة وذاك اليوم هما البديل المطلق عن «التاريخ» الذي كان قائماً حين . ومن ثم ، لم يعد هنالك - بعد الدخول في «ما وراء أو ما بعد التاريخ» - إلا الانصياع للحياة الجديدة المتسمة بالسكون والدعة والهدوء . فكأنما ذلك يأتي رداً على «تلك» الحياة الصاخبة بالصراع والألام . ومع الإشارة السريعة إلى أن هذا الأمر يوحى - على نحو أو آخر - بصلة ما مع العالم «الأفلاطوني الجديد» ، بما ينطوي عليه من تعارض مطلق بين المتحرك (الناقص) والساكن (الكامل) ، فإن المفارقة المنوّه بها من

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٢٤/٤٢-٤٤ .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس يوحنا ٢٢/٣٠ .

قبل تجد حلها الانجيلي في توحيد غائي قبلي بين القبل والبعد ؛ أما هذا التوحيد فيتم عبر تفتيت الزمان التاريخي التراثي لصالح ما ورد لدى متى الانجيلي تحت حدّ «التجربة» والخروج منها إلى ما «فوق التجربة» وما «فوق الزمان التاريخي التراثي»^(١) .

وإذا كان الرب الاله قد ظهر لمأماً في التاريخ اليهودي ، وذلك خصوصاً في أثناء «الأزمات العظمى» ، فإنه ، في التاريخ المسيحي - يغدو جوهر هذا الأخير وأوجه تجليه بصورة مستديمة وقطعية . إن ذلك يبرز حتى في صيغته العليا ، أي في الصيغة التي يظهر فيها الاله الرب ناسوتاً أولاً ، وحتى حين يكون ظهوره هذا في «المرحلة الأولى» ظهوراً غير تامّ ثانياً ، وحتى بعد أن يبلغ «الساعة القصوى» أو «يوم الملكوت» المؤزر ثالثاً (مع أن الرب الاله في هذه الحالة الثالثة يتغلب على التاريخ ويدخل في العالم الجديد الذي يغدو هو نفسه تجلياً له ، وهو عالم الملكوت) . وحيث يكون الأمر على هذا النسق ، فإنه يغدو من قبيل عدم الدقة أن نقول ، مع البانج . ويدجيري : «العنصر الأساسي في النظرة المسيحية الصحيحة هو الاقتناع في ضرورة ظهور الله في التاريخ في شكل انساني من أجل خلاص البشر بعد أن غدوا فاسدين بخطيئة آدم . وهذه العقيدة في تجسيد الله ، تكون الفرق من حيث الأساس ، بصورة حاسمة بين المسيحية وبين النظرات التوحيدية الأخرى إلى

(١) بنظر كارل ياسبرز إلى هذه «المفارقة» على أنها «إبهام مذهب» ، أي إبهام تقتضي المسيحية وجوده لكي تزيل التعارض بين «الآتي» في «القبل» وبين «القبل» في «الآتي» . ويفسر الفيلسوف الوجودي المذكور ذلك الإبهام بقوله : «الملكوت آت ، وهو سلفاً موجود . وما سوف لا يتحقق إلا في المستقبل هو سلفاً موجود يفعل في العالم . إن اصفر حبة ، مثل حبة الخردل ، تنجب دوحه عظمى ، وعلى هذا المتوال أيضاً حال الملكوت» . (كارل ياسبرز : فلاسفة انسانيون - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ص ١٩١) . بيد أن هذا «التفسير الياسبرزي» يغفل اللحظة هامة من الفعل الذي يقوم به «الموجود سلفاً» في هذا العالم . تلك اللحظة تكمن في أن «الفعل» الذي يتم في هذا العالم ، ليس صنيع ذلك «الموجود سلفاً» ، أي «الملكوت» فقط إنه ، كذلك ، حصيلة ما يقوم به الطرف «الأخر» المناهض لـ «الملكوت» والمناقض له ، وهو «ابليس - الشيطان» . وهذا الرأي له مشروعيته حتى لو اعتبر «ابليس» ذاك على صلة ما بـ «الفعل المقدّر للملكوت» سلفاً . إضافة إلى ذلك ، نلاحظ أن التوقف عند رأي ياسبرز من شأنه أن يبعد ما وجدناه من تمايز ، بحد ما ، بين مرحلة «التاريخ» ومرحلة «ما بعد التاريخ» .

التاريخ التي بحثناها في الفصول السابقة^(١) ، ومن ضمنها اليهودية .

فكما هو بين ، يبرز وجه النقد للرأي الأخير في أن مؤلفه يسحب خطأ حاجزاً ، على نحو قطعي ، بين التصور اليهودي والتصور المسيحي للتاريخ . فالعلاقة بين الرب والانسان ، يهودياً ثوراتياً ، ليست متعالية مفارقة دائماً ؛ كما أنها ليست مشخصة متضايقة دائماً . فلقد احتملت كلا الوجهين طبقاً للتحويلات التي طرأت على «النص العتيق» ، تلك التحويلات التي كانت - بدورها - خاضعة لما جرى على صعيد الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية لكتّابها ولليهود بصورة عامة^(٢) . لكننا في نطاق العلاقة المسيحية اليسوعية بين الرب والانسان ، نواجه نمطاً مستديماً من التشخيص والتضايق . فـ «الناسوت» و «اللاهوت» حدّان لا ينفصلان عن بعضهما بعضاً ، حتى حينما يكون الناسوت (الابن) سيّد الموقف . وقد جرى التعبير عن هذه الوضعية بأكثر الصيغ كثافة وحِدّة وتعييناً ، وهي صيغة التثليث ، تلك الصيغة التي تبيّناها ، فيما سبق ، من حيث هي جدلية الطابع والأفاق .

ولنأّن نلاحظ أن تلك الصيغة المقدمة عن العلاقة المعنية، هنا، تبرز كثيفة حادة ومتعينة كذلك في البنية اللغوية المستخدمة في التعبير عنها انجيلياً . فيسوع الانجيلي المتوحي يعلن العلاقة تلك تحت حدّ «اسم واحد» وليس أسماء ثلاثة . فيقول :

«اذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم معمّدين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس»^(٣) .

(١) البان . ج . ويدجيري : المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٤٢ .

(٢) من هنا ، لم يعد ممكناً الأخذ بالفكرة التالية ، التي عرضها ويدجيري «عن اليهود» ؛ تلك هي : «ان اليهود يؤكّدون ان الله كان بصفة مستمرة على صلة بالبشر على مدى التاريخ» . (نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ١٢١) .

(٣) لكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٢٧ / ١٩ . يشير الى هذه النقطة من المسألة ، أيضاً ، مُصدرو الكتاب المقدس (انظر : الكتاب المقدس - حواشٍ على المجلد الثالث من الكتاب المقدس «انجيل القديس متى» ، ص ٤٧٤) .

فـ «الأب والابن والروح القدس» يمثلون - ضمن هذا السياق - بنية واحدة متجلية بثلاثة أنساق ، يظهر فيها الأب أباً وابنأ والابن ابنأ وأبأ . ولذلك ، كانت المسيحية اليسوعية - في أحد معانيها الكبرى - «دين الابن» ، الذي يغدو (في التصور الديني المسيحي) ديناً خلاصياً إنسانياً بسبب احتمال تحول الابن الى الأب والأب الى الابن ، ومن ثم بسبب الإعلان عن ان الرب الاله هو نفسه أحد التجليات التي يكتسبها الابن . وجدير بالذكر ان «التثليث» المسمى إليه لم يكن يعني نفيأ لـ «الوثنية» ، بقدر ما مثل استيعاباً لها واقتداراً عليها وايصالاً لها إلى حدودها القصوى من التوحيد بين الواحد والكثير ، بين الواحد الذي يبدو كثيراً والكثير الذي يبدو واحداً . وقد أشرنا ، في موضع سابق من هذا البحث ، إلى أن من دواعي انتشار المسيحية البولسية (التثليثة) في أوساط «الأمم الوثنية» أنها (أي المسيحية) لم تكن - في جوهرها وظاهرها ، أي في سماتها الأكثر خصوصية وظهوراً - غريبة عن تلك الأخيرة . فوثنية «الأمم» انطوت على توحيد من طراز خاص يفصح عن الحس المباشر والمتعدد الكثير أكثر مما يعلن عن المجرد والموحد (وكان لنا جولة مفصلة في هذه المسألة في الجزء الثاني من مشروعنا ، أي في - الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى -) . ولذلك ، يغدو من التمثل والخلط التاريخي والاصطلاحي أن يُنظر إلى تلك «الوثنية» على عواهنها ، أي غير مشروطة بحدود العلاقة بين الواحد والكثير كما برزت في المجتمع الشرقي القديم (المشاعي القروي) .

هكذا إذن ، تتضح الوثنية بمثابتهما أحد تجليات ذهنية توحيدية بدائية (أسطورية) برزت في أساطير الشرق القديم وامتدت حتى نصوص «العهد العتيق» ؛ وكذلك - وكما ظهر من تضاعيف هذا الفصل - بمثابتهما أحد مظاهر الذهنية المسيحية البولسية نفسها . ولكن رغم ذلك ، لم يكن من شأن هذا وذاك أن يطيحاً بخصوصيات المواقف النوعية والنسبية - على كل حال - في مجمل صيغ الذهنية التوحيدية ، التي انطلقت من الشرق وانتهت بتلك المسيحية . وإذا كان الأمر كذلك ، فانه لا يعود صحيحاً أن ننظر إلى العنصر الوثني في تلك الصيغ ، وخصوصاً المسيحية البولسية منها ، على أنه الأكثر ظهوراً وحضوراً ، أو على أنه المطلق نوعياً . ان مثل هذا الرأي نواجهه لدى بعض الباحثين ، الذين يطمحون إلى انجاز مشروع عقلاني عربي بعد القيام بعملية نقد للفكر الديني . في طبيعة

هؤلاء يبرز عصام الدين حفني ناصف ، الذي يتخذ نقده العقلي الهام للمسيحية اتجاه النظر اليها على أنها - في بنائها الكلي - مستمدة من مذاهب الوثنيين القدامى . يقول الباحث المذكور : «وقد اسفرت الموازنة بين المسيحية والوثنية عن أن كل ما تنطوي عليه المسيحية من عقائد ونواميس ومناسك إنما هو مستمد من مذاهب الوثنيين القدامى . ويرجع التماثل بين المسيحية وما سبقها من مذاهب الوثنيين الى عاملين :

١ - تماثل خصائص الطبيعة البشرية مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة . . . وموجز القول ان الدين المسيحي الحالي إن هو إلا لبنات وثنية أعيد بناؤها ، ومن الهين السير في الوقت الحاضر ان نرجع كل فكرة في العهدين القديم والجديد إلى الأصل الوثني الذي انتحلت منه»^(١) .

ان الأخذ بذلك الرأي من شأنه أن يقود إلى التفريط بالخصوصية النوعية - النسبية - للمسيحية ، بصفتها ذهنية دينية نشأت تلبية لاحتياجات اجتماعية اقتصادية وسياسية وايدولوجية جديدة كثيراً أو قليلاً . فالحديث عن «تماثل» بين الدين «الجديد» وما سبقه من «مذاهب الوثنيين القدامى» ، يؤدي إلى الاطاحة به ، من حيث هو موقف ذهني تطابق ، على نحو أو آخر ، مع الوضعية المشخصة الموازية له تاريخياً جدلياً . وهذه الاطاحة تتم ، كما هو واضح من سياق الموقف المذكور ، لصالح «السابق» ، أي ما عناء ناصف بـ «مذاهب الوثنيين القدامى» . وفي هذه الحال ، لا بد وأن ينظر إلى ذلك «السابق» على أنه المبتدئ والمنتهى في اللوحة الدينية الكونية . وإذا ذاك ، نكون وجهاً لوجه أمام سلفوية تستهدف بناء موقف عقلاني على انقاض «مذاهب وثنية غيبية» منصرمة في التاريخ القديم .

ولاشك أن النص الذي نقلناه عن ناصف ينطوي على لحظة منهجية ذات أهمية . فالحديث عن أن «الدين المسيحي الحالي ان هو الا لبنات وثنية أعيد بناؤها» ، يمكن أن يقود إلى الاقرار بصيغة ما من صيغ النوعية الجديدة التي تتضمنها المسيحية اليسوعية إزاء ما سبقها من «مذاهب الوثنيين القدامى» . ذلك

(١) عصام الدين حفني ناصف : المسيح في مفهوم معاصر - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

أن عملية «إعادة بناء» العناصر السابقة من شأنها أن تولد موقفاً متميزاً ، بدرجة أو بأخرى . وإذا كننا نعلن ذلك ، فإن المسيحية هذه - كما هي مقدمة انجيليا - لا يمكن الاحاطة بها بدقة تاريخية كافية إذا نظر إليها على أنها لبنات وثنية اعيد بناؤها . فحسب .

إن النص الانجيلي المتوي وإن ظهر لنا بصفته نصاً تلفيقياً يتجه إلى الدين الجديد بعين إلى أمام وبأخرى إلى وراء (أي إلى اليهودية) ، فإنه بالرغم من ذلك يتطوي من عناصر الجدة ما يمكننا من القول بأنه نسق من التصور الديني ، الذي حمل حلولاً نوعية جديدة للمشكلات القائمة ، في حينه . وقد كان على هذه الحلول أن تفقد فاعليتها واحتمالاتها بسبب افتقارها التوجه الشخص واستغراقها في الغيبي المجرد المعمم . والجدير بالذكر أن هذه الوضعية تتضح عبر التصور اللاتاريخي اللاتراثي للتاريخ ، الذي نواجهه في النص الانجيلي المعني هنا ، المتوي . ولما كان هذا الأمر رئيسياً في نطاق البحث في النص المذكور بنيوياً ووظيفياً ، فإن ملاحظته وتفحصه يمثلان مسألة مطروحة على بساط البحث . ويمكن القول بأن هذه الأخيرة يمكن تبينها عبر مجموعة من الفكر والمواقف ، التي يقدمها متى في اطار من العلاقة مع «يسوع المسيح» و«الصدّيقين» ، أي المباركين منه . من تلك الفكر تبرز اثنان تشكّلان حجرين أساسيين في بنية شخصية يسوع المسيح .

الأولى منها تتمثل بما سيمى في عصور لاحقة وفي نطاق الاسلام «رفع التكليف» ، أما الفكرة الثانية فتتجسد بـ «سلطان المسيح الأقصى» . ونحن إذ نتبع هاتين الفكرتين المحوريتين ، فاننا - بذلك - نلاحق السياق النصي لانجيل متى الإشكالي (التلفيقي) ، الذي يبرز يسوع المسيح فيه - ضمن واحد من احتمالاته المتعددة - مسيحياً يهودياً .

على صعيد «رفع التكليف» ، نقرأ لدى متى مايلي :

«حينئذ دنا إليه تلاميذ يوحنا وقالوا لماذا نحن والفريسيون نصوم كثيراً وتلاميذك لا يصومون . فقال لهم يسوع هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العروس معهم ولكن ستأتي أيام يرتفع فيها العروس عنهم وحينئذ يصومون . ليس أحدٌ يجعل من ثوب جديد في ثوب بال لأنها تأخذ ملاءها من

الثوب فيصير الخرق أسوأ . ولا تجعل خمر جديدة في زقاق عتيقة وإلا فتتشق الزقاق وتراق الخمر وتتلف الزقاق . لكن تجعل الخمر الجديدة في زقاق جديد فتحفظ جميعاً»^(١) .

إن يسوع المسيح المتبوي يعلن ، هنا ، أن من امتلك «العروس - الحقيقة الربانية» ، فإنه غدا في حِلٍّ مما يجب على الآخرين أن يقدموه من واجبات . وهذا ، بدوره ، يقدم ضوءاً على سقوط «تاريخية» الموقف المسيحي اليسوعي ، تلك التاريخية التي قررنا - في مكان آخر سابق - وجودها بصيغة العلاقات التناقضية والصدامية بين «ابليس» و«المؤمنين الشهداء» قبل مجيء مرحلة «الملكوت» . إذ لما كان الرب الاله يجسد السمة الأولى والكبرى لهذا الأخير ، فإن «التاريخية» تغدو عنصراً نافلاً ، بل مضاداً . فالأمر إن لم يكن كذلك ، فإنه - في المنظور المسيحي المتبوي - يولد تناقضاً لا يمكن حله وتجاوزه من هذا الموقع نفسه . أما التناقض المعني فيكمن في المصادرة على توحيد مُشكَّلٍ أو - لنقل - تلفيق بين سرمدية (لا تاريخية) تعتبر مطلقة إطلاقاً وتتجسد بملكوت الرب ، من طرف ، وتاريخ ينظر إليه على أنه نسبي وطارئ ومرحلي يتمثل بالمرحلة الأولى (مرحلة ابليس والمؤمنين الشهداء) ، من طرف آخر . إن رفض هذا التناقض ، أو بالأحرى النظر إليه على أنه طبيعي وضروري ، يمثل أمراً لا يحيد عنه من أجل الحفاظ على «ملكوت الله» ، الذي يجب أن يبرز ، هنا ، متناقضاً مع «التاريخ» ، أي «مرحلة الصراع بين ابليس والمؤمنين الشهداء» . بل لعلنا نستطيع أن نرى مخرجاً لذلك التناقض من موقع مسيحي آخر ؛ ذلك هو التمييز بين ماهو مشروط بتاريخية الحدث وماهو مطلق على عواهنه كلياً وجزئياً ، بين ماهو تاريخ وماهو لا تاريخ (ملكوت الله) .

على ذلك النحو وفي ضوء تلك «المسيحية التليفية» ، يبدو «التكليف» تعبيراً عن الدخول في عالم النسبية ، وخرقاً لمبادئ الاطلاقية . أما «رفع التكليف» فيغدو - والأمر كذلك - هو والحرية الذاتية المطلقة سواء بسواء . إذ ما دام الصديقون حائزين على «الكل» دفعة واحدة واجمالاً وعموماً ، فانهم يجدون أنفسهم

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس متى ٩/١٤-١٧ .

في حل تام من كل مالا يندرج في هذا «الكل»^(١) . وبذلك ، يتبدى الشرح الأعظم والأعمق والأشمل بين التاجز والمتحول ، والثابت والمتحرك ، والمنقطع والمتصل . ومن ثم ، نواجه المسيحية اليسوعية وجهاً لوجه وقد انتصبت وهماً ايديولوجياً عملاقاً يجتزل كل البؤس الانساني في شخصه ، ليعيده فرحاً أقصى ومتعة قصوى . وهنا ، بالذات ، تتبين النقطة الأقوى في المسيحية المذكورة ، وكذلك وفي نفس الوقت نقطتها الأضعف . هذا الموقف الحاسم والقطعي والمطلق يعبر عنه يسوع المتوي في حديثه مع تلاميذه :

«من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني . لأن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن أهلك نفسه من أجلي يجدها . فإنه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه»^(٢) .

لماذا هذا كله ؟ من يكون هذا الذي على الآخرين أن يكفروا بأنفسهم من أجل الايمان به ؟ إنه ، بكلمة دنيا وقصوى :

«الحجر الذي رذله البناءون (و) صار رأساً للزاوية»^(٣) .

وتدعم هذه العملية الوجودية (الانطولوجية) الجذرية ، عملية القلب من أعلى الى أدنى ، بعملية أخرى ذات خصوصية قيمية أخلاقية ، تتمثل بتحديد ذلك «الحجر» بأنه هو الذي

«أخذ أمراضنا وحمل أوجاعنا»^(٤) .

فهذا «الحمل - الأسد» هو ، وحده ، الذي يجمع بين الجبروت والتواضع ، بين صرامة السيف ووداعة الحمل . إنه الرب الذي يركب على أتان . ومن ثم ، لم

(١) لدى القديس بولس لاحقاً ، سنجد هذا الموقف وقد تحول إلى مبدأ عقيدي لا غمغمة فيه . وإذا وضعنا باعتبارنا أن بولس هو الذي جعل من المسيحية عقيدة منظمة ومتسقة نظرياً ، لاحظنا الأهمية التي يحور عليها ذلك المبدأ . قال بولس في إحدى الرسائل التي تُسمى إليه :

«كل شيء مباح لي» . (الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثس

١٢/٦) .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٦/٢٤-٢٦ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيانه ٢١/٤٢ .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطيانه ٨/١٧ .

بعد أمام الآخرين ، المتعبين حتى الظمأ والاعياء ، إلا خيار واحد وحيد ؛ ذلك هو أن يتحلقوا حوله ويستمعوا إليه ، ليجدوا ضالتهم الكبرى ، راحة أنفسهم . وهوذا يناديهم ، عارضاً عليهم مشروع خلاصه لهم جميعاً :

«تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلين وأنا أريحكم . احملوا نيري عليكم وتعلموا مني أنني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لأنفسكم . لأن نيري لين وحلي خفيف»^(١) .

هكذا ، يغدو يسوع المسيح الانجيلي (هنا المثوي) بديلاً عن التاريخ ، يكتف في شخصه كل مظاهر وتجليات الكون الرباني ، أي المسيحي ، فاعلاً في كل شيء ، مؤثراً على سبيل الفعل في الكليات والجزئيات . إنه يتحول إلى النقيض التام والشامل لكل «الأمراض والأوجاع» العالقة بعالم «المتعبين والثقيلين» . وهو ، بما هو ذلك النقيض ، يتمثل تلك الأوجاع والأمراض عبر تقديم نفسه فداء ، وعبر تحويل هذا الفداء إلى الظفر الأكبر . ولذلك ، فهو المدبر الوحيد لأمر الكون ، وهو المعلم الوحيد للبشرية (لنضع هذا المعلم مع «معلم العدالة» الذي تعرفنا إليه لدى الاسينيين ، لتبين خط المقارنة بينهما على صعيد تبلور فكرة العدالة اليسوعية المجردة ١) :

«أما أنتم فلا تدعوا معلمين فإن معلمكم واحد . . . ولا تدعوا لكم أياً على الأرض فإن أباكم واحد وهو الذي في السماوات . ولا تدعوا مدبرين لأن مدبركم واحد وهو المسيح»^(٢) .

إن ذلك المعلم المدبر الوحيد هو الذي يتكلم باسم الجميع ويتكلم الجميع باسمه ؛ لأنه هو نفسه ، وفي آن واحد ، الابن الوحيد للأب الوحيد . ومن ثم ، فروحه منبثة في الجميع ، تتكلم عبرهم ، دون أن يكون لهم - كمسيحيين صديقين - صوت آخر يتكلمون به سوى صوت الروح ، روح الأب الابن والابن الأب : «لستم أنتم المتكلمين لكن روح أبيكم هو المتكلم فيكم»^(٣) .

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٨/١١-٣٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٣/٨-١٠ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٠/٢٠ .

في النص الانجيلي المتوي الأخير ، نوضح ثانية أمام تصور الاقانيم الثلاثة والوحدة فيها بينها . فإذا كنا قد تحدثنا - في موضع سابق - عن وحدة الاقانيم المذكورة (الأب والابن والروح القدس) تعبيراً عن أن الكون برمته يمثل تجسيدا وتجلياً لها . فإن مزيداً من التبصر والتمحيص في هذه الوحدة يظهر أنها ذات بعد واحد . نعني بذلك أن فاعلية الكون كلها تبرز من موقعها (أي الوحدة) ، وتتجه نحوها كغاية قصوى . وهذه الوحدة ، التي تذيب في أحشائها كل كثرة ، أي التعدد الثلاثي ، تجد تجسدها النهائي في «الابن» يسوع المسيح ، المخلص والمعلم والمدبر وحامل الأوجاع . فهذا الأخير يندغم فيه الأب والروح القدس ، وكذلك مباركوه ، كما يندغم هو فيهم ، لينشأ - في ناتج الأمر - المسيح الكوني بالمعنيين الانطولوجي (الوجودي) والاخلاقي الانساني .

ان ذلك الموقف المتوج بـ «المسيح الكوني» أوصل ، بدوره ومن طرفه وبحكم آليته اللاهوتية الصارمة ، إلى ثلاثة أركان نلاحظها على قدم وساق في النص الانجيلي المتوي . الركن الأول يقوم على أن المسيحية اليسوعية تبرز بمثابرتها دين يسوع ، بالذات ، أي دي «الابن» تحديداً . وهذا القول يبقى صحيحاً في كلتا الحالتين الكبيرتين المفترضتين ، «المسيح الانجيلي» و «المسيح التاريخي الواقعي» . أما الركن الثاني فيتمثل في أن الدين المذكور يغدو ديناً واحدياً تنهشم في ثنياه عملية التجادل التي كنا واجهناها ، فيما قبل ، بين الناسوت واللاهوت وما بينهما (الروح القدس) ، لتتحول إلى عملية تجادل بين اللاهوت واللاهوت نفسه ، أي بين اللاهوت وناسوت من الطراز الذي فقد ، حيث اتصل باللاهوت ، جذوره الانسانية . أخيراً يبرز الركن الثالث ويتجسد في تبعثر العنصر الانساني المشخص لصالح عنصر لاهوتي مضخم ولا متعين . وحيث نبلغ هذه البؤرة الهامة من الشخصية المسيحية ، نلاحظ أن الحقيقة الوحيدة التي غدت تتكلم بصوت مرفوع هي كل ما لا يدخل في نطاق الانسان المشخص والحياة المشخصة والعلاقات الانسانية المشخصة . ان الذي يتكلم في هذه الحال وفي كل الأحوال «روح الأب» ، الذي هو «الابن أباً» و «الأب ابناً» . وهذا يحيلنا إلى ما طرحه برونو باور حول غلط «الانسانية المسيحية» ، ذلك النمط الذي اعتبره من النوع «الرائع والعجيب والمعجز»^(١) .

(١) ان هذا النمط من «الانسانية» أو «الناسوت» هو المدخل أو أحد المداخل الكبرى الى فهم =

وقد نتمكن من تصعيد هذا الموقف الانطولوجي باتجاهاته واحتمالاته البعيدة ،
 إذا أخذنا بعين الاعتبار الدقيق اللحظة الأخلاقية الشخصية المنبثقة عنه والمشتقة
 منه . هذه اللحظة يقودها يسوع متى حتى ذروتها القصوى الممكنة في الحدود
 المسيحية اليسوعية ، حتى حينه ، حيث يرى في شخصه مبتدى ومنتهى الوجود
 الاخلاقي . ويوغل في الموقف إياه حيث يعلن يسوع المتوي نفسه أن كل مالا يندرج
 في حقل هذا المنتهى وذاك المبتدى ليس مغايراً له فحسب ، وإنما هو ، كذلك
 وضرورة ، مناهض له ومعادٍ . ومن ثم ، فالكون يغدو إما فاضلاً إطلاقاتاً وإما
 فاسداً إطلاقاتاً . أما في الحالة الأولى ، فيبرز يسوع بمثابته مركز الكون وهوامشه ،
 في آن واحد وعلى نحو قطعي . وفي الحالة الثانية ، يتجسد ذلك الأخير (أي الكون)
 شيطاناً أو ابليساً ؛ وليس من طريق يتوسط الفريقين أو يقرب بينهما أو يشير إليهما
 على سبيل التجاور الداخلي . ولكي ندرك دلالة هذا الموقف ، الذي يقدمه متى
 الانجيلي ، لابد من الإشارة إلى أن الحديث الانجيلي حيث يدور على «ابن البشر» ،
 فانه في حالات معينة لا يكون متعلقاً بابن البشر الذي على صلة بـ «الرب» و«الروح

= المسيحية اليسوعية . وقد نبهنا - عبر النص الأخير المستقى من متى الانجيلي - أن المدخل المذكور
 ينفي الفعل الانساني (الناسوتي) الشخص لصالح فعل رباني لا إنساني مجرد ومطلق . وهذا
 ما نواجهه في كثير من التأويلات والتفسيرات والشروح التي نلقاها لدى جموع من اللاهوتيين
 (علماء الكلام) ورجال الدين المسيحي المعاصرين . من هؤلاء بيرز ، على سبيل المثال ،
 الخوري برصوم أيوب ، الذي يكتب - على الصعيد المعني - مايلي (في مقالة له بعنوان : الجامعي
 والكتاب المقدس - المجلة البطريركية ، دمشق كانون الأول ١٩٨٢ ، ص ٣٣-٣٤) : «المسيحية
 ليست علماً من علوم الناس . . . ولكنها حق إلهي ، لا يمكن أن يتعلمه الناس من أنفسهم
 ويستحيل أن يدركه عقل انسان مهما كان حكماً أو فيلسوفاً ! بل يلزم لمن يريد أن يعرف المسيحية
 أن يكون فيه روح المسيح . أما من يريد ان يتعلم عن المسيح أو عن المسيحية فيلزمه فوق ذلك هبة
 خاصة وهي (كلام علم بحسب الروح) . . . أي ان من يريد ان يعلم المسيح للناس لا يمكن أن
 يعلم الا بالمسيح وحينئذ لا يكون هو المتكلم . . . ولا يتكلم بشيء من نفسه بل كما يعطيه الله» .
 ويخطط الخوري (المتكلم والمعلم بالمسيح) خطوة أخرى ، فيجعل لغته أقل تجريداً وأكثر
 شخصياً وأوضح تسييساً وإعلاناً عن «الهوية الاجتماعية» ، إذ يعلن في نفس المكان : «والكنيسة
 لها فكر المسيح وحقه وعلمه» . لا في أسفارها وكتبها وشروحاتها المستوفاة فحسب بل وفي أعضائها
 التلاميذ الذين رأوا الرب يسوع وعاشوا معه وأخذوا عنه» .

القدس» . ان ابن البشر هذا هو ، في هذه الحال ، الرجل الذي ولد من مريم (وسنلاحظ أن هذا التفسير سيشكل أحد المواقف «الكلامية» التي سبرز إلى الوجود ابان الصراع الديني اللاحق) . لدى متى نقراً ما يقود إلى هذا الموقف بشقيه الاثنين ، شطر الكون إلى شطرين متباينين وظهور ابن البشر بشراً :

«من ليس معي فهو علي ومن لا يجمع معي فهو يفرق» . من أجل هذا أقول لكم إن كل خطيئة وتجديف يغفر للناس وأما التجديف على الروح فلا يغفر . ومن قال كلمة على ابن البشر يغفر له وأما من قال على الروح القدس فلا يغفر له لا في هذا الدهر ولا في الآتي»^(١) .

هكذا تتضح جدلية الشيطان والاله ، الايجاب والسلب ، المع والضد ، الخير والشر بمثابقتها عملية تحكم آلية الكون بكلا شطريه الاثنين المتضايقين ، غير المتداخلين وغير المتحاورين . ولعلنا نحدد هذه الجدلية بمزيد من التخصيص «المسيحي اليسوعي» ، إذ نقول انها جدلية الكون على عواهنه واللاكون على عواهنه . وإذا ما لاحظنا أن هذا الأخير يجسد وجوداً بمعنى ما محدد هو الوجود الشيطاني (الإبليسي) ، فإنه يغدو شرطاً ضرورياً من شروط تحقق ذلك (الوجود) . بيد أن هذه الوضعية التضايقية تكف عن تموضعها الوجودي حالما ينتصر يسوع المسيح ، يوم يحل يوم الدينونة . وانتصاره هذا لا يكون عبر الطموح إلى مسالمة مع ذلك الكون ؛ وإنما سيكون السيف الصارم هو الطريق الوحيد إليه . متى يقدم الينا ايضاحاً بيئاً بذلك :

«لا تظنوا اني جئت لألقي على الأرض (لنقرأ هنا : على الكون الشيطاني التغل) سلاماً لم آت لألقي سلاماً لكن سيفاً»^(٢) .

وإذا كان «السيف» طريق الوصول إلى «عالم الملكوت» ، فإنا نلاحظ أن نص متى الانجيلي يضعنا أمام موقف جديد ، بعد أن كنا واجهنا ما يعارضه في الانجيل نفسه . فيسوع المسيح الذي يدخل اورشليم على «أتان» تعبيراً عن الوداعة والمسالمة ، يقدم الينا هنا متمطقاً سيفه وحازماً أمره باتجاه تدمير هذا العالم الشرير .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٢ / ٣٠-٣٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٠ / ٣٤ .

ولعلنا نقول ان مثل هذه الوضعية من التناقض يمكن أن نرتد إما إلى تأثير يهودي ، أو إلى الحالة الاجتماعية الاقتصادية التي شغل يسوع سلاحه في وجهها لصالح الفقراء والمفقرين ، أو إلى هذين الأمرين كليهما ومجتمعين .

ويبقى الموقف ، على كل حال ، مفهوماً بمثابة تجسيدا للشخصية الانتقالية الماثلة في الانجيل المتوي . ومن هذا الموقع ، يفقد ومقبولاً أن نرى في «السيف» وفي «الأتان» طريقين محتملين للوصول إلى «الروح القدس - عالم الملكوت» ، ومن ثم لتجاوز هذا العالم الأرضي . وحيث يكون الأمر على هذا النحو ، فلعله إذ ذاك يتبع لنا أن نستنبط نتيجة ذات دلالة مبدئية بالنسبة إلى الاحاطة بالمسيحية اليسوعية مسيحياً يسوعياً . هذه النتيجة - وقد كنا واجهناها بصفتها «مقدمة» للدخول في عالم تلك الأخيرة ، أي مدخلاً إلى التمييز بينها وبين اليهودية الطقوسية وإلى انفصالها عنها بصورة حاسمة من حيث الأساس - هي رفض وإدانة التعددية الطقوسية الدينية وخارجيتها أولاً ، وتقديم «وحدة العمل الروحي الداخلي» بدلاً عنها وبالتعارض معها ثانياً . وقد وجدنا ذلك معبراً عنه باستبدال «فداء العين» بـ «فداء الكفاية» .

وانه لما يلفت النظر الموقف الذي نواجهه لدى متى الانجيلي ونرى فيه علامة كبرى على «هزيمة طارئة» لليهودية ؛ ذلك هو الدعوة إلى العزوف عن «الجسد» على نحو يدعو لاعتباره من «عالم ابليس - الشيطان» . ولابد من ملاحظة أن هذا الموقف اقترن بتأكيد مضخم على «الروح» الذي فهم نقيضاً لـ «الجسد» ، وعلى «الداخل» كنقيض لـ «الخارج» . ومع الإشارة إلى أن ذلك ربما يفهم من موقع الاقرار بأن «انجيل متى» كان حصيلة عمل انجزه أكثر من كاتب بحيث تعددت الاتجاهات بين اليهودية والمسيحية ، نرى ان المسيحية اليسوعية في ذلك الموقف صعدت الجانب الاخلاقي ، بحيث قاد إلى حالة من الذاتية المجردة وإلى الاطاحة بالوجه الشخص لانسانية (ناسوتية) يسوع المسيح :

«... اقول لكم لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون .
أليست النفس أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس . انظروا إلى طيور
السماء فإنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء وأبوكم السماوي يقوتها

أفليستم أنتم أفضل منها»^(١) .

ويأتي يسوع على «سليمان» الملك اليهودي ، الذي ازدهى «الجسد واللحم واللباس» في عهده ؛ فيرفضه يسوع ، معلناً أن زنبقة واحدة من زنابق الحقل كانت أبهى من كل مجده (وهنا نلاحظ النبوة الرافضة لليهودية والمناهضة لها) :

«ولماذا تهتمون باللباس . اعتبروا زنابق الحقل كيف تنمو . انها لا تتعب ولا تغزل . وأنا أقول لكم ان سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها»^(٢) .
وإذا ما طبقنا مبدأ «المشتهى المزدري» على هذا الموقف (وقد كنا في سياق سابق قد رأيناه نافذاً في اطار نصوص العهد العتيق إنما بوظيفية أخرى) ، وجدنا أنفسنا أمام مطلب يسوع المسيح التالي :

«فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس . لأن هذا كله تطلبه الأمم وابوكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذا كله . فاطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذا كله يُزاد لكم . فلا تهتموا بشأن الغد فالغد يهتم بشأنه . يكفي كل يوم شره»^(٣) .

اننا نقرأ في هذا النص موقفاً اجتماعياً كبيراً ومركزياً كان على المسيحية الباكورة ان تتخذه حيال الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي نشأت فيها . إنه موقف العجز عن تحقيق مطامع أعلن عنها وتمثلت بامتلاك هذا العالم ، بالذات . ولما كان الأمر ليس سهلاً المثال - هكذا ظهر على الأقل - ، فقد كان احتقاره وازدراؤه من طبيعة الموقف ؛ إضافة الى البحث عن بدائل تمثلت بما ليس هو ذلك العالم ، اي بما يدخل في نطاق «المشتهى الممتنع» . وفي هذا المعقد الانعطافي للموقف ، يبرز «الانتقام» الفظيع من أولئك الذين يقفون دون امتلاك هذا العالم بخيرات الوفرة ؛ فيعلن أنه إذا كان العالم المذكور في القبضة الحديدية للآخرين ، أي الأغنياء ، فإن هنالك من العوالم ماهر «أسمى واعظم واكثر ثراء» أولاً ، وأن هذه العوالم هي فقط لأولئك المحرومين من «الجسد واللحم والمال» ثانياً . وهيهات أن يستطيع الأغنياء - على

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٧/ ٢٥-٢٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٧/ ٢٨-٢٩ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ٧/ ٣١-٣٤ .

غناهم - الدخول في «الملكوت الجديد» المجسد لتلك العوالم «الرائعة اللازوردية» ، أي التي لا تماثل هذا العالم إطلاقاً في قسوته وإجحافه وشرافته .

ولقد بلغ النص الانجيلي المتوي إشكالية الموقف اليسوعي ، حيث يقدم يسوع وقد اعتقد أن «حفظ الوصايا» يقود إلى الخلاص . هاك النص التالي ، الذي نرى فيه واحداً من أكثر النصوص الانجيلية خطورة وأهمية ودلالة على الوضعية التاريخية المشخصة . يقول متى :

«وإذا برجل دنا إليه وقال له أيها المعلم الصالح ماذا أعمل من الصلاح لأرث الحياة الأبدية . فقال له لماذا تسألني عن الصلاح إنما الصالح واحد وهو الله . ولكن إن كنت تريد أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا . فقال له وماهي . قال يسوع لا تقتل . لا تزني . لا تسرق . لا تشهد بالزور . اكرم أباك وأمك . أحب قريبك كنفسك . فقال له الشاب كل هذا قد حفظته منذ صباي فماذا ينقصني بعد . قال له يسوع إن كنت تريد أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل شيء لك واعطه للمساكين فيكون لك كنز في السماء وتعالي اتبعني . فلما سمع الشاب هذا الكلام مضى حزينا لأنه كان ذا مال كثير . فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول لكم إنه يعسر على الغني دخول ملكوت المساوات . وأيضاً أقول لكم إنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت السماوات»^(١) .

لقد مرّ يسوع المسيح بـ «تجربة» مرة عرف ، عبرها وبنيتها ، ان هذا العالم ليس له ولا لأنصاره ، أو بالأحرى لا يمكن أن يكون له ؛ فخلق عالمه الآخر الذي جعل منه «الملك المعد من انشاء العالم» للصابرين المتضامنين معه (مع الفقراء) ، أي لأولئك الذين فعلوا كل شيء من أجله :

«لأنني جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريباً فأويتموني . وغريباً فكسوتهموني ومريضاً فعذتموني ومحبوساً فأتيتم إلي»^(٢) .

ولكن النص الانجيلي المتوي ينقلنا إلى لحظة حرجة ، حيث نلاحظ يسوع المسيح

(١) نفس المصدر السابق ومعانيه ١٩/١٦-٢٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعانيه ٢٦/٣٥-٣٦ .

وقد قلَّ «سيفه» الذي شهره في وجه «الخطاة الأغنياء» ! فيعلن الخيبة الكبرى ممثلة بالإقرار بالأمر الواقع . وحيث يفعل ذلك ، لا يجد نفسه إلا أمام الخطوة الأخرى التالية ، التي ستضفي عليه «طمأنينة ذاتية» و«اقتناعاً» بواقع الحال . لقد لاحظ أن «قبصر» موجود ، لأن وجوده ضروري ويستجيب لحكمة الرب الاله . ولذلك ، فمقاومته لن تعني إلا مقاومة ارادة الرب الاله . هكذا ، يغدو المطلب التالي مشروعاً ومُلزماً لـ «المؤمنين الفقراء» :

«أوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»^(١) ، لأن «ما جمعه الله لا يفرقه انسان»^(٢) . ان هذه الخطوة الكبرى ، التي تتوج الموقف اليسوعي ، لم تأت إلا تعبيراً مضمناً ومرمّزاً عن إخفاق الفعل الجماهيري «المسيحي» في تحقيق «عالم الملكوت» في أرضهم المهيئة ، ومن ثم عن الآفاق المسدودة التي وجدت الحركة المسيحية الناهضة نفسها أمامها . ومن هنا ، يغدو ما يقوله كارل ياسبرز صحيحاً على صعيد المسألة المطروحة ، إنما في ضوء التحول المسيحي إلى مرحلة الإخفاق وتعاضل وعي الإخفاق دينياً رمزياً . فلقد كتب الفيلسوف الوجودي المذكور أن يسوع المسيح «لا يهاجم الاوضاع الانسانية ، وإنما يلحف على قيمتها»^(٣) .

وإذا ما تفحصنا ذلك المطلب الأخير ، الذي طرحه يسوع المسيح المثوي على «الفقراء المؤمنين» ، تبين لنا أنه يقع في وحدة وظيفية مع المطلب الآخر ، الذي نادى أولئك من أجل تطبيقه ، وهو «العزوف عن النفس والاكل والجسد والملبس» . أما تلك الوحدة الوظيفية فتكمن في تسويق الراهن عبر المتعالي المطلق ، الذي هو «ملكوت الله» والذي يترد - مع ذلك - إلى «ملكوت الابن» المخيّب الآمال من عالمه ، «عالم أمه المشرع بالخطيئة والرذيلة» . ولكن ذلك «الراهن» ، على فظاعته ، ليس من الممكن التصدي له . إن ما يمكن فعله هو فقط النظر إليه شذراً واحتقاره وتجاوزه عبر «الداخل» ، الذي يبحث عن هدوئه في «الأعلى» . هاهنا وفي سبيل إضاءة هذا الموقف الهام بنيوياً ووظيفياً بالنسبة إلى فهم المسيحية اليسوعية عبر

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٢٢ / ٢١ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٩ / ٦ .

(٣) كارل ياسبرز : فلاسفة انسانيون - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٩٤ .

متى الانجيلي ، نواجه تحديداً لـ «السماء» ولـ «الله» يمكن أن يكون ذا أهمية بالغة على صعيد ما نحن في سبيل تحرّيه . يقول متى :

«أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا لا بالسماء فإنها عرش الله . ولا بالأرض فإنها موطىء قدميه»^(١) .

ويكتب الأب يوسف درّه الحداد مشيراً إلى أن كلمة «سماوات» تمثل في العبرية كناية عن كلمة «الله»^(٢) .

فإن تكون «السماء» كناية عن «الله» ، لابد أن يعني - ضمن السياق الذي نحدده هنا - أن «الله» هو إله أولئك الذين ليس لهم موطىء قدم على هذه الأرض ، وفي مقدمتهم يسوع المسيح نفسه . هذا ما نخبرنا عنه متى الانجيلي ، حيث يقول :

«أما ابن البشر فليس له موضع يُسند إليه رأسه»^(٣) .

وبذلك ، يكون الكون قد انشطر إلى قسمين عظيمين ، واحد - وهو هذا العالم - للأغنياء ، وآخر - وهو ذاك العالم ، أي السماء - للفقراء . وكما أن الجمل لا يدخل في ثقب ابرة ، فكذلك ليس بإمكان أولئك (الأغنياء) أن يدخلوا إلى العالم الأخير ، الذي هو «عالم الملكوت» . ولاشك أن في عمق هذا الانشطار الكوني (المسيحي) انشطاراً اجتماعياً طبقياً يقف على رأسه «الله - السماء» ، وتأتي في أدناه «الأرض» . ولنلاحظ ، هاهنا ، أمراً على غاية الأهمية والطرافة الترميزية . إن الانشطار الكوني المذكور يعيد تركيب الموقف الاجتماعي المشخص على نحو يصبح فيه «الأدنى» مشخصاً «أعلى» مجرداً . هذا ما يحدده يسوع المسيح المثوي ، حيث يعلن عن ذلك الموقف عبر شخصه . فهو - وقد اوردنا هذا الشاهد من قبل - «الحجر الذي رذله البناءون (الذي) صار رأساً للزاوية عند الرب» . لكن كيف ذلك ؟ كيف صار «سافلها عاليها» ؟ الاجابة تكمن في أن كل «كنوز هذه الأرض»

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٥ / ٣٤ - ٣٥ .

(٢) انظر : الأب يوسف درّه الحداد - اساليب السيّد في تعليمه ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٠٧ .

(٣) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٨ / ٢٠ .

لا تساوي شيئاً أمام «كنوز السماء» ؛ فالأولى الى زوال ، في حين أن الثانية أبدية .
ذلك لأن «السماء» هي «الله» ، كما مر معنا ؛ وكنوزها مقترنة به . ومن ثم ،
فالمطلوب الخروج من هذا العالم بكل ما يحتوي من مظاهر صائرة إلى زوال .
وبتعبير يسوع المسيح المتوي ، نسمع هذا المطلب الحاسم :

«لا تكتنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يُفسد السوسُ والأكلةُ وينقُبُ
السارقون ويسرقون . لكن اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يُفسد سوسٌ
ولا أكلةٌ ولا ينقب السارقون ولا يسرقون . لأنه حيث يكون كنزُك هناك يكون
قلبك»^(١) .

هاهنا ، نكون أمام ما سيكتسب لاحقاً الصيغة الدينية والصوفية التالية : القناعة كنز
لا يفنى ، والمعروف عن هذا العالم هو الكنز الحقيقي ، والسعادة هي قطع العلائق
مع الخلائق . وجدير بالانتباه أن هذه العملية (تسويغ الراهن عبر المتعالي المطلق
وصولاً إلى تمويه هذا الراهن ورفضه) ما كان لها أن تبلغ مداها المسيحي الأقصى
بمعزل عن عملية أخرى مضمّنة فيها ، وهي تشابك الايجاب بالسلب إزاء الواقع
المشخص : أن يُقرَّ بموقف ايجابي من هذا الواقع ، بمعنى المصادرة على وجوده
الضروري ، ثم أن يطالبَ ذوو «الروح» من «الجائعين والعطشيين والعريانين
والمرضى»^(٢) بتجاوزه سلباً إلى «ملكوت الله» وبنبذ لـ «الأخربين» من ذوي
«الجسد» ، إن هذا وذاك هما الحدان الضروريان والمتضايقان في المسألة التي نحن في
صدد البحث فيها . فإذا ما فقد أولئك «الجائعون والعطشون الخ . . .» عالم
الجسد المطهَّم بالثروة والكنوز الأرضية ، فإنهم - بالمقابل - سيملكون «مالاً يقدر
بالقيم الجسدية الطارئة» . وهنا ، يعلن الانجيلي متى «بلسان» يسوع المسيح أن
كل البؤساء على هذه الأرض هم الورثة الحقيقيون لملكوت السماوات . وإذن ،
لسنا هنا في معرض «الحزن» على هؤلاء ، بقدر ما نحن في نطاق الشعور بسعادتهم
العظمى . لنقرأ النص التالي الذي نواجه فيه عملية المعارضة بين قطبي الكون ،
وتبين فيه الدلالات الوظيفية لما يأتي فيه من نقائص :

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٦/ ٢١-١٩ .

(٢) انظر : نفس المصدر السابق ومعطياته ٢٥/ ٣٦-٣٥ .

«طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات . طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض . طوبى للحزان فإنهم يعزّون . . . طوبى للمضطهدين من أجل البر فإن لهم ملكوت السماوات . طوبى لكم إذا عيروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كل كلمة سوء من أجل أنكم كاذبين»^(١) .

ان الدلالات الوظيفية لـ «المساكين» و «الودعاء» و «الحزان» و «المضطهدين» و «المعيرين» تكمن - هنا - في أنها تشير إلى نقائصها وتتضمنها وتعنيها وتقود إليها . فالمساكين معني بهم «الأثرياء داخلياً» ، والودعاء «الأسود» ، والحزان «السعداء» ، والمضطهدون «المحررون» ، والمعيرون «الكملّة» . وبذلك ، تتحول عملية «التأني» المسيحية الوجودية والاخلاقية تحولاً بنيوياً ووظيفياً ، بحيث تصبح موجهة صوب أولئك الغارقين في لجّة «هذه الحياة» وكنوزها . والبؤس لم يعد «بؤس» أولئك «المساكين والودعاء والحزان والمضطهدين والمعيرين» ، وإنما أصبح بؤس هؤلاء . وفيما يخص «ابن البشر» فإنه - وهو الذي لا يملك في هذا العالم ما يسند إليه رأسه - أصبح يملك «العالم الآخر» ، وذلك بالتحايط مع انبلاج ملكوت الله . وهذا ، بدوره ، يعني ان يسوع المسيح يقدم نفسه مثلاً أقصى على حالة المواجهة القصوى للراهن عبر موقفى السلب والايجاب المآتي عليهما . وحيث يكون الأمر كذلك ، فإنه لا يبقى مقتصرأ على تجاوز التاريخ والتراث ، بل يمتد - كذلك - إلى تجاوز الوضعية الشخصية ذاتها . ولكن من هو هذا المسيح الذي ينتهي بنقده الجذري لليهودية الطقوسية التعددية وينقضه لها إلى تلك «النتيجة» المطيعة بالأفاق والاحتمالات الكفاحية ، التي انطوت عليها عملية النقد والنقض هذه ؟ للإجابة عن هذا السؤال الكبير والمركب ، نقرأ ما كتب هيجل ، مرة ، حين أراد أن يحدد ما تم على صعيد «الحداث المسيحي التاريخي» . وعلينا ، قبل أن نأتي على كلمات هيجل ، أن نشير إلى ضرورة تفحص الدلالات التاريخية والعقيدية الدينية لها بكثير من التيقظ والدقة : «لم يقل أحد من قبل ما هو أكثر ثورية ، إذ أصبح كل ذي قيمة من قبل بمثابة أمر غير جدير بالعناية ، ولا يستحق الانتباه»^(٢) .

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٥/٣-٥ ، ١١-١٠ .

(٢) ضمن : كارل ياسبرز - فلاسفة انسانيون ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٣٠ .

لا نشك أن ما يمكن أن ينطبق على تحديد هيجل ذلك لـ «الثورية» المسيحية ،
يكمن في مثل النداء اللاهب التالي الذي اعلنه «يسوع المسيح» المتوي أمام تلاميذه
الاثني عشر :

«لا تظنوا أنني جئت لألقي على الأرض سلاماً لم آت لألقي سلاماً لكن سيفاً .
أتيت لأفرق الإنسان عن أبيه والابنة عن أمها والكَنَّة عن حماتها . . . ومن لا
يحمل صليبه ويتبعني فلن يستحقني»^(١) .

ان هذا «المسيح يسوع» لم يكن - في أساس الأمر وجذره - مسيح الأناجيل
المكتوبة ، القانونية منها والمحظورة ، إلا جزئياً ، أي انطلاقاً مما بحثناه في موضع
سابق وفي نطاق ما حددناه بـ «دلالة النص الانجيلي الاجتماعية المتوسطة» . لقد
كان - في أساس الأمر وجذره - المسيح الذي قضى نحبه ، دون أن يكتب تاريخه
بقدر ما كتب تاريخ بعض الأوجه والأصداء للحركة المسيحية الباكرة . ولا يصحاح
ذلك بمزيد من التدقيق والتمثيل ، نورد ما كتبه كارل ياسبرز تعليقاً على موقف
هيجل ذاك من «ثورية المسيحية» . كتب الفيلسوف الوجودي المذكور بخصوص
ذلك مايلي : «لقد خرج يسوع على معايير العالم بأسرها . وذهب إلى ان جميع
المعايير والعادات قد أصبحت فريسية . وهو يوضح القوالب التي أصبحت فيها .
فلم يعد واقع العالم كله يستند إلى شيء . بل ان كل شيء ينهار»^(٢) . ثم يعلن
الكاتب (في صفحة تالية) أن يسوع المسيح إذ يرى في العذاب غير المحدود مثله
الأعلى ، فإن ثقته بالملكوت الرباني انطوت على أهم وأخطر عنصر في شخصية
يسوع المسيح هذا ؛ ذلك هو الاستسلام الكامل لهذا العذاب .

ان كارل ياسبرز ، في رأيه ذاك ، يكون قد ركز على «يسوع الأناجيل» ،
الذي يُمنح دلالة أخرى ومسياقاً آخر وبعداً آخر . هاهنا ، يبرز يسوع المسيح - في
«خروجه على معايير العالم بأسرها» - بمثابته ذلك المستسلم «الكامل للعذاب» .
ومن ثم ، فانه (يسوع) يُفقد ، والحال كذلك ، حتى من صفته كمخلص . ذلك
لأن الاستسلام ، بما هو كذلك ، لا يعني - بحال - شكلاً من أشكال الدعوة لـ

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح بحسب متى ١٠/٣٤-٣٥ ، ٣٨ .

(٢) كارل ياسبرز : فلاسفة انسانيون - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٣٠ .

«الخلاص» . ان مفهوم «الدلالة» يقدم الكثير على هذا الصعيد . ف «تعبير» الاستسلام لا ينطوي لا لفظاً ولا دلالة شيئاً من قبيل «الخلاص والتخليص» ، بقدر ما ينطوي على عكس ذلك . ورغم ذلك ، تبقى الدعوة اليسوعية إلى «المللكوت الرباني» أمراً آخر مختلفاً عن ذلك «الاستسلام» ؛ إذ هاهنا - وقد أتينا عليه مراراً - كمنت الصيغة المسيحية الناضجة (البولسية) : أن يتم الخلاص بالارتفاع عن هذا العالم إلى المللكوت المعني . ولكننا بعد أن نكون قد قررنا هذا الموقف ، نغدو مخولين بالحديث عن الاستسلام اليسوعي المنوه به ، أي الاستسلام الذي يكون نتيجة للموقف لا مقدمة له . ان ذلك أمر ذو أهمية خاصة بالنسبة إلى ما أتينا عليه تحت حد «المشئى المزدرى» ، الذي واجهناه في النص الانجيلي المتوي على نحو مفصّل عنه ، وإن بكثير من التورية والتضمين والترميز .

ان تحليل النص الانجيلي المتوي يضعنا أمام المسألة التالية ، وهي أن «مسيح الانجيل» عموماً ليس له إلا علاقة جزئية - أو هامشية - بالموقف «المسيحي الثوري» ، الذي ابرزه هيجل . ان هذا الرأي يبقى صحيحاً ، من حيث الأساس العام ، حتى في حال عثورنا في انجيل متى (وبقية الأناجيل القانونية) على ما يمكن أن يجسد أصداء للموقف المعني . فمثل هذا الأمر لا يشكل ثقلًا فاعلاً ، ولا يحوز على أهمية وحجم كبيرين أو بارزين على صعيد البنية والوظيفة اللتين تحدّدان تلك الأناجيل . وإذا كان الأمر كذلك ، فهل علينا أن نتخلّى عن البحث في هذه الأخيرة (وضمنها بالطبع انجيل متى التلفيقي) عن مسيح من طراز «ثوري» ، في فعله كما في كلمته ؟ يبدو أنه لا خيار أمامنا سوى الاقرار بهذا الواقع السلبي ، على الأقل - كما قلنا آنفاً - في الصيغة العامة الرئيسية . اي إننا ، في هذه الحال ، سوف نرى في النص المتوي التالي النموذج الناظم للبنية المسيحية الانجيلية :

«قد سمعتم أنه قيل بالعين والسن بالسن . أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخلّ له رداءك أيضاً»^(١) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٥/٣٨-٤٠ .

ان الموقف المقدم هنا يمثل إقراراً بـ «القائم» و «الراهن» و «الأمر الواقع» ، بمثابته وجهاً من أوجه النظام الرباني والارادة الربانية ، وكذلك الحكمة الربانية . ويزيد الموقف وضوحاً من الدعوة المباشرة إلى «عجة الأعداء» ، أي أولئك الذين يبرزون في سياق انجيلي آخر بمثابتهم «اتباع ابليس» . وحيث يكون الأمر كذلك ، فإن ما قد ظهر منشطراً إلى شطرين كبيرين (ابليس والرب ، أو العالم الابليسي المقسم بالخطيئة والعالم الرباني الملكوني) ، يذوب لصالح وحدة تجمع بين «الجميع» ، «القتلة والشهداء» ، «الخطاة والصالحين» :

«قد سمعتم أنه قيل احبب قريبك وابغض عدوك . أما أنا فأقول لكم احبوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم»^(١) .
أما العلة الكامنة وراء ذلك ، فتقوم على أن «الجميع» يستظلون بظل «الأب الذي في السموات» :

«لتكونوا بني ابيكم الذي في السموات لأنه يُطلع شمسهُ على الأشرار والصالحين ويُطر على الأبرار والظالمين»^(٢) .
وجدير بالملاحظة أن هذا النموذج من الشخصية المسيحية نواجهه لدى متى الانجيلي تحت اسم كبير ، هو «الكامل» ، أي ذلك الذي يصهر في شخصه كل التناقضات والمفارقات ليظهر واحداً موحداً ، كما هو الحال بالنسبة لـ «الأب» :
«فكونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل»^(٣) .

والحق ، انه علينا - هنا - أي في حال الإقرار بفرضية الوجود التاريخي لشخصية مؤسس للدين المسيحي تحت اسم يسوع المسيح ، ان ننتبه الى ضرورة التمييز بين هذا الدين من طرف ، وبين ما تبلور شيئاً فشيئاً في اطار ما عرف بـ «المسيحية البولسية» من طرف آخر . ذلك لأن هذه الأخيرة هي ، في الأصل الباكر ، نتاج المؤسسة الكنسية ، التي غدت سيدة الموقف بصفتها جهازاً تنظيمياً سياسياً واجتماعياً اقتصادياً وايدولوجياً دينياً . وفي هذه الحال ، تظهر عملية الانتقال من دين يسوع

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٤٣/٥ - ٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٤٥/٥ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ٤٨/٥ .

المسيح - الذي لم يكن أساساً هدف المؤرخين اللاهوتيين ومحور مجادلاتهم ومناقشاتهم - إلى الدين المسيحي البولسي ، بثابتها عملية انتقال من «الثورية» إلى «المحافظة» ، ومن البساطة التلقائية الايمانية إلى التنظير اللاهوتي المؤسسي ، ومن الدعوة إلى شيوعية صوفية حاملة تهدف إلى تدمير الثروة وتكوين مجتمع الكفاية الذاتية الدنيا ، إلى ايدولوجيا دولة ومؤسسة كنسية نافذة ومهيمنة في مجتمع عبودي وصل مراحلها العليا ، دون أن يقضي على الأشكال الانتاجية الاجتماعية القائمة هنا وهناك في أقاليم الامبراطورية (من ذلك الأشكال المشاعية القروية) .

من موقع تلك اللوحة التاريخية المتنوعة الانساق ، يغدو من قبيل عدم الدقة التاريخية والتراثية أن نرى في الدين الأول (دين يسوع المسيح) أحد أشكال الدين اليهودي ، لا غير ومن حيث الأساس . ذلك لأن مثل هذا الرأي من شأنه أن يفرط بالخصوصية النوعية الجديدة ، على نسبتها كثيراً أو قليلاً ، تلك الخصوصية التي شرع الدين الجديد في تحقيقها مع نشوء البواكير والارهاصات الأولى لتصوراته وسماته وآفاقه^(١) . ونحن باستطاعتنا العثور على تلك «الخصوصية النسبية» في النصوص الأولى الباكورة للتصور الخلاصي ، الذي يقترن بوجود «مخلص مسيح» أو «معلم» يأخذ على عاتقه انجاز الخلاص . وقد تبيننا بعض ذلك لدى الاسينيين وفي رؤى يوحنا ، التي بدا لنا أنه من الراجح أن تكون تعبيراً عن الخلاص الاسيني . كما نتبينه في الأصداء المبعثرة هنا وهناك من الأناجيل «القانونية» الأربعة ، بما في ذلك خصوصاً الانجيل المتوي الذي نحن بصدد معالجته والبحث فيه . وقد ظهر ذلك معنا ، حيث توصلنا إلى تحديد هذا الإنجيل الأخير من حيث هو نص تلفيقي يجمع بين الحشاشات الأخيرة من اليهودية وجوانب من المسيحية اليسوعية الناهضة .

(١) هذا الرأي أو ما يقترب منه ، نجده - مثلاً - لدى كارل ياسبرز في كتابه الذي أتينا على ذكره في مواضع سابقة (فلاسفة انسانيون) . فعلى الصفحة ٢٣٨ - ٢٣٩ نقرأ بخصوص ذلك ما يلي : «آمن تلاميذ يسوع ، مثله ، في حياته ، بالله ، بالملكوت ، وبنهاية العالم . وبعد موته ، افرقوا . وعندما التقوا في لقاءات قصيرة حدث نوع من الثورة . عاشوا بـ (يسوع المبعوث) . ومنذئذ لم يعد يؤمنون فقط بالله مع يسوع ، بل بدون يسوع ، يؤمنون بـ (المسيح المبعوث) . وهنا حدث الانتقال من ديانة يسوع كإنسان - وهي إحدى أشكال الدين اليهودي - إلى الديانة المسيحية» .

وثمة مسألة ذات خصوصية كونية وأخلاقية لأبد وأن يحاط بها بأبعادها واتجاهاتها واحتمالاتها من أجل استيعاب أعمق للبنية الداخلية لدين يسوع في آفاقها القصوى . إنها مسألة الإخفاق المتجدد في دنو ملكوت الرب وفي تحقيقه . فإن يكون يسوع مسيحاً مخلصاً ، لا يقتضي ، بالضرورة ومن حيث الأساس ، أن يمتلك ، حقاً ، القدرة الواقعية على الإمساك بقياد الملكوت المذكور ، بقدر ما يعني أن يتحول إلى لولب حافز باتجاه تحقيق هذا الأخير ؛ وذلك عبر تدخله (أي يسوع) في «التاريخ» السابق على الملكوت والقائم على صراع بين إبليس والمؤمنين الشهداء ، بحيث يثير القوى الاجتماعية المكونة من أولئك المؤمنين ويحرصها ويعمل على ضبط عقائدها واتجاهاتها وعلى تنظيم تحركها من موقع عقيدة «الخلاص والتحرر» وباتجاهها .

وجدير بالإشارة إلى الأمر الهام وهو أن الوجه الحاسم في المسألة المطروحة يكمن في أن «إخفاق» الخلاص والتحرر المعنيين لم يكن - وكذلك لن يكون - تعبيراً عن إخفاق تصور «يسوع المسيح المخلص» ، بقدر ما كان - وكذلك ما سيكون - تعبيراً كبيراً ومباشراً عن ضرورة استمرار تلك العقيدة ؛ ذلك لأن هذه الأخيرة تعادل وجود المسيحية اليسوعية بالصيغة التي تظهر فيها في كلتا المرحلتين ، مرحلة التكون والتبشير ومرحلة النضج والتنظير .

إن ذلك كله شيء ، في حين أنه شيء آخر ذلك الذي يتصل بـ «توقع ومعرفة» الملكوت الرباني . فهذا الأمر الأخير لا يعلم سره «إلا الأب وحده» . إن يسوع المسيح ، بمثابته أساساً ، ليس بوسعه أن يصل إلى ذلك المستوى . لأنه إن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فإنه يكون قد خرق شرط الربوبية الموزعة باتجاه الأب والابن وما بينهما ، أي الروح القدس . ومن هنا ، فحين يحدد متى الموقف على النحو الذي يعلن فيه أن قدوم ملكوت الله أمر لا يعلمه

«أحد ولا ملائكة السماوات إلا الأب وحده»^(١) ،

فإننا نفهم ذلك من موقع الأب المتجلي ابناً ، أي الذي لأبد وأن يكتسب البعد الناسوتي بمعنى ما ويحدّما . ومن ثم ، نستطيع أن نصوغ الموقف من حيث هو توتر

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للمقدّيس متى ٢٤/٣٦ .

مضطرب وفاجعي بين الابن انساناً والابن الها . ومن هذا الموقع بالذات ، يتاح لنا ، كذلك ، ان نصبط عملية التوتر بين الواقع والتوقع : إنها عملية اللهاث اللؤوب والقلق والمأساوي وراء «ملكوت الله» ، الذي يعلن بأنه يوشك أن يأتي ، ولكن رغم ذلك لم يأت (ويبدو أيضاً أنه لا يأتي) . والعزاء ، الذي يتولد عن هذه العلاقة اللجوجة بين القادم المأمول والمؤجل ابدأ ، ينقلب - والحال كذلك - إلى وجه من أوجه عملية تمويه وإبهام مأساوية قصوى . وينبغي - في هذا السياق البالغ الحساسية - أن يُنتبه إلى أن الموقف اذ يحتمل وجود مثل ذلك العزاء بل يقتضيه ويولده ويفرّحه ، فانه (أي العزاء) يتحول - وقد تحول في حالات وظروف خاصة مشخصة - إلى قوة شعبية هائلة نافذة من شأنها أن تتحول إلى تهديد طارئ للمؤسسة الكنسية المتضخمة . وهذه القولة إذ تبلغ هذا المدى ، فإنها تكون قد أعلنت لا شرعية تلك المؤسسة ، التي أقرت نفسها بديلاً واقعياً محققاً عن حاقِزَةِ ملكوت الله المعزّية ، وعن قدرته على استنهاض جماهير الطامحين إلى التحرر والخلاص . وهنا ، تتضح معالم المعادلة الجديدة المؤرقة ، التي تمكنت من تمريغ نظيرتها الأولى تمريغاً أريد له أن ينهي هذه الأخيرة في قلوب وأذهان تلك الجماهير المتحفزة : لقد حل يسوع المسيح التاريخي (الكنسي) أخيراً محل يسوع المسيح (الأصلي ، إذا صح التعبير) اللاتاريخي ، الضارب في أعماق الإبهام والمجهول والخيال والآفاق الخلاصية^(١) .

لقد عملت الكنيسة على صنع مسيحها الخاص ، البابوي الصولجاني ، بعد أن أطاحت بيسوع المسيح ، الذي وجدناه لدى متى الانجيلي لا يجد «مكاناً يُسند إليه رأسه» ، واسقطت - من ثم - المسيحية المثوية ، التي لم تأت لتلقي «سلاماً لكن سيفاً» ، أي التي عملت على استفزاز الواقع - المحنة والتحرّيش على مناوئته

(١) على صعيد هذا الموقف الطريف الدقيق ، يصل المطران جريجوار حداد إلى التمييز بين «المسيح الحقيقي» و«المسيح التاريخي» ، حيث يعلن المطلب المسيحي التالي (وكنا أننا على بعض ذلك في سياق آخر) : «لا بد من تحرير المسيح ذاته ، المسيح الحقيقي ، مسيح الحاضر ، عن المسيح التاريخي ، مسيح الماضي ، الذي وإن كان قد عاش إلا أنه اليوم لم يعد يحيا» . (غالي شكري : تيار جديد في الفكر المسيحي العربي - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٨ ؛ انظر ذلك ، أيضاً : كارل ياسبرز - فلاسفة انسانيون - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٤٧) .

ومناهضته وتجاوزه بأدوات ايديولوجية لا واقعية تقود إلى ما ترتب على ذلك ، وهو اللاواقع . وكان على ذلك أن يتضمن عملية جديدة أو مطلباً جديداً تمثل بمحاولة نحو ما كان قد توطد في ذاكرة الطامحين إلى الخلاص والتحرر من أفكار «المللكوت الالهي الآتي» . وإذا كان قد تعين على يسوع ، «بمقتضى الكتب» ، أن يغادر أشياعه من تلامذة ومؤمنين مناصرين بعد «صلبه وقيامته» ، فإنه وعدهم ، قبل ذلك ، بأن يبقى معهم إلى «يوم الدينونة» ، ينفخ فيهم القدرة الروحانية المستديمة على مواجهة «الشياطين» و«قتلة الأنبياء» .

ونلاحظ أن متى الانجيلي يقدم الكثير من هذا التوجه اليسوعي ، الذي كان عليه أن يكون خطاً الأمان بالنسبة إلى المصائر المستقبلية لأولئك التلامذة والمناصرين . بيد أن الكنيسة البابوية الصولجانية ، التي كانت قد أعلنت عن أشكالها الأولى قبل أن تتحول المسيحية البولسية إلى دين الدولة الأوحده ، عملت على انتزاع تلك الحشاشة الملتزمة في أفق أولئك الطامحين الصابرين ، حيث جرّوت على أن تقدم نفسها لهم بمثابة هذا المثلث الأوحده والأخير والذي يملك من الشرعية ما يسمح له بإعلان الحرب على كل من يقف في وجهه .

وقد شرعت المؤسسة الكنسية بـ «دراسة الموروث الانجيلي» والتمحيص فيه على نحو يتيح لها أن تبقى سيدة الموقف على صعيد النص نفسه . وكان انجيل متى قد خضع لتلك العملية ، بحيث قادت هذه الأخيرة إلى «الكنيسة» عقيدة ومؤسسة . ويبدو أن النص التالي من الانجيل المذكور قد حاز على اهتمام خاص ، وذلك باتجاه جعله (النص) وثيقة انجيلية يمكن الاستنباط منها ما يؤدي إلى تسويغ الكنيسة والتأكيد عليها . نقرأ لدى متى الانجيلي ما يلي على لسان يسوع «قبل صعوده» وهو يخبر ويحذر ويؤمل :

«... إني قد أعطيت كل سلطان في السماء والأرض . اذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم معمدين إياهم باسم الأب والابن والروح القدس . وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به وأنا معكم كل الأيام إلى منتهى الدهر»^(١) .
ان هذا القول «اليسوعي المتوي» ، الذي يظهر كما لو كان «وصية» يسوع

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٢٨/١٨-٢٠ .

«قبل الصعود» ، يكتسب على يد المؤسسة الكنسية بعداً مؤسسياً تسويقياً وتسويقياً يمكن النفاذ منه إلى حالة من الوصاية التنظيمية والسياسية والاجتماعية الاقتصادية والعقيدية الدينية . ايضاحاً وتحديداً لذلك ، لنقرأ شرحاً يكتبه ناشرو «الكتاب المقدس» المعتمد من قبلنا في هذا المبحث تعليقاً على كلمات يسوع الأخيرة (وها أنا معكم كل الأيام إلى منتهى الدهر) : «أي انه لا يزال كل يوم يسوس كنيسته ويثبتها ويعصمها من الفساد والضلال ويصون نائبه الحبر الأعظم من كل خطأ وغي في الايمان والآداب والتدابير العمومية ويمنّ على الاساقفة المتحدين مع الكرسي الرسولي بما هم محتاجون إليه لمباشرة وظيفتهم . وهذا هو السبب الذي من أجله الكنيسة الكاثوليكية الرومانية هي عمود الحق الذي لا يتزعزع ولن تبرح قائمة إلى الأبد ثابتة كصخرة إلى أن تقوم الساعة فيدخل اذ ذاك المختارون من أولادها جسداً ونفساً في البهجة السرمدية خالدين فيها ما دامت السماوات»^(١) .

هكذا أريد ليسوع أن يواجه نهايته على أقدام المؤسسة الكنسية البابوية ، أي نهاية الأحلام والآمال التي عبات عواطف المعدمين والفقراء والمفقرين . لقد انتهت تلك الأحلام والآمال اليسوعية المتوية ، حتى لو كانت مبنية على كتمان من الرمال الصحراوية . كانت نهاية يسوع المتوي هذا معادلةً لإرغام أولئك الصابرين على أن يتخلوا عن الحشاشة الأخيرة ، التي ظنوا أنهم سيعيشون وسيستمررون في العيش بفضلها وبركتها وبريقها الملكوتي الأخاذ . و«القادم الآتي راكباً على سحب السماء» أصبح راهناً ، ولكن بعد أسقطت منه «بركته» ، حيث تحول إلى عقل وضمير السلطة الكنسية ، من حيث هي الوجه الديني للامبراطورية وأحد تجلياتها الداخلية العملاقة . لقد أصبح الحلم المتوي واقعاً ، بعد أن خسر كل ما يربطه به ويشده إليه ويخلق حوافز باتجاهه .

ولعلنا نشير إلى أن تموضع المسيح في «جسده» - الكنيسة ، كما تريد المؤسسة الكنسية الانجيلية أن تعلن ، لا يمثل خلاصة الجهود التي انجزتها هذه ، فحسب . لقد جرى استنباطه واشتقاقه ، كذلك ، من تصور الخلاص المسيحي

(١) الكتاب المقدس - حواشٍ على المجلد الثالث من الكتاب المقدس (انجيل القديس متى) ، ص ٤٧٤ .

بصورة عامة ، هذا التصور الذي يتضمن - ضمن ما يتضمنه - العمل على التحريض على التفكير في السلطة السياسية ، تخصيصاً ، التي من شأنها أن تحول (أي الخلاص) إلى وضعية خلاصية محددة . أي ان الكنيسة وجدت في ذلك الأمر من المسوغات الخلاصية المسيحية ما يكفي لطرح نفسها على أنها «جسد المسيح» . ومن هنا بالضبط ، كان مما انجزته الكنيسة أنها أبعدت من معجمها - عملياً وعلى نحو ضمني - كل ما يدعو إلى التفكير في «القادم المؤجل» ، الذي واجهنا التبشير به في «الانجيل المتوي» على نحو واضح ومفصح عنه . وقد تم ذلك حين اعتبرت «القادم المؤجل» إياه راهناً ، أو حلماً أو أملاً دخل حيز الواقع ممثلاً بشخصها .

ولابد من القول - بالرغم مما قيل على هذا الصعيد - بأن توتر العلاقة واضطرابها وتآزمها بين «القادم» و«المؤجل» يبرز ، في لحظة من لحظاته ، وكأنه تمير تلقائي وحزين وإشكالي عن احتجاج «المسيح الأصلي» نفسه على «المسيح التاريخي» الكنسي .

أما هذا الاحتجاج فيلاحظ أنه ينضح بكثير من الشك والارتباب في صحة «القادم» بصورة عامة ، بحيث يظهر القول به والتعهد بحلوله وكأنه شكل من أشكال التسوية الديني ، الذي يقضي بالحفاظ على تصور الخلاص ، كيفما كان وكيفية اتفق .

والحق ، علينا أن نحاول تلمس «النقطة» الغائمة والراسفة في تضاعيف الموقف التسويفي ذاك ، تلك التي تسمح بالانطلاق منها باتجاه تكوين ما يمكن أن نطلق عليه «وعياً واقعياً» بانسداد آفاق «الآتي» عن طريق المسيحية اليسوعية بالذات . ولعل تلك النقطة تجسد إحدى العلامات الكبرى على الحركات الهرطقية ، التي انطلقت من المسيحية اليسوعية لتستقر أرض غيرها وباسمها هي نفسها . ان «يسوع المسيح» نفسه يقدم الشاهد الأكثر هولاً على ذلك ، ممثلاً باللحظات الأخيرة من «مشهد الصلب» . ان انجيل متى ، الذي يقدم لنا هذا الأخير بصور بالغة المأساوية والفاجعية ، نستطيع أن نرى فيه تجسداً مباشراً لـ «الوعي الواقعي» المنوء به أو ، لنقل بتواضع ، للحظة هذا الوعي . وهنا ، يبدو «يسوع المسيح» نفسه الوجه الأكثر إشكالية في الحركة المسيحية الأولى ، بل لعلنا نقول ، انه يجسد - في نهايته الحزينة على الصليب - مأساة المسيحية نفسها وعلى نحو

العموم . ففي سياق تلك النهاية ، يقدم متى الانجيلي «يسوعه» بلغة صارمة قصوى ، حيث يعبر (يسوع) عن احتجاجه على «أبيه» ، الذي تركه وحيداً .

من أجل تبين تلك المشاهد «اليسوعية» المفعمة بكل الدلالات التي تنأت عن موقف الأمل والخيبة واليأس ، نسوق نصين متويّين ، لنواجه عبرهما ذلك الاحساس الفظيع بالضيق الشخصي (العمومي) والغربة العميقة الموحشة ، الذي ألمّ به «المعلم المخيب الآمال» وهو مسرّع إلى الصليب المذمّي . إن ذلك الاحساس «الكاذب - الصادق» جعل يسوع المصلوب لا يرى في نفسه أكثر من كرة يُقذف بها إلى مصير الهاوية - الصليب على أيدي المجذّفين بملسكوت الله والمواطنين «بخسة ومكابرة وفظاعة» على دم صاحب «البشارة العظمى» . إنه لمشهد بليغ الدلالة الاجتماعية والسياسية والسيكولوجية العقيدية على ذلك «الحقواء الرباني» و «اليأس الأعظم» و «الاحساس الذاتي بالاحتقار والامتهان» ، الذي يخترق شخص المصلوب عمقاً وجسداً ؛ وخصوصاً حين تسمر عيونه على تلك العيون اليابسة والمفعمة شماتة وحقدًا وصلفًا ، عيون القتلة المنتصرين التي تخاطبه بسفاهة المنتصر على التاريخ : خلّص نفسك إن كنت ابن الله ! لتدبر المشهد من المقدمة إلى «نهاية النهايات» ، كما نخبرنا عنه متى اليسوعي :

«ولما بلغوا إلى مكان يسمى الجلجلة الذي هو موضع الجمجمة . اعطوه خمرًا ممزوجة بمرارة فذاق ولم يرد أن يشرب . ولما صلبوه اقتسموا ثيابه بينهم واقرعوا عليها لكي يتم ما قيل بالنبي القائل اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي اقرعوا . ثم جلسوا هناك يحرسونه . وجعلوا فوق رأسه عِلَّةً مكتوبةً هذا هو يسوع ملك اليهود . حينئذ صلبوا معه لصين واحداً عن اليمين والآخر عن اليسار . وكان المجتازون يجذّفون عليه وهم يهزون رؤوسهم . ويقولون ياناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام خلّص نفسك . إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب . وهكذا رؤساء الكهنة مع الكتبة والشيوخ كانوا يهزأون به قائلين . خلّص الآخرين ونفسه لم يقدر أن يخلّصها . إن كان هو ملك اسرائيل فينزل الآن عن الصليب فتؤمّن به . إنه متكلم على الله فلينقذه الآن إن كان راضياً عنه لأنه قال أنا ابن الله . وكذلك اللصّان اللذان صلبا معه كانا

يعبرانه . ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة»^(١) .

تلك اللوحة ، «لوحة الأهوال المجلجلة» المقدمة في «الجلجلة - مكان الصلب» ، تنتهي «نحو الساعة التاسعة» ، حيث يضطرب المصلوب ويتفرض انتفاضة كبرى ، موجهاً عينيه «الحزينتين الوديعتين البائستين» - قبل أن ينطفئ نورهما - إلى «ذلك الذي» كافح من أجله على مدى زهرة العمر ، ليلقى في النهاية منه عزوفاً مذهلاً في مصابه الجلل . ان هذا المصلوب إذ يواجه عينيه نحو ذاك ولا يلقي إلا صمتاً مرعباً يحمل على الحنق الداخلي المقعم بخيبة الأمل ، يخاطبه

«بصوت عظيم قائلاً إيلي إيلي لما شبقني أي الهي الهي لماذا تركتني»^(٢) ولكن إيلي الأب لا يجيب الابن الدامي على صليب القتلة المجدفين ؛ وكأن الصمت ، هنا ، كفٌ عن الفعل الأبوي (الاهي) ، واحداث شرخ من الشك العميق الأليم فيه ، أو في قدرته على الاستجابة لصوت «الشهيد الأعظم» . بل ان المأساة الملهاة تأخذ مداها الأقصى المرعب ، حين يأتي الجواب من الآخرين الذين هم ستموه وليس غيرهم ، أي من أولئك الذين «أطفأوا النور» . إن متى الانجيلي يقود المشهد اليسوعي الصليبي إلى الحدود التي تجعله حداً بين عالمين اثنين كبيرين ، عالم الهزيمة المنكرة ، هزيمة «المحبة والوداعة وسيف الذي لم يكن له مكان يسند إليه رأسه» ، وعالم الظفر الناجز ، ظفر «القتلة المجدفين الأغنياء» الذين استطاعوا أن يدخلوا في خرم الإبرة ، «خرم هذا العالم» . هل كان على يسوع الصريع ، في لحظات اضطراعه الأخيرة ، أن يتفكر في أن كفاحه من أجل «عالم الملكوت» لم يكن إلا عملية مسدودة الأفق ، هل وصل إلى أن انتصاره هو - وليس انتصار أولئك - كان ممتنعاً ومستحيلًا امتناع واستحالة دخول الجمل في خرم الإبرة ١٤

من الذي سمع «المصلوب الشهيد» ؟ متى نخبرنا عن أولئك :
«فسمع قوم من الحاضرين (خط التشديد مني : ط. تيزيني) هناك فقالوا ها

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح بحسب القديس متى ٢٧/٣٣-٤٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٧/٤٦ .

إنه ينادي إيليا»^(١) .

إن مرارة الموقف وسخريته والشعور بأن «المصلوب الشهيد» مَرْمِيٌّ في أعماق النسيان والإهمال ، تتجسد في ذلك الذي عقب عليه أولئك القوم ، وفيما صنعه واحد منهم :

«وللوقت أسرع واحد منهم وأخذ اسفنجة وملاًها خلّاً وجعلها على قصبة وسقاه . فقال الباقيون دُعْ لننظرَ هل يأتي إيليا ينجيهِ . وصرخ أيضاً يسوع بصوت عظيم واسلم الروح»^(٢) .

أيُّ شعور بالانتظار هزَّ «المجدفين» ، وأي إحساس بالخيبة العظمى اخترقت «روح المعلم وجسده» ! إن إيليا لم ينقذه . ولا بد في تلك اللحظة الحرجة أن يكون التلاميذ والانصار المؤمنون قد تذكروا كلامه في مناسبة منصرمة ، حين سألته التلاميذ قائلين :

«لماذا تقول الكتبة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً . فأجاب وقال لهم إن إيليا يأتي ويرد كل شيء . وأقول لكم إن إيليا قد جاء ولكنهم لم يعرفوه بل صنعوا به كل ما أرادوا . هكذا ابن البشر مزعجٌ أن يتألم منهم . حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان»^(٣) .

إذن ، هل جاء إيليا حقاً ، وما الذي استطاع أن يفعله ضد أولئك القتلة المجدفين ؟ أم هو لم ينجيء بعد ؟ ماذا على «التلاميذ والانصار المؤمنين» أن يعتقدوا ؟ هل انتهت القصة نهائياً ، هل ذهبت تلك «البدعة اليسوعية» إلى حيث لا رجعة ، بعد إذ صُلب ؟ إن متى الانجيلي يقدم لأولئك مواقف واجابات متعددة من شأنها الاسهام في تعقيد الموقف وجعله أكثر اضطراباً وقلقاً ، بالرغم من أنها أبقت على بعض الآمال والتوقعات . ففي حين يعلن يسوع هناك أن إيليا «قد أتى» ، نراه يعلن في مكان آخر لدى متى الانجيلي أن إيليا «سيأتي» :

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٤٧/٢٧ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٤٨/٢٧ - ٥٠ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٧/١٠ - ١٣ .

«وان اردتم أن تقبلوا فهو ايليا المزمع أن يأتي»^(١) .

وإذا كان «الابن» وهو على صليبه الدامي قد نادى ايليا ولم يأت ايليا ، فإن هذا لابد وان يعني - ضمن ما يعنيه - ان ايليا ، ببساطة ، قد تركه وتخلّى عنه ؛ لأن واحداً من الطرفين غير جدير بالآخر أولاً ، أو لأن ايليا كان يوماً ما قد أتى ولم يصنع شيئاً بسبب العجز حيال عالم مليء بالشر والطغيان ثانياً ، أو لأن ايليا ما هو إلا قصة يسوع نفسه انتهت بصليبه ثالثاً . لقد انتهت القصة الفاجعية ، حيث اطلق يسوع المصلوب صرخته اليائسة البائسة التي غدت وكأنها حفيف أوراق أشجار تتساقط في عمق الخريف : ايلي ايلي ! لما شبقطني ؟! بل ان يسوع في هذا المشهد النهائي الدامي يجد نفسه ليس أكثر مما هو ، الانسان المحاط بثعالب الطغاة والقتلة والمضطهدين . لقد مات انساناً^(٢) ، بعد ان شغل الناس بـ «ألوهته» . مات انساناً يائساً مخيب الأمل ، مات وهو منكس رأسه إلى الأبد . بل انه مات وقد أحس قبل ذلك ، أي في هذا العالم ، أنه محاط بعلاقات بشرية تتحدد هويتها في أنها تولّد الغربة والافتراق . أولاً ينبغي أن يكون المصلوب في لحظاته الأخيرة قد وصل الى قراره الأعظم التالي : يجب ان يُسحق هذا العالم ليُشقى الطريق أمام العالم الآخر ، عالم الملكوت ؟!

ان الصرخة اليائسة البائسة تلك هي صرخة احتجاج يوجهها إلى من آمن به هودون أن ينقذه ، وإلى أولئك الذين آمنوا به من تلاميذ وأنصار دون أن يتساءلوا أو يشكوا ، إلا في حالات نادرة . فالمخلص يُترك وحيداً مطارداً مصلوباً بعد أن سقي خللاً ، ليفسح الطريق أمام القتلة والمجذفين . ومن ثم ، فإن الذي يُفقد في هذه العملية هو «المخلص» ، ليقبى تصور «الخلاص» في مهب ريح عاتية . ويبدو أن هذا «الإخفاق الكوني» المريع كان - في نفس الحين - كوة للنفاذ إلى ما وراءه ، إلى البحث عن حل آخر . إلا أن هذا الأخير لم يكن له أن يخرج عن الدائرة التي تموضعت فيها المسيحية اليسوعية الباكورة . فإذا كانت قد وجدت احتمالات أخرى ، فإنها كانت مشروطة بموقعين اثنين . الأول منهما تمثل بما سيصنعه بولس الكنسي ، أي باعلانه ان يسوع قد تجسد بالكنيسة ، وأن هذه أصبحت الحقيقة القصوى

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٤/١١ .

(٢) انظر حول ذلك : Erich Fromm- Ihr werdet sein wie Gott, a.a.O., S.185.

القائمة ، وأن يسوع من ثم ، قد أتى وحلّ بعد أن كان قد احتضر على خشبة الصليب : إن الأتي المؤجل أصبح قائماً رهنأ . وبهذا ، فقد قُطع الطريق على ما قد يظهر من «مسحاء» يزعمون لأنفسهم حق تمثيل «الخلاص الملكوتي» ؛ ذلك لأن هذا الحق أصبح في يد «البابا» ، سيد الموقف الجديد .

ان سقوط يسوع المسيح كان بمثابة سقوط المخلص من فوق ، وبسروز للمخلص من تحت . وهنا ، تتحدد سمات الموقع الثاني لاحتالات ما بعد السقوط . فعلى هذا الصعيد ، أخذت تتبلور بعض الارهاصات الدينية ، التي حملت في وجهها وشماً بارزاً : مرارة سقوط المخلص ، والبحث عن بدائل سنجدتها متمثلة بالتيارات الدينية اللاحقة ، التي ستقاتل على مُشكلية العلاقة بين الناسوت الصاعد واللاهوت المحتضر . وهنا ، تبرز النقطة المضيئة - المظلمة المائي عليها فوق ، وهي سقوط يسوع على الصليب بصفته انساناً . فأن يكون الانسان ، هنا ، البعد الأكبر حضوراً وهيمنة وفي لحظة الإخراج القصوى ، لحظة الصلب أمام «ابليس - المجذف» ، لابد وان ينطوي على حوافز انسانية لمزيد من الفعل الخلاصي . لكن هذا «الانسان» سقط مستسلماً لـ «قدر» لم يستطع أن يفهمه . ذلك لأنه وقف أمامه حائراً ومندهشاً ومندهلاً ومضطرباً وشاكاً وكذلك شاكياً . وهذا ، بدوره ، يشير إلى أن المشكلية ، المعنية هنا ، لم تجد حلاً لها حتى في صيغة المسيح المستسلم إنساناً .

ان متى الانجيلي يجد في تلك الوضعية ما يدعوه للقول بأن الذي سقط هو يسوع الانسان ، اما يسوع الاله فقد رُفع إلى أبيه ؛ مما يجعل الاستنباط وارداً ، وهو أن الخلاص و المخلص كليهما - وليس الخلاص وحده - مازالا قائمين وقادرين على قيادة المؤمنين الى «ملكوت الله» . إلا أن هذا التوجه الخلاصي اليسوعي لم يستطع ، فيما تلى من أحداث ، أن يكون له الحسم والفصل ؛ في حين أن التوجه الخلاصي الكنسي المؤسسي هو الذي تمكن من ممارسة هذا الدور لعدة قرون تالية .

واذا كان الأمر قد انتهى على ذلك النحو ، فان القادم المؤجل يتحول إلى الحاضر الناجز ؛ ومن ثم ، فإن عملية التضاييف بين ذينك القطبين تتصدع عبر الإطاحة بالخلاص والمخلص ، أي من خلال تذويب وامتصاص دم من كان

لحديث كله باسمه وحوله ومن أجله . ومما ترتب على ذلك وفي سياقه ، أن استطاعت الكنيسة (جسد المسيح) القيام بمهمة تاريخية كبيرة تمثلت بتقديم الأدلة العقيدية على أن خلاص جموع العبيد في المجتمع الروماني والفلاحين الفقراء في المجتمع الفلسطيني ليس أكثر من وهم عابث ؛ إضافة الى أن الدعوة إلى مثل هذا الوهم خارج الكنيسة أصبح بدعة تقود صاحبها إلى «الضلال فالنار» . أما ما يمكن أن يتم على صعيد تحرير أولئك ، فإنه لم يعد يخرج عن المهمة التاريخية الاجتماعية التالية ، وهي اضمحلال العبيد كطبقة اجتماعية لا توحد لها لغة ولا ثقافة ولا انتفاءات إنسية ولا مواقف سياسية فاعلة ، إلى مجتمع جديد ، سوف يعلن عن نفسه تحت اسم المجتمع الاقطاعي (في أوروبا) وتحت مجموعة من عمليات التحول الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي ، التي قادت إلى المجتمع العربي الاسلامي الوسيط المتعدد العلاقات الاجتماعية المتداخلة .



مرقس : من المطلق البدئي إلى المطلق الناجز عبر التاريخ

ان ما يشتر الانتباه في معظم النصوص الانجيلية عموماً ، وربما في النص المرقسي على نحو خاص ، هو ذلك الأفق الجدلي اللاهوتي المثير ، الذي يحيط بشخصية يسوع المسيح ويعبر عنها ويدخل في سماتها الأكثر خصوصية ومباشرة . هذا الأفق الجدلي يظهر عبر مجموعة من الأقوال والتحديدات والمواظ ، التي يطلقها يسوع المرقسي في مناسبات متعددة وضمن اسئلة مختلفة . ولعلنا نرى في هذه الظاهرة تعبيراً لاهوتياً عن خصائص مرحلة الانتقال من اليهودية الى المسيحية البولسية بمشابهتها (أي المرحلة) انتقالاً من خاص إلى عام ، ومن جزئي إلى كلي ، ومن «الشعب المصطفى المختار» إلى «الأمم» .

من طرف آخر ، يبدو أنه من الممكن أن نرى في الأفق الجدلي اللاهوتي المعني امتداداً ، بمعنى ما وبوجه ما وبدرجة ما ، لما واجهناه في الشرق العربي القديم من جدلية اسطورية ، كما ظهر معنا في الجزء الثاني من «مشروع الرؤية» الذي نعمل على استكماله ، مع التأكيد بأن ذلك الأفق يظل يمتلك خصوصية محددة ، وإن كانت نسبية الطابع ، وهذا يدعونا للقول بأن الأفق المذكور يمثل - ضمن السياق المعلن هنا - وريثاً شرعياً لتلك الجدلية الاسطورية . وإذا أخذنا هذا وذاك بعين الاعتبار وعلى نحو إجمالي ، وجدنا أنهما يضعاننا أمام واقعة تاريخية لها مغزاها الخاص والكبير فيما نحن بصدد البحث فيه ؛ تلك هي أن تصور «التناقض» شغل هنا وهناك حيزاً ملحوظاً وملفتاً للانتباه ، وبرز - من حيث الأساس - بصفته تعبيراً عن واقع التناقض الاجتماعي الطبقي بين الارستوقراطية المالكة من طرف ، وبين الأنساق الطبقيّة المتعددة من الفلاحين وغيرهم (كالعبيد) من طرف آخر .

لندقق في الحالة التالية النموذجية ، التي تبرز فيها عملية التجادل بين قطبين

كبيرين حاسميّ الفعالية والتأثير في المجتمع الزراعي عامة . فتصور «الخلاص» في الفكر الشرقي الاسطوري القديم ، كما كان الحال في المجتمع الفلسطيني الانتقالي (من العصر السابق على الميلاد إلى العصر الميلادي) ، يظهر من حيث هو تصور متضايّف مع تصور «العقم» أو «الآلم» أو «اللاحرية» . ومن ثم ، فإن الواحد منهما يستتبع ثانيهما ، ويتلوه ، ويقتضي وجوده ضرورةً ، بعد أن يهيء له . ولقد واجهنا هذا الموقف لدى متى الانجيلي . وكلا الموقفين ، المثوي والمرقسي ، قادا إلى تصور الخلاص على ايدي «يسوع المسيح» . فبمقتضى ذلك ، كان على يسوع المسيح هذا أن يتألم حتى الدرجة القصوى ، أي حتى نقطة الاستنفاد ؛ وبعد ذلك يترتب على الخلاص أن يتحقق في صيغته المثل والنهائية . ان مرقس الانجيلي يحدثنا عن هذا الأمر ، مستخدماً ، كالانجيليين الآخرين ، صيغة الحوار بين «المعلم» و «الآخرين» ، من تلاميذ وانصار مؤمنين وخصوم :

«ولما سأله الفرّيسيّون متى يأتي ملكوت الله أجابهم وقال ان ملكوت الله يأتي بغير ترقب . . . وقال للتلاميذ ستأتي أيام تشتهون فيها أن تروا واحداً من أيام ابن البشر فلا ترون . وسيقال لكم هو ذا هناك هو ذا هنا فلا تذهبوا ولا تتبعوا . لأنه مثلما ان البرق البارق عما وراء السماء يلمع إلى ما وراء السماء كذلك يكون ابن البشر في يومه . ولكن ينبغي له أولاً ان يتألم كثيراً ويُردّل من هذا الجيل» .

ويضيف يسوع المسيح وقد أجرى بعض المقارنات بينه وبين حالات أخرى سبقتة ، خالصاً إلى نتائج تدعم موقفه التقريبي التحذيري :

«وكما كان في أيام نوح كذلك يكون في أيام ابن البشر . فانهم كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى يوم دخل نوحُ التابوت فجاء الطوفان واهلك الجميع . وكما كان في أيام لوط فانهم كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويفرسون ويبنون . ولكن يوم خرج لوط من سدوم أمطر الله ناراً وكبريتاً من السماء فأهلك الجميع . كذلك يكون في اليوم الذي يظهر فيه ابنُ البشر» .

ويتهيء يسوع المسيح الى «كلمة الفصل» ، حيث نواجه جدلية الموت والحياة التي تنتصر فيها هذه الأخيرة عبر المرور بالأول :

«من طلب ان يخلص نفسه يهلكها ومن اهلكها احياءها»^(١) .
وفي موضع آخر ، يعلن المخلص يسوع انه قبل ان يأتي مخلصاً ، ينبغي ان يقتل
(يُصلب) اذ بعد القتل «يقوم» معلناً يوم الدينونة :
«انه ينبغي لابن البشر ان يتالم كثيراً ويرذل من الشيوخ ورؤساء الكهنة
والكتبة ويقتل ويقوم في اليوم الثالث»^(٢) .

ان «الألم» يغدو ، والحال كما هو مقدم ، متتهى الفاجعة ، ومبتدى الملكوت .
ولكنه في هذه السمة ، بالذات ، يكون بمثابة المُطهر ، الذي لا بد وأن يُعاش كلياً ،
قبل ان ينبعث الخلاص . وقمة الألم لا يمكن أن تكون إلا القتل (الصلب) .
نضيف إلى ذلك أن من شأن «المبتدى» و«المتتهى» المنوه بهما أن يكونا متقاطعين تقاطعاً
مطلقاً ، تقاطعاً الشر والخير ، والألم واللذة ، والبؤس والسعادة ، في المنظور
المسيحي اليسوعي . وإذا كان «متتهى الفاجعة» يجسد مرحلة أخيرة قصوى لسلسلة
مديدة ومضطردة من العذابات والاضطهادات ، فإن «مبتدى الملكوت» لا يمثل
«بداية» لـ «نهاية» يتجه إليها هذا الملكوت ويتوقف عندها وفي حدودها . ذلك لأنه
(أي الملكوت) اذ يعلن عن نفسه ويدخل حيز الفعل الكامل ، فإنه - في نفس الحين
ونفس السياق - يكون قد أعلن وأفصح عن نفسه كلياً ومكّن لنفسه - من ثم - في
الكون إطلاقاً . وعلى هذا النحو ، نغدو أمام الموقف النوعي الجديد : ان مبتدى
الملكوت هو ، أيضاً وفي آن ، ذروة الملكوت .

إننا نتبين في تلك الوضعية مسألتين اثنتين تحتلان مكاناً ملحوظاً وفاعلاً في
التصور المسيحي للتاريخ . المسألة الأولى تكمن في الإقرار المباشر والمضمّن بوجود
تاريخية لمرحلة الصعود من «بداية» الفاجعة المتمثلة بارتكاب الخطيئة الأصلية إلى
«نهايتها» . أما سياق هذه التاريخية فيتسم بالعنف والقلق والبؤس والصراع بين
الخير والشر ؛ مع بقاء الشر عاملاً رئيسياً وحافزاً حاسماً ضمن عملية توليد وتحريك
هذه المرحلة ، وصوغ معالمها واتجاهاتها الكبرى . وحيث تصل الفاجعة إلى حدها
الأقصى ، فإنها تكون قد ولجت مرحلة نهايتها وضمحلها ؛ كما تكون - من زاوية

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس لوقا ١٧/٢٠ ، ٢٢ - ٣٠ ، ٣٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيائه ٩/٢٢ .

أخرى - قد أخذت في التهيئة للدخول في عالم المرحلة الثانية . هاهنا ، نكون أمام المسألة الثانية من الوضعية المعنية . فهذه تنهض على رؤية «التاريخ» وقد توقف وانقطع وأعلن عن تخطيه بصفته سياقاً تجاوزياً . فمبتدى الملكوت يعني ، كما أشرنا من قبل ، ذروته الفصوى ، تلك الذروة التي تلخص الموقف النوعي الجديد . ولكن ، هيهات أن يحدث هذا الانتقال الكبير بدون ثمن كبير ! أما هذا الثمن فهو الموت بعينه ، ومن بعده القيامة ، أي التصحية - ولا نقول العقاب - والاثابة ، مجسدين بفدائي الفدائيين إطلاقاً وعموماً ، الذي هو «يسوع المسيح» .

وعلى نحو عيني محدد ، لا يمكن لمتهى الفاجعة أن يتجسد إلا بموت «الابن الوحيد» ، ابن الأب ، فداءً للمفجعين الصديقين ولكل الخطاة ، بل للخطيئة برمتها ومن حيث هي . أما المسوخ الأعظم الكامن وراء ذلك ، فلا يخرج عن دائرة الحب ، حب الأب (الأب) للعالم :

«لأنه هكذا أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به»^(١) .

أما بداية الملكوت ، التي تنطوي بنيوياً على دلالة الذروة والأقصى ، فسوف تكون بمثابة إعلان ببدء

«الحياة الأبدية» . فإنه لم يرسل الله ابنه ليدين العالم بل ليخلص به العالم»^(٢) .

هاهنا ، تكتسب تلك العمليات المقدسة (الإشارات) مشروعيتها ودلالاتها الأسرارية المقدسة ؛ نعني بذلك «الولادة اللاطيفية» ، أي الولادة بواسطة «الروح القدس» ، و«إعلان البشارة» ، و«العشاء الرباني» ، و«الصلب» و«الموت» ، و«الدفن» ، و«القيامة» ، و«الصعود» و«النزول الملكوتي» و«الخلاص» . ان هذه ، جميعاً ومجتمعة ، تمثل مادة ونسيج المأساة والخاتمة السعيدة كليتهما . ولكن بالرغم من التعدد والتنوع في فصول العملية الكلية ، فإن فصلين اثنين منها يبقيان يمثلان ركني الوجود العظيمين ؛ وهما ما قبل الملكوت ، والملكوت ، أي ما بعد قبل -

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس يوحنا ٣/١٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٣/١٦-١٧ .

المللكوت . وفي هذين الركنين وعبرهما ، يظهر التجادل بين القبل والبعد ، الرذيلة والفضيلة ، العقاب والثواب . وهما هنا ، نتمس - بصور غزيرة - حيوية التاريخ وخصوبته الشخصيتين .

هكذا ، تتضح اللوحة الكونية الكلية بمثابتها بنية تتعاقب فيها الأكوان من السيء إلى الأسوأ فالأعظم سوءاً ، ومن بعد ذلك إلى الأعظم خيراً ، دفعة واحدة ومرة واحدة . وبذلك ، نلاحظ أن العملية على المستوى الأول (التاريخ) تتضمن أنساقاً متباعدة ومتعددة يخرقها خط رئيسي واحد ، هو التدرج من الأدنى إلى الأعلى ؛ في حين يبرز الموقف على المستوى الآخر (اللاتاريخ) بمثابتها فعلاً واحداً ناجزاً وذا نسيج واحد عمقاً وسطحاً : فهو واحد أحد في القبل والآن والبعد ، إذا صح أن نستخدم هذا التصنيف الزماني الانطولوجي ؛ وهو - كذلك - بنية واحدة ومتجانسة ، بحيث تسقط المفاضلة بين مقوماتها ومكوناتها .

وإذا عدنا إلى الجدلية الاسطورية في الشرق العربي القديم ، لاحظنا أنها انطوت على نوع من «التعاقب الكوني» ذي الشخصية الدورية ؛ بينما لا يبرز التعاقب المعني هنا - وفي منظوره المسيحي - على أنه محائل لذاك ، بقدر ما يفصح عن نفسه عبر حلقتين اثنتين كبيرين يمكن التعبير عنهما بإيجاز وكثافة بـ «القبل» و «البعد» ، أي بـ «قبل المللكوت» و «المللكوت» . وهذا ما يتيح لنا القول بأن ذلك التعاقب (المسيحي) هو تعاقب ثنائي قطبي ، يرتد - في نهاية الموقف - إلى محور واحد ، هو «المللكوت» ، حيث ينحصر الحديث عن ما قبل المللكوت والمللكوت .

ان يسوع المرقسي يعبر عن مثل تلك الوضعية بصيغ أخلاقية تسمح باكتشاف دلالات وجودية لها تقود إلى ما نحن في صدد الحديث عنه :

«إن أراد أحد أن يكون الأول فليكن آخر الكل وخادماً للكل»^(١) .
ولعل وجهاً خطيراً من المسألة يتأتى مما -طدده كارل ياسبرز بـ «إبهام مذهل» يحيط بتلك العلاقة بين «القبل» و «البعد» . ويتلخص ذلك - وقد كنا أتينا على طرف منه - بأن المللكوت الالهي الذي سيأتي وينهي ، بحجته ، ما قبله ، هو في نفس

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس مرقس ٩ / ٣٤ .

الوقت وسلفاً موجود وجوداً كثيفاً وإن لم يكن فاعلاً بكل الأنحاء والاعتبارات^(١) .
ويمكن القول بأنه من المحتمل أن يفهم ذلك الابهام من موقع النظر إلى أن «اللاحق»
ينبىء عن نفسه في «السابق» ، وذلك من قبيل الإنشاء الجزئي ، وعلى سبيل
التضمن الجزئي : إن «البذرة المملوكة» هي التي تبرز في غابة الخطيئة ، متحولة من
الأدنى إلى الأعلى في صراعها ضد هذه الأخيرة . وهي (أي البذرة) وإن ظهرت في
«البعد» بمثابرتها كلاً مطلقاً يمحو ويجب ما سبقه ، فإنها تظل تمثل شكلاً من أشكال
النمو الذاتي ، الذي يقترب ، على نحو أو آخر ، من عملية نمو تاريخية ما وبمعنى
ما .

وإذا ما ظهر الأمر حتى اللحظة الأخيرة من وجود «السابق» ، أي «عالم
الخطيئة» ، على أنه ذو سياق تاريخي ، فإنه - بعدئذ - أي مع اندحار هذا العالم ،
يبرز وقد تنصل من التاريخ وخرج منه مرة واحدة وإلى الأبد . وهذا ، بدوره ،
يلزم بالقول بأن «الملكو» ، كما هو مقدم هنا ، من طراز وجودي لا تدانيه كل
الطرز الوجودية الأخرى . وفي هذه النقطة النوعية ، يطلق يسوع المسيح المرقسي
مقارنة بين كلا «الزمانين» العظيمين ، هذا الزمان ، وذاك الذي سيأتي مع «الحياة
الأبدية» :

«أما في هذا الزمان فيبوتاً وإخوة وأخوات وأمهات وبنين وحقسولاً مع
اضطهادات وأما في الدهر الآتي فالحياة الأبدية . وكثيرون من الأولين يكونون
آخرين ومن الآخرين يكونون أولين»^(٢) .

وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فلعلنا نغدو في الحال الذي يتيح لنا أن نتبين ، عن
قرب ، الموقع الهام ، بل الهام جداً الذي يشغله الموت في المسيحية . فهذا الأخير
وإن بدا بمثابته موتاً ، فإنه ينطوي على نقيضه وبديله ، في آن واحد وسياقين اثنين ،
وهو الحياة . وجدير بالقول - في هذا المنعطف الدقيق من فهم المسيحية العقيدية -
أنها ، بحلها لمسألة الموت بطريقتها هذه ، حصدت ثماراً كثيرة باتجاه التمكين
لأقدامها في أوساط المتقلين بأعباء وهموم هذه الحياة . فلقد جعلت من الموت بوابة

(١) كارل ياسبرز : فلاسفة انسانيون - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٩١ .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس مرقس ١٠ / ٣١-٣٠ .

تقود إلى «الحياة الحقة» . ومن ثم ، فإن افتقاد أولئك لتلك الحياة لا ينطوي على خسران بقدر ما ومعنى ما ، وإنما يفتح الأبواب كاملة أمام الكسب الأعظم ، أي الذي لا يدانيه كسب . ومن هنا ، كانت قوة المسيحية - خصوصاً في مراحلها الباكرة - على تحفيز من عنتهم بـ «المثقلين» ، وذلك باتجاه احتقار عالمهم المثقل بالأسى ، ووضعه بين قوسين .

وقد نكون مخولين بالقول بأن أحد أشكال التفوق الكبير الذي حققته العقيدة الجديدة على تلك العتيقة (اليهودية) كمن ، بالضغط ، في اجابتها الطريفة «الحميمة» عن مسألة الموت^(١) ، هذا مع العلم أن تلك الاجابة لم تنفرد بها المسيحية أو تستحدثها من خواء تاريخي ديني ، بل كان للتصورات الرؤى يابوية اليهودية الأخيرة دور في الحث على الوصول إليها وعلى التمحور حولها في عالم غدا الموت فيه ، فعلاً وحققاً ، أفضل من الحياة . ومن خصوصية الموقف الهامة والملفتة والغنية بالدلالات ان «الموت» المسيحي - في المراحل المشار إليها ، ما إن اكتسب ذلك البعد الحيائي المحفز حتى انقلب ، فعلاً وحققاً ، الى قوة جماهيرية غامرة كان من شأنها أن عبأت جماهير «المثقلين بأعباء الحياة» ضد سلطة المرابين والمستغلين من سادة العبيد وكبار الملاك العقاريين .

ومن العناصر البالغة الأثر في العقيدة المسيحية اليسوعية ما نواجهه في إطار وضعية من الاغتراب والغربة تهيمن في مرحلة ما قبل الموت . وعلينا في حقيقة الأمر أن نعترف بأننا نواجه على هذا الصعيد مواقف خطيرة الدلالات والأبعاد بالنسبة إلى تكون تلك العقيدة وانتشارها على نحو هائل في الأوساط الشعبية الفقيرة والمفكرة . ولقد كنا واجهنا بعض تلك المواقف لدى متى الانجيلي ، ونواجه بعضها الآخر ، هنا ، في النص الانجيلي المرقسي . فالصرخة المدوية التي اطلقها يسوع المصلوب

(١) جاك شورون يدرك في كتابه (الموت في الفكر الغربي) أهمية الموت في الظفر الذي حققته المسيحية على ما سبقها وما عاصرها من أديان وتيارات فكرية . ولكنه إذ يفهم هذه الأهمية على صعيد الوضعية الفردية للمؤمنين الأوائل ، فإنه يطبع بالدور التاريخي الجماعي أو يضعف منه ، ذلك الدور الذي مارسه «الموت» في تبلور المسيحية وانتشارها . (انظر الكتاب المذكور ضمن سلسلة : عالم المعرفة ، ترجمة كامل يوسف حسين ، مراجعة وتقديم د. إمام عبد الفتاح إمام ، الكويت ابريل ١٩٨٤ ، ص ٨٧) .

قبل «رفعه» تمنح ما نقوله الكثير من المصادقية . ان الشعور بالغربة والاعتراب والانسحاق لا يقتصر على هذا العالم المباشر ؛ بل ان تجربة المصلوب تُري ان ذلك الشعور رافقه حتى اللحظات الأخيرة وبالرغم من كل التوسّل والنداء الذي اطلقه باتجاه الرب الاله : إيلي إيلي ! لما شبقنتي (الهي الهي ! لماذا تركتني) ؟

ذلك النداء اليسوعي المتوي أوصل اليأس المسيحي والشك في هذا العالم الى حدودهما القصوى التي التقت بتخوم العالم الآخر ، عالم الرب الاله (الأب) . ويتضح الأمر أكثر وبمأساوية أعمق لدى مرقس الانجيلي ، الذي يقدم الينا يسوع المسيح وقد وضع تعارضاً كلياً بينه وبين وطنه وأقاربه وبيته ، بحيث لا يعود الأمر يحتمل أكثر من رفض هذه جميعاً والتوجه إلى عالم آخر . لقد قدم لنا مرقس صورة حية حول ذلك الموقف ، الذي اخترقته لحظتان اثنتان هامتان ، لحظة الانتهاء الاجتماعي الطبقي ليسوع المسيح ، ولحظة القدرة الخلاصية الهائلة التي يستحوذ عليها . يقول مرقس الانجيلي محدثاً عن ذلك مايلي :

«ولما كان السبت طفق يعلم في المجمع وكثيرون إذ سمعوا بهتوا من تعليمه قائلين من أين لهذا هذه كلها وما هذه الحكمة التي اعطيها والقوات التي تجرى مثلها على يديه . أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخا يعقوب ويوسي ويهوذا وسيمعان . أوليست أخواته ههنا عندنا . وكانوا يشكون فيه . فقال لهم يسوع إنه لا يكون نبي بلا كرامة إلا في وطنه وبين أقاربه وفي بيته»^(١)

ان ذنبك الموقفين ، الأول الذي على الصليب والثاني الذي بين الأقارب وفي البيت وفي الوطن ، يقدمان أنموذجاً محورياً لوضعية الاعتراب اليسوعي المسيحي . وإذا كان الموقف الثاني تجسيدا تاماً للتناقض الأعظم بين الـ «هذا» و الـ «ذاك» ، أي بين الخارج والداخل وبين الأنا الغريب والأنا القريب ، فان الموقف الأول وإن قام على العتاب والشك وبعض القنوط أو معظمه في «إيلي» ، فانه ظل يمثل لوحة تنبعث منها ألوان العالم الآخر ، عالم التأخي بين الذات والموضوع والأنا والهو ، أي العالم الذي على الاعتراب أن يزول فيه إلى الأبد . إذ هاهنا ، يغدو المرء في وطنه وبين أقاربه وفي بيته .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس مرقس ٦/٢-٤ .

ان النص المرقسي المأثي عليه يجعلنا نرى في يسوع المسيح الحلقة النهائية القصوى ، التي تتم فيها عملية الاغتراب بأشكالها ووتأثيرها القصوى ، بحيث يغدو «هذا العالم» أمام الجسم الوحيد «العادل» ، وهو أن ينهار دون رجعة وأن ينشأ على انقاضه العالم «الجديد» . ومن هنا ، كان هاماً وضرورياً أن يعيش يسوع المسيح مثلاً معذباً شريداً طريداً لا يجد مكاناً يسند رأسه إليه . لأن ذلك يمثل شرطاً لتحقيق العالم النقيض له . وبين أن فكرة الاغتراب تكتسب ، هنا ، دوراً مركزياً . وفي هذا السياق ، نلاحظ أن تلك الفكرة وإن أتت في النص المرقسي بطابع ديني ماساوي ، إلا أنها تستطيع أن تقدم لنا - في حال إحالتها إلى أصولها وجذورها الاجتماعية المشخصة - ثباتاً ضخماً بالآلام والعذابات التي كان على العبيد وفقراء الفلاحين ومشردي المدن أن يعانون منها ويدفعوا ثمنها على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والروحية . وسوف نواجه هذا الموقف الاغترابي في موقع آخر من النص المرقسي ، حينما يتحدث يسوع المسيح عن الموازنة بين الانسان والعالم ، الانسان الذي يكسب العالم ويخسر نفسه ، أي يخسر «يوم الدينونة» .

ان مرقس يقدم لنا ، في انجيله ، لوحة أعيد فيها ترتيب الموقف المنبثق عن حلول يوم الدينونة . وهي لوحة تبرز المصائر التي على الجميع أن يواجهوها وفق ما فعلوه من قبل . فمن كان فوق ، أصبح تحت ؛ ومن كان الأول ، غداً الأخير ؛ ومن ظهر أنه الأدنى قيمة ، تبين أنه الأرفع مقاماً . وبطبيعة الحال ، فإنه يترتب على ذلك أن يعاد النظر في موقع تلك المقولات البشرية من العلاقة بين التاريخ والمطلق . إذ على هذا الأساس ، نجد أنفسنا أمام معطيات من شأنها أن تعمق ما أتينا عليه . فبحسب ذلك ، يغدو التاريخ وجهاً من أوجه الـ «تحت» و «الأدنى» ، وذلك بالاعتبارين الوجودي (الانطولوجي) والأخلاقي ؛ في حين أن المطلق يبرز بمشابهة التجسيد للـ «فوق» ولـ «أدنى» ، كذلك بالاعتبارين الوجودي والأخلاقي . ومن ثم ، فنحن نلاحظ وكأننا أمام عالمين اثنين متوازيين لا يلتقيان إلا للتصادم وللإفصاح عن نفسيهما إفصاحاً على سبيل السلب ، أي عبر التأكيد على أن الواحد منهما هو ما ليس ذاك أولاً . أما الوجه الآخر من العلاقة بينهما فيكمن في أن الأول منهما (وهو هذا العالم المادي - التاريخي) يظهر وكأنما هو الذي دُمياً للثاني

(المطلق اللاتاريخي - عالم الملكوت والدينونة) وقدم له ، وفي أن هذا الأخير يظهر وكأنه «انبثق» عن ذاك ، دون أن يؤدي هذا «الانبثاق» إلى الغاء المصادرة على وجوده «منذ البداية» .

من هنا وبحسب ذلك ، كانت عملية الانتقال من التاريخ الى المطلق بمثابة تأكيد على هذا الأخير واختبار جدي له من موقع أراده هو نفسه واختاره ، ذلك الاختبار الذي يكتسب هويته وآفاقه ومصائره عبر «العذاب» و«الصراع» ضد «الشر» المطلق ممثلاً بالطواغيت والمسحاء الدجالين . وبهذا التوجه ، نستطيع أن نرى في عملية الانتقال تلك تحولاً من «مطلق بدئي» إلى «مطلق ناجز» ، وذلك عبر جسور من الاختبار المرير والمديد ممثلاً بـ «العالم التاريخي» القائم على المتناقضات والمتعارضات والصراعات . وبتعبير منطقي يمكن القول ، إنها (أي عملية الانتقال المذكورة) تحول من «هوية بدئية» إلى «هوية ناجزة» من خلال «تناقض» ينطوي على احتمالات الصراع .

هكذا ، حلت المسيحية «الإشكالية العظمى» حيث ردت الوجود إلى ثلاثة أنساق كبرى ، ما قبل الخطيئة ، والخطيئة ، وما بعدها . أما النسق الأول فيمثل الهوية البدئية ، والنسق الثاني يجسد التاريخ ، في حين أن النسق الثالث ينطوي على ذروة الوجود المتمثلة بالهوية الناجزة . ومن البين أن النسق الوجودي الثاني أريد له أن يكون عقوبة لفعل الخطيئة ، هذه الخطيئة التي تتجلى بـ «العمل» و«الإنجاب» و«الثروة» و«التخاصم» الخ . . . بحيث أن ما سيأتي بعدها لا بد أن يرفع أشكال التجلي هذه كلها وأن يتجاوزها تجاوزاً تاماً . ومن هنا ، ربما كان النسق الوجودي الثالث يجسد صدى من أصداء شيوعية بدائية يعيش في ظلها الجميع سعداء سعادة مطلقة ، أي غير مشروطة بالعمل والزواج ، وذلك من النمط الذي يتأخى فيها الآب والابن والروح القدس كما يتأخى عبر هؤلاء «الأسد والجحش والحمل» . ان مشروع الخلاص المسيحي يغدو ، والحال كذلك ، مشروع إنهاء وتذويب جدلية الحياة والموت ، وذلك لصالح «الموت» الذي يقوم على أنه معبر إلى «الحياة» . وقمين بنا أن نشير إلى أن الجدلية اللاهوتية ، التي ينطوي عليها تصورا الموت والحياة لدى المسيحية ، تبرز بصفاتها تعبيراً ضرورياً عن واقع الحال المباشر

والمشخص ، الذي أسفر - في تفاعله وتحوله - عن نشوء تيارين أو اتجاهين أو رؤيتين أو عالمين ؛ الواحد منهما يرتد ، في بعض أصوله ومقوماته ، إلى البنية العقيدية اليهودية ، في حين أن الثاني يجد أسباب ومقومات تماسكه واستمراره - على نحو أو آخر - في بحر من الاضطهادات والصعوبات والصراعات والمزالق . أما هذا العالم الثاني فإنه وإن لم يكن بعدد قد غدا المهيمن السائد في حياة الناس ، إلا أنه ظل يجسد الوضعية الأكثر استجابة لاحتياجات ومطامح أولئك الذين صنعوا «الخبر» دون أن تتاح لهم امكانيات امتلاك ثماره وتحويلها إلى حوافز تغني شخصياتهم ومصائيرهم . فهو ، والأمر كذلك ، الأعمق والأغنى والأكثر حميمية وديمومة وجوانية . وإذا كانت المقاييس بهذه الصيغة ، فإن ربح ذلك العالم (اليهودي) المستنفد والمستخوى والذي غدا متعارضاً تعارضاً تاماً مع «الذات الانسانية» ، لا يقدم في شيء إذا خسر الانسان نفسه لقاء ذلك ، أي إذا طُرح بتلك الذات الانسانية ثمناً لذلك :

«ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه . أم ماذا يعطي الانسان فداءً عن نفسه»^(١)

في هذا الموقف المرهف من المسألة والذي يطرح قضية «الاغتراب الانساني» على النحو الديني التأملي - المجرد ، يواجهنا تعارض قطعي وصارم ، على الصعيدين الوجودي والأخلاقي ، بين عالمين اثنين نستطيع أن نعتبر الأول منهما «موضوعاً» والثاني «ذاتاً» . وعلى الرغم من علاقة التعارض القطعي والصارم بينهما ، فإن حداً ضرورياً من التضايق يجمع بينهما ويشترط وجودهما ويخترق بنيتيهما . وإذا تحدثنا عن مثل هذا الحد التضايقي بينهما ، فلنمّا الى حين ينتصر الثاني على الأول ويتجاوزه كلياً . ومن ثم ، فتصعيد الموقف المعني هنا لا بد وأن يقود إلى تعميق التعارض بينهما ، بحيث يبلغ تلك القطعية الصارمة . وإذا كانت اليهودية (الطقوسية في أساس الأمر وعموميته) تلح على «الموضوع» ، فلنمّا - بذلك - تكون قد ضحت بـ «ذات» هذا الموضوع «و بـ «نفسه» أو بـ «روحه» . وهذا ، بدوره ، يطرح العلاقة بين هذه الذات وذاك الموضوع من حيث هي علاقة بين الفعل الانساني الطامح

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس مرقس ٨/٣٦-٣٧ .

للاعتاق من الاغتراب والتشيء والإفقار ، وبين الجهود الكثيفة التي تبذل من أجل المحافظة على العالم القديم الذي يقوم أساساً على وضعية الاغتراب والتشيء والإفقار هذه .

ان الرد الكبير ، الذي وجهته المسيحية إلى اليهودية تلك ، لم يكن ليخرج عن دائرة أحادية الجانب . فإذا كان خصمها التاريخي (الطقوسي) يؤكد تأكيداً مضخماً على «الموضوع» ، أي على اللحظة الطقوسية الخارجية الشكلية ، فإنها هي (المسيحية) تجعل من «الذات» المتمثلة بلحظة تعبدية داخلية محور الموقف كله ، مجملاً ومفصلاً . وهذا ما جعلها تلتقي - على الصعيد الذهني التوجهي (المنهجي) - بخصمها ذاك ، وإن تم ذلك عبر قناة أخرى ، أي عبر التأكيد على واحد من الطرفين المذكورين . نضيف إلى ذلك أن هذا الموقف كان ، في موقعه من بنية الدين الجديد ، من القوة والهيمنة بمكان بحيث أنه تغلب على غيره من العناصر المرافقة له والتي انطوت على توجه دينوي (ذي أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية) . أما أنه قد تغلب فعلاً وأصبح المهيمن أساساً ، فإن ذلك عنى - ضمن ما عناه - أن يتحول إلى إيولوجيا دينية سياسية في أيدي السلطة السياسية مباشرة وعلى نحو منظم ومتنسيق عنه .

ان التجادل اللاهوتي في المسيحية كان من شأنه ، والحال بالصيغة التي أتينا عليها ، أن يلفظ من بنيانه كل العناصر التي أخذت - في نظر «العلية» من الطبقات والفئات الاجتماعية - تتحول شيئاً فشيئاً وبأشكال «باطنية» وعلنية إلى نوع من أنواع الزندقة الاجتماعية السياسية والدينية . فالتعارض بين «الغني» و«الملكوت» أولاً والوقوف في صف الجوع والمحرومين ثانياً ، ان هذا والكليهما إذ فهمما على أنها وضعية اجتماعية واقتصادية محددة ترتب عليها مواقف سياسية فعلية ، فإنها صُفيا وأبعداً من ذلك البنيان عبر انتزاعهما من الوضعية المعنية المشخصة أولاً ، وعن طريق إكسابهما بعداً داخلياً ذاتوياً ثانياً يلح على إدانة الخارجي والظاهري والعيني . بتعبير آخر نقول ، ان تلك العملية المركبة تحت بانجهاين اثنين اشترطا بعضهما اشترطاً ضرورياً ، الأول منهما تمثل بتهشيم الوظيفية التي نيطت بالتعارض المشار إليه ، ومن ثم بمنحه وظيفية أخرى تنطلق من احتياجات اندولة (الامبراطورية) المهيمنة . أما الاتجاه الثاني فقد نهض على إعادة النظر في المصطلح بنيوياً ، بحيث

يكف «الغني» عن أن يكون غني المال ، كما يكف «الفقير» عن أن يكون فقير المال والوفرة الاقتصادية .

لقد اخترقت تلك الوضعية عملية تصنيفية أخرى انطلقت من اعتبارات عقيدية تستجيب للموظيفية الجديدة ، وذلك من خلال القول بتعارض وجودي (انطولوجي) وأخلاقي كلي بين عالمين اثنين ، هما الروح والجسد ، والذات والموضوع ، والجواني والبراني ؛ فغدا الفقير - وفق ذلك - فقير العالم الأول (الروحي الذاتي الجواني) ، في حين أصبح الغني الغني فيه وبه ومن موقعه . أما العالم الثاني فقد اعتبر نافلاً في عملية استقصاء ذلك التعارض . ظهر ذلك بحدوث اعتبار أساسياً هو أن العالم المشار إليه غير قادر - في جوهره - على الدخول في نسج العالم الأول ، لأنه لا يشكل ندأ له على الصاعدين المومى إليهما (الوجودي والأخلاقي) . ولكنه (أي العالم الثاني ، الجسدي الموضوعي البراني) يبقى مع ذلك ، أو بفضل ذلك فاعلاً في عملية التحديد تلك . أما فاعليته هذه فتفصح عن نفسها من موقع كونه يمثل تحديداً سلبياً لذلك العالم (الروحي . . .) . وهذا يشير إلى أن تصور «الفقر» إذ يجري تناوله في ضوء الجسد والموضوع والبراني ، فإنما للتشديد على روحيته وذاتيته وجوانيته أولاً ، وعلى تعارضه تعارضاً كلياً مع العالم الآخر المقابل له . فكأنما نحن ، هنا ، على صعيد التعريف عبر السلب ، وتدقيق الإيجاب في ضوء كونه متعارضاً مع السلب .

إن جدلية التضاد الاقتصادي اللاهوتي بين الغني والملكوت تغدو ، والحال على ما هو عليه ، جدلية التتام الروحي بين هذين الأخيرين ، بحيث يظهران وجهين لوضعية واحدة ، هي الخلاص في حلقته التامة القصوى . وبهذا المعنى ، بالضبط ، يتعين علينا أن نفهم الآية الشهيرة التالية ، ضمن أحد معانيها الرئيسية التي يقدمها يسوع المسيح المرقسي :

«إنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت الله»^(١) .

وكان يسوع نفسه قد خاطب تلاميذه مؤكداً على صعوبة (وليس استحالة) دخول

(١) نفس المصدر السابق ومعانياته ٢٥ / ١٠ .

الاغنياء وذوي الأموال في ملكوت الله :

«ما أعسر على ذوي الأموال أن يدخلوا ملكوت الله . فانذهل التلاميذ لكلماته . فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم يابني ما أعسر على المتكلمين على الأموال أن يدخلوا ملكوت الله»^(١) .

ان التأكيد على صعوبة ذلك (وليس استحالة) لا يتضمن - في هذا السياق - تقليلاً وإضعافاً لمعارضة يسوع بين الغنى المادي والملكوت الالهي ؛ بالرغم من أنه أمكن اختراق هذا الموقف على أيدي المؤسسة الكنسية لاحقاً . ان ما نواجهه في تلك الآيات يعيدنا إلى ما قلناه عن أهمية «الموت» المسيحي : ان حرمان «الغنى» من دخول ملكوت الله لم يكن ، في حينه وضمن وجه من أوجه الموقف المشخص ، ليعني تأكيداً على الجانب الآخر المقابل فقط ، وهو كون «الفقير» هو وحده صاحب هذا الحق في دخول الملكوت إياه ؛ لقد تضمن - إلى جانب ذلك وبعلaque جدلية متضايقة معه - دعوة إلى اعلان الحرب على عالم الأغنياء ليس بهدف جعل الجميع فقراء أو متساوين في الفقر ، وإنما بغية إسقاط العالم المذكور أو إدانته وتقريبه والتشهير به ، أي إدانة آلية الاستغلال التي ينجز هذا العالم وفقها وبحسب احتياجاتها وآفاقها . ان هذا الجانب الآخر من المسألة طرح نفسه في أوساط الفقيرين ، بحيث انهم استوعبوا مسيحياتهم هكذا وعلى هذا النحو ، أي من مراقبتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المصدعة . بيد أن الإخفاق المتلاحق المضطرد الذي أخذ يحيط بتلك «الدعوة» في مراحل لاحقة من ظهور خطرها واتساع معالمة واقصاحه عن آفاقه واحتمالاته ، جعل الجانب الأول (التقابل بين الغنى المادي والفقر الروحي) يبرز أكثر فأكثر وأعمق فأعمق ، ليتحول إلى اللحظة الحاسمة والأكثر حضوراً وفاعلية في عالم المؤمنين المسيحيين ، بحيث اكتشفت السلطة السياسية الدينية (الأيديولوجية) فضائل هذا الجانب من المسألة وعملت على أن تجعل منه البناء الديني الأساسي المهيمن . وجدير بالإشارة إلى أن الأناجيل مترعة بتلك النصوص التي تندرج في إطار الجانب المعني . فالتأكيد على اللحظة الروحية والحياة الداخلية (الجوانية) نواجهه في النص المرقسي بصيغ حادة مشددة ، بحيث

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٠/٢٣-٢٤ .

نحسب أن المسألة كلها تدور حول ذلك . ان يسوع المرقسي يعلن أن «الداخل» هو وحده الذي يمكن من صنع «النقاء» و «الصفاء» ، ومن ثم «الخير» ؛ كما يعلن أنه (الداخل) هو وحده ، أيضاً ، ما يجعل من «الخارج» مأوى له «الزيف» و «الزيف» ، ومن ثم «الشر» :

«لا شيء مما هو خارج عن الانسان إذا دخله يمكن أن ينجسه بل ما يخرج من الانسان هو الذي ينجس الانسان . . . أما تفهمون أن كل ما هو خارج إذا دخل الانسان لا يمكن أن ينجسه . لأنه لا يدخل في قلبه بل في الجوف ويذهب إلى المخرج وتنتفى به جميع الأطعمة»^(١) .

وكان متى الانجيلي قد ألح على ذلك التعارض بين الداخل والخارج ، حيث أعلن بلسان يسوع المسيح التحذير التالي الذي وجهه للفريسيين وغيرهم :

«الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمرأؤون فانكم تنقون خارج الكأس والجام وداخلها مملوء خطيئة ودعارة . أيها الفريسي الأعمى نق أولاً داخل الكأس والجام حتى يتطهر خارجها أيضاً»^(٢) .

ان الموقف ، كما هو مقدم في السياق النصي المطروح ، لا يحتمل وجود حد ما من التنازل ، من أي مستوى كان وبأي درجة كانت ، على حساب «الداخل» . وهذا ما سمح بالانتقال إلى الخطوة التالية ، وهي تلك التي تتمثل بالإقرار بالأمر «الخارجي» المباشر ، أي الراهن القائم ، والتنظير له في ضوء التوجه الكثيف إليه من حيث هو ذو بعدين اثنتين ، كلاهما قمين بالوجود وجدير به ، وكلاهما ضروري من أجل تحقيق تصور الخلاص ، مع الاختلاف العميق في مسوغات وجود كل منهما . وإذا كان هذان الاثنان يقعان ضمن علاقة تضائية بالنسبة إلى بعضهما ، فإن واحداً منهما - وهو الله أو الملكوت - هو الجوهرى والأساسي في تحديد مصائر مرحلة «ما قبل الملكوت» ، أي مرحلة التاريخ ، كما حددناها في موضع سابق . ومن الهام ان يضاف أن جوهرية «الملكوت» هذا لا تنطوي ، مباشرة ، على ميل للانتقاص من شرعية وجود البعد الثاني ، الذي هو العالم المادي .

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٧/ ١٥ ، ١٨ - ١٩ .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس متى ٢٣/ ٢٥ - ٢٦ .

في تلك الوضعية ، نلاحظ لونا من ألوان إضعاف التعارض الثنائي الذي أتينا على ذكره بين الروحي والجسدي الخ . . أما مسوغ ذلك فيمكن تبينه في الضرورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المباشرة ، التي من شأن الخضوع لها أن يلح على الجانب «الأخر» بعين الاعتبار الأولى . وإذا ترجحنا هذا الموقف الى اللغة الاقتصادية والسياسية ، وجدنا أنفسنا أمام المطلب التالي ، الذي حدده يسوع المسيح المرقسي بكثير من الدقة في التعبير السياسي ومن الضبط الجدلية التعارض والتضاييف بين الروحي والجسدي ، الجواني والبراني ، الداخلي والخارجي :

«أوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»^(١) .

ان في ذلك المطلب توجهاً لتحويل العقيدة الجديدة إلى أحد الأنساق الدينية السلطوية الفاعلة فعلاً «دنيوياً» مباشراً . ولعلنا نقول ، من مثل هذا الموقع انطلق ، لاحقاً ، إلى الهدف الكبير ، وهو جعل المسيحية البولسية دين الامبراطورية الرسمي والملزم . ونحن نستطيع أن نرى في ذلك المطلب أحد أشكال الامتداد الديني لبعض النتائج التي قادت إليها الإسيقية ، وربما كذلك الفريسية . ولعلنا نجد صيغة أخرى من صيغ ذلك المطلب متمثلة في التأكيد على «القدر الالهي» بمثابة نقطة الانطلاق والانهاء للفعل البشري (والكوني عموماً) . ومن ثم ، فليس من قوة قادرة على تغيير مسار هذا الكون على نحو يحرف ذلك القدر عن مصائره الذاتية ، أي التي تحددت ووجدت صيغها - في القبل والآن والبعء - في الفعل الالهي المستديم والمطلق . ان الاعتراف بالراهن والاقرار به والانطلاق منه ، من حيث هو وعلى عواهنه ، يمثل - هنا - أحد مستلزمات التقيد بـ «القدر الالهي» . اما الحقل الذي يبرز فيه هذا الأخير فهو ، كما لاحظنا ، ذوطابع كوني شمولي . فإذا امكن تحديد العلاقة بين الله وقيصر (الدين والسلطة) من موقعه ، فإنه يمكن ، بل يجب أن تحدد العلاقات الانسانية الاجتماعية الأخرى أيضاً من نفس الموقع . من ذلك ، على سبيل المثال ، تبرز تلك العلاقة التي تحولت مع الزمن إلى عنوان كبير للوضعية المسيحية التي نحن بصدد البحث فيها ؛ تلك هي العلاقة «الزوجية» .

إن «الزواج» يجسد ، بحسب عقيدة «القدر الالهي» ، علاقة مقدسة بين

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس مرقس ١٢/١٧ .

طرفين اثنين متكافئين في واجب احترام هذه العلاقة . ومن الملاحظ أننا حددنا ذلك التكافؤ ، من حيث الأساس والعموم ، بالالتزام بضرورة الحفاظ على العلاقة الزوجية المعنية . ذلك لأننا حيث نبدأ بما قبل هذه الأخيرة وننتهي إلى ما بعدها ، فإننا نواجه وضعية أخرى تتمثل ، تحديداً ، بـ «التبعية» ، تبعية المرأة للرجل بالاعتبارات الوجودية التكوينية والاخلاقية والذهنية (العقلية) . ومن هنا ، كان إضفاء القداسة على العلاقة الزوجية غير موجه ، من حيث الأساس ، نحو هذه العلاقة ، بقدر ما يفصح عن نفسه بمثابته وجهاً من أوجه القداسة المطلقة لـ «القدر الالهي» . والمهم في ذلك ملاحظة أن ادخال العلاقة المذكورة في دائرة القداسة كان من شأنه أن أخرجها من حيز النقد والتساؤل ؛ شأنها في ذلك شأن كل العلاقات البشرية التي يُضفى عليها طابع مقدس . ومن هذه الزاوية الشديدة الضيق والحساسية ، يمكن القول بأن قداسة العلاقة الزوجية تصح أن تكون مثلاً ينسحب على مجمل العلاقات الاجتماعية والانسانية الأخرى ، ضمن المنظور اليسوعي المسيحي عموماً ، بحيث نصل - ضرورة - إلى الاقرار بالواقع الراهن والالتزام به ، من حيث هو خير العوالم الممكنة .

وإنه لمن الدقة التاريخية الاعلان عن ان تلك الوضعية نواجهها بصيغة أكثر تحديداً وضبطاً مع تبلور «الكاثوليكية» في نطاق التحول الذي لحق بالمسيحية . فالعلاقة بين السلطة السياسية (قيصر) من طرف وجمهور «العامة» من طرف آخر ، تكتسب على هذا المنوال - بحسب تلك ، أي الكاثوليكية - طابع العلاقة بين الله وقيصر ، أو بين الله وتلك «العامة» من جمهور الفقراء والمُفقرين . وعلى ذلك ، فمن يشكك فيها أو يغمز من قناتها ، فضلاً عن امتشاق السلاح في وجهها واعلان الحرب ضدها ، يعتبر خارج «الصراط المستقيم» ؛ فيفقد ، على هذه الطريق ، لا محالة ، امكانية الدخول في ملكوت الله . ذلك لأن

«ما جمعه الله لا يفرقه انسان»^(١) .

ان روح المحافظة الاجتماعية والخمول التاريخي يهيمنان ، كما هو ملاحظ وبيّن ، على هذا اليسوع المسيح الذي لا يهاجم الاوضاع الانسانية بقدر ما يلحف على

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٩/١٠

قيمتها ، كما اشرنا الى ذلك سابقاً على لسان كارل ياسبرز ؛ فهو لا يستطيع الاعلان عن أنه قادر على شغل مكان ذاك يسوع المسيح ، الذي يعلنها حرباً كبرى على «الراهن» ، بكل مافيه من أوضاع مُهينة مُذِلَّة للانسان ، ومناوئة لـ «الله» ، ومتعارضة مع ارادته :

«إني جئت لألقي نارا على الأرض وما أريد إلا اضطرامها . ولي صبغة أصطبغ بها وما أشد تضايقي حتى تتم . اتظنون أنني جئت لألقي على الأرض سلاما . أقول لكم كلا بل شقاقاً»^(١) .

ان يسوع المسيح المكافح هذا يحمل تباشير صراع شامل بين الجميع من شأنه أن يجسد مقدمة ليوم الدينونة ، حيث يحاسب الجميع عما فعلوه . وفي ضوء ذلك ، نلاحظ أن تلك المواقف جميعاً ، في صعودها وهبوطها ، في التهايبا وخودها ، تقدم انموذجاً متميزاً لما تبيناه جدلاً لاهوتياً حياً استطاع ، في حينه وعلى امتداد فترة طويلة ، أن يجرّض ويحفز على توليد جملة كبرى من احتمالات التفسير والتأويل للنصوص الانجيلية والاجتهاد في فهمها . ومن نافل القول أن اللحظة الاجتماعية المشخصة ، وما رافقها من خصومات وصراعات ايديولوجية ، كمنست - في التحليل الأخير - وراء الحسم في هذا التفسير أو ذاك وفي هذا الاجتهاد أو التأويل أو ذاك . نضيف إلى ذلك أن تلك اللحظة الاجتماعية لم تكن ذات نسيج رئيسي واحد ، ومن ثم لم تكن ذات بعد واحد ، بل كانت مختزقة من أكثر من واحد من أمثال هذا الأخير . فقد يكون القول صحيحاً بأن النص الانجيلي المرقسي ، بحسب ما تشير إليه بعض المناحي اللغوية اللاتينية المستخدمة فيه وتوحى به ، كُتب في روما الامبراطورية^(٢) . وإذا كان الأمر كذلك حقاً ، فإنه سوف يتطلب منا أن نوسع دائرة اللحظة الاجتماعية المشار إليها من قبل ، بحيث يغدو ضرورياً أن نضيف النسيج الاجتماعي الطبقي في المجتمع العبودي الروماني ، خصوصاً ، إلى النسيج الاجتماعي الطبقي الزراعي ذي النمطية المشاعية القروية في فلسطين .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ١٢/٤٩ - ٥١ .

(٢) انظر في ذلك : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٨٤ .

ان التناقض الاجتماعي في النسيج الثاني (الفلسطيني) لم يكن ليرقى إلى أكثر من «الخصومة» على الصعيد الذهني . وإذا كان هذا النمط من التناقض قد نهض ، من حيث الأساس والعمومية ، على العلاقة الاقتصادية الطبقية بين «الملكية» و «الحيازة» ، ومن ثم بين «المالك» و «الحائز» ، فإن النمط الثاني من التناقض في النسيج الاجتماعي الروماني ارتكز ، كذلك من حيث الأساس والعمومية ، على العلاقة الاقتصادية الطبقية بين «الملكية» و «اللاملكية» ، ومن ثم بين «المالك» و «اللامالك» . فهنا ، نواجه وضعية تنطوي على أكثر من احتمال وتوجه اجتماعيين طبقيين . أما هذان النمطان ، بدورهما ، فقد وجدا التعبير عنهما ذهنياً دينياً في كثير من النصوص الانجيلية ، التي أفصحت عن التناقض الطبقي الواقعي بصيغ ذهنية تمثلت بـ «الخصومة» مرة ، وبـ «التآخي» مرة أخرى ، و «بالصراع» مرة ثالثة . لكن ما يلفت النظر ، على هذا الصعيد ، أن ذلك «الصراع» إذ ظهر بصيغ دينية انجيلية (على نحو ما رأيناه مثلاً في اعلان يسوع عن أنه أتى ليشعل الأرض ناراً ضد الخطاة والظلمة ومناهضي الملكوت) ، فإنه حسم - في نهاية الأمر وكما أوضحنا - لصالح موقف نكوصي تم عبر انتزاعه من الوضعية المشخصة والمباشرة وبإكسابه بعداً دينياً ذاتوياً .

هكذا ، تتضح أمامنا النصوص الانجيلية المعنية ، وخصوصاً منها ما أنجزت كتابته في روما ، بمثابرتها نصوصاً متعددة الألوان والتوجهات ، وبصفتها لوحة ذهنية عبرت عن واقع الحال في مناطق الامبراطورية الرومانية ، مجتمعةً ومنفردة . وإذا تابعنا ذلك التعدد من موقع العلاقة الكائنة بين تلك النصوص من طرف وبين ماسبقها من نصوص اسطورية متحدرة من الشرق العربي القديم من طرف آخر ، تبيّن - ونحن نتقصى الدلالات المشتركة بين الفريقين المذكورين - أن هذه الأخيرة (الدلالات) تمس أكثر العناصر خصوصية وأهمية في تكوين البنية الذهنية المسيحية اليسوعية والأخرى الشرقية القديمة . هذا الأمر يبرز ، بصورة خاصة ، على صعيد الجذور الاقتصادية الجغرافية للألوهية لتينك البينيتين . فتصور «السماء» وما يكمن خلفه من مثل تلك الجذور البعيدة العميقة ، يفصح عن وجود قاسم مشترك كبير بين الفريقين المعنيين . أما طبيعة العلاقة القائمة بينهما فتعلن عن نفسها بصفتها تراثية الشخصية . فـ «السماء» هي البقعة المرتفعة ، أي التي تربو على بقعة أو يقع

أخرى منخفضة أو أكثر انخفاضاً . وهذا ما واجهناه في الأدب المصري الاسطوري القديم ، مثلاً ، حيث يظهر فيه الاله بمثابة الموجود العليّ (العالي) ، ذلك الموجود الذي تكوّن في تضاعيف الطمي الخصب والمتشكل على ضفاف النيل بعد انسياح مياه الطوفانات الكبيرة والصغيرة ، والنظامية والمفاجئة .

ان ما يهمنا ، هنا ، يكمن في أن يسوع المسيح ، أيضاً ، يجد مكانه الحقيقي - بعد سلسلة متلاحقة ومديدة من العذابات الضرورية الكبرى - في السماء وعن يمين الرب الاله . فـ «السماء» هي - في المساق الكوني الجغرافي والعقدي المذكور - بمثابة قمة الوجود ومركزه ، في آن واحد . والأمـر يصبح أكثر عظمة وجلالاً وقداًسة (أسرارية) ، حين يكون الجلوس عن «اليمين» . ذلك أن هذا الأخير مظهر كبير من مظاهر اليمن والبركة والخير ، أي الخصب . وإذا ما حدث أن تم الجلوس عن يمين الرب الاله ، فإن من شأن ذلك أن يقود ، ضمناً وضرورة ، إلى اعتبار الجالس والمجلوس إلى جانبه (أي الرب الاله ذاك) جناحين متساويين في الأهمية الذاتية ، وكذلك الزمانية الوجودية . إن اعتبارهما على هذا النحو ، يظهر من حيث هما جناحا الوجود الحق والتام (نذكر في هذا السياق بتصور الحمل المذبح - يسوع المسيح - منذ بداية العالم ، أي المندغم بالاله الرب نفسه) . ان يسوع المسيح ، والأمر على ما هو عليه هنا ، هو الذي :

«ارتفع الى السماء وجلس عن يمين الله»^(١)

وإذا كان يسوع المسيح قد «ارتفع» إلى الرفيق الأعلى في السماء ، فإن هذا لا ينبغي أن يفهم منه أنه كان قبل «الرفع» مقباً في العالم المادي التحتي . ان ما كان في هذا العالم الأخير لا يعدو أن يكون تجلياً له في شخصيته الناسوتية ؛ أما شخصيته اللاهوتية فمكوّنها وتجليها في سدرة المنتهى (العلا) دائماً . وهذا ما يفصح عن سمته الكبرى ، وهما الكونية والشمولية .

وهذا ، من ناحيته ، يقود إلى سمة ثالثة كبرى تهمننا هنا في إطار ما نحن في سبيل تقصيه ، وهي الديمومة الالهية في القبل والآن والبعـد^(٢) . ومن ثم ، نواجه النتيجة

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس مرقس ١٦ / ١٩ .

(٢) يكتب مؤلفو «حواشٍ على المجلد الثالث من الكتاب المقدس» - نفس المعطيات المقدمة

الثالية على صعيد المسيحية اليسوعية عموماً (والمرقسية من ضمنها) ، وهي ان التعارض بين «الأعلى» و «الأدنى» ، وبين «السما» و «الدُّنَا أو الدُّنَا» لا يمثل ثنائية وجودية مطلقة ، بقدر ما يجسد كيفية التجلي ومنحاه ، اللذين يتخذهما يسوع المسيح ، الرب ، في الكون . وإذا قلنا انه يبقى وارداً الأخذ بذلك «التعارض» ، فإننا نعني بذلك احتمال وجوده من موقع جزئي ، أي من خلال النظر إلى العالم «الأرضي المادي» على أنه فاسد أو مفسد في معظمه أولاً ، وعبر الاعتقاد الثابت بأن العالم «السمائي الروحي» كامل ويبقى كاملاً في كليته ثانياً . ومن هذا الموقع الثنائي ، بالضبط ، يتاح لنا أن نحيط بالمسوغات «الالهية الربانية» الكامنة وراء التصور المسيحي اليسوعي عن «الملكوت» الذي يأتي ، فينهي ذلك العالم الأول «التاريخي» ، ويقيم العالم الآخر «المطلق الأبدي» .

في ضوء ذلك الوضع المركب مرحلياً والموحد المتجانس لاحقاً وأبدياً ، نشين الدلالات اللاهوتية واللغوية الخاصة لمثل النص الانجيلي التالي :

«... الذي جاء من العلاء هو أعلى من الكل والذي من الأرض هو أرضي وبالارضيات ينطق والذي أتى من السماء هو فوق الكل»^(١) .

أما توزيع الدورين الوجوديين المتقاطعين ، دور يسوع المسيح ودور «الآخرين» ، فيتم - وفق ذلك - على النحو التالي :

«... أنتم من أسفل وأنا من فوق أنتم من هذا العالم وأنا لست من هذا العالم»^(٢) .

وعلى هذا ، يغدو متوافقاً مع الموقف اليسوعي المسيحي ، والموقف الكوني عامة ، أن يكون «الرفع» دلالة من دلالاته الخصوصية ، وليس ملحفاً مقحماً عليه من

= سابقاً ، ص ٤٨٠ ، موضحين العلاقة بين اللاهوتي والناسوتي في شخص يسوع المسيح ، مايلي : «ابن البشر الذي هو في السماء . في هذه العبارة بيان جلي للطبيعتين المتميزتين في المسيح لأنه أوضح فيها ان جوهره الالهي لم يزل موجوداً في السماء حال كونه يظهر انساناً على الارض بأقنومه الالهي وطبيعته الالهية والبشرية» .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس يوحنا ٣ / ٣١ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيانه ٨ / ٢٣ .

خارج ودخيلاً عليه من موقع آخر غير ذاته ؛ بل ربما أكثر من ذلك ، فمن «الرفع» يُشتق «المرفوع» الذي يتمثل بيسوع المسيح نفسه :

«فقال لهم يسوع إذا رفعتكم ابن البشر فحينئذ تعرفون أنني أنا هو»^(١) .
ان «العلاء» و «السماء» لا يمثلان ، كما هو بين نصيباً ، الخيز المكاني الذي يشغله يسوع المسيح ، بقدر ما هما تجسيد وتجلُّ له هو نفسه وفي أخص خصوصياته . من طرف آخر مقابل ومتمم ، لا يمثل هو ، بالنسبة إليهما ، ما تمثله «الذات» بالنسبة إلى «الموضوع» . ذلك لأنه هو ، في آن واحد وعلى نحو تضافي ، الذات والموضوع ؛ هو ذات نفسه وموضوع نفسه ؛ إنه الكل بالكل . وجدير بالذكر ان يسوع المسيح ، بما هو علي سمي ، يعبر عن الخصب الكوني ، وكذلك عن الحكمة الكونية من حيث هو يمتلك «الكلمة» . وهذا ، من طرفه ، يشير إلى أنه (يسوع المسيح) يمكن بل ينبغي النظر إليه - في أخص خصائصه - على أنه مساوٍ ومعادل لتينك الخصيصتين ، السمو (العلو) والخصب . وإذا يكون الأمر على هذا النحو وضمن هذا الأفق ، يصبح مفهوماً أن يقتصرن «مجيء» يسوع المسيح بهتين الأخيرتين ، وأن يظهر هو نفسه متجلياً فيهما . وإنه ، بالطبع ، سيكون مشهداً هائلاً فظيماً ووديعاً مطمئناً ، في نفس الآن ، أن يجيء «الابن الوحيد» ممتطياً سحابة من الكون الواعد المعطاء ، لينشر المحبة والبركة والأمل بالخلاص في صفوف المؤمنين المبهوظين بأعباء الحياة ، وليحذر «حلفاء الشيطان» فما يفعلونه من رجاسات في أرجاء الأرض :

«وحينئذ يشاهدون ابن البشر آتياً على سحابة بقوة وجلال عظيمين»^(٢) .
وإذا ما حدث أن سار أحد الشك في ذلك ، فإن يسوع المسيح (المخلص) سيكون هو المعنى بذلك ، أي هو وحده الذي بإمكانه التصدي لذلك الشك العارض ، وإظهار الحق المطلق :

«أنتم تدعونني معلماً ورباً وحسناً تقولون لأنني كذلك»^(٣)

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٨/٨ .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ٢١/٢٧ .

(٣) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس يوحنا ١٣/١٣ .

هكذا تتشابه ثلاث سمات ببعضها بعضاً ، لتكوّن - في تشابكها الوظيفي هذا - يسوع المسيح . إنها السمو والخصب والخلّاص . ونستطيع أن نخطو خطوة أخرى ، حيث نعلن أن تلك السمات تقدم مفتاحاً للاحاطة بالعالم البنيوي ليسوع المسيح . فهو ، بهذا ، يجسد اللوحة البنيوية للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية التي عاش فيها «المثقلون بأعباء الحياة» . إنما هذا التجسيد يظهر على نحو جدلي ؛ والتجسيد الجدلي - في هذه الحال - يُراد له أن يُظهر يسوع المسيح بمثابة النقيض الكلي والبديل الكلي عن تلك اللوحة «القائمة» ؛ هذا بالرغم من أن قنامة اللوحة المعنية تظهر في يسوع المسيح نفسه ، أي في تجلّيه الناسوتي ، الذي ينبثنا عن الكثير من الآلام والعذابات التي تلحق به في هذا «العالم الارضي» . من موقع تلك المحصلة ، نتبين أمرين يبرزان بصفتهما ذوي أهمية مبدئية على صعيد مزيد من الاحاطة المعمقة بالنص المسيحي اليسوعي في بنيته الايديولوجية واللغوية . الأمر الأول ينهض على أن تصور الثالث المقدس يفصح عن نفسه من حيث هو ثالث السمو والخصب والخلّاص . ان الحد الأول (السمو) يمثل الرب علياً سميّاً (سماوياً) ، أي في تعاليه بالمعنى اللاهوتي الانطولوجي وبالمعنى اللاهوتي الذاتي - الأخلاقي ؛ دون أن يفقد ذلك - إلاّ للحظة - إلى تصور الرب متعالياً في إطارنا من المفارقة الانطولوجية . أما الحد الثاني (الخصب) فيجسد الرابطة الجوهرية بين الرب العليّ والمخلص في عالم الخطيئة . وهذا من شأنه أن يعني أن الحد الثالث (الخلّاص) يتقوم بعلاقته بالرب عبر «روحه» ، أي عبر الخصب ، أي «الروح القدس» تخصيصاً . ومن ثم ، فإن هذا «الروح» هو ، أيضاً وتحديداً ، روحه ، روحه هو نفسه .

وحيث نبلغ هذا المنعطف الجديد من المسألة ، نواجه - ثانية - ما كنا قد واجهناه ، في موضع سابق ، من جدلية لاهوتية ملفتة على الصعيدين البنيوي والوظيفي . بيد أن هذه الأخيرة تظهر ، في الحالة التي نحن فيها الآن ، بصيغة متميزة ، هي الصيغة الأكثر جوهرية وبديئية على صعيد تحديد الموقف اليسوعي المسيحي ؛ نعني بذلك صيغة «الثالث المقدس» . والقضية هذه تتيح القول بأننا إذا ما توغلنا أبعد وأعمق في هذا الثالث ، فإنه سوف يتضح أنه (أي هذا الأخير) هو «الكلمة» بكل حيثياته واحتمالاته . فيسوع المسيح ، الذي أعلن عن نفسه بأنه

المعلم (والرب) ، يكون - بإعلانه هذا عن «معلميته» - قد أجمل الموقف بجوهريته وعموميته : ان «الكلمة» هو «كل شيء» :

«في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمةُ الله . كلُّ به كُؤن وبغيره لم يَكُؤن شيء مما كُؤن . فيه كانت الحياة والحياة كانت نورَ الناس . والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه»^(١) .

أما الأمر الثاني فيتمثل بظهور يسوع المسيح بمثابته لولب الثالث المذكور ، أي «الكلمة» . وجدير بالقول ان هذه اللولية تتجسد بالخصب الكوني ، الذي يلف - في هذه الحال - شخصية يسوع المسيح ومحيطه من البدء إلى المنتهى . ويبيّن ان المسألة إذ تكتسب هذا النسيج الموحد المحدد ، فإنها تفصح عن وجهها الآخر ، وهو الوظيفة الكونية المنوطة بالخصب المنوّ به . إضافة إلى ذلك ومن موقعه ، لعله من الأهمية الكبيرة بمكان أن نقول - في هذا السياق البالغ الحساسية - إن الخصب المعني هنا وإن أعلن عن نفسه في جل النصوص الانجيلية (القانونية) بصفته خصباً روحياً ، ومناهضاً للجسد في حالات كثيرة ومتنوعة ، فإن الباحث في تلك النصوص يستطيع أن يصل إلى صورة أخرى له متميزة عن تلك الروحية ، كثيراً أو قليلاً . نقصد بذلك أنه من الممكن أن نتبين خلف الصيغ الروحية للخصب (الانجيلي) صيغاً ومواقف أخرى تفصح - بصورة متوسّطة ومركبة - عن الكثير من دلالات ورموز الخصب الجنسي الانساني والطبيعي الكوني .

في سبيل تناول مباشر لتلك الدلالات والرموز ، يجدر بنا أن نتفحص الآيات المثوية التالية (مع الإشارة إلى أننا ، كما هو ملاحظ ، نبحث في الأناجيل القانونية ليس من حيث هي منفردة فقط ، وإنما - ويحدّ ما - عبر عملية مقارنة تخترقها جميعاً على الصعيدين البنيوي والوظيفي) :

«حينئذ يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العروسين . خمسٌ منهن جاهلات وخمسٌ حكيّات . فأخذت الجاهلات مصابيحهن ولم يأخذن معهن زيتاً . فلما ذهب ليبتعن وفد العروس ودخل معه المستعدّات الى العرس واغلق الباب . وأخيراً أتت بقية العذارى

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ١ / ٥١ .

قائلات يارب يارب افتح لنا . فأجاب وقال الحق أقول لكن إنني لا اعرفكن» (١) .

ها هنا ، تبرز تلك المحاور الذهنية ، التي طالما واجهنا ما يوازيها ويشير إليها (طبعاً ضمن خصوصية الموقف المشخصة) في الذهنية الاسطورية المتحدرة من الشرق العربي القديم . من تلك المحاور نلاحظ ، على سبيل المثال ، التالية : العذراء ، والعروس ، والعرس ، والباب المغلق ، والدخلة (التي تبيتها ، هنا ، ضمناً) . وهي اذ تبرز في مثل النص الانجيلي الأخير ، فإن أهمية بروزها هذا لا تكمن - بالدرجة الأولى - في أنها تنطوي على دلالة المقارنة الشكلية (المحايدة) . انها تقوم ، من حيث الأساس وكما هو ملاحظ من النص ، على أن تلك المحاور تعلن عن أصداء قوية وعميقة متحدرة من اساطير الجنس الكوني ، تلك الأصداء التي أريد لها ، بقصد ودراية ، أن تكون مغيبة من دائرة الدين الجديد ، المسيحية اليسوعية .

فـ «الثالوث المقدس» الجديد ، الذي حافظ على الثلاثية الكلاسيكية الهندية والمصرية ، أعيد بناؤه بحيث أنهض على أسس ذكرية . ولعل ذلك انطلق من تنامي النزوع إلى التقشف والتنسك في الارهاصات الأولى من العقيدة الجديدة ، تلك الارهاصات التي برزت وافصححت عن نفسها خصوصاً بصيغة الإيسينية^(٢) . ومن الراجع إلى ما يقترب من التأكد أنه من الصعب أن يفكر بذلك بمعزل عن واحد من العوامل الكبرى التي كمنت وراء نشوء المسيحية اليسوعية ، عامة ؛ ذلك

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٢٥/٣ - ١٢-١٠ .

(٢) انظر حول ذلك مع المقارنة : عصام الدين حنفي ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٥٦ . والباحث المشار اليه والذي يأخذ بذلك التفسير لظاهرة غياب العنصر الانثوي في الثالوث المسيحي من موقع تعاضل اتجاهات التقشف والتنسك ، يعلن ، بتعبير جنسي نافذ ، ان ذلك تأتي عن وضعية القساوسة ذوي الانحرافات الجنسية . (نفس المرجع والمعطيات السابقة) . وقد سبق أن تعرضنا للدور «الانثي» في الثالوث المسيحي اليسوعي ، حيث أتينا - في سياق آخر - على رأي لودفيج فوبرباخ في دور مريم (ماريا) الأم في ذلك الثالوث ، فوجدناه مضيئاً بين الأب والابن ، الأب الذي ينجب الابن دون أم جنسية ، والابن الذي يتصل بالأب دون هذه الأخيرة .

هو الاحتجاج الضمني الواقعي احياناً والوهمي اكثر الأحيان ضد الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية والسياسية ، التي بلغت - في حينه - مرحلة الاستنفاد التاريخي ، ودخلت ، من ثم ، أزمة عميقة وشاملة أخذت تحفز - بأشكال متعددة - على التفكير بالبدائل التي عليها أن تحل ما هو مطروح على بساط البحث من المشكلات والقضايا الكبيرة والصغيرة .

في إطار تلك الأوضاع المازومة والمضطربة ، تعاظمت أشكال ووسائل الاستغلال والاضطهاد حيال الفلاحين والمدنيين الفقراء والعبيد وأنصاف العبيد بوتائر قصوى ، بمقياس العصر . ولقد حملت الأزمة إياها وشم الوضعية الفلسطينية خصوصاً ، والوضعية في الامبراطورية الرومانية بصورة عامة . إذ هاهنا ، أخذ بالتبلور تصور أولي ساذج عن عجز «الطبيعة الانسانية» وعن «خطيئة أصلية» اقترفها الانسان ، بحيث يغدو هذا الأخير أمام حاجة قصوى للبحث عن حل خارج هذه الدائرة الانسانية (البشرية) ، أي في عالم «آخر» . ان التصور المذكور وإن لم يكن ، في بنيته ، جديداً تماماً في تلك المرحلة (نشوء المسيحية اليسوعية) ، إلا أنه اكتسب ، هنا ، وظائف وآفاق متميزة بأنها قادت - مع غيرها من العوامل - إلى إنجاز مهمة المخلص بصفته وجهاً من أوجه «الثالوث المقدس» . ان رفع الأيدي إلى العلاء (السماء) طلباً للنجع والسكينة والسعادة ، كان بمثابة العزوف - القسري بمعنى ما - عن العالم المشخص ، الذي يحمل ككل أشكال ووسائل القهر والافقار والابتناس^(١) .

(١) يكتب مؤلفو كتاب Geschichte der Philosophie, Bd. I Berlin 1960, S. 143-144 حول المرحلة التي تكوت فيها المسيحية اليسوعية الباكرة ، مشيرين - في سياق ذلك - إلى اتجاه الاحتجاج الذي برز في حينه ضد العلاقات الاجتماعية ، التي نظر إليها انصار الدين الجديد - اضافة إلى جموع الفقراء - على أنها مبعث الاضطهاد والاستغلال ، اللذين كانوا يعيشون تحت وطأتها : «كانت المسيحية الباكرة ، بالأصل ، تعبيراً عن الاحتجاج السلبي العفوي للجمهور المضطهد من الفقراء المدنيين والفلاحين والعبيد . . . وتحت هذه الظروف ، ظروف عدم رضا الفئات الشعبية التي كانت - بالاضافة إلى ذلك - غير منظمة وواقعة تحت وطأة انكسار الانتفاضات العبيدية ، نشأت لدى الناس تصورات عن عجز الطبيعة الانسانية وخطيئتها ؛ كما نشأ الأمل بحدوث مساعدة ما ورائية تأتي من فوق ، والتوقع بوصول مخلص سماوي ، مسيح ، يعاقب

ومن هنا ، يبرز العزوف عن الجنس و «التعفف القسري» اذاءه . ولكن هذا التعفف وذلك العزوف يبدوان ، هنا ، وكأنها معادل غير مباشر للتحسر عليه والرغبة اللجوجة ، ولكن اليائسة ، فيه . فإذا كان الجنس (ويعني هنا ، ضمن دلالاته المضمنة ، الزواج) الشر الذي لابد ان يحدث في هذا العالم الشرير ، في إجماله وعمومه ، فإنه في العالم الآخر (الملائكي - الرباني) محظور قطعاً وأبداً ؛ ذلك لأنه يفسد النفس ، إذ يبعدها عن الاهتمام بشؤون عبادة الرب والتبتل له والانقطاع للتأمل في وجهه . وبدلاً منه ، تنشأ آفاق واحتمالات وامكانيات جديدة تسمح للمؤمن أن يحقق رغبته الروحية بإشباع عميق . وهذا يشير إلى أن الانسان المخلص يعيش «يوم القيامة» كالملائكة ، التي تقترب - بهذا المعنى وهذا الأفق - من الابن والآب^(١) :

«... في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون ولكن يكونون كملائكة الله في السماوات»^(٢) .

ان التحسر على ما هو ليس في اليد ، ينقلب - في حالات معينة بضراوة - إلى موقف صارم ومتزمت من الرفض والتعفف ، مؤدياً إلى وضع من التقشف والتنسك والانزواء يغدو جارفاً هائلاً . وهذا الوضع يبرز ويتبلور ويتعاضد ، على نحو خاص ومنضبط ، حين يكون مقترناً «بوعي الخطيئة» ، أي بوعي الشعور بالذنب والدونية «الأصلية» . هاهنا ، نلاحظ أنفسنا أمام عاملين اثنين كبيرين اسهما ، بعمق وعلى نحو مباشر ، في توليد وبلورة ما واجهناه لدى اليهود العبرانيين ، وإن

= المضطهدين ويدمر الشر في العالم ، ويقيم مملكة الخير والسعادة والعدالة فيه» .

وجدير بالاهتمام السياق الذي تمت في ضوئه عملية ادانة العلاقات الاجتماعية من قبل جموع الأنصار المؤمنين والفقراء . فهذا السياق يشير إلى ان هؤلاء إذ أدانوا العلاقات المعنية ، فانهم اعدوا بناءها دينياً تصورياً ، بحيث غدت في اذهانهم مساوية ومعادلة لـ «المجتمع» عموماً ؛ وعلى ذلك ، يغدو الرفض موجهاً ضد هذا الأخير عموماً وخصوصاً . وتبقى الخطوة الضرورية ، التي هي الانتقال إلى «فوق» .

(١) سنلاحظ ، فيما بعد ، أن هذا الاتجاه أصبح أكثر وضوحاً وحزماً في اللوحة المسيحية اليسوعية على يدي بولس .

(٢) الكتاب المقدس . . انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٢٢ / ٣٠ .

بصيغة بنوية وظيفية متميزة كثيراً أو قليلاً ، تحت إطار ما حُدد بـ «المشتهى المزدري» . العامل الأول تجسد في استحالة تحقيق الرغبات الانسانية الكبرى تحت وطأة الاضطهاد والاستغلال الاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين ، تلك الوطأة التي كانت عنيفة قاسية إلى درجات كبرى . أما العامل الثاني فقد تمثل بما ظهر على أنه موروث لا يشك فيه ، وهو «وعي الخطيئة» . ان كلا العاملين هذين اسهما ، على نحو خفي ومفصّل عنه ، في توليد اتجاهات الاحتقار لهذا العام ، بما فيه من «حاجات - متع» جنسية . وهنا ، نواجه أحد الخوافز الرئيسية التي كمنّت وراء بروز شخصية الأب أو الابن المهيمنة أولاً ، ووراء تغييب دور الأم «الانثى» ثانياً .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن المسيحية اليسوعية تغدو «وعي الخطيئة ووعي الخلاص منها» ، أي من عالم لا موطىء فيه لقدم بائسٍ مستلب . وجدير بالاشارة إلى ان هذا «العالم» ، الذي يكرس الخطيئة والرذيلة والاستلاب ، وفق ذلك «الوعي» ، يتحول في عيون الطامعين للخلاص إلى حالة من الاستفزاز واستنهاض العالم البديل ، حيث لا عين رأت مثله ولا أذن سمعت عن مثيل له . ان الموقف المعني لم يؤد إلى رفض الجنس والسخط عليه وحده ؛ بل إنه قاد - كذلك - إلى ادخال كل خيرات العالم المادي ومظاهر رفاهه في دائرة المحظور والمستهجى ، أي في حقل «الخطيئة والاثم»^(١) . ان ذلك ، مجتمعاً ، تبيينه بوضوح وحزم في الموقف الذي أعلنه يسوع المسيح المرقسي حيال الرجل الملتزم بـ «الوصايا» الكبرى ، ولكن الغني ، أي «المؤمن الغني أرضياً - مادياً» :

«وبينا هو خارج إلى الطريق أسرع إليه رجل وجثاله وسأله أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية . . . فنظر إليه يسوع واحبه وقال له واحدة تنفصلك اذهب وبع كل مالك واعطه للمساكين فيكون لك كنز في السماء

(١) تصور الخطيئة يشغل حيزاً مركزياً هاماً في المسيحية اليسوعية ، وذلك إلى درجة أنها - بصفتها ايديولوجيا دينية - لم تكن قابلة للتكون والاتساع بعيداً عنه وبمعزل عن خوافزه ومشكلاته . ومن هنا ، يصح ما يعلنه عصام الدين حفني ناصف من أن «محور المسيحية هو ما قصه اليهود من خطيئة آدم ، وبدون هذه القصة تفقد كفارة المسيح كل معنى ويصبح التجسد والصلب والقيامة من الموت عبثاً لا طائل وراءه» . (عصام الدين حفني ناصف : المسيح في مفهوم معاصر - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٤٢) .

وتعال اتبعني . فاكتاب من هذا الكلام ومضى حزينا . لانه كان ذا مال كثير .

وهنا ، اطلق يسوع المسيح القولة الشهيرة - وقد كنا اوردناها سابقاً في مكان وسياق آخرين :

« . . . ماأعسر على ذوي الأموال ان يدخلوا ملكوت الله . . . انه لأسهل ان يدخل الجمل في ثقب الابرة من ان يدخل غني ملكوت الله »^(١) .

ضمن ذلك التوجه في موقف يسوع المسيح المرقسي ، نفهم - كذلك - تلك المواضع الانجيلية التي تفصح عن أصداء جنسية بعيدة ، أو تعلن عن مقارنات جنسية^(٢) ، أو توحي بما يقود إلى دلالات وإشارات جنسية على سبيل الترميز والتضمين .

ان يحمل ما طرحناه باسم يسوع المسيح المرقسي يضعنا أمام علاقة التوتر والقلق والنوسان ، وكذلك الهلع والهول بين المطلق البدئي والمطلق الذي ينجز عبر الفعل التاريخي . ولعلنا نقول ، ان العملية المعنية تتحدد بكونها صعوداً معقداً مركباً ومفعماً بالألم من «الأدنى» إلى «الأعلى» ؛ مع الاضافة الجوهرية بأن هذا الترتيب من الأدنى الى الأعلى لا يقدم فصل المقال على صعيد المسألة التي نحن بصدددها . فـ «الأدنى» هو ، بمعنى انطولوجي (وجودي) وأخلاقي ، أيضاً «أعلى» . ذلك لأن «مبدىء الوجود» لا يمكن أن يكون «الأدنى» فقط وعلى عواهنه . ومن هنا ، صح القول بأن «الأدنى» و «الأعلى» يمثلان - هنا - مستويين أو تجليين اثنين لوضعية واحدة : ان الملكوت قائم دائماً وأبداً ومن حيث البدء ؛ ولكنه يفصح عن نفسه عبر «وعي الإثم والخطيئة» ، أي عبر منازلة هذا الأخير والتغلب عليه . وإذا كان لنا أن نضبط عملية التمرحل الذي تطرأ عليه (الملكوت) ، فإننا نلاحظ ثلاث مراحل على هذا الصعيد ؛ مرحلة الملكوت بذاته ، حيث يكون هو نفسه ذاتاً

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس مرقس ١٠/١٧ ، ٢١-٢٢ ، ٣٢ ، ٢٥ .

(٢) من ذلك ، مثلاً ، الحديث عن «الصبيان» :

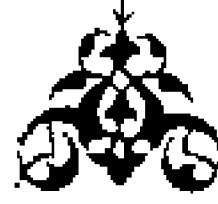
«وقدموا إليه صبياناً ليلبسهم فزجر التلاميذ مقلدّميهم . فلما رأى يسوع ذلك اغتاض وقال لهم دعوا الصبيان يأتون ولا تمنعوهم لأن لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله . الحق أقول لكم من لا يقبل ملكوت الله مثل صبي فلا يدخله . ثم احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم» .
(نفس المصدر السابق ومعطياته ١٠/١٣-١٦) .

وموضوعاً ، ذاتاً لموضوعه وموضوعاً لذاته ؛ ومرحلة الملكوت عبر وعي الإثم والخطيئة ، حيث يعلن عن نفسه من خلال منازلة هذا الوعي المتمثل بالعالم المادي الأرضي ، وحين يجسد هو (أي الملكوت) الذات التي تجسد موضوعها مجسداً بهذا العالم الأخير ؛ أخيراً ، مرحلة الملكوت لذاته ، حيث يكون قد أقصى كل ما لا يتصل به بسبب أو آخر وأصبح المهيمن كلياً وقطعياً ، وحين يستعيد شخصيته البدئية ، إنما بصيغة الوعي الكامل الشامل وعبر اكتشافه لنفسه ذاتاً وموضوعاً ، في آن واحد ، ذاتاً لموضوعه ، وموضوعاً لذاته . من هنا ، ليس إلا من قبيل التبسيط أن ننظر إلى «الأدنى» و«الأعلى» على أنهما متراتبان تراتباً تاريخياً وزمانياً .

لقد عملت المسيحية اليسوعية الانجيلية على إعادة بناء الموقف الوجودي (الكوني) ، بحيث كان على «التاريخ» و«التاريخية» أن يسقطا ، أو - على الأقل - أن يتحولا إلى ملحق هش من ملاحق «العالم الملكوتي الرباني» . والمسألة تكمن ، كما لاحظنا ، في النظر إلى أن اللاحق متضمن في السابق وإلى أن السابق قائم في اللاحق ، على نحو غائب قبلي ، أولاً ؛ كما تكمن في وجود «وعي الإثم والخطيئة» بمثابته عاملاً من عوامل الإثارة والتحفيز والتحرير على اكتشاف «الملكوت الإلهي» لذاته منذ «البداية» وحتى «الانتهاء» . ولا بد من الإضافة بأن وعي الإثم والخطيئة ذاك وإن كان تجاوزه شرطاً لتحقيق انتقال الملكوت من حال الوعي «في ذاته» إلى حالة الوعي «لذاته» ، إلا أنه - بمعنى ما آخر - يُسقط بصفته تلك لحساب وضعية من الشمول والهيمنة والاطلاقية يتمتع بها الملكوت الإلهي منذ البداية وحتى النهاية .

هكذا اذن ، نجد أمامنا وضعاً شديداً التنوع ومتربعاً بالاحتمالات والأفاق يطرحه مرقس الانجيلي . وما نحسب ذلك إلا تعبيراً عن عمق الإشكالية ، التي طرحتها المسيحية اليسوعية حتى في صيغتها الانجيلية القانونية . إذ إن هذه الأخيرة تظل ، في التحليل الأخير ، صدى من أصداء الوضعية الاجتماعية المشخصة . ويبقى أن نقول ، أخيراً ، بأننا في هذه الجولة كلها استطعنا أن نسجل الفكرة المبدئية والموجهة التالية في سياق ملاحقة «الملكوت الإلهي اليسوعي» الذي ، حددناه بـ «المطلق البدئي» ، ذلك المطلق الذي يتحول ، بدوره ، إلى «مطلق ناجز» . تلك الفكرة تكمن في أن التاريخ يختلط بالأسطورة وفي أن الأسطورة تختلط

بالتاريخ ، بحيث نواجه ذلك الملكوت وقد تجاوز هذين الفريقين كليهما (أي التاريخ
والأسطورة) ، محققاً - بذلك - نمطاً تلفيقياً من الوضعية الوجودية (الانطولوجية)
والأخلاقية القيمة ، التي تفتح صدرها لكل السائلين الساعين إلى تسوية
وضعياتهم الاجتماعية ومنحها مصداقية عقيدية دينية رادعة .



لوقا : العهد الجديد المصنَّع بدم الرب ، وتحولٌ من عبق الطبيعة إلى خصب «التجربة الداخلية» ومن هذه إلى تلك

ان تصور «الجنس» ، إذن ، لا يغيب عن عالم المسيحية اليسوعية ، وإنما يكتسب فيه أفقاً تضمينياً ذا خصوصية نسبية تتضح عبر صيغة متميزة من التجادل بينه (أي الجنس بمعنى الخطيئة) وبين الترقب (بمعنى الفضيلة) . بل ان ذلك التجادل يُقاد إلى درجة التضاد بين طرفيه ؛ مما يدعونا إلى مواجهة السؤال الإشكالي التالي : كيف لنا أن نفهم وضعية التضاد تلك بين الجنس والفضيلة ، بعد أن كنا - فيما سبق وضمن اطار آخر - قد وصلنا إلى أن المسيحية اليسوعية تبنت الجنس بمثابته المعادل لـ «الخصب» ، ومن ثم لـ «الفضيلة» ؟ لعلنا اذا توغلنا في الموقف ، نتبين أن «الجنس» يظل في الدين الجديد المعني يمثل وجهاً من أوجه الفعل الالهي الرباني الخاص بوضعية الخلاص . ولكن هذا الوجه يخضع لأنماط من التوظيف تجعل منه عنصراً طبعاً على صعيد مجموعة مواقف تلتقي ببعضها وتتقاطع فيما بينها ، مشكلة بؤرة واحدة .

فمن طرف ، نلاحظ أن يسوع المسيح يوجد ، بمعنى ما ، عبر التقاء الروح القدس (الالهي) بمريم ، هذا الالتقاء الذي يجعلنا - بالرغم ما قلناه سابقاً عن «تضييع» دور الأم مريم أو إضعافه والتضييق عليه - نقر بأن ولادة المخلص تمت «جنسياً» . أما من طرف آخر ، فإنا نواجه ذلك الموقف المرقسي الذي يعلن أنه «يوم القيامة» لا يكون زواج ولا علاقات جنسية ، بحيث يعيش المؤمنون كالملائكة . يبدو أن ما يواجهنا هنا ، هنا ، بمثابته تضاداً ، ليس إلا إعادة نظر في الوضعية البنيوية والوظيفية لـ «الجنس» . فإثناء «الولادة» ، كما في «عالم الملكوت» ، يظل الجنس عنصراً فاعلاً وذا حضور كبير ، إنما بمعنى «التجاذب الروحي الالهي» . لكن حيث

يؤخذ بهذا الموقف ، فإن الجنس المشخص يُطوى في دائرة النسيان عبر إدائته واحتقاره والاعلان عن أنه «أس الخطيئة» . وينبغي القول ، بثقة وجزم ، بأن هذه المسألة ذات أهمية مرموقة بالنسبة إلى اللحظات الجديدة في العالم المسيحي اليسوعي في مراحلها الباكرة ، على نحو الخصوص . ان هذا يتضح مباشرة حالما ينظر الى تلك اللحظات بالقياس إلى مرحلة التضج الايديولوجي والمؤسسي التنظيمي ، التي تبلغها المسيحية اليسوعية لاحقاً ، وخصوصاً في «المجمع النيقاوي» الأول عام ٣٢٥ (وقد سبق أن أتينا على موقعه التاريخي وبنيته العقيدية العامة) . فتعاضد العبق المسياني (الخلاصي) واتساع آفاقه في مجتمع يحتضر بشمول وعمق ويدق بتأثيراته المدمرة قواعد الفقراء والمعدمين والعيبد أساساً ، ان هذا المعطى هو الذي مثل القناة التي حوّلت عبرها الأزمة إلى نعمة : ان مالا تحصل عليه هنا بعينه ، تحصل عليه هناك بروحه . ومن ثم ، فلا بد من أجل الحصول على هذا ، أن تحتقر ذاك وأن تفعل هكذا كما لو أنه غير موجود .

ولعلنا نواجه ذلك العبق المسياني المتعاضد متشابكاً - على نحو أو آخر - مع التصور الجنسي وتمدخله فيه وفاعلاً فيه ، في قصة «ولادة» الاله يسوع المسيح . ان هذه القصة لا تُظهر ذلك التشابك بين الوضعيتين المومي إليهما فحسب ؛ إنها تعيدنا ، بوضوح وإفصاح ، إلى ما يماثلها تقريباً في إطار الاسطورية المصرية القديمة ، على نحو الخصوص . أما من طرفنا ، فإننا لا نجد مهمتنا ، الآن ، كامنة في تقصي وملاحقة القصة في جذورها الشرقية البعيدة ، وإن كان ذلك يدخل ، بحد ما وبمعنى ما ، في حقل المسألة التي نعالجها حالياً ؛ وكذلك وإن كان من الصعوبة والعسر بمكان أن نعالج مسألتنا المعنية بمعزل عن ذلك أو بعيداً عنه . وإذا كنا نولي هذه المسألة من العقيدة الجديدة أهمية خاصة ، فإنما نفعل ذلك لأنها توضح - ضمن ما توضحه - كيفية العلاقة التي قدمت من قبل هذه العقيدة بين الدين والسياسة ، بين الايديولوجيا والسلطة . بل اننا سوف نجد - في تطور لاحق يبرز بصورة خاصة في مجمع نيقية المسكوني الثاني على ذكره - أن هذا العلاقة تغدو المعلم الأكبر في الحياة الكنسية «الرعوية» بجمل اقنيتها ، المالية والتنظيمية والاجتماعية والدعائية الخ . . . وهنا ، يتوقف الحديث عن «دين شعبي» ليغدو حديثاً عن «دين سلطوي» يمارس تأثيره عبر الوظائف المنوطة بالسلطة السياسية ؛

وفي مقدمتها وظيفتنا القمع والردع أولاً ، والأدلة للوضعية القائمة على نحو يستجيب لاحتياجات ومطامح تلك السلطة وما يدور حولها ثانياً .

ان النصوص الانجيلية الخاصة بقصة «الولادة الالهية» تشترك جميعها في نقطة واحدة جوهرية كبرى ، هي «الحمل بواسطة الروح القدس» . وعلى ذلك ، فان انجيل لوقا لا يخرج عن هذا الاجماع . ولعلنا نؤكد أن إجماع النصوص الانجيلية على هذا الجانب من يسوع المسيح يمثل أمراً ضرورياً ضرورة مباشرة ومبدئية من أجل المحافظة على تصور «الخلاص والمخلص الأعظم» . أما إنفاذ هذه المهمة فيمكن أن يكون عبر وضعيات من نوع «الحد الأقصى» و«الخارج عن المألوف» ، أي عبر «المعجز والإعجاز» . وهنا ، نتيين الأسلوب الأهم والأخطر ، الذي لجأت إليه المسيحية اليسوعية (ويلجأ إليه ، من حيث الأساس والعموم ، كل دين) من أجل الدخول الى عالم الجمهور المضطهد مادياً وروحياً وثقافياً. بل ربما صححنا هذه الصيغة الأخيرة حيث نقول ، ان ذلك الجمهور نفسه هو نفسه ، في الأساس البعيد ، الذي كمن وراء صوغ الأسلوب المذكور على نحو مترع بالخيال والآمال والمطامح . وهذا ما نخولنا بتحديد المسيحية اليسوعية من حيث هي - في أصلها البعيد الباكر - دين شعبي ، ووعي شعبي ، أي وعي ذلك الجمهور الطامح إلى الانعتاق ؛ وإن أتى ذلك بالشكل الوهمي الايهامي المعهود . وهذا نفسه هو الذي كنا واجهناه بصيغة «الرؤيا اليوحناوية» ، التي نعتبرها ، هنا ، أحد أشكال التعبير الأكثر شعبية ، في حينه ، عن تلك المطامح والآمال .

نقرأ لدى لوقا الانجيلي حول ذلك «الحدث المعجز» مايلي :

«وفي الشهر السادس أرسل الملاك جبرائيل من قبل الله إلى مدينة في الجليل تسمى ناصرة . إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف من بيت داود واسم العذراء مريم . فلما دخل إليها الملاك قال السلام عليك يا ممتلئة نعمة الرب معك مباركة أنت في النساء . فلما رآته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن يكون هذا السلام . فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم فإنك قد نلت نعمة عند الله . وها أنت تحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع . وهذا سيكون عظيماً وابن العلي يدعى . وسيعطيه الرب الإله عرش داود أبيه ويملك على آل يعقوب إلى الأبد . ولا يكون للملكه انقضاء . فقالت مريم للملاك كيف

يكون هذا وأنا لا أعرف رجلاً . فأجاب الملاك وقال لها ان الروح القدس يحلّ عليك وقوة العلي تظلمك ولذلك فالقدوس المولود منك يدعى ابن الله^(١) .

هكذا ، تظهر أفعال المضاجعة والقذف والحمل والولادة على أنها أمور تدخل في حيز الوجود الالهي القدسي ، أي في نطاق الروح القدس الذي ينفثه الرب الاله (الزوج الالهي) في مهبل المرأة - الأنثى (ولا نقول - هنا - الزوجة الإلهية إلا تجوّزاً لأننا لاحظنا ، فيما سبق ، كيف ضُيعت الأم مريم بين الأب والابن ؛ وكلاهما ذكر) . وإذا كان لنا أن نؤكد على ما يهمننا في النص - مقارنة مع ما يقابله في النص الاسطوري المصري^(٢) - ، فإن المسائل الثلاث التالية تحتل مركز الصدارة في الأمر الذي نحن بصدد إعمال مبضعنا في أوجهه البنيوية والوظيفية : المسألة الأولى تكمن في النّظر إلى أن النزعة الخلاصية (المسيانية) في نطاق المسيحية اليسوعية ذات أصول جنسية ، بالمعنى وبالبعد الكوني ؛

المسألة الثانية تقوم على اعتبار الجنس الكوني هذا بعداً من أبعاد الفعل السياسي الاجتماعي والاقتصادي ، الذي من حق الحاكم (القدّوس ، الاله ، الرب ، الكاهن الأعظم) وحده أن يمارسه بكل الانحاء والاعتبارات ووفق ارادته وحكمته ؛

-
- (١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس لوقا ١/ ٢٦-٣٦ .
(٢) على صعيد العلاقة الجنسية القدّوسية بين «الاله والأنثى» في الفكر الاسطوري المصري القديم ، نورد النص التالي ، الذي يمحصر تلك العلاقة بين آمون ، الاله الأعظم ، من طرف ، وأمّ فرعونّة مصر الشهيرة حتشبسوت من طرف آخر ، بحيث تولد بفعل ذلك هذه الأخيرة : «[واتخذ آمون] شكل جلالة زوجها هذا ، الملك (تحتّمس الأول) . . . ثم ذهب إليها فوراً ، ثم ضاجعها . . . وفعل جلالة الاله هذا ما شاء له الفعل معها . وهذه الكلمات فاه بها أمامها آمون ، سيد عروش المصريين (مصر العليا ومصر السفلى) : ان اسم ابنتي التي وضعتها في جسدك هو خنيمت - آمون - حتشبسوت . . . ولتقم بمهام الملك الفاضلة في هذا البلد بأجمعه» . (جون ا . ولسن : مصر - ضمن «ما قبل الفلسفة» ، تأليف هـ . وهـ . ا . فراتكفورت وآخرين - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٠) .
انظر حول ذلك ايضاً : طيب تيزيني - الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٣٠ .

أما المسألة الثالثة فتنهض على رؤية «الخلاص» و «الجنس الكوني» و «الفعل السياسي» من حيث هي أوجه ثلاثة لوضعية واحدة ، أو من حيث هي وظائف ثلاث لبنية واحدة .

فعل صعيد المسألة الأولى ، نلاحظ أن النزعة الخلاصية إذا كانت ذات أصول جنسية بالاعتبار الكوني الشمولي ، فإن هذا عنى - ضمن ما عناه - أن تتحدد مهمة يسوع المسيح الخلاصية في انجاز خلاص الكون برمته ومن حيث هو ، من إنسان وحيوان ونبات وجماد و «عوالم أخرى» تقع و «راء» عالمنا أو «فوقه» أو «بمحاذاته» .

وطبيعة هذا الخلاص تنسم بأنها تقوم على عملية إعادة «الرواء» و «الحياة» الى ذلك العالم ، إلى منازل «العقم» و «الموت» الروحي اللذين حلاً به وأطاحا بمعاله الحيوية الفاعلة . هاهنا ، تبرز مجموعة من «الكلمات المقدسة» ، التي تقدم نفسها من حيث هي رموز الكون وأسراره وتعويذاته وآفاقه وأعماقه واتجاهاته ، مثل «الماء» و «الروح» و «إعادة الولادة» ، و «الابن» و «خبز الحياة» ، وتقدمة «جسد المسيح كماكول» ، و «دم المسيح كمشروب» الخ . . . فهذه «الكلمات المقدسة» هي مبتدى ومنتهى الكون المسيحي اليسوعي ، أي الخصب والمحبة والرواء . وعلى ذلك ، فمن تمسك بها ، وآمن بها ، وإن مات فسيحيا . إذ أنها التعبير الأعمق والأشمل والأقدس عن كينونة الكون المسيحي أو المسيح الكوني . ولا بد من التذكير ، في هذا السياق ، بأن «الكلمة» تجسد ، هنا ، بعداً كونياً وجودياً (انطولوجياً) ، إضافة إلى أبعادها القيمة الأخرى .

إن «الماء» و «الروح» يبرزان ، هاهنا وفي السياق الأسراري القدسي للكلمة الالهية الربانية ، من حيث هما وجودان متكاملان ومتعارضان ، في حين واحد . فالأول منهما (الماء) يُرفع - كما لاحظنا في مواضع سابقة من هذا البحث - إلى مستوى الوجود الذي يقود ، في حال التعمد به والتبرك ، إلى الدخول المطروح في عالم الروح الرحيب . وقد أبنا ، في حينه ، أن طائفة الإسينيين - وكانوا يمثلون مظهراً أولياً وأساسياً من مظاهر المسيحية الباكورة - رأوا في عماد الماء الخطوة الأولى والكبرى للولوج إلى ذلك العالم الروحي . وهذا ما نواجهه متواصلاً ، بشكل أو بآخر وبدرجة أو بأخرى ، في التقاليد المسيحية ، بجعل أنساقها وتياراتها ومواقفها . أما «الروح» فيمثل الوجود المستهدف والمتجه إليه من قبل التعميد

بالماء ، بحيث أنهما يشكلان نقطتين على طريق واحدة . ذلك لأن «الهدف الحق» يندغم بـ «الطريق الحق» ، مكوناً معه أفقين لعالم واحد . وهذا الأمر يتضح بمزيد من العمق والمباشرة ، حيث يتحول التعميد بالماء إلى تعمد بـ «الروح القدس» ، كما سيأتي معنا بعد قليل ضبطاً وتفصيلاً بالحدود التي يقتضيها البحث الذي نقرأ فيه .

بيد أن علاقة التكامل تلك بين «الماء والروح» تتراجع إلى وراء وتفقد من أهميتها الدلالية الخلاصية ، حالما نضع في الحسبان الموقف المسيحي اليسوعي من «الجسد» ، بما ينطوي ذلك على أبعاد وامتدادات مادية تشمل الحياة الاقتصادية الاجتماعية ، والمال عيناً وتخصيصاً . إذ حاثث ، تصبح العلاقة بين الطرفين المعنيين ذات بعد واحد وتوجه واحد ، ينطلق من الروح ويتقوّم به ، لينتهي به وإليه . لماذا ؟ لأن «الماء» - وهو التجسيد المكثف لخصب الحياة البشرية المباشرة بما ينطوي ذلك على وضعيات «الغيث» و«الكلأ» و«تجدد الحياة» - هو ، بالنسبة إلى الطبقات والأنساق الاجتماعية الدنيا وما بعدها (أي العبيد) ، أبعد ما يكون عنها بصيغة الحياة الخاصة والملكية الخاصة . وهذا ، من طرفه ، يقود إلى القول بأن كل مظاهر الكون تتحول إلى «الروح» ، الذي يتمثل بيسوع المسيح ويتمثل هذا به ، دون أن يكون - في هذه الحال - ذا طابع مباشر . فهو ، والحال كذلك ، الآتي الذي لم يأت ، والحلم الواقعي الذي لم يتحقق ؛ وهو إلى ذلك وفوق ذلك ، مالا يدخل في التنبؤ والحساب والتوقع ، ومالا يمكن المراهنة عليه إلا بالصبر والسهر والصلاة : الصبر في انتظار قدومه الميمون ممثلاً بـ «المللكوت» ، والسهر والصلاة للحفاظ على عيني القلب مفتحتين يقظتين ؛ ذلك لأن النهوض بعبء هذا الموقف كله وبما يترتب عليه ، قمين بأن يحول دون انفلات اللحظة التي يعلن فيها المللكوت عن نفسه ويدعو فيها إلى الحساب . وبذلك ، تغدو تلك «اللحظة» الهدف الأعظم الذي يسعى المؤمنون للعيش في ظلاله الوارفة .

هكذا إذن ، يتحول الماء العيني إلى ماء روحي لا صلة له بهذا العالم ، لأنه يغدو ماء مقدساً ، أي يصبح الروح القدس نفسه . وقد واجهنا مثل هذا الموقف في قوله يوحنا المعمدان الحاسمة ، بعدة اعتبارات ومعان ودلالات :

«أنا أعمدكم بالماء للتوبة وأما الذي يأتي بعدي فهو أقوى مني وأنا لا أستحق أن أحمل حذاءه وهو يعمدكم بالروح القدس والنار . . . فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء فانفتحت له السماوات ورأى روح الله نازلاً مثل حمامة وحالاً فيه»^(١) .

ويصح ، في هذا السياق ، أن نتمعن بما ورد ، في هذا النص ، من اقتران ملفت بين الروح القدس والنار والماء وروح الله والحمامة . فهاهنا ، تكاد نواجه الاسطورية الشرقية (العربية) في توحيدها بين مظاهر الكون في نسق واحد يقوم على الخصب والرجاء والخلاص ، بحيث يبرز التعميد بالماء أو بالنار أو بالحيوان أو بالنبات بمثابة استحضاراً لشروط الخلاص وترسيخاً له . و«الله» يظهر ، هنا ، مندغماً بـ«روحه» ، ذلك الروح الذي ييمن على كل تلك المظاهر الكونية ويتجلى فيها ، بحيث يغدو الواحد كثيراً والكثير واحداً .

أما المسألة الثانية التي نتبينها في النص الانجيلي الخاص بالحمل بواسطة الروح القدس ، فقد حددناها بالنظر إلى الجنس الكوني بمثابة واحداً من أبعاد الفعل السياسي الاجتماعي والاقتصادي وحافزاً من حوافزه الذهنية . فأن يكون الجنس الكوني هكذا ، يعني أن يكون الملك (الحاكم) متحداً بالمالك ، كما يعني أن يكون هذان متحدين بالقدّيس الكاهن (الرب) ، بحيث نواجه لوحة ثلاثية الانساق ولكن واحدة النسيج . وقد واجهنا مثل هذا التصور ، فيما سبق ، في المجتمعات الشرقية القديمة . أما هنا ، فنلاحظ أنه يمثل تعبيراً عن العلاقات المشاعية القروية في فلسطين ، كما يجسد - بقدر ما وباعتبار ما - امتداداً ايديولوجياً للمسوروث الايديولوجي في تلك المجتمعات . وبطبيعة الحال ، ليس بوسعنا أن نرفض الأخذ بذلك التصور بصفته التعبيرية تلك ، إذا وجدنا أنه كان قائماً ، كذلك ، في إطار الأشكال الايديولوجية لمجتمع الامبراطورية الرومانية بصورة عامة ، وللمجتمع الروماني نفسه على نحو الخصوص .

فلاشك أن المسيحية اليسوعية إذ خلقت لنفسها قواعد وجذوراً في ذلك المجتمع الأخير ، فإنه كان عليها أن تخضع لعملية تبني وتطويع طويلة ومركبة

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس متى ٣ / ١١ / ١٦ .

ومعقدة لاحتياجات المجتمع المذكور السياسية والايدولوجية والاجتماعية الاقتصادية ، وكذلك الاتنية (الأقوامية) . وقد ظلت تلك العملية ، على كل حال ، مشروطة بجدلية العلاقة بين «الداخل والخارج» ، بين المسيحية اليسوعية كظاهرة ايدولوجية فلسطينية المنشأ والارهاصات الأولى الباكرة والعلاقات والخصومات والصدامات التي خضعت لها في فلسطين من طرف ، وبينها على مستوى الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف والمتنوعة الثقافات والأصول الاتنية لاحقاً من طرف آخر . اذ هاهنا نجد أنفسنا أمام ضرورة الاحاطة بعملية التغير البنيوي والوظيفي ، التي افصححت عن نفسها في اطار انتظام المسيحية ضمن وضعيات جديدة بالنسبة إليها .

ان التصور المسيحي اليسوعي للوحدة بين الحاكم والمالك (وكذلك القديس - الرب) ، الذي عبر ، ولاشك وبشكل أو بآخر ، عن واقع الحال المشار إليه من قبل ، يجد مصدره النصي الانجيلي في الكثير من النصوص ، التي نشدد على أهمية اثنين منها ، بالاعتبارين البنيوي والوظيفي . النص الأول هو ذاك الذي أوردناه ، قبل حين ، شاهداً على تصور الحمل بالروح القدس ، أي بمزول عن انثى بالمعنى البيولوجي الجنسي . أما النص الثاني فيتعلق بالاعجاز الالهي ، أي الفعل الالهي المطلق ، غير المشروط باعتبار ما . وفي كلا النصين ، نوضع أمام حالة من التواتر بين المعجز والعادي ، المعجز الذي يطرح نفسه ، بتواضع ، على أنه من أجل جموع «العاديين» ضمن «الأمم» المختلفة .

ان نظرة تحليلية وتركيبية في النص الأول تحيلنا إلى ضرورة منح بعض الأمور الواردة فيه أهمية خاصة . تلك الأمور تتمثل بـ «حلول الروح القدس على مريم - ماريام» ، أي «مضاجعتها» ، و«حملها» ، و«ولادتها» و«اعطاء الرب الاله عرش داود لابنه يسوع» و«مَلَكيَّة يسوع إلى الأبد» . فهذه جميعاً نجدها مخترقة من قبل فكرتين رئيسيتين كبيرين ، هما انجاز الحمل عبر معجزة تتم بين انثى مختارة من طرف وبين الروح الالهي (روح القدس) من طرف آخر . ومن شأن هذا أن تصبح تلك الأنثى الأم إطلاقاً وعموماً ، أم الرب يسوع المسيح أولاً ، وأن يعتبر «الوليد» الحاكم باسم الأب الاله ، إضافة إلى كونه الوجه الآخر من هذا الأب الاله ، أي

الابن ، ابنه ، ثانياً . ففي الفكرة الأولى ، يجري التأكيد على أن الحمل المعني ذو مصدر غير طبيعي ، في حين يجري اللاحاح في الفكرة الثانية على المصدر الالهي القدوسي للحاكم السياسي . وليس خفياً أن المؤسسة الكنسية ذات القواعد العقيدية والتنظيمية والطقوسية الحديدية استطاعت ، لاحقاً على نحو مخصص ، أن تمنح نفسها الحق الكامل في أن تصبح الحاكم السياسي هذا ، ذا المصدر الالهي القدوسي . فهي إذ اعتبرت نفسها جسد يسوع المسيح المقدس ، فإنه كان من الممكن أن تستلم ، دون أي اعتراض تفترض وجوده أو قيامه ، مقدرات «الرعية» العديدة المتنوعة ، أي ما يدخل منها في السلطة «الروحانية» والأخرى «الدنيوية» ، وذلك بما يتوافق ويتطابق مع نواظم وقواعد هذا «الجسد» ومع ما يترتب على ذلك من نتائج عملية مباشرة .

ولقد تحقق ذلك عبر خطوتين اثنتين تركنا أثراً عميقاً في التطور المسيحي اليسوعي اللاحق القريب والبعيد ، وجعلنا من المسيحية اليسوعية ماهي عليه حتى الآن ، باعتبارات ومعان متعددة . أما الخطوة الأولى فقد تمثلت بانعقاد مجمع نيقية وبننتائجها ؛ في حين تبلورت الثانية بالجهود الكبيرة والمركزة ، التي بذلها الامبراطور اوغسطين باتجاه تحويل الدين الجديد إلى دين رسمي وشمولي للدولة . وكان ذلك قد انتهى إلى أن اعتبرت هذه الأخيرة «دولة الله - الرب» ، بحسب التعبير الذي سيطلقه القديس اوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) لاحقاً على عنوان كتاب رئيسي له . في سياق ذلك وضوئه وآفاقه ، تبرز دلالة النص الانجيلي الثاني . هاهنا ، نقرأ مايلي ، مصوغاً بلغة الحسم والتقرير :

«لأنه ليس أمرٌ غير ممكن لدى الله»^(١) .

فإن لا يكون شيء غير ممكن ، وأن لا يكون شيء مستحيلاً (أي أن لا يكون هنالك استحالة ، بالمعنيين الوجودي والمنطقي) ، أن هذا وذاك كليهما يمثلان تجسيداً للقدرة الالهية المطلقة ، غير المشروطة زماناً ومكاناً وفعلاً . ان الرب الاله ، من حيث هو كذلك وبكل الاعتبارات والحدود ، يمثل المصدر الكلي التام لكل فعل انساني ، بما في ذلك - بطبيعة الحال - النشاط السياسي والاجتماعي والاقتصادي ،

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ١/٣٧ .

أي المصدر الذي يستمد ذلك الفعل منه مشروعيته الاجتماعية والعقيدية والتاريخية المضطربة . أما النظر اليه بمثابة مجسّد بالصيغة الانسانية ، أي بصفته ناسوتاً ، فإنه يضعنا أمام فعاليته الانسانية المباشرة . وحيث يكون الأمر على هذا النحو ، فإن تلك المشروعية الاجتماعية والعقيدية والتاريخية المستمدة من مصدر ربوبي الهى ، تغدو ، كذلك ، متحدرة من المصدر الناسوتي بصفته مشاركاً للربوبية في ربوبيتها ، بقدر ما تكون هذه مشاركة للناسوت في ناسوته . وهذا يتيح لنا القول بأن وحدة اللاهوت - الربوبية - بالناسوت تبرز ، هنا ، من حيث هي المبدأ الجدلي لوحدة السياسة بالحكمة (الايديولوجيا) . وهنا ، نجد أنفسنا ، ثانية ، أمام الصيغة المكثفة ، وهي وحدة الحاكم بالمالك ، أي بالحق الالهى المقدس الذي يحوز عليه الحاكم السياسى .

ويجدر بنا أن نشير ، في هذا الحقل الضيق من المسألة ، إلى أن أب يسوع المسيح المفترض ، الذي هو يوسف ، يقدّم إلينا انجيلياً على أنه ذو نسب قدسى يرجع ، عبر رابطة ما ، إلى نسب الانبياء الذين هم ، من طرفهم ، وسطاء مع الرب الاله . وحيث يحل الروح القدس في مريم ، فانما يكون الأمر - في هذه الحال - تجسيدا لعملية استبدال البعل (الزوج) الدنيوي (أي يوسف) بالبعل الروحي (الاله الرب) . وهذا هو ، من زاوية أخرى ، تعبير عن اختيار الاله الرب لمريم بسبب من أن زوجها يوسف ينتمي إلى بني داود ، أسرة الملك والملوكية . وكما كنا ذكرنا ، على صعيد الاسطورة المصرية ، فإن آمون الاله الأعظم اتخذ شكل زوج أم الأنثى الملوكية حتشبسوت ، وذهب اليها (الى الأم) فوراً ، ثم ضاجعها ماشاء له الفعل معها . وبعدئذ أخبرها أنه وضع في جسدها «ابنته» ، التي أطلق هو عليها اسم «حتشبسوت» . وكان ما كان من مجيء هذه الأخيرة إلى السلطة العليا وتجسيدها ، في شخصها وبدورها ، الملك والمالك والرب (الكاهن) .

ذلك ما كان على الصعيد الاسطوري المصري القديم ، حيث برز المخلص (الملك) انشى ، وليس ذكراً . لكننا على صعيد السدين الجديد (المسيحية اليسوعية) ، الذي تبلور في اطار علاقات اجتماعية طبقية مخترقة من النمط المشاعى القروي والعبودي ، نواجه الاله الأعظم وقد تجسم بشخص «الروح القدس» ،

نازلاً إلى مريم مثل حمامة - بتعبير يسوع المسيح المشوي - وعاقداً معها صلة الزوجية ، مضاجعاً إياها ما شاء له الفعل معها ، حتى أثمر يسوع الوليد . ومن الواضح من النص أن الإله الرب لم يختار مريم مصادفة^(١) ، وإنما فعل ذلك بسبب زوجها القدوسي الملوكي ، أي سليل داود الملك المقدس والذي - من ثم - يستطيع أن يتصل بالرب نفسه عبر ملاكه ، أي ملاك الرب^(٢) . وفي هذا ، ولاشك ، إضاعة نافذة وعميقة ، وإن بتضمين وترميز ، على أمرين اثنين خطيرين . الأمر الأول يتمثل بوحدة السلطة الدينية (الروحانية) بالسلطة المدنية (وحدة الكاهن بالملك) ؛ بينما يفصح الأمر الثاني عن نفسه بوضعية ارتداد دور المرأة (الأنثى) إلى وراء لصالح الرجل (الذكر) ، مما يدخلنا - مباشرة وبوضوح - في عالم الرجولة الطبقي ، مُنبِئاً عن انحسار عالم الأمومة (الانوثة) ذي النمط الانتاجي المشاعي القروي في الشرق العربي القديم .

(١) حتى على صعيد «الأمهات - الإناث» كان هنالك «منافسة» ، بحيث يمكن القول انه لم يكن من السهل ان تصبح «مريم» الأم «الأولى» بلا منازع ولا منافس . فقد كان عليها أن تدخل غمار معارك طويلة مع مجموعة من الأمهات لكي يتسنى لها ، في نهاية المطاف ، أن تحرز الظفر في الهيمنة الأمومية . ففي «السباق للاستيلاء على دور الأم» ، كان هناك على الأقل خمس طالبات هن اللواتي تقدمن إلى ذلك . وهذه كانت ايزيس المصرية وسيبيل الفريجية وارطيميس الأفسية وديمترا الاليوزينية وآلهة متجسدة في مريم ، زوج النجار الجليلي . وقد كسبت مريم السباق إذ اتخذت شخصية ايزيس التهلينة وصورتها وصفاتها . (ارنولد توينبي : تاريخ البشرية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٨٩) .

(٢) يعلن لوقا الانجيلي ومتى الانجيلي أن «يوسف» هو ، «حقاً» ، ذونسب قُدسي ملوكي : «وصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داوود التي تدعى بيت لحم لأنه كان من بيت داود ومن عشيرته» . (الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ٢/٤) .

«وإذا كان يوسف رجلاً صديقاً ولم يرد أن يشهرها هم بتخليتها سراً . وفيما هو متفكر في ذلك إذا بملاك الرب تراءى له في الحلم قائلاً يا يوسف ابن داود لا تخف ان تأخذ امرأتك مريم فان المولود فيها انما هو من الروح القدس . . . قلما نهض يوسف من النوم صنع كما أمره ملاك الرب فأخذ امرأته ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر وسماه يسوع» . (الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٩/٢ - ٢٠ ، ٢٤ - ٢٥) .

وجدير بالذكر أن الصيغة الذهنية للتوحيد بين السلطة السياسية والاجتماعية الاقتصادية من طرف والعقيدية الدينية من طرف آخر ، استطاعت ان تغطي - ضمن الحدود النسبية للخصوصية - حالتين اجتماعيتين مشخصتين كان لهما وجود متباين الهيمنة والشمول في إطار الامبراطورية الرومانية . الحالة الأولى تمثلت بالعلاقات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية في كنعان ، وفلسطين من ضمنها خصوصاً ؛ أما الحالة الثانية فقد ظهرت واضحة وناضجة مع تعاظم أزمة المجتمع العبودي الروماني واحتضاره ، ومن ثم نشوء العلاقات الاجتماعية الاقتصادية الجديدة ، الاقطاعية . وإتة لمن الطرافة البنيوية والوظيفية أن تقوم فكرة دينية أو تصور ديني بتغطية وضعيتين مختلفتين متمايزتين على مختلف الصعد . والحق ، ان طرح القضية على هذا النحو ، الخاص في إشكاليته المعقدة والمركبة ، يمكن أن يخلق أوهاماً حول نمط أو انماط العلاقة بين الفكر والواقع ؛ إذ يمكن لذلك أن يوحي بالظن بانفلات الأول من الثاني بطريقة لا تاريخية ولا تراثية ، بحيث يغدو بإمكان فكرة أو أخرى أن تهيم فوق العلاقات الاجتماعية المشخصة ، وتتحول - من ثم - إلى موقع ممارسة أدوار كثيرة كثرة ما يوازيها - دون أن يتشابك معها - من علاقات اجتماعية إنسانية .

ولعلنا نشير ، في هذا السياق ، فقط إلى احتمالات الاحاطة العميقة بهذه القضية ، إذ نعلن أن ما نطلق عليه قاعدة «الاختيار التاريخي التراثي» يمكن أن يقود إلى فهم أولي أو افتراض أولي مدعم لما نحن في سبيل تقصيه (وقد كنا قد أتينا لماماً وعلى نحو متناثر على هذه القاعدة في مواضع سابقة من هذا الكتاب)^(١) . ويكفي القول بأن أحد جوانب تلك القاعدة الثلاثة ، وهو «الاستلهام التراثي» ، من شأنه أن يضيء العلاقة بين «الحدث الاجتماعي» ، في تحوله إلى «حدث تاريخي» ، من طرف ، وبين ما يستتبعه من أفكار وتصورات يتسقطها أو يجدها أمامه على نحو تلقائي أو تتكون في سياقه هو نفسه ، من طرف آخر . ان استلهام هذه الفكرة أو تلك من هذا المصدر أو ذاك ، يجعل من الممكن أن تُمدُّ الأيدي باتجاهات متنوعة ومتعددة ، بحيث تتمكن فكرة واحدة أن تمارس وظائف متعددة ضمن وضعيات

(١) انظر ذلك مفصلاً في كتابنا : الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً .

متعددة ، ولكن بعد أن يُعاد بناء الموقف وفق احتياجات هذه الوضعية الواقعية المشخصة أو تلك . وإذا كان الأمر على هذا النحو وضمن ذلك السياق الجدلي ، فإن آلية العلاقة بين الحاكم والمالك في المنطقة الكنعانية الفلسطينية ، القائمة ، في اتجاه رئيسي لها ، على غمط انتاجي مشاعي قروي ، كان عليها أن تواجه عملية استيرطاف جديدة تتبع لها أن تبرز فاعلة ، بدرجة أو أخرى ، في الوضعية المستجدة ، أي في روما المتجهة صوب العلاقات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية الاقطاعية ؛ حيث يظهر الاقطاعي - مجدداً - مالكا وحاكماً ، وكذلك كاهناً ، وإن على نحو غير مباشر ومتوسط . (وهذا الأمر وحده جدير ببحث موسع يستكشف أبعاده وآفاقه واحتمالاته في مراحل تاريخية متتالية) .

أخيراً ، تبرز المسألة الثالثة ؛ وهي - عموماً - تلك التي يمكن أن نعتبرها بمثابة تحصيل حاصل عن المسألتين الأولىين . ان الفكرة المركزية ، هاهنا ، تكمن في ان «الخلاص» هو كذلك ، أي خلاص ، بقدر ما يكون متلاحماً بعمق وشمول بفعل الجنس الكوني ، وبقدر ما يتصل ويقترب ، من ثم ، بالفعل السياسي الاجتماعي النشط اتصالاً واقتراحاً تضافياً . وبمكنا أن نصوغ المسألة من موقع «الفعل» فنقول ، ان المخلص هو ، بالضبط ، مخلص لأنه مُشبع بالجنس حتى الرواء وحتى الأعماق ، ونافذ فعال في الوضعيات السياسية الاجتماعية حتى الهيمنة والسيادة المطلقتين . أولعلنا نقول ، ان هذا المخلص هو ما هو عليه لأنه الفحل الأعظم ، الذي يمثل - في حال ممارسته الخلاص - ناظماً مشتركاً بين كل أشكال الفعل الانساني الكوني المثمر .

ذلك «الثالث» ذو الطاقة العظمى والسيادة الشاملة هو ذو طبيعة ذكرية . وبين أن هذا الأمر يمثل وجهاً من أوجه الإشكالية المركبة وذات الذبول التاريخية التراثية العميقة في المجتمع الطبقي ، على نحو العموم ، وفي نسقه الكنعاني (الفلسطيني) والروماني بصورة خاصة . أما ما نعينه بذلك فهو أن سيادة العلاقات الطبقية كانت - بأحد اعتباراتها الذي هو الجنسي - أيضاً سيادة للرجل (الذكر) ، أو بصيغة أدق ، سيادة لنمط محدد من الرجل ، هو المالك لوسائل الانتاج الاجتماعي . ومن هنا ، كان الحديث عن «الجنس» يحمل دلالة ذكرية بيولوجية (اجتماعية) .

واضحة المعالم وهامة الأفاق البنيوية والوظيفية . فتمجيد الفعل الاعجازي المجدد بحمل مريم العذراء بيسوع ، أي مريم التي لم تعرف الرجل عيناً ، ان ذلك هو ، من حيث الأساس والأصل ، تمجيد لحصيلته المنبعثة عنه بضرورة تجوزية ؛ وليس مقصوداً بذاته ولذاته . وبصيغة أخرى نقول ، ان الفعل المذكور خطير وهام بما هو فعل يؤدي إلى يسوع المسيح ، تحديداً وحصرأً وتخصيصاً . ولكن بعد إذ حدث الأمر وجاء ابن الرب الوليد من «البطن الرباني» ، فإن الفعل الاعجازي انفصل نسبياً عن غايته تلك وعن بواعثه الأولى المباشرة ، وتحول إلى ركن كبير من أركان الأدلة التي تقدمها اليسوعية الانجيلية على أنها الحقيقة الالهية المطلقة . وحيث يكون الأمر على هذا النحو ، فإن هذه اليسوعية تقدم نفسها ، أولاً بأول ، من حيث هي الحدث الكوني الأعظم ، الذي لا وجود لأي حدث آخر إلا عبر علاقة تقوم بينه وبين ذاك على سبيل السلب أو الايجاب ، وبشكل يرتد فيه مغزى هذا الحدث «الآخر» إلى موقع ما له من ذاك .

وجدير بالتبصر والتمعن تلك «الحصيلة المقدسة» ، التي أتت تنويعاً للفعل الاعجازي . ان يسوع المسيح ، الوليد المعجز ، هو الذكر الأعظم فعلاً ونظراً ، ذلك الذكر الذي تناطبه المهمة العظمى التي ما بعدها مهمة : تخلص العالم من ذاته الخاطئة ، وبناءؤه على أسس جديدة كلياً من شأنها أن تكونه تكويناً ذاتياً جديداً . وإذا كان من الممكن - في المنظور اليسوعي الانجيلي - أن يخلص الذكور من الخطيئة الأصلية التي تجسدت بـ «الأنثى» بأن يدخل المرء - بطوعية وإقدام - في عالم البتولية ، فكيف يمكن لتلك «الأنثى» أن تخلص وهي نفسها ، في ذات الوقت ، عنوان الخطيئة ؟ هل عليها ، من أجل ذلك ، أن تستنكف عن الحياة العادية ، بما تتضمنه من علاقات جنسية وغيرها ، فيدخل الزمن في حال من اللافعل ؟ وإذا كان الأمر على هذا النحو ، أيجز - بعدئذ - التحدث عن خلاص ومخلص ؟ بلى ! ذلك لأن «يوم الملكوت» هو هذا «اللافعل» المستديم ذاته باتجاه الغبطة الجوانية المخترقة من كل ما لا يتصل بـ «هذا العالم»^(١) .

(١) ان ذكرية الثالث المعنية ، هنا ، نستطيع أن نتيبها ، بوضوح ، في كثير من النصوص الانجيلية ، التي تتحدث عن وضعية «اللافعل» هذه والتي أسهمت بقوة في تكوين الاتجاهات الصوفية التزهدية في المسيحية . وإذا غرضنا النظر عن التزوع الذكري الطهراني ، الذي ظهر

ان «الجنس الذكري» يبرز ، والحال كذلك ، بمثابته المحرقة العظمى التي تمر بها كل الأشكال الوجودية . ولذلك ، نلاحظ أن لوقا الانجيلي احتفظ بما كان مأخوذاً به في «ناموس الرب» على هذا الصعيد ، ليجعل منه مطلباً مستديماً وغاية

= في أرساط الإسينيين ، بواكير المسيحية اليسوعية ، فاننا نواجهه (التزوع) موجوداً، كذلك ، في المراحل اللاحقة من هذا الدين . فسلوك يسوع ، كما يقدمه يوحنا في انجيله ، والتعاليم التي يطرحها بولس بمثابته «المسيحية القديمة» ، ان هذا وذاك يُبرزان «الذكورة» ليس فقط بمثابته نسيج «الثالوث المقدس» ، وانما كذلك من حيث هو اسلوب حياتي عائلي وأخلاقي . فعلى الرغم من قداسة «الأم» ، أم الرب تخصيصاً ، فإن هذا لم يكن ليوليها من الأهمية ما يضعها على قدم المساواة مع «الاخوة - الآباء» المؤمنين . النص الانجيلي يقدم لنا هذا الموقف ببلاغة :

«وفرغت الخمر فقالت أم يسوع له ليس عندهم خمر . فقال لها يسوع مالي ولك يا امرأة لم تأت ساعتي بعد» . (الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس يوحنا ٣ / ٤ - ٤) .

والطريف أن مفسري «الكتاب المقدس» يوضحون ذلك التزوع الذكري على نحو أكثر تكريراً و«جذرية» . فهم ينطلقون من الموقف اللاهوتي ، حيث يكتبون شرحاً لتلك الآية المتصلة بـ «الأم» : «ان اعمال المسيح كانت على ضربين ، أحدهما ما كان يفعله من الأعمال الالهية بما أنه الله وابن الله وذلك على نحو خلق الكائنات وحفظها واجتماعه مع الأب في بئق الروح القدس والثاني ما كان يصنعه من الأعمال البشرية من حيث كان انساناً مولوداً من مريم العذراء . . . نقول إنه كان في افعاله البشرية خاضعاً لأبويه عملاً بالشرعة المسنونة للبشر فيما يتعلق بطاعة الوالدين واکرامهما وأما في أعماله الأخرى أي الالهية والانسانية معاً فلم يكن خاضعاً إلا لأبيه الأب الأزلي لأنه قال انه ينبغي لي أن اكون فيما هو لأبي» . (حواشٍ على المجلد الثالث من الكتاب المقدس - انجيل القدّيس يوحنا ، ص ٤٧٩ - ٤٨٠) .

أما النص الثاني فهو لبولس . هاهنا ، يجري الحديث عن «البتولية» من موقع الحث عليها وتشجيع الأخذ بها . يقول بولس :

«وأما البتولية فليس عندي فيها وصية من الرب ولكني أفيدكم فيها مشورة بما أن الرب رحمني أن اكون اميناً . فأظن أن هذا حسن لأجل الضرورة الحاضرة انه حسن ان يكون الانسان هكذا . . . فأقول هذا أيها الاخوة ان الزمان قصير فبقي أن يكون الذين لهم نساء كأنهم لا نساء لهم . . . فإن الغير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضي الرب» ؛ لذلك «فحسن للرجل ان لا يس امرأته» . (رسالة القدّيس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس وضمن : الكتاب المقدس ٧ / ٢٥ - ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ١) .

كبيرة أمام «الأمم» ؛ لقد احتفظ بالمبدأ الكبير : كلُّ فاتح رحم مقدسٌ ، لأنه ينطوي على القداسة بذاته من حيث هو ذكر ، ولأنه مقدس بالقياس إلى ما ليس هو مقدساً . فهو - بصفته ذكراً - فاعل ؛ في حين أن المفتوحة - بصفتها أنثى - منفعة :

ولما تمت ثمانية أيام ليختن الصبي سمى يسوع كما سماه الملاك قبل أن يُجبل به في البطن . ولما تمت أيام التطهير بحسب ناموس موسى صعدا به إلى أورشليم ليقدماه للرب . على حسب ما كتب في ناموس الرب من أن كل ذكر فاتح رحم يدعى مقدساً للرب»^(١) .

وجدير بالاهتمام الخاص ما نلاحظه ، على هذا الصعيد الشديد الطرافة واللامباشرة ، من اقتران واضح ومفصح عنه بين فعلين اثنين أساسيين في كل الموروث الديني الطقوسي اليهودي (اليهوي) ، وجزئياً في الموروث الديني الطقوسي المسيحي اليسوعي . الفعل الأول يتمثل بـ «الختان» ؛ أما الفعل الثاني فيتجسد بـ «الاغتسال بالماء» أو «التطهر» (ونلاحظ ، هنا ، دقة الدلالة التي ينطوي عليها فعل الختان لدى الاسلام لاحقاً حيث يدعى ذاك لدى هذا الأخير «الطهور») . ان المسيحية اليسوعية لم ترفض هذين الفعلين عموماً ، بقدر ما عملت حثيثاً على إعادة النظر فيهما بنيوياً ووظيفياً ، وذلك وفق معطيات مستجدة كان عليها أن تستجيب لها ، بصورة أو بأخرى وبدرجة أو أخرى . اما هذه المعطيات فقد تبلورت واتضحت عبر الوصول إلى «فداء الكفاية» من موقع «فداء العين» وبالتعارض معه وتجاوزه أولاً ؛ ومن خلال تحويل وظيفتي «الختان» و «الاغتسال» باتجاه روحي داخلي «جواني» ثانياً ، هذا الاتجاه الذي يرى في الأول (اي الختان) ختانياً للقلب والروح ، مطرحاً - على هذه الطريق - التصور الطقوسي الشكلي المنطلق من أن الختان باللحم (القلقة) ، كما يرى في الثاني تعميماً بالروح لا بالماء .

ومما يدخل في صلب الموقف إياه والذي نحن بصدد البحث فيه أن نشير إلى أن التمايز النوعي الذي يشدّد عليه بين آدم (الأول) وآدم (الثاني ، أي يسوع) ، يقود إلى

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس لوقا ٢ / ٢١ - ٢٣

دائرة «الخلاص» بالمعنى الكوني الحيوي (الجنسي) . إن ذلك التمايز يقسوم ،
بالأساس ، على أن آدم الأول (زوج حواء) خضع «للخطيئة» بالرغم من أن محيطه
الكوني كان «صالحاً» ، في حين أن آدم الثاني ، يسوع ، ظل صالحاً (طاهراً) رغم
محيطه المترع بـ «الرجاسة» ؛ إضافة الى ذلك ، فإن يسوع المسيح هو وحده القادر
على مقارعة هذا المحيط الأخير والتغلب عليه عبر تجاوزه من خلال التمكين لمحيط
«الملكوت»^(١) . هاهنا ، يتكشف المدلول الكوني (والسياسي الاجتماعي من طرف
خفي) لخلاصية يسوع المسيح وانجازاتها وآفاقها الكبرى : إنه يتجاوز (يجب) كل
ما سبقه ، وما يلحقه . أما أنه يتجاوز ما سبقه ، فلأن هذا الأخير مرتع الخطيئة ؛
وأما أن يتجاوز ما يلحقه ، فلأن هذا الأخير ينعدم مع وجوده (يسوع) .

وهذا يضعنا أمام تصوريّ الفداء والخلاص (وضمناً الختان الروحي) وقد
عُدوا وضعيتين جنسيتين مقدّمتين بصيغ روحية مرمّزة ومضمّنة ، أي على نحو
متوسّط يُقصد منه إحالة الموقف الأصلي إلى حالة من التصعيد الروحي والاكتفاء

(١) يعبر أحد الفُلس عن وضعية التمايز هذه بين «الأدمنين» على النحو الأدبي اللاهوتي التالي :
«تعالوا معي الى بستان عدن . انظروا الأشجار الخضراء البديعة وهي تتمايل اعجاباً كلما هزتها
الرياح . اني اسمع العصافير تنشد فوقها انشودة الحياة الجميلة . . . اني ارى آدم جالساً تحت
ظلال شجر الياسمين مع حوّاته ، انني احسبك يا آدم على هذا الوسط الجميل . لك ما يريد
وجدانك من آمال . . . وكل ما يطلبه جسدك من طعام . فرحك كثير وحزنك قليل . . . عفواً
ياقوم لقد أخطأت إذ حسدت آدم على ذلك الوسط الجميل لأن ذلك الوسط البديع لم يحفظ آدم
طاهراً بل في ذلك الوسط الجميل ارتكب آدم خطيئته القبيحة . . . انتقلوا معي من هذا المنظر لكي
نرى معاً صورة آدم آخر أفضل من آدم الأول بكثير . . . تأملوه وهو يحافظ بأشرف وسط في كل
الأجيال . . . هذا هو سيدي وفادي يسوع . . . عجباً ! عجباً ! عاش آدم في وسط حسن فسقط
وغوى وهوى . وعاش المسيح في وسط جبل اعوج ملتو فكان حياة وأحيا . . . (ينبغي ان تولدوا
من فوق) . (الذي من فوق هو فوق الجميع) . . . من هو هذا الشخص الروحي الغير المنظور
المحيط بنا ؟ فأجيئكم بلغة أحد شعراء اليهود الملهمين (جعلت الرب أمامي في كل حين انه عن
يمينى فلا اتزعزع) . وبلغه رسول الأمم (هو الله الذي نحيا ونتحرك ونوجد الذي عن كل واحد
منا ليس بعيداً) . (القس ابراهيم سعيد بيني مزار : هل تغير البيئة يمنع الخطيئة - القاه باجتماع
فرقة الشرف المصرية بالمنيا ، طبعة أولى ١٩٢٢ ، مطبعة النيل المسيحية ، مصر ، ص ١٥ ،
١٦ ، ١٧) .

الذاتي المقنّع . وهنا ، نواجه الواقع المشخص وقد انقشع لصالح عالم مجرد يستمد مشروعيته ومصادقيته من أنه يجسد رغبات خلاصية دفينّة من عالم مفعم بالبؤس والمهانة .

لندقق في ذلك الأمر المركّب عبر تلك الصور الثرة النافذة والأخاذة إيهاماً ، تلك الصور التي تبرز فيها الذات بالموضوع امتزاجاً يجعل من الأولى ما هي عليه ، أي ذاتاً ، إنما من موقع كونها ذات موضوعها وذات ذاتها ، في آن واحد وبمستوى واحد . هاهنا ، يعلن عن نفسه ذلك الطقّس المقدّس ، الذي يعود بتاريخه الى عهود قديمة عريقة تصل الى المجتمعات البدائية ؛ ذلك هو «العشاء المقدّس» أو «الأفخارستيا»^(١) . ولعل هذا الطقّس يجسد تصور الوجود الخلاصي الشامل والعمومي ليسوع المسيح . ذلك لأن هذا الأخير قبل أن «يصلب ويرفع» ، كان يجد أن إحدى مهماته القصوى تكمن في تعميم وتشميل شخصه الخلاصي ، حيث يغدو عاماً وخاصاً ، كلاً وجزءاً ؛ لأن من شأن ذلك أن يخلق نسيجاً بشرياً موحداً يكون ، لاحقاً ، قادراً على الدخول في عالم الملكوت والالتحام به ، بمعنى ما جزئي . عن هذا الطقّس الاسراري يحدثنا لوقا الانجيلي باللغة التي تنقلنا الى «العهد الجديد» مضمخاً إياه بدم الرب القاني ، ومخصّباً بجسده نسيج الوجود الكلي . يقول لوقا :

«فقال لهم لقد اشتهيت شهوة أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أنال . فلاني أقول لكم اني لا آكله بعد حتى يتم في ملكوت الله . ثم تناول كأساً وشكر وقال خذوا فاقسموا بينكم . فلاني أقول لكم اني لا أشرب من عصير الكرمة حتى يأتي ملكوت الله . وأخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً هذا هو جسدي الذي يبذل لأجلكم . اصنعوا هذا لذكري . وكذلك الكأس من بعد

(١) انظر في ذلك : عصام الدين حنفي ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٧ : «ويعتقد أن العشاء الرباني نشأ من أكلة عامة كانت تقيمها المجتمعات البدائية وكان لها فيهم أثر كأثر السحر . كانت القبيلة كلها تشترك في ذبح طوطمها الحيواني وأكل لحمه على النحو الذي تقتضيه إياه اصطلاحات سر القربان . وقد حلت المدنية مشكلة توفير الغذاء للجانب اليسور من المجتمع على الأقل ، فهان بذلك شأن هذا العشاء المشترك . ومع ذلك فإن المجامع المسيحية ما تزال تبدأ تناوله بتقديم الحمد والشكر eucharista » .

العشاء قائلاً هذه هي الكأسُ العهدُ الجديدُ بدمي الذي يسفك من أجلكم^(١) .

ان لوقا يقدم لنا المخلص وقد أدرك (أي المخلص) أنه على قاب قوسين أو أدنى من «التجربة» العظمى التي سيمر بها ، وهي «تجربة التألم الأقصى على الصليب» . وإن هذه التجربة تظهر كما لو أنها ضريبة الخلاص ؛ بيد أن ذلك القول ليس دقيقاً تماماً . فيسوع يقدم نفسه ، بطواعية ، لتلك التجربة . فهو يعلم حق العلم أنه ، من أجل إنفاذ مهمة الخلاص الأعظم ، لا بد وأن يُعاش - قبل ذلك - ما هو نقيض الخلاص حتى الشئالة . فهو - والحال كذلك - عمل طوعي كل الطوعية وحر كل الحرية من شأنه أن يقود إلى عالم الملكوت ، «عالم الحرية والسعادة والسكينة» . وجدير بنا أن نلقي الضوء على ذلك الشرط الوجودي الذي يحدده يسوع المسيح إذ يعلن ان «دمه وجسده» هما الطريق الحق إلى عالم الملكوت . ومن ثم ، فإن أولئك فقط الذين يشربون من دمه ويأكلون من جسده ، هم الذين يحق لهم ، بجدارة وأسبقية ، ان يمتلكوا معابر الحياة الجديدة الملكوتية .

لقد مثل يسوع المسيح على جسده بـ «الخبز» وعلى دمه بـ «الخمر» ، بحيث يغدو هذا وذاك رمزين كبيرين للمخلص نفسه . وهذا ، من طرفه ، يضعنا وجهاً لوجه أمام نزعة إحيائية من شأنها التأكيد على أن الكون برمته مخترق يسوعياً مسيحياً ، بحيث يكون جسد يسوع المسيح لحمة هذا الكون ودمه سداه . لكن هذا الكون هو بمتناول أولئك القديسين فحسب ، الذين يطمحون الى الحياة الابدية وينفقون حيواتهم في سبيل ذلك . ان يوحنا الانجيلي يعلن ذلك بوضوح على لسان «المعلم» ، أي الذي يجسد الكون علماً وكلمة وحقيقة :

«من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية وأنا أقيمُه في اليوم الأخير . لأن جسدي هو ماأكل حقيقي ودمي هو مشرب حقيقي»^(٢) . أما السبب الكامن وراء ذلك ، فهو أنني «أنا خبز الحياة»^(٣) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ٢٢ / ١٥ - ٢٠ .

(٢) انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس يوحنا ٦ / ٥٥ - ٥٦ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيانه ٦ / ٣٥ .

ان «الآكل» و«الخبز» و«البركة» و«كسر الخبز» ، ان ذلك ، جيعاً ومجتمعا ، يمثل «الجسد المقدس» ، بقدر ما يمثل الشراب دمه . أما ما يجمع بين الأمرين فهو ما لا يستطيع أحد آخر غير يسوع المسيح ان يعد به وأن ينجزه كلاً وتاماً . إنه الفداء الكلي ، «فداء الكفاية» ، الذي يحتوي الجميع بين يديه الجبارتين الناعميتين ، في أن ، ويلفهم بنعمته وفضائله ومحبه . وجدير بالتنبه إلى أن يسوع المسيح يستخدم ، في «انجيله» وبمناسبات معينة ، صيغة المخاطب حين يجد نفسه مدعواً إلى منح كلامه قدرة على النفاذ المباشر والتأثير «الذاتي» العميق . أما صيغة الغائب فنلاحظ وجودها في الحالات التي لعله يقصد فيها التركيز على السمة الكونية الشمولية التي يجسدها في شخصه ، ومن ثم على الهيمنة التامة باتجاه «الجهات الأربع» وما بينها وما فوقها وما دونها ، وباتجاه «الأزمة الثلاثة» وما بينها وما فوقها وما دونها . نطالع ذلك لدى مرقس الانجيلي ، حيث يعلن «المعلم» :

«هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يهراق عن كثيرين»^(١) .

ومن البين أن يسوع المسيح إذ يتحول إلى «جسد» يرمز إلى الخبز ، وإلى «دم» يرمز إلى الخمر ، فإنه يكون قد الح الحاحاً مكثفاً على ناسوتيته ، ومن ثم على أن ابن الإله (والإله ايضاً) يجري على الأرض مع الناس ، كما يهيم في الأكوان الأخرى (السموات) مثل الالهة . ان هذه اللحظة الانسانية المكثفة في يسوع المسيح ، الاله الإنساني ، هي التي أثارت اهتمام مارتن لوتر بالمسيحية اليسوعية على نحو عام ، حيث كتب بفرح غامر : «كم كان تكريم سيدنا الرب لنا عالياً ، إذ جعل ابنه يتحول انساناً!»^(٢) . وقد قاد لوتر هذه الفكرة إلى نهايتها المسيحية العقيدية القصوى ، حيث اعلن ان جسد المسيح ، كالخبز ، يؤكل ويُقسم ويؤثر وبشير العذاب والشجون في النفوس «النقية» : «ذلك هو رأينا ، على نحو كلي ، أن يؤكل جسد المسيح حقاً في الخبز ومع الخبز ، وأن يكون كل ما يحدثه الخبز وما يتعذب منه هو ما يتعذب منه المسيح وما يحدثه من تأثير ، أي أن يُقسم وان يؤكل وأن يُقطع بالأسنان»^(٣) . انطلاقاً من هذا الموقع «القدسي الكوني الإخصابي» ،

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس مرقس ٤/١١ ، ١٤ .

(2) In: Ludwig Feuerbach- Das Wesen des Christentums, zweiter Band, a.a. O., S. 446.

(٣) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

يشتق لودفيج فويرباخ الفكرة الهامة التالية على صعيد البناء المسيحي اليسوعي عامة : «واذن ، اذا كان الاله يؤكل ويشرب ، فإن الاكل والشرب يُعلنان بمثابتهما عملية إلهية . وهذا ما تقوله الاخارستيا (العشاء الرباني)»^(١) .

ان ذلك كله يجعلنا ، حيث ندركه على نحو جدي تضافي ، ننظر الى الوحدة القائمة بين الفعل الخلاصي والفعل الجنسي والفعل السياسي على أنها تجسيد مكثف ، ولكن مضمّن مرّمز ، لـ «الفعل الأمر» ، الذي يتمثل - بدوره وعلى نحو قطعي وتام - بـ «فعل الكلمة» : في المبتدى وفي المنتهى يوجد الكلمة ، ولا شيء سوى الكلمة في فعله واستدامته وإطلاقته .

وقد سبق أن مر معنا ما أشرنا في ضوءه الى هذا الوجه من المسألة . بيد أننا ، الآن ، في معرض ملاحظة خصوصية تلك الوحدة من الداخل . وحيث يكون الأمر ضمن هذا المستوى من التخصيص ، فإننا نكون قد غدونا وجهاً لوجه أمام أمثال الموقف اليسوعي التالي ، الذي يخاطب فيه حواريه وأنصاره الخالص ، أي أولئك الذين أودع الرب الاله بعض أسرار ملكوته في افئدتهم ، بحيث يكونون في الحالة التي تتيح لهم أن يكونوا أولئك «الحواريين والأنصار» :

«انتم قد اعطيتم معرفة سر ملكوت الله وأما أولئك الذين من خارج فكل شيء لهم بأمثال . . . الزارع يزرع الكلمة . والذين على الطريق حيث تزرع الكلمة هم الذين في حال سماعهم يحجبهم الشيطان ويذهب بالكلمة المزروعة في قلوبهم»^(٢) .

هاهنا ، نتبين فئتين متقابلتين من التصورات اليسوعية المركزية ؛ الأولى تتمثل بـ «الزرع» و «الكلمة» ، بينما تتجسد الثانية بـ «القحط» و «الشيطان» . وظاهر من واقع الحال هذا أن تصوريّ الفئة الأولى يتكاملان ويتتامان ، مفصحين عن أن الواحد منهما يشير الى الآخر ويعلن عنه ضمناً وضرورة وصرّاحاً ؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى تصوريّ الفئة الثانية . وقد ظهر لنا من خلال البحث في الذهنية الشرقية (العربية) القديمة أن ذلك التماثل بين طرفي الفئة (أو الوضعية) الواحدة يقوم -

(١) نفس المرجع السابق ومعانيه - ص ٥٢٦ .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس مرقس ٤ / ١١ ، ١٤ .

أساساً - على ثنائية قطبية ، ترتد ، في نهاية المطاف ، إلى وحدة ذات وجهين . أما هذان الأخيران فهما «الخير» و«الشر» ، «الخصب» و«القحط» ، «الاله الرب» و«الشیطان أو إبليس» الخ . . . ولا بد من القول ، في هذا المعقد المنهجي الهام ، بأن تلك «الوحدة» بين الوجهين المذكورين هي وحدة على سبيل التضايف وليس على سبيل الاندغام . فهما وجهان الواحد منهما مشروط بالآخر إقراراً بالوجود وبالتمايز والتناقض ، ولكن كذلك بالتعارض الوجودي (الانطولوجي) والقيمي الأخلاقي .

هكذا ، تبرز مسألة الوحدة الجدلية (التضايفية) بين الخلاص والجنس الكوني والفعل السياسي من حيث هي مسألة الثالث الفاعل سياسياً والنشط سياسياً والمبدع سياسياً . ومن ثم وعلى نحو مركز ، تظهر السياسة ، هنا ، مقولة قصوى للفعل اليسوعي المسيحي . وهي إذ كانت كذلك ، فإنها تمثل دعوة «حميمة» وشاملة لجميع المسيحيين إلى الفعل «الحميمي» ، الذي يجعل منهم بررة ، ويدخلهم في ملكوت الله . ولا بد من التنويه - على هذا الصعيد من المسألة المعنية - بأن ذلك «الفعل» ليس هو ، بذاته ، الذي يحدث الملكوت إياه . ان الملكوت يحدث ملكوتياً ربانياً ، أي من موقع الملكوت نفسه وباتجاهه هو نفسه وضمن غاياته القرينة والبعيدة . وقد عرفنا ، في مكان آخر سابق ، أن قدوم الملكوت الرباني لا يمكن حتى توقعه ، من بعيد أو قريب ؛ إضافة إلى استحالة معرفة كنهه «من خارج» ، أي مما ليس هو وما لا يشير إليه ولا يدل عليه ولا يقود إليه . وبين أن هذا ، من طرفه ، يعلن عن أن الفعل السياسي - في تمظهره وتجليه الانسانيين - يظل يمتلك فسحة رحبة من التحفظ والحذر حيال الدمج الكامل والمطلق بين الانسان من طرف والعالم الالهي من طرف آخر . ان هذا القول صحيح حتى في حال أخذنا بعين الاعتبار تصور وحدة الناسوت باللاهوت ، تلك الوحدة التي لا تتجاوز يسوع المسيح ولا تخرج من حجّره وعن دائرته ، أي التي هي وحدة يسوع المسيح الناسوتي بيسوع المسيح اللاهوتي . أما ما عدى ذلك ، أي ما يتصل بالناس جميعاً وبالعلاقات الاجتماعية والسياسية المشخصة ، فإنه ليس من الصحيح أن يجمع بينهم وبين ذلك اليسوع المسيح ، أو بتجليه المذكورين . إذ أن من شأن ذلك أن يقود إلى اضطراب الوضعية الكونية ، فيجعل من الشيء نقيضه ؛ وهذا خُلف : مرة أخرى تظهر الوحدة بين المتعارضات وحدة تضايف وليس اندغاماً .

إن ما يهمنا من ذلك وما يلفت انتباهنا فيه يكمن في أن النزوع الديمقراطي (اليسوعي المسيحي) يتوقف عند تلك الحدود المقدرة ، ليتحول العمل السياسي الاجتماعي ، من طرفه ، إلى شأن من شؤون من ينتمي إلى النخبة الدينية بشكل أو بآخر ، ويتصل - من ثم - بروح يسوع وعالمه ؛ نقصد بذلك «جسده المقدس» ، الذي أعلن ، من طرف واحد ، أنه هو الكنيسة ، أي المؤسسة القائمة على الصعيد الديني (والسياسي كذلك ، وإن على نحو غير مفصّل عنه دائماً) . فالقطع المطلق والتام بين المتعارضات كان من الممكن أن يحول بنوياً ووظيفياً ، بحيث أدى إلى اعتباره قطعاً بين «نخبة» و«سوقة» ، بين «علوية» و«سيفلة» . وهذا ما سيعني ، بدوره ، أن يسوع المسيح يغدو ، بواسطة «جسده» - الكنيسة - وعبره ، قادراً على الإحساس بكل ما يحيط به ، دون أن يكون «الآخرون» في الوضع الذي يسمح لهم بتلمس ذلك أو باكتشافه . وهنا ، نجد أنفسنا أمام تصور «العناية الإلهية» التي عليها أن تعني القدرة المطلقة ليسوع الرب على أن يحيط بالكون كلاً وجزءاً . ولكننا وإن استخدمنا هذا المصطلح الذي سيكون ضمن الترسنة الاصطلاحية في بعض أشكال الفكر الإسلامي العربي لاحقاً ، فإننا لا بد وأن نبدي بعض التحفظ على استخدامه في هذا السياق المسيحي اليسوعي . فهنا ، لا نواجه ما سنواجهه في ذلك الفكر تحت حد «الله المفارق العلوي» ، وإنما نلاحظ ميلاً باتجاه ذلك عبر التأكيد على الوظيفة العقيدية (الروحية) والسياسية (الدينيّة) للكنيسة . بتعبير آخر يمكن القول بأن الميل الكبير في المسيحية اليسوعية نحو تصور «الكون الواحد» عبر الناسوت واللاهوت - وإن لم يشمل «الوجه الشرير» القائم في الكون شمولاً ماموياً - حال دون الأخذ القطعي بذلك الحد ، أو على الأقل لم يسمح بالقول الصريح بثنائية بين «عالم الهي يسوعي» علوي مفارق و«عالم دنيوي مادي» مشاهد . ولكن ذلك القطع الأخلاقي القيمي بين «نخبة» و«سوقة» - الخ . . . من موقع التمييز بين الكنيسة بمثابرتها جسد المسيح وما يحيط بها ، يبرز ، كذلك ، في صيغة «المعجز» ، الذي أتينا على الحديث حوله في موضع سابق . إن هذا «المعجز» نستطيع أن نتبين بعض أبعاده في أمر حدث ليسوع ؛ وكان ذلك حيث وجد في مكان ازدحمت فيه جموع الناس حوله . وهذا «الحادث» يبرز لنا من حيث هو قاسم مشترك يجمع بين الإنجيليين مرقس ولوقا ، بحيث يصبح بمتسعا القول ، إن «يسوع

المسيحي النخبوي» ، الذي نطالع شخصيته هنا ، هو ذلك الذي تعرفنا اليه تحت
حد «يسوع المسيح الانجيلي أو النصي» ، وهذا لا يجمعه بذلك المسيح «الواقعي
التاريخي» ، الذي قضى نحبه دون أن يلفت نظر المؤرخين والكتبة والأعْلين ، إلا
الاسم والدلالات المتوسطة وغير المباشرة . ونستطيع أن نعمم ذلك على كل
الأنجيل القانونية وإن باختلاف بالدرجة والصيغ . ولذلك ، فإننا اذا ما انتقلنا من
«يسوع الواقعي التاريخي» الى «يسوع الانجيلي النصي» ، فإننا - بذلك - ننتقل من
عالم إلى آخر متميز عنه تميزاً ملحوظاً .

واذا كنا ، الآن ، في معرض البحث البنيوي والوظيفي لنصوص الانجيل
اللوقاوي ، فإننا نورد منها النص التالي ذا الأهمية البارزة على صعيد الموقف
النخبوي والاسراري القدسي ، في آن واحد . لقد حدث ان تراكضت جموع
الفقراء والمرضى والمفلوكين وراء يسوع المسيح ، طالبة منه التبرك والسباح لهم بأن
يلمسوه ويحملوا معهم ذكرى أبدية عنه . في هذه الأثناء التفت «المعلم» النفاتة
اندهاش وتساؤل ، وقال لأولئك ، وضمنهم «التلاميذ» :

« . . من لمسني . وإذا انكر جميعهم قال له بطرس والذين معه يا معلم أياكون
الجموع يضايقونك ويذحجونك وتقول من لمسني . فقال يسوع انه قد لمسني
واحد لأنني شعرت بأن قوة قد خرجت مني»^(١) .

ان ما يلفت ، في هذه «الحادثة» الإشكالية «الإعجازية» ، هو أن يكون
«المعلم» منطلقاً ومبتدئ الوجود ، بحيث يرى كل شيء ويحس بكل شيء ، دون أن
يكون ذلك متاحاً للآخرين . فتلك «القوة الحارقة» هي الطريق التي تقود إلى
الملكوت الالهي . ذلك لأنها (أي القوة) تمثل وضعية جاذبة هائلة لكل أولئك الذين
وهبوا أنفسهم للرب ، أي أولئك الذين

« . . . سيأتون من المشارق والمغارب والشمال والجنوب ويتكثرون في ملكوت

الله»^(٢) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا ٨ / ٤٥ - ٤٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ٢٩ / ١٣ .

ولابد من الإشارة إلى أن هؤلاء الآتين من كل أصواب الكون إذ يحسون بجاذبية تلك «القوة اليسوعية» الخارقة ، فانهم يفعلون ذلك إيماناً بالعهد «الجديد» وتصديقاً له وشاهداً عليه ؛ فهذا الأخير هو كذلك ، أي «جديد» ، لأنه - كما يتضح من مخاطبة الرب لأولئك - مضخ «بدمي» . . . الذي يسفك من أجلكم» . والدم إذا سفك ، فإنما يكون أعز وأقصى ما يقدم عربوناً على الفداء العظيم ، فداء الجميع «المثقلين بأعباء الحياة والمثقلين بالفواجع» . وجدير بالتنبه إلى أن «السفك» وإن انطوى على معنى مأساوي فاجعي أو على - المعنى المأساوي الفاجعي ، فإنه - من وجه آخر متمم - يجسد العطاء السخي . ومن ثم ، فإن جذّة العهد المعني من شأنها أن تلغي العهد العتيق أو الذي غدا متعاقباً وعبثاً على «خراف الأمم» الطامحة إلى الانعتاق من «كوابيس الذئاب» . وهنا ، بالضبط ، تتكشف أماننا تلك «اللغة الأسرة» التي يمتلك من خلالها «المعلم» قلوب «خرافه» ؛ إنها لغة «السحر» التي تكتشف ما لا يرى الآخرون منها سوى آثارها ونتائجها «الرائعة المطمئنة» .

لنلاحظ ، هنا ، تلك المسحة العميقة من العزاء المرع بـ «الأمل» ، الذي يقدمه يسوع المسيح اللوقاوي لأولئك المثقلين حتى الإعياء ، أولئك الذين سيتكثون ، أخيراً وأخيراً ، في ملكوت الله . ولكن هذه الملاحظة تفصح ، بعمق وشمول وأمل ، عن مشروعيتهما ومصداقيتهما حيث نضعها في سياق النظر إلى ذلك «العزاء» مضخاً بالدم المهرق ، أي بإعلان الثورة على العالم الذي غدا مفعماً بالظلم والجور والذي لم يعد ، من ثم ، حائزاً على الحد الأدنى من الشرعية الاجتماعية والتاريخية . وأخيراً ، إذا كانت هذه الثورة على ذلك النحو وضمن تلك التوجهات والأفاق ، فانها سوف تجد هدفها مركزاً شيئاً فشيئاً صوب «الداخل» ، الذي ستتاح له كل الامكانيات والطاقات لكي يظهر بمشابهته بديلاً مطلقاً أو البديل المطلق عن «الخارج» . ومن هذا الموقع ، فإن البديل المعني يشكل الدحض المطلق لنقيضه ، أي «الخارج» إياه . ولا ينبغي أن نعوض النظر عن طبيعة ذلك «الداخل - البديل» ، التي تكمن في أنه «تأملي روحي» ينطلق من مواقفه لينتهي بها وفيها . ومن ثم ، فهو بديل على عواهنه ، لا يتصل من قريب أو بعيد بالمشكلات التي يطرحها نقيضه . ولتقل بمزيد من الضبط والتدقيق ، ان «البديل» لا ينطلق مما وصل إليه نقيضه من استشكالية قصوى ، بقدر ما يعمل على نقض النقيض ، من حيث

هو وبما هو . انه لا يسأل عما فعله غريمه ، لكي يصحح ذلك الفعل أو ينقده أو ينقضه ، وإنما يضع «الغريم» نفسه على بساط البحث . وهذا ما كان عليه أن يجعل من «الداخل» و «الخارج» عنصرين مطلقين التضاد وشاملي التمايز . وفي هذه النقطة ، بالذات ، كمننت قوة اليسوعية المسيحية ، كما كمن ضعفتها ؛ قوتها التي تجلت في رفض عالم البؤس والامتهان والاذلال ، وضعفتها الذي ظهر في أنها أجابت على ذلك العالم المشخص بعالم من «طينة أخرى» تسود فيه «سعادة» ليست بالسعادة ، و «طمأنينة» ليست بالطمأنينة ، ومحبة ليست بالمحبة ..

ويبقى جماع القول وفصل المقال في أن الخصب ، خصب «الحياة الداخلية» و «الامتحان الداخلي» ، يعلن عن نفسه وقد غدا الحقيقة الأولى والأخيرة ، ومن ثم «الكلمة» الأولى والأخيرة . وحيث تكتسب المسألة هذا البعد الداخلي - الجواني يكون قد أعلن بالأحرف الكبرى : وعلى الأرض السلام ، وعلى الطبيعة السلام ! ان الأرض خصوصاً ، والطبيعة عموماً يتزاحان من عالم «المؤمن» ، بكل - ما ينطويان عليه من عبق كثيف يشد إلى المشخص والعيني والمعاش ، ليحل محلها أولاً وأخيراً «الأرض الجوانية» و «الطبيعة الجوانية» . وهذا ما يحمل على القول بأن يسوع المسيح اللوقاوي هو بمثابة التمرد في سبيل الفعل من الداخل ، حيث الدعة والطمأنينة ، وحيث لا وجود إلا للـ «أنا اليسوعية المسيحية» ذات البعد الكوني الجواني .



يوحنا : «من آمن بي وإن مات فسيحيا»

أو

جدلية الملهاة المأساة بين الواقع والحلم

في انجيل يوحنا تتصاعد البنية الداخلية الدينية واللغوية للنص «الانجيلي المقدس» اختزالاً ودقة وتميزاً إلى درجة ملحوظة مرموقة ، وذلك بحيث نكاد نجد أنفسنا أمام الصيغة اليسوعية المسيحية الأكثر عبثاً بالروحانية وبالحقيقة «الجوانية» . فيسوع المسيح يظهر ، هنا ، وقد قبض على صولجان هذه الحقيقة بكلتا يديه وجعل منها ومن ذاته وجهين لوضعية كونية واحدة . ان عملية التجادل المتلاحقة بين المتقابلات والمتناقضات تبرز ، هي بدورها ، بصور نافذة ينضح منها أفق أسباسي محوري يتمثل بالحل الخلاصي الذي يجسد ، دائماً ، جماع الموقف وجماع القول . وهذا ما يمكننا من القول بأن النزوع الخلاصي يتحول ، هنا ، إلى تيار دافق للخلاص الكوني أريد له أن يقود «المبهوتين بأعباء العالم المادي» إلى السعادة القصوى ، تلك السعادة التي تتجلى - في أعلى صيغها ودرجاتها - بالآيمان بالمخلص الأعظم يسوع المسيح . ولقد أخبر يسوع نفسه عن نفسه بلغة يوحنا الانجيلي التي تفصح عن قدرة خاصة على امتلاك المفاصل الكبرى بين المتقابلات والمتناقضات : «من آمن بي وإن مات فسيحيا . وكل من كان حياً وآمن بي لن يموت إلى الأبد» ، ذلك لأنني «أنا القيامة والحياة»^(١) .

ان التوحيد بين الموت والحياة يتم على أساس ما يرتفع عليهما معاً ومشاركين ، وانطلاقاً مما يؤدي من مواقعهما إلى نسق آخر أكثر عمقاً وشمولاً وبراعة ، أي -

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس يوحنا ١١/٢٥-٢٦ .

بكلمة - إلى يسوع المسيح . ولعلنا نتبين ، في هذا السياق الجدلي «الحميمي» ، غمطاً خاصاً من التفكير الذي ينهض على الإقرار الضمني والمفصح عنه بصيغة شيء ما من أجل رفضها وطرح البديل عنها ضمن توجه موحد وافق واحد . وبما يلفت الانتباه تلك الطريقة الكامنة في النص الانجيلي اليوحناوي والتي تتلخص بعنصري التضمين والابحاز ، وذلك على نحو يأخذ بالتضاييف أساساً أولياً له . ان ملاحظته في النص الأخير يبرز ذلك بوضوح وقوة . فـ «الحياة» - بمقتضى ذلك - يُقر بها ، لِيُنْتَقَل ، بعد ذلك وفي سياقها ، إلى الخطوة التالية ، وهي الاعلان الصُّراح عن أنها (أي الحياة) هي - كذلك - الموت . وكذا الأمر فيما يتصل بـ «الموت» . فهذا الأخير ، الذي يعلن عن أنه نهاية لتلك الحياة ، يظهر - في حقيقته الجوانية وآفاقه اليسوعية الربانية - بأنه هو بداية «الحياة» الحقّة . على ذلك ووفق آليته الداخلية البنيوية والوظيفية ، نغدو مطالبين بإعادة ترتيب العلاقة الظاهرية بين كلا الطرفين الكبيرين ، الحياة والموت ، وذلك بغية الوصول الى ماهو جوهرى وناقض وصميمي ؛ لأنه واضح أن «الحدود المباشرة» ، التي تعلن عن وجود ذينك الطرفين ، ليست من هذا «الجوهري» في شيء . إن هذا الموقف بالذات هو الذي يبرز واضحاً بيّناً في تأكيد يسوع المسيح على أنه هو ذاته .

«الطريق والحق والحياة» ، وعلى أنه «لا يأتي أحد إلى الأب إلا بي»^(١) . فإذا كان يسوع المسيح ، حقاً ، الطريق والحق والحياة ، فإن الوصول إليه ، بكل معنى الكلمة ، يقتضي الرفض القطعي والفاعل لهذه الطريق ولهذا الحق وهذه الحياة ؛ لأن تلك جميعاً ومجتمعةً تكتسب دلالتها ومغزاها فقط من موقع كونها تمثل الأقنية الوحيدة والضرورية ، التي تقود إلى الأب وتشير إليه وتدل عليه ، دونما غمغة أو قلق أو شك . ان الطريقة «الخلاقة الفعالة» ، طريقة الإقرار والنقض ، أي الإقرار في سبيل النقص ، تنطوي عمقاً وسطحاً على جانب هام من التجادل الذهني اللاهوتي ، الذي لم يكن الوصول ممكناً بدونه إلى تصور «البدائل» المسيحية اليسوعية . وقد تكون صيغة «الروح القدس» مثلاً عميق الدلالة على ما نقول على الصعيدين البنيوي والديني العقيدي الوظيفي . فالروح القدس يعبر عنه بأنه

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٦/١٤ .

«المعزّي» ، الذي يبعث به الأب عن طريق الابن بهدف استحداث حوافز عظمى للخلاص الكوني . وبذلك ، يظهر يسوع المسيح - بأحد معانيه وبأحد أوجهه الكونية (الوجودية) والاخلاقية - على أنه هو أيضاً المعزّي ، أي الروح القدس ، أي قدّس الأقداس ؛ كما يظهر من حيث هو الأب نفسه ؛ ومن ثم نغدو أمام لوحة ثلاثية متعددة الاحتمالات في العلاقات القائمة بين اطرافها ، تلك الأطراف التي تقود كلها ومجموعة إلى ينبوع واحد وإلى غاية واحدة هما يسوع المسيح نفسه .

ان ذلك يسمح لنا بالقول بأن ثلاثية الروح القدس والابن والأب ذات أفق تحولي يتنقل ، بحسبها ، الواحد الى الآخر ، محتفظاً بشخصيته ومشيراً إلى شخصية الآخر ، في آن واحد وضمن آلية من الفعل الذي يغدو رد فعل ومن ردّ الفعل الذي يغدو فعلاً . وجدير بالذكر ان تلك الثلاثية تمثل جماع القول في عملية الاقرار (الايجاب) والنقض (السلب) ، أي الاقرار بوجود القائم الراهن وبنقضه ، بمعنى رفعه الى المستوى المناقض وباتجاه الأعلى الأقصى ؛ وذلك على أساس من الانطلاق من أن هذا الأعلى الأقصى ليس هو هكذا ، أي أعلى أقصى ، لأنه مرّ بالأدنى واحتواه ماهوياً وقام على أركانه . ان الأمر على غير هذا النحو من الفهم . ف«الأعلى الأقصى» الذي هو - في نهاية المطاف - «الملكوت الرباني» ، ليس مشروطاً من الناحية الماهوية (الذاتية) بشيء آخر سواه ، وإن كان حدوثه يقتضي أن يمر الكون بأحداث عظمى تجعله مستنفذاً عاجزاً عن الاستمرار لحظة واحدة . وإذ يتم ذلك ، فان الملكوت إياه يصبح الوجود الوحيد . ومرة أخرى ينبغي القول ، إنه في تلك الوضعية لا وجود لتراتب زمني «تاريخي» ينطلق من الأدنى الى الأعلى الأقصى . ف«التاريخية» ، هنا ، ليست قائمة إلا بمعنى أنها تقدم المسوغات الكونية الاخلاقية لانبلاج «عالم الدينونة» ، «عالم الحساب» ، الذي يقف الجميع فيه أمام يسوع الرب ليقدموا حساباً بما عملوه في حياتهم . لكن هذا العالم كان قبل ذلك موجوداً ، وإن على نحو إمكاني . وهذا يعني - ضمناً - إقراراً ما بوجود «الأخر» بمثابة عاملاً خارجاً في تحول «الملكوت» من الامكان إلى التحقق . وإذا كان الأمر كذلك ، اليس وارداً أن نتحدث عن نحو ما من أنحاء الاقرار بـ «التاريخية» ؟

في هذا المعقد من المسألة ، تكتسب عملية الجدل اللاهوتي صيغة طريفة

ومركبة من التجادل بين البعيد والقريب ، وبين الخارج والداخل ، وبين الظاهري والجوهرى ، وذلك عبر صور مفعمة بالحوية والحماسة ، وبالجنونية المصوغة من علاقة بين الذات والموضوع . وهنا ، نستعيد ما قلناه من أن الذات تتحول موضوعاً ، بقدر ما يتحول الموضوع ذاتاً ، ونغدو - من ثم - أمام وضعية واحدة بوجهين اثنين متضايفين تضافف الأول الى الثانى والثانى الى الأول . نتقصى ذلك عبر المواقف اليوحناوية التالية :

«أجاب يسوع وقال . . . إن أحببني أحد يحفظ كلمتي وأبى يحبه وإليه نأتى وعنده نجعل مقامنا . من لا يحبني لا يحفظ كلامي والكلمة التي تسمعونها هي ليست لي بل للآب الذي أرسلني . . . وأما المعزى الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء»^(١) .

ان «المعزى» يفصح عن نفسه بمثابته الواحد في الكل ، وكذلك الكل في الواحد . وما ينبغي التنويه به ، في هذا السياق الطريف والهرج ، أن الجدلية المشار إليها تفصح عن طابعها من حيث هي ذات أفق واحد . فليس هنالك ، وفق ذلك والحال على النحو المعنى ، ما يتولد عن «الروح القدس» أكثر من الروح القدس ذاته بصفته جماع القول في الآب والابن كليهما . وقد أشرنا ، في موضع سابق من هذا البحث ، إلى أن التاريخ يتوقف عن التدفق صوب المستقبل حالما يدخل الملكوت الرباني حالة المطلق الناجز والهيمنة والشمول . وهنا ، تكمن غاية الغايات ، وهدف الأهداف ، وقدس الأقداس ، الذي تطرحه تصورات «الخطيئة» و «البشارة» و «الكرز» و «الصلب» و «الخلاص» الخ . . . ، أي التصورات التي تبرز من حيث هي الأركان البنيوية الكبرى في العالم المسيحي اليسوعي الجديد .

ان الجدل - اضافة الى التاريخ وبالتشابك معه وبالتداخل فيه - يجد مستقره ومبتغاه في الحدوث الأعظم للفعول الرباني الأعظم ، الذي هو حلول الملكوت الأعظم . ولكن من أجل ان يصبح ذلك واقعاً كثيفاً مباشراً وفاعلاً ، يجب أن تنفذ «الكلمة» الخاصة بـ «انطلاق» الابن إلى الآب . إذ أن من شأن ذلك وحده ، ووحده فقط ، أن يستحث «المعزى» على القدوم إلى جموع «المعذبين» من الجياع والمحرومين والمبهوطين . وهنا ، نواجه واحداً من أكثر المعاهد طرافة وحساسية و

(١) نفس المصدر السابق ومعطيائه ١٤/٢٣ - ٢٤ ، ٢٦ .

«مسيحية» في المسيحية اليسوعية بصيغتها اليوحناوية المدققة والمنضبطة روحياً
جدلياً . فيسوع المسيح يُعلم أولئك ان «ذهابه» خير من «بقائه» ، وأن ايصال عذابه
الى نهايته القصوى عبر «صلبه» هو الطريق إلى «الحب» و «الفضيلة» . وإذن ،
فحيث يكون الأمر كذلك ، يغدو مطلوباً أن «ينطلق يسوع» إلى حيث يمكث
«العزاء» ، لكي يعود هو نفسه إليهم متلبساً شخصية هذا الأخير :

«أقول لكم الحق ان في انطلاقي خيراً لكم لأنني إن لم انطلق لم يأتكم المعزي
ولكن إذا مضيت ارسلته اليكم» .

وإذ يأتي المعزي ، فانه يبكّي العالم على الخطيئة وعلى البر وعلى الدينونة :
«أما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بي . وأما على البر فلأنني منطلق إلى الأب
ولا تروني بعد . وأما على الدينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دُين»^(١) .

ان نعمة الحزن العميق الجارف ، التي تغمر هذا العالم وتخرقه حتى حشاشاته
الدنيا والقصوى ، تأول إلى نعمة فرح عميق غامر مع «الحدث الجديد» . يحدث
ذلك ، حيث تحل «البشارة» العظمى ، وحيث يُتم الرب «كلمته» ، ويحقق
«وعده» ، وينجز «عهده» المضمخ بالدم مع المؤمنين الذين عاشوا «زمان القهر
والطغيان» وأعينهم عالقة ببوارق الأمل التي يستثيرها فيهم «يوم الدينونة» . ان
هؤلاء وإن كانوا يحزنون ، إلا أن حزنهم

«يأول إلى فرح»^(٢) .

والحق ، ان «الفرح» الكوني العظيم ، الذي يُفعم «التلاميذ» ، خصوصاً ، من
ضمن أولئك الأبرار المؤمنين بالرب ، كان قد منح لهم مسبقاً وعلى نحو ضمني ،
مجسداً بالروح القدس ، الذي نفخه يسوع المسيح فيهم قبل «الصعود» إلى أبيه .
وهذا يعني - ضمن ما يعنيه ويشير إليه - أنه (أي يسوع) كان ، بالأساس والبدء ،
ينطوي في داخله على الروح القدس دائماً وأبداً . وقد كنا أتينا على بعض ذلك حين
نبين لنا أنه - من جملة اسمائه الحسنى واعتباراته وحيثياته الغزيرة المتنوعة - الحمل

(١) نفس المصدر السابق ومعطيائه ٧/١٦ ، ٩-١٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيائه ٢٠/١٦ .

المذبوح منذ بدءا العالم والذي يحمل البشارة ، ضمناً وجوهراً ، لينشرها بين العالمين ويشرح بها ؛ بحيث يغدو يسوع المسيح هو نفسه ذلك «المعزي» ، الذي يكتسب - والحال كذلك - شخصية الروح القدس نفسه .

ولعل مسألة ذات أهمية مركزية وحساسية خاصة تبرز ، هنا ، على صعيد النص اليوحناوي خصوصاً ، والنصوص الانجيلية (القانونية) بصورة عامة ؛ تلك هي التي تتعلق بتحديد «الروح القدس» بنيةً ووظيفة . ذلك أنه تترتب على البحث في هذه المسألة نتائج هامة بل خطيرة بالنسبة إلى المسيحية اليسوعية بنيةً ووظائف وآفاق . فهناك من الباحثين من يطمح ، في بحثه في المسألة المعنية ، للوصول إلى الاعتقاد بأن «الروح القدس» أمر مختلف اختلافاً جذرياً وقطعياً عما هو معروف عنه في الأوساط العقيدية المسيحية العامة . أما المقصود بذلك فيمكن في النظر إلى الأمر المعني على أنه «كائن بشري» يُرسل من قبل الرب الإله ليقوم بدور «نبي يسمع صوت الله» ويشرح بذلك على مسامع البشر . وهذا النبي تلتقي مواصفاته الكبرى مع مواصفات يوحنا . ولأهمية هذا الموقف من «الروح القدس» ، نورد الرأي الذي طرحه موريس بوكاي في بحثه اللغوي والعقدي حول ذلك .

يقول موريس بوكاي ، في نص طويل له ، مايلي :^(١) «يوحنا هو المبشر الوحيد الذي سرد ما حدث في نهاية العشاء الأخير للمسيح وقبل القبض عليه ، أي آخر أحاديثه مع الحواريين ، وينتهي هذا الحدث بخطبة طويلة . فانجيل يوحنا يفرد أربع إصحاحات (من ١٤ إلى ١٧) لتلك الرواية التي لا نجد لها أثراً في الأناجيل الأخرى . ومع ذلك فهذه الإصحاحات من انجيل يوحنا تعالج مسائل أساسية وآفاق مستقبل ذات أهمية بالغة وهي معروضة بكامل العظمة والجلال اللذين يميزان هذا المشهد لوداع السيد لتلاميذه .

كيف يمكن أن نشرح الغياب التام في أنجيل متى ومرقس ولوقا لرواية الوداع

(١) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٥ - ١٢٩ .

المؤثر الذي يحتوي على الوصية الروحية للمسيح ؟ يمكن أن نطرح السؤال التالي : هل كان النص موجوداً أولاً عند المبشرين الثلاثة الأولين ؟ ألم يحدف فيما بعد ؟ ولماذا ؟ ولننقل فوراً إنه لا يمكن الاتيان بأية اجابة ، فاللغز مستغلق تماماً بالنسبة لهذه الثغرة الكبيرة في رواية المبشرين الثلاثة الأولين .

ان ما يسود الرواية - وهذا مفهوم في حديث أخير - هو مستقبل البشر الذي يتحدث عنه المسيح واهتمام السيد بالتوجه الى تلامذته والى الإنسانية برمتها عبرهم ، معطياً إرشاداته وأوامره ومحددات بشكل نهائي المرشد الذي على الإنسانية ان تتبعه بعد اختفائه . إن نص الانجيل يوحنا - وهذا النص وحده - يسمى بشكل صريح هذا المرشد باسم يوناني هو Parakletos الذي اصبحت في الفرنسية Paraclet . وهما هي ذي الفقرات الجوهرية من هذه الخطبة حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد : (إذا كنتم تحبونني فستعملون على اتباع اوامري ، وسأصلي للأب الذي سيعطيكم Paraclet آخر - ١٤ ، ١٥ - ١٦) .

ما معنى هذه الكلمة Paraclet . ان النص الذي نملك حالياً لانجيل يوحنا يشرح معناها بالألفاظ التالية : (ال-Paraclet ، الروح القدس ، الذي سيرسله الأب باسمي سيبلغكم كل شيء وسيجعلكم تتذكرون كل ما قلت لكم - ١٤ ، ٢٦) . هو نفسه سيشهد بي - ١٥ - ٢٦) . (رحيلي فائدة لكم ، لأنني إذا لم ارحل فال-Paraclet لن يأتي اليكم ، وعلى العكس فإذا رحلت فسأبعث به اليكم . وهو بمجيئه سيذهل العالم فيما يخص الخطيئة والعدل والحكم - ١٦ ، ٨٧) . (عندما سيأتي روح الحقيقة ، فسيجعلكم ترقون الى الحقيقة بكاملها ، لأنه لن يتكلم بارادته ، وإنما سيقول ما يسمع وسيعرفكم بكل ما سيأتي . وسيمجدني ... - ١٦ ، ١٣ - ١٤) . - ويلاحظ أن الفقرات التي لم تذكر هنا من الاصحاحات ١٤ إلى ١٧ من انجيل يوحنا لا تعدل مطلقاً من المعنى العام للفقرات المذكورة . -

وإذا قرأنا بسرعة فان النص الذي يثبت تطابق كلمة Parakletos اليونانية على الروح القدس لا يجذب الانتباه في كثير من الأحيان . وخاصة ان العناوين الثانوية للنص المستخدمة عموماً في الترجمات بالاضافة الى ألفاظ التعليقات المقدمة في كتب

التعليم العام توجه القارئ نحو المعنى الذي تريد الروح التقليدية اعطائه لهذه الفقرات . وإن حدث وصادف القارئ أقل صعوبة في الفهم ، فالتحديدات موجودة كذلك التي يعطيها (المعجم الصغير للعهد الجديد) للأب تريكو A. Tricot وهي تعطي كل التوضيحات . فتحت عنوان Paraclet كتب المعلق مايلي : (هذا الاسم أو هذه الصفة المنقول من اليونانية الى الفرنسية غير مستخدم في العهد الجديد إلا في انجيل يوحنا : فهو يذكر الكلمة اربع مرات عند سرده لخطاب المسيح بعد العشاء الأخير - ١٤ ، ١٦ ، ١٦ ، ٢٦ ، ١٥ ، ٢٦ ، ١٦ ، ٧ - ومرة واحدة في رسالته الأولى - ١٢٢ - . ان الكلمة في انجيل يوحنا تنطبق على الروح القدس ، اما في الرسالة فهي تنطبق على المسيح . لقد كانت كلمة Paraclet سائدة لدى اليهود الهلنستيين في القرن الأول بمعنى الوسيط ، والمدافع (. . .) فالمسيح يعلن ان الروح سيرسل بالأب والابن في دوره الانقاذي الذي يؤديه في أثناء حياته الفانية على الأرض وذلك لصالح تلاميذه . ان الروح يتدخل ويعمل كبديل للمسيح باعتباره Paraclet أو وسيط قادر على كل شيء) . اذن فهذا التعليق يجعل من الروح القدس مرشداً أسمى للبشر بعد اختفاء المسيح . فهل يتفق مع نص يوحنا ؟

لا بد من طرح المشكلة ، فمبدئياً يبدو غريباً أن ننسب إلى الروح القدس الفقره المذكورة أعلاه والتي تقول : (لن يتكلم بارادته وإنما سيقول ما يسمع وسيعرفكم بكل ما سيأتي) . يبدو أن من غير المعقول ان ننسب الى الروح القدس سلطان ان يتحدث وان يقول ما يسمع . . . وفي علمي ان هذه المسألة التي بوصي المنطق بطرحها ليست عموماً موضوع أي تعليقات . ولكي تكون لنا فكرة صحيحة عن المشكلة يجب الرجوع الى النص اليوناني الأساسي . وهذا أمر يساوي في أهميته الاعتراف بأن يوحنا قد كتب باليونانية وليس بلغة أخرى . . . ان أي نقد جاد للنصوص يبدأ بالبحث عن الاختلافات النصية . ويظهر هنا أن ليس في مجموع المخطوطات المعروفة لانجيل يوحنا نص آخر مختلف من شأنه أن يحرف المعنى سوى تلك الفقرة ١٤ ، ٢٦ من المخطوطة السريانية الشهيرة المسماة Palimpseste . والفقرة لا تشير الى الروح فقط وإنما الى الروح القدس . فهل هذا مجرد نسيان من قبل الناسخ أو انه لم يجرؤ على كتابة ما بدا له أنه أمر غير معقول في مواجهة نص يدعى ان الروح القدس يسمع ويتكلم ؟ فيما عدا هذه الملاحظة وبعض الاختلافات

النحوية التي لا تغير شيئاً من المعنى العام للنص ، فليس هناك مجال للاصرار على اختلافات نصية أخرى . وما يهم هو ان المعروض هنا عن الدلالة المحددة لفعلي (يسمع) و (يتحدث) يسري على كل مخطوطات انجيل يوحنا ومن ضمنها الحالة المعينة هنا . . .

وعندما يقول المسيح ، حسب انجيل يوحنا (١٦ ، ١٤) : (سأصلي لله وسيرسل لكم Paraclet آخر) ، فهو يريد بالفعل أن يقول انه سيرسل الى البشر وسيطاً (آخر) كما كان هو وسيطاً لدى الله وفي صالح البشر في أثناء حياته على الأرض .

ذلك يقودنا بمنتهى المنطق الى ان نرى في الـ Paraclet عند يوحنا كائناً بشرياً مثل المسيح يتمتع بحاستي السمع والكلام ، وهما الحاستان اللتان يتضمنهما نص يوحنا بشكل قاطع . اذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الأرض ليؤدي الدور الذي عرفه يوحنا ، ولنقل باختصار إنه دور نبي يسمع صوت الله ويكرر على مسامع البشر رسالته . . . ان وجود كلمتي (الروح القدس) في النص الذي نملك اليوم قد يكون نابعاً من إضافة لاحقة ارادية تماماً تهدف الى تعديل المعنى الأول لفقرة تتناقض ، باعلانها مجيء نبي بعد المسيح ، مع تعاليم الكنائس المسيحية الوليدة التي ارادت ان يكون المسيح ، مع تعاليم الكنائس المسيحية الوليدة التي ارادت ان يكون المسيح هو خاتم الأنبياء .

ان ذلك الرأي ، الذي يبسطه موريس بوكاي ، تفصيلاً وثيقاً ، حول المصادر الانجيلية لـ «الروح القدس» ، يحول - رغم أهميته في ابضاح مجموعة من المسائل اللغوية التاريخية على صعيد تحول النص الانجيلي - دون تفهم وتفحص عقيدة «الأقانيم الثلاثة» ، ذلك لأنه يجعل منه (أي الروح القدس) جسماً غريباً عن «المسيح» ومقحماً فيه ، أو بديلاً عنه . وهذا يعني ان ما طرحه بوكاي يُفقد الموضوع المعني دلالاته الوظيفية التاريخية والعقيدية . وعلى العكس من ذلك ، نلاحظ ان هنالك نصاً يوحناوياً آخر حول «الروح القدس» لم يأخذه بوكاي بالحسبان . أما هذا النص فهو التالي :

«وقال لهم ثانية السلام لكم كما أرسلني الأب كذلك أنا ارسلكم . ولما قال

هذا نفخ فيهم وقال لهم : خذوا الروح القدس . من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ومن امسكتم خطاياهم تمسك لهم»^(١) .

ان ما نتيه في النص المذكور يشير الى ان «الروح» الذي يمنحه يسوع المسيح لصديقيه ، هو روحه نفسه مجسداً في شخصه . ولا بد أننا نلاحظ أن ذلك ينطوي ، ضمناً ، على أن «الابن» يعبر عن «ابيه» ، بما هو فيه وخاص به ، بحيث ان «الثلاثة» يظهرون «واحداً» . وجدير بالتبصر ، في هذا السياق المرفف ، طريقة تقديم المسيح يسوع روحه (الروح القدس) لأولئك . فهذه الطريقة تتمثل بـ «النفخ» ، تعبيراً عن ان ذلك يحمل على نفث النفس - المعادل للروح - في العوالم الكبرى والصغرى ، أي في الكون الكبير الكلي وفي الأكوان الفردية الصغيرة . فكأنما هذا النفخ تعميمٌ للقداسة ، قداسة الروح ، وإجلالٌ للخطيئة عن تلك الأكوان ، ومن ثم إدخال هذه الأخيرة في عالم القداسة كما هو الحال بالنسبة الى الاله النافخ^(٢) .

ويبقى أن نقول انه في حال تفسير مصطلح انجيلي ما - كما هو الحال بالنسبة الى «الروح القدس» - لا بد من النظر الى اللوحة بكل ألوانها ، دونما اهمال لواحد أو لأكثر من واحد منها . هذا أولاً ؛ من ناحية أخرى ، قد نلاحظ فيما قدمه موريس بوكاي نوعاً من التعسف في التعامل مع النصوص المعنية ، بحيث تفصح عن نفسها محاولة للمصادرة على تصور ما على نحو يرهق السياق التاريخي لتلك النصوص . ان

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس يوحنا ٢٠/٢١-٢٣ .

(٢) ان عملية «النفخ» نواجهها في المنظومات الأسطورية والدينية الشرقية القديمة ، واليهودية من بعد ذلك ؛ كما انها تستمر ، وإن على نحو وظيفي فيه خصوصية نسبية ، في التصور الديني الاسلامي لاحقاً . وقد لوحظ أن العملية المذكورة هي طريقة إيجاد العالم بواسطة الكلمة المنطوقة والنفس المنفوخ . وهذا يشير الى أن العالم يمثل - بمعنى ما - امتداداً لـ «روح» الله الرب الخالق ، الذي يعلن عن ذلك اعلاناً ، أي لفظاً أمراً أو تقريرياً . (انظر حول ذلك ، على سبيل المثال ، اسطورة الخلق المصرية ؛ وسفر التكوين - الفصل الثاني - ؛ والشاهد الانجيلي المثبت فوق ؛ والحديث عن عيسى ابن مريم في القرآن من حيث هو حصيلة نفخ من روح الله . وقرأ حول ذلك ، أيضاً : الفصل الثاني المعنون بسقوط آدم من كتاب - الفولكلور في العهد القديم لجيمس فريزر ، الجزء الأول ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٧-٧٢) .

هذا يبقى صحيحاً ووارداً حتى حين نتبين في تلك المحاولة رغبة في مواجهة تصور لا تاريخي يتمثل ، هنا ، بالتأكيد البطن على أن النبي الاسلامي محمداً بُشِّرَ به من قبل يسوع المسيح نفسه . بل لعلنا نقول ، ان التفريط بـ «الروح القدس» من النص اليوحناوي لا يحمل في طياته تجاوزاً لتصور «الثالوث المقدس» فقط ، ذلك الثالوث الذي يمثل الركن العقيدي الذهني الأكبر للمسيحية يسوعية ؛ انه كذلك (أي ذلك التفريط) من شأنه ان يقود إلى تجاوز القاعدة الاخلاقية لتلك المسيحية ، وذلك عبر رفض تصور «العزاء» ، ومن ثم تصور «الخلاص» .

وفي ظننا ان هذه المسألة الأخيرة تحتاج الى مزيد من التدقيق والتعميق لأهميتها في البناء المسيحي اليسوعي أولاً وكما أشرنا الى ذلك فوق ، ولوجود بعض الالتباسات والصعوبات التي تعقد الموقف حيالها ثانياً . فلقد كنا قد انطلقنا من أن ذلك البناء هو ، من حيث الأساس التاريخي الانثروبولوجي ، بناء ذكرى ترتد فيه مريم (ماريا) الى وراء لتشغل دوراً ثانوياً يقوم على أن يكون «وسيطاً» ، وهو دور «البطن الحامل» ، ليس إلا . وعبر ذلك وفي ضوءه ، وصلنا - مع لودفيج فويرباخ - الى أن هذا البناء الذكرى هو ، من حيث الأساس التاريخي الانثروبولوجي والعقدي ، دين الابن وليس الأب أو الأم ، ولكن دين الابن بمشابهته أباً ودين الأب بمشابهته ابناً . هاهنا ، ينبغي التنويه بان هذه المحايثة بين الأب والابن والأب هي التعبير المباشر وغير المباشر عن «الروح القدس» ، أي عن العنصر الذي يجسد جماع الموقف بين كلا الطرفين . وهذا يجعلنا نُقدم خطوة أخرى إلى أمام حيث نعلن أن القول بـ «تطفل» الروح القدس على الابن وأبيه من شأنه ان ينهي هذين الآخرين وأن يضع حداً نهائياً لـ «دين الابن» ، أي للمسيحية اليسوعية نفسها ، كلاً وجزءاً .

وكما لاحظنا ، فان القول بتطفل «الروح القدس» على عقيدة يسوع المسيح يحسّ وجهاً آخر من هذه الأخيرة ؛ ذلك هو ما اعتبرناه القاعدة الاخلاقية للعقيدة المعنية . وهذا الأمر يبرز عبر التساؤل التالي : إذا أزلنا تصور «الروح القدس» بمشابهته المفتاح الى الابن بصفته أباً وإلى الأب بصفته ابناً ، فما الذي يتبقى من تلك العقيدة ، من حيث هي كذلك ، أي عقيدة مسيحية يسوعية ؟ ما الذي يتبقى منها بعد إزالة تصور العزاء الذي يتجسد بحامله ، الروح القدس ؟ ان النص الانجيلي

اليوحناوي تكمن دلالة المبدئية في أنه قدم - في شخصه - النعمة العزائية للمؤمنين لكي يحولوها الى نشيد للخلاص يتحول ، هو بدوره ، إلى تيار دافق يخترق العلاقة المعقدة والصعبة والمساوية بين الواقع والحلم . وهذا ، بدوره ومن موقعه ، يحيلنا الى ما تبيناه على أنه جدلية الملهة والماسة يقدمها النص اليوحناوي بصيغ تنضح منها ألوان ثرة من القنوط والرجاء والعذاب والطمأنينة والأسى والعزاء .

ونضيف إلى ذلك أن مقولة يوحنا القائمة على التجادل بين الإيمان والكفر والحياة والموت ، تغدو غير ذي بال في البناء المسيحي اليسوعي اذا اطحنا بتصور «الروح القدس» : من آمن بي وإن مات فسيحيا . فالوصول الى يسوع المسيح هو أمر يتعلق ، أولاً وأخيراً ، بكيفية التواصل الروحي بينه وبين المؤمنين الصديقين ، ومن ثم بكيفية التواصل بين هؤلاء وبين «الأب» عبر «الابن» .

ان «الروح القدس» هو روح الله مبعوثاً في الابن ، أي في من تقوم المسيحية اليسوعية كلها وبرمتها عليه . وهذا «الابن» هو - في حيثياته الأكثر مبدئية وأهمية - ما سيقدم له «المبهورين» من الفقراء والمفقرين ؛ أي انه المعزي نفسه الذي يحمل «البشارة» ويكرزها في أوساط أولئك . بل لعلنا نقول ، كذلك ، ان البشارة تلك هي الابن المعزي ذاته ؛ مع العلم أن هذا «المعزي» هو - في حال معينة وبمعنى معين - أيضاً «المعزي» من قبل «الأب» . ويهمننا ، في ذلك جميعاً ، ان ما طرحه موريس بوكاي في تفسيره لـ «المعزي» يقود الى اقتراح «مسيحية جديدة» ، مسيحية «غير يسوعية» يبرز فيها «المخلص» - إن كان الحديث وارداً هنا عن مخلص - عاجزاً عن أن يمارس مهمة الخلاص نفسه . ذلك لأنه ، في سبيل تحقيق ذلك ، يجد نفسه مدفوعاً إلى أن يرسل من يقوم بتلك المهمة ، ممثلاً بـ «المعزي» .

ولابد أن يكون واضحاً ما يجزّه ذلك الموقف من نتائج تخرج عن السياق المسيحي اليسوعي في كل أشكاله الموروثة . ان «الحمل المذبح منذ بداءة العالم» والمرشح هو وحده لتخليص العالم ، يغدو - وفق ذلك المنطوق - أثراً بعد عين . وإذا عدنا إلى المقولة اليوحناوية الكبرى ، التي يعلن عبرها يسوع المسيح بأن من آمن به وإن مات فسيحيا ، فإننا نلاحظ أن ما قدمه موريس بوكاي بصدده «الروح القدس - المعزي» لا يمكنه أن يتطابق معها على نحو من الأنحاء . فالنص

اليوحناوي ، الذي يشترك مع نصوص انجيلية أخرى فيما يقدمه ، لا يدع لنا أي مجال للارتياح في أن «المعزي» و «العزاء» و «التعزية» ملاحق من الشخصية الخلاصية ليسوع المسيح . وأخيراً نقول ، ان فصل هذه الملاحق عن الشخصية المذكورة من شأنه ان يقود إلى الاطاحة بما تبيناه لدى يوحنا الانجيلي تحت حد «جدلية الملهة المأساة بين الواقع والحلم» ؛ أي ان المؤمن المسيحي إذ يتزع منه هذا «الحلم» بمثابته وجهاً نقيضاً لذلك الواقع وبديلاً عنه ، فانه يغدو كمن لا يملك شيئاً . وهذا ، بالذات ، خطوة كبرى على طريق انهاء المسيحية اليسوعية .



بين الإعجاز والحكمة من طرف و «الأمية الأبجدية» من طرف آخر

نواجه ، الآن ، واحدة من كبريات المسائل في التاريخ الديني ، على نحو العموم ، وفي التاريخ المسيحي الأول بصورة خاصة . انها مسألة العلاقة بين الأنبياء والرسل والقديسين من طرف ، والاعجاز والحكمة والعظمة الخارقة من طرف آخر ، أو - وهذا وجه مركزي منها - بين الاعجاز والحكمة من جانب و «الأمية الأبجدية» من جانب آخر .

وفي سبيل تقصُّ معمق لما نحن بمعرض البحث فيه ، نشير الى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار الدقيق ما كنا قد أعلننا عنه ، في موضع سابق من هذا الكتاب ، من أن الحركة الدينية تظهر في بداياتها حركة خلاصية تلقائية تتبناها جموع الجماهير الفقيرة والمفقرة الطامحة إلى الخلاص والانعقاد ، على نحو آخر . وهذا تم غالباً دون أن يكون لتلك الحركة رجال وممثلون تاريخيون ينظرون لها ويفردونها بالاعتبارات الرئيسية ، الايديولوجية الدينية والسياسية والتنظيمية . ولكن - وهذا له أهمية بارزة - في سياق الكفاح الجديد وتعاطم وتائر التصدي بين الأطراف المتخاصمة والمتصارعة ، تظهر شخصيات أو شخصية واحدة تأخذ بالتبلور والبروز فوق الشخصيات الأخرى ، لتغدو ، في واقع الحال وبنهاية المطاف ، سيد الموقف القيادي بالاعتبارات الرئيسية المذكورة آنفاً . وهذا الوضع يسمح ، بعد أن يكون قد تبلور ، بنسب الحركة الجديدة إلى الشخصية التي غدت رمزاً لها وممثلاً لها في أوساط المؤمنين بها والمناهضين لها ، على حد سواء .

ان ذلك يصح على المسيحية ، كما يصح على غيرها من الأديان ؛ مع

الاحتفاظ بسماهات الخصوصية التي تبرز هنا وهناك في نطاق الأديان المختلفة . فلقد لاحظنا ، في مواضع سابقة من هذا البحث ، أنه ظهر «مسحاء كذابون» كثر ملأوا الأرض تبشيراً برسالاتهم التي لقيت ، بدرجة أو أخرى ، قبولا لدى بعض الأوساط . وقد استمر ذلك الى ان جاء من اعتُبر ، حقاً ، «المسيح الصادق» . ولا بد أن يكون الوضع الاجتماعي الاقتصادي والسياسي والروحي قد بلغ مرحلة عظمى من التأزم ، بحيث كان على مثل التساؤل التالي ان يبرز أمام جموع الأوساط البشرية الكثيفة : إلى أين المصير ؟ ما الذي سيحدث بعد أن يبلغ السيلُ الزبي ؟ هل حقاً سيأتي «فارس الأمل المخلص» ، كما ورد في «الكتيب» ؟ وإن كان سيأتي ، فمتى ، وأين ، وضمن مَنْ من «الأمم» أو «الطوائف» ؟

وبالطبع ووفق الوضعية المشخصة في حينه ، كان على ذلك «المسيح الصادق» ان يضحى به في حال كونه «صادقاً» حقاً . ذلك لأن المبادئ والمثل والمواقف ، التي يمكن أن يكون قد نادى بها ودافع عنها ، كان عليها أن تخضع هي نفسها لمجموعة هائلة ومتنوعة من التحولات البنيوية والوظيفية ، التي جعلت منها - كثيراً أو قليلاً - وعلى نحو أو آخر - غير ما كانت عليه في أصولها ومظانها . ومن الملاحظ أن هذا الوضع المركب والمعقد وذا الأبعاد التاريخية والتراثية أخذ يتخذ شخصية واضحة وحازمة ومنبلورة حيث جعل من الدين الجديد ، المسيحية اليسوعية ، ايدولوجيا ذات وظائف (وربما كذلك بُنى) متعددة في أيدي الخصوم والفرقاء الكثر أولاً ، وبعد أن صنع منه دين دولة سائدة سيادة اجتماعية وسياسية ثانياً ، وكذلك حيث تحول إلى دين مجموعة بشرية متعددة الإثنيات ثالثاً .

في سياق ذلك الوضع وفي ضوءه ومن موقعه ، كانت مسألة «الأمية» الأبجدية تمارس دوراً دينياً «تقديسياً» ملحوظاً . نعلن ذلك ونحن نعلم أنه لا توجد نصوص كثيرة تشير إليه وتدل عليه على نحو موسع ومدقق . ولقد توصلنا إلى أن قراءة معمقة مركبة لمثل تلك النصوص ، بهدف اكتشاف واستنباط ما تنطوي عليه من دلالات دينية ايدولوجية وتاريخية ، من شأنها أن تمكّننا من إبراز خصوصية وأبعاد المسألة المعنية هنا . وجدير بالقول أن ما ينتج عن هذه القراءة ينبغي أن يخضع لعملية تركيبية تجعل من الممكن التوصل إلى ما يشكل خطوطاً رئيسية أولية حول ما نحن في سبيل تقصيه في هذا الموضع .

ان ما ورد في «أعمال الرسل» حول بطرس ويوحنا ، يمكن النظر إليه على أنه أحد المصادر الرئيسية بالنسبة لـ «الأمية» المعنية هنا . فلقد أخبرنا ان بطرس ، الذي كان «أمياً» ، استطاع أن يعيد لرجل أعرج قدرته على المشي السليم بساقين معافيتين . وقد ظهر ذلك الموقف الذي أبدى فيه اليهود المتفرجون دهشتهم مما رأوه ، وحيث أسقط في أيديهم . والموقف المذكور يقوم ، في أساسه ، على تصور التكامل بين الأمية والحكمة المعجزة ، أي على الاعتقاد بأن العمل المعجز أمر يجد مصادره البعيدة في «حكمة ربانية» توهب لذُنْيَا :

«وصعد بطرس ويوحنا الى الهيكل معاً لصلاة الساعة التاسعة . وكان رجلٌ أعرجٌ من بطن أمه يُحمل وكان يوضع كل يوم عند باب الهيكل . . . فلما رأى بطرس ويوحنا مُزْمَعِينَ أن يدخلوا الهيكل سألهما صدقةً . ففترس فيه بطرس مع يوحنا وقال انظر إلينا . فأصغى إليهما مؤملاً أن يأخذ منهما شيئاً . فقال بطرس ليس لي فضة ولا ذهب ولكني اعطيك ما عندي باسم يسوع المسيح الناصري قُمْ وامش . وأمسكه بيده اليمنى وأنهضه ففي الحال تشدّدت ساقاه ورجلاه . فوثب وقام وطفق يمشي . . فرآه جميع الشعب يمشي ويسبح الله . . . فلما رأوا جرأة بطرس ويوحنا وعلموا أنها أُمَيَان وعَامَيَان تعجبوا وكانوا يعرفونها إنهما كانا مع يسوع . وإذ نظروا الرجل الذي شُفِيَ واقفاً معها لم يكن لهم شيء يقولونه في ذلك»^(١) .

ان المسألة المعنية في سياق البحث الآن تفصح عن نفسها ، الى حد أو آخر ، بصيغة السؤال الطريف التالي : هل من مقتضيات النبوة أو الرسولية أن تكون قائمة - ضمن ما تقوم عليه - على «الأمية» الأبجدية ؟ وإذا كان الأمر كذلك فعلاً ، فلم ؟ وماهي الضرورات التي تقتضيه ؟

نحن لا نعمم ذلك الأمر على كل أولئك الذين قدموا انفسهم انبياء أو رسلًا . ولكن هذا حدث في حالات نموذجية وأساسية ، بحيث يجعلنا نمنحه أهمية خاصة ؛ كما أنه من المحتمل أن يكون هذا النبي أو ذاك متمكناً من القراءة والكتابة الأبجديتين . لكن هذا الأمر ليس هو ما يهمننا الآن ، أي في حدود المعالجة الفكرية

(١) الكتاب المقدس - أعمال الرسل ٣/٩-١٤ : ١٣-١٤ .

التاريخية التي تقوم بها . فلقد ظهرت «الامية» تلك بمشابهتها إثباتاً هاماً وقطعياً على الاعجاز النبوي أو الرسولي ، بحيث تسقط كل الحجج والاعتراضات ، التي يمكن أن تنشأ في وجه مشروعية ومصداقية هذا الأخير . إذ حين يكون النبي أو الرسول أمياً بالمعنى المتعلق بقراءة الحرف اللغوي ، أي بالمعنى الأبجدي ، فإنه يغدو من طبائع الأمور أن يتم التصديق التام على المصدر «اللانساني» أي الـ «فوق - انساني» أو الـ «فوق - طبيعي» لـ «المعجزات» وعظائم الأمور والمواقف التي يجترحها . ومن هذا الموقع أو - على الأقل - من مواقع متعددة ومنها هذا الموقع - تصبح قدرة النبي أو الرسول^(١) على تسنم «الرسالة الالهية» والتبشير بها ، أمراً مسوّغاً ومدعماً بعجزه عن قراءتها ابجدياً ؛ وهذا ما يترتب عليه - ضرورة - أن يبرز العجز المذكور بمشابهة تفوقاً وامتيازاً . أما منحى هذا الامتياز وذاك التفوق فيكمن في القدرة على استكناه الباطن والعزوف عن الظاهر ، بحيث يبرز التعارض واضحاً ومشهداً عليه بين

(١) لعله من الضروري ، في هذا الاطار البالغ الحساسية من المسألة ، ان نشير الى ماهو قائم من اختلاف بنوي ووظيفي بين «النبي» و «الرسول» . ففي المسيحية اليسوعية ، يتم ترتيب الموقف ، بعد الرب الاله ، انطلاقاً من الرسل وانتهاء بالقوات ، مروراً بالأنبياء والمعلمين . (انظر في ذلك : رسالة القديس بولس الاولى إلى أهل كورنثوس ضمن : الكتاب المقدس ١٢/٢٨) . و «النبي» ، هنا ، أي بالمعنى المسيحي اليسوعي ، يطلق على المتنبيين الذين يعلن عن أنهم سبقوا يسوع المسيح ؛ في حين أن «الرسول» يعني به ، عادة ، أحد أولئك الحواريين الاثني عشر ، الذين «أرسلهم» يسوع الرب للدعوة الى دينه والتبشير به . أما في الاسلام لاحقاً ، فإن التمييز بين النبي والرسول يتم من موقع الاشتقاق اللغوي . فالاول (النبي) هو الذي يتلقى الوحي من الله بأمر ما يلزم به نفسه ، دون أن يكون بالضرورة مدعواً للقيام بالدعوة له والتبشير به . أما الرسول فهو الذي يتلقى الوحي بـ «أمر الهي» هو ملزمٌ بالدعوة له والتبشير به . وانطلاقاً من ذلك ، فإن محمداً بن عبد الله يعتبر نبياً ورسولاً ، في وقت واحد .

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة الى محمد بن عبد الله ، فإن يسوع المسيح لم يكن - وفق الموقف المسيحي اليسوعي - لا هذا ولا ذاك ؛ وإنما كان الرب أو ابن الله ، المشارك في الناسوت واللاهوت ، معاً وفي حين واحد . وقد سبق ولاحظنا أن التصور اليهودي لـ «النبي» كان ، في حينه ، متميزاً ومختلفاً عن مثليه اللاحقين ، المسيحي والاسلامي . (انظر حول ذلك مجتمعاً : الكتاب المقدس - سفر الخروج ١٧/١ ؛ وكذلك عصام الدين حفني ناصف : المسيح في مفهوم معاصر - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٦ و

Baruch Spinoza: Der Theologisch-politische Traktat- a.a.O., S. 19).

«الباطن» و«الظاهر» ، بين «الجوهر» و«المظهر» ، بين «الروح» و«الحرف» .

هكذا نجد أنفسنا ، اذن والحال على النحو المقدم فوق ، أمام غمطين من «القراءة» . النمط الأول هو ذلك الذي يتجسد بامتلاك البنية اللفظية للحرف الأبجدية وباخضاعها لنسق محدد ومنضبط من «التهجئة» . أما النمط الثاني فينهض على استكشاف العنصر «الأخر» الخفي من تلك الأحرف ، وعلى الاستغراق فيما تنطوي عليه من دلالات ورموز جَوَانِيَّة ذات مصادر «ربانية دقيقة» . وفي هذه الحالة الأخيرة ، نجد أنفسنا وقد غدونا وجهاً لوجه أمام «الكلمة» ، من حيث هي جسد الكون وروحه ، وكذلك القناة المقدسة التي تقود إليه وتفصح عنه افصاحاً تاماً وعلى سبيل الحدس الكلي والمطلق .

ان «الأمية» تظهر ، ضمن التصور المطروح ، بمشابها قصوراً أبجدياً مطلوباً بذاته ، أولنقل عزوفاً عن الأبجدية واستعلاءً عليها وتجاوزاً لها . وهي ، بهذا الاعتبار الأخير ، التجاوزي ، تبرز بصفاتها الحكمة القصوى ، أو - بصيغة أكثر دقة - التعبير الرمزي والضمني عن هذه الحكمة . وإذا أوغلنا في تحديد الموقف ، فرجما تسنى لنا القول بأنها (أي الأمية) تعلن عن نفسها من حيث هي الجوهر والمظهر ، في آن واحد ؛ ولكن ، كذلك ، من حيث هي توحيد غير متكافئ بين وجهين اثنين لوضعية واحدة . أما هذه الوضعية فيمكن تلخيصها بأنها الإعجاز عن طريق الجهل (لنقرأ الجهل هنا بمثابة عزوفاً طوعياً) ، والجهل عن طريق الإعجاز . ولا بد من التنويه ، في هذا المعقد الدقيق من المسألة ، بأن «الجهل» حيث يعني «عزوفاً طوعياً» عن معرفة هذا العالم (التي تعتبر هنا معرفة الظاهر) ، فإنه يعدل ويساوي ، إذ ذاك ، المعرفة اللدنية القصوى ، التي يمكن التعبير عنها ، هنا ، بـ «العرفان» ، أي معرفة لطائف الكون الرباني . مثل هذه المعرفة ، وحدها ، تمكن من تحقيق الإعجاز والمعجز في عالم الاعتيادي والعادي ، أي العالم المادي المشخص بما ينطوي عليه من «كثافة» وانشداد إلى «المادة» و«خطيئة» الخ . . .

ان القديس بطرس تمكن من شفاء الرجل الأعرج بسبب من أنه أُمِّي ؛ أي لأنه يمتلك المعرفة اللدنية القصوى (العرفان) ، ومن ثم بسبب من أنه يتصل بـ «الكلمة» الربانية اليسوعية ، التي تتساوى ، هنا ، مع يسوع المسيح نفسه .

وجدير بالاشارة المكثفة الى أن «أمية» النبي أو الرسول تحولت ، لاحقاً وعلى امتداد قرون طويلة انتهت الى قرننا الحالي ، الى مشكلة كبرى وبالغة الحساسية ضمن الحوار المسيحي (والاسلامي) . ولا بد من القول بأن هنالك ما غدا يشكل «معطيات» في التاريخ العقيدي المسيحي وغيره يعمل البعض أو الكثير على أن يشتق منه مصادر وحججاً ومسوغات للتركيز على قضية «الامية» الأبجدية تلك . فعلى صعيد الديانة المسيحية ، نلاحظ أن يسوع المسيح يظهر - في «النصوص المقدسة» - دائماً محدثاً ، وليس كاتباً محرراً . وهذا ما جعل المؤمنين بهذه الديانة ورجالها اللاهوتيين يرون في عزوفه عن الكتابة وجهاً من أوجه الأمية ، بالمعنى المأتي عليه آنفاً ، وجانباً من جوانب «الكلمة المنطوقة الأمرة» .

وعلى ذلك النحو ، يغدو متعيناً علينا أن نفهم تلك الكلمات (أمية ، معرفة لدنية ، عرفان ، الكلمة) على أنها مترادفات تؤدي ، مجتمعة ومنفردة ، إلى «البراءة» و «البدئية» و «الطريق» و «الحق» و «الحياة» الخ . . . وإذا كان الوضع كذلك ، فلعلنا نكون ، وقتئذ ، قد بلغنا نقطة دقيقة وحاسمة على صعيد المسألة المطروحة ؛ تلك هي التي تتمثل في أن نقيض الصفات المذكورة تَوّاً - وهي صفات إلهية ربانية ذات طابع يقوم على الإطلاقية الشمولية والحميمية - يتجسد في ما بعدها ، أي ما بعد البدئية المشخصة بهذا العالم المادي «الحسي والشريري» عموماً . ألم يعد بعد ورود تلك الحشيات ضرورياً أن نواجه النتيجة التالية : ان اللغة المكتوبة بالحرف هي لغة هذا العالم ؛ في حين ان لغة الكلمة المنطوقة هي لغة ذاك العالم . نعم ؛ ان هذا يمثل جوهر الموقف الانجيلي ، الذي يؤكد على أن «الكلمة كان في البدء وسيبقى في المنتهى» .

ان ذلك ، جميعاً ومجتمعاً ، يدعونا الى ان نفهم ما أعلنه بولس ، عماد المسيحية ، على الصعيد المعني هنا بمثابته أساساً مبدئياً وموجّهاً في العقيدة المسيحية اليسوعية ؛ مع العلم أن بولس هذا نفسه لم يكن «أمياً» بالاعتبار الأبجدي . لقد كتب في رسالة له ما يلي ، بكثير من الدقة والوضوح وبجهد ملحوظ وحديث لتنظير الموقف الديني الجديد :

«فإنه قد اتضح انكم رسالة المسيح التي خدمناها نحن وقد كُتبت لا بمداد بل

بروح الله الحي . لا في ألواح من حجر بل في ألواح القلوب من لحم . . .
الذي جعل فينا كفاءةً لخدمة العهد الجديد لا الحرف بل الروح لأن الحرف
يقتل والروح يُحيي»^(١) .

فكما هو واضح وبيّن ، ليس بإمكان «الحرف» أن يمسّ عمق ذلك «الروح الالهي»
على نحو من الأنحاء ؛ أما «الكلمة» التي لا تكتب على ألواح من حجر ، كتلك
التي كتب عليها موسى «شريعته» ، فإنها تُنطق ، وتُخرج من الروح . وكما يقال
لاحقاً ، «الكلمة» هي ما يخرج من «القلب» ليدخل إلى «القلب» . ان هذه
«الكلمة» ، وحدها ، هي التي تنطوي على الايمان العميق بيسوع المسيح ، بحيث
تغدو مع ذلك الايمان ويسوع المسيح هذا أمراً واحداً وحالة واحدة وعمقاً
واحداً :

«إن الكلمة قريبة منك في فيك وفي قلبك - يعني كلمة الايمان التي نبشر نحن
بها»^(٢) .

والأمر ذاته يتضح ويبرز لدى بولس على نحو أكثر تحديداً وضبطاً حين يتعلق
(أي الأمر) بالمصطلح النظري التأملّي . هاهنا ، نواجه ما يلح عليه بولس من
تعارض جوهري بين «العلم» و«المعرفة» ، بين «العقل» و«التأمل» ، وكذلك بين
(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الثانية الى أهل كورنثس ٣/٣ ، ٦ . في هذا السياق ،
جدير بنا أن نشير إلى أن بولس - في ايلاته تلك الأهمية للتعارض والتضاد بين «الروح» و
«الحرف» - وصل الى تحديد خط التعارض والتضاد الذي يفصل ، برأيه ، بين اليهودية والمسيحية
اليسوعية (البولسية) . ففي دفاعه عن «اليهودي» ، كما يفهمه ، أي كما يقترحه ، يكتب موضعاً
بكثير من الدقة والحزم :

«ليس اليهودي هو من كان في الظاهر ولا الختائاً ما كان ظاهراً في اللحم . بل إنما اليهودي
هو من كان في الباطن والختائاً هو ختائ القلب بالروح لا بالحرف» . «الكتاب المقدس -
رسالة القديس بولس الى أهل رومية ٢/٢٨ - ٢٩» .

إن في التعارض والتضاد اللذين يطرحهما بولس بين «الروح» و«الحرف» ، عنصراً رئيسياً من
عناصر المسألة المناقشة ، هنا . وكما هو ملاحظ ، فإن موقف بولس من «الحرف» ينطوي على كثير
الإدانة الوجودية (الانطولوجية) والأخلاقية القيمة . وهذا ما أدى به إلى إحكام قبضته - وإن
بدون حزم - على اليهودية اليهودية الطقوسية عمقاً وسطحاً .

(٢) نفس المصدر السابق ومعانيه ٨/١٠ .

«العلم» و «المحبة» . أما طبيعة هذا التعارض فتتحدد ، أساساً ، من التعارض الذي عرضنا له في مواضع سابقة والذي يقوم على قطبي «الداخل» و «الخارج» ؛ كما أشرنا إلى أن هذا التعارض ظهر ظهوراً كثيفاً في النصوص الانجيلية «القانونية» ، وإن بكثير أو قليل من العمق والدقة الاصطلاحية . وفي نصوص بولس لعلمنا نشين ذلك بوضوح ودقة يتجاوزان ماهو الأمر عليه في النصوص الأولى . يقول بولس :

«العلم ينفخ والمحبة تبني . فإن كان أحد يظن أنه قد علم شيئاً فإنه لم يعلم بعد شيئاً كما ينبغي أن يعلمه . أما إن كان أحد يحب الله فهذا يعرفه الله»^(١) .

إن ذلك إن أخذ به مجتمعاً بعد الإقرار به ، فإنه حينذاك سوف يعني - ضمن ما يعنيه - حذفاً لـ «التاريخ» بمثابته حدثاً مشخّصاً وذا سياق محدد . ذلك أن «المعجزة» تحمل محله ، بما هي «حدث» أو بالأحرى «طفرة» لا تتحدد بنمط ما من أنماط التموضع الزماني والمكاني المشخص . كما ينطوي ذلك على إدانة لـ «التاريخ» ، الذي يؤخذ - في هذه الحال - من حيث هو تجسيد مكثف للانحراف والخطيئة ، هذه الخطيئة وذاك الانحراف اللذان يمثلان - في هذا السياق - مرحلة «ما قبل الكلمة» . وهذا ، من طرفه ، يضعنا ثانية - وإن بصيغة أخرى متميزة ومخصصة - أمام الموقف اللاتاريخي اللاتراثي ، الذي تنطلق منه العقيدة المسيحية اليسوعية ، على نحو العموم وضماً أو صراحةً . وإذا كنا ، في موضع سابق ، قد أتينا على التصور المسيحي اليسوعي لـ «التاريخ» ، فإن الأمر ، الآن ، يتصل بالعلاقة بين هذا الأخير و «الكلمة» ، تلك العلاقة التي تفصح عنها ، بحزم وقطعية ، من حيث هي علاقة سلبية تضادية يتم بمقتضاها نفي التاريخ لصالح «الكلمة» .

وفي سبيل مزيد من التدقيق في المسألة إياها ، ينبغي التنبه بان التصور المسيحي اليسوعي للتاريخ يظهر - في ضوء ما نحن بصدد معالجته - بصيغتين اثنتين رئيسيتين . الصيغة الأولى منهما تعلن عن نفسها عبر الإقرار بأن اللحظة «التاريخية» تجد مجال ظهورها وتحققها زماناً ومكاناً على صعيد العالم الحسي ، أي العالم الذي يمثل مرتعاً خصباً لـ «الخطيئة والشر» . ومن طرف مقابل ومضاد ، يبرز عالم

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنتس ٨ / ٣-١ .

«الملكوت الرباني» بمثابة نسيج ذاته ، أي العالم الذي يمثل القطع مع التاريخ بالاعتبارين الوجودي (الانطولوجي) والقيمي الأخلاقي . فهو نسيج ذاته ، لأنه غير مشروط لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحركة .

ها هنا ، لا يجد النص الانجيلي أدنى حرج حيال التحدث عن أحداث تسلك في تعاقبها مسلكاً زمانياً تراتيباً (كرونولوجياً) ؛ بغض النظر عما يمكن أن نكتشفه من اضطراب وتشوش ومبالغات وتلفيقات في أثناء ذلك .

أما الصيغة الثانية من التصور المسيحي اليسوعي للتاريخ - وهي ما نسمى الآن إلى الاحاطة به أولياً ورئيسياً - فتنهض على اعتبار «التاريخ» مغايراً لـ «الأصل» الملكوتي» ودخيلاً عليه . وجدير بالقول ان المعنى بذلك «الأصل» هو ، في هذا السياق المحدد ، يسوع المسيح ، «الحمل المذبح منذ بداية العالم» ، أي - وهذا له هنا أهمية خاصة - الملكوت الرباني نفسه . ولا بد من الاضافة بأن هذا الأخير وإن كان كذلك ، أي ملكوتاً ، فإن «ملكوتيته» هذه تظل ناقصة ومبتورة ، بدرجة ما وبمعنى ما ، إلى أن «تقوم الساعة» . وبين ، هنا ، أن الانتقال من الملكوتية المعنية يجد تعبيره الأوفى في أنها تخضع - في حقبة معينة - للتموضع التاريخي في شقيه الزماني والمكاني . فهذا التموضع حيث يحاith تلك الملكوتية ، بأفق ما وبمرتبة ما ، فإنه يكون قد حدّ منها بالمعنى الدلالي الوظيفي ، أي بمعنى الانتقاص من هيمنتها وشمولها وإطلاقيتها . ويبقى هذا الكلام صحيحاً حتى حين نأخذ بالحسبان أن التاريخ في كُبْحِه ذاك لهيمنة وشمول وإطلاقية الملكوت ، يسلك طريق تجاوزه وتخطيه ورفع على أيدي الملكوت الرباني ذاته ، بحيث لا تبقى إلا «الحقيقة» مجسدة بهذا الأخير نفسه .

وقد يكون ذلك الموقف الأخير واضحاً شديد الوضوح في الكلمة التي اتهم فيها بطرسُ اليهود بقتل يسوع المسيح ، والتي اعلن فيها أنهم ، بهذه «الفعلة النكراء» ، قتلوا مبدئ الحياة :

«ان اله ابراهيم واسحق ويعقوب إله آبائنا قد مجد فتاه يسوع الذي أسلمتموه انتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وقد حكم هو بإطلاقه . فأنكرتم أنتم القدوس الصديق وسألتم أن يوهب لكم رجلاً قاتل . وقتلتم مبدئ الحياة

الذي أقامه الله من بين الأموات ونحن شهود بذلك»^(١) .

ان «مُبدىء الحياة» يُقتل ، بعد أن يكون - وفق السياق البطرسي المعلن - قد أحدث «الحياة» ، أي بعد أن يكون قد أقام الملكوت المجسّد به هو نفسه والممثل به هو ذاته . وكما هو قابل للاستنباط من نفس السياق ، فإن ذلك يتضمن الإشارة إلى أن «الخطيئة الأصلية» ، التي تبرز إلى الوجود مع آدم وحواء بتأثير من «الحية الغاوية» ، تحمل التعبير المرّمز عن كونها تمثل صكّ البشر والانتقاص من «مُبدىء الحياة» - الملكوت الالهي . وبصيغة أخرى أكثر تكثيفاً يمكن القول بأنها (الخطيئة الأصلية) تبرز ، هنا ، من حيث هي شرح عميق وضروري ضرورة الملكوت في جسد ذلك الأخير ؛ أو - وهذا تحديد منطلق من مقتضيات المسألة التي نبحث فيها الآن - من حيث هي ، بالضبط ، ما نعينه تحت مصطلح «التاريخ» أو «التاريخية» . وهذا ما يجعل «التاريخ» إياه صورة من صور فعل شيطاني يراد منه النيل من «الارادة الربانية» ، أو شكلاً من أشكال الهلوسة المضادة لتلك الارادة .

والان ، إذا ما استعدنا الموقف برمته ، أي - تحديداً - من موقع بنيته ووظيفته ، فاننا نلاحظ أن «الأمية» تمثل ، هنا ، الوجه الآخر من «التاريخ» ، بما يستلزم ذلك من ارتفاع على التاريخ وتجاوزه وتخطّيه عبر الملكوت الالهي . هذا أولاً ؛ أما من الناحية الأخرى ، فإن «الأمية» إياها تقدم نفسها ، مسيحياً يسوعياً ، على أنها النقيض لـ «الخطيئة الأصلية» والمثيل لـ «النقاء» ، الذي يندغم ، في هذا الحقل ، بـ «عالم الملكوت الالهي» ، أو يمثل ملمحاً من ملامحه ووجهها من أوجهه . ومن هذين الاعتبارين الاثنین ، تتضح «الأمية الابجدية» بمثابة المدخل إلى يسوع المسيح بكل ما ينطوي عليه من حيثيات كونية وقيمية اخلاقية .

وإذ نكون قد بلغنا هذا المنعطف من المسألة ، فإنه يغدو بمتسعا القول بأننا إذا كنا - حتى الآن - قد واجهنا مجموعة متنوعة من التصورات (والمصطلحات) ، فإن ذلك لا يعني أنها تخرج عن كونها ، مجتمعةً ، تعبيراً عن قطبين اثنين كبيرين يتمحور حولها جمع من الهوامش والتوابيع والذبول . ومن هنا ، كذلك ، نتبين

(١) الكتاب المقدس - أعمال الرسل ٣/١٣ - ١٥ .

مصادر الصعوبات الكبرى والصغرى والالتباسات التلقائية العفوية والأخرى التي وُلدت وبلورت قصداً في إطار الخصومات أولاً ، والمعارك والصراعات ثانياً ، التي دارت رحاها بين الأطراف المتعددة والمتنوعة على ساحات النشاط السياسي والديني والعمل الاقتصادي والاجتماعي منذ نشوء المسيحية اليسوعية وعلى امتداد مراحل لاحقة في فلسطين على نحو خاص ، كما في بقية الولايات الرومانية وفي روما نفسها عموماً .

وجدير بنا التنويه بأن هنالك وجهاً آخر من المسألة يستحق التفاتة عميقة من الباحثين على صعيد العلاقة بين «الأمية» من طرف و«الكمال» أو «الخطيئة» من طرف آخر . نعني بذلك البحث عن تلك العلاقة في جذور قديمة لها تتمثل ، ضمن ما تتمثل به ، بالأسطورية الشرقية (العربية) القديمة وفي الأصداء الواسعة التي انطلقت منها واستقرت في شخص «العهد العتيق» . ولعلنا نجبرؤ اذ نعلن أن البحث عن المسيحية اليسوعية في اليهودية هو - ضمن حدود اساسية اولية - القادر على الامساك بمفاصل رئيسية للعلاقة المذكورة . وإذا كنا قد طرحنا هذا الرأي ، فإننا لا نزعم أن الأمر يتعلق باشتقاق ميكانيكي للمسيحية المذكورة من اليهودية . ان الحفاظ على الخصوصية النوعية التي تمتلكها الأولى حيال الثانية وعلى صعيد العلاقة المحددة فوق ، يمثل بالنسبة اليها مبدأ منهجياً ونظرياً نحرص كل الحرص على التمسك به . ذلك لأن التفريط بهذا المبدأ من شأنه أن يحدث اضطراباً عميقاً في فهم العلاقة بين الدينين المذكورين .

وعلى ذلك الأساس ومن موقعه وفي ضوءه ، نرى ان مفتاح الموقف ، هاهنا ، يكمن في اسطورة التكوين ، كما وردت في «العهد العتيق» ، وتحديداً وتخصيصاً في «الملابسات» الربانية والانسانية (الآدمية) التي أحاطت بحدوث «الخطيئة الأصلية» على أيدي الثنائي الانساني آدم وحواء ، وعبر البهيمة الحية ، وأخيراً وعلى نحو متوسط على يد الرب الاله نفسه . أما المسألة كما يقدمها لنا «العهد» فقد حدثت ضمن المعطيات التالية ، التي كنا نعرفنا إليها في سياق آخر : بعد أن جبل الرب الاله آدم من تراب ونفخ في أنفه نسمة حياة صار بعدها نفساً حية ، غرس جنة جاعلاً منها ظلالاً وارفة بالأشجار الطيبة المثمرة ، وخصوصاً باثنتين عظيمتين منها . أما الأولى فأطلق عليها اسم «شجرة الحياة» ، في حين أطلق على

الثانية اسم «شجرة» معرفة الخير والشر» . وبعد أن انتهى من ذلك كله ، أمر
«الربُ الإلهُ الإنسان قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل . وأما شجرة معرفة الخير
والشر فلا تأكل منها فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً»^(١) .

بيد أن آدم ، الذي صنع الرب من ضلع له امرأة هي حواء ، لم يتردد مع قرينته
هذه في تناول الثمار اليانعة من الشجرة المحرمة . لقد فعلاً ذلك مستمرين إياه تحت
التأثير النافذ الذي مارسه عليهما «الحية الذكية المحتالة» ، أي - بحسب الرب
التوراتي - الحيوان الأكثر احتيالاً وخديعة ضمن حيوان البرية .

ولكن «النتيجة» التي ترتبت على تلك «المخالفة الشنيعة» كانت خطيرة كل
الخطورة بالنسبة الى الفريقين ، الرب الإله من طرف وآدم وحواء من طرف آخر .
فلقد انفتحت وفتحت أعين الزوجين اللذين كانا من قبل في حالة من العماء
السديمي . وهنا بالضبط ، كمن الأمر الخطير الذي كان من شأنه أن «افتضح» أمر
الكون والآلهة . ذلك أنها ، إذ ذاك ، علما

«أنها عريانان فخاطا من ورق التين وصنعا لهما منه مآزر . فسمعا صوت
الرب الإله وهو متمشٍ في الجنة عند نسيم النهار فاحتبأ آدم وامرأته من وجه
الرب الإله فيما بين شجر الجنة . قال فمن أعلمك أنك عريان هل أكلت من
الشجرة التي نهيتك عن أن تأكل منها . فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي
أعطتني من الشجرة فأكلت . فقال الرب الإله للمرأة ماذا فعلت . فقالت
المرأة الحية اغوتني فأكلت»^(٢) .

لنلاحظ بدقة ، هنا ، عملية الانتقال من مرحلة «ما قبل الغواية» إلى مرحلة
«الغواية» ، لأن من شأن ذلك أن يضع أيدينا على نقاط هامة بالنسبة إلى المسألة التي
نعمل على تفصيلها ، الآن . وإذا أعدنا بناء المصطلح المأثري عليه تواءم مع جيمس
فريزر ، برزت المرحلة الأولى بثابتها «عصر البراءة» ، في حين تعلن الثانية عن
نفسها تحت حد «السقوط»^(٣) . وهنا ، في هذا المعقد من المسألة ، يطرح السؤال

(١) الكتاب المقدس - سفر التكوين ٢/١٦-١٧، ١٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ٣/٧-٨، ١١-١٣ .

(٣) انظر: جيمس فريزر - الفولكلور في العهد القديم ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص
٤٧ - ٤٨ .

المركب التالي نفسه بكثير من الاعتبار الوظيفي : إذا كان ذلك العصر عصر براءة ، فأى براءة هذه ، براءة «ماذا» ؟ وكذلك ، فذاك السقوط ، سقوط ماذا ، ومم ؟ ان النص التوراتي يقدم الاجابة عن ذلك السؤال المركب مضمّنة مرة ، ومفصلاً عنها على نحو أو آخر مرة أخرى . ولكنه في كلتا الحالتين يعلن ، بوضوح وحزم ، أن «تفتّح الأعين» ، أي «المعرفة» هو - على الأقل وضمن الاحتمال الأضعف - بداية الولوج الحقيقي والجاد في عصر السقوط ذاك والسبب الخفي والمعلن الذي يقود إليه . وعلينا أن نفهم من ذلك ونستنبط منه أن «اللامعرفة» تجسد عصر البراءة ، وذلك بما تتضمنه وتنطوي عليه من «سعادة قصوى» و«طمأنينة» لا يعكسها شيء من قبيل مشاعر القلق والاضطراب والتفكير والتحسب الخ . . . وإذا تفحصنا كنه النقيض لتينك السعادة والطمأنينة ، استبان لنا أنه يكمن في الإكثار من مشقات الحمل والولادة بالنسبة إلى حواء (المرأة) ، وفي جعل آدم (الرجل) يأكل من عمله الخاص (من عرق جبينه) ، أي - بكلمة - في «الفعل ، العمل» . هذا ما يعلنه النص التوراتي بلسان الرب الاله بصيغة الإقرار والإدانة ، الاقرار بأن هذه «العقوبة» سوف تبقى ما بقي الانسان ، والإدانة لـ «نوعية» هذه العقوبة واحتقارها . لتبين ذلك توراتياً :

«لأكثرن مشقات حملك بالألم تلدين البنين وإلى بعلك تنقاد أشواقك وهو يسود عليك . وقال لآدم . . . بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى التراب تعود»^(١) .

على هذا النحو المتميز ، تبدو حالة «البراءة» مقترنة اقتراناً داخلياً ضرورياً بحالة «المعرفة اللدنية» ، أي «اللامعرفة الانسانية» المحددة بسعادة داخلية إيمانية (تسليمية) ، لا يخالطها شيء من «الخارج» ، هذا الخارج المتدغم - في سياق الوضعية المشخصة هنا - بالآلام والعرق والجهد ، العمل . ومن هنا - وهذا له أهمية دلالية بارزة على صعيد المسألة المطروحة - كان «سقوط» آدم وحواء في «الخطيئة» معادلاً لـ «المعرفة» . وحيث نضع في الحسبان أن هذه الخطيئة تكتسب «طبيعتها التاريخية» عبر الاعلان عن «أصليتها» ، فإن «المعرفة» - من طرف آخر -

(١) الكتاب المقدس - سفر التكوين ٣/١٦-١٧ . ١٩ .

تغدو المعلم الكبير الذي يحدد شخصيتي آدم وحواء الجديدتين . ومن البين أن ما نواجهه من تقاطب قطعي بين «البراءة الالهية» والمعرفة الحسية البشرية هو - في هذه الحال - تقاطب قطعي بين المطلق والتاريخ ، بين اللاتموضع الزماني المكاني والتموضع الزماني المكاني . ومن ثم ، نستطيع الوصول إلى جانب آخر من الموقف حيث نلاحظ ان الاقتران بين تلك البراءة الالهية و «التأمل الداخلي» ، أي المعرفة اللدنية ، هو - ضمن السياق المقدم - بمثابة اقتران بين مطلق ومطلق . وكما هو بين ، فان مثل هذا الاقتران يقود إلى «اللاشرطية» ، أي الانفلات من حيثيات واعتبارات التاريخ . ودون أن نفهم الأمر على هذا النحو - ذلك لأن الآلهة «قبل» خلق العالم مارست أيضاً حياة تنضح منها مثل تلك الحيثيات والاعتبارات وإن بمقياس إلهي - نشير إلى أن المقصود بذلك يكمن في التمييز بين عالمين اثنين تميزاً وجودياً وأخلاقياً ، هما العالم الالهي والعالم الانساني .

إن ذلك ، مأخوذاً في عموميته ، من شأنه ان يضع أيدينا ، ثانية ، على التصور المسيحي اليسوعي حول اقتران الأمية - بمعنى التأمل الداخلي اللدني - من طرف ، و «الكمال» من طرف آخر ، ذلك الكمال الذي يتجسد بالقدرة الاستثنائية على اجتراح المعجزات وعلى الاتصال بالرب الاله عبر وسيط محدد (تسميه الاسطورة الشرقية - العربية القديمة الآلهة الصغار ، واليهودية موسى ، والمسيحية الروح القدس^(١) ، ويسميه الاسلام الوحي) .

(١) ان مسألة «الوسيط» في المسيحية تسمح بافتراض وجهين يتمان - في النهاية - بعضهما بعضاً . الوجه الأول يتمثل بـ «المسيح الابن» ، بينما يتجسد الوجه الثاني بـ «الروح القدس» . ولما كان «الابن» منحدرأ ، بالأصل ، من روح الرب ، أي - هنا - من الروح القدس ، فانه يظهر مشاركاً لهذا الأخير في «الروحية» و «القدسية» ؛ ومن ثم وعلى هذا الأساس ، يغدو القول بممكنأ بأن الوسيط بين الرب الاله من طرف والناس من طرف آخر هو يسوع المسيح بصفته إلهياً من جهة الرب الاله (من جهة الالهة) وبصفته ناسوتياً من جهة الانسان (من جهة الناسوت) . وهذا يتضمن الاقرار بان الروح والمسيح كليهما يظهران على انهما ذلك الوسيط . وقد قدم بولس ايضاحاً بذلك ، وإن على نحو مضمّن ، أعلن فيه :

«الله واحد والوسيط بين الله والناس واحد وهو الانسان يسوع المسيح» . (الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الأولى الى تيموتاؤس ٢ / ٥) .

لنضبط ، اذن وبكثير من الحذر والدقة ، الفكرة التي يمكن أن نستنبطها من مسار المسألة ، كما تم حتى الآن : ان يسوع المسيح ، الذي عرفناه محدثاً وليس كاتباً محرراً أو قارئاً ، هو نفسه ، وليس غيره ، الذي يبرز مخلصاً وحيداً للعالم . ومن هذا الموقع وفي سبيل انجاز مهمات الخلاص ، يتفخ في تلامذته وصديقيه من روحه ، أي من روح أبيه ، لكي يملكوا شيئاً من «الروح القدس» الذي يمنحهم ، من طرفه وبدوره ، قوة عظمى للصبر على الآلام وللکفاح من أجل «عالم الملكوت» . وهؤلاء القديسون يقومون ، هم أيضاً ، بمهمة التفخ في الخطاة من الزناة والبؤساء لكي يزيلوا خطيئتهم جميعاً . ان يسوع المسيح هذا هو الذي يبشر بأن «الكلمة» الحققة - أي الربانية - ليست هي تلك التي يلوکها اللائكون ، وانما هي الحكمة المنظوقة الأمرة بمحبة ومودة وأثرة . ولما كانت «الكلمة الزائفة» الممثلة بالخطيئة هي التي هيمنت بعد حلول هذه الأخيرة واستحوازها على قلوب «الخطاة» ، فانه أصبح لابد من تحقيق الخلاص عبر السيادة التامة المطلقة لـ «كلمة الرب» ، أي لـ «الملكوت الالهي» . وعلى هذا تترتب فرائض ونتائج عدة ، منها أن «يصعد» يسوع المسيح الى ابيه عبر الصليب ليعود اليهم مخلصاً معزياً ماحقاً للشر وللأشرار .

ومن النقاط الرئيسية التي تبرز في هذا الاطار من معالجة المسألة ، احتمال العودة الى «الجنة المفقودة» ، أي الى الوضعية التي فُقدت بسبب الخطيئة التي ارتكبت من قبل آدم وحواء حين عرفا ماهما ومن هما ومن هو الرب وما الذي يحيط بهما ، وذلك حين استبدلا وضعية البراءة والسذاجة واللدنية المعرفية بمعرفة مادية حسية «عارضة» ، ومن ثم حين استعاضا عن «الكلمة الحققة» بـ «الكلمة الزائفة» . أما ذلك الاحتمال بالعودة الى «الجنة» فيتم عبر الانخلاع من هذا العالم المحكوم بـ «الخديعة» و«العمل - الإجهاد» ، ومن ثم بالعودة الى البساطة والمساواة (المشاعية) التامة .

ان ذلك ، مجتمعاً ، يشير الى أن التضحية بـ «العمل» و«الجنس» - بما يتضمنه من مضاجعة وحمل وولادة - و«معرفة» هذا العالم ، هو الوجه الآخر المقابل والمضاد للسعادة والبراءة والخلاص من «مشاكل هذه الدنيا واستلاباتها» . وهذا يضعنا ، ثانية ولكن بسياق آخر متميز ، أمام الاتجاهات العامة للمجدلية اللاهوتية

اليوحناوية ، تلك الجدلية التي رأيناها تقدم طرحاً معمقاً - بحدود المسيحية
اليسوعية - للعلاقة بين الراهن والقادم ، الموت والحياة ، الرقاد والقيامة ، وأخيراً
بين تعاسة هذا العالم «السعيد زيفاً وخديعة» من طرف وسعادة ذلك العالم «السعيد
حقاً وقطعاً» ، ومن ثم بين «الحب» و«حفظ الكلمة» . لقد كان يسوع المسيح
اليوحناوي هو الذي أعلن : من آمن بين وإن مات فسيحيا ، لأنني أنا القيامة
والحياة ؛ ومن احبني يحفظ كلمتي : أما من لا يحبني فلا يحفظ كلمتي ؛ ولذلك ،
فمن لا يؤمن بي هو على الخطيئة ؛ والخطيئة إلى الجحيم ا وعلى ذلك ، ف«هذه»
الحياة هي موت ، في حين أن «ذلك» الموت حياة . لكن هذا وذاك واردان فقط عبر
الروح اليسوعي .

وإذا كان الأمر على الوجه المقدم ، صبح لنا أن نقول : ان نقطة القوة البارزة
التي امتلكتها المسيحية اليسوعية ، بحسب يوحنا الانجيلي ، هي ذلك النزوع
المتوتر بين الواقع والحلم ، الحلم الذي ألهم الواقع الهاباً وحفزه تحفيزاً ، وإن من
موقع الحلم اياه ومن خلال ادواته اللا واقعية . كما قد نكون محولين ايضاً بتقرير
الحكم التالي : ان نقطة ضعف المسيحية اليسوعية ، بحسب يوحنا الانجيلي ،
كمنت - بالذات - في محاولة امتلاك الواقع عبر الحلم وأدواته اللاواقعية ، أي عبر
الحلم الذي ظل طموحاً مشروعاً ، ولكن مبعثراً ، ومن ثم هشاً . وإذا كنا قد
حددنا نقطتي القوة والضعف من موقع المشروع النصي اليوحناوي ، إلا أننا نستطيع
أن نعمم ذلك حيث نرى النصوص الانجيلية ، في عمومها وإجمالها ، تعبيراً عن
ذلك الموقف . وبعد أن نكون قد اقتحمنا تلك الأبواب المسيحية اليسوعية
(الانجيلية) المتعددة ، نلاحظ أن مسألة الاعجاز والحكمة مقترنة اقتراناً ضرورياً
وقطعياً بشخصية أولئك الانبياء والرسل والقديسين ، الذين يحافظون على «البراءة
والسذاجة والبدئية» ، ويصرون من ثم على «الكلمة المنطوقة» المتعارضة مع
«الكلمة المكتوبة» ؛ ذلك لأن الأولى من فعل الرب الاله ، ولأن الثانية من فعل
الشیطان (ابليس) الذي يتجسد بأشكال متعددة منها «الحية المخادعة» . وعلى
هذا ، ف«الأمية» الأبجدية هي تعبير عن الصمود في وجه تلك الأخيرة (الحية) وعن
التواصل ، بصيغة أو بأخرى ، بالعالم الآخر ، عالم الملكوت الرباني^(١) .

(١) نشير ، هنا ، إلى أن هذا الموقف من الأمية المعنية انعكس - في حالات معينة - بصور مباشرة =

ومن الطريف والدال على صعيد الوضعية المسيحية اليسوعية ، الباكورة عنى نحو الخصوص ، ان نلاحظ أن ذلك الموقف من الأمية الأبجدية استجاب ، بمعنى بين وبدرجة ملحوظة ، لوضعية جموع الفقراء والمفقرين من الطبقة الدنيا والعبيد ، الذين كانوا - بطبيعة الحال - أميين بالاعتبار الأبجدي . ونكاد نقول ، إن التوزيع الطبقي الاجتماعي في مجتمع الامبراطورية الرومانية عموماً وضمن فلسطين خصوصاً ظهر ، كذلك ، بمثابة توزيعاً في الوضعية التعليمية تحديداً . فالتعلمون والأميون مثلوا فريقين متناقضين متقاطعين ومتخاصمين أو متصارعين في حالات وأوضاع معينة ؛ ذلك لأن إمكانات ووسائل التعلم كانت - من الناحية العامة - حكراً في أيدي أبناء الملاك العقاريين وسادة العبيد وغيرهم من الطبقات والأنساق الاجتماعية العليا (والوسطى بدرجة أو بأخرى) . ومن هنا ، كان على المسيحية اليسوعية ، خصوصاً في ارهاصات الأولى ، أن تخاطب تلك الجموع من الفقراء والمفقرين الأميين ، وأن تعلن أن طريقها هو طريقهم على الأصعدة الاجتماعية الاقتصادية والروحية والتعليمية . وحيث كان الأمر على هذا النحو ، فإن «الأمية» الأبجدية ظهرت من حيث هي وجه من أوجه الدين الجديد ، في حين أن «المعرفة الأبجدية» برزت بصفقتها شكلاً من أشكال الغرور العقيدي وأحد مظاهر الامتيازات الثقافية التعليمية التي امتلكتها الطبقات العليا ووظفتها في مقارعة أولئك .

تلك المعطيات نستطيع أن نقرأ فيها لونا من ألوان النزوع الشعبي الديموقراطي ، الذي انطوت عليه المسيحية اليسوعية الباكورة وبعض الاتجاهات والحركات المسيحية اللاحقة . وهنا ، نكون قد أحطنا بعامل آخر من العوامل الكثيرة التي كمننت وراء انتشار ذلك الدين بصورة سريعة وكاسحة في أوساط الفقراء والمفقرين ، الذين وجدوا فيه ، ضمن ما وجدوا ، انعكاساً لوضعيتهم الثقافية والتعليمية . ولا بد في هذه الحالة السيكولوجية الروحية أن يكون القول الشعبي التالي قد برز ضمناً أو على نحو مفصح عنه في إطار تلك الأوساط ومن موقع استجابتهم للدين المعني واستجابة هذا لهم : يَلِي مِثْلُنَا تَعُولَعْنَا .

= من الرفض للتعلم وللكتيب وللقرأة لدى بعض الأمراء المسيحيين في اوربيا القروسطية الاقطاعية ، بحيث نُظر الى ذلك على أنه شكل من أشكال الزندقة الدينية ، أو الخروج عن تقاليد الفروسية والنبالة .

وإذا ما بلغنا تلك النقطة الاجتماعية (السوسيولوجية) في مسألة «الامية الأبجدية» ، استبان لنا أمر آخر على غاية الأهمية والحساسية والطرافة بالنسبة إلى جذور وأصول الموقف المدافع عنها على صعيد المسيحية المعنية . ذلك هو أن الوضعية الاجتماعية الطبقة المشخصة تمثل المصدر الموضوعي لتصوير «الامية» تلك ؛ وهو مصدر يتحدد ، كما لاحظنا ، بحضور الطبقات الدنيا حضوراً كثيفاً في الوجود الأيديولوجي العقيدي للمسيحية اليسوعية^(١) . أما مصدرها الثاني - وهو ذو طبيعة ذهنية عقيدية - فيتجسد في مطلب هذا الدين أن يكون ، في أغين تلك الطبقات ، قادراً فعلاً عملاقاً في تحقيق أهدافها ومطامعها في التحرر والخلاص من واقعها المستنفذ تاريخياً اجتماعياً . بتعبير آخر ، يمكن القول بأن هذا المصدر الثاني يتمثل بضرورات بروز عقيدة المعجز والإعجاز ، وذلك على النحو الذي يستجيب ، وإن وهمياً ، لاحتياجات ذينك التحرر والخلاص . ففي حالة من المعجز الذاتي عن تغيير واقع مشخص موضوعي ، تغدو المعجزة شرطاً أساسياً لتحقيق حد ما من حدود وعي جماهيري يقوم على العزاء والرجاء في «عالم ما» من العوالم الزهية المطمئنة الرضية . فالمعجزة ، بما هي كذلك ، تقتضي الخروج عن «العادي» واحتقاره ، ومن ثم البحث عن امكانية فعل ما في عالم ما ، هذا الفعل الذي لا رجاء في تحقيقه في عالمنا . وهذا من شأنه أن يكون قد عنى أن «الأمي الأبجدي» - المؤمن والمنحدر من الطبقات الدنيا - هو أغنى بما لا يقاس وأكثر «معرفة لربه» بما لا يقاس من «المتعلم» - الجاحد أو الكافر .

(١) نعيد إلى الأذهان الشق الثاني من التهمة التي وجهت إلى بطرس ويوحنا حين تمكن الأول من شفاء «الرجل الأعرج» : «فلما رأوا جرأة بطرس ويوحنا وعلموا أنها أيمان وعاميان تعجبوا وكانوا يعرفونها أنها كانا مع يسوع . واذ نظروا الرجل الذي شفي واقفاً معها لم يكن لهم شيء يقولونه في ذلك» .

إن الشق الثاني من التهمة أو «الازدراء» كمن ، كما هو ملاحظ ، في أن الرجلين «عاميان» . و«العامي» يظهر ، هنا ، بمثابة تعبيراً عن «السوفي» أو «المعدم» حرّاً كان أو نصف حر أو الذي ينتمي إلى الطبقات الاجتماعية «الدنيا» بصورة عامة . ولا يخفى ما هو قائم - وفق النص المذكور - من علاقة بنيوية بين تعبير «الأمي» و«العامي» ، بحيث يغدو الثاني وجهاً من أوجه الأول أو صفة من صفاته . وهذا ما يدعم ما أعلنه فوق حول المصدر الموضوعي لـ «الامية الأبجدية» ، في الإطار الذي نحن بصدد معالجته .

هكذا ، نكون قد استكملنا اللوحة الاعجازية في المسيحية اليسوعية بصيغتها العامة الاجمالية ، تلك اللوحة التي ماكان لها - أساساً - أن تنشأ وتبلور لولا الاخفاق من تحت ، أي ذلك الاخفاق الذي حفز على استحداث «ظفر من فوق» ، في البنى العقيدية الدينية بعواملها المنشأة من عواطف ومطامح وآمال جمهور الفقراء والمفقرين^(١) .



(١) في الجزء الثاني من «مشروع الرؤية الجديدة» ، حيث سنأتي على الوضعية الاسلامية الباكرا ، سوف تواجهنا نفس المسألة (الامية الابدئية) ، وإن بكثير أو قليل من الخصوصية . ولابد ، قبل الانتهاء من هذه المسألة ، من الإشارة إلى أن «نصوص الكتب المقدسة» ، من «العهد العتيق» إلى «القرآن» مروراً بـ «الانجيل» وإن أتت مكتوبة بـ «أحرف ابدئية» ، فإن ذلك لا يضعف من الموقف الرئيسي من «الامية الابدئية» ، على نحو ما ظهر معنا . لأن صوغ تلك النصوص كتابية يفترض - وفق ذلك - ألا يكون قد تم من قبل الرسل والانبياء . وعلى كل حال ، تبقى مجموعة من المشكلات الفرعية وغير الفرعية ، التي علينا أن نواجهها في الاطار الاسلامي ، تخصيصاً .

الدور الحاسم لبولس في صوغ المسيحية اليسوعية : هل هذه المسيحية هي البولسية ؟

في ما يسمى «رسائل بولس» ، أي في الرسائل التي لا يشك بانتسابها إليه وفي تلك الأخرى التي وقف البحث العلمي التاريخي منها موقف تحفظ (وقد أشرنا الى هذه المسألة في موضع سابق من هذا البحث) ، نواجه ، حقاً لأول مرة ، المحاولة الدينية التنظيرية الكبرى ، التي استطاعت في مراحل لاحقة أن تتحول الى دين عالمي جديد حائز على مقومات التماسك والوضوح والحزم (مع بعض التراجع والقلق والاضطراب بين الحين والآخر) . وقد كنا أعلننا ان المسيحية اليسوعية ، من حيث هي عقيدة دينية منظمة كنسياً ، تبلورت - أساساً وعموماً - مع بولس ، واكتسبت شخصيتها الرسمية المنسقة والمتسقة عبر جهوده المرموقة ، التي بذلها ووظفها على هذا الصعيد .

ان ما يلفت النظر ، بقوة وبالدرجة الأولى والمحورية ، في «الرسائل البولسية» هو حجمها الموقف لصالح العالمية (الأممية) ، ورفضها القطعي للحدود الضيقة (الجيتوية) ، التي أصر على استمرارها بأشكال عديدة الكهنوت اليهودي المستنفذ تاريخياً اجتماعياً وذهنياً عقيدياً ، تلك الأشكال التي وصل بعضها الى مرحلة حمل السلاح في وجه الدين الجديد . وقد امكن لهذا الأخير أن يأخذ مداه الواسع في اطار روما الامبراطوري العالمي (في حينه) ، حيث مُزقت الأسوار والحدود بين المقاطعات والبلدان القرية والثائية ، وسقطت - بذلك - مشروعية نزعات الانعزال والاكتفاء الذاتي . في هذه الحال ، نلاحظ أن النصوص تكتسب ، والحال كذلك ، افقاً بنيوياً ووظيفياً يظهر في الطريقة الخاصة لاستخدام الكلمات والتصورات والمصطلحات والرموز ، وفي كيفية مخاطبة الناس «عامّة» و«نخبة» بغية

التأثير فيهم إيجاباً باتجاه الدين الجديد وسلباً باتجاه اليهودية واليهود .

كان بولس يعي ، ولاشك ، ما يقوله ويؤكد عليه حين وجه «بيان» الاستراتيجي الصريح التالي لـ «المؤمنين» :
«إلى جميع من برومية من أحبباء الله المدعوين ليكونوا قديسين» ،
وكذلك حين أعلمهم باطمئنان وثقة وقوة وحسم :
«أن إيمانكم يشتر به في العالم كله»^(١) .

انطلاقاً من هذه الأهمية العالمية أو ذات النزوع العالمي ، عمل بولس كل ما بوسعه باتجاه مسألة على غاية الأهمية والحساسية بالنسبة إلى مشروعه ذاك ؛ تلك هي إعادة النظر بنيوياً ووظيفياً في شخصية «اليهودي» ، وذلك على أساس دقيق وصارم من التمييز بين الداخل والخارج ، والجوهر والظاهر ، والروح والجسد . ورغم أهمية هذا الموقف وآفاقه المسيحية (البولسية) اللاحقة ، يمكن أن نرى فيه (أي الموقف) محاولة غير متبلورة للحفاظ على «اليهودية» في سياق «الأهمية العالمية» الجديدة . وقد ظهر ذلك لدى بولس عبر اثنتين من المسائل الكبرى ، التي اعتبرت علاماً مميزاً وكبيراً لليهودية اليهودية ، تلك اليهودية التي سبق أن عملنا على تفصيلها ؛ أما تينك المسألتان فهما «الناموس» أولاً ، و«الختان» ثانياً .

ان بولس - في إطار جهده العقيدي التنظيري للسابق واللاحق (الراهن) ، أي اليهودية والمسيحية - ينظر إلى اليهودي «الموروث» أو «الكلاسيكي» على أنه مرادف لركني اليهودية المركزيين ، اللذين هما الناموس والختان . ومن هذا المنطلق العقيدي المبدئي ، يعلن بولس أن ما يتطابق مع ذينك الركنين لا يخرج عن «الطقس الخارجي أو الظاهري» . ولما كان «الخارج» غير قادر على أن يكون متماسكاً وحقيقياً وصحيمياً بمعزل عن «الداخل» ، فإنه لا يمكن أن يصنع إنساناً سوياً . ومن هنا ، فإن «اليهودي اليهودي» يظل ذا أفق واحد وبعد واحد ، ولا يمكنه - من ثم - أن يكون «ربانياً» .

أما ما يقترحه بولس على هذا الصعيد فيتمثل بذلك النمط من «اليهودي» الذي يجعل الناموس «لنفسه» ، أي الذي يجعل منه حالة خاصة به تغنيه وتخصبه

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ١/ ٨٧ .

عمقاً وسطحاً ؛ كما يتجسد بذلك اليهودي الذي يمارس الختان بمثابة ختاناً له «قلبه» ، قبل أن يكون ختاناً له «قلفته» ، ذلك اليهودي الذي يجعل من قلبه مركزاً تتمحور حوله ومن موقعه كل مظاهر حياته المادية والروحية .

مثل هذا اليهودي هو القادر على التصدي لمهمات التغيير والتحويل التي رآها بولس متمثلة بالتمكين للدين الأممي الجديد . وينبغي القول ان طرح بولس لصورة ذلك النمط الجديد من «اليهودي» لم يكن - في أساس الأمر - من موقع الظن بأن هذا اليهودي هو ، بالذات ، المدعو إلى انجاز عملية التمكين تلك للدين المعني . لم يكن بولس ليرى هذا الرأي ؛ وإلا لدخل في تناقض مع نشاطه الدعاوي نفسه . لكنه اراد من ذلك أن يظهر ما ينبغي ان يتحقق على صعيد الدين الجديد ، أي ان يتحقق ما أسقط من حساب اليهودية . وبكلمة أخرى ، ان من هو قادر على انجاز المهمات الكبرى الجديدة هو المؤمن المسيحي اليسوعي ، الذي ينحزل - في هذه الحال - كل ما سبقه من انماط بشرية ، بما في ذلك النمط اليهودي المقترح آنفاً . كتب بولس محددًا موقفه من ذلك على النحو التالي :

«والأمم الذين ليس عندهم الناموس اذا عملوا بالطبيعة بما هو في الناموس فهو لاء وإن لم يكن عندهم الناموس فهم ناموس لأنفسهم . ويظهرون عمل الناموس المكتوب في قلوبهم وضميرهم شاهد وأفكارهم تشكو أو تحتج فيما بينها . . . إن الختان ينفع ان عملت بالناموس ولكن إن كنت متعدياً للناموس فقد صار ختانك قلفاً . . . لأنه ليس اليهودي هو من كان في الظاهر ولا الختان ما كان ظاهراً في اللحم . بل إنما اليهودي هو من كان في الباطن والختان هو ختان القلب بالروح لا بالحرف . . .»^(١) .

وما يدعو ، هاهنا ، الى التبصر والتمعن يكمن في أن «اليهودي المقترح» الجديد يُعاد النظر في دلالاته الوظيفية ، وكذلك وبطبيعة الحال البنيوية ، بحيث يجد استمراره التاريخي والتراثي في شخصية المسيحي اليسوعي (البولسي) نفسه . وعلى ذلك وفي ضوءه ، فاليهودي - واليهودية بصورة عامة - لم يجر تجاوزه الا بمعنى رفع قيمه الى مستوى أممي (عالمي) ، أي بمعنى تعميمها وجعلها شاملة . وهنا ، تتصدع اليهودية

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٢/ ١٤-١٥ ، ٢٥ ، ٢٨-٢٩ .

الموروثة الجيتوية ليحل محلها ما يلتقي بها أممياً .

لقد حدث ذلك ، تحديداً وتخصيصاً ، بعد ان ارتقت المسيحية اليسوعية الى مقام الدين الرسمي ، دين الدولة الكبرى والمترامية الاطراف ، ومن ثم دين الطبقة أو الطبقات الاجتماعية المهيمنة اقتصادياً وسياسياً . وبصيغة أخرى أكثر تشخيصاً وتعييناً يمكن القول ، ان اليهودية (اليهودية) حافظت على نفسها في المسيحية - بمعان ومواقف متعددة - حين عُممت وأُمت ، بحيث وجدت تجسدها الجديد في صيغة «الأمم» ، بعد أن كانت في صيغتها (الأصلية) مجسدة بالقبلية وبالقبائل (الأسباط) . وإذا ما أردنا التعبير الأقرب عن هذا التحول الاجتماعي المادي ، فأننا نقول مع كارل ماركس : «لقد حافظت اليهودية على نفسها الى جانب المسيحية ليس فقط بمشابهتها نقداً دينياً لهذه الأخيرة ، وليس فقط بصفاتها شكاً مشخفاً في أصلها الديني ، وإنما كذلك وبدرجة كبيرة ، لأن الروح اليهودية العملية ، لأن اليهودية حافظت على نفسها في المجتمع المسيحي ، بل بلغت فيه تكونها الأقصى»⁽¹⁾ . .

ان هذه الوضعية الجديدة انطوت على نقطة ذات أهمية خاصة بالنسبة الى مصائر التطور الاجتماعي والثقافي لـ «المجتمعات المسيحية» ، أي المجتمعات الآخذة بالدين الجديد موقفاً دينياً ايديولوجياً عاماً ومهيمناً . تلك النقطة تمثلت بمرور الفردية والشخصية في نطاق الدين العمومي . ومن الطريف تبينُ العنصر الهام في هذه الصيغة الجديدة ؛ ذلك هو انفتاح آفاق أمام المؤمن الجديد (المسيحي) لكي يكون «شيئاً ما بذاته» مقابل «المجموع» ، أي لكي يدخل هذا المجموع من موقع «فرديته» المتمثلة بـ «داخليته» و «ذاتيته» .

ولقد أسهم ذلك ، بصورة أو بأخرى ، في توليد ارهاصات أولى لفكرة «الضمير الديني» و «الضمير الأخلاقي» ، بحيث قاد - في مراحل لاحقة - الى الاستجابة لمجموعة من التطورات والتحولات الاجتماعية والاقتصادية في اطار العلاقات الرأسمالية الصاعدة . وقد مارست هذه الفكرة دوراً كبيراً في ابراز الخطوط الفاصلة بين اليهودية والمسيحية . وبولس بالذات هو الذي تحمل العبء الأكبر في صوغ الموقف النظري الخاص بهذه النقطة . وقد فعل ذلك عبر المقابلة بين «العهد

1) Marx. Engels- Werke Bd. 1, a. a. O., S. 376.

الأول، اليهودي و«العهد الثاني» المسيحي . أما الأول فيتقوم ، بحسب ذلك النظر البولسي ، بالانطلاق من «الخارج» الذي يتحدد ، بدوره ، بمجموعة من الفرائض والطقوس والشرائع الملزمة الزاماً قطعياً وذا بعد واحد ، في غالب الأحيان ؛ بينما يكمن الثاني في التأكيد على «العالم الداخلي» ، بما يقتضيه من نزوع جواني يتصف بالرهافة والحساسية والباطنية . ومن هنا ، كان اختزال العهد الأول بسمة كبرى وحيدة له ، هي كونه «عقيقاً» مقابل العهد الثاني الذي يبرز ، كذلك ضمن سمة كبرى وحيدة له ، هي كونه «جديداً» . وإذا كان الأمر كذلك ، فشتان ما بين العهدين من تمايز عميق على الصعيدين البنيوي والوظيفي !

«لأنه إن كان دمُ ثيوسٍ وثيرانٍ ورمادُ عجَلٍ يُرْسُ على المنجَّسين فيقدسهم لتطهير الجسد ، فكُم بالأحرى دم المسيح الذي بالروح الأزلي قَرَّب نفسه لله بلا عيب يظهر ضماثركم من الأعمال الميتة لتخدموا الله الحي»^(١) .

وعلى ذلك ومن موقعه ، فإن العهد الجديد ، عهد الفداء الفذ (الفريد) والأبدي ، يُنجز في الضماثر ويكتب على القلوب ، محققاً - على هذا النحو - وحدة الفردي والجمعي ، وواصلأ إلى القلب من الموقف ، الذي هو الضمير . وينبغي أن يُشار ، ثانية ، إلى أن هذا الأخير كان من شأنه أن قاد - وإن على طريق شائكة وعرة - إلى التأكيد على الفردية ، ومن ثم على حد ما من احترام هذه الفردية ، بمعنى الوضعية الديمقراطية المستنيرة . هكذا يعلنها بولس شعلَةً على طريق الضماثر ، تلك الشعلة التي وإن حوفظ فيها على مصطلح «الشريعة» ، فإنها - بالمعنى الوظيفي - أوصلت إلى ما يوازي الشريعة اليهودية ويخالفها ويميزها ويجعل منها ، بالتالي ، نموذجاً يقتدى من قبل الطامحين إلى اكتشاف ذواتهم عبر الذات اليسوعية الفردية . إن مقولة سقراط الشهيرة (اعرف نفسك بنفسك) تبرز هنا بصيغة أكثر جوائية ، وهي «اعرف ضميرك بضميرك» :

«ولكن هذا العهد الذي أعاهد به آل إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب هو اني اجعل شريعتي في ضمائرهم واكتبها في قلوبهم . . . ولا يُعَلَّم بعدُ كلُّ واحد قريبه وكل واحد أخاه قائلاً اعرف الرب لأن جميعهم سيعرفونني من

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الى العبرانيين ٩/١٣-١٤ .

صغيرهم الى كبيرهم»^(١) .

ان البولسية ، التي حملت لواء هذا الموقف المتميز ، حقاً ، في تاريخ المسيحية اليسوعية وقادته ضمن سلسلة من الخصومات والصراعات والملاحقات المتصاعدة عنفاً وضراوة - باتجاه آفاق نوعية عليا ، نواجهها بمزيد من الإيمان في الفردية المتشابكة مع العمومية ، وذلك بصيغة التمييز الذي يقدمه بولس بين «الإيمان» من جهة وبين «أعمال الناموس» من جهة أخرى . والطريف الملفت في هذا السياق يكمن في أن التمييز المذكور يُحيل الدين الجديد إلى لحظة الإيمان ، ليس إلا ، تلك اللحظة التي تنهض على «الجواني» و«الفردى» كليهما وفي آن واحد . وهذا ، بالضبط ، ما نواجهه لدى بولس حين يعلن بوضوح وحزم أن «أعمال الناموس» اليهودي ليست شيئاً إلا بقدر ما تستجيب لمقتضيات ودواعي الإيمان :

«لأننا نحسب أن الانسان إنما يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس»^(٢) .

ولعلنا نلاحظ جانباً آخر هاماً في الموقف البولسي يقوم على تخصيص بولس له «تاريخياً» . وعملية التخصيص هذه تبرز في إطار الجهد النظري الكبير ، الذي بذله من موقع العمل على رفع «الفردية الإيمانية» الى مستوى الهدف الحقيقي والأكبر للعهد الذي عقده ، في حينه ، الرب مع ابراهيم ونسله . وهنا ، أيضاً ، ينجز الأمر تحت اسم الإيمان و«بركته وآفاقه» . بل نكاد نقول ، في هذا المعقد من المسألة ، ان بولس عمل على إعادة النظر في نصوص العهد «العتيق» على نحو يجعل منها ذات بعد بنيوي ووظيفي جديد . أي ان بولس لم يرفض تلك النصوص هكذا وعلى عواهنها ، وإنما عمل على اكسابها شخصية وآفاق جديدة تستجيب للوضعية الجديدة وتتأخرى ، على نحو أو آخر وبدرجة أو بأخرى ، مع نصوص العهد «الجديد» . وإذا كان الأمر كذلك ، فالعتيق يغدو جديداً ؛ كما ان الجديد يستمد شرعيته التاريخية من مواقع ذلك العهد العتيق - الجديد . وفي المحصلة نواجه وضعية يتأخرى فيها الجديد مع القديم على نحو يجد فيه الجديد متسعاً للانطلاق . لتمعن في النص البولسي التالي ، الذي يفصح عن هذا التوجه بكثير من الدقة والضبط الاصطلاحيين والعقديين :

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٨ / ١٠ - ١١ .

(٢) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الى أهل رومية ٣ / ٢٨ .

«فإن الموعد لابراهيم ونسله بأن يكون وارثاً للعالم لم يكن بالناموس ولكن ببرّ الايمان . لأنه لو كان اصحاب الناموس هم الورثة لعُطِّلَ الايمان وأبطل الموعد . لأن الناموس ينشئ الغضب إذ حيث لا يكون ناموس لا يكون تعدُّ . لذلك فالموعد هو من الايمان ليكون على سبيل نعمة حتى يكون الموعد محققاً للذرية كلها»^(١) .

والملاحظ ، هاهنا ، ان بولس القديس ، في طرحه للموقف المعني ، ينطلق من المبدأ التالي الذي نواجهه متشاكساً ومتداخلاً في النسيج المسيحي اليسوعي برمته ؛ ذلك هو أن «الناموس اليهودي» ، بما هو كذلك ، أي بصيغته اليهودية اليهودية ، لم يعد له لزوم لحلول «النعمة» المسيحية ، تلك النعمة التي إذ تحل فإن «الخطيئة الأصلية» تنتفي أصلاً وفرعاً . وإذا كان له (لِلناموس) قبل ذلك من ضرورة ، فإنما لأن الأمر اتصل بضبط وتقنين السلوك الظاهري ، دون الايمان الداخلي والحياة الداخلية . وهذا يشير إلى أن الناموس كان له - في مرحلة سابقة منصرمة - ما يسوغه ويقتضي وجوده ؛ ولكن ذلك يتوقف مع نشوء «الميثاق الجديد» . وينبغي أن يضاف إلى هذا المعقد من المسألة وجه آخر يحدد الشخصية النوعية الجديدة ، ويقوم على ان بولس وإن سَوَّغ ضرورة «الناموس اليهودي» في مرحلة منصرمة ، إلا أنه - في ذلك - ينفي وينسخ الدلالة الذاتية لهذا التسويغ . ومن ثم ، لم يكن هنالك ضرورة ذاتية خاصة لوجود الناموس المذكور ، وإن وجدت ضرورات أخرى «خارجية» لذلك . وهنا ، في هذه الخطوة القصوى من الموقف البولسي ، يواجه تشكيكاً قطعياً وتاماً بأن يكون الناموس المعني قد وجد حقاً في صورته اليهودية اليهودية . إن بولس واضح كل الوضوح في هذه النقطة : «فإن الموعد لابراهيم ونسله بأن يكون وارثاً للعالم لم يكن بالناموس ولكن ببرّ الايمان» ، أي بـ «الايمان المسيحي اليسوعي» .

هل علينا ان نفهم ما سبق من حيث هو نفي حتى للضرورات التاريخية «ماقبل الايمانية» لليهودية ، هل بمتسعا الوصول - عبر ما سبق - الى القول بان بولس ينفي ان يكون لليهودية ضرورة ما ، في أصل الموقف التاريخي عامة ؟ ان

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٤/ ١٣- ١٦ .

المعطيات المقدمة في النص البولسي الأخير تسمح باستخلاص مثل هذا التوجه ،
أو - على الأقل - تتيح التفكير فيه دون التقيده ، في ضوء نصوص بولسية أخرى .
وحيث نكون قد حفظنا في هذا الموقع ، يغدر السؤال التالي وارداً وضرورياً : هل
مثلت اليهودية وهماً أو «شبحاً» في التاريخ ، بحيث يتعين علينا أن نشق التاريخ
المسيحي اليسوعي من تحت ركام هذا الوهم أو الشبح ؟ وإذا ما أجبت بالإيجاب على
السؤال إياه ، وصلنا إلى ما يمكن أن يشكل موقفاً بولسياً أساسياً ، وإن على نحو
خفي ؛ ذلك هو اعتبار السابق واللاحق وما بينهما أشكالا متعددة ومتنوعة لتجليات
المسيحية اليسوعية . وهنا ، يطاح بتصور «التمرحل التاريخي» ، الذي يقوم على
عدة مراحل هي الوثنية أولاً ، واليهودية ثانياً ، والمسيحية اليسوعية ثالثاً ؛ أو على
مرحلتين اثنتين كبيرين ، هما «ما قبل الملكوت الرباني» و«الملكوت الرباني» .

لقد أوصل بولس الموقف المعني هنا إلى الحدود المائي عليها ، حين انطلق من
«فرديته» ، أي من لحظة منهجية تسمح للمؤمن أو اللاهوتي أن ينسق تصورات
ومواقفه وآفاق رؤاه على نحو معقلن أو بمنطق يخدم الموقف التنهيجي التنظيري ،
ويتعارض مع الذهنية الحوارية التلقائية . وعلينا أن نقول ، من هذا الموقع وفي
ضوئه وضمن توجهاته المحتملة ، ان بلوغ «الفردية اليمانية» ذلك المستوى المتميز
وذا الخصوصية المحددة كان قد مثل أمراً ضرورياً ضرورةً بنيوية ووظيفية بالنسبة إلى
نشوء الحوار الديني أولاً ، وإلى الكفاح الديني ثانياً في مجتمع امبراطوري كبير
ومترامي الأطراف ومتعدد النزعات والتوجهات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ،
وكذلك الإتيان . فكان من شأن ذلك ومن نتائجه الضرورية أن أضفى على ذلك
الحوار والكفاح مشروعية ايديولوجية تنامت واتسعت آفاق مصداقيتها شيئاً فشيئاً في
أعين أوساط كبرى من المؤمنين وغيرهم في إطار ذلك المجتمع الواسع .

ولابد ، هنا في السياق الذي يحيط بنا ، من أن نستنبط معطى تاريخياً مما أعلنه
بولس في إطار تمييزه بين تصورين اثنين ذوي دلالة هامة على صعيد البحث في
«الناموس اليهودي» ، وهما «الزلة» و«الخطيئة» . يقول بولس القديس :

«وإنما دخل الناموس حتى تكثر الزلة ولكن حيث كثرت الخطيئة هناك طفحت

النعمة»^(١) .

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٢٠ / ٥

أما المعطى التاريخي الذي نعينه فيكمُن في أن المسيحية اليسوعية إذ نشأت وتبلورت وتعاضمت تأثيرها عمقاً وسطحاً ، فإنما كانت - في ذلك - تعبيراً دينياً مكثفاً عن نشوء وتبلور وتعاضمت أزمة المجتمعات الخاضعة ، في حينه ، للسيادة الرومانية عمقاً وسطحاً ، ومن ضمنها بطبيعة الحال المجتمع الفلسطيني (الكنعاني) . وعلى هذا ، فإن المسألة تتحدد هنا - بأحد معانيها الكبرى - بمثابتها وجهاً من أوجه الاستنفاد التاريخي للعلاقات الاجتماعية الاقتصادية ، ذات النمط العبودي تخصيصاً^(١) . لقد اتت المسيحية اليسوعية حقاً من حيث هي تعبير ديني خاص عن «الخطيئة التي كثرت» و «النعمة التي طفحت»^(٢) ؛ فكانت - بهذا الاعتبار وهذا الأفق - بمثابة الحل للأزمة - الخطيئة (المستعصية) . ومن البين أن هذا الموقف البولسي يعلن أن «الخطيئة» وإن جسدت مرحلة نوعية جديدة ، فإنها تمثل الامتداد المنطقي لـ «الزلة» . ومن ثم ، فإن «الناموس» يتضح بعقمه الداخلي والخارجي ، حيث تبرز معالم «الحل» ، الذي يعني «النعمة» . ولكن في جميع الأحوال ، يغدو واضحاً ومعلناً أن ذلك الناموس يفقد توازنه التاريخي ويدخل في مرحلة التفسخ والسقوط .

(١) يظهر هذا «الاستنفاد التاريخي» على صعيد العمل العبودي ، مثلاً ، على النحو التالي الذي يشير ارنولد توينبي الى طرف منه : «حقيقة لقد كان العمل الذي يقوم به العبيد باهظ الثمن نسبياً . ان العبيد كانوا يجب ان يُبتاعوا ، ثم كان لابد من إطعامهم وإيوائهم على مدار السنة ، والعبد الذي استنزفت قواه ، والذي لم يكن صالحاً للبيع كان عبثاً ثقيلاً على المزارع أو صاحب الحيوانات ، بينما كان باستطاعته ان يستخدم عمالاً أحراراً مؤقتين في مواسم العمل ، دون أن يتحمل مسؤولية دائمة نحو المستخدمين المؤقتين» . (ارنولد توينبي : تاريخ البشرية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٦٤) .

(٢) هذه الوضعية الثنائية ، التي تقوم على علاقة متضاربة بين الغنى والفقير ، يمكن تحديد معالمها العامة في روما آنذاك على النحو التالي : «لقد انتصبت مقابل الفقر ثروة متنامية صُعُداً وعلى نحو هائل ، تلك الثروة التي سالت من ملكية الأرض والتجارة والأعمال اليدوية المهنية ومن توظيفات الرأسمال ، وكذلك من نهب الشعوب المُخضعة . فماركوس كراسوس ، الذي كان مشهوراً بسبب ثروته ، ملك في بداية مسيرة حياته سبعة ملايين قطعة نقدية ، ولكنه في نهاية هذا المسيرة كان يملك ١٧٠ مليوناً من القطع النقدية ؛ مع العلم أنه تبرع بكميات كبرى من المال للشعب» .

[Martin Robbe. Der Ursprung des Christentums- a.a.O., S. 112].

وما ينبغي التنويه به ، في هذا الحقل البولسي ، هو ان بولس حين دشّن يسوع المسيح مخلصاً للبشرية من الخطيئة ، فإنه انطلق من ان هذه الأخيرة ساكنة فينا ، ومنغرزة في صلبنا . وعليه ، فإن كنا نعمل مالا نريده من أعمال «منافية للرب» ، فلسنا نحن الذين نفعل ذلك ، في هذه الحال ؛ ان ما يفعل تلك الأعمال هو «الخطيئة» الساكنة في اجسادنا وارواحنا . هذا أولاً ؛ من طرف آخر ، يشير بولس ، على نحو ضمني ، الى أننا اذ نحصل على الخلاص اليسوعي ، فليس ذلك نتيجة لجهد نبذله بشكل واع وقاصد أو عفوي وضمني ، وإنما بسبب النعمة التي يسبغها الرب الاله (يسوع المسيح) علينا على سبيل المحبة والمِنَّة . . . ذلك لأننا حين ننطلق من «سكون الخطيئة فينا أصلاً» ، فإنه حالئذ يكون من طبائع الأمور أن يكون التحرر منها «نعمة» وليس «جهداً»^(١) .

والحقيقة ، ان الأمر المستهدف في هذه المعالجة يكمن في الاطروحة التالية ذات الأهمية المبدئية على صعيد البناء المسيحي البولسي ؛ تلك هي أن بولس - في نظيره الديني اللاهوتي - يكرس ، على نحو دقيق وحاسم وبصورة عامة وإجمالية ، المواجهة الدنيوية المباشرة ، وإن بالحد الأدنى ، لـ «الكُربة» و«الآلم العميق» اللذين كانا مهيمنين في حينه ضمن الأوساط الواسعة من الفقراء والمفقرين . ولكنه إذ يفعل ذلك وضمن ذاك التوجه ، فإنه يقدم «الانسان الباطن»^(٢) بديلاً «حقيقياً» ووحيداً عن «الانسان الواقع» . وهنا ، بالضبط وبالذات ، كمن النزوع الكبير والمبدئي والصارم لاحتقار الجسد والواقع المشخص ، ومن ثم ، للعزوف عن هذا العالم من أجل ذلك العالم . وإذا كان الأمر على النحو المقدم ، فإننا نستطيع ان نفهم ذاك الاهتمام الخاص والمركز بالاسهام الضخم الذي قدمه بولس على صعيد المسيحية اليسوعية وفي روما الامبراطورية ، بصورة مخصصة محددة .

وما ينبغي التنويه به ان ذلك الذي قدمناه يجسد لوحة متعددة الألوان طرحها بولس بهدف القضاء على اليهودية (اليهودية) من جذورها وفي آفاقها واحتمالاتها ، بحيث يجعل منها أثراً بعد عين . ولكنه ، في نهاية الموقف المنهجى والنظري

(١) انظر الفصل (الاصحاح) السابع من رسالة بولس إلى أهل رومية العائى عليها .

(٢) . . . «انى ارتضى ناموس الله بحسب الانسان الباطن» . (نفس المصدر السابق ومعطياته ٢٢/٧) .

والتطبيقي ، ظل دون تلك المهمة التاريخية بالصيغة القطعية الحازمة . ذلك لأن اليهودي - في صورته الموروثة المحددة على نحو ما أتى معنا في مواضع عديدة سابقة من هذا الكتاب - وجد استمراره ، باعتباراته عديدة ، في مسيحي المؤسسة الكنسية . وهذا الحد وفي ضوءه ، يغدو القول صحيحاً بأن جهد بولس اللاهوتي الأيديولوجي لم يكن ذا ثمار يانعة تامة ، وإنما اتصل بهذا الوجه الجزئي أو ذاك من الدين الجديد . وبتعبير آخر يمكن القول بأن ذلك الجهد لم يكن عبثاً ، وخصوصاً ضمن الموقع التالي ، وهو أن بولس نقل اليهودية اليهودية والمسيحية اليسوعية كليهما إلى قمة الاشكالية العقيدية والسيكولوجية والفكرية ، حتى حينه . أما إذا رغبتنا استنطاق الجهد البولسي المعني من زاوية أخرى وفي ضوء ما قدمه برونوباور وفريدرك انجلز وكارل ماركس من اسهامات على صعيد تقصي الدينين المشار إليهما ، فيمكننا القول بأنه (أي الجهد) مثل وهما دينياً أيديولوجياً فاعلاً بوتائر كبرى على المستويين الذهني النظري والعملي التطبيقي .

هكذا ظهر أمامنا نحوان اثنان كبيران ينظمان السلوك النظري اللاهوتي لدى بولس في موقفه من الموروث اليهودي . فلقد أعلننا ، من طرف أول ، أن جهود بولس باتجاه القضاء على ذلك الموروث لم تحقق نتائج حاسمة تامة . وكان من شأن هذا الرأي الإقرار بأن «القديس» المذكور اتخذ موقفاً مناوئاً حيال اليهودية بدرجة أو أخرى ؛ مما يجعلنا ، الآن ، نبعد الظن المنطلق من أن بولس ظل - في نهاية المطاف - يهودياً ، ذلك الظن الذي يُبنى على تصريح بولسي يُلح فيه على الأصول اليهودية التي تحكم سلوك القديس المعني . ومن طرف آخر ، لاحظنا أن موقف المناوأة المنوه به لم يكن حازماً شاملاً ، بحيث يمكن التأكيد على أن بولس لم يقطع «حبل السرة» بينه وبين الدين الذي كان في حالة من التأزم العميق بحيث كانت الأرض خصبة لنشوء بديل عقيدي جديد عنه . وفي هذا السياق ، استبان لنا أن الجهد البولسي يكتسب طابع الوهم الديني الأيديولوجي . ونود ، الآن ، أن نلاحظ هذا الجهد الأخير عبر اثنين من التصورات المسيحية البولسية الكبرى في أهميتها . التصور الأول هو «طاعة السلطان» ؛ أما الثاني فهو «رفع التكليف» .

ومن أجل التدقيق في الموقف إياه ، نورد ما كتبه بولس حول ما نراه تأكيداً على ما نعينه هنا وتدعيماً له . كتب القديس قائلًا :

«لتخضع كل نفس للسلطين العالية فإنه لا سلطان الا من الله والسلطين الكائنة إنما رتبها الله . فمن يقاوم السلطان فإنما يعاند ترتيب الله والمعاندون يجلبون دينونة على أنفسهم . لأن خوف الرؤساء ليس على العمل الصالح بل على الشرير . أفتبتغي الا تخاف من السلطان افعل الخير فتكون لديه ممدوحاً . لأنه خادم الله لك للخير ، فأنا إن فعلت الشر فخف فإنه لم يتقلد السيف عبثاً لأنه خادم الله المنتقم الذي ينفذ الغضب على من يفعل الشر» .

ويوصلنا بولس - في نفس النص السابق - إلى المطلق الذي يطرحه على «السرعية المؤمنة» ، بصيغة اللزوم والحزم والوضوح . وهو يفعل ذلك عبر القناة البولسية الكبرى التي سبق أن تعرفنا إليها ، وهي «الضمير» ؛ أي أننا ، هنا ، تواجه الموقف السلطوي في صيغة من التوحيد بين «الايمان» و«الضمير» . أو في صيغة هذا الأخير الذي علينا ، حالئذ ، أن نفهمه بمثابة ايماناً ، أيضاً . هذا ما ينبغي أن نفهمه في «الاستنتاج» التالي الذي يصل إليه بولس من «مقدمته» السابقة :

«فلذلك يلزمكم الخضوع له (أي للسلطان) لا من أجل الغضب فقط بل من أجل الضمير أيضاً . فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضاً . . . أدوا لكل حقه الجزية لمن له الجزية والجباية لمن له الجباية والمهابة لمن له المهابة . . .»^(١) .

ان المدقق في النص السابق (وفي أمثاله ضمن وسائل بولس) يتبين أن مسألة السلطة السياسية (السلطان) تمارس لدى القديس المذكور دوراً مركزياً ومحورياً ، وذلك على صعيد النشاط التنظيري اللاهوتي والقيادي التنظيمي الذي يندط بالبارزين من المؤمنين .

كما تشغل تلك المسألة حيزاً بارزاً في منظومته الدينية الايدولوجية (الرسولية) ، على نحو العموم . وإنه لأمر يفصح عن نفسه بوضوح وإفصاح ذلك الدور الحاسم الذي مارسه بولس في صوغ المسيحية اليسوعية كدين كنسي مؤسسي

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٣/١ - ٧ .

(طبعاً في نطاق النشاط النظري اللاهوتي الضخم الذي قام به) . وحيث يكون هذا الأمر واضحاً ، فإن الوجه الآخر منه يغدو بين السمات . أما هذا الوجه ، الذي يصح ان ننظر إليه - كذلك - بمثابة «نتيجة» من نتائج الدور المذكور آنفاً ، فيكمن في الإشارة الى أن بولس كان في طليعة من اسهم في تحويل الدين الجديد إلى دين الدولة الرومانية ، خصوصاً ودون وجود مُنَازِع له على مستوى التّدية . وإذ تم ذلك في حدود الموقف البولسي السياسي السلطوي ، فإنه استطاع الاستجابة للاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية ، وكذلك السياسية ، لتلك الدولة ، بصفتها قطاعاً قائداً للامبراطورية الرومانية الكبرى .

ان ذلك كله ومنظوراً إليه في سياقه الاجتماعي والتاريخي ، يدعونا الى القول بأن ما واجهناه لدى الكهنوت اليهودي (اليهوي) على صعيد التطابق المصلحي الوظيفي بين يهوه واليهويين من طرف والوضعية السياسية والاجتماعية المشخصة من طرف آخر ، يبرز أمامنا ، هنا ، بصيغة التطابق بين يسوع المسيح واليسوعيين والمسيحيين من طرف و«السلطان» ومن يقف معه ووراءه من طرف آخر . إنما الآن ، في السياق الذي نحن فيه ، نجد أنفسنا حيال حالة جديدة ومتميزة انطلاقاً من كونها تستند الى وضعية اجتماعية واقتصادية وسياسية وروحية أكثر شمولاً وعمقاً ، اضافة الى بروز عوامل جديدة تمس المسألة التي نحن بصدددها ، وإن على نحو غير مباشر ، تلك العوامل التي برز منها الجغرافي الطبيعي والديموغرافي ، ناهيك عن التنوع الغزير في الأوجه الطبقيّة والفشوية ، وعن الخصوبة والشراء والتنوع على الصعيد العقيدي والثقافي ، بصورة عامة .

وما هو جدير بالذكر والاهتمام الخاص ، في مفترق الطرق هذا ، ان بولس لم يكن بوسعهم أن يتجاوز الواقع السياسي المضطرب والمتزعزع بالاحتمالات والأفاق والامكانات ، ذلك الواقع الذي عاش هو في أعماقه وخضع لمتغيراته بالاعتبار المباشر . فلقد كان يرى بأم عينيه الأشكال المتعددة والشرسة لاضطهاد العبيد والأقنان والعوام من الأحرار وانصاف الأحرار ، إضافة الى معرفته الواسعة بأوضاع مقاطعات رومانية عديدة (نُخبر من نصوص انجيلية انه قام بثلاث رحلات تبشيرية في آسيا الصغرى) . ولاشك أنه ، بحسه النظري العقيدي المرهف ، أدرك دور

الدين الجديد المبني في عملية تسوية التراتب الهرمي الطبقي وتكريسه ضمن المجتمع الواسع ومن موقع المقولة الأساسية التالية : البؤس في هذا العالم ، عالمنا ، تقابله السعادة في ذاك العالم ، عالم الملكوت ؛ والسعادة في هذا العالم ، يقابلها البؤس (والعذاب) في ذاك العالم . أما الغاية البعيدة الكامنة وراء ذلك فليست تحقيق «السعادة» في العالم الآخر فحسب ، بل ايضاً المحافظة على الوضع الراهن بتراتبه الهرمي الطبقي والفئوي ، وكذلك الإثني . وإذا كان الأمر على النحو المقدم ، وليس غيره ، فإنه يغدو من الضروري ضرورةً حياتيةً مبدئيةً التوجه الى الطبقة الاجتماعية الأكثر حضوراً وبؤساً وكثافةً ، لكي تستجيب لمتطلبات الدين الجديد بردائه البولسي . وهي اذ تستجيب لتلك المتطلبات ، فإنها تحقق «الغاية المثلى» من الايمان الديني الجديد . ولنلاحظ ما سيأتي في النص التالي : ان طاعة السادة «الجسديين» ، أي الديويين ، هي بمثابة طاعة المسيح نفسه :

«أيها العبيد أطيعوا سادتكم الجسديين بخوف ورعدة بسلامة قلوبكم كطاعتكم للمسيح»^(١) .

وإذا استقرأنا تلك «المتطلبات الدينية الإيمانية» ، نلاحظ أن التراتب الطبقي ، الذي تنطلق منه ، ذو نسق هرمي ينطوي ، بدوره ، على وجهين محوريين من الخضوع الوظيفي ؛ الأول منهما ذو بعد اقتصادي اجتماعي وسياسي وديني ، في حين ان ثانيهما يتحدد بكونه جنسي الطابع . كيف ذلك ، وما هو مقوماته وأبعاده ؟ الاجابة تكمن في أن

«الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة»^(٢) .

من هذا الموقع الهرمي الأبعاد ، تفصح المعادلة البولسية التالية عن نفسها : المرأة سيدها الرجل ؛ والرجل رجُلان ، واحد تشترك امرأته معه في أنها كليهما مضطهدان ، وآخر يضطهد الجميع الذين لا يندرجون في دائرته . تلك المعادلة «الجنسية» تعلن عن شخصها الاجتماعي حين ترى وراء طرفها الأول الطبقات الاجتماعية الفقيرة والمفقرة ، ووراء طرفها الثاني الطبقة العليا وحليفها العضوي أو

١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس ٥/٥ .

٢) نفس المصدر السابق ومعانيه ٥/٢٣ .

وجهها الذهني العقيدي الممثل بالكنيسة . وهذا الأمر يزداد وضوحاً حالما نضعه في إطار مطلب «الطاعة» ذاك ، طاعة السادة من حيث هي طاعة المسيح يسوع . ولعلنا نستطيع التعبير عن تلك المسألة بأن نقول ، انها جسدت - في صيغتها البولسية المسيحية - أحد الأشكال الأساسية الكبرى لما سيطلق عليه في مراحل لاحقة «الحق الالهي المقدس» في الحكم السياسي أو في السلطة ، بعد أن كانت قد ظهرت قبل ذلك - بصيغ إرهابية أولية - في الفكر الشرقي الاسطوري القديم ، وبصيغ أكثر تبلوراً واتضحاً في الذهنية اليهودية التوراتية . والحق ، ان المسيحية اليسوعية اكتسبت ، منذ بداياتها الأولى البكرة ، مثل ذلك الشكل للحق الالهي في السلطة السياسية وغيرها . ولكنها ، هنا ، نحت نحواً مباناً لذاك النحو الذي اتخذته الاتجاه البولسي فيما بعد . هذا الأمر يفصح عن نفسه بأشكال متعددة ومن موقع نصوص انجيلية «قانونية» . فإذا كان بولس قد جعل من المسيحية اليسوعية - بصفتها موقفاً تسويغياً للتمايز الاجتماعي ولللبؤس المادي الشخص - منهجاً ايديولوجياً عقيدياً في أيدي السلطة السياسية المباشرة وغير المباشرة ، فإن يوحنا الرؤياوي (مؤلف رؤيا يوحنا) ، على سبيل المثال ، جعل السلطة السياسية في خدمة مسيحية مكافحة - بطريقة دينية ماورائية - ضد ذينك التمايز واللبؤس . وبطبيعة الحال ، كان على المشروع اليوحناوي ان يسقط عملياً تحت وطأة العلاقات الاجتماعية الطبقية المهيمنة في حينه ، بحيث اتضح أنه لم يكن - في التقدير الأدنى - أكثر من صرخة عميقة مخففة أو رد فعل على تلك العلاقات الأكثر تجذراً وهيمنة في الحياة الاجتماعية من ذلك المشروع .

ان ذلك يدعونا للقول بأن الدلالة الوظيفية التي نيطت بالمسيحية البولسية (المنظرة والمؤسسية) كانت غير تلك التي نيطت بالمسيحية اليوحناوية . أما تلك الدلالة فقد تمحورت في إطار هذه الأخيرة بهاجس «الخلاص» والتمكين له وانتظاره والسهر ترقباً له وتعقباً لمظاهره وعلاماته ؛ في حين أنها ظهرت لدى الأولى ، بالصيغة العامة الاجمالية ، من خلال الإقرار بالواقع ، بالراهن الذي يصاغ كنسياً ، أي في ضوء الاحتياجات والمثل الخاصة بالكنيسة والدولة . ان الخلاص من «الطواغيت والابالسة» عبر الكفاح ضدهم على الطريقة «الرؤياوية اليوحناوية» هو اللغة المهيمنة لدى يوحنا الرؤياوي ؛ ومن ثم ، فنحن ، هنا ، إزاء مهمات

مطروحة على بساط البحث الذي يفرض نفسه بقوة ضاغطة ، بالرغم من أن ذلك الخلاص كان يبدو وكأنه سراب في هذا العالم . نسوق - في سبيل تبيان هذا التصور الخلاصي المحوري - بعض ما أعلنه يوحنا في رؤياه ، عاقلين - في سياق ذلك - مقارنة تاريخية وظيفية وبنوية بينها وبين الأقوال البولسية السابقة الذكر . يقول الرؤياوي مايلى على لسان المخلص يسوع ، وذلك من خلال صور درامية أخاذة :

«من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس . من غلب فإنني أوتيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس إلهي . . . لا تخف شيئاً مما سيصيبك من التآلم فهذا ابليس مزعج أن يلقى بعضاً منكم في السجن . . . فكن أميناً حتى الموت فسأعطيك إكليل الحياة . . . هذا ما يقوله السيف الصارم ذو الحدين . . . فتب وإلا فإنني آتيك سريعاً وأقاتلهم بسيف دمي . من له أذن فليسمع . . . من غلب فإنني أوتيه المن الخفي وحصة بيضاء مكتوباً عليها اسم جديد لا يعرفه أحد إلا الأخذ . . . هذا ما يقوله ابن الله الذي عيناه كلهيب نار ورجلاه كأنهما من نحاس خالص»^(١) .

لندقق ، هاهنا ، في معظم التعبيرات التي يستخدمها يوحنا في رؤياه : لا تخف ، ابليس ، السيف الصارم ، اسم جديد ، لا يعرفه إلا الأخذ ، عيناه كلهيب نار الخ . . . وكما هو بين وبارز ، تقوم الآلية الرئيسية للتفكير اليوحناوي الرؤياوي من اعلان حازم وشجاع لمواجهة ضارية ضد الراهن ، بأوجهه وأخاديه وتياراته العديدة والضاربة في أعماق العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فليس التطابق - في هذا السياق - والتآخي بينه (الراهن) وبين الدين الجديد هو أس الموقف المستجد أو جوهره أو احتماله الرئيسي . ان هذا الأخير يتجسد ، على العكس من ذلك ، بالدعوة الصراح الى تدميره من جذوره والى خلق بديل عنه تنتهي منه مظاهر الجور والاستغلال ، أي تغيب عنه «الطواغيت والابالسة» . ومن النافل ان نعيد ما نوهنا به قبل قليل من أن تلك الدعوة تنطلق من القاعدة «المنهجية» للرؤياوي اليوحناوي المتمثلة بتداخل الأزمنة وهيمنة الحلم على الواقع أو رؤية هذا الأخير عبر ذلك .

(١) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ١٢/٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ - ١٨ .

ان تلك الوضعية المركبة تقدم لنا اضاءة عميقة ودقيقة على عملية التحول الوظيفي ، التي طرأت على البنية المسيحية اليسوعية في انتقالها من «اليوحناوية الرؤياوية» الى «البولسية المؤسسية» . وهي ، ولاشك ، عملية ذات مغزى ودلالة مبدئين بالنسبة إلى المصائر الكبرى والبعيدة للدين الجديد . ولعلنا نضيف إلى ذلك أمراً آخر ذا أهمية على صعيد ما نحن في سبيل تفصيله ؛ ذلك هو أن ظاهرة «المسيحية اليهودية» نفسها ، التي مثلت - في حينه وبدورها - وجهاً من أوجه التشقق والانشقاق والتصدع في المسيحية اليسوعية واليهودية اليهودية كلتيهما ، لا يمكن أن تفهم بدقة وتوضع في موقعها التاريخي العقيدي والمنهجي إذا لم تؤخذ تلك العملية بعين الاعتبار ، وإذا لم تُكتشف ابعادها واحتمالاتها في ضوء هذه الأخيرة . فلقد لوحقت تلك الظاهرة بلا هوادة ، ونشأت محاولات حثيثة وعنيفة لتصفيتها ، من حيث الأساس ومن الجذور ، في روما «الوثنية» وعلى الصعيدين الكبيرين التنظيمي السياسي والايديولوجي العقيدي . فكان من جراء ذلك أن أخذ أنصارها والمتحالفون معهم يبحثون ، بهلع واضطراب ، عن شعاب جديدة في مكان ما كي ينضموا بها وينطلقوا منها في مواصلة اعمالهم التبشيرية . وقد حدث أن غدت «الجزيرة العربية» واحدة من تلك الشعاب ، بحيث تحولت - لاحقاً وعبر مجموعة أخرى من العوامل والمؤثرات - الى الساحة العظمى لنشوء الدين العالمي الثاني ، وهو الاسلام .

ان ما يهمنا من ايراد تلك المعطيات ، في هذا السياق ، يكمن في الإشارة إلى أن وضعاً جديداً من أوضاع اللاتطابق بين الايديولوجيا الدينية والواقع الراهن أخذ في التبلور والنمو والافصح عن هويته بشكل أو بآخر ، عاقداً - على هذه الطريق - الصلة مع الموروث اليوحناوي الخلاصي ومع ما سبقه من رؤى ومطامح وتأملات دينية خلاصية . وكان قد ترتب على ذلك أن أخذ هذا الوليد الجديد في العمل على طرح تصوّره الخلاصي الخاص ، الذي أريد له أن يتجسد بـ «مسيح مخلص» جديد ، يحمل على عاتقه عملية إعادة بناء العالم وفق مثل العدالة ومبادئها . ودون أن نفصل القول في ذلك ، ننوه بأن الدين الاسلامي مثل ، هو كذلك في حينه وبدوره ، وريثاً شرعياً متميزاً لـ «المسيحية اليهودية» ، التي قادها في بعض مناطق الجزيرة العربية رجال آمنوا بها وعملوا على صوغها ضمن مقتضيات وشروط الوضعية

الجديدة المشخصة . وكان من هؤلاء الرجال أوعلى رأسهم الحبر الشهير ورقة بن نوفل ، الذي لعله يعتبر الوسيط الفاعل والمباشر بينها من طرف وبين النبي الاسلامي الجديد ، محمد بن عبدالله . (وسنأتي على ذلك ثانية وعلى نحو مفصل ونخصص في الجزء التالي - الرابع - من مشروع الرؤية الجديدة الذي سنعمل على انجازه) .

لقد كان ، إذن ، شرحاً عميقاً وواسعاً في «قلب» و«عقل» المسيحية اليسوعية الباكورة حين نهض بولس بمهمات التأسيس التنظيمي الكنسي لها ، وذلك باتجاه تحويلها إلى ايديولوجيا منسقة ومهيمنة لدولة عظمى مهيمنة ؛ حدث ذلك بالرغم من أن القديس المذكور كان عليه أن يدفع دمه ثمناً لهذه العملية الدينية التاريخية الأكبر ، في حينه . بيد أنه لا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن ذلك الشرح كان قد وُجه ضد الدين المعني عموماً وكلياً . ان بولس لم يتحدث ما أحدثه بعيداً عن الملابس والمعطيات والمصاعب الكبرى والصغرى التي تكونت في حقلها المعالم الأولى لهذا الدين . ومن ثم ، لا ينبغي أن يُحمل خطأ الامتداد والالتقاء بين البولسية واليوحناوية . مهما كان هذا الخط ضئيلاً وقليل الحضور .

ومن أجل استكمال الموقف البولسي في موقعه من تلك المعالم ، نرى أنه من الضروري الإلماع إلى أن بولس في موقفه «المسيحي الجديد» كان قد ألحح وشدّد بصورة خاصة على عناصر موجودة في صلب تلك المعالم المسيحية الأولى . وهو إذ أقدم على هذا الجهد الموسوعي والمعقد ، فإنما انجزه من موقعين اثنين كبيرين ظهرا وبرزا ، بأشكال خفية وأخرى معلنة ، في تضاعيف وثنايا إنجازاته . الموقع الأول تمثل بالاحتياجات الامبراطورية والدولية لروما ، تلك الاحتياجات التي وضحت - خصوصاً - على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ، وفرضت نفسها على آلية النشاط البولسي العقيدي . أما الموقع الثاني فقد انطلق من التأثير الفلسفي اليوناني الروماني الكبير ، الذي أعلن عن نفسه عبر فئاتين رئيسيتين ، هما الأفلاطونية والرواقية^(١) . وقد كنا أتينا ، في موضع سابق من هذا

(١) انظر حول ذلك : Geschichte der Philosophie· Bd. 1, a.a O. S. 142- 145; Marx, Engels- Ueber :

Religion a.a O. S 261

الكتاب ، على هذه المسألة . ولكن يبقى أن نشير الآن إلى أن هذا التأثير الفلسفي في المسيحية اليسوعية لم يُلغ الشخصية الباكورة لهذه الأخيرة أو يتلعبها كلاً وجزءاً ، بقدر ما عمل على تطويعها للوضعية الثقافية والروحية المستجدة . وهذا ، بدوره ، يضعنا أمام الفكرة الهامة جداً التالية ، التي تتصل بمصائر المسيحية اليسوعية الفلسطينية ؛ نعني بذلك أن البولسية لم تكن خروجاً تاماً عن هذه الأخيرة وعليها ؛ مما يترتب على ذلك أن يُرفض ما يقال من أن المسيحية في صيغتها البولسية لا يجوز النظر إليها ، بدرجة ما وبمعنى ما ، على أنها ظاهرة ايديولوجية شرقية (عربية) .

إن النظر إلى البولسية على أنها غير ذات صلة بالمسيحية الباكورة ، يجعلها غير قابلة للفهم في إطارها الذي تكونت ضمنه . وعلى العكس من ذلك ، فإن وضعها في سياقها من الحاضنة التي تولدت في نطاقها وضدها ، باعتبار ما ، يسمح لنا باستكشاف العنصر «الشرقي العربي» والآخر «الغربي الروماني» فيها ؛ مع العلم بأن الوجه الثاني هو الحاسم والفاعل والأكثر حضوراً فيها . وبسبب من الأهمية التاريخية البارزة التي تنطوي عليها البولسية ، نجد أنه لزام علينا أن نتقصى ما عرفناه بالاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للمجتمع الروماني الامبراطوري ، الذي ستهيمن فيه العقيدة الجديدة ، وذلك بالاتجاه الذي يتبع تحقيق مزيد من الوضوح حول الموقف الوظيفي الاجتماعي الذي حققته البولسية في نطاق المجتمع المذكور .

كان ذلك المجتمع يمر في مراحل تأزمه التاريخي حين أعلنت المسيحية اليسوعية عن نفسها في المقاطعة الرومانية فلسطين ، واكتسبت ، بعد حين ، صيغتها البولسية المتسمة بالبنية العقيدية المنسقة والمنظرة ، أي المكتسبة شخصية «كلامية» أو «لاهوتية» . إن هذا يضع أيدينا على نقطة دقيقة تسم تلك الصيغة وتمسحها طابعاً تناقضياً . أما هذا الأخير فقد اتضح من خلال الأفق الوظيفي الذي اخترق البولسية إياها من ألفها إلى يائها . فقد انطوت على عناصر «العالمية» و «الانفتاح» و «الوحدة الايديولوجية» لمجتمع كبير واسع ومنقسم إتنياً واجتماعياً طبقياً ؛ كما تضمنت ، بأشكال مختلفة ومستويات متواترة بين الظهور المباشر

والظهور غير المباشر ، عناصر من «الإيهام» و «التفوق على الذات الروحية» و «الارتداد إلى الداخل» و «الاقرار بالأمر الراهن الواقع» و «المساومة» و «المصالحة مع الخصوم» . ولا نرى الرأي صحيحاً بأن الوجه الأول من المسألة كان أقوى وأكثر رجحاناً وحضوراً من وجهها الثاني إلا انطلاقاً من المعنى الوظيفي التاريخي العام ، الذي انطوت عليه ودلت على آفاقه وتوجهاته . وبتعبير أكثر ضبطاً ، نلاحظ أن التأكيد على الوجه الأول أمر وارد انطلاقاً من فهم العبء التاريخي والتراثي ، الذي حملته المسيحية البولسية في وجه اليهودية أولاً ، وباتجاه عالم منفتح ورحب ثانياً ، ذلك العالم الذي كان عليه أن يضم في تضاعفه أنماطاً إثنية متعددة من الشعوب و «الأمم» . بتعبير آخر يحيط بالثنائية القائمة ويخترقها تحليلاً وتركيباً نقول ، ان المسيحية البولسية لم تكن قد وجهت اسلحتها ضد اليهودية (بمعنى أولي وعام) لأنها نشأت من حيث هي استجابة واعية كثيراً أو قليلاً لمقتضيات العالم المنوّه به ، فقط ؛ كما أنها لم تستجب لهذه الأخيرة لأنها تبلورت وتوطدت في اثناء كفاحها مع اليهودية ، فحسب^(١) . فلقد انطلقت من كلتا المهمتين ومن كلتا القناتين ، بحيث تظهر لنا على أنها جماع القول فيهما والتركيب فيما بينهما . ومن زاوية أخرى يمكن القول بأن تينك المهمتين تظهران حيثما نظرنا إلى المسيحية المعنية وقلبنا النظر فيها ، وكيفما كانت وجهة النظر التي تنطلق باتجاهها بغية البحث فيها وتقصيها .

نريد من ذلك أن نشير إلى أنه كان من الضرورة التاريخية والذاتية أن تكون العناصر الأولى من الموقف (العالمية الخ . . .) أكثر رجحاناً وهيمنة وقوة وحضوراً

(١) لابد من التنويه ، في هذا الحقل من المسألة ، بأن البولسية لقيت صعوبات في روما ليس من مواقع الطبقات العليا فحسب ، بل كذلك من قبل مجموعات كبيرة من «العامة» من الرومان الأحرار وأنصاف الأحرار . فإذا كانت البولسية قد أعلنت عن شخصيتها عبر رفضها لـ «الوثنية» و «التفوق الاتني» ، هذه الشخصية التي ادبنت في بادئ الأمر من تلك الطبقات العليا ، فإن شعور «التفوق الروماني» برز ، أيضاً ، لدى تلك المجموعات العامة المتأثرة بايديولوجيا الطبقة السائدة . وقد وقف ذلك عائقاً على الأقل في البدايات الأولى - أمام تقدم المسيحية اليسوعية ، التي ظهرت «أهمية ديموقراطية» بسبب رفضها «التفوق الاتني» المشار إليه ، أي التي أعلنت أنها دين أولئك العوام ، بمعنى ما . (انظر في ذلك مع المقارنة :

Martin Robbe: Der Ursprung des Christentums- a.a.O., S. 108).

من تلك الثانية . الا أن هذه الأخيرة ظلت تستمد مشروعيتها واستمراريتها وآفاق تحولاتها، بصورة عامة إجمالية، من مراحل التأزم المتصاعدة عمقاً وسطحاً والتي أحاطت بالامبراطورية الرومانية، أي - تحديداً وتخصيصاً - من الوضعية الاجتماعية الاقتصادية المستنفدة للعبيد والأقنان والفلاحين والعوام الأحرار وانصاف الأحرار .
ولذلك وفي ضوءه، وجدنا المسيحية غطاءً فضفاضاً يتسع للتحولات المتعددة المتباعدة ويستجيب لها ويسهم في التمكين لها سلباً أو إيجاباً، تلك التحولات التي طرأت على مجتمعات الامبراطورية بونائر مختلفة في القوة والضعف . وبمزيد من التدقيق والتخصيص والتمحيص يمكن الادلاء بالقول التالي، الذي يبنى على فكرة الأهمية المنهجية التي تنطوي عليها شروط الاحاطة بالمسيحية اليسوعية عموماً .
تلك الفكرة تكمن في أن هذه الأخيرة استطاعت ان تكون دين المضطهدين، بقدر ما كانت قادرة على أن تمارس دور دين المضطهدين، وإن حُسم الموقف - لاحقاً وعلى الصعيد العمومي - لصالح الدور الأول . ولاشك أن هذه الوضعية المركبة والمعقدة منحناها (أي للمسيحية) قوة وجبروتاً متعاضدين في أوساط بشرية متنوعة وذات اتساع مضطرد في الحقلين الكبيرين الإثني (الأقوامي) والاجتماعي الطبقي .
ولعلنا نشير إلى أن علم الدلالة المعاصر يمكنه أن يجد في تلك الوضعية مادة خصبة وغنية للبحث العلمي . ذلك لأن فكرة ما (وهي المسيحية) تخضع لمجموعة تحولات بنيوية ووظيفية تجعل منها مجموعة من الفكر تصل العلاقة فيما بينها إلى حدود ومراحل التأزم والخصومة والصراع؛ يتم ذلك في الوقت الذي يعلن فيه ممثلو هذه الفكر المتصارعون أنهم جميعاً يمثلون - في مواقعهم وفكرهم تلك - المسيحية اليسوعية، وليس غيرها .

ونرى أنه ذو أهمية خاصة أن نأتي على الواقعة التالية، التي تحدد لنا وتضبط أحد العوامل الكبرى التي كمنت وراء عملية انتشار المسيحية بأشكال تدعو إلى الدهشة في الأوساط الاجتماعية المكونة للامبراطورية الرومانية . وقد نذكر بما أعلنه، في موضع سابق من هذا المبحث، من أن الدين المعني حيث أعلن عن نفسه فإن جماهير واسعة وغفيرة من الفقراء والمفقرين تلقفته بعناية وحرص وحماسة دافقة؛ في حين أن الطبقات العليا وقفت منه موقف الحذر والتحفظ، ثم الاستياء، ثم الاستعداد، ثم المناهضة والهجوم، وأخيراً المصالحة عبر اكتشاف

مكانات التوظيف الواسعة له . أما الواقعة المعنية فتتصل بموقف السلطة السياسية والدينية في الامبراطورية من الدينين اللذين وُجدا معاً وجنباً إلى جنب في مرحلة محددة (هي مرحلة الانتقال مما قبل الميلاد إلى ما بعده) ؛ ونعني بهما اليهودية والمسيحية ، وكذلك ما لفَّ لفهما واتصل بهما من امتدادات وذبول وانشاقات . ان ارنولد توينبي يجبرنا - في هذا السياق - أن الحكومة الرومانية «تساحت مع رعاياها اليهود إذ رفضوا أن يقدموا للامبراطور ما يتطلبه من تكريم إلهي ؛ لكن هذا الاستثناء لليهود كان محدوداً بطبيعة الحال لأن اليهود كانوا جماعة عرقية . ومثل هذا التسامح لو أنه مُنح للمسيحيين لكان الأمر على درجة كبيرة من الخطورة . ذلك لأن الكنيسة المسيحية لم تكن محدودة باعتبارات عرقية ؛ فقد كانت غايتها المعلنة هي ان تقبل البشرية جمعاء هذا الدين الجديد . وفي مقابل ذلك كان من المستحيل على المسيحيين أن يقوموا بالطقوس المتعلقة بعبادة الامبراطور دون أن يكون في عملهم هذا رفض ضمني بأن إله المسيحيين ليس هو الاله الحقيقي الوحيد . ومعنى هذا بالتام هو رفض لروح المسيحية . ومن ثم فكان لابد من قيام صدام مباشر بين الحكومة الرومانية والكنيسة المسيحية . وقد كان انتصار المسيحية في هذه المعركة غاية في العجب»^(١) .

ان ارنولد توينبي يجبرنا ، في هذا السياق ذي الخصوصية الطريفة الهامة ، شيئاً أساسياً فيما يتصل بالتسامح الروماني ازاء اليهود من طرف ، وفيما يتصل بالعداء الروماني تجاه المسيحيين ، في بدايات الموقف من طرف آخر ، منطلقاً ، كما هو واضح من اتجاهات النص المستشهد به ، من الطقوس المتعلقة بعبادة الامبراطور الروماني . ونحن إذ نُقر بما اثبته الباحث المؤرخ من موقف التسامح والعداء المذكورين ، فإننا - في نفس الحين ومن الموقع المنهجي الذي يخترق مبحثنا هذا عمقاً وسطحاً - نرى أنه غير كاف عموماً وخصوصاً من أجل تفسيرهما تاريخياً تراثياً وبنوياً وظيفياً من ذلك المنطلق الذي لجأ إليه توينبي . ان واقعة عدم التسامح الذي اظهرته الدولة الرومانية المركزية حيال الدين الجديد في بواكيره التي أفصححت عن بعض آفاقها ، نستطيع أن نتبين خطوطاً أساسية عامة من خلفيتها العميقة البعيدة عبر

(١) ارنولد توينبي : تاريخ البشرية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

اكتشاف وتحديد المخاطر الجدية والكبيرة ، التي مثلها ذلك الدين بالنسبة الى الدولة المعنية . ومما لا شك فيه أن تصور «الخلاص والمخلص» يقف في طليعة تلك المخاطر . وجدير بالتنويه أن هذا القول يبقى صحيحاً حتى في حال الإقرار بأن التصور المذكور كان وهمياً إيهامياً ، من حيث الأساس والعمومية ؛ هذا بالرغم من أن الروهمية والإيهامية المعنيتين تظهرتا ، على نحو أو آخر ، بأشكال معقدة ومتوسطة من الواقعية والتشخص . ذلك لأن «الوهم» يمكن أن يكون «واقعياً» في حال تلقفه من قبل الناس وتحوله ، على أيديهم ، إلى سلوك اجتماعي معين . بل انه (الوهم) يستطيع ، في ظروف محددة مناسبة ، ان يتحول الى قوة هائلة ومهددة لقوة اجتماعية أو أخرى .

وقد تمكنت المؤسسة السياسية والدينية (الوثنية) الرومانية شيئاً فشيئاً من استبصار المخاطر والمشكلات المهددة والجدية المنبعثة عن الدين الجديد وانصاره المتعاضمين على نحو مضطرب ؛ فعملت - بعد إعمال النظر في الموقف برمته - إلى ركوب الموجة العاتية وإلى تحويلها باتجاه وظيفي يلبي احتياجاتها وآفاقها ، أو - على الأقل - يقف موقفاً محايداً حيالها . وإذا كنا قد أعلننا عن هذا المنهج الاجتماعي الاقتصادي والايديولوجي في دراسة ما نحن في سبيل الاحاطة به ، فإننا ، بذلك ، نكون قد ألحطنا على جانب كبير من المسألة ضمن جوانب أخرى عديدة . بل لعلنا نقول ، ان الظاهرة التي نبحث فيها (وهي موقف السلطة الرومانية من النسقين الدينيين المعنيين هنا) هي - أساساً - ظاهرة مركبة أسهم في صوغها جمع كبير من العوامل والتأثيرات والمحرضات . لكن ما شددنا عليه يحتل من هذه الأخيرة موقعاً محورياً وخطيراً ، بحيث يمكن أن ننطلق منه في كثير من المسائل والأمور المتصلة بالظاهرة المنوه بها آنفاً . في هذه الحال ، لا سبيل إلى إغفال ما كان النشاط الديني المسيحي قد أحدثه من فعل عقيدي عميق في أوساط الشعب الروماني نفسه ، بما في ذلك بعض الأنساق المستنيرة ضمن الطبقات العليا .

ان ذلك ، مجتمعاً ومجملأ ، يجعلنا نتفهم ، حقاً وبحدود أولية هامة ، موقف التسامح الديني الذي واجهت به السلطة الرومانية التجمع اليهودي ، المحدود نسبياً ، في روما . فهذا الأخير لم يكن بمتسعه أن يشكل يوماً ما تهديداً مباشراً - أو ربما كذلك غير مباشر - لتلك السلطة ؛ لأنه - كما أشار ثويني بحق -

لم يخرج عن كونه تجمعاً إثنياً ضيقاً . فتصور الخلاص ، في الحدود التي اكتسبها لدى اليهود ، لم يتجاوز - في أشكاله القصوى والأكثر وضوحاً وإثارة - الدعوة إلى خلاص اليهود أنفسهم . ومن ثم ، فإنه لم يقترن بتعبئة مباشرة وتحفيز مباشر لشعوب الامبراطورية الرومانية . وبمزيد من الضبط والتدقيق نقول ، ان التصور الخلاصي اليهودي لم يحدث فعلاً تحريراً ملحوظاً في صفوف الشعوب المذكورة ، وضمن أوساط الطبقات المبهوطة منها على نحو خاص . أما مرد ذلك فيمكن أن نتيبته في مجموعة من العوامل التي ، يبرز منها الاثنان التاليان . الأول منهما كمن في ظهور ذلك الخلاص بصفته خاصاً باليهود أنفسهم ؛ في حين أن ثانيهما كمن في إصرار معظم اليهود أنفسهم وبتنظيم وضبط من قبل الحاخامين الكبار على أن يبقوا منعزلين عن مختلف الشعوب المنضوية تحت سيادة روما . إن هذا وذاك جعل السلطة السياسية والدينية الرومانية تعزف عن مكافحة اليهود ومحاصرتهم بنفس القوة والحدة اللتين لجأت إليهما في مناهضتها للدين الخلاصي الجديد ، أي الذي أفصح بوضوح وعلانية عن أهدافه العالمية (الأممية) ، التي لا تقتصر على شعب دون آخر .

وإذا ما وضعنا تلك الوضعية المتراكبة في إطارها من عملية الصراع الباكر الذي دارت رحاه بين السلطة الرومانية من طرف والمسيحيين اليسوعيين من طرف آخر ، لاحظنا أن انتصار المسيحية - في نهاية المطاف - لم يكن بسبب تغلبها على تلك السلطة ، فحسب . لقد كان ، كذلك ، نتيجة منطقية لإدراك هذه الأخيرة للدور الوظيفي الفعال الذي يمكن أن يمارسه الدين «العالمي» الجديد ، فيما لو جرى تبنيه وتمثله وفق احتياجات المجتمع «العالمي» القائم . بل لعلنا نؤغل في توسيع وتشخيص وتعميق هذه الفكرة اذ نقول ، ان نقطة القوة الكبرى في المسيحية اليسوعية (البولسية) ، التي كانت من وراء انتشارها الكاسح في أوساط شعبية متعددة اجتماعياً وإثنياً، هي التي جعل منها نقطة الانطلاق في عملية تحويرها (أي المسيحية) لصالح الدولة الرومانية : إن ما رفعت تلك العقيدة على راياتها بمثابة شعارها الكبير الذي هو تحرير «الأمم» جميعاً وليس «أمة أو شعباً» واحداً ، إن ذلك نفسه هو الذي جعل منها ، بالضبط ، صالحة لكي تتحول إلى دين تلك السلطة المهيمنة أممياً . فما هو عنصر جذب فيها بالنسبة إلى الفقراء والمفقرين ضمن الشعوب

المختلفة ، تحول إلى عنصر جذب للسلطة الرومانية كي تجعل منها دينها الخاص .
وحيث أوصلت هذه العقيدة الدينية إلى مستوى «ايدولوجيا الدولة» ، فإنها (أي
تلك السلطة) انطلقت إلى الخطوة الأخرى المتممة ، وهي تعميم هذه الايدولوجيا
الدولية في المجتمع الامبراطوري الكبير ، وجعلها ايدولوجيا جميع الطبقات
والشعوب . أما الانطلاق إلى هذه الخطوة الحاسمة فقد تم بعد أن أعيد النظر في
الموقف المسيحي اليسوعي بنويًا ووظيفيًا .

في تلك النتائج الهامة والمثيرة على الصعيدين التاريخي والعقدي والمنهجي ،
نستطيع أن نقرأ ما يمكن أن يكون بولس قد مارسه من تأثير في إيصال الدين المعني
إلى ما وصل إليه وفق النتائج المشار إليها . وقد يكون السؤال المركب التالي في
طليعة ما يمكن أن يطرح على صعيد تحديد موقف البولسية من عملية تحول المسيحية
اليسوعية من دين لا سلطوي إلى دين سلطوي : لِمَ انتصرت البولسية (المسيحية)
على السلطة الرومانية السياسية والايدولوجية الدينية (الوثنية) ، بحيث جرى
تبنيها ، رسمياً وبشمول ، من قبل هذه الأخيرة ؟ لم وقعت السلطة المذكورة ، في
بداية الأمر ، موقف المناوأة والمناهضة حيال المؤمنين (الأميين) ، ثم بعد ذلك
موقف المصالحة والتبني تجاههم ؟ هل جسدت البولسية المقدمات الضرورية
لتحويل الدين الجديد من مواقع أحمية شعبية إلى مواقع أحمية سلطوية ؟ أليس من
السذاجة المنهجية أن يُنظر إلى قتل بولس على أيدي السلطة الرومانية بمثابة دليلاً على
أن البولسية كانت - أساساً وبداية ومنتهى - في خط مناوأة ومناهضة لمسألة السلطة
وتكريسها وضبطها ؟ وأخيراً ، أليس ممكناً أو ضرورياً أن نرى في البولسية أفقاً
تاريخياً تقدماً كمن في تعقيل المسيحية اليسوعية وتشخيصها وضبطها عبر سلطة
دولية مهيمنة ؟

كان من نتائج تعاظم الأزمة الشاملة في الامبراطورية الرومانية أن ولدت
مواقف ايدولوجية دينية جديدة ، وتبلورت في أسيفة اجتماعية وسياسية كان لها أوجه
واحتمالات مستقبلية بعيدة المدى . فاليهود ، الذين نظر إليهم - كما أشرنا - بشيء
من التسامح من قبل روما (بسبب ضآلة خطرهم السياسي والاجتماعي).

والاقتصادي) ، أصبحوا بعد حين عرضة لاضطهاد مركز ومتصاعد من قبل الظافرين الجدد ، المسيحيين البولسيين . وقد انطلق اضطهاد هؤلاء لأولئك من موقعين أساسيين ، واحد سياسي ايدولوجي مباشر ، وآخر تاريخي ثاري . ولا شك أنه من الممكن ايراد مواقع (مسوغات) أخرى لذلك الاضطهاد ؛ الا أن دينك الموقعين ذوا أهمية بارزة على صعيد المسألة المعنية . فلقد ظل اليهود ، بصيغتهم اليهودية المسيحية ، يرون في المسيحيين اليسوعيين (البولسيين) منافساً كبيراً لهم في المجالات العقيدية والتنظيمية ، وكذلك وبعد حين السياسية ؛ مما جعل هؤلاء في حالة من التحفز والحذر الدائمين حيال أولئك . ونضيف إلى ذلك أن بعض المناسبات كانت مجالاً خصباً لإحكام القبضة المسيحية على اليهود وإرغامهم ، بأشكال مختلفة ، على مغادرة روما ومناطق أخرى قريبة ونائية ، ومن ثم على تشتيتهم وتصديع تماسكهم الديني العقيدي والاتني في معظم أرجاء الامبراطورية .

في هذا السياق ، لابد من الإشارة إلى أننا لن نكون قادرين على فهم البواعث الرئيسية ، التي كمنت وراء خروج اليهود المسيحيين من روما في القرنين الرابع والخامس (وذهب قسم منهم إلى الجزيرة العربية) بمعزل عن الملاحظات والاضطهادات الفردية والجماعية ، التي قادتها السلطة الرومانية التي تبنت الدين الجديد (المسيحية) وجعلت منه سلاحاً ماضياً في أيديها ؛ إضافة إلى أن جموعاً من المسيحيين أنفسهم قادوا ، بصفتهم تجمعات دينية كبيرة وصغيرة ، جزءاً من عملية الملاحقات والاضطهادات تلك ، وأسهموا في إشعال نار العنف ضد اليهود ، وذلك بتأثير عوامل متعددة ، منها أن أولئك وقفوا في وجه الدين الجديد وأن هؤلاء (المسيحيين) رأوا فرصة سانحة للانتقام من «قتلة يسوع الرب» وانجاز ما سيأتي معنا تحت حد «الثأر التاريخي» .

أما الموقع الثاني فقد تمثل بذلك «الثأر التاريخي» وبما يستثيره من مضاعفات وأحقاد وذبول ، يمكن - في بعض الحالات الخاصة - أن تنقلب إلى مجازر دامية يتعرض لها «الصالح والطالح» . فلقد ظل مثل هذا الثأر التاريخي مترعراً في أذهان أولئك المسيحيين الذين رأوا في اليهود مجرمين تاريخيين تجسدت «جريماتهم» بـ «قتل

يسوع المسيح» . وكان قد ترتب على ذلك أن وجدت بعض أوساط المسيحيين المعنيين فرصة مناسبة لـ «الثأر» من «القتلة» ؛ خصوصاً وأنهم بدأوا يصيرون مشاركين لـ «الأخرين» في السلطة السياسية أو - على الأقل - من أنصارها . ولقد سرّع ذلك في عملية بعثرة اليهود وتشنيتهم في أنحاء متعددة من العالم ، وضمن ذلك الجزيرة العربية ، كما أشرنا في حينه . وما هو جدير بالقول ، هنا ، وبالتشديد عليه ، يقوم على ادراك أن المسيحية البولسية استطاعت تنويعاً لتلك العملية ، أن تحكم قبضتها إحكاماً كبيراً وشاملاً تقريباً في معظم أرجاء الامبراطورية على الصعيد الايديولوجي العقيدي . وقد رافق ذلك وتداخل معه تحولها البطيء ولكن الحثيث العميق إلى القوة السياسية. الأتوقراطية القابضة خلف السيامي المباشر للباطرة في روما ولموظفيهم وممثليهم في مختلف المقاطعات التابعة لهم ؛ بل في حالات أخرى ، تلاحظ هذه القوة السياسية وقد ظهرت في عمق الأحداث السياسية فاعلةً فيها وموجهة وناظمة لها .

وجدير بالذكر أن القرن الرابع كان بمثابة فسحة للحرية الدينية الاعتقادية ، وذلك بعد فترة مديدة (ثلاثة القرون السابقة) من الاضطهاد والملاحقات والتعسف المباشر^(١) . ولكن ما يلفت النظر في الأحداث الكبرى في ذلك القرن هو أن المسيحية إذ دخلت عمق هذا الأخير ووصلت إلى السلطة الامبراطورية وأخذت تنعم بامكانات وآفاق تلك الحرية التي أسهمت هي في قيادتها ، فإنها أخذت تصفي حسابها التاريخي مع «القتلة» . وهذا ما جعل العصر المعني أكثر العصور هولاً بالنسبة إلى اليهود ، الذين أخذوا يبحثون عن مأوى لهم خارج الدائرة الامبراطورية . وبذلك ، يصح القول بأن المسيحيين ، الذين كانوا في العصور السابقة (من الأول الى الرابع) مضطهدين ملاحقين ، أصبحوا في العصر الجديد الرابع مضطهدين ملاحقين . ولا بد ، لفهم هذا المعطى التاريخي ، أن نتجاوز الفهم المبسط لـ «الثأر التاريخي» ، ونصل إلى عمق المشكلة : ان نهوض المسيحية البولسية في القرن الرابع الى مستوى الايديولوجيا الدولية كان بمثابة التأكيد على الهيمنة الايديولوجية للدولة الرومانية في أرجاء المقاطعات التابعة لها وفيها هي نفسها . ومن ثم ، فالموقف كان باتجاه الكونية والشمولية على الصعيد السياسي

(١) انظر : سلوم سركيس : نظرة في العلاقة بين اليهودية والمسيحية - مجلة - الكاتب العربي ، دمشق ، العدد الخامس ١٩٨٣ ، ص ١٥ .

والديني الايديولوجي . وإذا ما أراد اليهود أن يعيشوا في الامبراطورية كيهود منعزلين عن الأقوام الأخرى بفعل عوامل متعددة منها اصرار قادتهم على عدم الاندماج - وهذا ما حدث حقاً - ، فإن من النتائج التي كان لا بد وأن تترتب على ذلك أن تشعر السلطة الدولية المسيحية بالتصدي له .

ويزيد الأمر وضوحاً حيث نضع في اعتبارنا أن اليهود نعموا بكثير من الحرية الدينية قبل تمسُّح السلطة الرومانية السياسية . ذلك لأن انعزالهم (الجيتوي) جعل من تأثيرهم الديني الخلاصي شبه معدوم على الشعوب الأخرى المنضوية في الامبراطورية ، بما في ذلك طبقاتهم المتوسطة والفقيرة . فـ «الخلاص اليهودي» لم يُخف تلك السلطة ، لأن أصحابه ، اليهود ، لا يزعمون أنهم يطمحون إلى إخراجهم من دائرتهم «العقيدية والالتنية»^(١) . ولكن الوضعية اختلفت اختلافاً بيناً في القرن الرابع . فما كان غير خطر على السلطة السياسية في مرحلة ما ، غداً خطراً عليها في مرحلة لاحقة : ان الانعزالية والتفوق اليهوديين اللذين مثلاً نقطة اطمئنان بالنسبة الى السلطة المذكورة ، تحولاً إلى نقطة إعاقة للهيمنة والشمول السياسيين . وفي ضوء هذه الوضعية ومن موقعها ، يصبح العنصر أو المظهر الثاني للعداء المسيحي البولسي ازاء اليهودية واضحاً ، وهو ما أطلقنا عليه «الثأر التاريخي» .

وثمة أمر يثير الانتباه على هذا الصعيد . ان بولس كان قد تنبأ ، في حينه ، بأن التعت اليهودي حيال المسيحية اليسوعية الصاعدة ليس إلا حالة طارئة يحل محلها في مرحلة أخرى وضع آخر . أما هذا الوضع الآخر فيتمثل بـ «الخلاص التام» لهم على أيدي يسوع نفسه ، في حين أن المرحلة التي سيتم فيها ذلك هي تلك التي تكون فيها الأمم جميعاً قد دخلت الدين الجديد . فهو يعلن قائلاً :

«فلاني لا أريد أيها الاخوة أن تجهلوا هذا السر لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماً وهو أن عمي قد حصل بجانب من اسرائيل الى أن يكون قد دخل ميلء الأمم .

(١) من مظاهر هذا «التسامح» مع اليهود أن الطقوسية اليهودية الموسوية ظل المسيحيون يأخذون بها ويعملون بمقتضاها (بما في ذلك السبت) حتى القرن الرابع إياه ، مما يوحي بأن القطيعة «التامة» مع اليهودية لم تعمل المسيحية البولسية على انجازها إلا بعد تحولها الى الموقع السياسي السلطوي المباشر .

وهكذا سيخلص جميع اسرائيل كما كتب سيأتي من صهيون المنقذ ويصرف
النفاق عن يعقوب . وهذا هو عهدي لهم حين أزيل خطاياهم»^(١) .

وإذن ، لابد أن تنشأ كونية مسيحية يسوعية تامة تدرج فيها «كل الأمم» ، بما في
ذلك «اليهود الاسرائيليون» أنفسهم ، أي أولئك الذين وقفوا في وجه الدين
الجديد . وقد أمل بولس كثيراً في أن ينقلب الموقف اليهودي بهذا الاتجاه ، محققاً
بذلك رسالة الكونية المسيحية الكبرى . ولكن الأحداث التاريخية بتجلياتها
السياسية والاقتصادية والعسكرية خيبت آمال بولس ؛ إذ أظهرت أن هنالك بواعث
وعوامل أخرى مختلفة تماماً عن تلك التي يفكر فيها هو تفعل في التحولات
المشخصة . لقد ظل التناقض قائماً بين اليهودية اليهودية الجيتوية والمسيحية اليسوعية
المتفتحة بسبب من اصرار الكهنوت اليهودي على رفض الاندماج بالشعوب المحيطة
ومن مواقف أخرى نشأت في نطاق الفريقين اليهودي والروماني الدولتي .
وبذلك ، فقد حيل بين الرؤية البولسية وبين الواقع ؛ فظلت الكونية الجديدة
منقوصة ، وظلت مظاهر التزمت والانغلاق بادية في الحياة اليهودية ، واستمرت -
من ثم - نزعة العداء بين الفريقين الدينيين قائمة ونزعة «الثأر التاريخي» مهيمنة في
أذهان سادة المسيحية . وإذا وصل هؤلاء الى السلطة ، فقد تسنى لهم أن يحققوا
ما كان يراود مخيلتهم من محاصرة لليهود وتشتيت لهم في ارجاء المعمورة .

ومن الطريف جداً ما لجأ إليه بولس من «أدلة» في سبيل تسويق تصور خلاص
اليهود على أيدي «المنقذ المسيحي» الذي سيأتي من صهيون . فهو ، هنا ، يمارس ،
غطاً من التفكير الذي لا يخلو من التجادل (الأفلاطوني) بين الخاص والعام . لندقق
فيما كتبه على هذا الصعيد في رسالته الى الرومان ، أي الى أولئك الذين اعتبروا
«وثنيين» بالقياس الى اليهود والمسيحيين «الموحدين» :

إن «مواهب الله ودعوته هي بلا ندامة . فكما أنكم كفرتم حيناً بالله ونلتم الآن
رحمة من أجل كفرهم (يقصد اليهود) . كذلك هؤلاء أيضاً كفروا الآن لأجل
رحمتكم حتى ينالوا هم أيضاً رحمة . لأن الله أغلق على الجميع في الكفر ليرحم
الجميع»^(٢) .

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ١١ / ٢٥ - ٢٧ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ١١ / ٢٩ - ٣٢ .

إن بولس ، هنا ، يعلن أن «الجميع سواء في تائبهم» ، وأن تائبهم - من ثم - ليس أكثر من معصية (خطيئة) هي بمثابة مقدمة ضرورية للدخول في «ملكوت الرب الاله» . ان كل التناقضات التي وكّدت في «عالم الخطيئة» تذوب في «الرحمة» التي يسبغها الله على الجميع . ويهمننا من ذلك ، على هذا الصعيد من الموقف ، ان المشروع الكوني الخلاصي الذي طرحه بولس ارتطم بقانونيات التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والسيكولوجي الديني . فكان على اليهود أو على معظمهم ، والحال كذلك ، أن يغادروا «مملكة الرب الكنسية» في روما ومعظم الامبراطورية إلى ما وراءها وما حولها ، ملاحقين بالحملات التي قادها ضدهم مسيحيون قادة من أمثال يوحنا الذهبي الفم .

وإذا كان المشروع البولسي الكوني (الثام) قد أخفق تحت وطأة الواقع الشخصي ، الا أن بولس أو البولسية - بتعبير أدق - تمكنت من تحويل الدين الجديد إلى القوة السياسية الاوتوقراطية الفاعلة «من وراء حجاب» أو - لاحقاً - على نحو مفصح عنه . ومما له دلالة خاصة في نطاق عملية التحويل تلك وتنظيمها وضبطها أن دور بولس فيها كان مرموقاً . فلقد تمكن ، حقاً ، من تكوين دين يغطي لـ «الأغليين» و«الأذنين» كليهما احتياجانهم وآفاقهم الايديولوجية الضرورية المناسبة ، كل بقدر ما يقتضيه واقعه الخاص وما تشترطه علاقته بالطرف الآخر وبأطراف أخرى تقع فيما بينهما أو فيما حولهما . حدث ذلك بحيث استطاع الدين الجديد الإيجاء بأنه ينشر لواءه في جميع أوساط سكان الامبراطورية الرومانية «المقدسة» ، ماعدا اليهود وانصارهم من مشايعي يهوه الملتزمين ، أي السمرة^(١) . وبإمكاننا أن نلاحظ تصور بولس حول السلطة السياسية وموقف الدين منها في وجه آخر من أوجه نشاطه النظري والتنظيمي ؛ هذا الوجه يتمثل بما أطلقنا عليه ، في موضع سابق ، «التكليف الديني» . ولعلنا نحدد هذا الأخير عبر السؤال المركب التالي ، الذي يبدو كما لو كان تشكيكاً في تصور «العصمة» الرسولية أو النبوية أو القديسية : هل مباح للرسول أو النبي أو القديس ما هو محظور على الآخرين على الصعيد الديني العقيدي (والصعد الأخرى) ؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب ، فليسم ، وماهي مسوغات

(١) انظر : ٠ ارنولد توينبي - تاريخ البشرية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٩٣ .

ذلك ؟ وبدون الدخول في تفصيل الموقف ، الآن ، نشير الى أننا إذ نبحث في هذا الأمر ، نكون قد ولجنا حدود مسألة ذات قيمة ذاتية على الصعيد المعني هنا ، وهي مسألة العلاقة بين النخبة والجمهور .

لقد أعلن بولس القديس والرسول أن كل شيء مباح له ؛ فهو «الرسول القديس» ، الذي يتميز تميزاً نوعياً عَمَّن سواه من الناس «المؤمنين» ، و«غير المؤمنين» طبعاً :

«كل شيء مباح لي»^(١) .

ان بولس ، في ذلك ، يرفع التكليف عن نفسه ، محرراً إياها عما يلزم الآخرين ويقيدهم . وهو حيث فعل ذلك وبمثل هذا الوضوح والحزم والإفصاح ، فإنه يكون قد أسهم اسهاماً كبيراً ومباشراً في وضع واحد من أحجار الأساس لتصور «النخبة الدينية» . فهذه الأخيرة تستمد مشروعية ومصداقية نخبويتها ، بالأساس ، من كونها ، كما ترى هي ، على اتصال مباشر بالرب الاله أو بالروح الأعلى . وجدير بالذكر أن هذه «النخبوية» تشغل حيزاً ملحوظاً بل رئيسياً في علاقة التطابق ، بأنحاء واعتبارات متعددة ، بين الايديولوجيا الدينية والواقع القائم (الراهن) ، كما طرحها بولس .

والحق ، إننا نتبين في تلك الوضعية توافقاً وظيفياً عاماً بين تصوري وتعبيري «الرسول» و«السلطان» . فالأول يمثل «عقل» الدولة الناظم والذي يجعل منها شبكة وظيفية من الأنشطة والعلاقات التي تتمم بعضها بعضاً وتشترب بعضها بعضاً . أما الثاني (السلطان) فيجسد «يدها» ، يد تلك الدولة ، أي شخصيتها السلطوية الردعية . ولما كان العقل «الانساني» غير قابل للوجود بدون يد (جسد) ، فإنه يترتب على ذلك أن يكون معها وحدة ضرورية لا تنفصم . وهذه الوحدة ، من حيث هي كذلك ، ذات سمات بنوية ووظيفية تؤدي ، مجتمعة ، إلى «صنع» المجتمع «المسيحي الكنسي» الأمثل . أما ضرورة تلك الوحدة وعدم انفصامها فيكمنان في أن الرسول يحتاج احتياجاً أكيداً الى جهاز ناظم (رادع سياسياً مؤسسياً) من أجل أن يتسنى له تحقيق أهدافه الكبرى ؛ كما يقومان ، من طرف آخر متمم ،

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الأولى الى أهل كورنثوس ١٢/٦ .

على أن السلطان يلزمه لزوماً أكيداً عقل ناظم (رادع ايدولوجياً) في سبيل أن يتمكن من انفاذ وضبط خططه الاقتصادية والاجتماعية في إطار مجتمع «موحد ضمن تمايزه» .
وضروري ، من الناحية المبدئية ، أن يشار إلى أن وحدة المجتمع المتمايزة هذه وجدت قاعدة ايدولوجية لها في المسيحية نفسها بمثابرتها هوية سياسية مدنية ودينية ، بحيث وصلت هذه الأخيرة إلى تخوم فكرة المواطنة ضمن مجتمع طبقي ودولة مهما قيل عنها فإنها ظلت تمثل تكريساً سياسياً تطبيقياً لتلك الفكرة . وهنا ، لابد من القول بأن بولس هو الذي يرجع له الفضل الكبير في عملية ارساء هذه الوضعية الهامة بمدلولاتها التاريخية والسياسية والايدولوجية . وضمن ذلك ، تبرز قيمة رسائله ، أولنقل قيمة ما يسمى «رسائل بولس» ، بغض النظر عن صحة نسبة هذه الرسائل إلى بولس^(١) .

ولعلنا نواجه ، هاهنا ، قضية تبرز أمامنا لأول مرة . تلك هي أن الحديث ، في سياق بحثنا ، عن عقيدة بولسية أجدى وأدنى إلى المصادقية التاريخية من الحديث

(١) كان بولس ، في حينه ، يعي بعمق و «بتقدير داخلي لنفسه» أنه يقدم اسهاماً تأسيسياً جدياً وخطيراً باتجاه صهر «الجميع» من أفراد وفئات وطبقات و «أمم» المجتمع الروماني الكبير ، في بوتقة دينية ايدولوجية ومدنية سياسية واحدة ؛ عما كان من شأنه أن يعمق ويكرس سيادة الدولة الواحدة والطبقة الواحدة والدين الواحد . وفي هذه الحال ، يصح القول بأن بولس أراد أن يرتفع على الجميع ليمتلك الجميع . وهذا ، بحق ، موقف سياسي استراتيجي وتكتيكي يضع نصب عينيه توليد نمط من وحدة المجتمع يسهم في ضبط شرائيئه المختلفة والمتباينة ؛ وهو كذلك (أي الموقف) ينطوي على نظرة تلفيقية امتلكت - موضوعياً وذاتياً عقيدياً - كثيراً من الشرعية ، تلك النظرة التلفيقية التي ربما تُغري بتسميتها باسم سياسي أو فكري معاصر ، هو «الانتهازية» ؛ علماً أن هذه الأخيرة تبقى - بالمقياس التاريخي - ذات أهمية كبرى . لنقرأ ما يكتبه بولس عن «جهوده النظرية السياسية» :

«لأنني اذ كنت حراً من الجميع عبّدت نفسي للجميع لأربح الاكثرين . فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود . وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس مع اني لست تحت الناموس لأربح الذين هم تحت الناموس . وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع اني لست بلا ناموس من الله بل انا تحت ناموس المسيح لأربح الذين بلا ناموس . وصرت للضعفاء ضعيفاً لأربح الضعفاء . وصرت كلاً لكل لأخلص الكل» . (نفس المصدر السابق ومعطياته ٩/١٩ - ٢٢) .

عن «بولس» نفسه وبصفته شخصية تاريخية . من ذلك نريد القول بأنه ليس هنالك من إشارة للتشكيك في وجود هذه الشخصية أولاً ، وبأنه - رغم ذلك - ليس هنالك ما يدعو للثقة بكل ما يسمى «رسائل بولس» ثانياً ، وبأن البولسية هي - من ثم - أكثر شمولاً ومصداقية على الصعيد التاريخي والعقدي الديني من شخص بولس نفسه . إن هذا الاتجاه (البولسية) الذي اقترن بالمسيحية اليسوعية يغدو ، والحال كذلك ، تعبيراً عن جهود عديدة اشترك في انجازها جمع من «البولسيين» ؛ مما يمنحه قيمة أكبر بالمعنى الدلالي والوظيفي التاريخي . وقد نكون ، في هذا المعقد من المسألة ، أمام ما كنا قد واجهناه ، فيما قبل ، في نطاق نشوء المسيحية اليسوعية ، حيث وجدنا فيها ظاهرة أكثر أهمية وخطورة من أن تحدد بـ «اليسوعية» . وهنا كذلك ، تبيننا أنها ذات قيمة دلالية ووظيفية كبرى تمتد إلى الوضعية التاريخية برمتها ، تلك الوضعية التي تولدت فيها «اليسوعية» و «المسيحية اليسوعية» ، وكذلك «يسوع» .

في هذا وذاك ، يغدو بمسئعنا ملاحظة أن البولسية جسدت بعداً تاريخياً تقديمياً . أما هذا البعد فيبرز خصوصاً في أن بولس استطاع أن يقدم الأداة الأيديولوجية النازمة للدولة الرومانية ، ذات السمات الاجتماعية العبودية والسمات السياسية الأوتوقراطية المتقدمة ؛ حتى لو كان ذلك قد تم تحت وطأة الكثير من الاضطهاد الذي خضع له جمهور الأتقان والعبيد والعوام الفقراء الأحرار وأنصاف الأحرار . وثمة ملاحظة يجدر بنا ألا نغفلها ، لأنها - في أهميتها - تعزز الرأي الأخير في البولسية ؛ تلك هي أن المؤسسة الكنسية الجديدة (الكنيسة) لم تكن ، من حيث هي البناء الأيديولوجي الديني والأيديولوجي السياسي للدولة الرومانية ، منفصلة ، منذ البدء ، عن «الدولة» أو منظوراً إليها على أنها مقحمة فيها ودخيلة عليها . وبتمبير آخر يأخذ المسألة من زاوية وظيفية أخرى يمكن القول ، لم تكن «الكنيسة» ، منذ بداياتها الباكرة ، تشكل دولة ضمن دولة ، بل كانت هي نفسها الوجه الأيديولوجي الديني والأيديولوجي السياسي لها ، بحيث لا يغدو الحديث صحيحاً إطلاقاً عن كنيسة و دولة أو عن دولة وكنيسة .

إن تلك الأهمية الخاصة التي انطوت عليها جهود بولس الفكرية التنظيرية والـ تنظيمية بخصوص التطابق الوظيفي بين الرسول والسلطان وفي ضوء تصور «رفع

التكليف» عن الرسول ، لا تفقد الكثير من عناصرها وفاعليتها الدينية والسياسية بسبب بعض المواقف والآراء ، التي اتخذها وأعلنها بولس بهذا الاتجاه أو ذاك وإلى هذه الدرجة أو تلك والتي تقود إلى إضعاف اللحظة «الدنيوية» و«الاجتماعية» و«السياسية» في مشروعه المسيحي الخلاصي . فمثل هذه المواقف والآراء واجهناها ، على سبيل المثال ، في تصوره حول المرأة والزواج ، ومن ثم حول البتولية^(١) .

لعلنا نقول ، والأمر إذن على ما هو عليه من وضوح لدى بولس وعلى نطاق البولسية ، إن بولس قاد المسيحية اليسوعية ، حتى حينه ، إلى صيغتها الأكثر تماسكاً وعمقاً وشمولاً وحزماً . وهو إذ انجز هذه المهمة التاريخية التراثية الصعبة ، فإنه كان يجد نفسه مضطراً - بحكم الموقف نفسه - لايصالها إلى غايتها القصوى المحتملة والضرورية في احتمالياتها حتى ذلك الحين ، وذلك عبر حسم نهائي للعلاقة المعقدة والمتربة بالحساسية بين تلك المسيحية من طرف وبين اليهودية اليهودية والمسيحية اليهودية من طرف آخر .

ومن أجل إيضاح أولى هذه المهمة البولسية المركبة والصعبة ، لابد من اعلان الملاحظة المنهجية التالية ، وهي أن بولس بالرغم من أنه - على الصعيد الشخصي العائلي - ظل حتى النهاية وإلى هذا الحد أو ذاك يشعر بانتمائه اليهودي الإلثني (الجسدي بتعبيره هو) ، فإنه - على الصعيد الأيديولوجي الديني وحتى ذلك الحين - استطاع أن يحدث أكبر شرح بين اليهودية والمسيحية ؛ وأن يستثير - بالتالي - أكبر حوار ديني بين الطرفين وصل شيئاً فشيئاً إلى شكله الأكثر عنفاً ، وهو المسلح . لقد كان يدرك ، بذكاء وعمق ، الرسالة المنوطة به ، ويعلم كم هو معقد الكفاح ضد

(١) في موضع سابق كنا قد أوردنا بعض الشواهد على هذا الموقف . وبصيغة مجلة معمة ، نواجهه في مثل ما يلي من الأقوال البولسية :

«وأقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسنٌ لهم أن يبقوا على هذه الحال كما أنا . فإن لم يتعففوا فليتزوجوا فإن التزوج خير من التحرق . وأما البتولية فليس عندي فيها وصية من الرب لكنني أفيدكم فيها مشورة . . . فأظن أن هذا حسن لأجل الضرورة الحاضرة . . . فبقي أن يكون الذين هم نساء كأنهم لا نساء لهم . . . فإن الغير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضي الرب . وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضي امرأته فهو منقسم» . (نفس المصدر السابق ومعطيته ٧/٨-٩ ، ٢٥-٢٦ ، ٢٩ ، ٣٢-٣٣) .

عالم «قديم» من أجل عالم «جديد». في ضوء ذلك ومن موقعه ، نفهم الدور التاريخي الريادي الذي مارسته رسائله (الصحيحة والمزورة) الموجهة إلى «الأمم» . ولعلنا لا نجانب الصواب إن قلنا ، بعد الذي أتينا عليه ، بأن بولس ، في «رسائله» وفي مجمل نشاطه الديني والتنظيمي والاجتماعي ، انجز عملية صوغ المسيحية الكنسية ، بحيث ربما تعين علينا أن نسمي هذه الأخيرة باسمه هو ، فنقول «البولسية» ؛ هذا إذا لم نقل بأن المسيحية نفسها تعادل ، هنا ، البولسية وتعنيها وتتلخص فيها . وهو يصرح أكثر من مرة بأنه هو «الرسول» ، الذي أعلن الرب ابنه فيه^(١) ؛ كما يدرك ، ضمناً دور انتقاله من «مضطهد» للمسيحية إلى «صانع» لها ، ومن «ملاحق» لها إلى «حامٍ» لها^(٢) . ذلك لأنه ، في الظاهر المعلن ، يصرح بأن دوره فيها هو ، من حيث الأساس العام ، دور مؤمن بها ومبشر بها ومنافع عنها . وبين كلا الموقفين ، كما هو بين ، فرق عميق يتصل بالبعد التاريخي والبنوي المنوط بها ، أي المسيحية . فإن يكون صانعاً لها - وهو يستحق فعلاً أن يطلق عليه ذلك بالحدود المؤسسية التنظيمية المنظرة - شيء ، وأن يكون مؤمناً بها ونصيراً لها شيء آخر . ونحن ، من طرفنا ، نرجع القول بأنه لم يكن بعيداً عن النظر الى نفسه من موقع الاعتبار الأول^(٣) . لم ذلك ، وماهي البواعث التي قد تكون كامنة وراءه ؟ ولم

(١) لنقرأ ما يعلنه بولس عن «نفسه» انجيلياً ، فنذكر كيف ينظر إلى نفسه :

«من بولس الذي هو رسول لا من قبل الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح والله الأب الذي أقامه من بين الأموات . . . وأعلمكم أيها الأخوة أن الانجيل الذي بُشِّر به على يدي ليس بحسب الإنسان . لأنني لم اتسلمه أو اتعلمه من إنسان بل بوحى يسوع المسيح . . . فلما ارتضى الله الذي فرزني منذ كنت في جوف أمي ودعاني بتعمته . أن يعلن ابنه في لأبشر به بين الأمم لساعتي لم أصغ إلى اللحم والدم» . (الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية ١/١ ، ١١-١٢ ، ١٥-١٦) .

(٢) في بعض المواضع من رسائله ، يعلن بولس مايلي بثقة تامة وتشديد وحزم :

«أنا حرّ . ألسنت رسولاً . أما رأيتم المسيح يسوع ربنا . ألسنتم انتم عملي في الرب . وإن لم أكن رسولاً إلى آخرين فلاني رسول اليكم لأن خاتم رسالتي هو أنتم في الرب . وهذا هو احتجاجي عند الذين يفصحوني» .

(الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثس ١/٩-٣) .

انظر كذلك : الشاهد السابق .

(٣) ان غياب الوضوح حول ما يفصل المسيحية اليسوعية الأولى (الرؤى ياوية) وذات الأفق الشهي

نميل ميلاً شديداً إلى رؤية دور بولس في هذا الضبوء ؟

نستطيع الاعلان ، ضمن السياق المعهود حتى الآن ، بأن مهمة «القديس الرسول» المعني تركزت - في اتجاهاتها الأساسية العامة - بالتأكيد الوجودي (الانطولوجي) والقيمي الأخلاقي على أننا أمام عالمين اثنين كبيرين لا سبيل إلى تجاوز مسألة اختيار واحد منهما ، وهما المسيحي اليسوعي واليهودي اليهودي (أي اللامسيحي) . أما البواعث الدافعة إلى ذلك والفاعلة باتجاهه فتكمن في أن العالم الأول (المسيحي اليسوعي) يتقوم بكونه تجسيدا للعناصر البنيوية والوظيفية التالية : (١) الداخل مقابل الخارج وبالتضاد معه ؛ (٢) الحقيقي مقابل الزائف أو الزائف وبالتضاد معه ؛ (٣) الكثرة بالواحد والواحد بالكثرة مقابل الواحد بالواحد والواحد بوحده ؛ (٤) الانفتاح على الداخل والخارج مقابل الانغلاق على الداخل والانفتاح على الخارج وحده ، وكذلك بالتضاد مع هذا الانفتاح وذاك الانغلاق . ان هذه العناصر العقدية الاربعة ، التي تشكل خط القاس والتناهد بين الدينين المعنيين هنا ، يمكن أن نردها - وفق المنطوق البولسي - إلى واحد منها يمثل المدخل إلى كل من دينك الآخرين ، وهو الانفتاح على الداخل والخارج مقابل الانغلاق على الداخل والانفتاح على الخارج .

ان ذلك الأمر ينطوي على دلالة مبدئية تأسيسية بالنسبة إلى السياق التاريخي والاجتماعي المشخص ، الذي نشأت فيه المسيحية اليسوعية وتبلورت ونمت عمقاً وسطحاً وبالاتجاهين الاثنين البنيوي والوظيفي . أما ما نعينه بذلك فيتمثل ، أولاً ، بالبعد العالمي (الأممي) ، الذي تجسد بعالمية الامبراطورية الرومانية المنفتحة

= من طرف والمسيحية اليسوعية التي اكتسبت شخصيتها عبر التنظير والتنظيم من طرف آخر ، يؤدي إلى نشوء حالة من الغموض والاضطراب والتشوش على صعيد مصطلح «المسيحية» . فإذا ميزنا بين المسيحية (الرؤى باوية) باعتبارنا إياها عقيدة تلقائية وبين المسيحية بمثابة موقفاً مؤدجاً ومنظراً ، استطعنا القول بأن البولسية هي هذه الأخيرة ، وهي التي انتصرت وارتفعت إلى مستوى الدين الدولتي المدعم بما تملكه الدولة من سلطة تشريعية وقضائية وتنفيذية . ومن هنا ، أي من هذا التمييز التاريخي المنهجي ، يغدو من قبيل عدم الدقة المنهجية التاريخية أن نقول مع الأب اسبيروجبور بأن «المسيحية تأسست قبل بولس» . (اسبيروجبور : رد على أبحاث حول العلاقة القائمة بين المسيحية - واليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢١) .

والمنطوية على تجمع اتني وثقافي واسع ؛ كما نعني بالمعطي المعني ، ثانياً ، اللحظة الدنيوية السياسية المشدد عليها ، تلك اللحظة التي أفضت بالدين الجديد المذكور إلى ان يتحول إلى الأيديولوجيا الدينية والسياسية لتلك الامبراطورية . وبين من تقصي البنية الداخلية للمسألة المطروحة ، أن «الوثنية الرومانية» كان عليها أن تواجه اختراقاً واسع النطاق من قبل الدين الجديد . ولعلنا نبرز اثنين من العوامل الأساسية التي مكّنت لذلك الاختراق ، حيث نرى فيهما عنصرين كبيرين على هذا الصعيد . العامل الأول تمثل بالدور الوظيفي الحاسم الذي نيط بذلك الدين في نطاق مجتمع متسع ومتأزم اجتماعياً طبقياً واثنياً (أقوامياً) . أما العامل الثاني فقد تجسد بالوضع الطريفة التالية ، وهي أن المسيحية اليسوعية إذ دخلت - بصيغتها البولسية - في شرايين ذلك المجتمع ، فإنها وجدت نفسها ، جزئياً ، «في بيتها» . والسبب في ذلك يعود إلى أن المسيحية هذه نفسها انطوت على عناصر عديدة من «الوثنية» ، بحيث يبدو الأمر كما لو أنها تَمَّت هذه الأخيرة أو استجابت لها . ولكن هذه العناصر كان عليها أن تخضع لعملية تبيؤ وظيفية جديدة لكي تستطيع الاستمرار بصيغ «مسيحية متميزة»^(١) .

١) بعد أن نضع عملية التبيؤ الوظيفي هذه في حسابنا ، يصبح مقبولاً ما يكتبه عصام الدين حفني ناصف حول عناصر «الوثنية المسيحية» : «... ان المسيحية نحوي في أضعافها قدراً كبيراً من الوثنية وهي ما تزال الى اليوم موسومة بمسماها . ١ - فالمسيحي في وقتنا هذا يعبد الثالث كما كان اسلافه من البدائيين يعبدون الاوثان . ٢ - وهو يدعو إلهه أن يُديم عليه حياته وبرعى له أعماله كما كان البدائي يدعو أن يحرس قطيعه أو أن يهيء الأحوال التي تلائم نمو زرعته . ٣ - وهو يترنم بالأناشيد الدينية ، وكان أسلافه يقيمون الأذكار وينتلون الأدعيات ويرددون الابتهالات . ٤ - وهو يهب الأموال للكنيسة كما كان أسلافه يسوقون الكباش والثيران ويحملون الزيوت والخمور الى الاوثان . ٥ - ويصطنع المسيحيون في تشييد كنائسهم كثيراً من الأساليب التي كان السحرة يصطنعونها ، فلا يدعون أشعة الشمس تنفذ إليهم إلا من خلال الواح من الزجاج متعددة الألوان موشاة بالرصاص كما يتأزر الغبش المصطنع وصوت الأرغن الذي يهز نياط القلوب والقدسية المسبلة المكان فيطفي كل أولئك على الحواس فيثير الانفعالات النفسية ويحمد صوت العقل . ٦ - وما انفك الكاثوليك إلى الآن يحتفظون بأساليب العبادة البدائية إذ يحملون المدايات والايقونات منوطة بأعناقهم أو ناشبة بشياهم» . (عصام الدين حفني ناصف : المسيح في مفهوم معاصر - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٥٢ - ١٥٣) .

نلاحظ ، اذن ، انه كان على تلك «الوثنية» أن تنساق باتجاه «داخلي» - جوانبي ، بحيث يغدو الحديث وارداً ، ضمن خصوصية نسبية ، عن «وثنية مسيحية» . ومن هنا ، ليس دقيقاً الرأي الذي أتينا عليه في سياق آخر سابق والقائل بأن كل ما تنطوي عليه المسيحية اليسوعية مأخوذ عن العقائد الوثنية القديمة^(١) . ان هذا المقال يفصح عن نفسه عبر وضعه في سياق الموقف المسيحي البولسي من «موسى التوراتي» . لندقق بعمق - مصداقاً لما أوردناه توأ - في تحديد بولس نفسه لنقطة التمايز الرئيسية القائمة بينه وبين موسى التوراتي ذاك . فهو يقول مايلي بلغة الوثائق بمصداقية موقفه :

«ولسنا كموسى الذي كان يجعل برقعاً على وجهه لكي لا يتفرس بنو اسرائيل في غاية ما يُبطل . بل أعميت بصائرهم لأن ذلك البرقع نفسه باق إلى يومنا هذا غير مكشوف عند قراءة العهد العتيق إذ هو بالمسيح يُبطل . . . أما نحن جميعنا فننظر بوجه مكشوف كما في المرآة مجد الرب فتحول إلى تلك الصورة بعينها من مجد إلى مجد كما يكون من الرب الروح»^(٢) .

نلاحظ ، فيما سبق ، أن لحظة دنيوية سياسية ومتفائلة طموحة تبرز لدى بولس «الرسول القديس» بروزاً لا موسوياً لا توراتياً ، أي «بوجه مكشوف كما في المرآة» . هذه اللحظة تتدعم ، بعمق ، بما يُلح عليه من تطابق معلن عنه بين «الرسول والسلطان» ، ومن إقرار بالتراتب الاجتماعي الطبقي ، مما يؤكد ، من موقعه ، على ما كنا قد أتينا عليه ضمن هذا الحقل الدقيق من «التصور السياسي» وعلاقته بـ «التصور الديني العقيدي» لدى بولس . ونستطيع أن نخطر خطوة عملاقة إلى أمام فيما يتصل بتدعيم تلك اللحظة ، حيث نتبين أمامنا موقفاً كبيراً خطيراً ، حقاً ، يعلنه بولس من «الخرافات» ، هذا الموقف الذي لا يخفي إحدى النتائج الرئيسية التي يمكن استنباطها منه : تكوين دين جديد ، دين دولة واقعية تشترط وجود حداً ما من التعقيل والتنظيم لكي تتمكن من حل مشكلاتها الداخلية والخارجية .

ولما كانت تلك الدولة «المتدبنة» واقعية كل الواقعية ، كان دينها الدولتي ،

(١) انظر : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٥٣ .

(٢) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الثانية إلى أهل كورنثس ٣/١٣-١٤ ، ١٨ .

كذلك وبنفس المستوى ، واقعياً كل الواقعي . لتتبع جيداً فيما يعلنه بولس على هذا الصعيد :

«أما الخرافات الدنسة العجائزية فإرفضها وروض نفسك على التقوى»^(١) .
لعلنا نقول ، في هذا المنعطف من «المسألة البولسية» ، ان البعد الغيبي المثالي لا يعلن عن نفسه كثيفاً حاسماً مؤرقاً ، بل يفسح الطريق - مرغماً وبشيء من الشعور بالصغار والامتهان والقدح (لنلاحظ ثانية تعبير : الخرافات الدنسة العجائزية) - امام حدث واضح من التماسك والثقة العقلين . حقاً ان بولس يستخدم مصطلح «التقوى» ، وهو مصطلح ديني مسيحي (وغيره) . ولكن ، أليس من الملاحظ أن هذا «التقوى» يبرز ، في هذا السياق المحدد ، من موقع ذرائعي ، بمعنى واقعي نفعي ، أي عبر اقنية تعلن عن حاجة واقعية وظيفية ؟^(٢) وإذا ما انطلقنا من جواب ايجابي على ذلك ، ومن ثم من رؤية بولسية واقعية ذرائعية ، فإنا - إذ ذاك - سنجد أنفسنا أمام فكرة ذات أهمية منهجية كبرى بالنسبة إلى تقويم دور بولس في صوغ المسيحية التي بين أيدينا . تلك هي أنه ينبغي أن نتقصى - في معظم الأحوال ورغم صعوبات كبرى تنشأ هنا وهناك - أصداء اللحظة الدنيوية السياسية تحت ركام من التعبيرات والأدعية والمواظب الدينية الرمزية ، التي يستخدمها بولس في رسائله ويلجأ على بعض منها . وإذا كان الحال كذلك ، وإذا كانت الرؤية البولسية أو - على الأقل - إذا كان جزء أساسي منها يقوم على تلك «الواقعية الذرائعية» ، أفلا نجد أنفسنا ، ثانية ، وجهاً لوجه أمام اليهودية اليهودية ، إنما أمام غمط منها ينطوي - بنبرة مشددة - على عناصر ملحوظة من العقلانية والدهاء والعالمية (الأهمية) ، ومن روح عميقة من التفاؤل والطموح والانفتاح والثقة ؟^(٣) بلى ؛ ان بولس يقدم جواباً

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الأولى إلى تيموثاوس ٤ / ٧ .

(٢) هذا التساؤل ، الجاد على نحو مركزي بالنسبة إلى البولسية في منحهاها المقدم فوق ، يمنحه كارل ماركس صيغة ايجابية معمقة في رسالته «حول المسألة اليهودية» . فلقد كتب ، مكتشفاً عملية الانتقال من العملي إلى «الروحاني الأثيري» في المسيحية ، بحيث نتبين في ذلك الملامح الكبرى لـ «اليهودية الواقعية الذرائعية» وإن عبر مجموعة من الألوان المعتمة . يقول ماركس : «لقد تجاوزت المسيحية اليهودية الواقعية ظاهرياً فقط . فهي (أي المسيحية) كانت أكثر سموا وأكثر روحانية من أن تريل قسوة الحاجة العملية إلا بتصعيدها في ضباب أثيري» . (Karl Marx: Zur Judenfrage- a.a.O., S. 376)

إيجابياً على ذلك السؤال الكبير يمكن اكتشافه واستنباطه بل مواجهته مباشرة في مجمل نشاطه النظري والعملية التنظيمي .

في ضوء ذلك كله ومن موقع تناوله كمسألة مركبة وفي وضعها التاريخي التراثي والاجتماعي الشخص ، نرى لزماً علينا أن نضع أيدينا على نتيجة من شأنها أن تجرؤ على مخالفة ما هو مهيم على صعيد النظر إلى موقف المسيحية اليسوعية من الوضع الاجتماعي الشخص ، عموماً . ان ما نعينه بذلك هو أنها ، في صيغتها البولسية الناضجة تخصيصاً وتحديداً ، ليست ديناً تقشفاً وليست ذات موقف تأملي سلبي حيال ذلك الوضع ؛ إنما هي تجسيد لموقف فاعل حافز ومستجيب له ، بشكل أو بآخر وبدرجة أو بأخرى . وقد اقتضى ذلك واشترط - على عكس ما هو معتقد من قبل معظم الباحثين في المسيحية وفي تاريخها ومن قبل جل اللاهوتيين الاسلاميين تخصيصاً - أن نجيب ، دون تهييب وبعينين يقظتين ، عن كثير من المسائل والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والايديولوجية التي واجهتها هنا وهناك . وبتعبير آخر أكثر ضبطاً وتقنياً يمكن القول بأن البولسية (المسيحية) ليست - في قواعدها الأساسية الكبرى - مجرد علاقة بين المؤمن والرب من حيث هما طرفان مشروط الأول منهما بالثاني اشتراطاً تأملياً ذهنياً . إنما أكثر من ذلك بكثير ؛ فهي وإن انطوت على تلك العلاقة المشددة عليها في أحيان متعددة ومن زوايا محددة ، إلا أنها تجسد مواقف وتتضمن وجهات نظر مفصلة كثيراً أو قليلاً حول مسائل تشريعية وسياسية واقتصادية وايديولوجية ؛ مما يجعل القول التالي مدعماً ، وهو أن المسيحية المعهودة تمثل دين «دنيا وآخر» .

وبالضبط ، في تلك الوضعية «الدنيوية والأخروية» نتيين البواعث والعوامل التي كمننت وراء الحدث التاريخي الضخم ، الذي تمثل باعلان المسيحية اليسوعية (بصيغتها البولسية أساساً ، كما أشرنا) ديناً رسمياً شرعياً للدولة يستمد شموليته وسيادته من شمولية وسيادة هذه الدولة في المجتمع الروماني ، ومن أنه استجاب لاحتياجاتها التشريعية والسياسية والاقتصادية والايديولوجية استجابة غدت شيئاً فشيئاً واعية وفاعلة . فلقد احتوى هذا المجتمع على انماط متعددة ومتنوعة من التجمعات الطبقيّة والاثنية ، التي انصهرت ، بحدود عامة اجمالية ، في وحدة دينية وسياسية ناظمة وموجهة . وفي هذه الحال ، كان على «النصوص المقدسة» ، وفي

مقدمتها «رسائل بولس» ، أن تخضع لمجموعة كبرى من المعالجات والدراسات والتفسيرات ، وكذلك الاجتهادات والتأويلات ، التي قادت - مجتمعة - إلى «الدنيا» قبل «الآخرة» ، أو إلى الآخرة عبر الدنيا ، تلك «الدنيا» التي «اشترك فيها» في المجتمع المذكور جمع غفير من الشعوب . وهاهنا ، تتكشف أمامنا المقولة البولسية التالية ، التي تفصح عن نفسها بمثابرتها سياسية قبل أن تكون دينية ، وعملية قبل أن تكون نظرية ؛ تلك هي : المسيح هو كل شيء وفي الجميع . وبتعبير بولس ، نلاحظ أن المجتمع اليوناني الكبير الفصفاض هو للجميع .

«حيث ليس يوناني ولا يهودي ولا ختان ولا قَلْف ولا أعجمي ولا اسكوتي ولا عبد ولا حر بل المسيح هو كل شيء وفي الجميع»^(١)

لا بد أننا نلاحظ ، هنا ، فكرة تنتظم الموقف البولسي وتخرقه في معظم أوجهه وآفاقه ، وهي تلك التي تتمثل بما يمكن أن نطلق عليه «المواطنة» . وإذا دققنا في الأمر ، تبين لنا أن هذه الفكرة لم تكن ، بالأصل ، غريبة عن الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي هيمن في روما في عهد بولس . ولكن الملاحظ أن هذا الأخير ادخل في دائرة المواطنة ما كان القانون الروماني يخرج منه ، وهو «العبد» . بيد أن «العبد» ، هنا ، اذ يدخل في تلك الدائرة ، فإنه يكون قد افقد شخصيته الاجتماعية المشخصة وأذيب في شخصية «جديدة» مجردة . فالمسيح تذوب الفوارق وتتوحد المتناقضات ، لينتج عن ذلك «المجتمع الموحد» . ولكن ما يلاحظ يكمن في أن هذا الموقف يبرز خصوصاً ، أوفقط ، في حال التصدي للتصور اليهودي عن المجتمع ، وفي حال توظيفه في خدمة المثل العليا للمجتمع الجديد . ان «المسيح» يمثل ، والحال كذلك ، المِظلة التي تستظل بها كل الطبقات والفئات الاجتماعية . وإذا ما غادرنا هذه الدائرة ، غدونا في حقل (مسيحي كنسي دولتي) يتحول فيه العبد بنيوياً ووظيفياً إلى وضعية «العبد» في مجتمع عبودي ، هو المجتمع الروماني .

ولعلنا نستنبط من تلك الوضعية أمرين ملفتين يتصلان بآفاق التحول التي طرأت على المجتمع الروماني . الأمر الأول يجسد عملية التمويه الجديد ، الذي أخذ يطرح نفسه بقوة مع تحول المسيحية اليسوعية (البولسية) إلى دين الدولة ٢ ويقوم

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل كورنثوس ١١ / ٣ .

ذلك على إدراج كل الطبقات والفئات والشعوب في مقولة واحدة ، هي «الإنسان الجديد الحر» . ولكن تبين ، فيما بعد وشيئاً فشيئاً ، أن المسألة لا تعدو أن تكون موقفاً وظيفياً يطمح إلى إسقاط «العالم القديم - اليهودي» أولاً ، وإلى التمكين لـ «العالم القائم - الروماني» ثانياً . أما الأمر الآخر فيمكن تبينه من خلال وضع اليد على اتجاهات الأزمة الكبرى التي أخذت تلحق بالمجتمع الامبراطوري عمقاً وسطحاً . فهنا ، أخذت تبرز مجموعة من الأدلة الاجتماعية التاريخية على استفاد الأهمية الاجتماعية الاقتصادية لـ «العبد» ، بحيث غدا التشكيك بوجوده وبجدواه من مستلزمات عملية التحول الجديد . فكأنما يتجه الأمر ، في هذا السياق ، باتجاه التأكيد على أن الحرية ، حرية الجميع ، منوطة بالمسيح أولاً وأخيراً . وربما يمكن القول بأن استخدام مقولة «العبد» ، ضمن هذه الوضعية ، كان طريقاً للوصول إلى «المواطنة» وتسويغها ، وإن كان ذلك على حساب العبد نفسه ، كما كان طريقاً لبلوغ «مابعد العبودية» ، أي إلى العلاقات الاجتماعية التي ستحول العبد إلى قوة منتجة في صيغة القرن في المجتمع الاقطاعي اللاحق .

ان بولس يقدم ، إذن ، لوحة اجتماعية «مسيحية» مركبة تمثل تكريساً لـ «الراهن القائم» وتهيئة لـ «اللاحق المحتمل» . ولكن كما يظهر ، كانت دعوة بولس قد اصطدمت ، في بدايات الأمر ، بعوائق جدية وكبيرة من قبل أطراف متعددة ، بما في ذلك بعض أنصاره . ولقد أخبر هو بذلك ، حين كتب مايلي بروحية يحاول فيها أن يخفي أساءه ويبرز ثقته بالمستقبل ، أي المرحلة التي ستتصر فيها مسيحيتة (البولسية) :

«قد علمت ان جميع الذين في آسية قد ارتدوا عني»^(١) .

وجدير بالقول أن بولس اذ يواجه مثل تلك الصعوبات في آسية ، فإن الأمر لم يكن ذا دلالة نافلة . فالتركيب الاجتماعي الاقتصادي والسياسي في معظم بلدان آسية لم يكن قد تطور واتجه صوب تقبل مثل هذا الموقف التوحيدي العقيدي بين جموع «الأمم والشعوب» . ومن البين أن «اليهود اليهوديين» كانوا في طليعة من تصدى لذلك الموقف وعمل على تثبيت الأوضاع الهيرارشية (التراتبية) على الأصعدة

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الثانية إلى تيموتاؤس ١/ ١٥ .

الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والدينية وبالصيغة التي تقترب من وجهة النظر
اللاتنية ، أي التي لا تعتمد عن موقف عرقي إنعزالي (جيتوي) . وعلى هذا ، فإن
بولس لا يسعه ، حيث يقدم النموذج «الثاني» عن المجتمع المسيحي (البولسي) ، إلا
أن يسخر ممن يدعوه «ذوي القطع» ، الذين عنى بهم أولئك اليهود . فيهاجمهم
بعنف ويتناولهم بسخرية لاذعة ؛ ذلك لأنهم يشكلون - برأيه - عائقاً جدياً حيال
وحدة المجتمع الجديد المقترح . فهم في وجودهم الاجتماعي المغلق (الجيتوي)
والقائم على وهم «الشعب المختار المختون» ، يعرضون ذلك الأخير للتمزق
والحروب الدينية والأقوامية (اللاتنية) . ومن هنا ، فهو يعلن تحذيره الهجومى
والقزعي التالي بكل ماكان لديه من وضوح وتخصيص ودقة وإدانة :

«احذروا الكلاب ، احذروا عملة السوء ، احذروا ذوي القطع ، لأن ذوي
المختلن إنما هم نحن العابدين بروح الله المفتخرين بالمسيح يسوع . . .»^(١)

من موقع هذا التصور الواضح والجريء للأمور ، يطمح بولس الرسول الى توطيد
«الجديد» عبر أقنية من الروح الايجابية المستقبلية «المدعمة» بـ «نظرية دينية عقيدية»
جديدة تنظر لها راهناً ومستقبلاً . فما يشفع «للمجتمع المسيحي الجديد» أن يكون
ايجابياً وفاعلاً وموحداً ، لا ينهض على أنه ينتسب إلى الماضي ، بكل ما ينطوي عليه
عمقاً وسطحاً من «أنساب عريقة» تمتد إلى آدم «الأول» ، أي إلى الكائن الأول الذي
أتى - في أهميته الانطولوجية والأخلاقية القيمة - بعد الاله الرب . ان عناصر
الاجبائية والفاعلية والوحدة تلك تكمن في راهنية المجتمع المعنى ، كما في
مستقبلته ، اللتين من شأنهما أن تضمنا لـ «المؤمنين الشهداء» حياة أبدية في
«المللكوت الرباني» . ومن الجدير بالذكر أن بولس ، في هذه المسألة ، يجعلنا نضع
أيدينا على المصادر الكبرى والمتعددة للبولسية ، تلك المصادر التي نجدتها موزعة
بأنحاءات متنوعة وموحدة في شخص هذه المدرسة العقيدية . من ذلك ، نواجه
المصدر الشرقي القديم واليهودي واليوناني الهليني ؛ نواجه هذه كلها وقد انصهرت
في شخصية عقيدية واحدة متماسكة ، هي البولسية إياها ، ولكن دون أن نكون
عاجزين عن تبيين كنهات هذه الشخصية .

(١) رسالة القديس بولس الى أهل فيليبي ٣/٢-٣ .

يكتب بولس ما يلي بعقلية المفكر السياسي والسياسي المفكر ، الذي يضع نصب عينيه مهمة تاريخية كمنت في تعميق «الحداث الجديد» في وجه «القديم» وجعله يكتشف شخصيته المتميزة عنه تميزاً بيئاً على مجمل الأصعدة :

«أيها الاخوة لا أحسب أنني قد أدركت لكن امرأة واحداً اجتهد فيه وهو أن أنسى ما وراثي وأمتد إلى ما أمامي . . . اقتدوا بي أيها الاخوة وتبصروا في الذين يسلكون على المثال الذي لكم فينا»^(١) .

ان ما يطرحه بولس في ذلك الشاهد هو ذو أهمية منهجية تراثية وتاريخية خاصة بالنسبة إلى تقصي البولسية فيما يتصل ببعض الأوجه النظرية للتاريخ والتراث . فدعوته إلى طي صفحة الماضي ونسيانه تنطوي على لحظتين اثنتين كبيرين تضيئان لنا غمط تفكيره النظري العقيدي وآفاق مطامحه «العملية السياسية» . إنه - هنا وعلى عكس ما جاء لدى متى الانجيلي^(٢) وغيره - ينطلق ، والتأثير الفلسفي الافلاطوني الخاص بـ «اسطورة الكهف» باد عليه بسطوع وافصاح ، من أن «الماضي» ليس إلا «ظلاً» للحقيقة ؛ في حين ان «الحاضر والمستقبل» يمثلان التجسيد المباشر والعميق لها ، أو ينطويان على «ذاتها» . وهذا يضعنا ، ثانية ، أمام ما كنا قد تعرفنا إليه ، في السياق البولسي ، تحت حدي «الداخل والخارج» . فالماضي من شأنه أن يملك الزعم بامتلاكه «الخارج» وأن يشير إليه ويدل عليه ، ليس إلا . وهو إذ يكون كذلك ، فإنه لا بد وأن يدرك أن حدوده تتوقف عند الحاضر ، أي عند القيمة التي تطرح نفسها من حيث النفي لذاك والبديل عنه . وهذا يضعنا أمام موقف عدمي عصروي من الموروث السابق على المسيحية ، بحيث يتحول الماضي إلى «أوراق صفراء» استنفدت قيمتها في حضرة «الحاضر المستقبلي الحقيقي» .

ولعلنا نقول ان بولس ، في ذلك الرأي ، استطاع أن يجهز على نحو نهائي على «الناموس الموسوي اليهودي» ، حيث رأى فيه ما قد مضى ، أي ما كان قد مثل ظلاً للحقيقة . لنقرأ ذلك ، بوضوح ، فيما أعلاه ، حين يخاطب «الغريانيين» :

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٣/٣ .

(٢) في قوله : «إني لم آت لأحل لكن لأتم» . (الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدس يوحنا ١٧/٥) .

«أما الناموس فإذا له ظل الخيرات المستقبلية لا ذات الأشياء بعينها»^(١) .
وحيث يكون الأمر بهذه الصيغة المضبوطة «التامة» ، فإن «البدء الجديد» أو «الحاضر
المستقبلي» يكون بمثابة ولادة نوعية جديدة . وإذا دققنا في هذا «البدء الجديد» ، تبين
لنا أنه لا بد وأن يكون مقترناً - في كل الأحوال والظروف - بولادة «الحمل المذبح منذ
بداية العالم» . ومن حق الباحث أن يرى في هذه اللحظة المتمثلة بالموقف من
«الماضي» تعبيراً بولسياً مصرحاً به عن عدمية تاريخية تراثية اشرنا إليها فوق وتكتسب
بعدها الوظيفي الدلالي عبر ما ينجزه بولس من تسويغ ديني نظري لعملية رفض
«الناموس - ظل الحقيقة» ، وربما كذلك لإدائته ومناهضته بهدف القضاء عليه قضاء
مبرماً . وهذا من شأنه أن يضع يدنا على المعطى التالي ، وهو أن العدمية التراثية
البولسية تلك ظلت ، في أكثر أشكالها «فظاظة» بالمعنى العلمي التاريخي ، تمتلك
مشروعيتها الهامة حتى الحد الأقصى ، في حينه . ذلك أنه من أجل حل مسألة
«الموروث الديني المقدس» ، لم يكن أمامه إلا اللجوء إلى هذا الموقف «العدمي -
العصروني» . فلقد كانت لحظة «الانبهار» التي «تفجرت في قلب بولس» حيث كان
على الطريق إلى دمشق لقتل وتشتيت «الهراطقة الجدد - المسيحيين» ، ذات بعد
خطير عميق يقود إلى التأكيد بأن «ذات الحقيقة» لا تمكث إلا حيث يوجد «يسوع
المسيح» ، في حين أن «ظل الحقيقة» لا يمكث إلا حيث انتهى الأمر وقضي به .
أما اللحظة الثانية - وهي الأهم والأكثر تعبيراً عن مطامح بولس وآفاقه الدينية
العقيدية والاجتماعية وتدللياً عليها - فقد تمثلت في مشروعه المستقبلي المطروح «أمام
البشرية» ، ذلك المشروع الذي يكمن في التبشير بعالم «جديد» تنصهر فيه
الانتماءات الإثنية والاتجاهات الفكرية والعقائد الدينية ، و«كذلك» الانتماءات
الاجتماعية الطبقية في إطار سياسي دولتي موحد ، هو إطار الدولة العظمى
الرومانية . ولعلنا نقول في هذا المعقد من المسألة - دون الوقوع في مفارقة منطقية أو
اجتماعية تاريخية مشخصة ، وكذلك دون أن نغض النظر عن البعد الإيهامي الذي
يحيط بمشروع بولس ذاك - أن هذا الأخير انطوى على بعد تاريخي تراثي بعيد الدلالة
الوظيفية كان من شأنه أن أدى للنظر إلى العالم نظرة دنيوية متفائلة وبنائية ومنطوية
على رصيد كبير في إنجازها العملي .

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى العبرانيين ١/١٠ .

ومما يدعم الموقف - المشروع البولسي المأثي عليه ويضبطه عمقاً وسطحاً ، أي بالاتجاهات الاجتماعية الاقتصادية والعقيدية الذهنية ، أن نتقصى آراء بولس حول مسألتين مركزيتين من المجتمع الانساني عامة ، والروماني بصورة خاصة ، وهما «العمل» و «المال» . ففي ذلك الأخير ، أي المجتمع ، يعلن عن أنه لا سبيل الى العيش فيه «عيشاً اجتماعياً طبيعياً» بعيداً عن ممارسة العمل ، الذي يتجسد ، أساساً ، بالنشاط الجسدي والذهني الذي يبذله فرد ما . وقد نقول أكثر من ذلك بأن موقف بولس من «العمل» يقدم واحدة من صيغ تقسيم العمل وفق ما تقتضيه العلاقات الاجتماعية السائدة ، في حينه . وبذلك ، يغدو العمل المعني ، هنا ، ممارسة للنشاط الاجتماعي الاقتصادي المحدد من موقع تلك العلاقات . وهذا ، بدوره ، يقود الى القول بأن بولس كان ينطلق من ضرورة الاقرار بالوضعية القائمة والحفاظ عليها ، إضافة إلى تحفيزها وإثرائها بـ «خيرات هذا العالم» المنظم والمضطرب في تكامله وتعاضله . ولكنه حيث يفعل ذلك ، فإنه يلح على ضرورة أن ينجز في ضوء الضوابط والنواظم التي تلبورت مع «شخصية» يسوع المسيح الموحدة والناظمة . ذلك نراه واضحاً دقيقاً ، بحدود الموقف البولسي ، في تأكيد رأس هذا الاتجاه الديني - النظري على

«أنه إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل» . وقد بلغنا ان فيكم قوماً يسلكون على خلاف الترتيب غير مشتغلين بل متشاغلين بما لا يعينهم . فنوصي أمثال هؤلاء ونسألهم بالرب يسوع المسيح أن يشتغلوا يهدوء ويأكلوا من خبزهم»^(١) .

ان الضوابط التي تقدمها شخصية المسيح على هذا الصعيد ليس بوسعها إلا أن تؤكد على أن «الاستهلاك - الأكل» ، لكي يكون «مباركاً» ، لابد وأن يسبق بـ «الانتاج» وأن يقترن به اقتراناً ضرورياً . ونلاحظ أن بولس يحدد الوضع «الاجتماعي اللاطبيعي» أي «اللامسيحي» بأنه «المخالف للترتيب» . وهكذا ، نغدو أمام مجموعة من المتقابلات المتعارضات التي تسم الموقف المسيحي وما يعارضه ويتناقض معه ؛ فالاستهلاك مقابل الانتاج ، والأكل مقابل الشغل ، ومن ثم الجزء مقابل الايمان .

(١) رسالة القديس بولس الثانية الى أهل تسالونيكي ٣ / ١٠ .

انها متقابلات متعارضات على نحو تضائفي من شأنه أن يجعلها مشروطة ببعضها بعضاً ، وأن يؤدي إلى النظر إليها بمثابة اركان «النظام الاجتماعي المسيحي» . وإذا ما حدث أن نشأ خط تعارض بينها ، فإن الموقف لا يمكن أن يجد حله «المسيحي» المطلوب . ثم ، إذا ما واجهنا موقفاً متصلباً حازماً إزاء «المال» و «حب المال» ، فإن ذلك ينبغي أن يُدرك ويفهم في ضوء عملية تعاضل الاضطهاد الطبقي وتكثيز الثروات والأموال من قبل السادة وموظفيهم ، وخروجهم - في ذلك - عن «الحدود المقبولة» ، أي الحدود التي تتجاوز «الرحمة» و «المحبة» القائمتين على جسور من التوازن الاجتماعي .

ومن المعروف ، على الصعيد التاريخي ، أن مثل ذلك الموقف غالباً ما أدى - في نطاق الأديان والأفكار الدينية - إلى الدعوة لـ «شيوعية بدائية» ينتهي فيها المال ، الذي - بحسب ذلك - يجسد الشر ويمثله بأسوأ أشكاله ومظاهره ، وتسود فيها المحبة والمساواة . إن بولس نفسه انطلق من ذلك التصور التضائفي لـ «المال والشر» ، حين كتب محمداً آياه تحديداً «مسيحياً» :

«حب المال أصل كل شر»^(١) .

وقمين بنا أن نشير إلى أن أسلوب التعرض لـ «المال» بولسياً مسيحياً لا يمكنه أن يغض النظر عن التأثير الملحوظ للفكر اليوناني الروماني فيه ، وذلك في مرحلة الأزمة الاجتماعية الكبرى للمجتمع الامبراطوري الروماني ؛ نعني بذلك التأثير الذي تحدر من الرواقية والافلاطونية الجديدة ، تحديداً وعلى نحو خاص . ومن الهام ، منهجياً مبدئياً ، أن نعلن أنه من صلب المسألة التي نحن في صدد البحث فيها ، الآن ، الملاحظة بأن الموقف البولسي من المال لم يكن موجهاً ضده عموماً ومن حيث المبدأ أو من حيث هو . فالأمر لدى بولس ، إذا وضع في سياقه الكلي من المسيحية البولسية ، لا يحتمل أبداً مثل هذا الفهم «السلبى» للمال . إن المال ، الذي يقر بأنه «أصل كل شر» ، لا يطالب بالتطوع به وبالقضاء عليه . فما هو قائم وراهن ، لا يمكن تجاوزه على نحو مطلق ؛ لكنه يستثير الرغبة للاقرار بوجوده ؛ إنما من خلال البحث عن معادلة مناسبة تسمح بمنحه وضعاً متوازناً و «مقبولاً» . تلك

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس الأولى إلى تيموثاؤس ٦/١٠ .

المعادلة أمكن التوصل إليها عبر ما كنا قد أتينا عليه في نطاق «التعادل بين ما لقيصر من طرف وبين ما لله من طرف آخر» . إن «المال» هو أصل كل شر ، كما قرر بولس وأكد ، ولكن «الشر» لا بد وأن يوجد في هذا العالم ويفصح عن شخصه . وهنا بالضبط ، نواجه الخطوة الهامة الضرورية ضرورة ملحة والتي كان على بولس أن يتخذها ، وهي الاعلان الصريح عن أن الكنيسة «جسد يسوع المسيح» ، أي الممثل لهذا الأخير على الأصعدة المتعددة ، الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والثقافية والروحية .

في إطار تلك الخطوة ، كان لا بد وأن يتم التخلي عن «الملكوت الرباني» لصالح «الكنيسة الأرضية» ، التي تبرز - والحال كذلك - بمثابتها «راعي المؤمنين المسيحيين اليسوعيين» . إن الاقرار بالكنيسة جسداً للمسيح هو، في نفس الحين ، إقرار بالأمر الواقع ، من حيث هو وكما هو ، ولكن عبر تسويغه ، أي - محدداً - عبر تسويغ الوجود الموضوعي للشر (المال) . فهي (أي الكنيسة) تكتسب كل الشرعية في الوجود حين يعلن بأن نقيضها ما يزال قائماً ، يحايتها ويعايشها ، ولكن دون أن يتحداها أو يدعو إلى تجاوزها . إن وضعية «اللاتحدي» هذه تفصح عن نفسها ، هنا ، بمثابتها ترهلاً ملحوظاً طرأ على المسيحية اليسوعية الباكرة وعبر القناة البولسية ، بالذات . ولكن هذا «الترهل» لم يكن الا الوجه الأول من التحول المسيحي المستجد ، أما الوجه الآخر من هذا الأخير فقد تمثل بـ «دفع» جديد لها تم عبر تلك القناة، ولكن باتجاهات وآفاق ومطامح أخرى، هي اتجاهات وآفاق ومطامح الدولة الكنسية أو الكنيسة الدولية . وهذا الوجه الآخر هو الذي علينا أن نرى فيه المعلم الأكبر للبولسية في دورها التاريخي المتميز .

هكذا ، إذن ، كان قد ترتب على التنازل عن «الملكوت الرباني الأخروي» أن يُنظر إلى تلك الكنيسة الدولية بمثابتها «الملكوت الرباني المعاش» أي البديل والممكن عن ذاك ، وذلك ضمن صيغة يُقر فيها بـ «الأخر» ويعترف بأنه «الشر الذي لا بد منه» أو «الشر المتمم للخير» . من هذا الموقع وفي ضوءه ، غدا مفهوماً أن يشدد بولس على ضرورة الحفاظ على العبودية ، من حيث هي الوجه المتمم لـ «الحرية» ، التي يحوز عليها جمع من الناس في حال انضوائهم تحت اطار الطبقات والفئات الاجتماعية العليا . لقد كتب بولس في إحدى رسائله ، يدعو فيها «فيلمون» إلى أن

يعفو عن عبده أونيسيمُس ، الذي هرب من عبوديته والتجأ إليه (الى بولس) :
«قد آثرت لأجل المحبة أن أسألك سؤال رجل هو بولُس الشيخ بل أسير يسوع المسيح جالاً . فأسألك من جهة ابني أونيسيمس الذي ولدته في القيود . وقد كان حيناً غير نافع لك أما الآن فهو نافع لك ولي . وأنا رادُّه اليك فاقبله قبولك أحشائي بعينها . وكنت أود أن أمسكه عندي ليعخدمني بدلاً منك في قيود الانجيل . غير أنني كرهت أن أفعل شيئاً دون رأيك ليكون احسانك عن اختيار لا كأنه على سبيل الاضطرار وإن كان قد ظلمك في شيء أو كان لك عليه دينٌ فاحسب ذلك علي»^(١) .

ويظهر من سياق ذلك وسياق البولسية على نحو العموم والأساسي ، أن تلك المسألة ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى الإحاطة بموقف بولس من العلاقات الاجتماعية الاقتصادية في المجتمع العبودي الامبراطوري الروماني بجل مقاطعاته . نعني بذلك ان المسيحية البولسية قدمت - في موقفها الاجتماعي ذاك - أساساً أولياً ومقبولاً انطلق منه قسطنطين الامبراطور في عملياته العملاقة الناجحة ، التي تمثلت بتحويل الدين الجديد إلى دين عام مهيم في الدولة الرومانية خصوصاً والمجتمع الامبراطوري عموماً ؛ ومن ثم بجعله ملزماً للمؤسسات والأفراد ليس بالاعتبار الديني فحسب ، وإنما ايضاً على الصعيد السياسي . ولا بد من القول بأن الامبراطور المذكور استطاع أن يثبت ، بذلك وعلى امتداد مراحل لاحقة من التطور السياسي والعقدي الديني في امبراطوريته ، مقدرة سياسية متبصرة ونافذة . لقد أدرك أن الموقف العدائي الموروث الذي اتخذته اسلافه الأباطرة من المسيحية والمسيحيين ، كان ساذجاً وغير مدرك للدور التاريخي الفعال ، الذي يمكن أن تمارسه تلك ويمارسه هؤلاء في البناء السياسي الايديولوجي المنتظر . ونحن من موقعنا ، نلاحظ أن ذلك التحول لم يكن مشروطاً بالدرجة الأولى بذكاء وتبصر قسطنطين ، وإنما كان قد كمن وراءه التغيرات التي ظهرت في ميزان القوى الاجتماعية ، وكذلك «اكتشاف» ان المسيحية يمكنها أن تمارس دوراً فعالاً في خدمة المجتمع القائم ، بدلاً من أن تستمر عنصراً مؤرقاً له .

ظهر ذلك ، مكثفاً ومختصفاً وملتهباً ، في المجمع المسكوني الشهير باسم

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى فيلمون ٩ - ١٤ ، ١٨ .

نيقية . فلعشرين سنة فقط خلت من تاريخ هذا المجمع ، كان الذين يعلنون عن عقيدتهم من المسيحيين المؤمنين يواجهون أقسى انواع التعذيب والملاحقة والموت على أيدي السلطة الرومانية المركزية والاقليمية . أما الآن ، أي عام ٣٢٥ ، فقد وفد إلى نيقية مئتان وعشرون مشتركاً من الفئات المسيحية المختلفة . لقد وفد هؤلاء إلى المحفل المذكور بدعوة من القيصر قسطنطين نفسه وعلى حساب دولته و«خزنته» من أجل أن يناقشوا صيغة قدمها هو نفسه لحل الخلاف الكبير والمهدد ، الذي نشب بين آريوس والكسندروس في الاسكندرية حول طبيعة يسوع المسيح .

كان انتصار الامبراطور المسيحي «المؤمن» مدوياً في نيقية ؛ إذ أنه تمكن من إخضاع المجمع لسلطته الدينية (والسياسية) إخضاعاً تاماً ، وجعل منه امتداداً ايديولوجياً دينياً وسياسياً لسلطته في مختلف المقاطعات الامبراطورية . وجدير ، هنا ، بالاشارة المشددة إلى أن تحقيق المسيحية لسيادتها الايديولوجية الدينية والسياسية في المجتمع الامبراطوري الشديد الاتساع والتنوع الاجتماعي والسياسي والديني والاثني لم يكن ليتم ، من حيث الأساس ، بتأثيرها وبضغوط منها هي نفسها . لقد كان ذلك ، بالدرجة الأولى ومن الناحية الاجمالية ، تعبيراً عن نزوع السلطة السياسية لإخضاعها وكسر شوكتها في أشكالها الباكورة ، أي القابلة لأن تفسر لصالح «المستضعفين» ؛ كما كان ذلك تعبيراً عن رغبة تلك السلطة لوضعها تحت مظلتها بعد أن تكون قد اكسبتها أبعاداً وآفاق وظيفية جديدة متميزة تستجيب للشرط الاجتماعي الاقتصادي والسياسي والثقافي الجديد . وقد برز ذلك ، واضحاً وكثيفاً ، في عجز الأديان والتيارات الفكرية التي كان لها وجود ما في روما الامبراطورية عن تحقيق علاقة نظرية وعملية فاعلة ونشطة - بالمعنى الايجابي - بينها وبين الدولة .

فلقد كان ضرورياً أن يوجد دين أو تيار فكري يستجيب لمقتضيات الوضعية المحددة بذلك الشرط الاجتماعي الخ . . . في مرحلة الأزمة المتعاضمة للمجتمع الامبراطوري الكبير . ويبدو أن كل الأشكال والانساق الدينية والفكرية القائمة في هذا الأخير لم تكن في الحالة التي تلبي تلك المقتضيات ما عدى الدين الجديد الأخذ في الاتساع عمقاً وسطحاً في حياة ذلك المجتمع . ان المسيحية البولسية هي وحدها التي تمكنت من القيام بهذا الدور الكبير والمعقد ، وذلك بالاتجاهين الاثنين الرئيسيين ، الاجتماعي الطبقي والاثني (الأقوامي) . ونستطيع أن نرى ثلاثة أسباب

رئيسية وراء قدرة هذا الدين على تحقيق الدور المعني . أما السبب الأول فقد قام على أنه (أي الدين) انطوى - بنيوياً ووظيفياً - على دعوة التجاوز للفوارق والحواجز البشرية الالآنية العامة . وهذا ما كان ضرورياً ضرورة خاصة ، لأن المجتمع الامبراطوري الروماني احتوى في ثناياه تجمعاً بشرياً اقوامياً كبيراً ، بدءاً بالمستوى العبيدي وانتهاءً بالطبقات الوسطى وما بعدها .

أما السبب الثاني فقد تمثل بالدعوة إلى «كل الناس» لتبني القيم والمبادئ الدينية «الجديدة» بغض النظر عن انآاءاتهم الاجتماعية الطبقية . وقد وجدنا هذا الأمر على غاية الأهمية ، والتعقيد في آن واحد . أما وجه التعقيد هنا فقد كمن في التغيرات التي طرأت على موازين القوى الاجتماعية الطبقية آنذاك والتي فرضت نفسها ، بصورة أو بأخرى ، في تطور المواقف المسيحية اليسوعية . وقد كان لهذه الوضعية - أي امكانية مخاطبة «الجميع» في عملية التبشير بالدين المعني - وجهان إثنان تبادلا المواقع وفق تلك التغيرات ؛ وجهٌ قوٌّ تمثل بالاحاطة بالموقف كله ، بحيث غدونا - على صعيد الممارسة العملية - أمام دين لمجتمع «بكامله» ، أمام دين يخاطب الجميع ، بحيث وجد كل واحد من أفراد المجتمع نفسه معنياً ومقصوداً ؛ ووجهٌ ضعفٌ تجسد في أن تبشير الجميع على المستوى المبادئ العقيدي كان يجد تصدعه على المستوى العملي التطبيقي . ومع ذلك ، استطاع الدين الجديد ممثلاً باليسوعية أن يطرح نفسه على الجميع كمشكلة ليست قابلة للنقاش فحسب ، وإنما كذلك كأمر لابد وأن يتخذ موقف إزاءه ، سلباً كان أو ايجاباً .

يبقى السبب الثالث ، ويتصل اتصالاً مباشراً بالسببين السابقين ، ونستطيع استنباطه وصوغه من حالة الطوعية والليونة الكبيرة - في حالات كثيرة - في عمليات التأويل والتفسير والاجتهاد التي تسمح بها النصوص الانجيلية وتعرض عليها وتغود إليها، بحيث يمكن النظر إليها على أنها صالحة لتغطية جانب ونقيضه إذا عُرِف كيف تمارس عملية الاختضاع والتطويع النصي . وإذا وضعنا باعتبارنا ما أوردناه في مكان سابق من أن تحول المسيحية إلى دين مهيمن للدولة الرومانية لم يكن - في أساس الأمر وعمومه - نتيجة تأثير الأولى على الثانية بقدر ما كان - أيضاً في أساس الأمر وعمومه - محاولة من الثانية لتوظيف الأولى في خدمتها ، فأننا نكمل ذلك بالوصول إلى نقطة أولية يتصل بالجهد الذي بذله بولس «مسيحياً» . هاهنا ، يمكن

القول بأن لبولس ، تخصيصاً ، فضلاً مبدئياً في صوغ المسيحية على النحو الذي جعلها ، في احدى صيغها الرئيسية الكبرى ، تستجيب لمقتضيات تلك الدولة بالمعنيين السياسي والاقتصادي . وهذا ما أمكن تحقيقه ، حقاً وفعلاً ، حيث جرى الالتحاق المركز على الموضوعات البولسية الرئيسية القائمة على أن «الكنيسة جسد المسيح» ، أي حيث انجزت الخطوة الأولى على طريق تحويل العقيدة الجديدة إلى مؤسسة كبرى تحكمها ضوابط وقواعد تنظيمية ومالية اقتصادية واجتماعية واتنية .

وعلىنا أن ننوه ، في هذا السياق المتقدم ، بأن تطابق المصالح الدينية الايديولوجية تطابقاً أساسياً بين «الجسد الكنسي المؤسسي» من طرف والمؤسسة السلطوية من طرف آخر ، ومن ثم تحول الأول إلى وجه صميمي و متمم للثانية ، مثل تنويجاً بارعاً وعميقاً للإخفاق المريع الذي منيت به عقيدة «ظهور المسيح يسوع المخلص» : فبالرغم من اتساع المظالم والحروب الدامية والملاحقات العظمى المتتالية التي كان على المسيحيين أن يخضعوا لمقدماتها ونتائجها المريعة في روما والأقاليم ، فإن يسوع المسيح لم يظهر ولم يفصح عن شخصه ليعلم ملكوت الرب ويحقق ، من ثم ، العدالة والمحبة والسلام . وإذن ووفق منطوق الأحداث والآفاق المترتبة عليها ، لا بد وأن يكون هنالك من المسوغات والعوامل المعلنة والكامنة ، خصوصاً ، مايسمح بالنظر إلى الأمل في ظهور يسوع المسيح على نحو من شأنه أن يخلق توازناً طبعاً بين المؤمن المسيحي من طرف ومحيطه السياسي والاجتماعي والاقتصادي من طرف آخر . هكذا جرى التوصل إلى تلك «النتيجة الكبرى» ، التي أريد منها حفظ ماء الوجه «المسيحي» في الأوساط الكنسية الرسمية .

فإذا كان ذلك «الأمل» في «الظهور المسيحي» قد ارجىء تحقيقه إلى «نهاية الأزمان» ، أي إلى أجل غير مسمى ، فإن الجهاز الكنسي (جسد المسيح) لا يجد - والحال كذلك - غضاضة في القيام بعملية مصالحة مع المعطيات القائمة بكل ثقلها وقساوتها ؛ ذلك لأن مسوغات وضرورات مثل هذه المصالحة (هكذا يطرح الجهاز الكنسي المسألة) تقدم نفسها بنفسها دون غمغمة أو مداورة : إن الاضطهاد شديد وعنيف ، والأمد طويل جداً ، بل غير منظور لا بالقرب ولا بالبعد ، و«يسوع المسيح» متمنع على الظهور - لأسباب خفية كامنة في تعاظم الفساد - رغم «النبوءات المقدسة» و«الابتهالات والرجاءات» التي أطلقها المسيحيون الأوائل بانتصار

ملكوت الرب ودنو يوم الدينونة . ومن ثم وانطلاقاً من هذه الظروف «الإشكالية» ، كان ينبغي أن يكون هنالك من الأسباب والدواعي المشروعة ما جعل المسيحيين ، وخصوصاً الفريقين المتمثلين بعليتهم أولاً وبالأخذين منهم بالبحث عن محطات يستريحون فيها من الاضطهاد الشنيع بعد شعور عميق الألم بالإحباط وخيبة الأمل ثانياً ، يبدأون عملية واسعة النطاق والاحتمالات والأفاق لتقصي «النصوص المقدسة» التي تقدم ، ضمناً وصراحة ، مسوغات للتصالح مع الواقع القائم مع الإبقاء الضروري على «التجربة الداخلية المحررة والمحررة» . هكذا وجدت أو أوجدت الأرض الخصبة لتبرير وتسويغ التاريخ الديني الذي ستفتحه «الكنيسة المقدسة» المتمثلة بـ «جسد المسيح» أو - لنقل بوضوح - بـ «جسد الدولة أو السلطة أو الامبراطورية أو الامبراطور الخ . . .» .

وجدير بالقول أن التوجه نحو تجربة «داخلية محررة ومحررة» كان قد امتد الى حيث وجد نفسه أمام التساؤل الملح والمرير التالي : لِمَ لَمْ يظهر يسوع المسيح في مراحل أصبح فيها «أطفاله» من «رعيتهم وأنصاره» كالنعام بين أيدي الأشرار من الجزارين والقتلة ، أليس من علائم «يوم الدينونة العظيم» أن يولغ هؤلاء أيديهم السوداء بدم أولئك ، وأخيراً هل هذا التمتع عن الظهور تعبيراً مساوياً وخفي عن عقوبة عادلة ضرورية لـ «الأطفال» بسبب خطيئة ما ارتكبوها بحق الرب وابنه ؟ ان هذا التساؤل المركب و«المقلق» - والإجابات الضرورية الضمنية عليه - أخذ يستثير الاضطراب والقلق في صفوف المؤمنين من الطبقات الدنيا وكذلك وبحدود جزئية من الطبقة الوسطى ، ويهدد تماسكهم العقيدي الداخلي . فبعد أن صمد أولئك المؤمنون صموداً بطولياً في وجه طغيان السلطة السياسية ، وجدوا أنفسهم ، لاحقاً ومجدداً ، أمام مخطط جديد من القسر والعنف ظهر على أيدي الآباء الكنسيين الجدد المتواطئين باسمهم (أي المؤمنين) مع السلطة السياسية نفسها ، تلك السلطة التي اتخمت يوماً ما بدمائهم .

إن عملية التفتيت والتصديع تلك وجدت تعبيراً عنها ليس ببعد واحد وبصورة واحدة أو برؤية واحدة . فقد كان هنالك من الاحتمالات والامكانات ما ولد أنماطاً وأشكالاً متنوعة وغزيرة من صيغ التعبير المعني هنا . ونستطيع أن نؤكد على اثنتين من هذه الأخيرة نرى أنها أكثر أهمية ونموذجية من غيرهما . الصيغة

الأولى تمثلت بحركة ذات شقين يتميان بعضهما بعضاً على نحو تضافي في إطار الوضعية المشخصة المعنية هنا . أما الشق الأول فقد أفصح عن نفسه من حيث هو دعوة لـ «الهروب إلى الداخل» ولد «العزوف عن الخارج» . هذه الصيغة كان لها أهمية خاصة على صعيد ما سيتبلور لاحقاً في إطار نزعات مغرقة من «الزهد» و «الاعتزال» و«الاعتكاف» ، ومن ثم «التصوف» . أما الصيغة الثانية فقد كمنت في رغبة ملحاحة بالبحث القلق والحديث عن جذور «المأساة - الخطيئة» ، التي من شأنها أن تكون من وراء غياب «الظهور الأعظم» ، ظهور يسوع المسيح المخلص حتى ذلك الحين ، ومن ثم وراء هذا «الغياب» في ظروف المؤمنين أنفسهم ، قبل كل شيء . وقد ركّز كثيراً على هذا الأمر بشكل درامي مثير ، لأن الاعتقاد كان يتعاضد بأن ما يحدث ليس إلا رداً مباشراً وإن مرمزاً على «الجحود» ، الذي اتسع في أوساط مجموعات كبرى من المسيحيين ومن قبلهم من اليهود وغيرهم ، وكذلك من عايشهم من «المراطقة» و«الأعداء» .

وقد كان على كل من تينك الصيغتين أن تحترق الثانية عمقاً وسطحاً وتتأثر بها وتؤثر فيها، بحيث أدى ذلك إلى تلفيق موقف جديد متميز نيطت به مهمة تاريخية كبيرة ، هي التنظير «اليسوعي المسيحي» للاخفاق اليسوعي المسيحي بأدوات فلسفية نافذة وقادرة ، بدورها ، على تكوين امكانيات واحتمالات أخرى . أما تحقيق تلك المهمة فقد تم عبر الألفية العريضة والمتعاطمة ، التي صاغت الفلسفة الرواقية تحديداً وتخصيصاً . في ضوء ذلك ومن موقعه ، تمكنت الفلسفة إياها - وكذلك وبمعنى ما وبدرجة ما الأفلاطونية الجديدة - من إرساء قواعد وضوابط التجربة الداخلية المعنية ، هنا ؛ خصوصاً وأن الفلسفة المذكورة كان لها حضور فاعل ومرموق في الحياة الفكرية والروحية لروما الامبراطورية . نقول ذلك ونحن نعني ان الرواقية ابرزت الاسهام المشار إليه بصفاتها فلسفة الارستوقراطية الرومانية الامبراطورية ، تلك الارستوقراطية التي شرعت - مع استفحال وتائر أزمة المجتمع العبودي المتسع التأثير في روما والمقاطعات - في البحث الملح والقلق عن «حياة داخلية» تحقق لها التوازن والانسجام والمحبة بعد أن فقدت توازنها وانسجامها وصميميتها في حياتها «الخارجية» ، أي ضمن علاقات أخذت تهتاج الأخضر واليابس في حياة الناس من الطبقات الدنيا تخصيصاً . ولا بد من الاضافة بأن ذلك

الاسهام الرواقي أخذ أبعاده ، أيضاً ، باتجاه الأوساط الفقيرة والمفقرة من سكان المدن خصوصاً ، بحيث كان الموقف الجديد موقفاً عمومياً أو محققاً للكثير من عناصر العمومية .

وعلى أن نشير ، تنمياً للصورة المطروحة وتعميقاً لها ، إلى أن الرواقية - في وجهها الأخلاقي القيمي على نحو الخصوص - حين اخترقت المسيحية اليسوعية (ويتعين علينا أن نضيف أيضاً : البولسية) على ذلك النمط المحدد ، فإنها كانت منذ حين وتحت وطأة التحولات الاجتماعية والفكرية والروحية قد بدأت بالتخلي عن العناصر الفلسفية المادية المستنيرة الدنيوية والإنسية (الإنسانية) ، التي انطوت عليها في مراحلها الأولى الباكرة . فقد استبقت لنفسها من شخصيتها الموروثة المسائل والجوانب الاخلاقية القيمة ذات النزوع الروحي الفردي المقعم بالتشاؤم والقلق ، وذلك على نحو صوفي ذاتوي وباتجاه صوفي ذاتوي . وهذا ، بدوره ، يظهر الاتجاه العام الرئيسي لعملية التأثير الرواقي في المسيحية المذكورة .

ان الموقف المسيحي اليسوعي (البولسي) ظهر ، كما وضع أمامنا ، معقداً مركباً وتمرحلاً ، بحيث يمكن القول بأن اللوحة العقيدية الجديدة تعكس اللوحة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية المعقدة والمركبة في تمرحلهما التاريخي . ويهمننا ، هنا بصورة خاصة ، ما حدث على صعيد التهيمن الديني والسياسي لتلك العقيدة حيث غدت سلاحاً ماضياً في أيدي السلطة السياسية الامبراطورية . لقد غدت ، حقاً ، «دين الأقوياء» الذي كان عليه أن يخلف وراءه «دين المستضعفين» وأن يجعل منه حلماً جديداً يراود هؤلاء في سبيل تحقيق ظروف جديدة تحقق «الأمل القديم العريق» في الخلاص . وضروري أن يقال ، في هذا السياق الانعطافي ، بأن «دين الاقوياء» ذاك لم يسهم في توليد ردود فعل عنيفة مناهضة (هرطقية) له فقط ، وإنما قاد إلى تعقيد الموقف الديني في أذهان المؤمنين أنفسهم : ان تاريخاً قديماً عظيماً انتهى ، وتاريخاً جديداً «مقلقاً» قد بدأ . وتبقى البواعث الكبرى التي كمننت وراء هذه الوضعية قائمة في وضعية التهيمن المذكور وعلى النحو المذكور^(١) . وهنا غدونا

(١) ان هذا الفهم لوضعية التهيمن الديني والمسيحي (البولسي) في روما ، خصوصاً ، وفي الامبراطورية الرومانية ، بصورة عامة ، من شأنه - إذا قيد إلى نتائجه التاريخية المنطقية القصوى - ان يستكشف وجه الضحالة المنهجية والتاريخية في بعض الآراء وجهات النظر ، التي تفسر :

أمام موقف قائم على توليد مشاعر الحنين إلى «عالم الحب والمساواة» أي «الفردوس المفقود» أولاً ، وعلى صنع «البديل الجديد» الذي من شأنه أن يحقق حداً ما من التماسك والتوازن في الظروف المستجدة ثانياً .

ولابد وقد انتهينا إلى هذه النقطة العقدية أن نجد أنفسنا أمام فصل جديد من المشهد المسيحي اليسوعي ، فصل ينطوي على صفحات ملتزمة من الصراعات الفكرية والسياسية وغيرها بين مجموعات متعددة ومتكاثرة ، انطلقت جميعها من المظلة الكبرى المتمثلة بالمشهد المذكور . وسوف يتعين علينا ، فيما يلي ، أن نلاحق صفحة جديدة من تاريخ الكنيسة السلطوية ، صفحة تحمل لهذه الأخيرة كثيراً من المتاعب والصعوبات ، كما تطرح عليها انذاراً كبيراً بأنها (أي الكنيسة) ليست هي

الوضعية المذكورة . وبشكل إجمالي تعميمي يمكن القول ، ان تلك الآراء ووجهات النظر تنطلق مما رواه المؤرخ القيصري أو ساييوس ، الذي كان نديماً للامبراطور الشهير قسطنطين . فلقد روي - نقلاً عن هذا الامبراطور نفسه ، أنه لما كان قسطنطين منهكاً في الحرب مع خصمه مكسنس مزاحمه على عرش روما وظهرت لقسطنطين عند الغروب في كبد السماء صورة صليب مؤلف من أشعة الشمس ورأى بعينه مكتوباً على هذا الصليب - بهذه العلامة تنتصر - . وقد أبصر هذه الآية هو وجميع الجنود الذين كانوا معه ودهشوا كثيراً لهذا المشهد . وأخذ قسطنطين يفكر في معنى هذا المشهد وفيما يجب عليه عمله بشأنه . ولما كان الليل ظهر له المسيح في منامه مع العلامة التي كان قد شاهدها في الجو وأمره أن يصنع اعلام جيشه على مثالها فتكون له منجدة في حروبه . ولما استيقظ صباحاً أعلم أصحابه بما كان له ليلاً وصنع اعلام جنوده على حسب المثال الذي رآه . (ضمن : الأب بطرس ضو - تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري من مار مارون الى مار يوحنا مارون ٣٢٥ - ٧٠٠ م ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٨) .

والأب بطرس ضو ، الذي يورد ذلك النص عن اوسابيوس ، يتابع معلقاً على الحادثة القسطنطيني إياه ، بصيغة ينضج منها المنهج الماورائي الذاتوي : «وكان له (لقسطنطين) النصر على مكسنس فخضعت له ايطاليا وافريقيا واوروبا في بادئ الأمر ثم المشرق بأسره» . أما السبب «العيني» ، برأي الكاتب والذي كمن وراء ذلك ، فقد برز في إيكال العناية الالهية لقسطنطين بهذه المهمة الكبرى : «وما ان أطل الجيل الرابع حتى انبلج صبح الفرج وسطعت شمس الحرية وخفقت اعلام النصر في الأفاق . والشخص الذي دبرته العناية الالهية لتحقيق النصر كان الملك قسطنطين . وابتدأ هذا العهد الجديد برؤى يا لمعت أمام هذا الملك العظيم» . (الأب بطرس ضو : نفس المرجع السابق ومعانياته) .

حقاً كما تزعم وكما تريد أن تقنع الآخرين ونفسها معاً بأنها جسد المسيح يسوع .
هذا يعني أننا الآن أمام دراسة ما سيطلق عليه «الهرطقات» ، أي العقائد المنحرفة
عن الطريق القويم المستقيم .



القسم الثاني

أولاً -

المؤسسة المسيحية الكنسية في مواجهة الهرطقات

- ١ -

الارثوذكسية : الكنيسة الأم ليست «جسد المسيح» ،

أو المسيح الارثوذكسي الإنساني

أ - اتضح من مسيرة المسيحية اليسوعية حتى بدايات القرن الرابع أنها إذ تحولت إلى مؤسسة كنسية نزاعة إلى الالتحام المباشر بالسلطة الدولية السياسية . فإنها أخذت ، شيئاً فشيئاً وعبر احتمالات متعددة ومتصاعدة ، تفقد رواءها الشعبي وسذاجتها العقيدية وحماستها الدافقة ، تلك الأوجه البارزة التي تميزت بها في مراحلها الباكرة وجعلت منها ظاهرة دينية عميقة الانتشار وواسعة في أوساط الفقيرين والعبيد . وإذا كانت ، الآن ، قد اكتسبت صيغتها المؤسسية السلطوية ، فإنه أصبح متعيناً عليها أن تنزع عنها جلدها الدافق حيوية وحرارة وتواصلها جماهيرياً ، لتستبدل به جلدأ آخر يغطي واقع الحال المستجد ويستجيب لاحتياجاته ومقتضياته المتصاعدة تعقيداً وتركيباً . ومن ثم ، فمطلب التكيف مع هذا الواقع كان قميناً بأن يجعلها تندفع اندفاعاً حثيثاً باتجاه إقامة سد منيع وحازم حيال تلك المراحل الباكرة «الذهبية» ، التي خلفتها وراءها وأسدت ستاراً عليها ، دون أن يكون ذلك كلياً وتاماً ، ودون أن تنجح في إخفاء اصداثها البعيدة . حدث ذلك بصيغة التذكر المخفق لتلك الأصداء ، أو بصيغة الاعلان بأنها وإن مثلت - في حينه وفي مراحل سابقة منصرمة ، ينبوعاً ملهاً للمؤمنين وقدوة لهم في حياتهم الفردية والعامية ، فإنها لم تعد ملزمة لهم في ظروفهم «الجديدة» وتحت «وطأة» الأحداث المستجدة القاهرة : لقد استخدمت عملية التأويل والتفسير والاجتهاد بصيغتها الذرائعية القصوى وعلى نحو يجعل من «الموروث المسيحي» موقفاً طيعاً في أيدي

«حياة الجسد المقدس» ، «جسد المسيح» . وكما هو واضح ، فإن العملية المذكورة تطرح نفسها بمثابقتها شكلاً من أشكال «الاستلهام التراثي» ، الذي من شأنه أن يعيد النظر في المادة الموروثة على نحو بنوي وظيفي يسمح باستخدامها في ظروف جديدة وضمن معطيات مستجدة ومن موقع وظيفية جديدة .

بيد أنه من أجل الوصول إلى الصيغة المذكورة من المسيحية ، كان على هذه الأخيرة عموماً أن تعلق «مسيحيته» ، أي «مسيحها» ، مرة ثانية على الصليب وأن تعلن نعيه ، وكذلك ومن طرف آخر أن تبشر بأوضاع «جديدة» تلبي الاحتياجات «الجديدة» . أما ذلك فقد كان عليها ، عملياً وبكل جرأة و«تواضع» ، أن تنجزه عبر اعلانها بأنها استبدلته بـ «البابا» ، «الخبر الأعظم» ، وبمن يوازيه على الأصعدة «الدنيوية» المتنوعة من قيمين على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية والسياسية والأمنية الخ . . . ولكن - وهذا له أهمية خاصة على صعيد الممارسة الدرائعية - بنفس القدر من الشرعية الاجتماعية التطبيقية والعقيدية الدينية كان عليها ، أيضاً وبمعنى ثانٍ آخر ، أن تعلن عن إرجاء مجيء «يسوعها المسيح» إلى «آخر الزمان» ، أي إلى الأجل غير المسمى ، أو الذي لا يسمى بدقة وبالتوافق مع انتظار لاهث حثيث ؛ بل لعله أكثر صواباً واقترباً من الوضعية المعنية أن يقال - وهنا معقد الموقف وقمته وخصوصيته الداخلية - بأن ذلك الأجل لا ينبغي أن يسمى ولا يجوز . وهنا ، تُصاغ مجموعة من المسوغات العقيدية ، التي من شأنها تكريس ذلك وإظهاره بمظهر «الرأي المستقيم» ، والعقيدة «الكنسية السليمة» ، التي وإن ظهرت متناقضة مع يسوع الفقير الباكر فإنها تظل - هكذا يقال - متطابقة مع «جوهره» .

وقد نرى في الفكرة الانجيلية والبولسية المتعلقة بـ «السهر لانتظار الملكوت» ما يضيء تلك المسوغات . فـ «السهر» لا بد وأن ينطوي على عقيدة «التوقع المرتهن بمشيئة الرب» ؛ ومن ثم ، لا يمكن التكهن بوقت الملكوت المسيحي الرباني . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن تصور «ظهور المسيح» يغدو غير ضروري ، ويتحول إلى عقيدة نافلة ، ليست ذات خطورة رئيسية في الممارسة المسيحية . لقد رأت الكنيسة السلطوية الباعث الأساسي الكامن وراء ذلك التحول البنيوي والوظيفي الذي طرأ على البناء اليسوعي المسيحي قائماً فيما طرحته من مبادئ وقيم ، وفي طليعتها العقيدة القائلة بأنه يمكن النظر إلى «جسد يسوع المسيح الكنسي» بمثابته البديل الحق والى

مدى الدهر عن «يسوع المسيح» نفسه . وقد فعلت ذلك دون أن ترى فيه ما يدعو إلى الظن بأنه «خروج» عن الصراط المستقيم وعليه ، هذا «الصراط» الذي طرحت معالنه الأساسية «النصوص الانجيلية المقدسة» ورسائل القديس بولس ، بصورة أكثر تخصيصاً وضبطاً . وبالطبع ، لا ينبغي أن ننظر إلى هذه المسألة من موقع قدحي أخلاقي ؛ لأن من شأن ذلك أن يقود إلى تعميمها كمشكلة تاريخية تراثية . ان المنهج التقدير حقاً على تجاوز مثل هذه المواقف الاستشكالية يقوم على البحث في الحدث في سياقه التاريخي والتراثي المشخص وفي تحوله البنيوي والوظيفي من موقع التحول الذي يطرأ على ذلك السياق . وحيث يكون الأمر كذلك ، يغدو ما قامت به الكنيسة الدولتية مفهوماً بثابته حدثاً مشروعاً بل يمتلك كامل الشرعية التاريخية والتراثية .

هكذا استنبطت الكنيسة «المجسدة» التصورات والأفكار والقواعد المناسبة لكي تتمكن من أن تسوغ لنفسها وللآخرين - خصوصاً - خطها «المسيحي الجديد» القائم على تلاحم بنيوي مصري بينها وبين القيصر والأمير والعقاري ومالك العبيد ضد الفقراء والمحرومين الأحرار وأنصاف الأحرار والمنتزعي الحقوق السياسية والعبيد . وظلت ، مع ذلك ، أو بفضل ذلك ، محافظة على صفتها «المسيحية» . بل ربما يمكن القول ، إنها بفضل ذلك وفي ضوءه رفعت الشعار الكبير : البابا هو بمثابة القلب والعقل من الجسد المقدس ، جسد المسيح ، وهو من ثم هذا المسيح على الأرض . وكان من السهل جداً أن يتم ذلك وبسرعة تلفت نظر البحث التاريخي التراثي ؛ لأن المسيحية ، - هذه الكلمة الفضفاضة الكبيرة - جعل منها مشجباً يعلق الجميع البسنتهم عليه . فقد اخضعت لجملة من التأويلات والتنظيرات والاجتهادات اللاهوتية المضبوطة بضوابط توجه محدد ، بحيث انها تحولت - والحال كذلك - إلى «حمال أوجه» ، على حد تعبير علي بن أبي طالب الذي أطلقه لاحقاً على القرآن .

وإذا ما بلغنا هذا المنعطف من تصور المسألة ، يغدو من الضروري والهام أن نواجه بالوجه التالي من هذه الأخيرة، وهو أن المسيحية اليسوعية (البولسية) اذ تحولت الى دماغ الدولة الرومانية وما تلاها من دول ، فإنها - بذلك - استطاعت أن تنجز عملاً كبيراً بالمستوى التاريخي وبالمغزى التاريخي التراثي . فاذا كانت في مراحلها الباكرة قد حققت مهمات مسيانية صادقة ، بالمعنى وبال دلالة الدينين الايديولوجيين ، فان مهماتها هذه لم تخرج عن دائرة التسويغ لوضعية اجتماعية

واقتصادية وسياسية أصبحت مستنفدة ، بحيث لم يعد التعامل مع تلك «المسيانية» وارداً أو قادراً على تغطية الرضعية المستجدة . أما في مرحلتها الجديدة ، المؤسسية السلطوية ، فقد وجدت نفسها أمام مهمة نوعية جديدة ، هي التنظير لمرحلة الانتقال من العبودية الى الاقطاعية في خطوة أولى ، وتقديم المسوغات والأدلة الايديولوجية المناسبة لاقامة البناء الاقطاعي الجديد واستكمال انتصاره بصورة حاسمة على العبودية في بعض بلدان أوربا ، في خطوة ثانية .

ان ذلك ، مجتمعاً ، يسمح بالقول بأن المسيحية اليسوعية مرت بمرحلتين كبيرين ناظمتين ظلتا - رغم الاستقلالية النسبية لكل منهما - متداخلتين متشابكتين ، بحيث نواجه ارهاصات للثانية في الأولى كما تبقى الأولى ذات حضور في الثانية ، وخصوصاً في بداياتها الأولى . المرحلة الأولى تمثلت باتجاه التحرير والتبشير بالدين الخلاصي الجديد ؛ كما تمثلت بسيادة الاعتقاد النشط والمتفائل بدنو «الزمان الملكوتي المسيحي» ، زمان الخلاص والمخلص الأعظم . هذه المرحلة هي «العصر الذهبي» للخلاصية المكافحة باسم مسيح يمتشق سيفه ويهوي به على هذا العالم الذي طفق جوراً وطغياناً ، وإن كان ذلك باتجاه عالم آخر «بمجرد» . أما المرحلة الثانية فقد تحددت بوظيفة الإقرار بالراهن (الأمر الواقع) ، وبالعامل الدؤوب والمنظم والمنضبط على استنبات وحدته الدينية الايديولوجية وصوغ مثله العليا على الأصعدة المتعددة ، ومن ثم بالبحث الحثيث عن أدوات ايديولوجية تسعف القائمين بالأمر في ايجاد واستنباط أوجه تطابق مشروعة بينها (أي المسيحية المعنية) وبين ذلك الراهن الواقعي . وبين من ذلك أن العقيدة الجديدة حُولت الى فزاعة في أيدي القائمين بالأمر أولئك يرفعونها في وجه الحركات المناوئة لهم على الأصعدة المختلفة ، بحيث نجد أنفسنا أمام نتيجتين هامتين على البحث في تاريخ المسيحية . النتيجة الأولى تكمن في أن ممثلي تلك الحركات المناوئة أصبح سهلاً أو ليس صعباً أن يقاوموا ويُسفّهوا أمام جمهور «المؤمنين البسطاء» ، وأن يعلن ، كذلك ، بأنهم مارقون هراطقة يستحقون «الحرمان والقطع» وما يتبع ذلك من ملاحقات وإبادة . أما النتيجة الثانية فتكمن في أن «الحدث التاريخي» يخضع ، في هذه الحال ، لعملية كبيرة من خلط الأزمنة والأسبقة ، بحيث يغدو الباحث أمام صعوبات جمة تحول بينه وبين «الصورة» الحقيقية التي انجزتها الحركات المناوئة

المعنية ؛ إذ أن هذه الصورة تتعرض كما هو ملاحظ ، لعمليات واسعة من إعادة النظر البنيوي والوظيفي التي تتم في إطار الجهود التي تبذلها العقيدة السلطوية على صعيد تشويها (أي الصورة) أو تزويرها أو تهيمشها . وهذا ، بجملة ، يضعنا ، أمام مهمتين تنجزهما «الفزاعة» المنوه بها : واحدة أيديولوجية اعتسافية تنطلق من تصور «الهيمنة الشاملة» الذي تملكه العقيدة السلطوية وتعمل على التمكين له فعلاً على صعيد الواقع الاجتماعي بقطاعاته وشعابه المختلفة المتعددة ؛ وأخرى ترائية تقوم على تسويق الراهن في ضوء ما مضى .

ولعله ذو أهمية خاصة أن ننوه بالمكان الذي شغله تصور «الآخرة» أو «العالم الآخر» في كل من المرحلتين المآتي عليهما من تاريخ المسيحية . فمن شأن ذلك أن يلقي ضوءاً ساطعاً ودالاً على التحول العميق ، الذي طرأ على تصور «الخلاص» اليسوعي ، وتصور «الأمل» في اقترابه أو حلوله . فبعد أن كان «العالم الآخر» في المرحلة الأولى من التحول المسيحي اليسوعي قد جسد مصدراً كبيراً من مصادر التحفيز والتحفيز للمؤمنين على الجُلْد والكفاح من أجل الخلاص ، أصبح في المرحلة التالية بمثابة عامل فعال باتجاه تشييط جهودهم وآمالهم حيال ذلك ، وكذلك . وهذا يكتسب دلالة هامة على صعيد ما نحن بصدده ، مصدراً ذا خطورة من مصادر الارهاب والارعاب الكنسي لهم . فلقد وضعت الكنيسة - ونعني بها هنا الدولة دون أن نقول بالاندغام الكلي بينهما أولاً وبينهما وبين الطبقة العليا ثانياً - عدداً ضخماً من الطقوس والشروط والقواعد التي لا بد وأن تنجز لكي تقود القائم بها الى «سعادة الآخرة» ، تلك السعادة التي لاحظنا أنها امتصت شيئاً فشيئاً لصالح «السعادة» التي تمنحها الكنيسة . ومن الطريف ملاحظة أن تلك الطقوس والشروط والقواعد أخذت تبرز شيئاً فشيئاً في طبيعة الأفعال التي وضعتها الكنيسة أمام المؤمنين موجهة بأنها هي جوهر الموقف المسيحي أو بأنها هي الطريق الحق الى ذلك الجوهر .

لقد أخذنا ، وفق اللوحة المطروحة ، نواجه تحولاً كثيفاً وخبثاً في الموقف «المسيحي» من كونه مصدراً للعزاء والسلوان إلى كونه مصدراً للتعجيز واليأس والكبح والارهاب . ومن الجدير بالذكر أن ذلك اسهم اسهاماً مباشراً في ربط المؤمنين بخطط الكنيسة السياسية والدينية والمالية ، وجعل منهم - في نهاية المطاف - مجالاً حيويًا ومعبراً لاثقاً لتحقيق مطامح الدولة الكنسية على الصعيد الاجتماعي

الكلي . نعم ، «لقد أصبح العالم الآخر من خلال جهود الكنيسة مصدراً للارهاب لا للعزاء . فلضمان وجود سعيد في العالم الآخر ولتجنب التعرض بصورة أبدية لعذاب لا يمكن تخيله - وقد وصفه على نحو مؤثر هيرونيμος بوش وآخرون - كان من الضروري أن يحيا المرء في هذا العالم حياة تتجاوز طاقة معظم الناس اللهم الا قلة من الزهاد الورعين ، وفي الوقت نفسه انتشر وعي حاد بالموت كنتيجة لنشاط القسس ونظم الرهبنة»^(١) .

ان ذلك الموقف الحاد والمقاسي والمؤرق حقاً كان قد جسد الحلقة النهائية في العملية الطويلة المركبة لانتزاع «العزاء الخلاصي» من قلوب وأحلام المؤمنين المثقلين بأعباء هذا العالم والذين ، من ثم ، لا يجدون «متكاً لرؤسهم» . فلقد كان هذا العالم بالنسبة اليهم - على ثقله وعنفه وشراسته وطول عمره - نقطة انطلاق ضرورية إلى ذلك العالم الآخر ، الذي سيحمل لهم تباشير العدالة والمحبة والسلام . وإذا سقط هذا الأخير من ايديهم وسُحب من عالمهم ليُدخل في «القفص الذهبي» للمؤسسة الكنسية الفولاذية ، فما الذي يتبقى لهم ، وما الذي يتسنى لهم أن يفعلوه في الحالة الجديدة «المفاجئة» ؟ ألم يكفهم أنهم - بالأصل - لا يملكون من هذه الحياة سوى وجهها الدامي حتى يُنتزع منهم ، أيضاً ، الموت بما يستثيره فيهم من أحلام وردية وبما ينطوي عليه من آفاق ومن آمال اللقاء بـ «مابعده» ، أي بالحبيب المخلص المذبوح منذ بدءا العالم ؟!

لقد تحول الموت إلى «موتين» ، واحد في هذا العالم ، وآخر فيما يأتي . ولاشك أن حالاً مثل هذا من شأنه أن يقود إلى تصديق «اليسوعية» كعقيدة تعد بـ «مسح» الألام يوماً ما وفي عالم ما . ولعل ذلك كان من وراء نشوء وضعية من اليأس والعبث أدت بمجموعات من المؤمنين إلى الهرطقة المخترقة بأفق عميق من الشعور باللائياء : ان افتقاد الشعور باللائياء الى هذا العالم أو اضطرابه وقلقه وتشوشه من طرف ، وتحطيم الأمل باللائياء إلى «عالم مابعد الموت» ، اي إلى «عالم الحياة الموعودة» من طرف آخر ، كانا بمثابة الحصار الكبير المحكم للمؤمنين اليسوعيين . ونستطيع أن نتتبع هذا الاتجاه وقد انشعب إلى طريقتين اثنتين ؛ واحد أدى الى الهرطقة

(١) جاك شورون : الموت في الفكر الغربي - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٩ .

السياسية والعقيدية اللاهوتية ، واصلاً في سياق ذلك وبين الحين والآخر إلى نقطة امتشاق السلاح في وجه «الكنيسة الأم» أو ما يوازيها هنا وهناك ؛ وآخر قاد إلى نوع من الهرطقة العبثية الرافضة لمعظم أشكال النشاط العقائدي المسيحي أو المشككة فيها ، بحيث أوصلت - في نهاية المطاف - إلى صورة من صور الزهد الصامت أو التهلك الفردي .

ولكننا نظل في الموقع الذي يسمح بالقول بأن خطأنا ظمياً انتظم دينك الطريقين وقرب بينهما ، على نحو أو آخر ؛ ذلك هو العداء لتلك «الأم الكنسية» بشعارها الضمني - على الأقل - الذي هو الدفاع عن «السيف والصليب» . فلقد سقطت أو أسقطت كل الأوراق وما تنطوي عليه من خيارات كبرى وصغرى أمام «المستضعفين» ؛ لقد حدث ذلك حيث تحولت العقيدة المخلصة إلى كئلة عاتية صماء من الطقوس الدينية والالتزامات المالية والضغط الاجتماعي والعائلية . وإذا كان الأمر على تلك الصيغة «المأساوية» ، فإن ما كتبه بسكال مرة إلى شقيقته Gilberte لم يعد ينطوي على حقيقة بالنسبة إلى الوريثين المؤمنين بيسوع المسيح ، الذي «سيأتي اليهم» حاملاً معه تباشير الخلاص العظيم . فقد كتب ممتناً نفسه بآمال عريضة وبآفاق ممعنة في التفاؤل : «علينا ألا ننظر إلى الموت كوثنيين وإنما كمسيحيين ، أي بأمل ، فتلك هي الميزة الخاصة للمسيحيين»^(١) .

من هنا وعبر إدراك تلك الطريق الداكنة ، غداً من السهولة بمكان أن ندرك خط اللقاء الجديد الواعد بين العدوَيْن الصديقين ، المسيحية الكنسية واليهودية ، ذلك اللقاء الذي حاكت خيوطه الخفية والمعلنة الكنيسة المؤسسية من خلال تشديدها على الطقسية وإحافها في ذلك . فلقد قادت هذا الاتجاه إلى أبعاد قصوى له تمثلت بالعديد من الطقوس والتقاليد التي أدخلت في حياة المؤمن وفي «ممارسته» . ويمكن ملاحظة أن الطقسية أخذت تتحول - شكلاً - إلى البديل الحقيقي عن تصور الخلاص . فالعماد ، الذي كان الطريق إلى الخلاص ، غداً الطريق إلى الكنيسة بغية الحصول على ضمانة في العيش «بسلام» ، دون التعرض لوسائل القمع والردع المختلفة . وإذا قلنا ، توأ ، بأن تحويل الطقسية إلى بديل

(١) جاك شورون : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٢٩ .

شكلي عن تصور الخلاص ، فإنما عنينا بذلك أن البديل الحقيقي عن هذا الأخير تمثل به «القدر الكنسي» ، الذي تقررت حدوده وآفاقه في المجالس والأجهزة الكنسية العليا ؛ إنما من أرل جمهور المؤمنين كان على تلك الطقسية أن تظهر بصفقتها البديل الممكن لهم . وبهذا يكون قد انجز أمران ، واحد باتجاه تعمية الموقف الكنسي عموماً وآخر باتجاه ضبط أولئك ضبطاً أيديولوجياً من شأنه أن يرد المسيحية اليسوعية في اذهانهم إلى الطقسية المعنية ذاتها .

وبين من ذلك كله أنه قد طوّح بيسوع المسيح المخلص لصالح حبر أعظم يغلق النوافذ والأبواب على العالمين كليهما ، هذا العالم وذاك ؛ وتغدو - إذ ذاك - «رؤيا يوحنا» واعاجيبها الحبيبة الرائعة في خبر كان . فلقد بشر بهذا في «رؤياه» بالعالم «الجديد الصميمي» ، إذ أعلن : حيث يكون الخلاص «لا يكون بعد موت ولا نوح ولا صراخ ولا وجع لأن ماكان سابقاً قد مضى»^(١) .

فبدلاً من هذه «النبوءة الخلاصية القصوى» ، وبدلاً من الآمال اللازوردية التي نشرها يوحنا الرؤياوي في أفئدة المؤمنين ، يغدو الموت موتين ، واحداً هنا ، وآخر هناك ، ويغدو الظمأ ظمأين ، والجوع جوعين ، والردع ردعين ؛ فكان العمق المسيحي اليسوعي الخلاصي لم يعد له وجود ولم يعد له ذكر إلا عبر المؤسسة الناعمة التي لا تلين لها قناة في مواجهتها للخصوم من الهراطقة والوثنيين ، أي لأولئك الذين حملوا ، في مرحلة منصرمة ، على اكتافهم عبء الكرز والتبشير والدعوة ليسوع المسيح والجهاد من أجله .

وثمة ملاحظة هامة على مسألة طريفة جدت في سياق الأحداث الجديدة المتتالية ، التي انتهت إلى بروز الكنيسة البابوية بدلاً عن يسوع المخلص . هذه المسألة تكمن في أن «التاريخ» ، الذي كان يمثل الوجه المقابل والمضاد تضاداً تضافياً لـ «عالم الملكوت» ، يصبح ، هنا ، الوحيد المهيمن في الساحة الدينية اللاهوتية الكنسية . ذلك لأن العالم الملكوتي المذكور يحوّل على يد الكنيسة الدولية إلى امتداد قسري أو طوعي للالتزامات الخارج تنفيذها عن طاقة الفرد المؤمن المتحذر من

(١) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ٢١/٤ .

أوساط الفقيرين والفقراء والعبيد ؛ فكان المسألة تغدو مسألة هذا العالم وحده بعجره وبجره ، ببوارق أمله وإحباطاته : فأن يعيش المرء سعيداً ، يعني - وهذه هي النتائج الضرورية المثيرة التي ترتبت على تلك الوضعية المستجدة الخطيرة بأفاقها - أن يكافح ضده ويعمل على إسقاطه ، مثلاً بطرفي التحالف المسيحي المقدس ، اللذين هما الكنيسة والدولة ، ومن يقبع وراءهما من أنساق اجتماعية طبقية عليا .

فهذا التحالف الجديد وجه مهامه ومقتضياته باتجاهات ثلاثة أساسية ، الاضطهاد والاستغلال الاقتصادي الاجتماعي في الداخل (روما) أولاً ، والاذلال الوطني والانتني للشعوب الملحقة بالامبراطورية واضطهادها اقتصادياً اجتماعياً ثانياً ، وضبط هؤلاء جميعاً - فرادى وجماعات - تحت قبضة سلطة تيوقراطية تعلن ، بافصاح ، أن مشروعيته مستمدة من أنها تمثل «جسد يسوع المسيح» ومن أنها ، من ثم ، تجدد واجبها المقدس كامناً في الدفاع عن هذا الجسد ثالثاً .

في تلك الوضعية البالغة الحساسية والرهافة والتعقيد السياسي والعقيدي ، لعلنا نقول بأن تصور الموت المسيحي «المكلف» والمقتصر - من ثم - على «العلية» يقرط به لصالح حياة تبرز وكأنها غدت الحقيقة الأولى الكبرى . وهنا ، بالضبط ، نجد أنفسنا ، ثانية ، أمام تصور اليهودية اليهودية الأولى عن الموت و«مابعد» ، أي التصور الذي يقوم ، أساساً ، على نفي هذا «المابعد» ، العالم الآخر الدينوني . وإذا ما ولجنا هذا الموقف الجديد القديم ، فإننا نكون حيال حقبة جديدة من الميانية ، بما اقتضته من كفاح اجتماعي اقتصادي وسياسي وعقيدي بين بنائي «المتخمين» و«المعجفين» ، وكذلك بين عالم في طور الاحتضار - وهو العبودية وما داخلها من أنساق وجيوب اجتماعية اقتصادية أخرى - وعالم آخر في حالة الترهص والنمو على طريق التمكين لهيمنة شاملة للدين ، بعد أن كانت - فيما سبق - أشكال ذهنية أخرى تعيش إلى جانب هذا الأخير وضده ومعه ، كالفلسفة .

ان ذلك الذي استجد على صعيد «الميانية» ، على شدته وقسوته ومحاولته امتلاك الموقف برمته ، لم يكن ليثني الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية ما قبل المتوسطة وما دون الحد الاجتماعي الأدنى (أي العبيد تخصيصاً) والتي شغلت مواقع الانتاج الاجتماعي الاقتصادي في المجتمع الكبير والمتلاطم بالصراعات ، عن «مسيحها الخاص» أو - لنقل - عن «مسحائها الخاصين» . وعلينا أن نفهم هذا

الموقف بالعلاقة مع الطلائع المستتيرة - نسبياً - لتلك الطبقات والفئات والشرائح . إنها لم تكن لترضى بديلاً عن أحلامها المسيانية ، ذلك البديل الذي قدم اليها بشخصية «البابا» أو «الحبر الأعظم» . فقد وجدت نفسها أمام مبهات معقدة ومفعمة بالقسوة والاشكالية كمنت في البحث عن وسائل وطرق للتلاحم والمقاومة ، على نحو علني احياناً وسري احياناً اخرى كثيرة . وقد يصح القول ، ضمن هذا الافق للمسألة ، بأن المسيحية المسيانية - الملاحقة عموماً وخصوصاً من قبل مناهضي «الخلاص» وخصومه - لم تكد تخرج إلى سطح الأرض في بعض الأوقات القصيرة والسريعة ، التي حصل فيها بعض الانفراج السياسي الديني وانتعشت فيها بعض آمال «المثقلين» في السنوات الأخيرة التي سبقت مجمع نيقية المسكوني برئاسة الامبراطور قسطنطين نفسه ، حتى أرغمت على العودة إلى تحتها ، إلى المغاور والدهاليز والمدافن . لقد عادت إلى مثلها المسيانية مكلفة بأحلام العدالة والطمأنينة ، وذلك عبر صيغ جماعية متقدمة نسبياً وملتحمة بالأشكال الجديدة من المعارضة والمقاومة يجعل صورها السلبية والمسلحة ، تلك الأشكال التي تولدت ، بتميز ، في المجتمع الاقطاعي وضده ، وكذلك بالطبع في مرحلة الانتقال من المجتمع العبودي المتأزم إلى ذلك الأخير .

ومن الأهمية بمكان ان نشير إلى ما ينبغي استنباطه من مجمل العملية التحويلية المأتي عليها . أن أول ما يجب ان يقال في هذا الصدد ينهض على أن سيادة الكنيسة الدولية خلقت ، على نحو غير مباشر ، شروطاً جديدة مناسبة لـ «استعادة» يسوع المسيح مخلصاً ، ولإعادة الاعتبار إلى «المللكوت الرباني الآتي» . فلقد ولدت ، في سياق طرحها زعم «التمثيل المسيحي الجسدي» ، ردود فعل مناهضة تعاضمت شيئاً فشيئاً في وجهها ، كان منها - بالدرجة الأولى - انبعاث يسوع المخلص ثانية ليقود المخيبي الآمال والأفاق إلى رحاب الخلاص ، الذي خانته أولئك الذين وجدوا خلاصهم الاجتماعي الاقتصادي والسياسي هنا ، في هذا العالم ، أي الاثرياء والمتواظئون - بدرجة أو أخرى - مع السلطة الرسمية . وهذا يشير ، ضمناً وإفصاحاً ، إلى أننا مع استتباب الأمور للسلطة الكنسية الدولية واندغامها ، كثيراً أو قليلاً ، بالدولة والمصالح الأساسية للطبقات والانساق الاجتماعية العليا ، كان من الطبيعي أن تتولد وضعيات جديدة من مصدرين اثنين ، هما العلاقات الاجتماعية

الاقتصادية والسياسية المكرسة دينياً لاهوتياً أولاً ، والصيغ الدينية اللاهوتية (المسيحية الكنسية) المكرسة اجتماعياً اقتصادياً وسياسياً ثانياً .

ومن الملاحظ أن حركة الاحتجاج والمقاومة المسيانية نشأت قبل عملية الالتحام العميق بين الكنيسة والدولة الرومانية ، الطبقة العبيدية ، أي قبل الاعلان التاريخي عن استبدال «يسوع المسيح» بـ «البابا» . ان هذا نتيجته واضحاً ، مثلاً ، في احدى حركات الاحتجاج الكبرى ، التي قادها في القرن الثاني مونتانيوس Montanus من فريجين ضد الكنيسة المؤسسية . وقد أفصححت هذه الحركة عن مبادئها ومطامعها بمثابرتها دعوة «خلاصية» للعودة إلى مؤسسي المسيحية الأولى الباكورة ، وذلك - وهنا وجه الطرافة - عبر المرور بالاسينيين . ثم نواجه الجهود التي بذلها ترتوليان Tertullian للتأكيد على خط ديني مناوئ للكنيسة السلطوية أو النزاعة إلى السلطة ، تلك الكنيسة التي شرعت تمارس أشكالاً أولية ومتعددة من «صكوك الغفران» و «التحریم» و «الرمي بالزندقة» و «القطع» تجاه خصومها وأصدقائهم وحلفائهم . فلقد أعلن ترتوليان هذا أن «القديسين» و «الخطاة» ، جميعاً وعلى حد سواء ، ينتمون إلى الكنيسة ، وأن هذه الأخيرة ، من ثم ، ليست جسداً يسوعياً للقديسين وحدهم . فكأنه أراد ، بذلك ، الوقوف ضد زعم الكهنوت الكنسي السلطوي بأنه الممثل الشرعي لـ «الدين الصحيح» ، أو - على الأقل - الممثل الوحيد لهذا الأخير . اضافة الى ذلك ، نقرأ في تلك الواقعة تأكيداً غير مباشر على أن الكنيسة هي «الجامعة» ، أي الاطار الذي ينضوي فيه كل من أعلن انتماءه الى يسوع المسيح ، بغض النظر عن فهمه لهذا الانتماء .

وجدير بالتنويه أن ترتوليان كان معاصراً لكالكست Kalixt ، الكنسي الروماني الذي أعلن العفو والتسامح حيال بعض التصرفات والسلوكات الجنسية «الشاذة» والتي قام بها البعض ، في حينه ؛ مما أثار حفيظة وحقد الفئات المحافظة . ودون أن نفصل في الحركات المسيانية الاحتجاجية المتنوعة الصيغ التنظيمية والذهنية والتي اندلعت ، بشكل ايجابي ، في مناطق متفرقة من الامبراطورية المترامية الأطراف - مثل تينك اللتين أتينا عليهما - ، أو بشكل سلبي عديم ذي خصوصية رهبانية - مثل الحركة التي نهض بها رهبان سوريون حين أووا إلى الصحراء لاستقبال المسيح يسوع القادم اعتقاداً بأن «الصحراء» تجسد الموقع

البكر الذي لم يفسد بفعل المؤثرات الاقتصادية والاجتماعية والعائلية والجنسية في المدن والريف ،^(١) نقول ، دون التفصيل في ذلك يكفي التنويه بأن الصراع بين الكنيسة الدولية والهرطقة لم يكن ذا أهمية كبيرة على مستوى التعبير عن المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فحسب . لقد انطوى ، كذلك ، على أهمية ودلالة كبيرتين بالنسبة إلى ولادة وتبلور وتعاظم الفرق والاتجاهات الأساسية والثانوية وما بينهما للعقيدة اللاهوتية المسيحية ، أو - بالتعبير الاسلامي اللاحق - لـ

(١) انظر حول ذلك : Martin Robbe: Der Ursprung des Christentums- a. a. O., S. 164- 170. وجدير بالقول أن الرهبانية المعنية ، هنا ، مثلت رداً سلبياً صارخاً على افتقاد «ذات العالم وروحه» ، ومن ثم دعوة مضطربة إلى العزوف عنه عبر «نفيه» في الضمير الديني الخاص بالترهب . وهي ، بذلك ، تكريس وتنظير لـ «النفي» عبر مزيد من «النفي» ، أي إثبات لوهم عبر التشديد على وهميته ومضاعفتها والتأكيد على أنها هي الحقيقة الكلية الناجزة . هذا الموقف نواجهه من موقع تنظيري لدى بعض الآباء الكنسيين ، ومنهم الأب بطرس ضو الذي يعلن ، بلغة «الباحث الواق» أنه «لبلوغ الكمال نشأت المدارس الرهبانية المسيحية منذ الأيام الأولى» . (الأب بطرس ضو : تاريخ الموارنة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٩) .

ويحدثنا الأب المذكور عن ازدهار المدارس الرهبانية المسيحية التي كان أهمها ثلاث ، هي المدرسة المصرية ، والمدرسة الميزوبوتامية (مابين النهرين) ، ومدرسة سورية الشمالية . (انظر : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٤٩- ٥٠) . ومما يجعل الموقف أكثر تخصيصاً وتشخيصاً أن نحدد السمات الكبرى لتلك المدارس الرئيسية ، التي استفحل أمرها وعظم شأنها مع اتساع دور المؤسسة الكنسية الرادعة عبر تلاحمها الوظيفي - و البيوي إلى حدود معينة - بالسلطة السياسية . وإذا ما ميزنا بين مرحلتين كبيرين هما مرحلة التزهد والترهب ومرحلة التصوف الذهني الروحي ، فإنه يمكننا القول بأنه كانت هنالك - في هاتين المرحلتين كلتيهما - «وسائل للقداسة مشتركة بين كل المدارس الرهبانية وأخصها قبول الأسرار والتأمل في الحقائق الروحية ، وخاصة بآيات الكتاب المقدس ، والسهر والصوم والنقش في المأكّل والملبس والمسكن وغير ذلك . .

ومما تميزت به المدرسة السورية الإقامة في العراء أي في الهواء الطلق صيفاً شتاءً ، لا في بيت مسقوف . وأول من مارس هذه الطريقة في سوريا القديس مارون ، وعنه أخذها بعض رهبان القورشية ثم العموديون ، وأشهرهم سمعان العمودي الشهير» . (نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٧٥) .

انظر حول الرهبانية المذكور ، أيضاً : Martin Robbe: Der Ursprung des Christentums- a.a.O., S. 172- 175.

«علم الكلام»^(١) . ولا بد من الإشارة إلى أن فئات المعارضة والمقاومة اشتملت على كثير من الانساق العقيدية المتواترة ، في مواقعها ، بين الاتجاهات اللاهوتية العقلية والتصوفية الروحانية والزهدية الخ . . . ، مما يجعلنا نحولن بالإشارة إلى أن نقطة الضعف التاريخية الكبرى في إطار تلك الفئات تحدت بغياب وحدتها العقيدية (الأيديولوجية) والتنظيمية .

وسوف لن ندخل ، فيما يلي ، غمار هذه المسألة مباشرة ، وإنما بالقدر الضروري والأساسي الذي يقتضيه بحثنا ويشترطه ، أي بقدر ما يتصل ذلك بعملية تفصي واستكشاف الحركة الداخلية للتحوّل العقيدي الأيديولوجي في الحقل المسيحي اليسوعي ، وتبين الأفاق والاحتمالات اللاحقة ، التي انطوى عليها هذا الأخير ونجمت عنه واكتسبت أبعاداً فيها كثير أو قليل من الخصوصية والاستقلالية . ولا بد أن نلاحظ أن القانونية الأساسية ، التي اخترقت حركة التحوّل تلك ، تمثلت بنشوء الفريقين ، الكنيسة الدولية والمعارضة الخارجية ، وباندلاع أشكال معقدة ومركبة من الخصومة والصراع بينهما على أساس اختلاف المواقع والمصالح الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والعقيدية .

بعد أن تحولت المسيحية اليسوعية ذات السمة البولسية إلى الدين الرسمي والمهيمن للامبراطورية الرومانية السائرة صعوداً باتجاه التأزم والتشقّق (وقد حدث ذلك بعد أن أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير عام ٣١٣ مرسومه الشهير المتعلق بذلك) ، تأتي المرحلة التالية لتستكمل الامبراطورية ، في انائها ، عملية تحويلها باتجاه الأغارقة . واذ ذاك ، تصبح معروفة تحت اسم «الامبراطورية البيزنطية» ، وإن ظلت - على الصعيد الرسمي - محتفظة باسمها السابق ، أي الروماني (وهو الاسم الذي عرف في اللغات الشرقية محرفاً إلى «الروم») . وجدير بالذكر ، في هذا

(١) حول هذا المصطلح مجدلولة المسيحي انظر : طريف الخالدي - اللاهوت المسيحي وعلم الكلام الاسلامي - ضمن : المسيحيون العرب مجموعة أبحاث، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨١ ، ص ١٣١ .

السياق ، أن سورية وفلسطين ومصر وأفريقيا الشمالية (العربية) ، وكذلك اسبانيا
الفريغوتية كانت جميعها ملحقة بتلك الامبراطورية الحاقاً دينياً ومدنياً ، بطبيعة
الحال .

وقد ترتب على ذلك ، ضمن النتائج العقيدية والادارية التنظيمية التي ترتبت
عليه ، «أن شعوب هذه الاقطار كانت جميعها تدين المسيحية الرسمية ، على مذهب
الدولة ، وكانت منتظمة في اربع بطريركيات كبرى ، هي بطريركية انطاكية - وهي
الأقدم عهداً - وبطريركية القسطنطينية ، وبطريركية الاسكندرية ، وبطريركية
اورشليم أو القدس»^(١) .

في سياق هذه العملية من التكون الكنسي السلطوي ، نلاحظ أنه قد تبلور
وراءها وحولها وأمامها نشاط لاهوتي مضطرم ومتعاضم الأبعاد والآفاق
والاحتمالات . وقد اندلع هذا النشاط بصيغة خصومات وصراعات ومناقشات
ومجادلات بين مجموعات متسعة ومتزايدة التأثير أفقاً وعمقاً من الفرق والمؤسسات
 والاتجاهات ، التي اعلنت جميعها انتهاءها للمسيحية اليسوعية . ويمكن القول ،
بصورة عامة إجمالية ، بأن النشاط المذكور وجد مجالاً واسعاً ومشجعاً وحافزاً بين
الكنيسة الرسمية المركزية والاقليمية من طرف ، والفرقاء غير الرسميين ، أي
«الهراطقة» بالدرجة الأولى ، من طرف آخر . ولعلنا نضيف إلى ذلك أن مظاهر من
ذلك النشاط برزت ومكنت لنفسها ، أيضاً ، في اطار الكنيسة الرسمية نفسها أولاً ،
وكذلك في صفوف الهراطقة انفسهم ثانياً ؛ ومن ثم ، نستطيع القول بأن أمامنا لوحة
حيوية فيها كثير من «الشمول المسيحي» تقدم نفسها من حيث هي موضوع البحث
الكبير الخاص بالخطتين المسيحيين الكبيرين ، الرسمي ذي «البعد المستقيم»
والهرطقي ذي «الأبعاد المتعرجة» .

ونود الاعلان عن أن ما يثير انتباه البحث الذي نعمل على انجازه ، هنا ،
يكمن بالدرجة الأولى في الصيغة الأولى من «الصراع المسيحي» ، أي ذلك الذي دار
بين «ذوي الرأي المستقيم» و«ذوي الرأي المتعرج - المنحرف» . إذ أن مصائر الصراع

(١) ادمون رباط : المسيحيون في الشرق قبل الاسلام - نظرة سريعة (ضمن : المسيحيون العرب -
نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٦) .

المنوه به تحددت ، في أساس الأمر وعمقه وعمومه ، بتلك الصيغة . ومن هذا الموقع ، يغدو الدور الذي مارسه الصيغ الأخرى من ذلك الصراع مفهوماً من حيث هو ، كثيراً أو قليلاً ، تلوينات على الصيغة الصراعية المذكورة وتحليلات متميزة لها . وبتعبير آخر نقول ، ان الصراع الأساسي (الرئيسي) ، الذي ظهر في الحقل العقائدي المسيحي ، تبلور في نطاق الجناحين الكبيرين المأتمن عليهما ؛ في حين أن الأشكال الأخرى من «الصراع المسيحي» مارسست أدواراً ثانوية تتمحور ، بمعنى ما وبحدود ما ، حول دور ذلك الصراع الرئيسي . وهذا ينطبق على الأوجه النظرية العقائدية (اللاهوتية) ، كما على الأوجه الأخرى من المسألة المعنية ، ومنها التنظيمي والسياسي والمالي . وبذلك ، نكون - ثانية وبشيء من التدقيق والتفصيل - أمام القانونية الأساسية التي حكمت التحولات البنيوية والوظيفية التي طرأت على المسيحية اليسوعية .

ان الفرق الأساسية والكبرى ضمن «الحقل الهرطقي» والتي وقفت الكنيسة الرسمية المركزية والاقليمية ضدها تعتياً وملاحقة وتحريماً ، تتمثل بثلاث ، هي التالية : (١) الأريوسية ؛ (٢) النسطورية ؛ (٣) النوفيسية .

وضروري أن ننوه ، في هذا المعقد من المسألة ، بأننا إذ نركز انتباهنا باتجاه تلك الفرق الثلاث تخصيصاً ، فإنما نفعل ذلك انطلاقاً من ثلاثة اعتبارات نرى أنها رئيسية على هذا الصعيد . الاعتبار الأول يكمن في أنها تنتمي إلى البنية الكنسية غير الرسمية ذات «الرأي المستقيم» ، أي إلى المعارضة التي حملت في ثناياها أعباء التاريخ «الخفي والمحظور» من المسيحية اليسوعية المسيانية ، بحيث أدخلت في «التاريخ الآخر» ، أي في حقل «الخوارج» . أما الاعتبار الثاني فيتحدد بكون الفرق المعنية قد أدينّت من قبل تلك الكنيسة بمثابتها هرطقية ، أي تمت بصلة كبيرة أو صغيرة إلى التصور الديني المسياني ، الذي سبق للكنيسة إياها أن تخلت عنه باسم المصالحة مع «الواقع القائم» ، ومن ثم التآخي معه . ولا ريب أن هذا الاعتبار ذو أهمية خاصة على المستوى البنيوي والوظيفي العقائدي ، لأن من شأنه أن يلقي ضوءاً ساطعاً على العمق الذي اتخذته عملية التحول التي طرأت على التصور المسيحي اليسوعي المركزي المتمثل بـ «الخلاص» ؛ إضافة إلى أنه (أي الاعتبار) يبرز الكوامن الكبرى التي قام عليها الصراع بين الخططين المسيحيين الكبيرين ، بما يقتضي ذلك من

كشف للبعد الايديولوجي السياسي الذي اكتسبه ذلك التصور في هذا السياق .

أما الاعتبار الثالث لتركيز انتباهنا على الفرق الثلاث المعنية ، هنا ، فينهض على أنها ذات أصول تاريخية وايدولوجية عقيدية شرقية (عربية بالمعنى الذي أتينا عليه في مواضع سابقة من هذا البحث وكذلك في كتابنا حول بواكير الفكر العربي)^(١) . ويهمننا من ذلك أن نتقصى ، ضمن المهمات التي حددناها هنا ، ما يطلق عليه «المسيحية الشرقية» بارهاصاتنا الأولى الباكورة وامتداداتها اللاحقة حتى اكتمال طرقي «الصراع المسيحي» الرئيسيين . ان تلك التسمية وإن كانت غير مدققة ومحددة تماماً ، فإنها تظل قادرة على تقديم ما يكفي من المسوغات التاريخية والنظرية المنهجية لاستخدامها تعبيراً عن نسق معين من التفكير الديني في منطقة جغرافية تشمل على ما ينتظمها ضمن قاسم مشترك ؛ مع الاقرار بوجود عناصر كبرى وصغرى تجعل منها حقولاً وأطرافاً مختلفة .

ومن البين اننا - في هذا الموضع من الكتاب الذي نقرأ فيه - نغض النظر عن كم غفير من الاتجاهات والمدارس و«البدع» المسيحية ، التي يمكن النظر إليها ضمن الدائرة الشرقية - العربية . ومن ثم ، فتركيزنا على الفرق الثلاث ، التي حددناها آنفاً ، يأتي من قبل نمذجة تنهجية للظواهرات والمواقف وضبطها وتصنيفها في نطاق التاريخ المسيحي اليسوعي^(٢) . وإذا عدنا إلى تلك الاعتبارات الثلاثة الرئيسية ، مجتمعة ومجملة ، فإننا نجد أنها تقدم لنا المسوغات التاريخية والتراثية الضرورية

(١) طيب تيزيني : الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً . ومن اللازم ، هنا ، أن نشير إلى أن هنالك بعض الخلاف بين بعض الباحثين حول الأصول التاريخية للفرقة الأريوسية . قادمون رباط ينظر إليها من حيث هي «البدعة التي ابتكرها الكاهن أريوس ، في الاسكندرية ، وكان من أصل ليبي ، وذلك في القرن الرابع» . (ادمون رباط : المسيحيون في الشرق - نظرة سريعة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٨) .

ذلك التعارض بين الموقفين المومي إليهما ، إذا وضعنا في اعتبارنا المنطلق المنهجي التاريخي والتراثي

(٢) يكتب المطران جورج خضر حول عراقة التاريخ المسيحي العربي وتنوعه البنيوي والوظيفي . مايلي : «ما يؤهلنا حقاً أن نعت المسيحية بالعربية هو أن كل فرقها بلا استثناء منذ ألف سنة وثيف كتبت بالعربية ، وكتاب Graf بالألمانية : (تاريخ الأدب المسيحي العربي) ، يورد أسماء الكتب المسيحية التي وضعت بالعربية عند الاقباط والسريان والنساطرة والروم والموارنة وهي ألف =

للموصول إلى أمر ذي أهمية منهجية بارزة ، حقاً ؛ ذلك هو أن تاريخ المسيحية منذ القرن الرابع ، تحديداً ، أي منذ تحولها إلى أيديولوجيا الدولة السائدة في المجتمع الامبراطوري الروماني ، عاد ليصبح - في حقله الجغرافي والديني المشكلي - ظاهرة شرقية في الكثير من حلقاتها وتوجهاتها الأساسية الكبرى . وقد برز ذلك ، خصوصاً وبأشكال حادة وناضجة أيديولوجياً وربما كذلك تنظيمياً ، في الفرق الثلاث المسماة آنفاً . ان ذلك التحول يضع يدنا على مسألة ذات خصوصية هامة ؛ تلك هي تغلب الوضعية الداخلية في المناطق الشرقية ، أخيراً وبصور واضحة ، على محاولات الأغربة والهلينة التي أخضعت المسيحية لها إبان تحولها إلى دين شعولي في نطاق الامبراطورية الرومانية ، ومن ثم عبر مرورها بالاقنية الرواقية والافلاطونية الجديدة .

من هنا بالذات ، كانت ضرورة البحث في تلك الفرق عمقاً وسطحاً من الموقعين المنهجيين التاليين : الأول ، الذي تظهر فيه سياقاً تاريخياً وتراثياً ، أي حدثاً تاريخياً يستمر ويمتد تراثياً في نطاق المراحل التي مرت بها ؛ والثاني ، الذي تبلور فيه وتبلغ مرحلة النضج بصيغة لاهوتية منظمة منسقة ، أي بصيغة ما أطلق عليه «اللاهوت المسيحي» أو «علم الكلام المسيحي» ؛ هذا بالإضافة إلى أن البحث في الفرق المذكورة من شأنه أن يقود إلى النفاذ لبعض الأوجه الرئيسية أو الثانوية في اللوحة العقيدية للكنيسة «الأم» نفسها ، وذلك انطلاقاً من أن الأمر - على هذا الصعيد - لم يقتصر على التأثير والتأثر من طرف واحد ، هو كون الطرف الكنسي السلطوي المؤثر والطرف المعاصر المتأثر . ان ما أطلقنا عليه ، في صفحات سابقة ، «القراءة المركبة» للنصوص يبرز هنا بمثابته تأكيداً على أن طرف المعارضة أسهم ، بشكل أو بآخر ، في تكوين النسق العقيدي الكنسي الرسمي تكويناً تم بطريقة السلب ، أي من موقع كون هذا النسق كان عليه أن يرد على الآخرين ويتفعل بمواقفهم ويتبنى شيئاً منها ضمناً على الأقل . ولعلنا نقول ، اننا حتى لو أغفلنا

مؤلفه ، ولكنها لم تنشر . وإن كشفها جميعاً ليظهر بأن العربية لم تأب أن تنتصر وان الحضارة العربية ستكتب كتابة جديدة إذا نشرت هذه الكنوز أكان هذا من حيث البلاغة والشعر والفلسفة والعلوم . (المطران جورج خضر: المسيحية العربية والغرب - ضمن: المسيحيون العرب ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٨٤) .

ذلك ، لا نستطيع ان نغض النظر عن أن العقيدة الخارجية (المهرطقية) كانت - في مناوأتها للعقيدة الكنسية الرسمية - تملي عليها - بدرجة أو بأخرى - بعض أنماط الرد والمقارعة والمقاومة . وهذا ، كما هو بين ، أمر ذو أهمية منهجية تقود إلى الكشف عن الكثير من الأوجه والجوانب البنيوية والوظيفية في اللوحة العقيدية الرسمية بصفتها (أي الأوجه والجوانب) حصيلة الفعل التضادي المشترك بين هذه الأخيرة من طرف ، وبين اللوحة المعارضة من طرف آخر .

هاهنا ، نواجه مسألة البحث في كوامن وخلفيات الفرق المهرطقية الثلاث بمثابرتها (أي المسألة) أحد المداخل إلى تلك العلاقة البنيوية - نسبياً وجزئياً - بين كلا الفريقين المنوه بهما . وهذا يدعو إلى القول انه في سبيل القضاء ضوء كشف على العوامل والأسباب والحوافز الكبرى والجزئية التي كمننت وراء نشوء تلك «المهرطقات» الثلاث ، يجدر بنا الذهاب بعيداً باتجاه البحث في العلاقات الاقتصادية والسياسية ، التي تبلورت وبرزت بين سورية ومصر من طرف ، وبين الحكومة المركزية في القسطنطينية بالعهد البيزنطي من طرف آخر . إذ أنه من شأن ذلك أن يحدد الخلفية غير المرئية - في كثير من الأحيان - التي دفعت بالخلافات العقيدية الدينية الى فوق بين دينك الفريقين . أما المرحلة التاريخية التي تبرز على هذا الصعيد ، فهي تلك التي تنحصر في القرنين الرابع والخامس ، تحديداً ، وهما عصران شغلا مكاناً مضطرباً ملتهباً من التاريخ المسيحي اليسوعي . بيد أن بلوغ هذه المرحلة كان قد تم بعد المرور بمرحلتين أخريين سابقتين كان لهما - مع هذه الأخيرة - أهمية خاصة بارزة في تحديد مصائر التطور التاريخي والتراثي للمسيحية اليسوعية .

فبعد أن أخذت المسيحية المعنية تظهر كما لو أنها تحولت وانحرفت عن مراحل نشوئها الأولى المتسمة - ضمن ما اتسمت به - بخصائص الفكر الشرقي القديم ، مع الحفاظ على ما يمنحها حداً ضرورياً من خصوصية الشخصية النسبية ، داخلته بذلك في نسيج العالم الروماني الهليني ومنتزجة من ثم بالأفلاطونية الجديدة والرواقية ، نقول ، بعد أن فعلت ذلك ، عادت - ثانية وضمن ظروف مستجدة متقدمة بمعنى أو آخر - لتبرز بصيغ شرقية عامة . وهي اذ فعلت ذلك ضمن الشرط الاجتماعي المستجد ، فإنها افصححت عن أحد أهم مكوناتها العقيدية الراسخة متمثلاً بذلك الفكر الشرقي القديم ، وبيعض جوانبه الرئيسية على نحو خاص . ومن هنا ،

نلاحظ أن المراحل الثلاث المنوه بها والتي طرأت على الحياة الدينية المسيحية اكتسبت سماتها الرئيسية العامة عبر ثلاث سمات متتامة تتألف تضافياً في الحقل المعني ؛ تلك هي الجغرافية أولاً ، والاثنية ثانياً ، والعقيدية البنيوية ثالثاً . ولا ريب أنه كان للعوامل السياسية والاقتصادية دور فاعل على هذا الصعيد . فلقد انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى شطرين كبيرين انقساماً شغلت فيه الحلقات السياسية والاقتصادية مكاناً بارزاً بروزاً متزايداً ومتصاعداً ، بحيث ظهر الشطر الشرقي البيزنطي بمثابته محوراً هاماً وفعالاً بصورة ملحوظة في إطار ميزان القوى السياسي العالمي ، في حينه .

ولقد كان على مصر وسورية أن تخضعا للسلطة البيزنطية خضوعاً واسعاً يشمل الحقوق الاقتصادية والسياسية والدينية . ومن موقع هذا الخضوع على صعيد تلك الأنشطة الثلاثة الهامة ، استطاعت بيزنطة أن تمارس دور المضطهد الكبير إزاء تينك المقاطعتين الملحقتين بها . فلقد ظلت محافظة على كونها عاصمة للامبراطورية الرومانية الشرقية فترة مديدة استمرت من عام ٤٠٠ حتى عام ١٥٠٠ . وطوال هذه القرون العديدة ، قامت بيزنطة بدور «المركز» الاقتصادي والسياسي والديني بالنسبة إلى «الهوامش» ، أي المقاطعات . أما السياسة الاقتصادية فكانت قد تحددت بممارسة الاستغلال حيال هذه المقاطعات ، وذلك بصيغة فرض ضرائب متصاعدة عليها ، وبانتزاع السلطات الأساسية السياسية الاقتصادية وغيرها منها . وقد نيظت مهمة جبي الضرائب إلى موظفين شرسين ونهمين كانوا يلحقون بالفلاحين والحرفيين اشكالاً متعددة وقاسية من الأذى والبؤس .

ويبدو أنه فقط بدءاً من مطالع القرن الخامس كانت سورية ومصر قد دخلتا ، بصورة أولية وعامة ، في عالم الدين الجديد ، المسيحية اليسوعية ، بحيث أصبح ينظر إليهما ، على الصعيد الديني العقيدي ، على أنها بلدان مسيحيتان . وهذه الفترة نفسها من الحكم البيزنطي هي الوحيدة في تاريخ البلدين المذكورين التي برزا فيها بتلك الصفة «المسيحية»^(١) . من هنا ، كان هذا الوضع العقيدي الديني ،

(١) انظر حول ذلك: فيليب حتي - خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

الذي اتسم بكونه امتداداً لنظيره في بيزنطة (القسطنطينية) ، تجسيدا مضمنا ومرمزا للوضع الاقتصادي والسياسي في ذينك البلدين ، ذلك الوضع الذي كان ، بدوره ومن طرفه ، خاضعا لنظيره في المركز الامبراطوري .

في إطار تلك العلاقات من التبعية المركبة ، تبلورت وتعاظمت عمقا وسطحا حركة المقاومة والمعارضة الجديدة ، التي صاغت الشرائح المستنيرة والمنفتحة سياسيا وايدولوجيا ضمن الطبقات الاجتماعية في سورية ومصر . فهذه الشرائح وجدت نفسها في شكل من أشكال التحالف التلقائية مع الجماهير الفقيرة والمفكرة ضمن تيار من الاستغلال والاضطهاد من قبل السلطة الامبراطورية وممثلها في المقاطعات التابعة^(١) . وقد كانت تلك المقاومة ذات وجهات ومطامح اقتصادية وسياسية اقترنت - وظيفيا ايدولوجيا - بأشكال وصيغ متعددة من المقاومة العقيدية الدينية ، التي وصلت ، في حالات عديدة ، الى حدود الهرطقة والزندقة ، بالاعتبارات الكنسية المهيمنة واستحقت - من ثم - التحريم أو القطع أو المجاهدة بالسيف .

(١) نشر هنا ، فقط ، إلى ما حدث في انطاكية عام ٣٨٧ ، لكي نقدم واحدة من الصور الغزيرة التي اخذت تنتشر انتشارا واسعا في ارجاء الامبراطورية . فلقد ثار سكان هذه المنطقة الهامة وعلى الامبراطور توادوس سيوس بسبب زيادة الضرائب وفي ثورتهم انتشروا في المدينة يصيحون يا للخراب ، يا للدهاية الدهياء وأخذوا يجذفون على الملك وأسرته وحطموا تماثيل الملك والملكة وشدوا بعض هذه التماثيل بالحبال وأخذوا يجرونها في الشوارع وفي الأوحال والأقذار . ولكن ما لبثوا أن عادوا إلى وعيهم واعتراهم خوف شديد من سوء العاقبة واقتصاص الملك منهم وازداد هلعهم عندما تعقبهم رجال الحكومة فانتشروا رجالا ونساء ، شيوخا واطفالا في الشوارع والبراري والجبال مذعورين هارين من غضب الملك وقوى الأمن . وكثر العويل ولولة النساء وانطرحهن على أقدام الجنود طالبات الشفقة عليهن وعلى أولادهن وازواجهن . وجلس القضاة خمسة أيام متتالية يصدرون الأحكام بالعذاب والسجن والاعدام وضبط الأموال والممتلكات على العديدين من الأبرياء وغير الأبرياء . وبلغ الأمر إلى توادوس سيوس الملك فأرسل مندوبين من قبله إلى انطاكية وهما القائد هليكوس والوزير قيصاريوس . عمل هذان على تنفيذ الأحكام فاستاقا مع الجند جماهير المحكومين لتنفيذ الأحكام فتصدى لها الناسك مكدونوس وقرعها لتحطيم البشر وقتلهم وهم صورا حية للاله الحي ، لأنهم حطموا تماثيل من نحاس وهي صور مينة لبشر مائتين ،

وتتابع الصورة لتبين أشكال التعقيد التي كانت تخترق الصراعات بين السلطة والجمهور . من هذه الأشكال على سبيل المثال ، تميع تلك الصراعات من خلال «عفو الملك أو الأمير أو

وجدير بالاهتمام المخصص الانساق الوظيفية التي اكتسبتها تلك الفرق (الحركات) الثلاث في مجرى ظهورها ومجادلتها للكنيسة المركزية واصلاح الحرب عليها بكل الأشكال والوسائل الممكنة والمتاحة . وقد تعززت تلك الانساق من خلال ردود الفعل العنيفة ، في غالب الأحيان والأحوال ، التي أبدتها الكنيسة المعنية حيال الفرق المذكورة . فلم يكن بوسع القيمين على الكنيسة «الأم» أن يتساعخوا بالمسائل «الخطيرة» ، التي ابتدعتها المراهقة الجدد وعملوا على نشرها في صفوف الشعب ، ومن ثم على تحويلها الى مواقف تنظيمية وسياسية وقاتلية تقود إلى تصديع وحدة الكنيسة وما وراءها من مصالح مشخصة . ذلك لأن من شأن مثل هذا التسامح إن لجئ إلى أن يضع القيادة الدينية المقدسة (بسبب من عصمتها) موضع شك وتشكيك ؛ كما من شأنه أن يضع موضع التساؤل والخطر الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، التي تتمتع بها تلك القيادة والطبقة الاجتماعية التي تنطلق منها . وهذا قد يؤدي ، في نهاية المطاف أو في سياقه ، إلى الهجوم عليها (الامتيازات) وعلى الكنيسة نفسها ، كما حدث في حالات ليست قليلة .

لقد كان من نتائج ذلك المترتبة عليه (ومن مقدماته أيضاً) أن نشأت في سورية ، مثلاً ، حركة دينية وفنية قوية ذات شخصية تؤكد على استقلاليتها الدينية - وضمناً الفنية الدينية - حيال ما يوازيها في القسطنطينية . وهذا يشير إلى أن «المعارضة» أخذت تكتسب أبعاداً متعددة أوصلتها ، بعد حين ، إلى أن يكون لها عالمها الخاص المناوئ والمنافس للعالم الكنسي الرسمي . ومن ثم ، لم يعد

الضابط عن المتبردين ، ومحاولة جلبهم الى صفوفه : «وكان ذهب الى القسطنطينية فلابيانوس اسقف انطاكية وناشد الملك قائلاً : (اني لست فقط رسول شعب انطاكية بل ايضاً سفير الله اتيت باسمه أنبئك إن غفرت للناس سيئاتهم وهفواتهم غفر لك أبوك السماوي خطابك . . . تذكرن ذلك اليوم الرهيب حين نلتزم جميعاً أن تؤدي حساباً عن أعمالنا . . . فمثل ما تحكم الآن بحكم عليك . ان سائر السفراء يمثلون أمامك بالذهب والهدايا أما أنا فلا أقدم لك إلا شريعة يسوع المسيح والمثل الذي اعطانا على الصليب . . .) . فأجاب توادوسيوس : (إن كان يسوع ربنا قد صار لأجلنا عبداً واسلم نفسه ليصلب وإن كان سأل أباه المغفرة لصاليه فكيف أنجس ان لا أغفر لأبنائي) . وهكذا ارسل الملك امراً معجلاً بالعفو الشامل» . (الأب بطرس صو : تاريخ الموارنة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٦-٢٧) .

الحديث وارداً عن مجرد «ردود فعل» عنيفة أو خفيفة تجسد تلك المقاومة ، بقدر ما غدا ضرورياً أن نتحدث عن بناء آخذ في التكامل باتجاهات متعددة تعدد المواقف التي اتخذتها المعارضة من ذلك العالم الكنسي في بادئ الأمر ، ثم وفق المثل العليا التي اخذت المعارضة في وضعها وتنسيقها لمجموعاتها لاحقاً والتي اكتسبت بعض الاستقلالية إزاء المهيمات المباشرة التي كانت تواجهها (أي المعارضة) .

وقد أسهم في تدعيم وتعميق الموقف «ان رومة كانت تنظر بعين العطف إلى هذا الميل الاستقلالي في سوريا وتناصره لأن رومة إذ ذاك بدأت تزعجها منافسة القسطنطينية»^(١) . وعلى ذلك ، يمكن القول بأن عناصر «أخرى» كانت تبرز بين الحين والآخر بمثابتها عوامل دفع وتحفيز لقوى المعارضة . وحيث كانت تلك العناصر تنطلق من عدو المعارضة ، فقد كان في ذلك مناسبة لتقوية المواقف الخاصة واستغلال التناقضات بين الطرفين المتعادين . ولكن الى جانب ذلك ، كمنست في العملية نقاط ضعف تمثلت في أن العداء بين العدوين المعنيين (رومة والقسطنطينية) لم يكن جذرياً ، بحيث أن تكوين استقلالية المعارضة كان معرضاً للخطر حينما كانت تبرز تحالفات بين الحين والآخر بين العدوين موجهة ضد اعدائهما المشتركين : الخوارج . يضاف إلى هذه الوضعية اضطراب فرقاء من المعارضة إلى تقديم تنازلات في حالات معينة إلى أحد الفريقين الكبيرين المتعادين لقاء بعض الحماية والدعم اللذين يلقيهما منه إزاء الفريق الآخر . ولاشك ان هذا وذاك أسهما ، بأشكال مباشرة وأخرى غير مباشرة ، في التدخل بنويماً ووظيفياً بحركة المعارضة ، مماضعفها - باعتبار معين - وأفقدوها، للمدى البعيد وبهذا الحد أو ذاك ،

(١) الأب بطرس ضو : تاريخ الموارنة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٥ .
وجدير بالتنويه ، هنا ، ان النزوع الديني والفني الذي ظهر بسورية في تلك المرحلة (بدءاً من القرن الرابع وانتهاءً بالقرن السادس) كان تعبيراً عن الطموح الى الاستقلال - بمعظم اعتباراته - عن القسطنطينية ، المضطهد النهم لـ «هوامشه» من المقاطعات . وفي ضوء هذا ، «يمكن القول - مع بطلر - ان نهضة في الفن والهندسة أحدثها . . . المهندسون السوريون في الجيلين الخامس والسادس مظهرين درجة بارزة من الاستقلال تجاه أي تأثير من عاصمة السلطنة البيزنطية . هذا الطراز المستقل والغض نما وتطور حتى انقصف فجأة في أوائل الجيل السابع» .
(ضمن : المرجع السابق ومعطياته - ص ٤٣) .

شخصيتها المستقلة ؛ اضافة الى الاضطراب والتشوش اللذين يترتبان على هذه الوضعية في صفوف المعارضة ، بحيث قد يحدث كثيراً من الأحيان أن تفقد مواقف بعض اطراف المعارضة «مواقعها المعارضة» لتتحول إلى ركب السلطة هنا أو هناك . وينبغي الا يغيب عن ذهن الباحث ما يحدث ، عادة ، في مثل هذه الحال : تدخل الكنيسة الدولية والدولة الكنسية لتعميق وضعية الاضطراب والتشوش تلك ليس فقط في صفوف المعارضة ، وإنما كذلك على صعيد الفئات الأخرى ، التي قد تكون خارج الدائرة الايديولوجية المباشرة ، الرسمية وغير الرسمية .

ان المسيحية اليسوعية التي أنجزت ارهاصات الأولى في فلسطين ، الجزء الجنوبي من سورية الطبيعية ، واكتسبت اسمها وهويتها في انطاكية ، أي الجزء الشمالي من هذه الأخيرة (سورية) ، لم تستطع - رغم تلك الجذور والحوافز التاريخية التراثية - أن تتحول إلى ظاهرة كبرى مهيمنة فيها حتى القرن الرابع . ان وجه الطرافة الدينية العقيدية والتاريخية التراثية في هذه الوضعية يكمن في أن «الوثنية الكنعانية» ظلت ، هنا وعلى هذا الصعيد ، تمثل - الى فترة مديدة - أفقاً فعالاً ناهضاً ، أي دينياً بناءً . فهي - في ظهورها الوثني وباطنها التوحيدي - قامت ، كما لاحظنا في مواضع متعددة من هذا الكتاب ، بمهمات التصدي للتوحيد اليهودي اليهودي المغلق إتنياً ودينياً عقيدياً ؛ واسهمت ، من ثم وجزئياً ، في عملية التمكين لاندماج اليهود العبرانيين في الحياة الاقتصادية والاجتماعية الكنعانية ، رغم المحاولات الكبرى التي بذلها الكهنوت اليهودي والمضادة لذلك . (وقد سبق أن عاجلنا هذه المسألة وما يتصل بها في فصول سابقة من هذا البحث) .

ومع نشوء المسيحية اليسوعية كان لها ، مجدداً وبصيغ متميزة تستجيب للمعطيات المستجدة ، موقف هام ازاء العالم الجديد ، «المسيحي اليسوعي» ، وإن كان ذلك قد تم على نحو ضمني على الأقل في مراحل متقطعة من التاريخ المسيحي . واذا كان الحديث عن «الوثنية» قد بلغ العمق المسيحي ، بعد التعرض لها بعلاقاتها السلبية مع اليهودية اليهودية ، فإنه يغدو من مقتضيات واقع الحال التاريخي والتراثي أن نوسع دائرة التقصي لتلك الوثنية ، بحيث تشتمل - اضافة الى الحقل الكنعاني - على الحقل الذهني الشرقي عامة ، والمصري منه بصورة خاصة ؛ نظراً إلى أن هذا الأخير يبرز واضحاً في الموروث المسيحي اليسوعي اللاحق ؛ بل نكاد نقول ، انه

يدخل عمقاً وسطحاً في بنية هذا الموروث وفي ما ولده من امكانات واحتمالات وآفاق .

فالحديث عن مصر ، في هذا المجال البالغ الحساسية والرهافة التراثية ، ينطلق من أن «الوثنية» - وهذا هو وجه المفارقة المثيرة تراثياً واجتماعياً - مارست ، هنا أيضاً ، دوراً ملحوظاً في تأخير إحداث تأثير واسع للمسيحية فيها حتى القرن الخامس . وكما ميزنا ، على صعيد سورية ، بين الوثنية «ظاهراً» والتوحيد «باطناً» ، يتعين علينا أن نفعل الشيء ذاته بالنسبة الى مصر (بالطبع مع الأخذ بعين الاعتبار الدقيق الوضعية المشخصة المتمايزة هنا كثيراً أو قليلاً عن مثيلتها في سورية) . ولكن الذي حدث فيما بعد ، أي بدءاً من القرن الخامس ، كان ذا دلالة كبيرة بخصوص مصائر «الوثنية» تلك في مصر وسورية من طرف ، والمسيحية في هذين البلدين من طرف آخر .

ان ما حدث هناك لم يكن انتصاراً للمسيحية عن طريق التغلب على تلك «الوثنية» وإقصائها من مجالها الحيوي عبر صراعات طويلة أو قصيرة معها . لقد كان الأمر غير ذلك . انه سلك طريقاً أخرى أكثر «حداقة وعمقاً» . فالصيغة التي تمت فيها تلك العملية ظهرت من حيث هي تمثل لها (للوثنية) وتجاوز وابتلاع . ويمكن ان نتحدث ، هنا ، عن عملية اعادة بناء للوثنية المصرية الاسطورية اعادة بنيوية ووظيفية ، بحيث قاد ذلك الى العمق ، أي إلى تأهيلها و «توضيها» وفق الاحتياجات والمقتضيات الجديدة (المسيحية اليسوعية) . واذا اقتربنا أكثر من الموقف وعاینه مشخصاً في سياقه التاريخي التراثي ، استبان لنا أن ما تم على هذا الصعيد - على مستوى البلدين المعنيين ، هنا - تجسد بالانطلاق من المركب الأسطوري التالي ، وهو المتمثل بـ «قيام بعمل من الموت» و «قيام اوزيريس من الموت» ؛ كما تجسد بدفعه باتجاه تصور «قيام المسيح يسوع من الموت بعد الصلب» . وهذا يشير الى أن الموقف استكمل شخصيته عبر حدين اثنين حوّلوا إلى واحد . ولا بد أن يكون قد لفت نظرنا ذلك التحول الذهني ، الذي استتبع - في ثمرته الأخيرة (المسيحية اليسوعية) - وجود وضعية اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية متميزة ، إلى حد نوعي ، عن تلك التي وجدت في المجتمع المصري القديم الباكر ومثيله السوري .

ومن موقع التعيين والتخصيص ، يتضح أن الوثنية السورية والمصرية تحولت باتجاه تكوين أحد المبادئ الكبرى للمسيحية الخلاصية (اليسوعية) ، ألا وهو «القيامة يوم الدينونة» . ونستطيع ان نتصور ، بكثير من الدهشة وحمى التوقع ، ماالذي سيبقى من تلك المسيحية إذا ما جردت من ذلك المبدأ . فالاحسان إلى المؤمنين والقصاص من الأشرار أمران اثنان لوضعية مسيحية خلاصية واحدة ، هي حدوث ذلك اليوم ، الذي تعقد فيه المحكمة الربانية العظمى وتحسم المقادير . ولكن مبدأ آخر ، لا يقل خطورة عن ذاك بالاعتبارين البنيوي والوظيفي ، نجده في المسيحية المعنية وقد انطلق إرهاباً باكراً من جذور تلك الوثنية . انه مبدأ «الثالث الأعظم» ، أي المبدأ «العقيدي النظري» ، إذا اعتبرنا المبدأ الأول المنطلق والأخلاقي التبشيري . وبذلك ، يصح أن نقول ، ان المسيحية اليسوعية تمثل الوريث الشرعي أو وريثاً شرعياً للأسطورة الشرقية القديمة ؛ ولكن دون أن نصل إلى القول بكونها امتداداً مستقيماً للأبعاد لهذه الأخيرة ، كما يرى بعض الباحثين الذين أشرنا إليهم في سياق سابق .

ان «بعل» السوري هو كذلك ، أي بعل ، لأنه يجسد الخصب . ومن هنا ، كان هو إله . فهو يتصل بعشثروت ، إلهة الخصب ، أو بالأحرى إلهة الخصب على سبيل التلقي (الجنسي الكوني) من بعل ؛ إنه يتصل بها جنسياً وبصيغة تحقيق «الزواج المقدس» . وإذا يتم زواجهما الميمون (من اليمن أو البركة) ، فإن الحصلة التي تنجم عنه تتمثل بإحداث الخصب الجنسي الطبيعي والبشري . ان تلك الثلاثية العائلية (بعل وعشثروت والناتج عن التحامهما جنسياً) هي ، من جهة كليتها وعموميتها ، أحادية الطابع ، وتجسد الفعل الطبيعي الزراعي في المجتمع الزراعي الكنعاني . والأمر نفسه نواجهه - بالصيغة العامة الاجمالية - في الوثنية الاسطورية المصرية . هاهنا ، نكون حيال الثلاثية العائلية ، أيضاً ، ثلاثية «إيزيس واوزيريس وحورس» ، تلك الثلاثية التي تكاد أن تكون - في مراحل لاحقة من نشوئها - قد شكلت موروثاً مشتركاً وعماماً لمجموعة كبرى من المعتقدات الاسطورية والدينية لدى شعوب متعددة في الشرق والغرب . فبحسب هذه الاسطورة ، يشكل موت اوزيريس حافزاً خلاقاً وعملاقاً لايزيس الزوجة «الوفية» في مساعدته على «القيام» من الموت و«العودة» إلى الحياة لاختصاصها مجدداً . وهذا يجد

تحققه ، حيث يوطد حورسُ الابن العزمَ الأكيد (والناجح ختماً وفق آلية الثلاثية المعنية) للانتقام لأبيه المسفوح دمه القاني في النيل على يد عمه القاتل . أما عملية الانتقام هذه ، بما تنطوي عليه من حلقات وسيطة وتصاعد درامي في الموقف ، فهي الطريق «المقدسة والضرورية» لعودة الخصب والاختصاص . وبصيغة أخرى يمكن القول ، ان جدلية الثالوث هذا لا بد وان تنتهي الى «النهاية السعيدة» الكبرى ، التي من شأنها أن تكون مولدًا لـ «ملكوت جديد» يتلح ماقبله ويحبه ويتجاوزه إلى صيغة قصوى تجسد «الخلاص الكلي» .

إن ذلك كله يضعنا ، مباشرة وعلى نحو ملفت ، أمام ما أشرنا إليه فيما سبق ، وهو ان المسيحية اليسوعية وإن تأخرت في الظهور التاريخي الباكر (مرحلة ما قبل الميلاد الى مرحلة ما بعده) ، من حيث هي كذلك ، في سورية ومصر ، فإنها لم تجد نفسها أمام ضرورة الدخول في شكل من أشكال الصراع حول مبدأي القيامة والثالوث ، وكذلك حول مبدأ الخلاص . لأن هذه جميعاً جرى تمثيلها من قبل تلك مرتين ؛ أولاً ، في طور نشوئها (أي المسيحية المعنية) ، بحيث يمكن القول - وهذا ما أتينا عليه في موضع سابق ضمناً وإفصاحاً - بأنها مثلت ، على هذا الصعيد ، وريثاً تلقائياً شرعياً للاسطورية الشرقية (العربية) بمبادئها تلك الثلاثة ؛ وثانياً ، حين دخلت سورية ومصر في المرحلة المحددة آنفاً ، حيث وجدت نفسها أمام المبادئ إياها وقد تلفعت بكثير من التصورات والأفكار وكذلك الأوهام ، التي استجذبت على صعيد التطور العقدي والثقافي عموماً في البلدين الشرقيين العريقين .

ان الصراع ، أو ما يقترب منه ، الذي كان على المسيحية اليسوعية أن تخوض غماره حين دخلت سورية ومصر ، دار حول وجود الأوثان . بيد أن هذا الأمر نفسه لم يستمر طويلاً ؛ لأن المسيحية ذاتها اتخذت منه ، شيئاً فشيئاً وبخطوات وثيدة وواثقة ، موقفاً يتسم بالقبول الضمني أولاً والصريح المعلن عنه لاحقاً . وقد ظهر ذلك ، خصوصاً وعلى نحو سيلفت الانتباه في اطار التطورات اللاحقة ، على صعيد الفن الايقوني^(١) . بل يمكن القول ، انها اسهمت ، بعد اقتراب من مرحلة التنظير

(١) يلاحظ فيليب حتي ، بحق ، ان «سوريا كانت ينبوعاً للفن المسيحي . . . (و) كان المسيحي الشرقي ينشد في فن الرسم والنحت والبناء ، التجديد والابداع وسيلة للتعبير وهو في معزل عن مؤثرات الأشكال الاغريقية - الرومانية الفنية التقليدية . . . فقد بدأت تظهر صور وايقونات

العقيدى ، في انعاش هذا الفن وفي منحه ابعاداً وآفاق جديدة لم يكن قد شهدناها من قبل . وقد نقول بأن عالمية (أهمية) المسيحية اليسوعية وجدت أحد أشكال تعبيرها الفني الكبرى في النزوع الايقونى المتعظم ، بحيث يصح التنويه بأن هذا النزوع غدا شكلاً اكبر للدخول إلى عالم المسيحية إياها . بل لعلنا نقول ، ان هذا العالم اختزل - في عصور لاحقة وبدأ بيد مع نعاظم هيمنة البيروقراطية الدوغمائية في «الكنيسة الأم» - بنوع من الطقوسية التي مثلت الايقونية روحها وأيتها الرئيسية .

ونود الإشارة إلى أن الاهتمام بالايقونات غدا ، إضافة الى ذلك ، الوجه الشعبى للتعبيد المسيحى الخلاصى . فسقوط يسوع المسيح الخلاصى تحت وطأة المؤسسة الكنسية الحبرية احدث دويماً هائلاً في الأوساط الشعبية المتعطشة للخلاص . لقد تحول إلى ما يقترب من البديل عن ذلك المسيح ، حيث عمل المؤمنون المحبطون والمخيبون الآمال على أن يصنعوا مسيحهم أو مسحاءهم بصيغة الايقونات التي تعایشهم وتبقى قريبة منهم ، يتأملونها ساجدين ليل نهار ، باحثين في عيونها عن بارق أمل وعزاء ، أمل في «الخلاص» يوماً ، وعزاء لهم في كربتهم المستديمة والثقيلة الظلال . ان هذه اللحظة من لحظات التحول المسيحى تضعنا ، ثانية ، أمام ما كنا قد واجهناه من آلهة صغيرة ومتعددة تعدد الأفراد في الشرق العربى القديم .

وثمة نقطة على غاية الأهمية والدلالة الوظيفية على صعيد النزوع الايقونى المعنى هنا ؛ تلك هي أن الاهتمام بالايقونات الذي شجعتة الكنيسة الرسمية ونشطته وبرزته في حياتها الداخلية وحياة جمهور المؤمنين ، عاد ليأرس دوراً مناوئاً لهذه الكنيسة ، حيث دخلت الايقونات العالم المسيحى الشعبى ومارست فيه دور الآلهة الحميمة الخاصة . ولكن إذا كان الأمر قد حقق هذا الموقف التحولى الملفت حقاً ، فإنه ظل محدوداً بحقلي الخاص والفردى . وهنا ، عادت الظاهرة الايقونية لتلتقي مع الكنيسة البابوية من خلال سحق كل عام ومشارك خارج هذه الكنيسة . لقد كان هنالك ادراك كنسى عملي بأن تخصيص يسوع المسيح وتفريده عبر الايقونة من شأنها

== للسمع المسيح ، أو العذراء ، أو لأحد القديسين . (فيليب حنى : خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى - نفس المعطيات المقدسة سابقاً ، ص ٢٢٠ - ٢٢١) .

أن يمنح المؤمن قدرة جديدة على التماسك الذاتي الداخلي ؛ ولكنها - في نفس الحين وباعتبار أهم - عاجزان عن المسّ «بالشرعية الكلية» التي تحوز عليها الكنيسة ، الممثلة العظمى لجسد المسيح الكلي العمومي .

إن المعارضة كسبت ، ولاشك ، وأثرت من الظاهرة الايقونية ؛ ولكنها لم تستمد قدرتها الرئيسية منها ، بل من الروح المسيحية الجماعية التي بلورتها من موقع المخلص الجماعي لـ «الأمم» ، أي «الأمة المسيحية» ؛ إضافة إلى ذلك ينبغي التنويه بأن الظاهرة المذكورة كانت - في ظروف معينة خصوصاً أثناء فترات القنوط واليأس والاخفاق التي كانت على كل حال كثيرة وغالبة في معظم الأحيان - تقف عائقاً أمام جماعية الخلاص ، التي تنادي بها المعارضة المكونة من المراطقة وحلفائهم .

ولكن وفي كل الأحوال ، يبقى القول صحيحاً بأن انتشار تلك الظاهرة الايقونية في سورية ، مثلاً وكواحد من بلدان الشرق العربي ، انطوى على دلالة ايديولوجية سياسية وسيكولوجية كبرى تمثلت بالعزوف - السلبي غالباً - عن الكنيسة الرسمية ، وبالاحتجاج على ممارساتها القمعية الاقتصادية المالية والسياسية والدينية وعلى توجهاتها المنطلقة من الهيمنة المطلقة على «الآخرين» . ومن ثم وبناء على ذلك ، فإنه ذو شأن دالّ أن يمنح البحث التاريخي أهمية خاصة ومتميزة لظهور وبروز «الايقونية» في الوسط المسيحي الرسمي والشعبي كليهما وعلى حد سواء ، وإن بوظيفية مختلفة لدى الفريقين .

إن فن «الرسم والنحت والبناء» ، الذي عمل المسيحي الشرقي على تطويره وإدخاله في أنخص خصوصياته الحياتية اليومية ، ظهرت فيه لحظتان اثنتان خطيرتا الشأن على صعيد ما نحن في سبيل البحث فيه . اللحظة الأولى تمثلت برفض المؤثرات الفنية الاغريقية الرومانية ، كما أشار إلى ذلك - بحق - فيليب حتي . وقد كان لهذا الموقف نتائج يمكن ادخالها في دائرة الرفض لعلاقة الهيمنة الفنية الثقافية القائمة بين سورية ومصر من طرف والقسطنطينية وروما من طرف آخر . أما اللحظة الثانية فقد جسدت مطامح الفرقاء المتعددي الاتجاهات في هذين البلدين إلى بناء شخصية وطنية تقدم البديل عن تلك التي عمل شطرا الامبراطورية المذكوران ، توأماً ، على بلورتها بما يستجيب - على نحو أو آخر - لمصالحهما

واحتياجاتها في البلدين المعنيين عموماً . ولا بد أن نرى في اللحظتين المذكورتين شكلاً هاماً أهمية كبرى من أشكال المقاومة التي برزت في أوساط المعارضة الدينية السياسية للكنيسة السلطوية في روما والقسطنطينية . وبهذا الاعتبار ومن موقعه ، يمكن القول بأن الوعي الديني السياسي لأوساط المعارضة المعنية نهل الكثير في عملية تكوينه وبروزه من تينك اللحظتين ؛ بل لعلنا نقول ، ان ذلك الوعي تمثل - أساساً - وعلى نحو خاص - في مواقف عملية ونظرية جسدت اللحظتين المذكورتين .

ان مجمل ما أتينا عليه في نطاق المسألة الأخيرة من شأنه أن يقودنا إلى الحصيلة المبدئية التالية ، وهي ان المسيحية اليسوعية الشرقية ، الخلاصية تحديداً ، عملت على أن تستعيد اندفاعها الوطني والاجتماعي الخلاصي الكفاحي ، حيث وحدث - في شخصها وعلى نحو ذي طرافة بنيوية ووظيفية - بين «الوثنية التعددية» والتنزيه التوحيدى ؛ أو حيث انتزعت من تلك «الوثنية» الفشرة التي أخضت عنصرها التوحيدي الذي اخترقه عمقاً وسطحاً على نحو جعل منه نسقاً من أنساق ذلك التوحيد التنزيهي ، أو - وهذا صحيح ووارد ويمكن - على نحو جعلت من هذا الأخير نسقاً من أنساق هاته «الوثنية التوحيدية» . وهذا ، من طرفه وبدوره ، يحيلنا إلى قانون العلاقة الجدلية بين الداخل والخارج ، الذي يبرز «الداخل» - بمقتضاء ووفق آليته الفاعلة بصيغة ما - حاسماً في تحديد مصائره ، حتى لو كان ذلك بالاتجاه السلمي ، أي الذي يقود الى خدمة مصالح «الخارج» ، بشكل أو بآخر .

من هنا وضمن سياق فهم معمق للاتجاهات الرئيسية للداخل (بلاد الشرق ، ونعني بها هنا سورية ومصر) وللخارج (القسطنطينية وروما) ، نفهم لماذا برزت المجادلة الدينية في مصر بأشكال مفصح عنها وبصور أكثر وضوحاً وتميزاً عما حدث في بلدان أخرى ، ولماذا كانت هذه المجادلة تعبيراً دينياً مضمناً عن واقع الحال الشخص (السياسي والاجتماعي الاقتصادي) في ذلك البلد . ومن طرف آخر وبفلس القدر من الأهمية العقيدية ، ندرك ايضاً لماذا كانت مصر سباقة في إثارة المشكلات الأولى المبدئية لما سمي لاحقاً «علم اللاهوت أو الكلام المسيحي» وفي بلورة سماته الرئيسية على أيدي مجموعة من ممثلي اللاهوت المعارض . وضمن هذا الإطار، يندو واضحاً الدور المرموق البارز الذي مارسه الاسكندرية ، خصوصاً ، بثابتها العاصمة الكبرى لذلك «العلم اللاهوتي» ، أي «العلم» الذي أصبح - شيئاً فشيئاً ولكن

بوتائر متصاعدة ووطيدة - الشغل الشاغل لكهنة ورجال الدين في ارجاء الامبراطورية ، عامة . وهذا - مجتمعاً ومعمماً وملخصاً - يتيح لنا أن نستخلص الاطروحة التالية ، وهي أن الوضعية الثقافية والروحية في هذه الأخيرة أخذت - في سياق تلك التحولات - تخضع لتأثيرات عميقة ومباشرة متحدرة من الحالة التي أحدثها اللاهوت المسيحي «الشرقي» المصري ، وكذلك السوري . ذلك لأن هذا اللاهوت لم يتوقف ، في فعله المؤثر والنشط ، على الحياة الدينية المباشرة ، وإنما كان قد انطلق فاعلاً باتجاهات متعددة تعدد القطاعات والأوجه الاجتماعية الانسانية . وبكلمة يمكن القول ، ان «اللاهوت» المذكور اسهم اسهاماً مباشراً في صوغ المثل والتوجهات العليا للطبقات الدنيا وشرائح من الطبقات الوسطى ، وربما كذلك العليا . وبالطبع ، فإن هذا لم يتم دون عوائق وكوابح انطلقت من المنظومات الروحية والنظرية والمؤسسات السياسية الردعية للكنيسة الرسمية الدولية ؛ بل كان عليه أن يدخل كثيراً من المواجهات والجدالات والمعارك مع تلك المنظومات والمؤسسات .

ومن الهام منهجياً تاريخياً أن نتمعن وندقق في أشكال التعبير الرئيسية النموذجية عن حركة الاحتجاج والمقاومة ذات الصيغ المتعددة المتواترة ما بين العنف المسلح والجدال الديني اللاهوتي والتي اعلنها رؤوس «البدع والهرطقات» الجديدة . إذ أن من شأن هذا الجهد الدراسي الاكاديمي أن يلقي ضوءاً ساطعاً على عملية تشكل «الخوارج» ضمن دائرة الكنيسة الدولية وخارجها . بيد أنه لا يقل أهمية وحساسية - بالاعتبار المنهجي التاريخي نفسه - أن ندرك أن هؤلاء الخوارج ليسوا هم الذين صنعوا وصاغوا التاريخ المسيحي العقيدي العام؛ ان من فعل ذلك تمثل بأولئك «الدواخل» الذين أمسكوا - عبر القبضة الدولية الدنيوية والصولجان العقيدي الروحي - بمقدرات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وكذلك وبطبيعة الحال الدينية . وبتعبير آخر اكثر ضبطاً وتحديداً وتشخيصاً يمكن القول ، ان «الدواخل» ، أي ارباب الكنيسة الرسمية ، هم وليس غيرهم ، هم وليس اولئك الذين لبوا الاحتياجات الرئيسية الكبرى للتطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والذهني آنذاك ، أي للبنية الطبقيّة والسياسية والحقوقية والثقافية العامة .

ان ذلك الخط المنهجي في النظر للمسألة ، على أهميته المبدئية ، ينبغي أن

يعمق عبر الوجه الآخر من هذه الأخيرة ، وذلك بالاعلان عن أن الاحاطة المعمقة والكلية ، في حدود امكانات البحث العلمي ، بالوجه الأول المشار إليه آنفاً ، مرتبهة ، هي بدورها وعلى نحو ضروري ، بالاحاطة بآلية التطور على صعيد الخوارج . ذلك لأن الكشف عن الدور التاريخي هؤلاء يعني ، في أفقه الآخر المقابل والمتمم ، إلى الكشف عن القوى الاجتماعية والسياسية القابضة وراءهم والفاعلة تاريخياً على نحو أو آخر . وجدير بالقول أننا ، هنا ، اذ نتحدث عن «الدواخل» بمثابتها القوة الحاسمة في التطور المسيحي ، فإننا نعني - بذلك - الوجه الذهني العقيدي من هذا التطور . وبتعبير آخر ، نقول بالتمييز بين صنع التاريخ ذهنياً وبين صنعه اجتماعياً انتاجياً . ومن موقع هذا التمييز يغدو التصريح وارداً بأن من لم ينتج التاريخ المسيحي الشخص هو الذي قطف ثماره الانتاجية أولاً ، وهو الذي صاغه نظرياً بالحدود الاجمالية الكبرى ثانياً ؛ مع الاشارة الضرورية إلى أن الوجه الانتاجي الشخص من التاريخ المسيحي وإن كان من صنع «الخوارج» ، أي الطبقات والفئات الدنيا ، إلا أنه لم يكن - في حينه وضمن آليته الجدلية الداخلية - متماشياً مع مصالح هؤلاء المباشرة .

ومن موقع الخاص ، جدير بنا التمعن في أن نمو ظاهرة الخوارج ، أي من سمتهم الكنيسة السلطوية بالهرطقة والزنادقة والجاحدين الخ . . ، كان قد افصح عن نفسه - بصورة عامة - بصراعها من أجل الاستقلال السياسي والديني المؤسسي (الكنسي) وكذلك وبحدود معينة ملحوظة الديني العقيدي عن روما أولاً ، وعن القسطنطينية ثانياً ، وعن كليهما مجتمعتين ثالثاً . والملاحظ أن هذه الوضعية تعود إلى مرحلة تاريخية سبقت ظهور الاتجاهات الهرطقية الثلاثة الكبرى (الآريوسية والنسطورية والمنوفيسية) . فلقد واجهنا مواقف من تلك الظاهرة في الكنيسة السورية والكنيسة القبطية بصورة واضحة متميزة وبصيغ وصل بعضها الى درجة الصراع المسلح . وهذا ، من طرفه ، يضع أيدينا على وجه هام من أوجه الظاهرة المذكورة ؛ ذلك هو أن المعارضة للسلطة الكنسية تمتد إلى عمق الأوساط الشعبية الفقيرة والمفكرة ، التي عبرت عن موقفها من هذه الأخيرة بأشكال أولية بسيطة وتلقائية ، في عمومها وإجمالها . وما الصيغة المنظمة والمؤدجلة لها - بمقتضى ذلك - إلا امتداداً طبيعياً وذا أفق نوعي لها . ففي عام ٢٥٥ نشأ خلاف حول «معمودية

الهرطقة والجاحدين» ، أي أولئك الذين اتخذوا يعملون على العودة إلى حظيرة الكنيسة الرسمية تحت تأثيرات عديدة . في هذه الحال المحددة ، لا يهتما ما أخذت به الأطراف المتنازعة من آراء ووجهات نظر حول المسألة المعنية ، بقدر ما هو أكثر أهمية أن نلاحظ النزوع إلى الاستقلال في التفكير الديني والممارسة الدينية لدى القرطاجيين عن رومة . فأمامنا - على هذا الصعيد - رسالة ملفتة كتبها كبريانوس القرطاجي إلى اسطفانوس ، الذي كان على رأس كرسي رومة . في هذه الرسالة ، يعلن الأول للثاني أنه من الضروري أن تحترم الحرية والاستقلالية في فهم وسنّ الشرائع الدينية : «نحن لا نريد أن نرغم أحداً على شيء ارغاماً كما أننا لا نرغب في سنّ الشرائع للغير . فكل رئيس من رؤساء الكنيسة حر أن يدير دفة الإدارة كما يرى مناسباً . وهو وحده مسؤول عن أعماله أمام الرب»^(١) . فما كان من اسطفانوس الروماني ، اثر ذلك ، إلا أن غضب وهدد بأجراء عقوبات رادعة له (لكبريانوس) ولأمثاله من المتجرئين على «عصمة البابا وقداسته» . فالدعوة إلى الحرية والاستقلالية في «التفكير» عموماً اعتبرت مستأ بالشخصية الاعتبارية لـ «الحبر الأعظم» المنوطة به مهمة «تدبير الكون المسيحي» .

ولعله من المواقف المعبرة ببلاغة على هذا الصعيد ما حدث من صراع حاد بين الكنيسة التدمرية المعاصرة لحكم الملكة الشهيرة زينب (زنوبيا) من طرف ، وبين روما وحلفائها من طرف آخر . فلقد عملت روما كل ما بوسعها لاسقاط اسقف انطاكية بولس السميساطي (٢٦٠ - ٢٦٨) ، الذي قاومه «كل من أيد رومة والحضارة اليونانية الرومانية»^(٢) . وبما أن هذا الاسقف ، الذي لقي دعماً مباشراً من الملكة زينب ، أبدى آراء حول الكنيسة الأم تشكل خطراً على مصالحها الاجتماعية والاقتصادية والدينية المؤسسية والعقيدية ، فقد انعقد مجمع لاساقفة انطاكية ذوي التوجه الروماني ، اعلنوا فيه ادانتهم الصريحة للسميساطي بمثابته هرطيقاً خرج - فيما طرحه من آراء - عن الدائرة الكنسية الأم وعليها . أما هرطقته المدانة فقد تمثلت

(١) أسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى - الجزء الأول من ٣٤ - ٦٣٤ م ، منشورات النور ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١١٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٢٢ .

بامتناعه عن «القول بأن ابن الله نزل من السماء ولأنه قال بأن يسوع المسيح بشر وإنسان»^(١) .

إن مثل ذلك القول «الهرطقي» اعتبر واحداً من الأشكال الهرطقية الأساسية التي هددت الكنيسة الدولية في مقولتها المركزية المتمثلة بالتأكيد على أن «المسيح بما هو إلهي وإنساني جسد الكنيسة» . ولم تستطع روما ، بكل ثقلها الكنسي السياسي ، أن تسقط بولس السيمساطي إلا بعد أن تمكنت من ذلك العرش الزنوبي في تدمير عبر جيوشها وقدراتها العسكرية . وإنه لجدير بالتأمل ، حقاً ، ذلك التوازي والاندغام في الموقفين السياسي والعسكري والديني الكنسي ، اللذين ترتبا على هزيمة تدمير أمام روما : ففي الوقت الذي اسقط فيه الامبراطور الروماني اوريليانوس زينب ، تمكنت الكنيسة الرومانية من اسقاط السيمساطي ذاك . إن هذه الواقعة ذات أهمية خصوصية باتجاه ادراك قانونية التحول والتطور التي حكمت الأحداث في روما والامبراطورية الرومانية ، بعد أن انتقلت المسيحية اليسوعية من «تحت» إلى «فوق» ، أي بعد أن اعيد بناؤها وظيفياً وفق الاحتياجات والمقتضيات الخاصة بالسلطة المركزية والامبراطورية العليا . إذ بعدئذ تمكنت السلطة المركزية أن تجعل من الدين الدولي الحديد الوجه الايديولوجي لها واليد الايديولوجية التي تطلال الجميع ، بمن في ذلك السلطة التدمرية والكنيسة التدمرية . ويبقى أن نقول ، إن مثال السيمساطي ذو دلالة وطنية سياسية وعقيدية تنطبق - مع كثير أو قليل من التخصيص - على الكثير من مظاهر الخلاف والصراع بين الكنائس المحلية والكنيسة الأم المركزية^(٢) .

(١) نفس المرجع السابق ومعانياته - ص ١٢٧ .

(٢) «وبزوال الحكم التدمري زال نفوذ بولس السيمساطي وقويت شوكة نيبايوس وجمهور المؤمنين . فانتهمز نيبايوس (٢٧١-٢٧٩) هذه الفرصة السانحة وتقدم من الامبراطور المحرر راجيا اخراج بولس من قلالية الاسقفية وكف يده . ورأى اوريليانوس وجه الحق في هذا الطلب ولعله رأى ايضاً في شخص نيبايوس وفي اعوانه حزباً يونانياً رومانياً قاس الأمرين في جهد زينب (البربري) (فأمر بأن تعطى القلاية الى اولئك الذين كانوا على صلة بالمكاتبة باساقفة العقيدة المسيحية في ايطالية ورومة) . ولا نعلم عن مصير بولس بعد هذا . (نفس المرجع السابق ومعانياته - ص ١٣٠) .

وإذا ما بقينا في المستوى النظري العقيدي للموقف ، يبرز السؤال التالي ملحاً : ما الذي وجدته الكنيسة المركزية من عناصر «الهرطقة» في رأي السميساطي بأن «ابن الله لم ينزل من السماء وبأن يسوع المسيح بشر وإنسان» ؟ ان مثل هذا السؤال سوف يواجهنا ، أيضاً ، لاحقاً في سياق الحديث عن «الهرطقات الكبرى» . فهو مشكلة هامة مشتركة بين معظم الذين عملوا على البحث عن مسيحهم بينهم على الأرض وبملاح انسانية خلاصية . ولا شك ان مسيحاً من هذا النمط من شأنه أن يحدث خرقاً عميقاً بل قاتلاً في «جسد المسيح» - الكنيسة الرسمية . لأن هذه الأخيرة تقوم ، أساساً وأصلاً ، على تصور العلاقة التضائية بينها وبين ابن الهي تستمد منه مرجعية صادرة من فوق هذا العالم ودون العودة إلى مؤسسة ما يمكن أن تكون موجودة فيه . فقطع الصلة بعالم مشخص وقابل للتحديد والضبط على نحو من الأنحاء ، خطوة جد ضرورية لـ «استفراد الموقف» والخروج عن حقل المراقبة أيا كان شأنها . ومن ثم ، فقد نقول ان السميساطي أراد القول بأن «المسيحية اليسوعية» شأن من شؤون الناس ، ليس إلا . وإذا قيل ذلك عن هذه الأخيرة ، فحري به ان يقال أيضاً بخصوص «الكنيسة» ، جسد المسيح وخادمه . وحيث يكون الموقف هكذا ، نجد الكنيسة «الأم» نفسها في الهواء وفي العراء ، مفتقدة مشروعية الزعم بأنها تتكلم باسم «يسوع» وتفعل ما تفعل باسمه ، غير خاضعة لأية سلطة «زمنية» - والمقصود هنا بذلك السلطة الزمنية المنطلقة من تحت تحديداً - ؛ ذلك لأنها ، في أساس الأمر ، نشأت في ظل السلطة الزمنية المنطلقة من فوق ، أي من الطبقات العليا وتنظيمها الاجتماعي الدولي .

وسوف نعالج ، فيما يلي ، أحد أشكال التعبير العقيدي الأكثر تقدماً ، في حينه ، ممثلاً بالهرطقة التي شغلت الكنيسة فترة مديدة ومربرة . وينبغي القول بأن الأريوسية تمثل امتداداً نوعياً ومتميزاً بحدود معينة لكل الأشكال الهرطقية التي سبقتها ، حيث هيأت لها - بأدواتها البسيطة الساذجة في غالب الأحيان - أرضاً خصبة للنمو والتبلور وامتلاك مبادرة المقاومة الصريحة لمعقل «الكنيسة الأم» .

ب - تكتسب الأريوسية ، في نطاق الرضعية التي أتينا على استنطاقها ، أهمية بارزة خاصة ، بقدر ما تنطوي على خصوصية بالغة الطرافة على صعيد تاريخ الهرطقة الدينية والسياسية ، في الحدود المسيحية اليسوعية . ولقد أعلن عن هذه الحركة وقادها في الاسكندرية الكاهن الليبي آريوس (مات عام ٣٣٦) . وهو إذ أعلن عنها أمام جمهور المؤمنين ورجال الدين (اللاهوت) ، فانه - بذلك - افتتح في التاريخ المسيحي بادرة كبرى مثيرة على طريق اخضاع «النصوص المقدسة» لعملية واسعة وعميقة وشجاعة من التأويل اللاهوتي ذي النزوع الفلسفي العقلي التمييز ، في حينه ، تميزاً لفت أنظار «المركز» و «الأطراف» .

ولم يكن - وفق طبائع الأمور - من المتوقع أن تقف الكنيسة الرسمية «جسد المسيح» مكتوفة اليدين حيال تلك الحركة «الخارجية» . فلقد عملت على محاصرة هذا الموقف الخطير أو الذي بدا ، شيئاً فشيئاً ، أنه خطير بكل الوسائل والامكانيات المتاحة ، بحيث تتاح لها القدرة على خنقه في المهد ودون أن يخلف ذيولاً تعلقها وتخلق لها مضاعفات وصعوبات . وكان من ضمن تلك الوسائل أنها أتلفت تعاليم آريوس ، مما جعل محاولة تحديدها تحديداً دقيقاً وقطعياً أمراً غير ممكن . وقد تبقى للباحث امكانية أساسية واحدة لتحقيق ذلك الهدف العلمي الدراسي ، وهي اللجوء إلى المقتطفات القليلة التي جاءت في بعض ردود خصوم آريوس واستنباط تعاليم هذا الأخير منها على نحو أو آخر^(١) . ورغم ذلك ، فالمسألة لم تكن - بالنسبة الى الكنيسة - على هذا النحو من السهولة والبساطة . فلقد كانت الأريوسية قد نشأت بمباشرة تعبيراً مباشراً عن مطامع الانفصال والاستقلال لدى المصريين عن الهيمنة الامبراطورية الموغلة في اضطهادها الاقتصادي والسياسي والديني لهؤلاء ولأمثالهم في بقية مقاطعات الامبراطورية . ومن هنا ، تعين على الكنيسة «الأم» أن تدرك أن تصديها لآريوس وحربها له هما ، في نفس الحين وعلى نحو مؤكد ، تصد وحرب لأولئك ولطامعهم ومطالبهم السياسية والاقتصادية والدينية المعلن عنها وغير المعلن . وضروري أن نشير إلى أن هذا الوعي الكنسي بمصالح الكنيسة الدولية يفصح عن نفسه في كثير من صفحات تاريخها على صعيد الكفاح ضد «الهرطقات» وبأشكال قصوى من العنف .

(١) انظر حول ذلك : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٩٣ .

ويجدر بنا أن نعلن عن الوضعية المبدئية التالية ، وهي أن الأريوسية وجهة ، فعلاً ، ضربة عميقة ونافذة الى العقيدة الرسمية الممثلة بالكنيسة السلطوية في عاصمة الامبراطورية المترامية الأطراف ، وفي مصر نفسها ايضاً وخصوصاً . فلقد أعلنت عن مبدأ أساسي كان من مهماته أن يطيح بتلك العقيدة وأن يقوضها ، بما هي ومن حيث الأساس . كان ذلك المبدأ قد تمثل بشقين اثنين رئيسيين ، واحد ايجابي وآخر سلبي . أما ايجابية الشق الأول فقد تقومت بإعلان الرب الاله واحداً أحداً ، لا شريك له ، ولا مثيل له . وإذا كان الأمر كذلك ، يصبح حرياً أن يقال بأن هذا الرب ليس له ابن مماثل له كثيراً أو قليلاً في الجوهر أو في العرض ، بحيث ينتفي - كذلك - القول بأبوة وبنوة تمثلان وجهين لأمر واحد (لرب واحد)^(١) . وبذلك ، يكون آريوس قد صوب سهامه النافذة باتجاه ماهو ، فعلاً ، بمثابة القلب من المسيحية الكنسية وما وراءها من مؤسسات دولية ترتبط بها وتعيش على ارتباطها بها . وبطبيعة الحال ، فإن التبصر في ذلك الموقف المرهف والخطر كنسياً كان عليه أن يقود إلى المحصلة الكبرى التالية ، وهي أنه (الموقف الأريوسي) تعرض للكنيسة المذكورة بصفتها «جسد المسيح» و«عقل الامبراطورية السياسي والعقدي» . وهذا يعني ، ضمن ما يعنيه ، رفض هذه الكنيسة من حيث هو رفض للأبوة والبنوة وللنتاج عنهما وللموحد بينهما ؛ أي اننا ، هنا ، أمام وجه آخر من خطورة ورهافة الموقف ، ذلك الوجه المتمثل برفض «الثالوث المقدس» ، كما تفهمه هذه الكنيسة (لأننا في موضع لاحق سنواجه الأريوسية وقد أخذت بالثالوث المعني ضمن فهم توحيد له) .

أما الشق السلبي للمبدأ الأريوسي فيفصح عن نفسه من سياق الشق الأول بمثابة نقيضاً لالهية يسوع . فهذا الأخير يغدو - والحال كذلك - انساناً لا أكثر ،

(١) «وجل مايجوز قوله عن مذهب آريوس أنه كان فيما يظهر محاولة جديدة لتأكيد وحدانية الاب وتخفيض منزلة الابن Subordinationisme والروح القدس . فالأب وحده في نظر آريوس استحق لقب الاله . أما الابن فإنه لم يكن سوى اله ثانوي منخفض في الرتبة والمنزلة مخلوق من العدم بإرادة الرب . بيد أنه تميز عن سائر المخلوقات في أنه كان صورة الله الاب في جوهره Ousia وأرادته ومجده . والثالوث في نظر آريوس ثلاثة في الأقسام ولكنهم ليسوا واحداً الا باتفاق المشيئات» . (نفس المرجع السابق ومعطياته) .

خلقه الله بصورة «كلمة» رسولية موجهة إلى الناس لهدايتهم^(١) . أما أن يكون يسوع المسيح قد ضُبط وحدد بزاوية النظر هذه ، فإن من شأن ذلك ان يكون قد قاد - ثانية - إلى إقصاء المسوغات «الالهية اليسوعية» المستنبطة من «الأساجيل القانونية» والتي تتخذ الكنيسة المعهودة منها منطلقاً مبدئياً ثابتاً لكي تضيفي على نفسها شخصية الهية «لاتقهر ولا ترد» . وهذا تضمن التأكيد الضمني والمفصّل عنه بأن مقولة «الكنيسة جسد يسوع» فقدت مشروعيتها وقداستها ، ومن ثم قدرتها على إلزام المؤمنين بطاعتها والانقياد لها . ذلك لأن الكنيسة المعنية وجدت نفسها ، في هذه الحال وضمن هذا الاعتبار ، أمام مطلب التخلي عن زعمها بتمثيل يسوع المسيح الإله أولاً ، وعن حقها في إلزام «الرعية» بذلك ثانياً .

ولابد - في هذا السياق البالغ الإشكالية اللاهوتية - من تدقيق ما فوهنا به من أن مقولة «الكنيسة جسد المسيح» تجد مصرعها إذا ما قيد المبدأ الأريوسي الى نهايته المنطقية الضرورية . فاذا كان الله واحداً أحداً ، لا شريك له ولا ابن ، ومن ثم اذا كان غير قابل للتجسد في مسيح يُزعم بأنه ابنه ، فإن المقولة المذكورة تغدو أمراً نافلاً و«ضاراً» يجب إقصاؤه عن المسيحية «التوحيدية» المقترحة هذه . وبين أن هذه «النهاية» الشجاعة والحازمة انطوت ، بالضرورة ، على رفض صريح لواحد من أعمدة المسيحية المعنية ، الذي هو «الثالوث المقدس» ، ثالوث الأب والابن والروح . ذلك لأنه حيث تُرفض أبوة الرب ليسوع وبنوة يسوع للرب ، فإن الصلة المباشرة بين الفريقين تسقط لصالح رب متميز في ربوبيته ومسيح ليس إلا مظهراً من مظاهر فعل الخلق الذي ينجزه ذاك ويأمر به .

ولعله من خصوصية الموقف وحساسيته أن مجابهة الأريوسية المباشرة والحاسمة انطلقت من الاسكندرية نفسها ، أي من بلد اريوس نفسه . ذلك لأن السلطة الكنسية الرسمية (الدولية) كانت قادرة - بوسائل رادعة متعددة وعنيفة - على الإمساك والاحاطة بقبضة حديدية بالمسار العام للتحويلات الكبرى والصغرى ، التي طرأت على «مسيحياتها البابوية» . هاهنا ، يبرز معطيان اثنان لها من الدلالة الدينية العقيدية والتاريخية التراثية ما يتيح لنا أن نكتشف عبرهما مفاتيح مفصلية

(١) انظر ادمون رباط - المسيحيون في الشرق ، نظرة سريعة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

١٨ ؛ وكذلك : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums a.a. O., S. 189.

هامة في حقل الصراع بين الطرفين المعنيين . المعطى الأول تمثل في وجود الكاهن المصري والخصم الأكبر لأريوس ، وهو أثناسيوس (٢٩٥ - ٢٧٣) . أما المعطى الثاني فنلاحظه مجسداً بشخص الامبراطور قسطنطين بصفته القوة السلطوية السياسية ، التي رفعت السلاح بعنف وصلابة ضد عدوتها الاسكندرانية الهرطقية المهددة . إن تينك القوتين تشابكتا تشابكاً بنيوياً ووظيفياً مصلحياً ، بحيث تمكنتا ، حقاً وعلى مدى فترات متتالية ، من أن تضغطا على الأريوسية في عقرب دارها وتحاصراها حصاراً مشدداً منهكاً ، بحيث أوصلاها - بعد حين - إلى ما يقترب من الانهاء والتصفية . وقد كان هذا الذي جرى التوصل إليه بمثابة تحذير لـ « الآخرين » ، الذين كانوا ينظرون الى الكنيسة الأم بعين الهرطيق المتحفز لفعل شيء ما .

فلقد جرت الدعوة الخبيثة إلى عقد مجمع مسكوني لمحاكمة تلك « الهرطقة المبتدعة » بصورة رسمية علنية ، وعلى نحو يمنح الموقف صفة مسيحية شرعية لا لبس فيها تجاه المؤمنين . وكان ذلك قد حدث في مدينة نيقية - في شمالي غربي آسيا الصغرى - عام ٣٢٥ ، حيث ترأس المجمع الامبراطور قسطنطين نفسه وبشكل مباشر . فلقد أولى هذا الأخير أهمية خاصة استثنائية لمحاكمة الأريوسية ، التي تحولت إلى ظاهرة دينية ايديولوجية وشبه سياسية تهدد مصالح الامبراطورية . إضافة الى ذلك ، نستنبط من ظروف الدعوة للمجمع المذكور وعقده بالصيغة المذكورة خطأ متصاعداً باتجاه مزيد من الاندغام بين السلطتين « الزمنية » و « الروحية » . ومن هنا ، فالتناظر في المجمع المعني تعبيراً عن وجهين اثنين هامين لوضعية واحدة . أما الوجه الأول فيتمثل في ذلك التطور النوعي لعملية الاندغام بين السلطتين المذكورتين ؛ في حين أن الوجه الآخر يفصح عن نفسه من حيث هو تعبير عن أن الأريوسية شكلت تياراً كبيراً يحمل الكثير من مقومات التهديد للتماسك الكنسي السلطوي وللتماسك السلطوي الكنسي . وينبغي أن نشير ، هنا ، إلى أن المجمع النيقاوي المعني سبق بمجامع اقليمية عقدت لتؤمّن رأياً عاماً وشبه شامل ضد الأريوسية^(١) ؛ مما يفصح عن أن المبادرة الرئيسية كانت ، من حيث الأساس العام ،

(١) قبل الدعوة إلى المجمع النيقاوي ، بذلت جهود كبيرة من قبل خصوم الأريوسية وبرعاية من « الكنيسة الأم » لانهاؤها ، بحيث يأتي ذلك المجمع صيغة أخيرة لعملية التكريس القطعي للمبادئ =

في أيدي خصوم الأريوسية المنتشرين على امتداد المناطق التي تسيطر عليها السلطة المركزية .

كان اثناسيوس قد امتلك قيادة الموقف العقائدي اللاهوتي ، بحيث تمكن هو ومن في صفه من قادة السلطتين المنزهة بهما آنفاً ، وعلى رأسهما الامبراطور قسطنطين نفسه - من الاطاحة بالأريوسية والاقرار بـ «الثالوث المقدس» بصفته المبدأ المسيحي الأعلى الملزم رسمياً وشعبياً . وهذا يعني أن الخط الاثناسيوسي هو الذي هيمن في المجمع والذي أصبح يدعى بالخط «الارثوذكسي» ، أي خط «العقيدة المستقيمة» . وجدير بالقول أن هذا الخط هو الذي جعل من المسيحية الصيغة الرسمية المعترف بها من قبل معظم المقاطعات المسيحية^(١) . وإذا ما وضعنا المبدأ الأول للاثناسيوسية باعتبارنا ، وضح أن الموقف قام ، من حيث الأساس ، على التأكيد على وجود «الابن» ، أي «الكنيسة» ، التي هي «جسد» هذا الابن^(٢) . ووجود الابن هذا مقرر به بصفته ابن الرب منذ «بداية الدهور» ، كما أن وجود الرب مقرر به بمثابته الأب ، أب الابن يسوع ، كذلك ، «منذ بداية الدهور» .

= التي طرحها اثناسيوس . من ذلك ، على سبيل المثال ، المجمع الاسكندري الذي اعلن ادانته للعقيدة الأريوسية والذي قطع أريوس وأسقفين وستة قساوسة وستة شمامسة . وفي أثناء كل الحوارات (الادانات) التي دارت حول أريوس في هذا المجمع ، كان خصومه قد اخوا على رأيهم بولادة الابن من الاب قبل كل الدهور وبمساواة الابن للأب في الجوهر . (انظر : اسد رستم - كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٩٣ - ١٩٩) .

(١) انظر حول مجمع نيقية مع المقارنة : ادمون رباط - المسيحيون في الشرق قبل الاسلام ، نظرة سريعة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٨ ؛ فيليب حتي - موجز تاريخ الشرق الأدنى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٤ ؛ وكذلك وبشكل خاص المرجع التالي الذي نجد فيه تفصيلاً حول المجمع المذكور :

Martin Robbe- Der Ursprung des Christentum a.a.O.,S. 190- 192.

٢- حول ما اعلنه أريوس وما نتج عن مجمع نيقية من نتائج دينية ، يكتب المؤرخ الاسلامي ابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابي بكر احمد الشيرستاني (٤٧٩-٥٤٨هـ) دأبي في كتبه الشهيرة (الملل والنحل - الجزء الأول ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، طبع ١٩٦١ - ع ٢٢٢) :

«ولما قال أريوس : القديم هو الله ، والمسيح هو مخلوق ، اجتمعت بصرقة وصداة ولاساقفة في بلد قسطنطينية بمحضر من ملكهم ، وكانوا ثلاثمائة وثانية عشر رجلاً . واتفقوا على هذه الكلمة =

إننا إذ ننتقل من تلك الوضعية الهامة جداً بالنسبة إلى التحول النبوي والوظيفي للمسيحية اليسوعية ، نجد ما يدعونا إلى أن نشكك في مصداقية وجهة النظر التالية ، التي يأخذ بها عدد غفير من الكتاب والباحثين ، ناهيك عن اللاهوتيين والمؤمنين : ان «القوة الدينية الذاتية» للمسيحية المذكورة هي التي جعلت قادة وسادة الامبراطورية (بدءاً من القرن الرابع) يخضعون لها ، ويقرون بهيمنتها ، ويعترفون لها بالحكمة والعظمة الخ . . . ، تعبيراً عميقاً و«متواضعاً» عن الاعتراف بـ «سمو المبادئ» ، التي نادى بها ورفعت ألويتها^(١) . ان خطئ وجهة النظر هذه يكمن في أن أولئك القادة والسادة الامبراطوريين - وعلى رأسهم

= اعتقاداً ودعوة ، وذلك قولهم :

(نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء ، وصانع ما يرى وما لا يرى ، وبالأبن الواحد يسوع المسيح ، ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها ، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع ، اله من اله حق ، من جوهر ابيه الذي بيده اتقنت العوالم ، وخلق كل شيء من أجلنا ، ومن أجل معشر الناس ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار انساناً ، وحبل به ، وولد من مريم البتول ، وقتل وصلب أيام فيلاطوس ودفن ، ثم قام في اليوم الثالث ، وصعد الى السماء وجلس عن يمين أبيه . وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ، ونؤمن بروح القدس الواحد ، روح الحق الذي يخرج من أبيه ، وبعمودية واحدة لغفران الخطايا . وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية ، وبقيام أبداننا ، وبالحياة الدائمة أبد الأبدين) .

هذا هو الاتفاق الأول على هذه الكلمات ، وفيه إشارة الى حشر الابدان .

وقد أورد أسد رستم تلك «الكلمة» النيقاوية في اطار ما أطلق عليه «قانون الايمان النيقاوي» ، الذي يتطابق ، جوهرياً ، مع النص الذي اورده الشهرستاني . (انظر: أسد رستم - كنيسة مدينة الله انطاكية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣) .

(١) يكتب امبيروجيوس ، من هذا الموقع ، مايلي : «ولم يستطع أي امبراطور بيزنطي أن ينتصر على الكنيسة . . . الذي انتصر دوماً في النهاية على الأباطرة المعاندين هو الايمان الارثوذكسي القويم» . (اسبيروجيوس : رد على أبحاث حول العلاقة بين المسيحية - واليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٦) . ونلاحظ مثلاً لهذا الموقف أو ما يقترب منه لدى مجموعة ليست ضئيلة من الباحثين (واللاهوتيين بطبيعة الحال) . انظر حول ذلك ، مثلاً : الاستاذ الحداد - القرآن دعوة «نصرانية» - ضمن سلسلة (في سبيل «الحوار الاسلامي المسيحي») ، بدون تاريخ ومكان الاصدار ، ص ٦٤ .

قسطنطين - إذ تبنا المسيحية ، فإنهم عملوا ، من حيث الأساس والعمومي ، على أن يأخذوا منها ما يتواءم مع احتياجاتهم ومطامحهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ومن ثم ، فقد لجأوا إلى إخضاعها لجملة من التدابير السياسية والدينية والتنظيمية (في طليعتها مجمع نيقية المسكوني ذاته) ، التي احدثت فيها من التحولات البنيوية والوظيفية ما جعلها في الحالة المناسبة ، أي التي تستجيب منها لتلك الاحتياجات والمطامح . وهذا ما يمكننا أن نستنبطه ، جزئياً وبكثير من الدقة المنهجية ، من الإشارة التي طرحها فيليب حتى على هذا الصعيد ، حيث قال : «كان على المسيحية أن تصبح رومانية بروحها قبل أن تتمكن من جعل الرومان مسيحيين»^(١) .

وفي واقع الحال التاريخي ، أصبحت المسيحية «رومانية» ، حيث مُنحت وظيفة سياسية محددة وحيث تم ذلك في ضوء وضعية بنيوية معينة خضعت لها هذه العقيدة في مجمع نيقية ، خصوصاً . أما تلك الوظيفة فقد انشعبت إلى شقين اثنين يتمايزان بعضهما بعضاً ؛ الأول منها هو الحفاظ على وحدة الامبراطورية السياسية تحت سيطرة محكمة للمركز الامبراطوري ؛ أما الشق الثاني فقد كمن في تقديم الطريقة الايديولوجية (الدينية) المناسبة والناجعة لتكريس الهيمنة الطبقية والاثنية الرومانية على شعوب الامبراطورية الواسعة والهيمنة الاجتماعية الطبقية على الطبقات الدنيا وبعض شرائح الطبقة الوسطى في المجتمع الروماني نفسه . ومن هذا الموقع

(١) فيليب حتي : مرجع تاريخ الشرق الأدنى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٢ . ونشير إلى أن الباحث المذكور يوضح رأيه السابق بالاعتبار السياسي ، فيكتب في كتاب آخر له (خمس آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٠٥) مايلي : «اعتراف قسطنطين الرسمي بالمسيحية وسماحه لها بالنمو والتقدم كان بمثابة اعتراف أيضاً بأهمية العناصر المسيحية السياسية بين السكان» .

انظر حول ذلك أيضاً : Martin Robbe - Der Ursprung des Christentums, a.a.U.S.192. وإذا كان الأمر على هذا النحو من الوضوح ، لم يعد هنالك أية قيمة تاريخية للرأي التالي : «ولم يكن الامبراطور البيزنطي رأس الكنيسة . . . ولم يستطع أي امبراطور بيزنطي أن يتصر على الكنيسة . . . الذي انتصر دوماً في النهاية على الاباطرة المعاندين هو الايمان الارثوذكسي القويم» . (اسبير وجبور : رد على ابحاث حول العلاقة بين المسيحية - واليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٦) .

المركب والمعقد ولكنّ المثين ، نشين أحد تلك العوامل العميقة «الخفية» ، التي كمنت وراء انتصار اثناسيوس المدوي في مجمع نيقية المسكوني ، الذي استظل فيه اثناسيوس بظل بطل الدعوة للمجمع ، أي الامبراطور قسطنطين . فانتصار اثناسيوس هذا كان ، حقاً ، انتصاراً لتلك المهمة «الامبراطورية» المزدوجة ، حتى وإن حدث لاحقاً ما أضعف ذلك بالنسبة إلى موقع اثناسيوس منه (ونعني بذلك بروز عوامل جديدة جعلت من الاثناسيوسية تياراً دينياً «وسياسياً» لا يُطمأن له تماماً من قبل القيمين على السلطة الكنسية والسياسية المركزية) .

ان ما تقصيناه من خلال البحث المكثف في وجهتي نظر آريوس واثناسيوس يسمح لنا أن نصوغ ما نرى أنه جماع القول في ذلك : كان الصراع الخفي أولاً والصريح المعلن لاحقاً بين الكاهنين المصريين صراعاً معقداً وغير متكافئ على المصائر السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتطور العقيدة المسيحية اليسوعية في حلقتها الكبرى ، الثالوث المقدس . فتلك الحلقة العقيدية وجدناها ، في ظروف سياسية محددة ، ذات بعد سياسي واضح المعالم وذات نتائج سياسية هامة تقود إما إلى الاقرار بمشروعية الكنيسة السلطوية بحيث تكون سيدة الموقف ، وإما إلى رفض ذلك ، ومن ثم إلى المطالبة باحترام الاستقلالية السياسية الوطنية والعقيدية الدينية للكنائس المحلية . لقد أسقط آريوس ذلك «الثالوث» ، واسقط معه عقيدة المسيح الالهي ، أي المسيح الذي جعل منه منطلقاً عقيدياً ذرائعاً لاقامة الأسس الكبرى للكنيسة الدولية . وبهذا ، فقد أعاد آريوس بناء الموقف المسيحي ، العقيدي اللاهوتي والخلاصي الانساني . لقد فعل ذلك على نحو يبرز فيه يسوع المسيح ، بكل تواضع وبكل بساطة ، مظهراً من مظاهر الخلق الالهي ، مُطاحاً به - على هذه الطريق - بمثابته ركناً بنوياً جوهرياً في الوجود الالهي . ولقد تعين على ذلك أن ينتهي الى القول بأن يسوع وُجد في البعد أولاً ، وليس في القبل . فليس من مقوماته - والحال كذلك - أن يكون ذا وجود متوازٍ مع الوجود الالهي ومتداخل به . وبالتالي ، يمكن القول ، كنتيجة منطقية ضرورية مستنبطة من وجهة النظر الأريوسية ، بأن الوجود اليسوعي المسيحي لا يمكن أن يوضع في مستوى واحد مع الوجود الالهي لا في الذات ولا في الزمان ؛ فهما وجودان متغايران متمايزان بنوياً (ذاتياً) وسياقياً (تاريخياً تراثياً) .

وحيث يكون الوضع هكذا ، فإن الموضوعة الانجيلية البولسية القائلة بيسوع من حيث هو الحمل المذبح منذ بدءا العالم ، يطاح بها ضائياً وبحزم لصالح يسوع رسولي بُعث ليبلغ - بكل تواضع وبساطة في شخصه المباشر وبالطرق البشرية - كلمة الرب الاله . وهذا يجد تعبيره الاجتماعي العقيدي المشخص في الموقف الخلاصي الذي يترتب على رفض الموضوعة الانجيلية المذكورة ، ذلك الموقف الذي تُتنزع بموجبه المبادرة الخلاصية من يسوع الهى ، لتوضع في يد الرب الاله الذي يعهد بها ، هو وحده ، ليسوع المسيح الانسان . ولا شك أن ذلك ، مجتمعاً ، يعثر «الأوراق» العقيدية والسياسية وغيرها ، تلك التي كانت بحوزة الكنيسة الرسمية (الدولتية) ، ليجعل منها سلاحاً ماضياً في أيدي المعارضة الدينية الهرطقية ، تشهره في وجه الكنيسة إياها وفق المواقف والأحوال الناجمة عن طبيعة الصراع بينها وبين «المركزيين» ولواحقهم في المقاطعات الامبراطورية .

ان اللحظة الديمقراطية المباشرة تكاد تعلن عن نفسها ، بقوة وتفاؤل وثقة ، في ذلك التصور اليسوعي المسيحي الخلاصي . فالرسول ، بما هو انسان ومن موقع كونه انساناً، تُناط به مهمة الخلاص الانساني ؛ مع العلم - والتشديد على ذلك - أن هذا يتم بمعزل عن «جسد كنسي يسوعي» مزعوم يرى القائمون عليه والمتحدثون باسمه أن من حقهم تسنم تلك المهمة . بل أكثر من هذا ؛ فإذا كان مثل ذلك «الجسد» موجوداً حقاً ، فإنه - في هذه الحال - يمثل وضعية زائفة وغير مشروعة ، ومن ثم باطلة ، أي غير يسوعية مسيحية . ومن ثم ، فإن مجابتهها واسقاطها بكل الوسائل والامكانيات المتاحة يغدوان من مقتضيات الخلاص المسيحي الحقيقي ذاته . وها هنا بالضبط ، نتبين الخيوط الكبرى وغير المباشرة والخفية - في غالب الأحيان بالنسبة إلى شطر كبير من الجمهور الذي وقف إلى جانب آريوس - التي كمنت وراء اعلان «الحرب المقدسة» ضد «الشيطان» الكنسي ، الذي لا ينطلق من مواقف معادية للرب فقط ، بل يعمل بقوة على فرضها على الآخرين من المؤمنين . نضيف إلى ذلك أن الأريوسية اتخذت هذا الموقف الصراعى الحاد من الكنيسة ، لأن هذه الأخيرة دفعت بها دفعاً بهذا الاتجاه . فهي (الكنيسة المعنية) أبت - وهو مفهوم بذاته ضمن معطيات الوضعية في روما والامبراطورية - أن تعترف بوجود «رأي آخر» في حقل سيادتها وسيطرتها ، بحيث قاد ذلك إلى غياب وضعية التسامع الكنسي ازاء

«الرأي» المذكور . وبالمقابل ، نجد أنفسنا أمام وجه آخر من اللحظة الديمقراطية المأثني عليها فيما سبق ؛ ذلك هو التسامح الديني العقيدي في الأريوسية تجاه خصومها في العقيدة الدينية والمواقف السياسية . ان هذا يبقى هاماً حتى حين نضع في اعتبارنا أن الأريوسية لم يكن بوسعها وطاقتها أن تفعل غير ذلك ، لأنها كانت في موقف المستضعف . ولكننا اذا ما بقينا في حدود المستوى العقيدي الذهني الأريوسي ، فاننا نلاحظ أن موقف التسامح ذاك يمثل وجهاً من أوجه هذا الأخير .

لقد سقط المشروع الأريوسي تحت وطأة المعطيات والنتائج التي ترتبت على المجمع النيقاوي المسكوني سقوطاً مدوياً ، مفسحاً الطريق كاملة أمام المشروع الاثناسيوسي . فلقد كان هذا الأخير يمتلك العناصر الضرورية المناسبة لايدولوجيا الدولة (الامبراطورية) ، التي ظهر أنه من احتياجات بنيتها الداخلية ووظائفها السياسية والاقتصادية والدينية التنظيمية أن يكون على رأسها البابا (الحبر الأعظم) والامبراطور بصفتها وجهين متضايقين لموقف واحد ، وجه السلطة الحامية للعقيدة الرسمية القويمة (الارثوذكسية) ، ووجه العقيدة الرسمية القديمة المباركة للسلطة السياسية السائدة .

ومن الجدير بالتدقيق والتحليل ، حقاً ، التلازم بين ذينك الوجهين المذكورين من موقع المقررات التي صدرت عن مجمع نيقية المسكوني نفسه . فلقد كنا قد أوردنا نص «الكلمة النيقاوية» أو «قانون الايمان النيقاوي» ، الذي توج أعمال المجمع المذكور ، وقمنا - في ضوء ذلك - بتقصي الموقف الأريوسي بمثابته نقيضاً للموقف الاثناسيوسي . ويتعين علينا ، الآن ، أن نتعقب الحكم السياسي المترتب على ذلك الحكم اللاهوتي . فمن الطريف أن الآباء الذين اجتمعوا في المجمع المذكور بقيادة الامبراطور واصدروا قانونهم ذاك ، ألحقوا به الاضافة الخطيرة التالية ، التي تستحق أن يُنظر اليها على أنها ، بالأصل ، هي الموقف الذي صادر عليه اولئك قبل انعقاد مجملهم . في هذه الاضافة ، نقرأ مايلي : «أما أولئك الذين يقولون انه كان زمن لم يكن فيه (يسوع المسيح) وانه لم يكن قبل ان يولد وانه صار من العدم أو من أقنوم آخر أو جوهر آخر أو ان ابن الله مخلوق أو متغير أو متحول فهو لاء جميعهم تفرزهم الكنيسة» . ويخبرنا أسد رستم ، تعقيباً على ذلك ، أن الآباء حرموا «آريوس واتباعه فأيدهم قسطنطين في ذلك وحكم على آريوس بالابعاد

والنهي»^(١) . وإذا أثبتنا ذلك كله بما جاء في القانون السادس من نتائج المجمع النيقاوي ، فإن الصورة العقيدية السياسية تغدو أكثر وضوحاً وإفصاحاً على صعيد الموقف المعني .

فلقد طالب القانون المذكور بأن تكون السلطة في مصر وليبية والمدن الخمس لاسقف الاسكندرية لأن هذه العادة مرعية الاجراء للأسقف الذي في رومة أيضاً»^(٢) . وكما نلاحظ ، فبحسب هذا وذلك ، لا سبيل إطلاقاً إلى مغالبة السلطة المقدسة ؛ ومن يحاول ذلك ويجرؤ عليه ، فإنه يكون قد اتخذ موقفاً ضد «الرب الاله والرب الابن والروح القدس» أي ضد «جسد يسوع المسيح» ممثلاً بكنيسته الجامعة»^(٣) . وهذا ما ينبغي أن يعني شكلاً من أشكال الحرمان أو القلع أو الملاحقة أو التنكيل الخ . . . يتعرض له صاحب الموقف الى ان يغير رأيه ويتبنى الرأي الارثوذكسي «المستقيم» ، أو أن يذهب الى حيث لا عودة .

(١) أسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٠٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٢٠٥ .

(٣) من الطريف المعبر أن نحيط جزئياً بكيفية انعقاد المجمع النيقاوي المسكوني وبعض ما أحاط به من ظروف تظهر طبيعة تبعية الكنيسة بالسلطة السياسية المباشرة . فلقد «اجتمع الآباء الأجلاء . . . في بهوكبير من البلاط وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم الى اليمين وإلى اليسار وبناتوا ينتظرون وصول الامبراطور منصتين . ثم اعطيت الاشارة بوضوئه فانتصبوا احتراماً واجللاً . ودخل قسطنطين بالارجوان والذهب ووراءه بعض أفراد الحاشية من المسيحيين . ولما وصل الى المكان الذي اعد له شاء الا يجلس قبل جلوس الاساقفة . وأمرهم بذلك فامتلأوا . . . وتوسط الامبراطور مجلس الآباء على كرسي من ذهب . . . وذكر بعد ذلك أنه بقدرته (الملك المخلص) تمكن من القضاء على الطغاة الذين قاوموا الله . وأكد أنه يعتبر كل شغب في داخل الكنيسة مساوياً في الخطر لحرب كاملة . . . وختم المجمع أعماله في التاسع عشر من حزيران السنة ٣٢٥ . . . فدعا الامبراطور الاساقفة الى مأدبة كبيرة في قصره . . . وقدم لهم الهدايا كل بقدر استحقاقه وأمر بتوزيع الخنطة على الكنائس لسد رمق الفقراء والمساكين» . (نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٢٠١ - ٢٠٥) .

ومن الدال أن نحيل هذا الشاهد الوثائقي التاريخي إلى الأب اسبير وجبور ، الذي قرأنا في موضع سابق ما أوردناه عنه من أن الامبراطور لم يكن له علاقة بـ «الرأس الكنيسة» . ونضيف ، الآن ، أن ما أعلنه - في نفس المكان (انظر: رد على أبحاث حول العلاقة القائمة بين المسيحية -

وعلىنا أن نشير إلى أن المشروع الأريوسي ، رغم ذلك كله ، لم يسقط جذريا وعلى نحو شامل في مصر . أما الأسباب التي كمنت وراء ذلك فلعلنا نستطيع أن نعزوها إلى أن التيار المذكور لم يكن موقفاً عقيدياً دينياً ، فحسب . فلقد كان - بالإضافة الى ذلك وفي سياق ذلك - موقفاً سياسياً وطنياً وإتنياً تخرقه اتجاهات ومطامح اجتماعية طبقية خاطب عبرها الاحتياجات الملحة ، في حينه ، للمصريين خطاباً مباشراً^(١) . ان هذا المعطى يسمح لنا أن نفهم الدور المزدوج والهام الذي مارسته السلطة الامبراطورية المركزية إزاء الكنيسة المصرية . فبعد انتصار اثناسيوس هناك ، ذلك الانتصار الحاسم الذي كرسه مجمع نيقية المسكوني وعمده الامبراطور قسطنطين بمباركته له ، أخذت السلطة المذكورة ذاتها تبدي مخاوفها وتحفظاتها حيال نفوذ اثناسيوس الأخذ بالاتساع بعد أن حقق سيادته الدينية السلطوية . ذلك لأن دعم الكنيسة المركزية والامبراطور له ظهر من حيث هو موقف ذرائعي قصد منه تصفية «الخصوم الهراطقة» ، أي أولئك الذين يضعون وجود الكنيسة «جسد المسيح» موضع شك يؤدي الى التشكيك بمشروعية الدولة الطبقية القابعة خلفه وأمامه وحواليه . فكانت (أي السلطة المذكورة توتاً) تعمل ، والحال

= واليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً) من أن الذي انتصر دوماً في النهاية على الباطرة المعاندين هو الايمان الارثوذكسي القويم ، ومن أن الامبراطور البيزنطي لم يكن أكثر من «شماس» بالترتيب الكنسي ، ان هذا وذاك يتهافتان أمام الوقائع التاريخية . فـ «الايمان الارثوذكسي القويم» هو - بالأصل - الاتجاه الذي انتصر في المجمع النيقاوي وقاده اثناسيوس الكاهن المصري ، أي ذلك الرجل الذي سيسقط تحت وطأة الملاحقة والنفي لأنه «عجراً» على رفض الأوامر المركزية الصادرة إليه من المركز الامبراطوري نفسه ، كما سيمر معنا بعد قليل . أما ان الامبراطور البيزنطي لم يكن الاشياء ، فهذا ما يتقضه ما أوردناه ، توتاً ، في مجال مجريات مجمع نيقية ودور ذلك الأخير فيه .

(١) يكتب اسد رستم (نفس المرجع السابق ومعطيته - ص ١٩٦) مؤرخاً للوضع الشعبية ، التي استقبلت قرار الاسكندرية برفع الحرم الذي وضع على أريوس ، مايلي بصيغة تنم عن احتقار المؤلف (رستم) لتلك الوضعية احتقاراً طبقياً نخبويّاً : «فتسلح أريوس بهذا القرار وعاد وجماعته الى الاسكندرية ونظم الأغاني والأهازيج وعممها فحفظها أناس من جميع الطبقات وتغنوا بها . وسرت العدوى الى السفلة فاندفعوا يرددون هذه العبارات في الأسواق والشوارع والبساتين وأماكن اللهو» .

كذلك ، على أن تظهر كما لو أنها تبدي بعض العطف على الأريوسية بهدف التخفيف من نفوذ وغلواء الاثناسيوسية^(١) . ويبدو ، حقاً ، أن الأمر أخذ يستفحل عمقاً وسطحاً حين أخذ اثناسيوس نفسه يرفض الأوامر المركزية الصادرة إليه من الأباطرة ، مؤكداً - بذلك - على حدا من الحفاظ على الاستقلالية في التفكير الديني والسياسي الوطني ؛ فكان ذلك - بدأ بيد مع عوامل وبواعث أخرى - مدعاة لعزله ونفيه مراراً ، حيث مات أخيراً وهو ملاحق منفي من قبل أولئك الذين جعلوا منه شعاراً كبيراً في المجمع النيقاوي المسكوني .

ومما هو جدير بالذكر والاهتمام البالغ أنه ربما كان الظن صحيحاً بأن الفريقين المصريين الأريوسي والاثناسيوسي ، اللذين دفع بالعداء بينهما إلى الأوج من قبل السلطة الكنسية المركزية ، وجداً ، ولو ضِعماً ، أنهما يلتقيان ، على الأقل ، في نقطة واحدة كبرى ، هي مواجهتهما للإمبراطور البابوي والبابا الإمبراطوري ؛ مع العلم أن حدود نقطة الالتقاء هذه كانت - في حالات أخرى - قد اتسعت أزاء الكنيسة في انطاكية ، التي كانت ، بدورها ومن طرفها ، تشعر بالغبن من قبل روما^(٢) . وبالطبع ، بوسعنا أن نستنتج ، والحال كذلك ، أن محاولة روما إضعاف الاثناسيوسية خوفاً من اتساع نفوذها ، كانت تعود بالشار لصالح ذلك الالتقاء ، وإن على نحو غير مباشر ومن موقع مستقبل . ولعل ذلك يلقي بعض الضوء على ما يمكن اعتباره بعض تراجع عقيدي لاهوتي لدى الأريوسيين . فلقد أخذ ذلك بالظهور في المجمع الذي عقدوه في انطاكية عام ٣٤١ ، والذي وصلوا فيه إلى نتائج

(١) انظر مع المقارنة : فيليب حتي - خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٩٦ .

(٢) لاحظنا أن «البدعة» التي أعلنها بولس السعيساطي في انطاكية كانت ، في أفقها السياسي الدلالي ، تمثل ما مثله «البدعة الأريوسية» . إضافة إلى ذلك ، نشأت حركة تضامناً صريحة ومباشرة من قبل الكثير من مسيحيي الشرق العربي المضطهد من روما مع آريوس في محنته . ومما يذكر ، على هذا الصعيد ، أن آريوس نفسه كان يعتز «بعلمه وبالأساقفة خارج مصر الذين أخذوا عن لوقيانوس المعلم الانطاكي وقالوا اقوالاً مماثلة . . . وتجاوزت البدعة من آريوس وزمرته إلى غيرهم فانتشرت في سبتها الأولى في جميع الأوساط المسيحية في الشرق» . (أسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٩٤ ، ١٩٦) .

من شأن بعضها أن يكون تشكيكاً في نقطة حاسمة من نقاط المجمع النيقاوي ، وأن يكون في نفس الحين اقتراباً أولياً من الاثناسيوسية . ففي المجمع المذكور «وضعوا دستوراً للآيمان قريباً من الدستور النيقاوي ولكن حذفوا منه عبارة (مساوٍ للآب في الجوهر) . في هذه المرحلة من النضال الأريوسي أكد اتباع هذه البدعة ألوهية الابن الكلمة ولكن لم يقرّوا صراحة بمساواته الآب فكأنهم اعتبروا ان الأقانيم الثلاثة متفارقة بالرتبة والمنزلة»^(١) .

وإذا كان الأريوسيون قد وجدوا أنفسهم أمام ضرورة القيام بمثل ذلك التراجع «العقيدي» ، فإنهم ظلوا يلحون على موقفهم من الاستقلالية العقيدية (والسياسية والاقتصادية ضمناً وعلى نحو غير مفصّل عنه) تجاه روما . ان ظروف الضغط والاضطهاد والفسر جعلتهم يبحثون عن طرق واقنية «تحت الأرض» ينطلقون منها إلى جمهور المؤمنين ، الذين احتضنهم في أيام المحنة الكبرى حيث وجدوا فيهم المدافع عن أحلامهم في الخلاص . وهذا ما فتح أبواباً واسعة أمام تصاعد ظاهرة «التقية» ، يلجأ إليها من فقد الأمل في حدّ ما من حرية التعبير الديني العقيدي والسياسي . وقد نقول ، تعميقاً لفهم خطوة التراجع المعنية ، ان هذا التراجع العقيدي نفسه لم يؤثر ، كلياً وعموماً ، على موقفهم المركزي من مقولة «الكنيسة الأم جسد يسوع المسيح» .

فهذا الموقف ظل ، في نهاية الأمر وعلى نحو أو آخر ، يرفض أن تكون تلك المقولة السيد الأمر الناهي على صعيد الممارسة المسيحية اليسوعية ؛ كما ظل يتحرك من موقع الطموح الكبير إلى الحفاظ على استقلالية التفكير ضمن حدود تصورات عقيدية سياسية عامة .

ان ذلك ، مأخوذاً في سياقه التاريخي والتراخي السياسي ، يضعنا أمام معطى خصوصي وهام على صعيد البحث في المسألة «المهرطقية» ؛ ذلك هو أن المسيحية الشرقية في مصر بقيت ، حتى في أكثر أشكالها ولاءً للامبراطورية واقتراباً منها ، محكومة بلحظتين اثنتين كبيرتين وثابنتين بحدود ضرورية . اللحظة الأولى تمثلت بالبحث في العقيدة نفسها عن منافذ واقنية «مشروعة» ، تنطلق منها في عملية تأويلها

(١) الآب بطرس صموئيل تاريخ الموارنة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٤ .

لها (أي للعقيدة) ، وذلك على نحو يتناسب ويتوافق ، داخلياً مع البنية الدينية - والثقافية بصورة عامة - القائمة هناك . وقد قاد هذا الأمر إلى عملية واسعة النطاق ومتعددة الصيغ من التأويل اللاهوتي العقلي (الكلامي) ، الذي وصل - في حالات عديدة - إلى مراحل الصراع اللاهوتي الذاتي والسياسي والعسكري . أما اللحظة الثانية فقد اتضحت في النزوع إلى الاستقلال السياسي عن الامبراطورية ، وفي مواجهة الاستغلال الاقتصادي الذي مارسته هذه الامبراطورية حيال مصر ، بطبقاتها وفئاتها الاجتماعية المختلفة ما عدى الفئة المتواطئة والمتحالفة ضمن الطبقة العليا مع روما . وهذا هو ، بالضبط وبصورة مبدئية ، ما يجعلنا نتحدث عن المسألة المعنية ، هنا ، والمجسدة باللحظتين المأثري عليهما بمنابتها تعبيراً شديداً الأهمية والدلالة العقيدية النظرية والسياسية عن الطموح الدفين والمعلن إلى تكوين كنيسة وطنية عقيدةً ولغةً وسياسةً تنظيميةً . وكما هو بين ، فإن ذلك الطموح شكل ، في حينه ، ما يقترب من «برنامج إصلاحى سياسى ودينى» إن لم يتحقق فإنه ظل يمثل رصيذاً كبيراً بالنسبة إلى الحركات الإصلاحية اللاحقة الكبرى والصغرى وفي مناطق متشعبة من «العالم المسيحى» .

لقد ظهر للفرقاء المعنيين أن تحقيق الحد الأدنى من ذلك الطموح الكنسي الوطني تحقيقاً فعلياً مشروط ، على نحو لا شك فيه ، بالخروج عن إطار اللاهوت البيزنطى الأرثوذكسى وعليه ، ومن ثم بالخروج عن الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية وعليهما . ذلك لأن هاتين الأخيرتين - مع الأفق اللاهوتي الذي يحكم توجهيهما الذهني - لا تسمحان ، أساساً وقطعياً ، بوجود المناقشة الحرة ، بدرجة أو بأخرى ، حول مصائر التطور العقيدى والكنسى التنظيمى ؛ بل انهما تواجهان مثل هذه المناقشة - إن وجدت - بالتحريم والاتهام بالزندقة والمهرطقة ، ومن ثم ، إن لم يرعوا أصحابها ، بالحديد والنار . وهذا ، بالضبط ، ما حدث وثبت عبر الممارسات التي لجأت إليها الكنيسة السلطوية (الدولية) .

إن تلك الرضعية تسمح لنا بفهم البواعث والدوافع البعيدة والقريبة ، كذلك ، التي كمنّت وراء محاولات إعادة الاعتبار للقبطية من حيث هي الرد المغوي والعقيدى الوطنى فى مصر على الكنيسة الامبراطورية والسلطة الامبراطورية . ومن هذا الموقع وفي ضوءه ، أيضاً ، نستطيع أن ننظر إلى الأريوسية والانسيسيرسية

كلاهما من حيث أنها خضعتا ، في التحليل الأخير ، لناظم وطني مشترك واحد ؛ بالرغم من اختلاف الكثير من المواقع والتوجهات المشخصة لكلاهما ازاء الأحداث الخارجية التي طرأت على مصر من مواقع وتوجهات متعددة ومتعارضة أحياناً أو أكثر الأحيان .

وإذا كان لنا أن نستنبط بعض الأساسيات في المشكلة المطروحة ، تبين لنا أننا - في هذه الحال - سوف نجد أنفسنا أمام التأكيد بأن الاتجاه الديني الشرقي - والثقافي بصورة عامة - ثبت مواقعه بأشكال مختلفة حقق البعض منها شخصيته عبر الاتجاه الديني الروماني وتحت رايته . ويتصل بذلك أيضاً - وهذا له أهمية متممة للوجه الأول السابق الذكر - أن التيار الاغريقي الهليني كان عليه أن يرتد إلى وراء في مصر وسورية ، حتى ولو كان ذلك قد تم مع الحفاظ على الصورة الاغريقية الهلينية . نعتني بذلك ان الاتجاه المناويء (الهرطقي) كان يجد نفسه ، في أحيان محددة من سياق التقية التي دُفع اليها دفعاً ، مرغماً على أن يلبس لبوس الموقف الكنسي الرسمي نفسه لكي يتحاشى الهجمات المباشرة المدمرة . وحيث كان الأمر على هذا النحو المعقد والمركب ، فإنه يغدو واجباً على الباحث أن يقرأ - في حالات كثيرة - الحدث الهرطقي في ثنايا الحدث الكنسي الرسمي السلطوي ، وأن يتقصى - من زاوية مقابلة - بعض أوجه وجوانب الحدث الأخير في بعض أشكال التقية التي كان على الحدث الأول (الهرطقي) أن يتخذ منها مظلة حماية له يتمكن عبرها من الحفاظ على مواقفه الأساسية دون أن يكون مضطراً لفقدان الكثير منها في مواجهاته الجزئية والكبيرة للخصوم .

ان ما ينبغي التنويه به - في هذه الحلقة مما نطلق عليه «حدثاً مركباً» - هو أنه سوف يكون ضلالاً منهجياً وسطحية منهجية أن نأخذ الحدث الهرطقي أو الآخر الرسمي الكنسي على عواهنه ، دون أن نتوغل في ثناياه وتضاعيفه وإشكالاته ، التي قد تضعنا أمام مواقف غير متوقعة و «مفاجئة»^(١) . وإذا كان الأمر كذلك ، فإننا

(١) الباحث السوفيتي Aaron J. Gurjewitsch يتحدث عما يطلق عليه «الرمزية المسيحية» ، التي تقوم على مضاعفة العالم انطلاقاً من المقولة البولسية التي سبق أن تعرضنا لها ، وهي أن «الحرف» يقتل ، بينما الروح تحيي . ويشير الباحث إلى أن الرمزية المذكورة تعلن عن وجود أربعة تفسيرات للنص المسيحي ، هي (١) الانطلاق من فهم النص في جانبه الوقائعي ، و (٢) النظر الى واقعة واحدة على أنها مشابهة لحدث آخر ، و (٣) البحث في «النص» عن تفسير اخلاقي تعليمي ، و (٤) =

نستطيع الاقرار بأن التيار الاغريقي الهليني ، الذي فرض نفسه لفترة غير قصيرة في مصر ، مثلاً ، كان عليه أن يتراجع من موقع أدواته نفسها ، تلك الأدوات التي جعلت منها المعارضة العقيدية واحدة أو أكثر من أقينتها التي عبرت عليها باتجاه موافقها ومواقفها الخاصة . وقد سار هذا الأمر الصراعى المعقد والمركب الى الدرجة العليا ، بحيث أنه ما إن اطل القرن السابع ، حتى كانت الاغريقية قد توقفت عن الاستعمال^(١) .

وإذن ، لنقل اننا أمام ظاهرة في التاريخ المسيحي (اليسوعي) تستحق ، حقاً ، الانتباه الكبير والمركز ليس لأنها مثلت أحد أشكال المعارضة الدينية الهرطقية فحسب ، وإنما لأنها ، كذلك وبصورة خاصة ، تلقي - في تطورها وتظهرها التاريخي التراثي - ضوءاً ساطعاً على عملية تشكل العالم الذهني الديني في الشرق العربي ، وخصوصاً في منطقة الجزيرة العربية منه . فتلك الظاهرة (ونعني بها الأريوسية) لم تلغ ، بصورة نهائية وقطعية ، تصور «الثالوث المقدس» ، كما ورد في صيغته المعبرة عن الذهنية الشرقية القديمة وفي الأدبيات الانجيلية المسيحية الأولى .

== وأخيراً الانطلاق من أن الاحداث تنطوي على حقيقة اسرارية دينية .
(انظر :

Aaron J. Gurjewitsch- Das Weltbild des mittelalterlichen Menschen, VEB Verlag der Kunst
Dresden 1978, S. 90-91).

ولابد أن يكون واضحاً أننا ، في هذا المعقد من المسألة ، نثير مشكلة أخرى مختلفة عن المشكلة المقدمة في الشاهد الأخير ، وإن كان هنالك ما يورحي بالتقاطع بينهما .

(٢) انظر: ادمون رباط - المسيحيون في الشرق قبل الاسلام ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢١٠ . وجدير بنا أن ننوه ، هنا ، بوجود الكثير من اللاهوتيين المسيحيين ممن يرى في النزاع العقيدى والسياسي بين قادة ومادة الامبراطورية البيزنطية من طرف والفرق المنشقة (الهرطقية) من طرف آخر ، أمراً لا يرقى الى المصادقية التاريخية ؛ ذلك لأن مثل هذا النزاع (الصراع) ، يفتضى ذلك النمط من التنهيج اللاهوتي ، لا يمكن أن يدخل إلى «قلوب المؤمنين» وإلى ما يجمعهم . (انظر مثلاً على هذه الوضعية ما يكتبه اسير وجبور . فهذا الأخير يرى في النزاع المذكور أمراً مختلفاً ومزعوماً ، لأنه لا سبيل الى حدوث ما يتصل به من قريب أو بعيد في اطار النظر الى الكنيسة على أنها «جامعة» . راجع مقالته التي أشرنا إليها في مواضع سابقة : رد على أبحاث حول العلاقة بين المسيحية - واليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦) .

إنها - على العكس من ذلك - حافظت على ذلك التصور ؛ إنما من موقع وحدة الهية تكتسب بعداً إنسانياً وظيفياً . فالمسيح يسوع ، الذي اعتبرته «كلمة الله» التي يفوه بها على نحو الأمر الفاعل أو الفعل الأمر لتحويل ، من طرفها ، إلى رسالة زبانية تهدي الانسانية من ظلماتها ، ان المسيح هذا يظهر منظوراً اليه بمثابته شكلاً وجودياً من أشكال التجسيد الالهي ؛ وإن لم يبرز طرفاً بذاته حيال الرب الاله . بتعبير آخر يأخذ بعين الاعتبار علاقة التضاييف غير التامة بين الاله ويسوع المسيح يمكن القول ، ان «الكلمة الالهية» تظهر بصفاتها الاله ذاته من طرف ، وبصفته تجسيدا له من طرف آخر . وإذا وضعنا في الحسبان ان تجسيد الاله يبرز من حيث هو طرف ثان وان العلاقة بين هذا «التجسيد الالهي» وبين ما يجري التوجه اليه (أي العالم الانساني) تؤدي الى طرف ثالث ، وجدنا أنفسنا أمام «الثالوث مقدس» من طراز مخفف ومن موقع الطرف الأول الذي هو الرب الاله . وبذلك ، تبقى «الآريوسية» قادرة على أن تقدم نفسها أمام المؤمنين على أنها مسيحية يسوعية ، حقاً ، أو على أنها - هي وحدها - الممثلة للعقيدة الصحيحة . وقد لاحظنا أن ذلك لم يقدها إلى الزعم بأنها تنفي امكانية وجود تيارات مسيحية يسوعية أخرى ، بقدر ما كانت تؤكد على حد أساسي من حرية التفكير والممارسة الكنسية والاجتماعية (السياسية) .

ولعلنا نقول بشيء من التعميم ، الذي لا يخلو - بطبيعة الحال - من اجحاف بحق الكثير من التفاصيل والوقائع الجزئية المنضوية تحته والفاعلة على نحو أو آخر : ان «الثالوث المقدس» يظل يعلن عن نفسه حتى في أكثر الأشكال الدينية توحيداً في العالم الذهني الشرقي . وهذا ما ترتب عليه الوصول إلى الموقف في حدوده العقيدية التاريخية النهائية ، وذلك حيث نعلن أن الثالوث المذكور يفصح عن نفسه ، أيضاً ، في الاسلام المحمدي نفسه ، وإن كان ذلك قد تم بصيغ خصوصية ومتميزة خصوصية وتميزاً الوضعية الاجتماعية والتاريخية التراثية التي شب فيها الاسلام وترعرع . وقد نشير الآن ، مستبقين الأحداث ، إلى أننا نلاحظ ذلك في ما أحدثته الآريوسية من تواصل تراثي ملفت بين الذهنية الشرقية القديمة (التوحيدية التثليثية في آن واحد وعلى نحو يستدعي التأمل المعمق) من طرف ، وبين الاسلام المعني من طرف آخر . فلقد استمر وجودها في هذا الأخير استمراراً ملحوظاً ، بعد أن تم القضاء عليها في الكنيسة الرومانية ، من حيث الأساس وكما

تفهم هذه الكنيسة المسألة^(١) .

ونستطيع ، في سياق ذلك وتكميلاً لمعطياته ، أن نلاحظ ما يمكن أن يكون قائماً من تواصل تراثي نسبي بين الأريوسية والاسلام المحمدي من جهة ، وبين التصور اليهودي اليهودي من جهة أخرى . فهو كان قد مثل ، في حينه ، وضعية نموذجية من القلق والتردد والنوسان بين الكلية والجزئية ، بين العالي والمحاشية ، وأخيراً بين التجريد والتشخيص ، بحيث ظهر أنه ينطوي على احتمالات متعددة وباتجاهات مختلفة . وجدير بالقول أنه لا يصح - في هذه الحال - الانطلاق من أن أحد تلك الاحتمالات والاتجاهات انتصر على الأخرى وحسم الموقف لصالحه . إن الأخذ بذلك المنطلق من شأنه أن يغفل كلية اللوحة اليهودية المتراكبة . ومن ثم ، نستطيع أن نعلن ، بدلاً من ذلك ، أن تلك الاحتمالات والاتجاهات جميعاً ظلت تعلن عن نفسها في «يهوه» وفي التحولات الدينية البنيوية والوظيفية اللاحقة . إن هذا الاقرار يظل ، في الخط العام الاجمالي ، صحيحاً ووارداً حتى حين نتيقن أن أحد تلك الأخيرة (الواحد أو الكثير أو الواحد الكثير أو الكثير الواحد) يمتلك رجحاناً وتماسكاً وشمولاً أعمق وأكبر من غيره ووفق احتياجات التطور الاجتماعية والسياسية والثقافية عامة .

ولابد أن نشير ، أخيراً ، إلى أننا إذ نضع تلك المعطيات في اعتبارنا ، فإنه يغدو مفهوماً أن الاثناسيوسية وإن بدت منتصرة على الأريوسية في اعقاب المجمع النيقاوي المسكوني بمصر وفي القرن الرابع وبعده ، فإنها ظلت تلتقي معها وتتجاوب - في التحليل الأخير العميق والاجمالي - بدرجة ما وبمستوى ما من حدود ومستويات تصور «الوحدة والكثرة» الناجم عن احتمالات وتضاعيف الواحد والكثير ، والواحد الكثير ، والكثير الواحد ؛ هذا بالإضافة إلى ما ذكرناه من نقطة الالتقاء الأخرى الهامة أو الأكثر الأهمية والتي اشتركتا فيها ، وهي النزوع القوي والمفصح عنه كثيراً أو قليلاً إلى الاستقلال العقيدي الديني والسياسي الوطني لمصر عن الامبراطورية .

(١) انظر : ادمون رباط - المسيحيون في الشرق قبل الاسلام ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

النسطورية وتأويل النص : من «الاله المصلوب» الى «الانسان المصلوب والمخلص»

ان ما تعرفنا اليه على صعيد الأريوسية المنكوبة نواجهه وقد تحول لاحقاً ، أي في القرن الخامس ، إلى تيار عميق دافق تحت أسماء وصيغ متعددة ومتنوعة تدخل في أعماق الموقف الديني والحياة السياسية لمعظم طبقات وفئات المجتمع الامبراطوري . وإذا ما نسقنا الخطوط النازمة المشتركة وغير المشتركة بين تلك الأسماء والصيغ من موقع المشكلات اللاهوتية الكبرى التي طبعت ذلك القرن بطابعها ، فإنه تبرز أمامنا النسطورية بمثابتها الممثل المسيحي الشرقي الأكبر للتيار المعني هنا . وما يلفت الانتباه ، على هذا الصعيد ، هو أن الاتجاه الجديد المذكور نشأ في القسطنطينية نفسها ، عاصمة الشطر الشرقي من الامبراطورية ، وكان على رأسه الكاهن نسطوريوس الذي أخذ يطرح نفسه بقوة في الأوساط اللاهوتية ، وكذلك لاحقاً في الأوساط السياسية اللاهوتية .

شغل نسطوريوس (مؤسس النسطورية) كرسي البطريرقية في القسطنطينية لعدة سنوات ، تمكن في اثنائها من استكمال صوغ ما سيدينه خصومه بمثابته «هرطقة» جديدة . ومن الطريف الدال أن نذكر أن الهرطيق نسطوريوس جرى تنويجه أسقفاً على القسطنطينية من قبل المؤسسة الكنسية الرسمية والسلطة السياسية حيث نيّطت به مهمة أساسية وكبرى كان عليه أن ينجزها في ظروف جد معقدة . هذه المهمة كمنت في العمل على خلق جو من الهدوء الديني (والسياسي) ، ومن ثم على الوقوف بحزم في وجه المدّ المتعاضم عمقاً وسطحاً للهرطقات . والذي حدث - وهذا له مدلول خاص على صعيد اللوحة الدينية والسياسية المهيمنة في حينه - هو أن نسطوريوس نفسه كان ، في بادئ الأمر ، قد اعتقد بأنه قد نذر نفسه ، حقاً ، لهذه

المهمة العملاقة والشائكة . ففي الحفل الامبراطوري الذي تُوج فيه اسقفاً على القسطنطينية في العاشر من نيسان عام ٤٢٨ ، خاطب الامبراطور وبقية الحضور السياسي والديني قائلاً ، بكثير من الثقة والحزم والطواعية ، : «اعطني بلاداً نخالية من الهرطقة اقدم لك السماوات بديلة . واستأصل الهرطقة لنا نستأصل الفرس معك»^(١) .

ولكن الأوضاع في الامبراطورية لم تدع ، كما يبدو ، مجالاً كبيراً حتى لأولئك الذين نذروا أنفسهم للدفاع عنها . وهذا ما يدعونا إلى القول بأنها (الأوضاع) كانت في حالة من الاضطراب والهزال والقسوة والاستغلال ، بحيث اسهمت ، على نحو أو آخر ، في تعميق ظاهرة الانسلاخ الاجتماعي الطبقي والفثوي والعقدي الايديولوجي في أوساط المتعاملين مع الفكر الديني والسياسي ، بصورة خاصة . وجدير بالقول أن العناصر المستنيرة لدى هذه الشخصية أو تلك ، تجد حقلاً خصباً لها كي تتحول إلى موقف اجتماعي نقدي مشخص يمكن أن يتحول إلى تيار شعبي يهدد مصالح المؤسسات الدينية والسياسية العليا . ان مثل هذا الأمر قد نجده مجسداً فيما أحدثه الاسقف القسطنطيني نسطوريوس .

وقمين بنا أن نشير إلى ان البحث في «هرطقة» نسطوريوس هذا - السوري الانطاكي الأصل والذي ولد في الربع الأخير من القرن الرابع - يكاد يدفعنا إلى الاعلان عن ان هذا الاسقف تأثر ، بعمق وجذرية ، بسلفه الهرطيق الكبير آريوس . ان هذا الرأي يظل وارداً وقابلاً للمناقشة أو الافتراض المدعم حتى لو لاحظنا أنه يوجد هنا وهناك خلاف في الرأي بينهما ، وحتى لو استصدر الأول (نسطوريوس) في مقببل رئاسته أمراً اغلقت بموجبه كنيسة الأريوسيين في القسطنطينية ؛ كما استؤصلت مجموعة كبيرة من الهرطقات بموجب أوامر أخرى صدرت عن «الارادة السنية الامبراطورية» ، ومنها «الهرطقة الأريوسية»^(٢) .

(١) ضمن : أسدرستم - كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٠٨ .

(٢) «واندفع نسطوريوس في سبيل الايمان القويم فاستصدر أمراً باغلاق كنيسة الأريوسيين في القسطنطينية في الاسبوع الأول من رئاسته . وفي الثلاثين من أيار أي في الاسبوع الثامن لرئاسته صدرت ارادة سنية امبراطورية تستأصل الهرطقة في جميع مظاهرها فشملت في حكمها الأريوسيين»

أما التأثير الذي أعلننا عنه فيمكن تعقبه وتقسيه من خلال الأطروحة الأريوسية الخاصة بالتأكيد على ناسوتية يسوع المسيح مقابل لاهوتيته . ولعلنا نعلم الموقف ونجمله حيث نقول بأن تلك الأطروحة تبرز بمثابتها مفتاح الولوج الكبير الى فهم الدوافع والبواعث البعيدة الخفية والمعلنة للهرطقة الدينية المسيحية اليسوعية ، عموماً ، في مصر وسورية على امتداد ثلاثة قرون من الزمن ، هي الرابع والخامس والسادس . إذ أن انتزاع ما أعلنته «الكنيسة الأم» من حق مشروع ومقدس لها في الهيمنة التامة على «الكنائس الأبناء» ، لم يكن تحقيقه ممكناً أفضل من أن يتم على طريق زعزعة عقيدة «يسوع الاله - الأب الابن» ، الذي تلح تلك الكنيسة الحاحاً مشدداً على أنها هي وحدها «جسده المقدس» . ومن هنا ، نتبين النعمة الأساسية والناظمة في الأريوسية والنسطورية كلتيهما ، تلك النعمة التي تفصح عن نفسها ، بطموح عميق لأنسنة الدين عامة وشخص يسوع المسيح بصورة مخصصة ، أي - وهذا ينبغي التشديد عليه - لأنسنة أداة التغيير الانساني الاجتماعي الكبرى ، المتاحة والمهيمنة وحدها في حينه : إن أي نشاط ذهني ايديولوجي او سياسي كان عليه - من أجل ان يكون فاعلاً في اوسع الأوساط الاجتماعية - أن يمر عبر الدين وأن يستمد مشروعيته وقدراته منه ، على الأقل أمام المؤمنين وفي ضوء أوضاعهم .

كان المبدأ المركزي الذي صاغه نسطوريوس ، بعد ان انتقل من «الطريق القويم» إلى «الطريق المنحرف» ومن «الدواخل» إلى «الخوارج» ، وأعلنه على الناس بمثابته «المسيحية الحقيقية» ، قد تبلور واتضح على النحو التالي : ان يسوع المسيح هو ، من حيث الأساس وفي معناه الأعمق ، ارادة وتأثير ، أي فعل نشط باتجاه الانسان . وإذا قد صُلب على الصليب حقاً ، فإن صلبه هذا الحق به بصفته الانسانية (الناسوتية) ، فحسب . وعلى ذلك - وهذا ما يترتب من نتيجة بالنسبة الى تصور الخلاص . فتخليص الانسانية الخاطئة هو أمر انساني يسوعي ، أولاً وأخيراً . ومن هنا بالضبط ، كان رفض ألوهية يسوع المسيح شأنًا لازماً وضرورياً ضرورة حاسمة في سبيل انقاذ عقيدة الصلب والخلاص نفسها ؛ إذ لا يعقل - بكل الاعتبارات

والمقدونيين والأبوليناريين . . . ونفذت هذه الارادة بحزم فأغلقت كنائس هؤلاء المبتدعين وأدى اغلاقها إلى استعمال العنف في بعض الأحيان وإلى خسائر في الأرواح . . . » . (نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٣٠٨ - ٣٠٩) .

والحيثيات اللاهوتية - ان يتم فعل الصليب على طبيعة الهية ما يزعم أن يسوع المسيح ينطوي عليها .

والحق ، ان مشكلة «الصليب» شغلت في النسطورية معقداً هاماً من معاقدها . فهي مثلت نقطة ضعف كبرى - بالمعنيين الانطولوجي والاخلاقي - في العقيدة الكنسية الرسمية المنبثقة عن مجمع نيقية المسكوني ؛ في حين أنها ، هنا وكما فهمها نسطوريوس ، تحولت إلى نقطة انطلاق باتجاه يسوع المسيح وتحويله إلى مخلص انساني يؤثر في الناس كما يؤثرون فيه . وإذا أكد على ناسوت يسوع هذا ، فإنه - في نفس الحين وبنفس القدر من الأهمية - يشدد على قدرته على انجاز تخليص الانسان من العالم الذي غدا طافحاً بـ «الجور والطغيان» . فنحن ، هنا ، نواجه تلازماً بين وضعيتين اثنتين على نحو متضاياف . الوضعية الأولى تتمثل بالاستجابة لـ «الانسان» ، حيث يؤكد أن مخلص الانسان هو الانسان نفسه بقدر ما هو متحد - بمعنى ما من معاني الاتحاد - بالوجود الالهي . وهذا الاتحاد ليس من نمط اتحاد الناسوت باللاهوت ضمن شخصية واحدة بقدر ما هو شكل من أشكال «وحدة وجودية» يبرز فيها الانسان ، عامةً ، من حيث هو أحد تجلياتها . وعلى هذا النحو ، نغدو وجهاً لوجه أمام يسوع الانسان ، وكذلك أمام أمه مريم ، التي تبرز مع «ابنتها» في العالم الانساني . وهذا ينقل حقل النشاط الخلاصي من الآلهة أو انصاف الآلهة (مثل يسوع اللاهوت والناسوت) إلى حقل الفعل الانساني ، مطيحاً - بذلك - بالمستندات اللاهوتية التي تنطلق منها الكنيسة السلطوية «الأم» في نطاق تسويغ ما تعلنه بأنها «جسد المسيح يسوع» الالهي الانساني ، أو جسد المسيح يسوع بما هو الالهي . ولا يخفى أن فكرة «التمثيل» و «الانابة» تبرز ، هنا ، بمثبتها حجر أساس تبني عليه وتشتق منه «الأم الكنسية» مسوغاتها في الهيمنة على جموع الكنائس المنضوية في اطار الامبراطورية . وتبقى المسألة ، في جماع القول ، تمخضاً عن عملية اقضاء «الالهي بذاته» ، أي من حيث هو فعل متميز عن «الانساني العادي» ، انساني جماهير الفقيرين والفقراء والعبيد^(١) .

(١) لعل القصور في النفاذ إلى اللحظة المشخصة الداخلية في عملية الاقضاء تلك لـ «الالهي بذاته» لدى النساطرة ، هو الذي يجعل بعض الباحثين يحملون المبدأ النسطوري المشار إليه أكثر مما يحمل اساساً ، بحيث يقود ذلك إلى الاعتقاد بأن هذا المبدأ ما هو إلا تطويح بتصوير الخلاص اليسوعي

أما الوضعية الثانية فتفصح عن نفسها عبر «صلب الانسان» بلحمه ودمه وآماله وآفاقه . ذلك لأن «الصلب» ، هنا ، تعبير مكثف غايبة التكثيف عن «العذاب» في درجته القصوى ، التي تقتضي ان يقدم الانسان نفسه للموت في سبيل الحياة . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فمن أين تكون الشجاعة والتضحية القصوى إذا كان «المصلوب» مصلوباً الهياً أو مشاركاً في الالهية ؟ أين يكمن مغزى الموقف الأقصى إذا كان هذا الأخير ينتمي ، أصلاً ، إلى عالم الآلهة ، أي - بحسب المنطوق اللاهوتي - إلى «عالم الأقصى» ؟ وحيث يكون الوضع على هذا النحو ، فما الحكمة من مواجهة «الأقصى للأقصى» ، أي «الالم الأقصى» للوجود «الأقصى - الالهي» ؟ ان النسطورية حسمت الموقف لصالح العلاقة بين «الأدنى والأقصى» ، أي من أجل علاقة انسانية تنطلق من الانسان لتنتهي به بمثابته قدرة فاعلة في وجه الالم الأكبر ، الذي يتمثل بشكله الأقصى وهو «الصلب» .

لقد صلب المسيح يسوع ، حقاً ؛ هذا ما تؤكد عليه النسطورية . ولكنه إذ صلب ، فإنما كان انساناً وظل انساناً مصلوباً . هاهنا ، بالضبط ، تكمن اللحظة العامرة بالتضحية والفداء والصلابة في سبيل خلاص الناس . وهذا ما ولّج اوساطاً عديدة عليه وحرصهم ضده ؛ لأن من شأن ذلك الذي نادى به أن يجعل آراءهم نافلة ، تلك الآراء التي تنطلق - كما أشرنا - من «حق التمثيل والاناثة» الالهي ، أي من كونهم «جسد يسوع الاله» . ودون أن يكون هنالك حد أدنى من التشكيك في الموقف النسطوري المذكور من الصلب^(١) ، نلاحظ أن انصواء يسوع المسيح النسطوري في وحدة من الوجود الالهي يمثل وجهاً متمماً لانسانيته المتعالية دون أن تكون إلهية بذاتها .

= المسيحي ، عموماً . فبحسب ادمون رباط على سبيل المثال (انظر مقالته : المسيحيون في الشرق قبل الاسلام - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٨) كان من شأن العقيدة النسطورية ، وفق ذلك الاعتقاد «أن تجعل من الايمان بأن الله قد بعث بابنه لتخليص البشر ، ايماناً بدون أساس ، طالما ان عذاب الصليب لم يشمل شخص المسيح بطبيعته المتحدتين» .

(١) «وأما قولهم - أي النساطرة - في القتل والصلب فيخالف قول الملكانية واليعقوبية . قالوا إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، لأن الاله لا تحلّه الآلام» . (ا.م.ا. الشهريستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٢٥) .

وجدير بالقول ان تلك المسألة الأخيرة تؤلف من النسطورية المتن الرئيسي الناظم لها ضمن السياق المأتي عليه آنفاً . فعبّرنا عمل النساطرة على إعادة بناء الموقف الديني المسيحي ، عموماً . فهؤلاء ، الذين تأثروا بعمق بالفكر اليوناني والهليني والسوري والفارسي المستنير ، وصلوا إلى أن الله «ذو أقانيم ثلاثة : الوجود ، والعلم ، والحياة . وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ، ولا هي هو . واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام . . . كاشراف الشمس في كوة على بلورة . وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم»^(١) .

فها هنا ، نلاحظ أمرين على غاية الأهمية اللاهوتية والفلسفية ، وكذلك على غاية الخطورة بالنسبة إلى الكنيسة الرسمية ، الارثوذكسية الكاثوليكية . الأمر الأول تمثل بالنزوع إلى الوحدة الوجودية ، بحيث يتوقف الحديث - آنثذ - عن ثلاثة أقانيم متميزة ومتباينة ، هي اله ومسيح وإنسان ، ليبدأ بأقنوم واحد أوجوه واحد أو وجود واحد . أما الأمر الثاني فقد برز في الرؤية النسطورية المستنيرة ، على نحو بين ، للرب الإله . فهذا الأخير - بمقتضى الموقف المنسوب به - هو ، في صفته الأكثر أساسية ، جماع الوجود والعلم والحياة ؛ وذلك على نحو يبرز فيه «العلم» ، كما هو ظاهر ، بمثابته أحد هذه الأركان الإلهية الثلاثة الكبرى . وهذا من شأنه أن يضيء الحالة النبوية والوظيفية للرب الإله المذكور أضاءة معرفية ، أو كما قيل في حينه ، عرفانية . فهو وجود واع لذاته ولغيره ؛ لذاته ، بمعنى أن يدرك وجوده وفعله ؛ ولغيره ، بمعنى أنه يدرك علاقته بكل ما هو موجود . ومن ثم ، فبالإضافة إلى امتلاك الرب الإله وعيه الذاتي ، نجد أنه لا يوجد إلا مع الآخر وعبره وفي سياقه ، بعيداً عن عنصري المفارقة والعلوية .

ومن دقائق الموقف النسطوري وتماسكه اللاهوتي ما يعلن باسمه من صيغ فكرية لتصوير وحدة الوجود ، الذي وجدناه يشكل البنية الأساسية الداخلية لذلك الموقف . فلقد أعلن النساطرة ، بحسب الشهرستاني : «أن الابن لم يزل متولداً من الأب ، وإنما تجسد بجسد المسيح حين ولد . والحدوث راجع إلى الجسد والناسوت ، فهو اله وإنسان اتحدا ، وهما جوهران ، أقنومان ، طبيعتان : جوهر

(١) نفس المرجع السابق ومعانيه - ص ٢٢٤ .

قديم ، وجوهر محدث ، إله تام وإنسان تام . ولم يبطل الاتحاد قدم القديم ، ولا حدوث المحدث ، لكنها صاراً مسيحاً واحداً ، طبيعة واحدة^(١) .

إن وحدة الوجود (النسطورية) تبرز ، كما هو واضح مما سبق ، بمثابقتها وحدة تنهض على حد ما من التمايز بين ثلاثة انحاء وجودية ، هي الله ، والمسيح ، والإنسان . ولكن هذا الترتيب يتضمن ، بدوره ومن زاوية النظر إليه ، احتمال رؤيته من آخره إلى أوله ، أي من الإنسان إلى الله مروراً بالمسيح يسوع ، بحيث تغدو هذه الأطراف الثلاثة تجليات متنوعة لواحد أحد يوحد بينها على ما فيها من تنوع . وهذا الحكم يبقى صحيحاً ، كذلك ، حتى حين يبقى الحديث قائماً على «قديم» و«محدث» ؛ ذلك لأن المحدث يغدو مع المحدث سياقاً واحداً وبعداً واحداً ، أي «مسيحاً واحداً ، طبيعة واحدة» . وهنا ، يلتقي الإنساني (الناسوتي) بالالهي (اللاهوتي) لقاء الممكن بالمتحقق ، والنازع بالناجز ، ليصوغاً - مشتركين موحدتين - عملية التجاوز الخلاصية للبائس المتجاوز والمستفد وجودياً وقيماً (أخلاقياً) .

وقد عمل اللاهوتي الإنساني نسطور (نسطوريوس) على تعبئة ذلك الموقف الالهي الإنساني بفكرتين اثنتين حافظتين بعمق باتجاه الفعل الإنساني الالهي الخلاصي . الفكرة الأولى تنهض على النظر إلى الرب الإله على أنه وجود حي متمتع ذاتياً بالعلم . إن هذا الأخير يمثل ، هنا ، حداً منطقياً وجودياً يجعل من الرب الإله (الإنسان) قوة غير غاشمة ، قوة مستنيرة ، يمكن النظر إليها على أنها «منطقية» الحدث الكوني ، بالمعنى القانوني والأخلاقي الإنساني ، وعلى أنها - أيضاً - الكلمة الناعمة لهذا الحدث من داخله ، توجهه وتحيط به وتعبر عنه ، بقدر ما يوجهها هو ويحيط بها ويعبر عنها . وفي حدود هذه المنطقية يغدو واضحاً أن الرب الإله النسطوري يجسد وضعية منضبطة بنواظم ضرورية تضبط (تقيد) وتوجه مسارها البنيوي والوظيفي العام . وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه - في هذه الحال - لا بد وأن يتضمن نزوعاً داخلياً ضرورياً وتلقائياً إلى إبراز العنصر الإنساني الدنيوي وإلى التشديد عليه ، من حيث هو تعبير عن هذا النزوع أولاً ، ومنطلق للحل (الخلاص) الإنساني ثانياً .

(١) نفس المرجع السابق ومعانيه - ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

ومن الطريف والأهمية بمكان ان نشير إلى ما كتبه الشهرستاني ، على هذا الصعيد وباتجاه المطابقة النظرية العقلانية بين النساطرة من طرف والمعتزلة من طرف آخر . فلقد أعلن أن «نسطور الحكيم . . . تصرف في الأناجيل بحكم رأيه . وإضافته اليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة»^(١) . ان تصرف نسطور في الأناجيل بحكم رأيه ، أي بمقتضى التفكير العقلي الحر ، قاد إلى إخضاعها لعملية تأويل عقلية نافذة قادت ، في نهاية المطاف وفي السياق العام الاجمالي للمسألة ، إلى جعل اللاهوتي في خدمة الناسوتي ، ومن ثم إلى النظر للاهوتي ناسوتياً .

وبصيغة أخرى أكثر ضبطاً للموقف النسطوري يمكن القول ، ان عقلنة اللاهوتي وأنستته ، في آن واحد وسياق واحد ، قادتا إلى الانسان الكلي (الاهي) ، الذي بمتسعه أن يحسك بمفاصل «الخلاص الانساني» من حيث هو شأن انساني وخاص بالانسان الطامع إليه والعامل على انجازه بادواته وطرقه الانسانية الخاصة .

أما الفكرة الخافزة الثانية فقد ظهرت وتبلورت في موقف نسطوريوس والنساطرة من مسألة «والدة الاله» ، مريم . فلقد «جاء في بعض المراجع الأولية ان كاهناً انطاكياً من ناحية نسطوريوس يدعى أنستاسيوس تدخل في الجدل القائم وقال ان مريم بشر وكبشر لا يمكنها ان تلد الهاً ولذا فإنه لا يجوز القول عنها انها والدة الاله Theotokos . وتضيف هذه المراجع نفسها ان نسطوريوس أبى أن يلوم انستاسيوس وأنه تخاشى هو بدوره استعمال التعبير (والدة الاله) . وجاء في مخلفات المجمع المسكوني الثالث ان دوروثيوس أسقف مركيانوبوليس حرم استعمال الاصطلاح والدة الاله وان نسطوريوس سكت عن هذا التحريم ولم يقطع دوروثيوس من الشركة»^(٢) . والملفت في الموقف المعني أن نسطوريوس ينطلق فيه من أن «الاسفار المقدسة» والآباء لم يستخدموه في مجمع نيقية المسكوني ؛ مما يعني أن نسطوريوس عمل على تدعيم موقفه ذاك من موقع «النص» نفسه ، ومن ثم على احراج خصومه واظهارهم هم بمظهر «الخوارج» على «النصوص المقدسة» . وفي نهاية الأمر وخلاصته ، اقترح اللاهوتي الكبير القول بـ «والدة المسيح» بدلا من القول بـ «والدة الاله»^(٣) .

(١) نفس المرجع السابق ومعطيته - ص ٢٢٤ . (٣) نفس المرجع السابق ومعطيته .

(٢) اسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٠٩ .

ان ذلك الذي طرحه نسطوريوس - بوضوح ودقة وحزم - على صعيد «الأم» ، كان اسهاماً مباشراً في ايضاح الموقف الناسوتي المسيحي وتعميقه نسطورياً . فبعد أن انتزع من أيدي الاكليروس الأعظم لاهوتية يسوع المسيح المصلوب ، انتهى الى ان جعل أمه أم انسان مقدس ، ليس إلا ، هي «أم المسيح» . ولعلنا نلاحظ أن المهمة الثانية أسهل بكثير ، بما لا يقاس من المهمة الأولى . ذلك أن محور الموقف اليسوعي المسيحي هو يسوع نفسه ، وليس أمه . وقد لاحظنا في مواضع متعددة سابقة من هذا المبحث وعبر ما انجزه الفيلسوف الالماني لودفيج فريدرباخ ، أن دور «الأم» في «الثالوث المقدس» غير جوهري ، ثانوي ، أو كما عبرنا عن ذلك بأنه «مضيّع» بين الأب والابن . فإذا كان «الابن» ابناً رأسه وقدماءه في الانسان ، فإنه من الأولى أن يعتبر أن دور الأم لا يعدو أن يكون ذا طبيعة انسانية . ويكون الأمر - بذلك - قد ضُفي لصالح يسوع انساني بأم انسانية .

ان استبدال «والدة الاله» بـ «والدة المسيح» عملية من شأنها أن تصب في التيار الناسوتي النسطوري ، مؤدية - على هذه الطريق - الى تأصيل انسانية الخلاص المسيحي (النسطوري) بنيةً ووظيفةً وأداة . وكما هو بين ، فإن هذا وذاك يقفان في خط متعارض ، مبدئياً ، مع التوجه الرئيسي للكنيسة السلطوية «الأم» المنطلق من أنها تمثل موقفاً مسيحياً يستمد مشروعيتها من أنه يقوم على «الأب والابن» ، أي من كونه يهيمن باسمهما ويتوجههما .

كان الهجوم على النسطورية ورأسها نسطوريوس عنيفاً كل العنف وسريعاً كل السرعة من قبل السلطة الكنسية الرسمية ، الكاثوليكية الارثوذكسية ، التي كان من المفترض ان يمثلها نسطوريوس نفسه وأن يدافع عنها . وقد ظهر ذلك في المجمع المسكوني الثالث ، الذي انعقد في افسوس عام ٤٣١ . وكان برنامج العمل الذي نيط بهذا المجمع حاشداً وواضحاً وحازماً ، في نفس الحين : الحكم بالادانة الساحقة على الهرطقة الجديدة المبتدعة على نحو «يجتثها من الجذور» . وقد تجسد هذا الحكم بنفي رأس «الفتنة» إلى ما اعتُقد أنه بلد بعيد ، أي الى شمال الجزيرة العربية باتجاه البتراء ، التي كانت آنذاك واحدة من ملحقات الامبراطورية البيزنطية الكثيرة^(١) .

(١) انظر : ادمون رباط - المسيحيون في الشرق قبل الاسلام ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

وقد كانت سورية في بداية عهدها بالمسيحية اليسوعية قد تبنت ، ضمن ما تبنته ، تلك المهرطقة الجديدة ، التي أثارت - بشكل كبير - الأوساط الكنسية كلها ، المضادة لها والمتعاطفة معها ، على حد سواء . وجدير بالإشارة إلى أن الحضور الكمي والنوعي الكثيف لهذا المذهب في البلد المعني جسد ، في حينه ، تعبيراً سياسياً ودينياً عقيدياً مباشراً عن اتجاهات الانفصال والاستقلال عن جسم الامبراطورية (وقد لاحظنا ذلك ايضاً وبنفس القدر تقريباً بالنسبة إلى الأريوسية في مصر) . ولعلنا نتبين سمات ذلك التعبير السياسي والديني العقيدي في الفكرة التأويلية الطريفة التالية ، التي مارسها نسطوريوس حيال «وحدة الناسوت واللاهوت» . فلقد أعلن أن يسوع المسيح وإن كان متحداً عبر الكلمة بالرب الاله ، فإن اتحاد هذا هو بمثابة اتحاد الانسانية جمعاء به (أي بالرب الاله) . وبصيغة أخرى مختزلة يمكن القول ، ان ذلك الاتحاد ، بكل اعتباراته وحيثياته ، يقوم على «وحدة الوجود» المأتي عليها فيما سبق أولاً ؛ كما أنه (أي الاتحاد المعني) - من طرف ثان - يظهر في «الفعل» وليس في «الحالة» ، أي في سياق الممارسة المسيحية اليسوعية النشطة وليس من موقع اتحاد في شخص واحد^(١) .

والآن ، إذا كنا ، في صفحات سابقة ، قد ألقينا على أن الأريوسية والنسطورية - بالرغم مما ظهر من اختلاف ذي طبيعة لاهوتية ونزاعات في النشاط الكنسي التنظيمي - كان يجمع بينهما نزوع مشترك عميق للاستقلال الديني العقيدي والسياسي عن «الكنيسة الأم» المتلاحمة عمقاً وسطحاً وبنيةً ووظيفة بـ «السلطة الأم» في روما والقسطنطينية ، فإننا نرغبنا من وراء ذلك إلى التأكيد على ما نراه الوجه الأهم والأكثر حسماً في الصراع بين الفريقين المذكورين . بيد أن وجهاً آخر من هذا الصراع نشب في داخل الكنيسة الشرقية نفسها (في مصر وسورية) ، وعبر - بأشكال طارئة وأخرى ثابتة بحدود معينة - عن المواقف من ذلك التحالف الثنائي .

ففي سورية اندلع خلاف قاد إلى صراع بين فريقين اثنين «محليين» ، وقف الأول منهما إلى جانب نسطوريوس ، في حين أعلن الفريق الثاني - بوضوح وحزم -

(١) انظر مع المقارنة : فيليب حتي - خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٠٨ .

تحالفه مع البابا والامبراطور . ان مثل هذا الوضع لا يمكن الاكتفاء بالنظر إليه على أنه «خلاف في الآراء العقيدية» . فلقد مثل موقفاً اجتماعياً طبقياً وفتوياً الى جانب كونه - كذلك - موقفاً لا وطنياً طمع أصحابه من خلاله ، إلى كسب ود «الآخرين الأقوياء» واستعداداتهم على خصومهم في الداخل . وهنا ، يظهر - حقاً - إلى أي مدى يمكن لتصور ديني عقيدي أن يتحول الى موقف اجتماعي وسياسي مباشر تبرز من خلاله المصالح الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المباشرة . ان ذلك نستطيع ان نقرأه في الموقف الذي اتخذته رهبان مدرسة مارمارون ، أي يعقوب القورشى وسمعان العمودي وبارادات ، من النسطورية والنساطرة . فلقد كانت تلك المدرسة «بقداستها وسلامة عقيدتها تكون ركناً متيناً تعتمد عليه السلطات الامبراطورية والكنسية في سياسة الكنيسة . وكان لهذه الجبهة دور كبير في شؤون العقيدة والادارة . وكان اركان هذه الجبهة اي القديسون يعقوب وسمعان وبارادات التابعون لمدرسة مارمارون ابرز الشخصيات الرهبانية بصورة خاصة ومن ابرز الشخصيات الكنسية بوجه عام»^(١)

وماله دلالة هامة وملفتة ، على هذا الصعيد من المسألة ، الرسالة التي بعث بها الرهبان الموارنة إلى بابا روما بمناسبة محنة وقعت بهم . ذلك أن «أول من اتجهت إليه انظار وأفكار وقلوب الرهبان الموارنة في تلك المحنة الكرسي الرسولي الروماني وحبره القديس هورميردا . رفعوا إليه رسالة ضمنوها اعتقادهم الصريح بسلطة البابا على المسكونة بأسرها وبخلافته للقديس بطرس أمير الرسل وأبوتة الشاملة وبما وضعه المسيح الاله على عاتقه من السلطان المطلق على رعاية الكنيسة ومن مهمة العناية والرعاية تجاه النفوس . وقد عهدوا إلى اثنين ، منها يوحنا وسركيس بحمل هذه الرسالة الى البابا وأرفقوها بمذكرة تفصيلية»^(٢) .

-
- (١) الأب بطرس ضو : تاريخ الموارنة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .
(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ١٦٥ . ولما كانت الرسالة المذكورة ذات أهمية خاصة ومباشرة بالنسبة الى ما نحن بصدد البحث فيه (حيث أنها تبرز الكثير من مظاهر وملابسات الصراع بين الفريقين المتنازعين) ، فإننا نورد قسماً كبيراً منها لتبين الوضعية مشخصة ، تلك الوضعية التي احاطت باسقاط النسطورية عقيدة وممارسة (انظر هذا النص في : المرجع السابق ومعطياته ، ص ١٦٥ - ١٦٧) : «الى الكلي الطوبى والقداسة بطريرك المسكونة بأسرها هورميردا الجالس على

كان من نتائج المجمع المسكوني الثالث التاريخي في أفسس أن أرغم النساطرة على التبعثر والتشرد في انحاء مختلفة من المناطق المجاورة والبعيدة . ذلك أن عملية الاضطهاد التي طالتهم وطالت الهراطقة الآخرين كانت تصل ، في حالات عديدة ، إلى درجة إحراقهم وإتلاف كتاباتهم ، محقةً بذلك للمتحالفين من السلطتين الدينية والسياسية في الاطراف والمركز مزيداً من الهيمنة والقدرة على استفراد الموقف . ونحن من طرفنا ، نستطيع ان نرى في ذلك ، ثانية ، اشارة الى أن تحول المسيحية اليسوعية إلى دين للدولة جعل منها أداة ايديولوجية صريحة موحدة لها (للدولة) ورادعة لخصومها بكل الوسائل المتاحة . وتنمياً للمسألة وتعميقاً لها ، نلاحظ أن

= كرسي بطرس امير الرسل ، توسل وتضرع أحقر رؤساء الأديار في سوريا الثانية وسائر رهبانها .
 إذ تحفز بنا نعمة المسيح غلصنا جميعاً الى اللجوء الى غبطتكم كما يلتجأ من الزمهرير والعواصف الى مينا الأمان نرانا بغنى عن البحث عن ملجأ آخر . ومهما تألمنا نقتل ذلك بفرح علماً منا بأن آلام هذا الدهر لا تقاس بالمجد المزمع ان يظهر فينا . ولما كان المسيح الهنا أقامكم وملاككم الصالح سلطان الرعاية وطبيب ومعلم النفوس يحذر بنا ان نصف لكم العذابات التي حلت بنا ونجعلكم على بينة من الذئاب التي لا شفقة لها والتي تمزق قطع المسيح لتطردوها بعصا السلطة من بين النعاج ونشقوا الروح بكلمة التعليم وتضمدها بيلسم الصلاة . أما من هم أولئك فاليكهم ايها الكلي الطوبى : هما ساويروس وبطرس اللذان ما اعتبرا أبداً من عداد المسيحيين إذ يحرمان كل يوم علانية المجمع الخلقيدوني المقدس وأبانا الكلي القداسة لاون غير مبالين بدينونة الله وقد داسا قوانين الآباء القديسين ورتبا الى الاسقفية بالقوة الملكية وأذاقانا عذابات لا قياس لها لآكرهنا على احتقار المجمع المذكور . . .

فنبتهل اليك ايها الأب الكلي الطوبى ان تنهض بقوة وغيرة وتشفق على الجسد الممزق فانت رأس الجميع وتثار للآيمان المهان وللقوانين المداسة وللآباء الذين تعرضوا للتجديف وللمجمع المطعون بالحرم . أولئك الله سلطان الربط والحل وليس الاصحاء الذين يحتاجون الى طبيب ولكن المرضى . فانهم ايها الأب القديس وهلم لخلاصنا وتشبه بربنا الذي نزل من السماء الى الأرض ناشداً الحروف الضال . وتأمل ببطرس أمير الرسل الذي تزين كرسيه وبولس الاناء المختار فقد طافا المسكونة لينيراها . . . فلا تهملنا أيها الكلي القداسة نحن الذين كل يوم نتخنتنا بالجراح الوحوش الضارية . ونحيط علماً ملاككم القديس اننا نحرم باستغاثتنا هذه كل الذين يبندهم ويحرمهم كرسيك الرسولي أي نسطور واوطيخا وديوسفورس وبطرس الالثلج وبطرس الانطاكي المدعو الفصار واكاسيوس اسقف القسطنطينية شريكهم وكل من يدافع عن أي من هؤلاء الهراطقة .

«المجامع المسكونية» التي كانت تعقد في حال تأزم الاوضاع واستفحال التيار الهرطقي عقيداً دينياً وتنظيماً وسياسياً ، تحولت إلى أداة ايديولوجية سلطوية نافذة تحقق السلطة المركزية عبرها سيطرتها ، لاجئاً - في سبيل ذلك - إلى تحقيق «إجماع في الرأي» بمنحها القدرة والهيبة . وقد نتبين في تلك المجامع المسكونية وجهاً آخر هاماً من أوجه المسألة . فالنسطورية - ومن قبلها الأريوسية - إذ علقت أطروحة «الكنيسة جسد المسيح» وشككت فيها ورفعت السلاح في وجهها ، وجدت نفسها أمام امتدادات جديدة كبرى لهذا الجسد ممثلة بتلك المجامع . ولذلك ، كان صراع عنيف مديد قد تمحور حول السؤال التالي : إلى أي مدى تمثلك المجامع المذكورة مشروعية تمثيل المؤمنين من المسيحيين اليسوعيين ، وإلى أي مدى هي ، من ثم ، جديرة بأن نحتزم مع قراراتها ؟ أما الاجابة عليه فقد كان على الواقع المشخص ، بموازين قواه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الروحية ، أن يقدمها ، وقد فعل ذلك . لقد أعلن الظاهرات الهرطقية نقاطاً هامشية في بحر المجتمع الكبير ينبغي عزلها إن لم يكن محوها .

والحق ، ان تلك «النقاط» لم تقذ التاريخ، وإن كانت قد نشأت في صلبه وأعماقه . لقد شكلت الجبهة الايديولوجية المقابلة التي عبرت ، بأشكال متعرجة ، ووهمية أحياناً ، عن الجانب الآخر من التاريخ الذي صنع هذا الأخير في أسسه التحتية البعيدة دون أن يكون قادراً على كتابته كما هو . لقد فعل ذلك عبر المعارك التي ارغم على دخولها مع القوى الكبرى . ومن هنا ، كانت الضرورة المبدئية لاعادة كتابة هذا التاريخ ثانية ، بما في ذلك تاريخ «الهرطقة» وتاريخ العقائد «القويمة» .

إننا نواجه إحدى صعوبات ذلك الموقف ، أيضاً ، على صعيد المصائر التاريخية التي كان على النسطورية ان تواجهها . فهذه المصائر علينا أن نتبينها في «عريضة» قدمها رهبان إلى البابا اغناطيوس بطريركها فيها آراءهم حيال الهرطقات التي أخذت بالانتشار ، مهددة ليس «الكنيسة القويمة - الأم» فقط ، بل كذلك الملك (السلطة السياسية) . في هذه العريضة ، نقرأ مايلي : «إلى سيدنا الجزيل القداسة رئيس اساقفة روما القديمة والبطريرك المسكوني اغناطيوس . . . الهرطقة والاراسيون المتحدرون من جنون ديوسقوروس واوطيخا ، في اندفاع قحتهم

الغريبة ، يعتزون بمرضهم عاقدين الاجتماعات ومكررين العباد بقصد الكيد ومتحلين لذواتهم الاسم الاسقي في اصقاعنا ، ويتناولون جهراً ويستبيحون كل شيء بوقاحة ، لا ضد الكنائس فحسب ولكن ايضاً ضد ملكنا الجزيل التقوى بالذات حسبنا اتضح لغبطتكم . . . فقد أتوا بيتاً يسكنه رهبان من جماعتهم وفي سورة من الجنون فقاوا عيني الامبراطور الكثير التقوى في صورة هناك . ووثب أحدهم البارح في الشر واسمه اسحق الفارسي . . . وضرب بالعصا الصورة موجهاً ضد رأس ملكنا المستقيم الايمان كلاماً يחדش الأذان ولا يقبل به العقل . . . اذا سمح هؤلاء ان ينشروا تعاليمهم حسب أهوائهم فمن الواضح ان يظن ان الكنيسة تعتبر الحق بجانبهم . . . وبما أنهم يثدرون بهذه الحجة لدخول بيوت الكثيرين من علية القوم وعمل مالا يليق . . . وفوق ذلك يقيمون في بيوتهم وضواحي المدن مذابح وأحواض عماد تحدياً للمذابح والأحواض الحقيقية ويحتقرون كل شيء بسبب الحماية التي يشملهم بها من هم في بيت السلطان . . . فلا تتوانوا أيها الجزيلو الغبطة عن اصلاح شر عظيم كهذا . . . فانظروا أيها الجزيلو الغبطة وناشدوا ملكنا حبيب الله ان يأمر بأن يلقي في النار ، كما القيت من قبل كتابات نسطور ، ما كتبه ساويروس ضد المجمع الخلفيدوني ودستور اينا القديس لاون رأس الاساقفة . . . (١)

ان هذه العريضة ذات أهمية نموذجية خاصة . فهي تقدم لنا صورة واضحة ودقيقة عن واقعي الحال الاثنين المتعلقين بـ «الدواخل» و«الخارج» ؛ وإن كان علينا - في حال تقصي وضعية الأخيرين خصوصاً - أن نكون حذرين حيال المصطلحات المستخدمة حيالهم . في هذه الرسالة نتبين ما يقترب من «البرنامج النظري الديني والسياسي» لـ «الخوارج» . أما الجوانب التي تثير الانتباه هاهنا ، فتتمثل بالتالية :

- ١ - اعلان الصراع ضد الملك (السلطة السياسية) ؛
- ٢ - اعلان الصراع ضد «علية القوم» ، أي الطبقة العليا من المجتمع ؛
- ٣ - دفاعهم المتفاني عن تعاليمهم وطقوسهم العقيدية والسياسية الخاصة ، ومحاولتهم بناء حياة خاصة بهم .

(١) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٨٨ - ١٨٩ .

تلك الجوانب يمكن أن نتبين فيها خطأً ظاهرياً يخرقها بدرجة أو بأخرى ويمثل الوجه الأساسي في التيار النسطوري : انه التطلع العفوي الى اقامة تجمع شيوعي يظهر لهم باسم «المسيحية الحقيقية» أو «الفردوس الحقيقي» . ولابد من القول بأن جمهور المؤمنين النساطرة كانوا ، في ممارستهم الاجتماعية اليومية ، يواجهون اساطين الثروة والجاه وقد أعلنوا أن المسيحية هي كما يفهمونها هم ؛ ومن ثم ، كان على هذه الصورة أن تُقلب ، ليكون الناتج مجسداً بالمثل العليا الجديدة : مسيحية الفقراء التي تتحول إلى مهماز في ايديهم يرفعونه في وجه أولئك . فهجومهم على الملك والعلية هو تأكيد على رفضهم للتحالف بين البابا والامبراطور (الملك) ، ودعوة إلى ايجاد كتلة تاريخية من شأنها أن تحقق مطامعهم وآمالهم في التحرر والخلاص في إطار من الحياة الجماعية (الشيوعية) .

ان هذا المركب من المواقف يجعلنا نستعيد المشروع المسيحي الإسبني ، الذي كان من ورائه رغبة حثيثة في تحقيق مثل تلك الحياة الجماعية ، إنما من موقع العزوف عن المجتمع والهروب منه ، عملاً بحقلين من حقوله : الجنس والمال . والعزوف عن المال ، هنا ، لا يعني - كما لاحظنا في حينه - دعوة إلى اقتسامه شيوعياً ، وإنما ينطوي على ارادة الرفض القطعي للارتباط بأي حاجة اقتصادية مادية .

و«العريضة» المعنية تظهر بعض الممارسات التي قام بها الهرطقة ، ومنهم النساطرة ، في سبيل تحقيق معاشهم ، مثل السطو على بيوت الاثرياء (العلية) وقتلهم أو ايدائهم الخ . . . وهذا يضع أيدينا على معقد آخر من الموقف الهرطقي الشيوعي : انه غياب التنظيم السياسي أو الديني العقيدي القادر على ضبط نشاطهم وقيادتهم على نحو غير عشوائي . أما الرد الذي كان قد اقترح من قبل موقعي العريضة - عددهم ستة وتسعون - بحسب المرجع السابق ومعطياته فقد تمثل بعملية «سلاح» يأمر بها «عظيم روما الروحي» من شأنها أن تزيل «شراً عظيماً كهذا» ؛ اضافة الى القذف بكتابات الهرطقة ، ومنهم نسطور ، «في النار» ، بحيث لا يبقى لها أثر ، ولا يبقى - كذلك إن امكن - من يحدث عنها .

ان النسطورية ، التي لوحقت بكل عنف من الامبراطور والبابا كليهما ومن قبل أتباعهما في المقاطعات ، ظلت - رغم ذلك بل ربما بفضل ذلك إذا أخذنا

بالحسبان آلية الفعل التاريخي التراثي في مجتمع يقوم على التناقض والصراع الطبقي - تعلن عن نفسها بمثابرتها تياراً دينياً مستنيراً (على الصعيدين الاجتماعي والعقدي) يبشر بـ «يسوع انساني مخلص» دون حاجة الى «جسده» ، الممثل بـ «الكنيسة السلطوية» التي التهمت (ابتلعت) ووضعت مكانه «بابا امبراطورياً» أو «امبراطوراً بابوياً» . وقد لاحظنا وجود النساطرة مستمراً بل مزدهراً بقوة ووضوح في مدينتين اثنتين ، مثلتنا في حينه بالنسبة اليهم هدفاً رئيسياً ، وهما نصيبين والرها . هاهنا ، أخذنا نشهد غوراً سريعاً وعميقاً لها ، بحيث تحولت ربما إلى ظاهرة دينية وفكرية مهيمنة كثيراً أو قليلاً ؛ ذلك لأن المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التي اثمرت فيها (هنا) فتحت لها الطريق واسعة باتجاه التأثير في الوضعية الثقافية الموروثة القائمة (المحلية) والتأثر بها ضمن عملية من التجادل العميق . يضاف الى ذلك أن ممثليها (النسطورية) كانوا على اتصال مباشر بالفكر اليوناني ، الذي حمله جموع الرهبان المثقفين في الاديرة المنتشرة بأماكن متعددة من المنطقة آنذاك¹⁾

وحيث حدث ذلك ، فإنه استطاع أن يثري الحياة العقلية والدينية في الجزيرة العربية ويحرضها باتجاهات وآفاق جديدة ؛ محدثاً - على هذه الطريق وتحديدأ - ارهاصات أولى متينة للعالم الديني الايديولوجي اللاحق ، الذي سيجد تمثله الأعمق والأقوى في الاسلام المحمدي . وعلى هذا الصعيد التاريخي التراثي المستجد ، استطاعت النسطورية ان تحدث تأثيرها عبر موقفين أساسيين لها . الموقف الأول كمن في جهودها اللاهوتية التي انصبّت في اخضاع «النصوص المقدسة» لعملية تأويل لاهوتي (عقلي) مستنير ومتقدم ، مستخدمة في ذلك ما أتيج لها من امكانيات النظر اليها (النصوص) من مواقع الباطن والظاهر ، والحقيقي والعارض ، والدفين والمباشر . فهي ، عبر هذه العملية ، استطاعت ان تنفذ إلى البنية الثقافية القائمة في نصيبين والرها ومناطق أخرى ، مكتشفة ما يوجد بينها وبين هذه البنية ؛ كما تمكنت من إدخال «النص المقدس» المسيحي في العالم الجديد ضمن رؤيتها التأويلية له ، مما مكن لها - عموماً واجمالاً - في حياة الجزيرة العربية الثقافية . أما الموقف الثاني ، الذي اثرت عبره في ارضها الجديدة ، فقد تجسد بعملية

1) Siehe: T.J. de Boer- Geschichte der Philosophie im Islam, Stuttgart 1910, S. 18-19.

دينية اجتماعية هامة قامت على أنسنة الفعل الخلاصي الموجه للانسان «الظالم» إلى العدالة والطمأنينة». فقد اكتسبت هذا الفعل بعداً دنيوياً نشطاً يدخل ، بمعنى ما رئيسي ، في حقل الممارسة الانسانية المباشرة . وجدير بالذكر ان ذلك تم على طريق مجموعة من المسائل المبدئية التي أثارها النسطورية والتي برز منها اثنتان كبيرتان ، على هذا الصعيد . الأولى منها قامت على إعادة بناء الموقف من «الصليب» و «الصليب» و «المصلوب» ، وما ترتب على ذلك من مواجهة جديدة متميزة لتصورات من أمثال «يسوع المسيح» و «الاله» و «الابن» و «الجوهر» و «الوحدة» و «الكثرة» . أما المسألة الثانية - وستأرس في حقل الأوضاع الاجتماعية والثقافية العربية الجزيرية دوراً بارزاً - فقد اتصلت بمقولة «والدة الاله» و «الأم البتول» و «الولادة بدون جنس» . وقد سبق أن تعرضنا لهتين المسألتين في موضع آخر وضمن سياق آخر . الانا ، الآن ، نشير إلى أن النسطورية تمكنت عبرها التأكيد على النزوع الانساني (الناسوتي) ليسوع المسيح ، بحيث مثلت مقدمة ثقافية عامة لوجهة النظر الاسلامية اللاحقة حول ذلك .

هكذا تبلور أمامنا لوحة آخذة في التعاضم والتكامل والتتام تطرح نفسها محفزة إيانا على أن نستقرئ فيها موقعين اثنين محوريين . الموقع الأول منها يتمثل بتبيان اتجاهات التطور الكبرى ، التي لحقت بالمسيحية اليسوعية بعد أن جعل منها ناظماً ايديولوجياً موحداً وموحداً للامبراطورية ، ومن ثم سوطاً مسلطاً على أعناق المقاطعات الشرقية وغيرها ، تلك المقاطعات التي تفجرت بمواقف سياسية ودينية عقيدية جادة للانفصال عن تلك الامبراطورية . ولقد كان الاضطهاد الوطني (القومي) والاجتماعي الطبقي والديني العقيدي من وراء تلك المواقف ، بحيث يمكن القول بأن المسألة المعنية ، هنا ، لا يمكن فهمها بعيداً عن ذلك أو باهماله جزئياً .

أما الموقف الثاني فنتبينه في الوضعية المستحدثة في الجزيرة العربية بفعل التيارين الهرطقيين البارزين ، الأريوسية والنسطورية ، تلك الوضعية التي تمثلت بدخول هذين الأخيرين إلى الجزيرة المذكورة عبر منطقة شرقية (عربية) أخرى ، هي مصر وسورية . وجدير بالانتباه والتبصر ان هذه العملية استغرقت مرحلة تاريخية

مديدة ومفعمة بالنكسات والعشرات والانتصارات انطلقت من القرن الرابع لتصب ، مع القرن السابع ، في التيار الديني الجديد الناهض ، الاسلام المحمدي . ولكن ما ينبغي أن يلاحظ - في هذا السياق - هو ان التيار المذكور قبل ان ينشأ ويعلن عن نفسه ، كانت هنالك فرق واتجاهات و (بدع) أخرى قد وصلت إلى ذلك المصب فرادى ومجتمعين ، وإن عبر اقنية متعددة مختلفة . بيد أنها - وهذا له أهمية بنيوية خاصة فيما يتصل بالبنية الدينية اللاحقة للاسلام - وإن وصلت إلى المصب المذكور ، فإنها لم تُستغرق فيه أو تذب كلياً . نعني بذلك أن الدين الجديد أخذ ، حقاً ، الكثير الهام من عناصرها وآفاقها ؛ ولكن دون أن يمثل - في شخصه - منتهى وجودها واستمرارها .

لقد استطاعت تلك الفرق والاتجاهات والبدع ، بشكل أو بآخر ، أن تستمر في الحفاظ على شخصياتها على سبيل التجاور مع الاسلام ، على الأقل إلى حين . ولكنها ، في كل الأحوال ، ظلت تعلن عن نفسها بمشابهتها بقايا لفرق أو لأمشاج فرق سابقة ، ومبعثرة هنا وهناك من مناطق شبه الجزيرة العربية . وهذا ، بدوره ومن ناحيته ، سوف يدعونا - في جزء آخر لاحق من مشروع الرؤية الجديدة - إلى تفحص الموقف الديني الجديد (الاسلامي) بوحدة - على الأقل - من سماته ، التي هي شخصيته التركيبية الانتقائية .

وثمة ملاحظة أخيرة تثنصل بالعوامل والخوافز التي مكّنت لعملية الاستمرار التاريخي التراثي للأريوسية والنسطورية . تلك هي أن الصراع غير المتكافئ الذي دارت رحاه بين هتين مجتمعتين من طرف ، والكنيسة «الأم» من طرف آخر ولّد قدرة هائلة لدى انصار الهرطقتين على النشاط الخفي ، بحيث دفعهم ذلك دفعاً باتجاه العيش في تنظيمات تكاد تكون متأسكة تماماً . والحق ، ان هذا يتضح أكثر حين نضع في اعتبارنا آلية الصراع بين أقلية مضطهدة وأكثرية مضطهدة . فهنا ، يمكن التحدث عن تواصل سري قوي على صعيد الأولى بحكم كونها الأضعف والمدفوعة ، دائماً تقريباً ، إلى أن تكون معبأة ومستنفرة ومحافطة على عقيدتها شفهياً (أي عن طريق العننة) وكتابياً ان امكن . وهذا ما أسهم ، حقاً ، في جعل النسطورية - خصوصاً - قادرة على أن تفرض شخصها في مراحل متقدمة لاحقة .

المنوفسية والفعل ضد الفعل : صيرورة الانسان الهاً متعالياً على الكنيسة ومحايثاً للانسان

اذا كنا ، فيما سبق ، قد بحثنا في فرقتين (هرطقتين) موسومتين بنزعة انسانية واضحة ، فاننا عينا بهذه النزعة تلك الدلالة الكونية التي برزت في الموقف من موقع يسوع المسيح ازاء الرب الاله أولاً ، وفي الدلالة الاخلاقية القيمية والسياسية التي ظهرت في التأكيد على أن خلاص الانسانية لا يخرج عن كونه خلاصاً انسانياً ومنوطاً بالانسان ثانياً . وقد لاحظنا حضوراً كثيفاً للنزعة المعنية في الفرقتين المذكورتين بالرغم من الالتصاق الكوني (الوجودي) الذي ظل قائماً بمقتضاهما بين يسوع الانسان والرب الاله . وكذلك ، إذا كنا قد أعلننا عن أن تينك الفرقتين اثرتا ، بقدر أو آخر ، في ولادة الدين الجديد (الاسلام) في الجزيرة العربية ، فاننا قصدنا من هذا التأثير أنه كان بمعنى الفعل الايجابي في البنية الخاصة لهذا الأخير ، بحيث أننا نستطيع - بطريقة تحليلية تركيبية - أن نشير الى العناصر الحاسمة على هذا الصعيد وأن نضبطها في حدودها الأولية الرئيسية .

اما الآن ، فنحن في معرض البحث في فرقة أخرى ثالثة اكتسبت سياقاً آخر متميزاً حيال ما اتسمت به الفرقتان السابقتان تميزاً نسبياً . تلك هي الفرقة المنوفسية (وتدعى كذلك البعقوبية) . وجدير بالقول ان هذه الفرقة «الهرطقية» أثارت في الأوساط الكنسية السلطوية من السخط الكبير ما لا يقل في خطورته وابعاده عن السخط الذي اندلع ، في حينه ، على صعيد الفرقتين السابقتين ، الأريوسية والنسطورية . فلقد انطلقت (المنوفسية) من التأكيد على الاطروحة التالية ، وهي ان يسوع المسيح ذو طبيعة واحدة موحدة ؛ ومن ثم ، فإن التصور القائل بأنه (يسوع

المسيح) ذو طبيعتين ، يمثل خطأ عقيدياً وخطراً جدياً على نقاء العقيدة . ذلك لأن القول بمثل ذلك من شأنه - بمقتضى الموقف المنوفيسي - أن يقود ثنائية تتنافى مع الطبيعة الخالصة ليسوع المسيح . أما هذه الطبيعة فهي الهية محض ، لا يخالطها ولا يمكن ان يخالطها حد من حدود الناسوتية .

ولقد كان اتويسيوس القسطنطيني من أول الذين نادوا بذلك الموقف الجديد في اوائل القرن الخامس . بيد أن المؤسس الحقيقي له كان ، بحسب بعض الباحثين^(١) ، بطريرك انطاكية سويروس الكبير في القرن السادس (٥١٢ - ٥٣٨) . ولابد ان نشير الى ان رد فعل الكنيسة على ذلك كان عنيفاً مرعداً مهدداً . فلقد اعتبرته هرطقة كبرى تمس الكيان الداخلي لما تتكلم باسمه وتقوم على إوده وتكتسب مشروعية وجودها من موقعه ، أي «المسيحية اليسوعية البولسية» . وجدير بالذكر ان الرقعة الجغرافية التي انتشرت فيها الظاهرة المنوفيسية وتوطدت شملت سورية ومصر ، مثلها في ذلك مثل نظيرتيها السابقتين ، الأريوسية والنسطورية . وهذا يشير ، ضمناً وصراحة ، الى المضمون السياسي الذي انطوت عليه والذي اكتسب بنيته الأساسية وآفاقه واهدافه من حركة المقاومة المعلنة هناك ضد الكنيسة الرسمية وراعيها السياسي المؤسسي ، المتمثل بالدولة البيزنطية . نضيف إلى ذلك ان انتشار التيار الهرطقي الجديد في مصر وسورية (ناهيك عن أن انطاكية مثلت أرض تأسيسه) له دلالة ذات أهمية خاصة بالنسبة الى المطالب السياسية والعقيدية الدينية التي طرحها في وجه السلطة المركزية «الزمنية والروحية» ، والى الاتجاهات الوطنية الشرقية التي انطوى عليها في بنائه الداخلي .

ومن المبدئي - في هذا السياق من طرح المسألة - أن ندقق في الدلالة العقيدية والسياسية العقيدية ، التي نتبينها في المبدأ الرئيسي للمنوفيسية . فهذا الأخير ينهض - من حيث الأساس وكما أشرنا من قبل - على نفى الطبيعة الانسانية (الناسوتية) من شخصية يسوع المسيح ، وبالمقابل على التأكيد على طبيعة لاهوتية

(١) انظر مثلاً : ادمون رباط - المسيحيون في الشرق قبل الاسلام ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٩ . وكذلك : أسد رستم - كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٧٨ .

وحيدة له . ان دلالة هذا التصور اللاهوتي خطيرة بالنسبة الى مصائر «الكنيسة الأم السلطوية» . فالمبدأ الرئيسي بالنسبة الى هذه الأخيرة يكمن في أنها «جسد المسيح يسوع» وتجسيد له في كل سماته ومواقفه وآفاقه . أما أن تكون المنوفيسية قد علقت هذا المبدأ وانتهت من الداخل ، فإن ذلك ما نستطيع تبينه من خلال ما انطلقت منه في أساس الأمر : لقد نفت العلاقة بين اللاهوت والناسوت نفيّاً يبدو كأنه قطعي ، بحيث ان الحديث عن تظاهر انساني (ناسوتي) للاهوتي يغدو نافلاً ؛ بل انه يتحول ، بوضوح ، إلى خطئ عقيدي ولوثة منافية للمسيحية اليسوعية «النقية» ومضادة لها ضمناً وصراحة^(١) .

في ذلك الموقف الصارم الذي اتخذته المنوفيسية ، تجد «الكنيسة المجسدة» مقتلها ؛ إذ أنها ، في هذه الحال ، لا بد وان تفقد الجذور العقيدية اللاهوتية التي تستمد منها مشروعية وجودها أمام نفسها وأمام جمهور المؤمنين . ومن هنا ، كان رد الفعل جد صارم : الهجوم على «الهرطقة» من حيث هي ، وتشتيت أصحابها واتلاف كتاباتها .

ان في النتائج الرئيسية ، التي وصلت اليها المنوفيسية ، وجهين اثنين هامين ، بحيث يشكل كلاهما صيغة من صيغ المقاومة للهيمنة الدينية والسياسية لروما (والقسطنطينية) . أما الصيغة الأولى فتتلخص في الدعوة الى تكوين مؤسسة كنسية وطنية (داخلية) مستقلة في سورية ومصر ، تستجيب - فعلاً - للاحتياجات الاجتماعية والثقافية والسياسية المنطلقة ، بمعنى أو آخر ، من الخصوصيات النسبية للتطور في هذين البلدين . بل لعلنا نقول ان مصر نفسها تحولت - في مرحلة من مراحل الصراع المعني هنا - إلى «ملجأ الهرطقة» ، وذلك ، كما يبدو ، بسبب القوة

(١) لدى ا.م.ا. الشهرستاني ، نقراً الايضاح التالي للمنوفيسية ، الذي يتسم بكثير من الدقة الاصطلاحية والعمق النظري والمصادقية التاريخية في ابراز عملية «التعليق» تلك للعنصر الانساني (الناسوتي) : «وزعم اكثر اليعقوبية ان المسيح جوهر واحد ، اقنوم : إلا أنه من جوهرين . وربما قالوا طبيعة واحدة من طبيعتين . فجوهر الاله القديم ؛ وجوهر الانسان المحدث تركباً تركباً كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهرًا واحدًا ، اقنومًا واحدًا ، وهو انسان كله واليه كله . فيقال : الانسان صار الهاً ، ولا يتعكس فلا يقال : الاله صار انساناً» . (ا.م.ا. الشهرستاني : الملل والنحل - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٢٦) .

التي حققتها هناك حركة الاستقلال المدعومة والمحمية شعبياً. وقد كان من ضمن أولئك الهراطقة سويروس نفسه ويوليانوس وغيرهما من قادة المنوفيسية^(١).

أما الوجه الآخر فنلاحظه متمثلاً بتغليب الالهي على الانساني وظهور هذا الأخير وكأنه - كما أشرنا فوق - منفي عن حقل «المسيحية» أو غير ذي أهمية بارزة في المنظومة العقيدية النظرية للمنوفيسية. ولعلنا نتبين في هذه الوضعية الدقيقة مفارقة دينية (ومنطقية) أو ما يقترب من ذلك. فالهرطقة المعنية، هنا، وضعت نصب عينها هدفاً محدداً وكبيراً ومترعاً بالمخاطر، وهو تهديم المقوم الأساسي لأطروحة الكنيسة السلطوية الأم: أن تكون المثلة الحقيقية والوحيدة ليسوع المسيح. وهي إذ انطلقت من هذا الهدف في نشاطها النظري اللاهوتي والتنظيمي الكنسي (والسياسي بحدود معينة)، فإنها وجدت نفسها على الطريق الذي لا بد وأن يقود إلى نفي الجانب الانساني (الناسوتي) من المخلص يسوع، ومن ثم أمام هذا النفي نفسه فيما يتصل بها هي نفسها. ذلك أنه حين يتم نفي الصلة بين المسيح لاهوتاً (الهاً) والمسيح ناسوتاً (انساناً) أو حين تتم هذه الصلة - كما ذكر الشهرستاني - فقط من تحت إلى فوق وليس من فوق إلى تحت، فإنه يغدو غير وارد منطقياً وعقيدياً التحدث عن «الخلاص»، خلاص الانسانية عن طريق يسوع المسيح إياه. إذ أن إنجاز مثل هذه المهمة يقتضي - بالمعنى المسيحي اليسوعي، أي بحسب منطوق الموقف المسيحي اليسوعي العام - أن تكون هنالك جسوراً ما وباعتبار ما بين الانساني والالهي، بحيث يتسنى للأول أن يمتلك، عبر الثاني، قدرة خاصة واستثنائية على تحقيق ذلك الخلاص أو التهيئة له على صعيد المؤمنين والخطاة.

بيد أن الأمر وإن ظهر - على الصعيد العقيدي الذهني (المجرد) متعارضاً مع تصور الخلاص المسيحي اليسوعي، فإنه - في صيغته المنوفيسية المشخصة التي برز

(١) «وأقام سويروس في مصر عشرين سنة يدبر الكنيسة بنوايه ومراسلاته ويحبر الكتاب اثر الكتاب نقضاً (للبدع ودحضاً للمضللين) بهمة لا تعرف الملل ولا تتعثر بأذيال الكلل عجياً على مسائل السائلين معطياً الفتاوي السديدة في المشاكل الشرعية». (كتاب اللؤلؤ المتثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية - تأليف البطريرك اغناطيوس الأول برصوم، ص ٢٣٩ - ٢٤٠. منقول عن: اسد رستم - كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، نفس المعطيات المقدمة سابقاً، ص ٣٦٤).

فيها وأثبت وجوده في حقل الصراع مع الخصوم - كان يعني تقديم تصور خاص عن الخلاص من شأنه أن يؤدي إلى انتزاع حق الاستقلال السياسي الوطني والاجتماعي والسياسي والعقدي عن المركز البيزنطي . وفعلاً ، كان الأمر كذلك . لقد حدث الانشقاق الكبير بين الكنيستين ، السريانية في سورية والقبطية في مصر ، عن «الكنيسة الأم» . وكان ذلك قد تم في سياق وأعقاب المجمع المسكوني الجديد ، الذي دعت إليه هذه الكنيسة وعقد في مدينة خلقدونيا عام ٤٥١ .

في ذلك المجمع الخلقدونى برز هجوم عنيف ومركز على المنوفيسية انتهى باستصدار قرار بتحريمها تحريماً قطعياً بعد لعنها والتشهير بها وإدانتها عموماً وخصوصاً . وقد أعقب ذلك ، فعلاً ، موجات عنيفة ومديدة من الاضطهاد الدموي والملاحقات والحرمانات ، التي وجهت ضد الخوارج عن الكنيسة الرومية الرسمية وعليها . ولكن على صعيد المجمع المذكور حدث ان انقسم المؤتمرون الى قسمين كبيرين متعارضين تعارضاً صريحاً وعميقاً . الأول منهما تمثل بالذين أصروا على الموقف الكنسي «القويم» ، ومن ثم بادانة المنوفيسية ؛ في حين تمثل القسم الثاني بأولئك المنوفيسيين ، الذين رفضوا نتائج المجمع رفضاً صريحاً . وقد ركز الفريق الأول ، في رفضه للمنوفيسية وإدانتها ، على أن المبدأ الأسمى للمسيحية يتمثل باتحاد الطبيعتين في يسوع المسيح ، الإلهية والانسانية ، ذلك الاتحاد الذي ينجم عنه المخلص يسوع المسيح نفسه .

ومن الأهمية المبدئية بمكان أن يشار إلى أن الكنيسة الأم إذ أعلنت مبادئها الاسمية في صيغة الاتحاد الثنائي المنوه به ، فإنها - على هذه الطريق - انطلقت الى تكريس سيادتها المباشرة على «الأمة المسيحية» بصفتها (أي الكنيسة) سلطة سياسية (زمنية) ودينية (روحية) في آن واحد^(١) .

وعلى هذا ، يغدو مفهوماً لماذا أعلنت تلك الوقفة الهجومية الواسعة ضد

(١) انظر : الأب بطرس ضو - تاريخ الموارنة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٦٠ . وجدير بالإشارة الى أن الكنيسة الخلقيدونية (الرسمية) نفسها انشطرت لاحقاً الى شطرين ، هما الموارنة والروم . أما الفترة التي تم فيها هذا الحدث فقد كانت ، بحسب المؤرخ اليعقوبي المنوفيسي ديونيسيوس التلمحري ، في الثلث الأول من القرن الثامن (عام ١٠٣٨ لاسكندر وعام ٧٢٦ للميلاد) . (انظر : نفس المرجع السابق ومعطياته) .

انصار النوفيسية وغيرهم من المتعاطفين معهم أو الناحيين ، بشكل أو بآخر ، نحوهم . وقد عقد الموقف ان الهراطقة عموماً ، ومنهم النوفيسيون ، لم يكونوا موحدين على الصعيد العقيدي النظري ، بالرغم من وحدتهم العميقة كثيراً أو قليلاً على الصعيد العملي السياسي . وهذا نلاحظه في بعض الأدبيات التي نشأت بصيغة جدال بين النوفيسيين (اليعاقبة) من طرف ورهبان بيت مارون التابعين للكنيسة (الأم) من طرف آخر . فهنا نلاحظ الفريق الأول وقد ركز هجومه على الفريق الثاني ، مُدخلًا - في هذا السياق - نسطوريوس والنسطورية بمثابته «عدو الله» . وفي سبيل امتلاك رؤية مشخصة مباشرة عن واقع الحال هذا ، بما فيه التمعن بالمشكلات المختلف عليها من قبل الطرفين ، نورد بعض المقاطع من رسالتين جرى تبادلها من قبل هذين الأخيرين . «وقد عثر الأب نو على نسخة لهذه الرسائل في المتحف البريطاني (المخطوط السرياني ١٢١٥٥ ص ١٦٣) ونشرها سنة ١٩٠٣ في جريدة جمعية القديس لويس للموارنة»^(١) .

في الرسالة الموجهة من رهبان بيت مارون الى اليعاقبة ، نقرأ مايلي : «مباحث رهبان بيت مارون مع اتباع بطرس (القالينيقي بطريك اليعاقبة) المنشقين وهم فرقة من فرق اوطيخا وساويروس وقد جعلوا اسماءهم قبيحة ومساكنهم اشبه بمغاور اللصوص والسرقة . من رهبان بيت مارون المستقيمي الايمان ابناء الكنيسة المقدسة الكاثوليكية : قال الكتاب الالهي يكونون خزيًا لأبائهم ولا يتعلمون الأدب . صدق عليكم وتحقق فيكم هذا الكلام لأن لكم وجوها من نحاس فلا تنجلون وإلا لكتتم تقولون للجبال اسقطي علينا وللأكام غطينا . ها انا من خمسة أيام نتظر الجواب منكم على المسائل الخمس التي سقطتم فيها فما استطعتم الاجابة . ومع ذلك ثابروا على الاهتمام بكم . . . اجيبوا بخوف الله معتمدين على علماء معروفين بالفضل والقداسة ولا خلاف حول صدق أقوالهم بيننا وبينكم وبين أحد المسيحيين .

والمسألة الأولى من المسائل الخمس هي أصبح القول ان المسيح مزدوج (أي اله وانسان) . والمسألة الثانية أيقال ان في المسيح طبيعة مركبة . والثالثة هي الطبيعة والاقنوم والقوام شيء واحد في المسيح . والرابعة هل حرم ديوسفوروس معلمكم

(١) ضمن : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٩٨ .

اوطيخا بعد أن قبله في شركته . والخامسة هل تحرمون كل من يقول ان في المسيح طبيعتين قبل الاتحاد وحين الاتحاد وبعده . هذه هي المسائل الخمس . اما المحامون الذين اتيتهم بهم فإن اخذوا على انفسهم أن يدافعوا عن الأضاليل التي تسكعتم بها فليجيئوا أولاً على المسائل الخمس المذكورة . . . ونستحلفكم بالثالوث الأقدس المتساوي جوهرأ ، وباسمكم الموقر ان كنتم توقرونه ان تطلعوا على رسالته هذه جميع الاساقفة القرييين منكم في جهة المشرق ، ونحيينا عليها كما تقدم^(١) .

أما الرسالة الجوابية التي بعث بها اليعاقبة (المنوفيسيون) الى رهبان بيت مارون ، فنورد منها مايلي : «جواب وحل موجز للمسائل الخمس التي ارسلها رهبان بيت مارون من قرية أرماز بعد ذهابهم من انطاكية الى الرهبان الارثوذكسيين المقيمين بالأديار المقدسة في مابين النهرين : إلى غصن الجفنة الخلقيدونية وفرع جرثومة لاون واصل الحمص الذي نبت كرم توادوريطس . وبالأجمال إلى ابناء الشقاق الكبير الذي كان في الكنيسة وبدد اعضاء المسيح وفرق جسده الى أقسام شتى إذ لم يأل اصحابه جهداً في ان يطلخوا ايمان الحق الذي علمه الرسل القديسون بما امكنهم من الجسارة . . . لما بلغتنا رسالتكم المشتملة على الاهانات لنا وقرأنا كلامكم المتضمن الافتراء علينا لم يشق علينا ذلك بل يمكننا القول انه اوعب قلبنا سرورا اذ افصح لنا عن ضعف أفكاركم ووهن آرائكم وأبان لنا ان لا حجة لكم كافية للدفاع عن بدعتكم السيئة الا ما احدثتموه بقصد الفرار من الحق والتستر من العار حسب قول اللاهوتي في كلامه عن بعض السفسطيين اذ قال (يعدون ابحاثاً غامضة ليتستروا بها عن ان يفحموا ولذلك يتعسر اقناعهم) . فأنتم اشيء بهؤلاء اذ لم تقدروا ان تحيئوا بكلمة على ما سألكم إياه تلاميذ الحق في انطاكية لا خطياً ولا شفهاً بل تريدون ستر عاركم . .

أما بصدد المسألة الأولى وهي ايصح القول ان المسيح مضاعف فاني متعجب كيف تجهلون هذا وأنتم علماء أفرام . . ومع ذلك إذا ابتغيتهم بياناً كما هو مبين وواضح فهذا القديس كيرلس لا خلاف على شهادته وهو يقول في رسالته إلى نسطور عدو الله ان كلمات الانجيل الذي كتب لخلاصنا لا تسمح لنا بأن نقسم المسيح الى

(١) ضمن : نفس المرجع السابق ومعطياته ص ١٩٩ .

اقنومين او قوامين فليس مزدوجاً من هو واحد أحد ، وان تركيب من شيئين فقد اجتمعا بالوحدانية . أما المسألة الثانية وهي هل في المسيح طبيعة مركبة فيحتمل أنه كان لكم نفع منها انتم ومن يتبعكم في ضلالكم . . . فاذا كان قصدكم ان تقولوا طبيعة متجسدة حسب تعبير الملائكة الالهيين فذلك صحيح . أما إذا كان قصدكم أن تقولوا طبيعة مركبة أي مؤلفة من شيئين فيخالفكم بذلك القديس كيرلس القائل في خطبته الثالثة ما حرفيته (إذا كانت بعض الأشياء التي لا تشابه بينها في الطبع تعاون على الوحدة في التركيب فلا ينبغي فصلها واعتبارها اثنين ولو بقي شيء من كل منهما في المركب لأن اجتماعهما لقيام الوحدة لا يمكنه أن يبطل طبيعتها ولو ساغ لنا أن نسمي كل واحد من الأشياء المتحدة باسم لأن المجموع من شيئين) . وأما في المسألة الثالثة وهي هل الطبيعة والاقنوم والقوام في المسيح شيء واحد فأنا أسألكم : اتقولون ان الطبيعة والاقنوم والقوام شيء واحد في المسيح ام انها مدلولات مختلفة . . . فاعلموا أننا لا نعتقد أن عمانوئيل ذو قوامين كما لا نعتقد أنه ذو طبيعتين أو اقنومين . ونتبع في ذلك القديس كيرلس الذي قال في رسالته الى نسطور (لا يلزم أن نجزي سيدنا يسوع المسيح الوحيد الى ابنين . . .) هذا ختام الجواب على مسائل بيت مارون المقيمين ببلاد افاميا^(١) .

تلك مقاطع هامة من الرسالتين التاريخيتين ، تلقي أضواء ساطعة على المشكلات اللاهوتية الرئيسية ، التي كان الخلاف والصراع حولها بين الهرطقة النوفيسيين والآخرين من المنضوين تحت اطار الكنيسة الرسمية . ولعلنا نشير إلى أمر واحد في هذا السياق وخارج عن الدائرة اللاهوتية ؛ ذلك هو ما يسجله رهبان بيت مارون على اليعاقبة من انهم يحملون «اسماء قبيحة» وان «مساكنهم أشبه بمغاور اللصوص والسرقة» . ان ما نقرأه ونستنبطه في هذا المآخذ يتمثل بموقف اجتماعي طبقي نخبوي ، موقف يجسد احتقار «العلية» لـ «السفلة» . وبالطبع ، لا ينبغي أن نصخم هذه اللحظة الاجتماعية الايديولوجية ؛ ولكننا نرى فيها نافذة صغيرة تطل على الخلفية الاجتماعية الطبقة القابعة وراء الموقف اللاهوتي لأنصار الكنيسة القويمية . ورغم هذا وذاك ، يظل صحيحاً أن هؤلاء ومن ساروا معهم من

(١) ضمن : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

«المركزيين» هم الذين أملوا على التاريخ المسيحي اللاهوتي (النظري) سماته وآلياته وآفاقه الرئيسية الكبرى . وثمة زاوية أخرى تطرح نفسها بمثابرتها امتداداً للموقف الاجتماعي المومي اليه : لم يكن امام الهراطقة اليعاقبة أمام القسوة التي واجههم بها خصومهم الأعلون سوى خيار واحد ، وهو اللجوء - كذلك - الى القسوة والعنف حيثما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ؛ بالرغم من أن ذلك كان ، في أحيان عديدة ، يكلفهم الكثير . ولقد كان من شأن هذه الوضعية المركبة ان جعلت خصوم هؤلاء (المنوفيسيين) في انطاكية يلجأون الى «الثالوث المقدس» ، البطريك القسطنطيني في القسطنطينية والبابا الرومي في روما والملك الامبراطور وزوجته في القسطنطينية ، بهدف استعدائهم وتخريضهم على «المجدين الهراطقة» .

وقد حفظت مجموعة ثمينة من الوثائق الكتابية ، التي تلقي اضواء كاشفة على تلك المرحلة التاريخية من الصراع بين الكنيسة الشرقية النازعة إلى الاستقلال العقائدي والسياسي والاداري التنظيمي عن «جسد المسيح - الكنيسة الأم» من طرف ، وبين هذه الأخيرة ومن انضوى تحت لوائها وكمن وراءها في المقاطعات الشرقية نفسها من طرف آخر . نختار من تلك الوثائق رسالة وقع عليها رهبان ابرشية انطاكية وبعض رجال الاكليروس الخلقيدوني الذين اجتمعوا في القسطنطينية في ١٥ تموز من عام ٥١٨ برئاسة يوحنا بطريك عاصمة المملكة . وقد وجهت الرسالة الى هذا الأخير ، وجاء فيها مايلي : «... الآن حان الوقت أيها الآباء الجزيلو الغبطة لتهتف كل كنائس الله في المعمور بفم واحد بهذا النشيد النبوي ... طالما ان صولجان الرومانيين بقبضة ملكنا (يوستينوس واوفيميا الملكة) الجزيلي التقوى والحبيين لدى المسيح وان الحرية والثقة أصبحتا هكذا بمتناول اتباع الدين الصحيح فكيف لا يصح للمؤمنين ان يهتفوا بهذا النشيد ... أية مأساة لم تتجاوزها الشرور التي فعلها ساويروس ؟»^(١) .

ولعلنا نلاحظ ان الرسالة لا تعلن عن مواقف «عقيدية» فقط ، بل كذلك عن موقف اداري مؤسسي مفعم بالسياسة ، سياسة التحالف بين الصولجان الامبراطوري والصليب الكنسي السلطوي . ويبقى هاماً أن يعلن - في هذا السياق -

(١) ضمن : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٨٢ - ١٨٣ .

بأن المواقف العقيدية لدى ساويرس تحولت ، في اثناء صراعه غير المتكافئ مع أولئك ، الى قوة سياسية فاعلة ، بل لا يستهان بها . فقد ترتب عليها أن أعيد النظر في المسيحية اليسوعية بالاعتبارين الرئيسيين المتضايقين البنيوي والوظيفي : ان الاله المسيحي اليسوعي كان عليه ، والحال على ماغدا عليه لدى الفريقين المتخاصمين المتصارعين (المنوفيسيين والكنسيين الرسميين) ، أن يخضع - ضمن حركية تكاد تكون تلقائية عفوية - لتبدلات عميقة . فهنا على هذا الصعيد المفعم بالغموض غالباً ، نواجه نزوعين اثنين كبيرين أحاطا بالموقف وعبراً عنه ولخصاه على نحو أولي . النزوع الأول تمثل بالتركيز على «الوحدة» ؛ في حين قام الثاني على تصور «الثنائية» .

ان النزوع الى الوحدة يتضح ، في هذه الحال ، بمثابته تأكيداً مشدداً على عنصري التجريد والتعميم (الشمول) ؛ ومن ثم ، فتحن بوسعنا أن نلاحظ ، على هذا المستوى من الموقف ، عزوفاً أولياً طارئاً عن العالم الشخص ، ولكن للعودة إليه بعزيمة أقوى وبروح أعمق . فالعزوف هذا هو ، في واقع الحال الحقيقي ، عزوف عن الوضعية الكنسية الرسمية ، أي - كما رأها المنوفيسيون وخضعوا لنتائج ممارساتها - المتسمة بالشناعة والاضطهاد والتسلط ، وكذلك القائمة على الزعم (الاطروحة) بأنها الممثل الأوحدي ليسوع المسيح . ومن هنا ، كانت العودة إلى العالم الشخص ذاك مشروطة بانجاز الخطوة الأولى على هذا الطريق ، وهي تلك التي تتمثل بزحزحة «الكنيسة الأم» عن «قرارها التاريخي» بأنها سيدة هذا العالم . وعملية الزحزحة هذه ليست موقفاً نظرياً لاهوتياً ، من حيث الأساس ، بقدر ما هي موقف عملي جديد من العالم الاجتماعي القائم . ودون أن تكون الهزيمة (وضمنها اليعقوبية) قد وصلت إلى هذا الضرح ، فإنها كانت تدرك ، بصورة مضطربة وعبر الطرق التي عبدت بالعذابات (المسيحية) والآلام والملاحقات ، ان المسألة هي كذلك . وهذا ما جعلها تندفع - بدون هوادة وبلا تراجع - باتجاه الحفاظ على تصور «الخلاص والمخلص» الذي سيأتي يوماً ويعيد بناء العالم وفق «الموازين» التي اعلنت عنها «الكتب» .

لقد ادرك اليعاقبة ان «الدخول من الباب الضيق» ، كما عني يوماً ما يسوع المسيح الانجيلي ، هو فصل المقال في انجاز العالم العريض العظيم ، عالم

المخلصين . ومن هنا ، كان العذاب من قبل الطرف الآخر أمراً لا مفر منه ! بل هو ضروري لتحقيق التجربة التي تمنح صاحبها أحقية المرور بذلك الباب إلى «يوم الدينونة الأعظم» .

ان اليعقوبية إذ انطلقت من «الوحدة الكلية» ، فقد حققت - عبر ذلك - وظيفة ذات أهمية أولية بالنسبة لمصائر كفاحها ؛ تلك هي سحب البساط العقيدي اليسوعي من تحت أرجل الكنيسة الدولية . وفي ضوء هذا الموقف المشروع تماماً والمخفق تاريخياً ، غدا يسوع المسيح المنوفسي أكثر قدرة على الفعل الكوني ، ولكن دون ان تتاح له امكانيات هذا الفعل على صعيد العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على سبيل الحسم . فلقد كان الحسم بيد يسوع المسيح السلطوي ؛ لأن التاريخ الشخص ، أساساً ، وقف من وراء ذلك ، ويمكن أن نقول بأن التشديد على الطبيعة الالهية الواحدة ليسوع من قبل الهرطقة اليعقوبيين مكنهم من أن يمتلكوا طاقة ذاتية كبرى للتأثير في عالم انساني أصبح ، حقاً وفعلاً ، لقمة سائغة في أيدي جمحافل «من البهائم المتوحشة» ، التي انفلتت من عقابها لتدافع عن ثرواتها وعقاراتها وعبيدها ومتعها التي دخلت مراحل الاستنفاد التاريخي . ولقد كان معبراً حقاً ما سجله الكاتب السوري اميانوس مارسلانوس بصدد تلك «البهائم» . فلقد كتب : «لم ير التاريخ بهائم متوحشة أشد افتراساً وقساوة من المسيحيين بعضهم لبعض»^(١) .

ولكي تكتسب هذه «الصرخة» ، التي اعلنها مارسلانوس ، بعدها التاريخي الاجتماعي ، ينبغي أن نضعها أولاً في سياقها الشخص من الصراع الاجتماعي الطبقي بين «العلية» و«السفلة» من المسيحيين ، دون أن نغفل البعد العقيدي النظري من هذا الصراع . هذا أولاً . أما من جانب آخر ، فائتينا لا بد وأن ننظر الى تلك «الصرخة» من موقع أبعد ما يكون عن منهج إدانة قيمة قدسية من شأنه أن يغيب الدلالة التاريخية الاجتماعية لما حدث على أيدي طبقات وفئات اجتماعية ظهرت وتمحورت دينياً عقيدياً .

وإذا كان النزوع الأول قد تمثل بوحدانية مجردة معممة لمسيح الهى فقد طبيعته

(١) نقلاً عن : ادمون رباط - المسيحيون في الشرق قبل الاسلام ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٠ .

الانسانية بعد أن تجسد بصورة انسان ومن ثم بعد ان اصبح الخلاص على يديه بأداة الانسان (الكنيسة) عامة واجمالاً ، فان النزوع الثاني الكنسي الرسمي نهض على مفارقة عقيدية وواقعية كثيفة بحث فيها عن مشروعية وجوده وعن تكريس لها . هذه المفارقة تقوم على تحميل «الانسان الاله» تصوراً مغايراً له ومناهضاً . ف «الانسان الاله» هذا هو الاله لا انساني ، وذلك بالاعتبار الذي يتحول بمقتضاه الى جزاء لـ «الانسان» اسمه «الكنيسة الأم - السلطوية» . وهو في هذه الحال ومن أجل انجاز وظيفته الكنسية ، يتخذ طابعاً محدداً عينياً . أي ان «الانسان الاله» يصبح ، والحال كذلك ، انساناً من طراز محدد ، هو الانسان الكنسي السلطوي النخبوي الذي ينتمي الى طبقة ملاك العبيد والعقاريين والاثرياء من التجار والمرايين الخ . . . وفي هذه الحال ، حين يراد للموقف أن يعاد النظر فيه باتجاه «الاله الانسان» المنوفيسي ، يغدو من اللازم أن تتحول بنية الصيغة المطروحة على أساس الكنيسة القويمة ، لكي تتمكن من الابقاء على تصور أو حلم «الخلاص الانساني» ، بالضبط «الخلاص الانساني» . وبتعبير الموقف العملي ، لا بد وأن تعني عملية إعادة البناء تلك ، ضمن مآلئها ، خلاصاً من الكنيسة المذكورة وما يقبع خلفها من وضعية اجتماعية واقتصادية وسياسية .

ولنا أن نضيء الموقف الأخير اذ نشير الى أن انجاز العملية المنوه بها يتضح عبر لحظتين اثنتين هامتين ، ضبط حدودهما النظرية اللاهوتية العامة الشهرستاني في سياق عرضه لليعقوبية (المنوفيسية) . اللحظة الأولى تتمثل بصيرورة الانسان الها ، أي ببرز يسوع المسيح قوة نافذة عملاقة تعلو على الكنيسة السلطوية وترفضها باعلانها غير شرعية . أما اللحظة الثانية فتعبر عن نفسها بفعل الكينونة بمثابته تنويعاً لفعل الصيرورة السابق . وفي ذلك الفعل الكينوني نواجه الاله والانسان وقد غدوا في مستوى واحد متضايف الطرفين ، الانسان الذي غدا الها والاله الذي اكتسب بنيته ووظيفته الجديدتين نوعياً بعد الالتحام الانسان به . وحالئذ ، أي بعد تحقيق ذلك الالتحام ، تتحول عملية التشارك بين الطرفين المذكورين الى هوية ذاتية تقوم على الواحد بما هو اثنان وعلى الاثنين بما هما واحد ؛ وهذا من شأنه أن يكون تعبيراً عن الجوهر الواحد أو الأقنوم الواحد : هو الاله كله وانسان كله ؛ وهو انسان كله والاله كله . وهكذا وعلى هذه الطريق الدقيقة المزهفة ، «يُخرج» عن «الانسان» ثانية ،

ليعتلي سدره الخلاص وما يقتضيه من فعل خلاصي . أما ذلك فيتم بقدره الهية انسانية تناوى «الجسد المسيحي» المزعوم ، أي المتلبس لبوس كنيسة كاثوليكية ارثوذكسية . بيد أن جلاء الموقف على المستوى «النظري اللاهوتي» لا يعني أنه - على المستوى العملي المباشر - قد جُلي وحسم لصالح المنوفيسية . وإذا يكون الأمر على هذا النحو ، فإن من حق المؤرخ المدقق في الحدث التاريخي الشخص أن يعلن أن التاريخ بشقيه العملي المباشر والنظري اللاهوتي ظل ، في حينه ، يتحرك لصالح «الكنيسة الأم» بقدر ما ظل يتحرك لصالح العلاقات الاجتماعية الطبقية والاقتصادية والسياسية الكامنة خلفها . وفي هذه الحال ، لا يسع المنوفيسية إلا أن تكتفي لنفسها بدور الحافظ التاريخي التراثي ، الذي يضع نصب عينيه المستقبل البعيد ، بحيث تتحول - في موقعها - إلى حلم واقعي ، بقدر ما يتسع المستقبل بواقعيته .

من ذلك الموقع الشخص تاريخياً تراثياً ، أو الذي أصبح مشخصاً غاية التشخيص والضبط التاريخي التراثي ، نواجه مسألتين مركبتين برزتا على صعيد الخصومة والصراع بين المنوفيسية والكنيسة الرسمية (الكاثوليكية الارثوذكسية) ، وذلك على نحو يخص الوضعية الايديولوجية الدينية والسياسية آنذاك . المسألة الأولى تجلت في الموقف من السلطة السياسية المهيمنة ، في حين أن الثانية اتضحت في الصيغة التي اتخذها تصور العبادة والطقوس . فلقد انطلق موقف الكنيسة المعنية من السلطة من أن هذه الأخيرة تمثل وضعية طبيعية مثبتة - بالأساس - من أصول ومبادئ يسوع المسيح . وعلى ذلك ، فإنها (الكنيسة) اذ تعلن نفسها سلطوية ثيوقراطية (دولية) ، فإنها ، بذلك ، تستجيب لتلك الاصول والمبادئ . إنها وهي «جسد المسيح» ، لا بد لكي تحقق مهمات هذا الأخير من أن تمارس دوراً اجتماعياً سياسياً ، حتى لو كان ذلك على نحو غير مباشر أو عن طريق الانابة (أي عبر الملك أو الامبراطور الخ . . .) . وبالطبع ، لا يسع الباحث التقليل من أهمية هذا الاعلان الايديولوجي المفصّل عنه والمدعم بـ «وثائق مسيحية» . إذ غالباً ما يتم مثل هذا الأمر دون التمكن من صوغ مسوغاته الايديولوجية على نحو دقيق ومتناسك .

بالطبع ، لا نريد القول ، في هذا المعقد من المسألة ، بأن أهميتها تنحصر في ايصالها إلى مستوى ذلك «الاعلان» . فالعلاقة المصلحية الذرائعية العميقة ،

التي جمعت بين الكنيسة والسلطة ، هي - بالأصل وقبل كل شيء - علاقة تحددت في الوظيفة الايديولوجية التي نيّطت بالكنيسة من موقع وظيفي اقتصادي اجتماعي وسياسي . ومن هنا ، كانت الأهمية المركزية التي أولتها السلطة السياسية ، وإن على نحو مضمّن ، للاطروحة البولسية الشهيرة حول تجسد الكنيسة بيسوع المسيح^(١) . وهذا ما يدعونا إلى القول بأن البولسية هي المشروع انسيامي الديني والمشروع الديني السياسي للسلطة السياسية الدولية ؛ مما يدعونا إلى التأكيد على أن العلاقة المصلحية بين الطرفين لم تظهر بمثابرتها موقفاً مقحماً على الكنيسة ، بقدر ما كانت وجهاً من أوجهها ونزوعاً من نوازعها .

كان على المنوفيسية ، والحال كذلك ، ان تضحى بـ «الانسان الاله» المفهوم من موقع كونه مندغماً بلا انسانية الكنيسة ومن ثم بعقيدة «الطبيعتين» ، لتصل - على هذه الطريق - الى القول بأن المسيح ذو طبيعة الهية موحدة ، ولتتمكن ، بالتالي ، من مناهضة ذلك التصور الشيوعي (الديني السياسي) للعلاقة بين الكنيسة ويسوع المسيح . وإذا ما تم ذلك ، فإنه يغدو نافلاً وغير قابل للتبني والدفاع أن يكون الدين المسيحي الكنسي دين دولة أو أن تكون الكنيسة هي نفسها جيباً من جيوب الدولة . ومن اليسر بمكان أن تجد هذه الفرقة الهرطقية في نصوص «الكتاب المقدس» بغيتها من «الآيات» التي ترى أنها تدعم موقفها الانساني اللاسياسي (اللا دولتي) ذاك^(٢) . ولقد كان من شأن هذا الأخير أن دفع بها دفعاً باتجاه الرفض لفعل - كان في حينه - على غاية الأهمية الايجابية التاريخية الاجتماعية ؛ نعني بذلك التحام الكنيسة بالدولة

(١) يقول بولس في (رسالته الأولى الى أهل كورنتس - الكتاب المقدس ١٢/٢٧ - ٢٨) :
«فأنتم جسد المسيح وأعضاء من عضو . وقد وضع الله في الكنيسة اناساً أولاً رسلاً ثانياً
أنبياء ثالثاً ثم قوات ثم مواهب شفاء فإعانات . . .» . وفي (رسالته الى أهل أفسس -
الكتاب المقدس ٣/٢١) ، يعلن بوضوح :
«المجد في الكنيسة في المسيح يسوع» .
(٢) في «انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا - الكتاب المقدس ، ١٢/١٣-١٤ ، نقرأ ما يؤيد
مثل هذا الموقف :

«وقال له واحد من الجمع يا معلم قل لأخي بقاسمئي الميراث . فقال يا رجل من أقامني
عليكم قاضياً أو مقسماً» .

وتحولها الى دينها .

لقد رفضت المنوفيسية (ومن قبلها أيضاً النسطورية والأريوسية) الانصياع للكنيسة الدولتية ، لأنها اعتبرت زعمها بالتمثيل الديني السياسي تسلطاً موجهاً ضد المسيحية اليسوعية نفسها . أما تجسيد هذا الرفض فقد تم عبر تشكيل الكنيسة السريانية في سورية والقبطية في مصر ؛ بحيث تبرز - في هذا السياق المفعم بالاستشكالية - البواعث الوطنية السياسية والاقتصادية والايديولوجية ، التي كمنت وراء عملية التشكيل هذه ورافقتها وحفزتها . وبذلك وفي ضوءه ، فقد كانت محاولة المنوفيسية إحالة المسيحية إلى علاقة لا سلطوية (لا دولتية) بين يسوع الرب والانسان هي نفسها ذات بعد سياسي واجتماعي غير مباشر ، وربما كذلك مباشر . بل ان انقلاب الهرطقة العقيدية المنوفيسية إلى موقف سياسي - على الرغم من اعلانها ذلك بشكل أو بآخر - كان أمراً ضرورياً لصمودها في وجه الخصوم واستمرارها بصيغ متعددة مباشرة ومتوسطة . وهذا ، بدوره ، ما يدعونا إلى أن نفهم نفيها لـ «القاضي» - الذي رفض يسوع المسيح بمقتضى النص الذي أوردناه توأ في الهامش أن يكونه - على أنه نفي للسلطة السياسية ولكنيسة المركزية المضطهدة ، وإن كلفها ذلك الوقوع في تناقض صريح بين العقيدة والممارسة ؛ مما يحملنا على الإشارة المنهجية التاريخية والاجتماعية التالية ، وهي أن جل الخصومات والصراعات التي دارت رحاها بين الاطراف الدينية آنذاك ، كانت - رغماً عنها وعن تصورات أصحابها الدينية - خاضعة لمقتضيات الخصومات والصراعات السياسية الناشئة عن الوضعية المشخصة (الاجتماعية الاقتصادية) ، في حينه .

أما المسألة المركزية الثانية (تصور العبادة والطقوس) فقد عمقت الخلاف والصراع بين الفريقين من جهة الموقف الديني المباشر والمحدد . ولكنها ظلت متصلة أشد الاتصال بتصور التمثيل الكنسي السياسي والديني للمسيح والمسيحية . فإذا كانت الكنيسة الرسمية قد رأت أن الحقيقة المسيحية تتجسد فيها هي نفسها بمثابتها «جسد المسيح» ومثله ، فإن المنوفيسية نحت - في الاطار العام الاجمالي - نحواً يأخذ بالحقيقة الروحية ، غير المجسدة ، بالرغم من أنها هي أيضاً تجسدت بكنيسة أو بكنائس ، وذلك بقدر ما استطاعت على ذلك . هاهنا ، يبرز يسوع الاله روحاً تعمر العالم وتعمه وتخرقه عمقاً وسطحاً ، بحيث ان الساجدين له من المؤمنين

المتبتلين لأبد وأن يقرأوا بهذه الروح البعيدة عن كل الطقوس والعبادات الحسية ،
الروح التي تغدو الحقيقة كلها والوحيدة حقاً :

« الساجدون الحقيقيون يسجدون للأب بالروح والحق لأن الأب إنما يريد مثل
هؤلاء الساجدين . لأن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي
أن يسجدوا »^(١) .

ويبدو واضحاً أن هذا الموقف الروحي الخالص وضع نفسه ليس مقابل جسدية
المسيح الكنسية وضدها فحسب ؛ لقد فعل نفس الشيء حيال سلف هذه الأخيرة
التمثل ، حقاً ، بالطقوسية اليهودية المغلقة . وهذا ، من طرفه وبدوره ، يشير
صراحة إلى اتهام الكنيسة تلك بأنها ، بالأصل والأساس ، على أن تكون مسيحية ،
لأن مقوماتها الداخلية والخارجية لا يتيح لها ذلك . ويمكن أن نضيف إلى ذلك
الفكرة التي سبق أن عرضنا لها في مكان آخر من هذا البحث يمكن أن نغنيها ونعمقها
الآن ، وهي أن المسيحية البولسية المؤسسية (الكنسية الدولتية) تمثل الوريث
الشرعي لليهودية ليس على الصعيد الطقوسي التقليدي فقط أو بالدرجة الأولى ، وإنما
كذلك وعلى نحو متضاد مع ذلك الوجه ، على المستوى العقائدي الديني . إن هذه
الفكرة تصح بالنسبة إلى الصعيدين «الروحي» و«المادي» ، بحيث يتعين علينا
القول ، ثانية ، بأن المسيحية هي المنظر لليهودية واليهودية هي التطبيق لليهودية ؛
مضيفين إلى ذلك أن المسيحية إذ اكتسبت صيغتها المؤسسية البولسية (الدولتية) ،
فإنها اختزلت اليهودية في شخصها حيث أصبحت مسيحية يهودية أو يهودية
مسيحية ، على حد سواء . وقد نعمم المرقف ونجمله إذ نشير إلى أن كلا اللاهوتين
اليهودي والمسيحي يرفضان - ضمناً وعملياً - مفهوم «الروح» كما هو وارد ظاهرياً في
كثير من «نصوصها المقدسة» . بيد أن هذا لم يكن موقفاً فلسفياً ، وإنما جسد مواقف
ذرائعية انطلقت من احتياجات المراحل التي مرّ بها . وبتعبير آخر يمكن القول أنه لا
اللاهوت اليهودي ولا الآخر المسيحي مثلاً رؤية فلسفية مادية materialistic ، كما
يظن بعض الباحثين^(٢) فاللحظة العملية الذرائعية التي نواجهها مضخمة مقابل
اللحظة «الروحية» ها هنا لم تقد إلى بناء مثل تلك الرؤية .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس يوحنا ٤/٢٣-٢٤ .

(٢) ينقل سلوم سركيس في مقالته (نظرة في العلاقة بين اليهودية والمسيحية - نفس المعطيات المقدمة

ولابد من التنويه بان بروز تلك اللحظة في اللاهوت البولسي (الدولتي) كان تعبيراً مرمزاً مضمناً عن أنه (أي اللاهوت) جسد مطامح الطبقة العليا في المجتمع الامبراطوري المنخرطة ، حتى العظم ، في الترفه الاقتصادي والاجتماعي . ومن ثم ، فقد تعين على الهراطقة السائرين على طريق المقاومة لها أن يرفضوا تلك اللحظة المتأبئة عليها ويبحثوا عن البديل في عالم «الروح» المقابل والمضاد ، في اعتبارهم . وحيث كانت المعطيات والملابسات على هذا النحو ، فقد أصبح من مستلزمات الموقف المنوفيسي (اليعقوبي) ان يرفض الكنيسة الرسمية (القويمة) وان يدينها بأنها «سارقة الثمار» ، ثمار المؤمنين . وإن لم يتم ذلك وبالحُدود الأساسية ، فان من شأنه أن يقود إلى الخطيئة .

واذا انجز ذلك ، فإنه يكون تنويجاً للموقف في وجهه السلبي النقدي . أما الوجه الايجابي البنائي فيتمثل بضرورة انشاء كنيسة «روحية» و«وطنية» . ولكن ، كيف يكون ذلك ، هل وجدت أو توجد كنيسة «روحية» حقاً ؟ لعله يمكن الاجابة عن ذلك بالاحتمال الجزئي والآفاق الجزئية ، حيث ينوء بأنه وجدت ، فعلاً وعلى الأقل ، كنيسة «متساهلة» ، تتسم بالتسامح الديني العقيدي ؛ مما قاد لاحقاً إلى تسهيل المشروع التاريخي الكبير المتمثل بفصل الدين (الكنيسة) عن الدولة ، ومن ثم بتحقيق الطموح السيامي الديني المستنير القائم على «العلمانية» .

وجدير بالذكر ، هنا على الصعيد المنوفيسي وبما يتصل بالتسامح الديني ، أن الصراع بين «الكنيسة القويمة الأم» من طرف والهراطقة من طرف آخر اكتسب - في حالات ليست استثنائية - أشكالاً قصوى من العنف والشراسة . (ولنا فيما أوردناه عن الكاتب السوري امياثوس مارسلانوس الكفاية على هذا الصعيد) . ومفهوم ان الطرف الأول ، بما تمتع به من قوة وجبروت مادي عسكري واقتصادي وسياسي مباشر ، كان يمارس تلك الأشكال بكل إحكام وحزم^(١) . ومن ثم وبناء على ذلك ،

= سابقاً ، ص ٣٠) مايلي عن «مجلة ابرنكون الفرنسية في عدد آذار ونيسان ١٩٣٠ الصفحة ٢٠٠ تشير الى مقال من مجلة بوت الروسية يمتدح كتاباً ألمانيا لاوسكار جولديبرغ عام ١٩٢٥ تحت عنوان (حقيقة العبرانيين ، مدخل الى الخماسية الموسوية) بأنه يجاري نظرية فلاديمير سولوفيوف في ان اللاهوت اليهودي مادي» .

(١) هذا الموقف تنبئ به ، على سبيل المثال ، فيما فعله الامبراطور يوستنيانوس ضد الهراطقة . فلقد

فإن مسألة التسامح العقيدي تكاد تكون معدومة تماماً وغير واردة . وعلى جهة أخرى مقابلة ، كان المنوفيسيون والمهرطقة الآخرون يجدون أنفسهم مدعوين الى السير في طريق التسامح مع الأغيار . وقد تم ذلك لاعتبارين اثنين . الأول منها تمثل في أن المنوفيسية ومهرطقات أخرى كانت - ضمناً أي بنيوياً - تنطوي على لحظة أو أكثر من احتمال التسامح حيال الآخرين ، نظراً إلى أنها كانت في الموقع الذي يدعوها إلى الالتحاق على الجانب الآخر ، الذي افتقد وقمع لدى «الكنيسة الأم» . أما الاعتبار الثاني فقد تمثل في ضعف المهرطقات المعنية الموضوعي عن ممارسة العنف تجاه أولئك الأقوياء ، أساساً . ومع ذلك ، لا نعدم في تاريخها الطويل والمرير ما يشير إلى أنها مارست العنف والشراسة ضد خصومها ، أحياناً دون ضرورات مسوغة وإنما كردود فعل غير منضبطة بضوابط تنظيمية .

إن «الكنيسة الروحية» لم تكن - والأمر على ما هو عليه - أكثر من وهم ايديولوجي عقيدي أتى ليلبي احتياجات فئات اقتيدت الى تقديم الضرائب والاعطيات والجعلالات لمن لم يكن في موقع الانتاج الاجتماعي الاقتصادي ومن شأنه ، رغم ذلك ، أن يستهلك ما ينتجه الآخرون ومالا يسمح لهم باستهلاكه . ولقد وصلنا جمع من الوثائق التي ولدت في سياق عمليات العنف والقسر واللين والركون والتسامح تضعنا أمام دلالات كبرى للكنيسة «المادية الدولية» وللمشاريع المهرطقية «الروحية» . وربما استطعنا التأكيد على إحدى تلك الدلالات ، التي يمكن قراءتها واستنباطها من رسالة كنا قد أوردنا بعض فقرات منها ، وهي الرسالة التي ارسلها اليعاقبة (المنوفيسيون) جواباً على رسالة بعث بها إليهم رهبان بيت مارون .

= أبعدهم «عن الوظائف والمهن الحرة ومنع اجتماعاتهم وأغلق كنائسهم . . . وحرّمهم حقوقهم المدنية قائلاً : (يكفي هؤلاء أن يؤذن لهم بالعيش)» . (أسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٦٩) . ومع أن الامبراطور المذكور رأى لفكرة محددة عدم ضرورة تطبيق تلك الاجراءات على المنوفيسيين بسبب قوتهم ولاعتقاده بأنه يمكن أن يستميلهم ، فقد أصدر عام ٥٣٦ م ارادة امبراطورية بنفي من قال بالطبيعة الواحدة في انطاكية ، أي المنوفيسيين بالدرجة الأولى . «وما إن صدر قرار المجمع القسطنطيني بقطع سويروس وحرق مصنفاته في السنة ٥٣٦ حتى هب أفرامیوس ينفذ بالشدة التي عرف بها فأعاد اضطهاد المنوفيسيين وتشريدهم» . (نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٣٧٤) .

ففي هذه الرسالة الجوابية نلاحظ الجهد النظري اللاهوتي الحثيث لاقتناع (أو إرغام) الآخرين بالاعتراف بوجودهم المسيحي كما يفعلون هم ذلك إزاءهم .

ولعل مثل ذلك الموقف كان من الأمور التي اسهمت في الحفاظ على الهرطقة المذكورة ، حيث جعلت الآخرين من المؤمنين غير المرتبطين مباشرة بالمؤسسات السلطوية يأمنون لها أو ، على الأقل ، لا يبدون حذراً منها . بل ربما أكثر من ذلك ، فشطر ليس ضئيلاً من هؤلاء المؤمنين كان قد مثل اليد اليمنى لها إما عقيدياً أو تنظيمياً كنسياً الخ . . . وفي هذا السياق يصح التنويه بالواقعة التاريخية الهامة ، وهي أن المنوفيسيين بسبب من قوتهم الأيدولوجية الذاتية (كيفما كانت مصداقيتها النظرية المعرفية) أولاً ، ومن نزوعهم الى التسامح الديني العقيدي ، ظلوا يمثلون قوة تاريخية وتراثية متدفقة اسهمت في التأثير بتطورات ذهنية كان بعض منها بمثابة تمهيد للعالم الديني الجديد ، الاسلام المحمدي ، في القرن السابع . وجدير بالاشارة - أخيراً - إلى أن هذه الاستمرارية التي حققتها الهرطقة المذكورة اكسبتها اوجها وآفاق ولواحق جديدة جددة الوضعيات التي مرت بها ؛ ومن ذلك - مثلاً - أنها في احدى صيغها اللاحقة اكتسبت اسم «اليعقوبية» نسبة الى يعقوب البردعي ، مؤسسها وأهم اساقفتها في القرن السادس^(١) .

كانت الفرق الثلاث ، التي جعلنا منها فيما سبق موضوعاً لمبضع بحثنا وهي الأريوسية والنسطورية والمنوفيسية ، أهم ما انبثق عن المسيحية اليسوعية المفهومة هرطقياً (خوارجياً) ، وفي نفس الحين أهم ما انتشر في سورية ومصر والعراق من تيارات واتجاهات دينية ، في حينه . وعلى هذه الطريق ، كان لها أن تمارس تأثيراً كبيراً في تكوين وبلورة الفكر الديني في هذه المناطق ، وبصورة أضعف في مناطق عربية أخرى ، مثل الحجاز . ولا بد من التنويه - مسبقاً وبصيغة عجي - بأن هذه

(١) انظر حول ذلك : أسدرستم - كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ ؛ وكذلك : الأب بطرس صو - تاريخ الموارنة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٦٠ .

الفرق أثرت في الاسلام المحمدي بنحورين اثنين رئيسيين . الأول منهما تمثل في تسربها الى الحجاز قبل نشوئه بطرق التجارة والتبادل الثقافي المباشر وغير المباشر . أما النحو الثاني فقد تجسد في لقاء الفرق المذكورة للاسلام نفسه بعد نشوئه واثناؤه في البلدان الثلاثة الأولى حين دخلها العرب المسلمون . ففي سورية سادت الأريوسية الملكية والمنوفيسية اليعقوبية ؛ وفي العراق كانت السيادة الكبرى للمنسطورية ، وظلت قائمة هناك حتى بعد الدخول العربي الاسلامي . أما في مصر فقد أثرت المنوفيسية اليعقوبية عن تأسيس كنيسة قبطية ماتزال قائمة ومهيمنة حتى الآن^(١) .

ان ذلك ، جميعاً ومجتمعاً ، يجعلنا نرى في تلك الفرق الثلاث البنية الايديولوجية الدينية الأساسية ، التي اسهمت ، على نحو غير مباشر وباتجاه مستقبلي ، في تهيئة الفئات والطبقات الاجتماعية في البلدان المذكورة آنفاً للنظر الى الاسلام ، الدين الجديد ، على أنه ، على الأقل وبهذا القدر أو ذاك ، امتداد ديني لها . بيد أنه يبدو أن التأثير الأكبر والأعمق في نشوء الاسلام المحمدي في القرن السابع لم تمارسه تلك الفرق الثلاث ، من حيث هي ومن مواقعها المباشرة ، وليس كذلك «المسيحية اليسوعية» عموماً واجمالاً . فبحسب بعض الدراسات الحديثة ذات الطابع اللاهوتي العلماني المستنير ، هنالك مصدر آخر للاسلام المعني يعتبر ذا أهمية خاصة على هذا الصعيد ؛ ذلك هو التيار «النصراني» . مع العلم ان وجود هذا الأخير لم يكن لينقض ، في تأثيره في الاسلام ، تأثير تلك الفرق فيه ، أو ليخفف منه . ان الأمر يتمثل بعملية واحدة باوجه متعددة ، برز منها وفي اطارها التأثير «النصراني» المنوه به . ولن نسير بهذه المسألة إلى الأمام على صفحات هذا الكتاب ، لأن الجزء التالي (الرابع) من «مشروع الرؤية الجديدة» سيجد من مهماته الأساسية والكبرى ملاحقة هذه المسألة .

(١) انظر في ذلك : الاستاذ الحداد - القرآن دعوة نصرانية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٢ ؛ وكذلك

T.J. de Boer- Geschichte der Philosophie im Islam, * a.a.O., S.19.

ثانياً -

باتجاه ما أنتهينا إليه

لا شك أن سؤالاً كبيراً ومركزياً سوف يعلن عن نفسه بعد إذ قمنا بالبحث في اليهودية والمسيحية على نحو ما قمنا به ؛ ذلك هو : هل ثمة ما يمكن قوله على الصعيد الموقف الذي بلغنا ضفافه واخترقناه - كما نزع - عمقاً وسطحاً ؟ ان الاجابة عن مثل هذا السؤال من شأنها أن تثير أطروحة الانتقال من الخاص إلى العام ومن هذا الأخير إلى خواص أكثر تدقيقاً وعميقاً . ولنا أن نعني بذلك أن بحثاً علمياً في تاريخ الدين (وفي أي موضوع آخر) لا بد أن يوصل إلى بعض النتائج المعممة كثيراً أو قليلاً ، تلك النتائج التي ، بدورها ، لا بد أن تفتح آفاق أو احتمالات آفاق لأبحاث جزئية لاحقة تستطيع أن تقود ، كذلك ، إلى نتائج أخرى تضع أيدينا على كثير أو قليل من العناصر المعممة على الصعيد المعني . وقد تكون بعض النتائج التي جرى التوصل إليها - في هذا الكتاب - قاصرة أو لا تغطي رقعة البحث المطروح إلا بحدود جزئية . نقول ، ان حالة مثل هذه لا بد أن تكون بمثابة المحفز على مزيد من البحث في مشكلات التاريخ الديني عموماً وخصوصاً . ومع ذلك ، نعلن عن أن ما قدمناه في هذا الكتاب لعله يشكل - في اجماله وعمومه - أطروحة أولية في الحلقة الكبرى من التاريخ الديني الممتدة من «يهوه الى الله» . وهذا يعني ، ضمناً ، أن هذه «الأطروحة» هي محاولة للإجابة عن المشكلات الكبرى لتلك الحلقة ، في وجهها العام . وحيث يكون الأمر كذلك ، فإن نتيجة أساسية تترتب عليه وتتولد منه ، وهي أن دراسات جزئية عديدة ومتنوعة لا بد أن تتبعه بغية الاغناء عمقاً وسطحاً لكثير من الجوانب والأوجه التي لم تُتناول إلا بما يستجيب لمقتضيات هذا البحث العام .

ونرى أنه من الضروري تعميق هذه الفكرة الأخيرة أكثر لأنها تمثل وجهاً منهجياً هاماً من أوجه البحث الذي انجزناه هنا . فهذا الأخير إذ وضع نصب عينيه تقصي الآلية أو الآليات القانونية الكبرى الذي حكمت حركة التحول والتطور في

التاريخ الديني ، لا يعود يجد نفسه مدعواً إلى استقصاء «الخاص» و«الجزئي» إلا بقدر ما يكون ذلك مستجيباً لـ «العمومية» المهيمنة فيه . وهنا ، تبرز مسألة الوجه الوظيفي من هذه العملية البحثية . فذبتك الخاص والجزئي لا بد وأن يطرحا وظيفياً في علاقتها بالعمومي . وليس في ذلك ما يسيء إلى دقة المنهج وصرامته ، وإن كان يحمل في طياته الكثير من عناصر الاجحاف بحق ذلك الأخير (العمومي) . وجدير بالتنويه بالجانب التالي الخطير الأهمية ، في هذا المعقد من المسألة ، وهو أن التمسك بذلك الوجه الوظيفي لا يجوز أن يقود إلى خلطه بالوجه البنيوي من العناصر الخاصة والجزئية . نعتي بذلك أن توظيف الخاص في سياق العام ومن موقعه وباتجاهه يمكن أن يتحول إلى جهد مسيء وضار فيما إذا أدى إلى ابعاد هذا العنصر أو ذاك منه ، من الخاص ، وذلك باسم مطلب علمي مزعوم يقول بـ «ضغط» هذا الخاص و«تطويعه» تعسفاً لاحتياجاته . ولكن هذا جميعاً ليس بوسعه أن يعني أن الوجه البنيوي المعني يمكن ، في هذه الحال ، في حرز حرز أمين حيال البحث في «العام» و«الخاص» - الجزئي . ذلك لأن الأول (العام) ليس هو ، في حصيلة الموقف ، إلا جماع الخواص الأجزاء ، أي جماع ما ينتظمها ويوحدها ويخترقها في الأساس . وإذن ، فنحن في هذا المبحث لا نزعم أننا أجبننا عن «كل» مشكلات التطور الديني من يهوه إلى الله . بل إن مثل هذا الزعم يغدو وهماً وضلالاً من شأنهما تصديق المقدمات والمتن والتائج ، التي جعلنا منها هنا أقتية لبحثنا الذي نقرأ فيه .

من موقع ذلك التوجه المنهجي ، نشير إلى أن البحث الذي انجزناه ، هنا ، تمكن ، من حيث الأساس ، من اسقاط الوهم الايديولوجي الذي قام عليه الدينان اليهودي والمسيحي (وغيرهما من الأديان) ، وهم أن كل واحد منهما يمثل بنية «ربانية متفردة» جبت وتجب ما سبقها وما يلحقها . فلقد بحثنا في الشرط الاجتماعي الشخص لنشوء وتحول وتطور الظاهرة الدينية في صيغتها اليهودية والمسيحية ، متبينين - في ذلك - الجذور البعيدة ، على الأقل - التي كمنت وراءها ورافقتها وحفزتها . ولم نغفل إطلاقاً ما تشكل في نطاق «العالم الذهني الديني الخاص» ، الذي وإن ظهر في حالات عديدة مستقلاً عن ذلك الشرط الاجتماعي ، إلا أنه ظل يفصح - بأشكال مختلفة - عن كثير من النقاط التي أثارها والتي اخترقت من قبل هذا الأخير . وينبغي أن يؤكد في هذه الحال على أن كلاً من اليهودية والمسيحية حققنا

حداً معيناً من الخصوصية ، التي لا يمكن أن تفهم الواحدة منها بمعزل عنها . وقد كان بحثنا ، بأحد معانيه وفي إحدى مهماته ، تقصياً لهذه الخصوصية . ومن طرائف البحث ودقائقه أن يُكتشف أن الخصوصية المعنية والمتعلقة بكل نسق ديني هي وجه ضيق لخصوصية أوسع تشمل كل الأديان ؛ بحيث يغدو القول صائباً بأننا إزاء خصوصية عامة أو عمومية خاصة . أما ما نعينه بذلك فيقوم على أن «التصورات الدينية تتضمن شرطياً محاولة الانسلاخ من التاريخ العياني المشخص ، بحيث تنشأ ، عبر ذلك ، هوة بين ما يعتقد المرء وبين ما يفعله . فما يمكن أن يكون ، في هذا الإطار ، ايجابياً ، يكمن - بشكل جوهري - في الممارسة العملية التي يحققها المرء الأخذ بتلك التصورات . أما هذه التصورات نفسها ، فلإنها طريق معبد لانسلاخ الانسان عن اللحظة التاريخية العيانية التي يعيشها»^(١) .

ونود أن نضيف إلى أن تلك «الخصوصية العامة» المتمثلة بمحاولة الانسلاخ المعني تبقى ، في كل الأحوال ، ذات نسيج مشخص (عياني) ، أي مرتبطة بالشرط الاجتماعي المشخص الذي تعيش في ظلاله وترتفع عنه وعليه وتحايثه ، نسبياً . ولما كانت الخصوصية العمومية المذكورة مشخصة دائماً ، فلإنها تفقد من عموميتها هذه لتبرز متفردة بدرجة أو بأخرى . وهنا ، بالضبط ، يصبح وارداً أن نسقط تلك الصفة التي الحقناها بها ، وهي كونها «عمومية» . وهكذا ، نجد أنفسنا أمام هذا الدين أو ذاك وليس أمام الدين عموماً . وبتعبير أكثر تحديداً يمكن القول بأن اللحظة الماورائية في الأديان جميعاً تمتلك خصوصيتها المشخصة بالنسبة إلى دين بعينه .

من هذا الموقف وفي ضوءه ، نستطيع الايغال في مزيد من التدقيق في الوهم الايديولوجي الديني المنطلق من أن كل دين يجب ما قبله وما يلحقه ، حيث نعلن أن وهم «الجب» هذا لا يصمد حتى على صعيد الحقل الأكثر تجريداً في الأديان العامة . فلقد لاحظنا أن تشخيصية هذا الحقل تظل تعني خضوعه للشرط الاجتماعي المشخص ، بحيث نتبين أن المسألة لا تخرج عن كونها سياقاً تاريخياً وتراثياً . وهذا ، بدوره ومن موقعه ، يقود إلى اسقاط الاطروحة الدينية الشهيرة القائلة بأن الدين أو

(١) طيب تيزيني : مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط - المرحلة الأولى ، دار دمشق ، دمشق ، ص ١٥٦ .

بالأحرى التدين «أصل فطري» في الإنسان . ان هذه «الفطرة» لم تعد تعني شيئاً ضمن ذلك الموقف المنهجى التاريخي التراثي - ناهيك عما قدمته بعض العلوم الانسانية على هذا الصعيد من نتائج كبرى مثل علم النفس الفردي وعلم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع العام وعلم التاريخ الثقافى والانتروبولوجى وغيره . . وإذا كان «التدين» قد سبق «الدين» تاريخياً ، فان ذلك لا يجرّد المسألة من حدها الشخص ، بقدر ما يضع أمام هذا الأخير مهمات أكثر تدقيقاً وربما صعوبة وإشكالية وتشخيصاً .

وثمة أمر لعله يعمق المسألة التي نعمل على استنطاقها من الداخل . تعني بذلك أن البحث الذي انجزناه ، في حدود هذا الكتاب ، تناول اليهودية والمسيحية ببعدين اثنين ، تاريخي وتراثي . وإذا قلنا ان التراث هو التاريخ مستمراً في الحاضر ومتداخلاً فيه ومتشابكاً به ، فأننا نكون قد درسنا الدينين المذكورين في سياقهما التاريخي وفي امتدادهما التراثي الذي أطل على بواكير القرن السابع ، أي العصر الذي سينشأ فيه الاسلام المحمدي . وفي ضوء هذا التوجه التاريخي والتراثي ، كان علينا أن نخترق ذينك السياقين للدينين المعنيين بمحاولة الاحاطة بهما في البنية والوظيفة اللتين افصحنا عن شخصيتهما عبرهما . ومن أجل ضبط الحدود بين المفاهيم التي نستخدمها هنا ، لعلنا نذهب إلى أننا نقابل بين فئتين منها . الفئة الأولى تتمثل بـ «التاريخ» و«التراث» ، في حين أن الثانية تشمل على «البنية» و«الوظيفة» . ان مقابلتنا بين هتين الفئتين هي مقابلة الافقي بالعمودي ، بحيث نقول ، ان التاريخ والتراث يحيطان بالحدث الاجتماعى في بعده الافقي ، بينما تمتلك البنية والوظيفة بعده العمودي . وإذا ما انطلقنا من أن تقابل تينك الفئتين من المفاهيم هو تقابل جدلي (تضائفي) ، فإنه - في هذه الحال - لا بد أن نتبين المسألة في وجهها الآخر: ان يكون التاريخ والتراث إحاطة بالحدث الاجتماعى في بعده العمودي ، بحيث تصبح البنية والوظيفة إحاطة ببعده الأفقي . وهنا ، ثانية ، نواجه الدين - اليهودية والمسيحية تحديداً - وقد أفصح عن نفسه بمثابته منظومة من المنظومات الذهنية الانسانية التي تمتلك منطق نشوئها وتبلورها وتحولها وانخراطها في منظومات ذهنية أخرى ضمن شرط اجتماعى مشخص ؛ كما نواجهه وقد أعلن عن نفسه من حيث هو بعد من ابعاد الحياة الانسانية ، التي تخضع للنشوء

وللتغير البنيوي والوظيفي ضمن شروط جديدة ، وكذلك لافساح الطريق جزئياً أو كلياً أمام منظومات ذهنية أخرى . ولكن ما يعقد البحث في هذه المسألة ، حقاً ، هو - ضمن أمور أخرى - إشكالية النص الديني في حالات عديدة ، أي عدم قدرة الباحث على اختراقه بالاعتبارات التاريخية والتراثية والبنوية . وهنا ، يغدو الباحث أمام ضرورة اللجوء إلى الترميم التاريخي والتراثي والبنيوي . ولكن هذا غالباً ما يقود إلى «نص جديد» يحول دون الإمساك بالحلقات الأساسية للمسألة المطروحة . ومن هنا ، كان أمراً على غاية الصعوبة والدقة الوصول إلى «الأصل» أو ما يقترب منه . وقد لاحظنا ذلك أثناء البحث بأشكال ليست نادرة . وكان هذا بمثابة إحالتنا إلى «القراءة المركبة» للنص الديني - اليهودي والمسيحي - ، تلك القراءة التي من شأنها أن تخفي الكثير من عناصر الحقيقة التاريخية أو أن تقلل من نفاذها أو أن تحرفها عن سياقها الذي غمت فيه وتبلورت . ومن هنا ، كانت الأهمية الخاصة للكشوف الجديدة التي تتم على صعيد التاريخ الأركيولوجي الديني ؛ لأن من شأن ذلك أن يلقي أضواء على نقاط عديدة مازالت معتمدة في الحقل المذكور .

ويبقى أن نقول ، أن انجاز مهمات البحث العلمي في تاريخ الشرق الديني تحولت في العقود القليلة الأخيرة إلى أمر بالغ الحساسية الأيديولوجية والاشكالية المنهجية ؛ هذا بالرغم من اتساع آفاق ذلك البحث . أما السبب أو أحد الأسباب الكامنة وراء ذلك فيقوم على تعقد الظاهرة الدينية من موقع ما يستجد من «أحداث دينية» في مجموعة من البلدان هنا وهناك .

وإذا فتوقف في هذا الكتاب عند هذا المنعطف ، فإننا في أجزاء تالية سنعمل مبضعنا باتجاه الظاهرة الدينية الجديدة ، الاسلام المحمدي ، تلك الظاهرة التي غدت - الآن و ببعض الاعتبارات وفي بعض المناطق - «مألثة الدنيا وشاغلة الناس» .

ثبت بمواضيع المجلد الثاني من
«يهوه الى الله»

الموضوع	الصفحة
هذا «المجلد الثاني» من «يهوه الى الله»	٥ - ٦
القسم الاول	٨ - ٣٥٨
المسيحية (اليسوعية) في بنيتها العقيدية وسياقها التاريخي والاجتماعي	
الفصل الاول : من اليهودية الى المسيحية ، ومن «الغويم	٩ - ١٥
الى الأمم» : يسوع الفادي ويوم «الدينونة»	
١ - المسيحية بدون «مسيح تاريخي»	٩ - ٢٣
٢ - «رؤيا يوحنا» المشروع الاولى للمسيحية	٢٤ - ٥٧
٣ - من يوحنا الرؤياوي الى يوحنا المعمدان أو من المشروع الاولى	
للمسيحية الى تحققها	٥٨ - ٨٥
٤ - «المسيح» بين البنية الانسانية والبنوة الالهية : الطريق سالك	
الى «المسيح البولسي» بعد تصفية الخصوم	٨٦ - ١٢٣
٥ - إشكالية الاناجيل «القانونية» وعلاقتها باليهودية : ١٢٤ - ١٥٤	
انتقال من «أهمية» تحريضية تبشيرية الى «أهمية» دولية تكريسية	
الفصل الثاني : البنية الداخلية للمسيحية من مواقع نصوصها «القانونية» وأبعادها	
الوظيفية	١٥٥ - ٣٥٨
١ - متى : يسوع المسيح بين مأساة «القادم المؤجل» والأمر الواقع	
الكنسي	١٦٠ - ٢١٢

- ٢ - مرقس : من المطلق البدئي إلى الناجز عبر التاريخ ٢١٣-٢٤٣
- ٣ - لوقا : العهد الجديد المضمخ بدم الرب ، وتحول من عبث الطبيعة إلى خصب «التجربة الداخلية» ومن هذه إلى تلك ٢٤٤-٢٦٩
- ٤ - يوحنا : «من آمن بي وإن مات فسيحيا» أوجدلية الملهاة المأساة بين الواقع والحلم ٢٧٠-٢٨٢
- ٥ - بين الاعجاز والحكمة من طرف و«الأمية الأبجدية» من طرف آخر ٢٨٣-٣٠١
- ٦ - الدور الحاسم لبولس في صوغ المسيحية اليسوعية : هل هذه المسيحية هي البولسية ؟ ٣٠٢-٣٥٨

القسم الثاني :

- أولاً : المؤسسة المسيحية الكنسية في مواجهة الهرطقات ٣٥٩-٤٥٤
- ١ - الاريموسية : الكنيسة الأم ليست «جسد المسيح» أو المسيح الاريموسي الانساني ٣٥٩-٤١١
- ٢ - النسطورية وتأويل النص : من «الاله المصلوب» إلى «الانسان المصلوب المخلص» ٤١٢-٤٢٩
- ٣ - المنوفيسية والفعل ضد الفعل : صيرورة الانسان إلهاً متعالياً على الكنيسة ومحايثاً للانسان ٤٣٠-٤٤٩
- ثانياً - باتجاه ما انتهينا إليه ٤٥٠-٤٥٤

